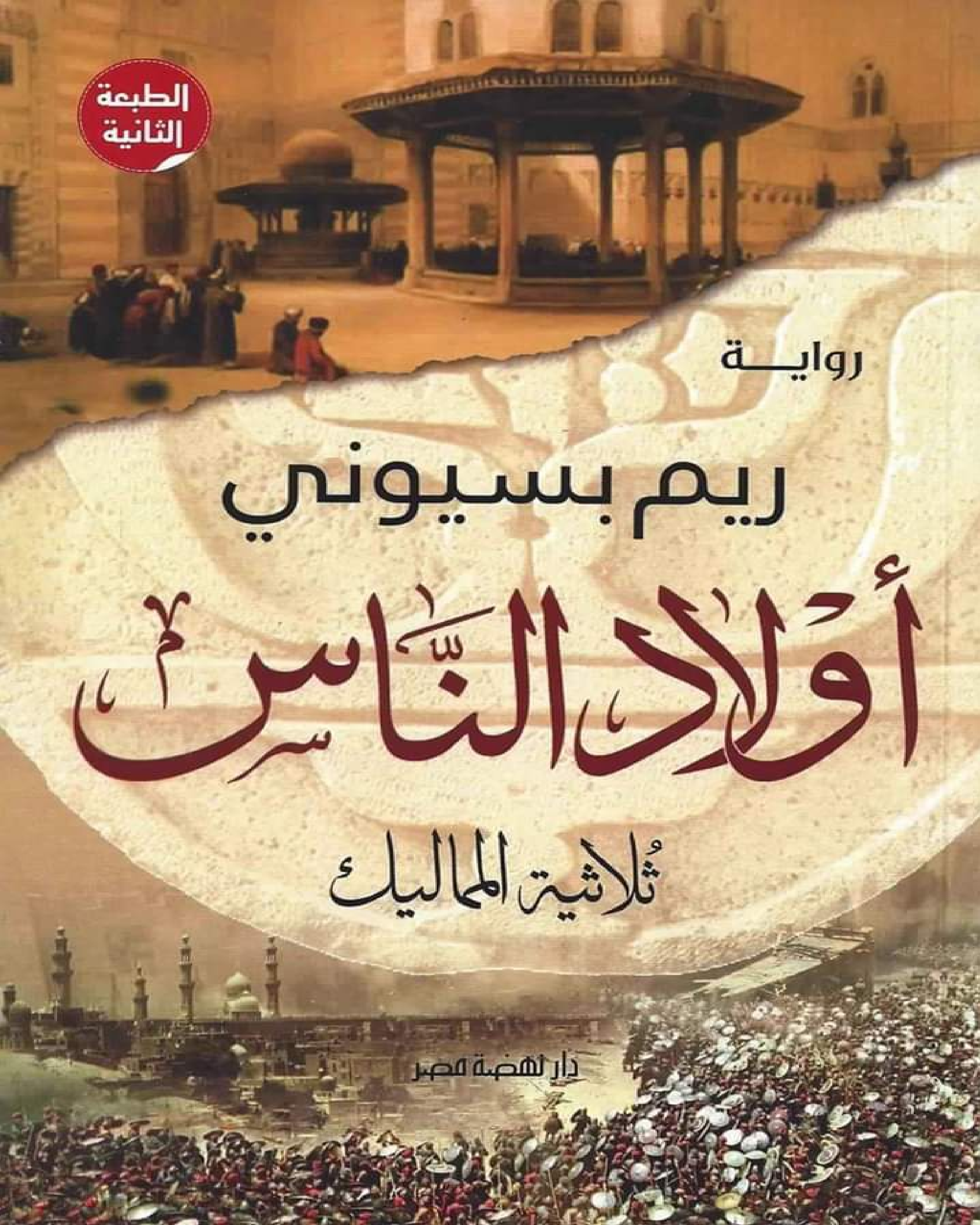

الطبعة
الثانية
رواية
ريم بسيوني
أولاد الناس
ثلاثية المماليك
دار نهضة مصر

ريم بسيوني

أولاد الناس

ثلاثية المماليك

تأليف: ريم بسيوني

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

بسيوني، ريم،

أولاد الناس: ثلاثية المماليك

ريم بسيوني-الجيزة: دار نهضة مصر للنشر ، 2018

760 ص ، 14,5 سم

تدمك: 9789771456544

1 - القصص العربية

أ - العنوان



21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

الترقيم الدولي: 978-977-14-5654-4
رقـــم الإيـــداع: 2018 / 11705
الطبعـــة السابعـة: ينايـر2020

تليفـــون : 33466434 - 33472864 02
فاكـــــس : 33462576 02

خدمة العملاء : 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

أولاد
الناس
المماليك:
الحكاية
الأولى

على هامش الرواية

استمر اسم المهندس الذي صمَّم وشيَّد مسجد السلطان حسن في القاهرة مجهولًا حتى عام 1944م، عندما عثر الأثري حسن عبد الوهاب على نص في طراز جصي بالمدرسة الحنفية داخل المسجد يذكر اسم السلطان حسن بجانب اسم مُشيِّد العمائر الذي شيد المسجد، وكان اسمه محمد بن بيليك المحسني، من أولاد الناس.

«أتساءل دائمًا: ماذا يحدث لأولاد الناس في هذه المدينة؟ هل يتوهون بين أروقتها وينصهرون بين بقية الناس؟ هذه المدينة غريبة. تبتلعك كالنهر، وتفقدك الذاكرة والهدف. كلنا فيها مجاذيب!».

فاطمة

2005م

زيارة والدها في مصر كانت دائمًا حملًا على عاتقها، منذ سن المراهقة، ولكنه اليوم يحتضر، فالزيارة ضرورية، ليس فقط من أجل الإرث، بل من أجل الوداع وسماع النصائح الأخيرة. تحمُّل غبار القاهرة ساعات ممكن في هذه الحالات. منذ رحلت مع أمها في الخمسينِيَّات إلى إيطاليا لم تزر مصر إلَّا مرات قليلة. تبخر الأب من طفولتها، وبقي في بلاد الغبار بلا وداع ولا شرح، تركها غاضبة ولم يهدأ الغضب منذ حينها، والآن حياتها هناك وأولادها هناك. لم تعد مصر سوى ذكرى بعيدة لم يتبقَّ من ملامحها سوى بعض الصخور والأعمدة، ولم يكن والدها قط سوى رجل تسمع عنه القصص البائسة من أمها، رجل يفضل الأعمدة والصخور على البقاء معها وحولها، ولطالما ردَّدت والدتها في بؤس أنه رجل أضاع حياته باحثًا عن حلمه، وفي الأثناء اختلط في عقله الثمين، ولم يدرك قط قيمة الأشياء، هكذا رددت والدتها، أما هي، فلم تسامحه وهو بكامل صحته، ولن تسامحه لمجرد أنه يُحتضر؛ فالموت لا يغفر الذنوب، بل يعجل بالحساب.

عندما دخلت المستشفى كان جالسًا على سريره يقرأ بعض الأوراق، قبلته في فتور، ثم سألت عن حاله، وأعطته القارورة الزجاجية التي اشترتها له بخمسين دولارًا الصيف الماضي، قال وهو ينظر إلى القارورة الزجاجية: من أين أتيت بها؟

فقالت وهي تتوقع نقده وتستعد له: من فينيسيا، قلت لي من قبل إنك تحب الزجاج.

قال في شيء من الحماس: أعشق الزجاج، وأعشق زجاج فينيسيا، ولكنها رخيصة مثل كل شيء حولك.

قالت في غضب: حولي هنا؟

- حولك هناك.

- تنتقد وتأمر كعادتك، لا بد أنك بخير يا أبي.

صمت لحظات، وكأنه لا يسمعها، ثم سأل السؤال المعتاد: متى تعودين إلى مصر؟

وأجابت الإجابة المعتادة: لا عودة لي لمكان لا أعرفه. عشت فيه سنين قليلة.

وأجاب نفس الإجابة المعتادة: ستندمين، وستعرفين.

لم تفهم كلماته قط، ولا لماذا يأتي الندم قبل المعرفة وليس بعدها.

قالت وهي تربت على يده: ستكون بخير يا أبي.

التقت أعينهما برهة، ثم قال: دومًا نبغي الرضا، والوصول مستحيل، ظننت أنني بانتهاء مهمتي وتكملة الطريق إلى الحقيقة وكتابة نهاية القصة سأشعر بالراحة ولو أيامًا معدودات، وعند الوصول وانتهاء الطواف حول الهدف يأتي فراغ النفس وحسرتها على الانتهاء، اللهفة أهون من الوصول، والتوق إلى المستحيل يملأ النفس شغفًا ولا يفرغ منها العيش. وصلت إلى النهاية والفراغ لم يمتلئ، مثلك يا ابنتي.

لم تفهم كلماته، ولكنها قالت مسرعة: أنا سعيدة في حياتي.

- بل لم تذوقي طعمًا للفرح.

قالت في مرارة: وكيف لك أن تعرف، وحياتك تملؤها كتبك العلمية وأبحاثك فقط؟

- مرارتك تنسكب من كلماتك يا ابنتي، ومن حقدك وغضبك. تركتِ زوجك، أليس كذلك؟ على كلٍّ أنا لا أكتب الأبحاث فقط بل القصص أيضًا، انتهيت منها منذ بضعة أيام، كانت حلمًا وبحثًا وحياة، تركتني بهوة في النفس لا يملؤها إنسيٌّ ولا جنيٌّ، لن تفهميها ولن تدركيها.

- تتكلم عن نفسك من جديد، ظننتك تهتم، ولو بالكذب، بحالي وحال أحفادك.

لم يسمعها، قال في شرود: في عام أربعة وأربعين ناداني أستاذي الدكتور حسن لأرى ما وجد، وأشاركه الاكتشاف، أساتذة الماضي مختلفون عن أساتذة اليوم، كان يريدني أن أبحث وأفهم، بحثت وفهمت، قضيت الوقت في البحث، الكثير من الوقت.

نظرت إليه ولم تفهم، هل يهذي، هل يحتضر؟ أم يبوح بسر خطير؟ ياسمين. خذي هذه الأوراق وانشريها، اكتملت الرواية، هي ليست رواية، هي قصة حقيقية. لديَّ كل الدلائل والتفاصيل، اذهبي أولًا إلى مسجد السلطان حسن في قلب المدينة، وابحثي عن الاسم، لم يعرفه أحد من المؤرخين طوال الأعوام الماضية حتى اكتشفه دكتور حسن في أحد أركان المسجد، محمد بن بيليك المحسني كان المهندس الذي بنى المسجد ولم يكن من المماليك، كان من أولاد الناس. هل تفهمين أهمية هذا الاكتشاف؟ قضيت عمري أبحث. ذهبت إلى قرافة المماليك، رأيت بقايا المسجد والأسماء على المقابر، رأيت مخطوطة المصحف في دار الكتب، لم تزل هناك، وجدت كل شيء.

- ها أنت تتكلم عن أبحاثك من جديد، أبي. ليس لدي وقت؛ لهذا سأعود غدًا.

- هذه وصيتي الأخيرة. انشري الرواية، واذهبي إلى المسجد، وابحثي عن الاسم في أركانه، موجود، لم يزل موجودًا كالمدينة التي تبتلع وتصهر وتبدع وتُبعَث كل يوم.

نظرت إليه، ولم تجب.

قال في أسى: لن تذهبي، أعرف، خذي هديتك معك إذن يا ياسمين. حرمتني من رؤية حفيدتي، تعرفين.

قالت في برود: طلبتُ منك زيارتنا في إيطاليا ورفضت.

- لا أحب مشاهدة البؤس والخداع.

- أي بؤس وأي خداع؟!

- بؤسك أنت وخداع البصر من حولك. لا بأس.

ثم أكمل في حماس وصوت مبحوح: عند دخولك البيت ستجدين مشكاة من فينيسيا، مصنوعة من زجاج المورانو الأصيل، أصالتها لا يفهمها سوى الباحث والعالم، وتاريخها منا وبنا، أغلى من قارورتك بكثير، أعطها لحفيدتي جوزفين هدية. وانشري الأوراق.

أعطاها الأوراق. لم تنشرها قط. ولم تنفذ وصيته، ولكنها أعطت المشكاة والأوراق لابنتها قبل موتها بعد اثنى عشر عامًا، نشرتها ابنتها بعد ذلك مباشرة. وها هي.

الباب الأول
غزوات

« في الإبداع فناء، وفي خروج المارد موت بطيء للقلب وفجوة للنفس. وفي بلوغ المراد مرارة الوصول وانتهاء الطريق».

شاد العمائر

الفصل الأول
1309 م

هذا الحدث الجلل كان يمثل سابقة خطيرة وغير مألوفة.

اجتمع التجار والعلماء لمناقشة الأمر والبت فيه. وخطورة الأمر جعلت الاجتماع مغلقًا وكل من يدخل الحجرة من الموثوق في ولائهم وإخلاصهم وتدينهم. فلو وصل خبر الاجتماع للمماليك فسيحدث ما لا تحمد عقباه، ومع أن التاجر أبا بكر معروف بسيرته السمحة وعطائه السخي وأصدقائه الكثيرين، كان بداخله يخاف بطش المقاتلين، فالقتل عندهم سهل ومستساغ، وقطع الرأس أسهل من السلام والمصافحة! وما يهز وجدان التاجر ليس الخوف من موته هو، ولكن من موت أعز شيء إلى قلبه.

قال كبير التجار في لوم لأبي بكر: لم تربِّ ابنك ولم تعلمه. هذا جزاء الغطرسة والكبرياء.

ثم قال الشيخ عبد الكريم في رفق: للشاب الصغير أهواؤه ولتهذيب النفس موعد ومكان. والله غفور رحيم. نفكر في حل، في طريقة للخلاص.

قال التاجر أبو بكر: ابني الوحيد، كل ما تبقى لي بعد الوباء، مات أولادي التسعة ولم يتبقَّ إلا هو وأخته. اختفى من على وجه الأرض. لو لم يكن هذا ظلمًا فما هو الظلم؟

قال الشيخ عبد الكريم مسرعًا: لا تسئ الظن بالخلق ولا تتسرع، ولا تأمن هذا المجلس، كلمة ظلم لها عواقبها الآن، وإذا اختفيت أنت أيضًا مع ابنك فمن يتبقى لابنتك وزوجتك؟ اهدأ واقرأ ما تيسَّر من القرآن. الحل موجود إن شاء الله. والأمير محمد ليس كبقية الأمراء. على الأقل يتكلم العربية ويجيدها.

قال الأب مسرعًا: هو أسوؤهم على الإطلاق. فليحترق في نار جهنم!

تبادل الحضور النظرات في خوف، ثم قاموا جميعًا للانصراف، فقال أبو بكر في ترجٍّ للشيخ عبد الكريم: لا تتخلَّ عني يا شيخ.

رَبَّتَ عبد الكريم على يده، وقال في هدوء: كلماتك أخافت الحضور. تَوَخَّ الحذر يا أخي، لم أعهدك هكذا.

- هو ابني يا شيخ!

- لا تيئس من رحمة الله؛ لم تسمع خبر موته بعد.

بدأت مأساة أبي بكر في صباح نفس اليوم المشئوم.

بعد الوباء تبقى لأبي بكر ولد وبنت: أحمد وزينب، بعد أن شهد موت جميع أولاده، الواحد تلو الآخر، وهرب بطفليه إلى الصحراء، ومكث بها شهورًا مترقبًا وخائفًا وتاركًا بضاعته والخان وكل القاهرة.

عندما عاد إلى القاهرة بدأ حياته من جديد، وفتح الخان، وعاد العمر إلى صوابه، وبدأت تجارة الحرير تزدهر وأقمشته تشتهر مرة أخرى، وعاد كما كان من أشهر تجار القاهرة، وأغناهم. كان يجامل الأمراء، ويدفع الضرائب، ويهاود كل السلطة وأصحاب النفوذ. واستقر عالمه، وأصبح طفلاه هما كل ما يريد في الدنيا وكل سعادته.

أحمد كان شديد الطيبة والسذاجة، لم يتمرس في الحياة،

ولم يتعلم تجارة والده. حاول الأب ولم يستطع أن يسقيه العلم غصبًا وعنوة. أما ابنته زينب فكان يجدر بها أن تكون هي الولد. ذكاؤها وفصاحتها فاقت فيهما الجميع. تعلمت وامتصت الكتب امتصاصًا، كتب الفقه والجبر وكل ما تقع عليه عيناها، فضولها وحيويتها جعلاها قرة عين والدها، ولم تفهم أمها هذا التمرد في شخصيتها ولا تصرفات الرجال التي تتقنها، كانت تراجع حسابات الأب وتنصحه لو وقع في مشكلة، وكانت صديقته المقربة وهي لم تزل دون الثامنة عشرة، وزفافها كان بعد أسبوع على ابن عمها يوسف، وهذه مأساة أخرى، فيوسف أيضًا اختفى مع أحمد.

عندما طلب الأب من ابنه أن الأفضل يصطحب أخته إلى الخان؛ لتختار بعض الحرير، وتشتري بعض الأغراض من أجل جهازها، طلب الأب من ابنته في الخفاء أن تراجع حسابات الخان دون أن يلاحظ أحمد. هزَّت رأسها وقالت في قوة: أوامرك يا أبي.

خبر خروجها اليوم للخان وصل إلى خطيبها وابن عمها يوسف كما أرادت وكما خططت، يوسف هو حبيبها منذ الطفولة، وعندما توقفت عن اللعبِ معه كانت تعرف أنه من نصيبها وأنه قدرها الجميل. كان ملاكًا في شكله وأخلاقه وحلم كل البنات من حولها، لقاءاتهما كانت قصيرة وكلماتهما بعد سن الطفولة كانت مقتضبة، ولكنها تحمل كل الشوق والحب.

كانت تنتظر قدومه وتلاحظه من نافذتها، وتراقبه من بعيد، وكثيرًا ما شعر بها فابتسم لها في حنان، ومرَّة قبل يده وألقى القبلة على نافذتها فذاب القلب ولم تنم ليلتها.

تأجل زواجهما سنتين بسبب الوباء والموت اللذين حاصرا عائلته وعائلتها.

والآن لم يتبق إلا القليل، وتكون له هو فقط، زوجته، تحيا في داره وتضحك معه، وتلهو كما كانا يفعلان في الماضي. بل ستستطيع لمسه وعناقه وأكثر.

قلبها كان فرحًا طوال الطريق القصير إلى الخان. وما إن وصلت حتى أحكمت خِمارها حول وجهها، وبدأت في مراجعة الحسابات وهي تترقب وصول يوسف. كان أخوها يتكلم مع التجار ويقف خارج الخان في زهو وثقة بمستقبله المشرق وحياته المستقرة.

وجاء يوسف، ودخل الخان بعد أن صافح أحمد وعيناه تبحثان عن عروسه وكل ما يحلم به. التقت أعينهما، فابتسم وقلبها يختلج من الفرحة، وقال وهو ينظر إلى خارج الخان: زينب. لم يتبق إلا أسبوع.

قالت في صوت خافت: أعرف.

- أحبك يا بنة عمي. تعرفين كم أحبك؟

طأطأت رأسها وأزاحت الخِمار بعض الشيء وهي تنظر إليه وقالت: كم تحبني؟

التفت حوله، كان أحمد يتكلم مع رجل في حماس ولا يكترث بهما، فأمسك بيدها في شجاعة وقوة، وقال: أنت كل ما تمنيته في حياتي.

أبعدت يدها في ارتباك ثم قالت: لا بد من الصبر.

- صبري نفد منذ وقعت عيناي عليك، منذ زمن طويل، جمالك يكتب في الأشعار. لم أر مثله لا في بلاد الشام ولا في الشراكسة.

قالت في دلال: وكم بنتًا رأيت؟

- عيناي لا تريان غيرك. أمسكي بيدي مرة واحدة.

ترددت قليلًا ثم مدَّت يدها، فهم أن يمسك بها، ولكنه سمع

صوتًا عاليًا خارج الخان، فالتف إلى أحمد وكان يتكلم في حدة مع جندي مملوكي.

اتجه إليه يوسف مسرعًا، وأحكمت هي الخِمار حول وجهها، وتقهقرت داخل الخان وهي تتابع ما يحدث في الخارج.

قال أحمد في زهو: أنا ابن أبي بكر، لا يمكنك الكلام معي هكذا. إمَّا أن تشتري الحرير وإما أن ترحل.

نظر إليه الجندي في ذهول وفزع، والتفت إلى زميله ويوسف يفتح فمه في خوف، ثم أمسك الجندي المملوكي بقطعة الحرير وأخرج سيفه وشطرها نصفين، ونظر إلى أحمد في تحدٍّ. التقت أعينهما وفار أحمد فورة الشباب، ودفع بالجندي فوقع على الأرض، ثم صرخ فيه وأمره أن يرحل.

في هذه اللحظة توقف السوق عن الحركة، وتجمد العالم كله. وأصبح الجندي عشرة، التفوا حول الخان وزينب تشهق في فزع، وتمتمت لأخيها وهي تخرج من الخان: ماذا فعلت!

قال يوسف مسرعًا للجندي: اقبل أسفي.

ثم أمسك بقطعة حرير أمامه، وأعطاها له قائلًا في رجاء: خذها بلا مقابل وارحل.

قال الجندي وهو يقوم: ليس قبل موتك أنت وهذا البغل.

فتح أحمد فمه ليعنفه وفورة الشباب قد طغت على كل العقل والمنطق، وزينب تنظر حولها في يأس وعجز وتتوقع نهاية عمرها في أي لحظة. لاحظت الحصان خارج باب الحارة وفوقه رجل بدا لها أنه الأمير؛ فالجنود حوله في كل مكان. جرت بأقصى سرعة وقلبها لا يشعر إلا بحسرة والدها على ابنه الذي سيقتل في التو واللحظة بسيف الجندي المملوكي. خرجت من الحارة وهي تصرخ: مولاي الأمير. مولاي الأمير.

التفت الأمير إلى الصراخ القادم من ورائه، ونظر إليها وهي

تجري ناحيته، وما إن وصلت حتى قالت وهي تلهث: أغثني! أتوسل إليك أن تغيثني!

كان الخِمارِ قد وقَع منها وهي تجري في طريقها والعرق يتصبب من جبهتها وعيناها الواسعتان تنظران إليه في فزع.

قال وهو لم يزل يمتطي جواده: ماذا تريدين؟

قالت وكلماتها تخرج سريعة: أخي.. سيقتله المماليك. لم يفعل شيئًا. سيقتلونه أغثني!

قال في عبوس: المماليك لا يقتلون العامة.

قالت مسرعة: أتوسل إليك أن تنقذه.

أطال نظره إلى وجهها وشعرها الطويل الذي يكاد يغطي جسدها، ثم قال: أين خِمارك؟ وماذا تفعلين في السوق من الأساس؟ خروج النساء أدى إلى الوباء والموت. عودي إلى بيتك قبل أن أقرر جلدك الآن في وسط الحارة؛ لتكوني عبرة لكل النساء.

نظرت حولها وهي تبحث عن خِمارها واليأس يسيطر عليها. موت أخيها محقق على ما يبدو. لا بد أنه قتل الآن.

رأت أخاها أمامها مربوطًا ورأسه منتكس، ويوسف أيضًا، والمماليك يسيرون بهما في اتجاه الأمير. نظر الأمير إلى رجال خشداشيته وقال في حزم: ماذا فعلا؟

قال الجندي وهو يطأطئ رأسه: هذا الشاب تعدَّى على الجنود يا مولاي وسط السوق وأمام العامة.

فتحت زينب فمها مسرعة وقالت: لم يفعل، أقسم لك يا مولاي الأمير لم يفعل. الجندي ...

قاطعها في قوة: تتكلمين مع الرجال وتسيرين في الحارة بوجه سافر، من أنت؟ أحد المجاذيب؟

قالت في توسل: اعذرني هو أخي الوحيد. نحن من عائلة أبي بكر، سيرته عطرة، ولم يؤذِ أحدًا. أغثني يا مولاي! اعْفُ عن أخي وابن عمي.

قال في قوة: ما اسمك؟

- زينب.

- عندما يعتدي العامة على الجنود ماذا يحدث للبلاد يا زينب؟ تعرفين؟ يعم الخراب ويعيث الفاسدون فسادًا في حرية وبلا رادع. أنا صبور معك لأنك شجاعة.

ثم قال في حسم لجنوده: خذوهما إلى السجن؛ لأبت في أمرهما. هيا عودي إلى بيتك!

التقت أعينهما، فتحت فمها لتنطق، ولكن عينيه أخافتاها. وشعرت أنه سيقطع لسانها لو نطقت بكلمة واحدة، فطأطأت رأسها، وقالت: أشكرك وأدعو لك مولاي. العدل من سماتك.

لم يجب.

جرت إلى بيتها، وعالمها قد انتهى ودنياها التي تعرفها لم يعد لها وجود، ولكن القبض على يوسف وأحمد لم يكن هو الحدث الجلل!

* * *

صرخت الأم واستأجرت نادبة خصيصًا للصراخ طوال اليوم، فالفقد هذه المرة له مرارة ليست ككل مرة، ولم يستطع الزوج أن يسكتها، ولم تستطع كل نساء الحارة أن يسكتنها.

فأصبح وجود أبي بكر في البيت مستحيلًا وسط العويل وسب العالم والاستغاثة بكل أهل البيت وكل الشيوخ.

وأغلق أبو بكر الخان، وبقي في المسجد طوال اليوم يدعو الله، ويتكلم مع الشيوخ والعلماء، ويطلب إليهم الوساطة.

بعد أسبوع من حادثة اختفاء أحمد ويوسف وخطفهم من جنود المماليك اقترب الشيخ عبد الكريم من التاجر أبي بكر وقال في وجوم: لدي أخبار لا أعرف إذا كانت جيدة أم لا.

قال أبو بكر وهو يمسك بالمصحف ويجلس القرفصاء: تعذَّب ومات من التعذيب؟ عذبوه وعذَّبوا ابن أخي؟

قال عبد الكريم: لا أعرف. أعتقد أن ما فعله جريمة يا أخي. تعدَّى على من يحمي البلاد، ولم يظهر احترامه لمن يضحي بعمره من أجلنا. ربما عذبوه، ولكنه لم يزل حيًّا. جاءني خبره اليوم.

قال الأب في لهفة: أين هو؟

فقال عبد الكريم في بطء: الموضوع صعب يا أخي وغير مسبوق.

- أعطيهم كل ما أملك.

- الأمير محمد لا يحتاج إلى المال ولا يحب فرض الضرائب.

- أتكلمُ معه وأتوسلُ له. أعاقبُ ابني بنفسي وأجلده على الملأ، ويفرج عنه هو وابن عمه.

قال عبد الكريم: العلماء توسطوا لك وتكلموا مع الأمير. ذهبوا خصيصًا للروضة لطلب الشفاعة، فالكلمة الطيبة صدقة يا أخي. لو تمسك العامة بتعاليم الدين لكان حالنا تغير.

- وافق الأمير على أن يفرج عنه؟

ساد الصمت برهة ثم قال عبد الكريم: قلت لك. بعد الوباء أصبح كل شيء غريبًا، وكل الصدمات تخرج من جوف الأرض. حتى المماليك أصبحوا يتصرفون تبع أهوائهم.

- سيفرج عنهما؟

- تعرف أن الأمير حارب المغول والصليبيين من أجلنا. الاعتراف

بالحق فضيلة.

- هل وعد بأنه سيفرج عنهما؟

سكت عبد الكريم لحظات ثم قال: سيفكر في الأمر.

- خذني إليه، أتكلم معه وأطلب صفحه.

- ليس بهذه السهولة.

- ماذا يريد؟ أفعل أي شيء ليطلق سراح ابني.

قال عبد الكريم: صدمني طلبه. قلت لك كل شيء تغير بعد الوباء ورحيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

قال أبو بكر: تقصد هربه.

التفت حوله ثم قال: تصرفاتك وكلماتك ستودي بحياتك أنت أيضًا. اسمعني يا أخي. الأمير يريد الزواج من ابنتك.

كان وقع الطلب كوقع سقوط صخور من جبل المقطم على رأس أبي بكر. لم يكن فقط مفزعًا، ولكنه كان أيضًا غير مألوف.

قال أبو بكر: المماليك لا يتزوجون من بناتنا، هذا طلب غريب.

فقال الشيخ: أعرف، طلب غير مألوف.

- كانوا يتركوننا لحياتنا ويعيشون حياتهم، لا يتدخل أحدنا في حياة الآخر. ندفع الضرائب ونحيا في استقرار ويدافعون عن البلاد ويحيون في قصورهم وقلاعهم خارج القاهرة. ماذا حدث؟ لماذا؟

قال الشيخ في جدية: لا أعرف. ولم أتوقع هذا الطلب.

- ابنتي مخطوبة لابن عمها. ما هذا الذل؟ يريد أن يأخذ ابني وابنتي. أقتله بيدي هذا الأمير!

- لو لم تتوقف عن هذه الكلمات لن أساعدك، لا بد من الحكمة في هذه المواقف، والجدال بالحسنى.

- ابنتي مخطوبة إلى ابن عمها، وحفل زفافها كان سيكون

اليوم. لن توافق. ولن أوافق. أرمي بها إلى المملوكي.

-هو أمير مئين تحت يده مئة مملوكي أو يزيد، ويتقدم ألف جندي في الحروب. هل فقدت صوابك؟

- ولكنه مملوك، قراره ليس بيده، كان عبدًا ثم أصبح أميرًا، وربما لا يزال عبدًا لا أعرف. غريب على أرضنا، لا هو منا ولا هو يعرفنا، لا نعرف من أين أتى ولا مَن أهل بيته. مهما امتلك من جنود فهو مملوك وغريب وولاؤه ودينه مشكوك في أمرهما. لا نعرف حتى ماذا كان دينه في بلاده القديمة!

- لا يعيب الرجل سوى دينه، وهو مسلم ومتدين. وكلنا ملك لله، من منا يملك مصيره؟

- ابنتي لن تتزوج من المماليك، سيقتلها. قسوتهم تبتر القلب يا أخي. نعرفها جميعًا. يا شيخ أهل مصر أحرار، لم يستعبدهم سلطان ولا خليفة، كيف لهم أن يتزوجوا من العبيد؟

- يحكمونك من تطلق عليهم عبيدًا يا أخي، ويقدرون قوتك، ويعاقبونك لو ارتكبت خطأً. لم يكن من عادتهم الاقتراب من العامة، يفضلون النساء من بلادهم.

- يعربدون في البلاد كيفما يشاءون ولا يقتربون من ابنتي، يحكمنا العبيد لا بأس، ولكن لا يصاهروننا ويصبحون منَّا. لا يمكن ولا يجوز.

قال الشيخ: يا أخي، الأمراء يعرفون أن أهل مصر يطلقون عليهم مماليك؛ لأنهم في الأصل ليسوا أحرارًا، ولا يؤذيهم هذا الاسم؛ لأنهم يقولون: إن الملك لله وحده وليس لأحد، وكلنا ملك لله وأعتقد أنهم على صواب، قلت لك الملك لله.

قال أبو بكر في تهكم: ما أعظم ورعهم وتقواهم! ها هو ذا مملوك يقضي على بقية عمري بسطوه وظلمه، ويدعي أن الملك لله.

صمت الشيخ برهة ثم قال: الأمير محمد رجل صالح، لم أرَ منه سوى كل خير.

- لن يحدث.

- قلت لك: نفكر في طريقة للخروج من المأزق وإنقاذ أحمد ويوسف أيضًا. لن يستطيع الزواج منها إلا بإذن من السلطان.

- أي سلطان؟ الهارب أم المغتصب؟

- ماذا حدث لك؟ هذه محنة والصبر واجب في أوقات البلاء. كيف سيسمح له السلطان بالزواج من العامة؟

- هل لديه زوجة من المماليك؟

- ليس لديه زوجة.

- كيف رأى ابنتي؟ هل رأى ابنتي؟ كيف عرف أن لي ابنة؟

- المماليك يعرفون كل شيء. ربما لم يرها، ربما سمع عنها. أخي، الأمير قال: إنه مستعد للإفراج عن يوسف وأحمد إن تزوج ابنتك.

- هذا البلاء ليس بعده بلاء، أغرقها في النهر ولا أجعلها تلقى هذا المصير.

- نفكر في طريقة لنقنعه بأن يفرج عنهما ولا يتزوج ابنتك، لا نريد أن يبدأ المماليك في التفكير في نسائنا، لو فتحنا هذا الهويس فسينتهي أمرنا لا محالة.

* * *

جلست زينب تستمع إلى كلمات والدها في صمت وأمها تبكي بلا توقف. بدا الأب بعينين منكسرتين ومترددتين، لم تر والدها في هذه الحال من قبل قط، حتى بعد أن دفن ولد وراء ولد بسبب الطاعون.

قال في ضعف: لن أضحي بك يا بنتي لأنقذ أخاك. لن يحدث،

أنت عندي أغلى منه.

قالت الأم في جفاء: لن تضحي بها، ستزوجها. فرق كبير بين هذا وذاك!

ربتت فاطمة ابنة خالة زينب على كتف خالتها وقالت: اهدئي يا خالتي؛ أحمد بخير، أنا متأكدة.

ولكن الأم لم تتوقف عن البكاء، وزينب لم تنطق. والأب يضرب كفًّا بكفٍّ، ويقول: طلب غريب، عهدت المماليك يطلبون الرشوة أحيانًا والإتاوات، ولكن هذا الطلب غريب. ليته طلب كل ثروتي ولم يطلب هذا. إذا كانوا يضربون الرقاب لكل من يفكر فيهم بطريقة لا تعجبهم فماذا يفعلون في زوجاتهم، لا أتخيلك مع مملوكي. أين رآك؟ أين رأيته؟ أتعرفينه؟

لم تنطق زينب، انكمشت داخل نفسها كما تفعل في لحظات العجز. عاصرت الكثير من العجز مؤخرًا والموت واليأس، ولم يكن قد تبقى على اجتماعها بحبيب عمرها سوى أسبوع. جهزت كل شيء. اشترت كل الملابس والأثاث ووضعت الحناء. وتكلمت مع والدتها على ليلة الدخول بالزوج وفقد العذرية، وما سيحدث وما سيكون وما يجب عليها فعله وقوله. كانت لحبيبها. بعقلها وروحها.

أي دمار يحدث لهذا البلد وأي خراب وأي حزن يلاحقها؟

وباء يهز أركان العمر، ثم حسرة تأكل القلب، والآن يتحطم كل شيء، كل شيء. لو لم تخرج في هذا اليوم المشئوم لو لم يرها الأمير، لو لم يذهب خطيبها للقائها، لو ولو، الندم عادة غير مُجْدٍ. والمحن تحتاج إلى عقل مدبر وسريع الفهم والتأقلم.

ربتت على يد والدها ثم قالت: أبي، اثبت. لا بد أنَّ هناك مخرجًا.

قال في حسم: لن أزوجك الأمير، وليفعل ما يفعل.

صاحت الأم في عصبية: ستتزوجه . لا بد أن تتزوجه. يقتل ابني لو لم تتزوجه، هي البنت، وهي تضحي، لدينا ابن واحد.

قال الأب: وابنة واحدة.

- لن تموت.

- سيقتلها كل يوم آلاف المرات. ليتها تموت.

- كيف تعرف هذا؟ ما نسمعه عن المماليك ليس صحيحًا، هم بشر مثلنا، أنقذونا من أهوال التتار والصليبيين. يشيعون النظام والأمان. لا تتكلم كأحمد ويوسف كلام الشباب الطائش الذي لا يقوى على حمل السلاح، من تحلم بالزواج من أمير!

قال في حسم: لن تتزوجه.

قالت الأم لابنتها: زينب...تكلمي...

ولكن زينب بقيت صامتة.

فقال الأب: الشيخ عبد الكريم سيتكلم معه، لا بد أن الدين يردعه.

* * *

الشيخ عبد الكريم كان فصيحًا وذكيًّا مع أنه لم يتم الثلاثين بعد، جاء إلى القاهرة من الريف، ودرس مع علماء كبار، وتعلم على أيديهم كل المذاهب مع أنه لم يقتنع بكل تفسيرات شيوخه ولا بكل مسلماتهم. كانت مشكلته غروره الخامد داخله، لا يظهره ولا يتخلى عنه. يبقى بداخله كالحلي الثمينة المخبأة من أعين الحاسدين. وعندما يستمع إلى تفسير لا يعجبه يبتسم لنفسه في تهكم ولا ينطق، وعندما يرى شيوخه تمجد المماليك وتتكلم عن إنجازاتهم وتغض الطرف عن انحرافاتهم يبتسم ولا ينطق. نشأته الفقيرة وذكاؤه الفذ كانا سببًا لكل معاناته. فكان يرى المعرفة أهم من المال، ويرى القوة في الفهم وليس في السيف، والإطراء يفقد الشيخ

قيمته، ويجعله يتساوى مع الشعراء والسلاطين.

ومع كل فراسته كان حكيمًا لا يتسرع في نقد أحد العلماء أو الأمراء. كان يستمع في صبر، ويخترق حواجز العيون، فيسبر أغوار الناس ويفندهم ويغربلهم.

وكما توقع، شعر أحد أساتذته بالغيرة منه منذ البداية، ولم تعجبه آراؤه ولا مجادلته، وأصبح شغله الشاغل القضاء عليه وعلى مستقبله، فانتقل الشيخ عبد الكريم إلى مسجد آخر بعيد عن معلمه؛ فالقاهرة واسعة تسع العالم، ومزدهرة ازدهار المنتصر الباقي أبدًا. وصل تعدادها إلى ثلاثة ملايين، ولابد له أن يجد مسجدًا يخطب فيه بعيدًا عن معلمه الذي يتابعه بقلبه وذراعيه وكل معارفه بهدف واحد وهو القضاء على مستقبله. ولكن يبدو أن القاهرة قد ضاقت على عبد الكريم، وأن المعلم يملك ذراعًا تمتد لتحيط بكل أبواب القاهرة، فكلما حاول عبدالكريم الاستقرار في إحدى مناطق القاهرة وجر زوجته وأمه وأولاده، وجد باب الرزق مغلقًا وألسنة الناس حادة وظالمة كسيوف الحكام. وعندما استقر أخيرًا في هذه المنطقة وجد الترحيب من التاجر أبي بكر وعائلته، وأهل هذا الحي كانوا أكثر علمًا وأدبًا، وبدا له أن معلمه الذي أصبح شغله الشاغل القضاء عليه قد نسيه، وأن الحياة قد اعتدلت وفتحت أبوابها له. وهدوء الشيخ عبد الكريم وفصاحة لسانه جعلته محبوبًا منذ جاء من أقل من عام. وجعلت العلماء الأكابر سنًّا يشعرون بشيء من الغيرة، ولكن عبد الكريم حاول احتواءها بصبر، وبدأ التأقلم مع حياته الجديدة، وقرر عدم تكرار أخطائه القديمة وإظهار غروره الخامد. خبأ غروره ومعرفته، وتظاهر بالرغبة في التعلم من الكبار وبمهادنة المماليك والسلاطين وكل أهل القاهرة.

* * *

جلس الشيخ عبد الكريم مع العلماء وبينهم أبو بكر يستغيث في عجز، وقرروا أن الوازع الديني ربما ينقذ ابنة التاجر من هذا المصير. المماليك يحترمون العلماء ويقدِّرونهم، بعضهم تدرب على أيديهم، وبعضهم حضر مجالسهم وشجعهم وبنى لهم الأوقاف والمدارس. العلماء هم فقط من يستطيعون إقناع الأمير بأن يطلق سراح الشابين وينسى أمر الزواج من العامة. للمماليك نساؤهم من نفس أصلهم وبلادهم ولهم جواريهم أيضًا. يدفع العامة الضرائب ويحترمون كل القوانين؛ فلِمَ المساس ببناتهم؟

اتفق العلماء على دعوة الأمير محمد إلى المسجد وحضوره خطبة الجمعة، واتفقوا على أن تكون الخطبة عن الظلم وعدل الأنبياء، وانتصار الخير، والمفسدين في الأرض، وأولي الأمر، واتباع الهوى.

في يوم الإثنين كتب أحدهم الخطبة وقرأها للآخرين. فرح بها أبو بكر وقال في حماس: هذه الخطبة تردعه وتذكره بظلمه.

ولكن الشيخ عبد الكريم شعر بأنها خطبة خطيرة ربما تؤدي إلى هلاك هذه الحارة وكل القاهرة لو سمعها المماليك. طلب الشيخ تغيير الخطبة، واقترح أن تكون عن جهاد النفس، ونهيها عن الهوى، ورحمة الضعيف واليتيم. واتفق الشيوخ على الخطبة، ويوم الأربعاء قرأها الشيخ عبد الكريـم في حمـاس، فقال أبو بكر في فرح: هذه أفضل وأقل حدة، ستقنعه بالتأكيد.

ولكن اعترض عليها بعض الشيوخ، وقالوا: إنها ستوقظ ضغينة كل الحكام، وأن بها بعض التلسين على الأمير، ولو غضب الأمير فسيغلق الجامع برمته، ويسجن كل العلماء. وتقديم المظالم للسلطان ليس بالأمر السهل، وخاصة في هذا الوقت

الذي يشوبه الغموض ولا يدري العامة بالضبط من هو السلطان!

كتب عبد الكريم خطبة ثالثة يدعو فيها لأمراء المماليك ويشيد بجهادهم خارج البلاد، وأمجادهم، والتضحية بالروح والعمر في سبيل رد الصليبيين والمغول، ووصف الأهوال التي كان يتوقعها العامة من الصليبيين وحرقهم البيوت وقتلهم وذبحهم الأطفال، وأضاف مقطعًا عن الوباء، ودعا على كل من أراد بدار المسلمين الخراب.

قال أبو بكر في حيرة: وأين مشكلتي من هذه الخطبة؟

قال عبد الكريم: اصبر يا أبا بكر. أولًا نشجع الأمير، ثم نتكلم معه بعد الصلاة، هذا أفضل. كلمات طيبة ربما تساعدنا. لا نريد إغضابه.

عند جلوس الأمير محمد وحوله جنوده داخل الجامع اتجه إليه أبو بكر ناكس الرأس، وقال: أطمع في عفوك وكرمك.

نظر إليه الأمير، ثم أدار وجهه، وسأل عن حال الشيخ عبد الكريم، وسأله إذا كان يحتاج أي شيء، وطلب إليه أن يدرس الدين لكل البلد، وأن يجتهد في العلم، وقال: إن المماليك سيبذلون كل الجهد والمال في سبيل هذا.

قال عبد الكريم: نطمع في عدلك يا مولاي.

ثم اقترب منه وقال في رفق: سألقي خطبة اليوم، ولي سؤال بسيط لا تؤاخذني فيه.

- اسأل يا شيخ.

- عندما أدعو للسلطان أدعو لبيبرس الجاشنكير أم أدعو للناصر محمد بن قلاوون؟

- ماذا تفعل عادة؟

فاجأه السؤال، ولم يجب الشيخ عبد الكريم فأكمل الأمير

محمد: أم إنك عادة لا تدعو للسلطان في خطبة الجمعة؟ أتدعو للسلطان أم لا يا شيخ عبد الكريم؟

قال عبد الكريم: أدعو له، ولكن اختلط علينا الأمر هذه الأيام. اعذرني من السلطان؟ ألم يزل الناصر محمد السلطان أم هو الآن بيبرس الجاشنكير؟

صمت الأمير ثم قال: ادع إلى سلطان بلاد المسلمين ولا تحدد الاسم. ماذا يهمك في الاسم؟ هل تفرق مع العامة لو كان السلطان محمد أو بيبرس؟ اترك هذا الشأن للمماليك واحيوا أنتم في سلام. في زمننا يا شيخ ضاع البيت واحترقت المكتبة وهدم الجامع، ولم يتبقَّ من بلاد المسلمين سوى ما أنقذه المماليك. يبقون مصر شامخة وسط الدمار والعدم، ويحمون الكعبة والمساجد، دونهم الاضمحلال ثم الفناء على أهل مصر. تذكر هذا دائمًا.

قال الشيخ مسرعًا: معك حقك. عهدتك حكيمًا دومًا مولاي الأمير.

ألقى عبد الكريم الخطبة في حماس، واستمع لها الأمير في احترام وصمت هو ورجاله، وصلوا وراء الإمام، وبعد الصلاة طلب عبد الكريم من الأمير أن يزور أبا بكر في بيته لتعم النعمة والبركة ويتكلما في شأن ابنه وبنته.

* * *

نظرت فاطمة ابنة خالة زينب وزينب من مشربية في الطابق العلوي وقلبها يدق بصوت يصل إلى ساحة الدار. قالت فاطمة في فضول: وسيم هذا الأمير، شعره الأسود ولحيته المهندمة تعطيه رونقًا. وكأنه في الثلاثين أو أقل، لو لم أكن متزوجة لكنت أحببته.

كتمت زينب بكاءها قائلة: أيُّ امرأة تقول هذا الكلام؟! زوجك

مثلنا وليس من المماليك.

فقالت فاطمة: وماذا يعيب المماليك؟ في أيديهم البلاد والعباد. الرجل بلا سلطة لا يسعد امرأة.

همست زينب في صوت متحشرج: لا رجل في حياتي سوى يوسف، هو زوجي وكل عمري.

بعد أن تكلم الشيخ عبد الكريم وقرأ آيات من القرآن قال في رفق: أتسمح لي يا مولاي.. أن أتكلم بحرية؟

قال الأمير: تكلم يا عالمنا.

- قال النبي ﷺ: لا يخطبْ أحدكم على خِطْبة أخيه.

نظر إليه الأمير في استياء، فقال الشيخ عبد الكريم سريعًا: النبي يقول هذا ولست أنا، اعذرني يا مولاي، في الإسلام كلنا إخوة، والمقامات محفوظة طبعًا.

قال الأمير وصبره بدأ ينفد: ماذا تريد؟ لا تعجبني كلماتك.

فقال أبو بكر مسرعًا: مولاي، ابنتي خادمة عندك، ونسبك شرف لا نستحقه، ولكنها مخطوبة لابن عمها، كانا سيتزوجان الأسبوع الماضي قبل حادثة السوق، أريد أن أخبرك لأخلص ضميري.

قال في لا مبالاة: من ابن عمها؟

- هو سجين أيضًا مع أحمد، اسمه يوسف.

هزَّ رأسه بالإيجاب، ثم قال: كان خطيبها. تقصد أنه كان خطيبها، لم يعد له وجود.

أمسك الأب بقلبه، وشهقت زينب، وكتمت صرختها في حلقها.

فقال الشيخ في رفق: نطلب منك الصفح يا مولاي، تلغي الخِطبة وتبقي على حياة يوسف لو أمكن، ولو سمحت لنا

بكرمك وعدلك، لا حاجة لقتله؛ هو وحيد أمه.

سكت لحظات ثم قال: أعد علي هذه المعلومة يا أبا بكر. كانت ابنتك مخطوبة؟

قال أبو بكر في صرامة: لم تكن مخطوبة. هي تحت أمرك تتزوجها في أي وقت.

هزَّ رأسه بالإيجاب، ثم قال: نقيم الزفاف بعد أسبوع والشيخ عبد الكريم يعقد العقد اليوم.

أمسكت زينب برقبتها والدموع تخنقها وحياتها على وشك الانتهاء، وأغمضت عينيها، وضغطت على يد ابنة خالتها وقالت: أتمنى الموت الآن.

فقالت فاطمة في رفق: اصبري يا زينب، هو قضاء وقدر ليس لك يد فيه.

قالت زينب في تحدٍّ: لن يملكني هذا المملوك، هو مملوك وأنا حرة. أقسم لك إنه لن يملكني، زوجي يوسف وليس لي زوج غيره، الله لا يرضى بالظلم.

قالت فاطمة في خوف: ماذا ستفعلين؟ لو رفضت لقتل يوسف وأحمد اليوم.

قالت في تأكيد: هو ليس زوجي، لن يكون زوجي.

- ستقولين هذا عندما يسألك الشيخ؟

صمتت لحظات، ثم قالت: ربما.

قالت أمها في حسم: وتقتلين أخاك وابن عمك؟ ستتزوجينه وإلَّا قتلتك بيدي.

بقيت ساكنة، لو ماتوا لانتهوا، ولو ضحت بنفسها لعاشت معذبة أبدًا.

بدأت الأم تضرب على خدها وتنعى حظها. دخل الأب في

خطى ثابتة ومعه الشيخ عبد الكريم.

وضعت خِمارها على رأسها.

قال الشيخ في رفق: أنت شجاعة يا أختي. هكذا يقول والدك.

قالت بصوت خافت: هذا فوق احتمالي يا شيخ.

فقال في صبر وهو ينظر إلى والدها: ليس فوق احتمالك، الله لا يكلف النفس إلَّا طاقتها، هو ابتلاء، ولكنه ليس فوق احتمالك.

قالت في ترجٍّ: هل يمكن إقناع الأمير؟ لو نعطيه كل ما نملك. أي شيء...لو سجنهما شهرًا ربما ثم أفرج عنهما.

ابتسم الشيخ وقال: جئت أسألك: أتوافقين على الزواج أم لا؟ ولم آتِ لأقنعك.

قال الأب في رفق: زينب، تزوجيه حتى يفرج عن يوسف وأحمد، ثم نقدم شكوى للسلطان ويطلِّقك، أعدك سيطلقك.

نظرت إلى أبيها، ثم إلى الشيخ وبقيت صامتة.

فقال الأب في رجاء: أعدك يا ابنتي، عندما يفرج عنهما سيطلِّقك. لن أتركك تعيشين مع أمير مملوكي، هذا لن يحدث.

قالت وهي تنظر إلى الشيخ: وكيف يحاسبنا الله وليس لنا اختيار؟

قال في بطء: ليس لنا اختيار ربما. لم يختر الأمير أن يكون محاربًا، ربما أراد أن يكون شيئًا آخر، ولم يختر يوسف السجن، ولم تختاري الزواج من الأمير. ولكن لديك الفرصة لاختيار حياتك بعد هذا.

قالت في حسم: لا حياة لي بعد هذا.

قام الشيخ وقال: لا أستطيع التأخر عن الأمير. لا يتسم أمراء المماليك بالصبر، ماذا أقول له؟ لك الحق ألا توافقي.

قالت في حسم: ليس لي الاختيار، لم يترك لي الاختيار.

- إذا سارت حياتنا كما نريد بالضبط فأين الابتلاء؟ تأخذ منعطفًا مختلفًا أحيانًا، ولكن اصبري واجتهدي، لابد أن هناك مخرجًا، وابحثي عن السكينة بداخلك يا أختاه، كل من يلجأ إليَّ يبغي السكينة ولا يجدها عندي. السكينة ليست بكلمات أقولها لك الآن وتمائم من بعض الشيوخ، والدك أخبرني بأنك قارئة ومجتهدة، السكينة هي الفوز والنجاة، هبة من الله وجهاد. ولا تنسي أن ترددي «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

قال الأب مسرعًا: لو أساء معاملتها نتكلم مع من يا شيخ؟ لا أهل له ولا بلاد، نتكلم مع السلطان؟ كيف؟ هل يمكن أن أطلب منه ألا يسيء معاملتها على الأقل؟

- ولِمَ تتوقع منه الشر يا أخي؟! ربما يُحْسِن معاملتها.

احتضنت جسدها، وانحنت وقالت في صوت خافت: يا شيخنا، يوسف لم يفعل شيئًا ولم يعتد على الجنود، أشهد على ذلك بنفسي، قبض عليه الأمير غدرًا، وكان على وشك قتله الآن، سمعت ما دار بينكم، هذا رجل يقتل رجلًا بريئًا ليحصل على خطيبته، ويدعي حمايتنا، كيف لي أن أحيا تحت سقف بيته وأنا أعرف هذا؟

لم يجب عبد الكريم، أطرق قليلًا ثم قال: ليس لدي كل الإجابات يا أختاه، ولا أعرف دومًا كيف أنصح الناس، أحاول وأجتهد، للنفوس ضعفها وشهواتها، وسيبقى الإنسان دومًا يحارب ميل النفس ويصارعها.

قال الأب في يأس: أخبرني أنت يا شيخ... ماذا تعرف عن أمراء المماليك؟ ورثوا الإمارة عن أب سلطان أو أمير؟ لا. اقتنصوا الإمارة بالقتال والحرب، ووصلوا لها على الرقاب والقتلى. العبد يصبح أميرًا بينما أهل البلد يتجرعون الهوان. أيُّ منطق هذا وأيُّ

زمن؟ تربوا على القتال والقتل ولا أهل لهم. طمعهم وظلمهم كتبت فيه أساطير. تريدني أن أعطي ابنتي لهم بلا وعد حتى؟

نظرت زينب إلى أبيها. بدا في حيرة ويأس وعيناه تدوران حول الحجرة تبحثان عن حل بين الجدران القديمة. قامت وقالت في حسم: أوافق. أبي...لا تقلق علي. هو ابتلاء كما قال الشيخ وسوف ينتهي.

نظر إليها في استغاثة وقد أنقذته من ضعف لم تره يعانيه من قبل.

خرج الرجلان من الحجرة.

اقتربت منها فاطمة وقالت: ماذا تنوين؟

قالت في حسم: تكلمت مع أبي، لو اضطررت إلى أن أتزوج منه فسأصبر حتى يفرج عن أخي وخطيبي، ثم سيرفع أبي شكواه إلى محكمة المظالم، وسيطلب أن يبت فيها السلطان نفسه، وسأحصل على الطلاق، ثم أتزوج من يوسف، لو رضي بي.

قالت فاطمة: فكرة جيدة. دائمًا أفكارك جيدة يا زينب، وكأنك من عالم آخر. ولكنك ستتزوجين الأمير وتعطينه عذريتك، تفهمين هذا أليس كذلك؟ أمك شرحت لك كل شيء؟

قالت في أسى: عذريتي في قلبي، لن يمسها أحد -ما دمت أحيا- سوى يوسف.

- ولو حملتِ من الأمير؟

- هذا لن يحدث، أريد مساعدتك في دواء حتى لا يحدث هذا أبدًا.

- ولو رفض السلطان طلاقك؟

- أقتل نفسي في هذه الحالة، أو أهرب خارج البلاد، لن ينتصر المغتصب على الخير، يوسف هو كل الخير، وهذا الرجل هو

ظلم كل العصور، ولكن هل سيرضى بي يوسف؟

قالت فاطمة في يقين: يحبك بجنون ويفهم تضحيتك، سيرضى بالطبع.

قالت في مرارة: كم أشعر بالذنب! أنا السبب فيما حدث له، قضيت عليه، على ما يبدو أنا السبب في مجيئه، وكنت سأكون السبب في قتله.

* * *

بدأ أبو بكر في كتابة شكواه لمحكمة المظالم، وأصبحت جاهزة لتقديمها في الوقت المناسب.

وكلما كتب سطرًا ارتاح قلبه، وأصبح للعيش هدف وللمحنة نهاية. أعطاها للشيخ عبد الكريم ليقرأها فقرأها في بطء، ثم قال: أخي...السلطان بيبرس الجاشنكير لا يحضر بنفسه المحكمة، انقرضت هذه العادة منذ أمسك بزمام الأمور هذا العام. بل انقرض الكثير من العادات.

قال أبو بكر بسرعة: أسمع الشائعات، ولكنه منع الخمر، وفتح زاوية كبيرة ليطعم الفقراء، لابد أنه سلطان عادل.

أطرق الشيخ عبد الكريم ثم قال: هل طلب منك أمراء المماليك إتاوات أم لا؟

قال في مرارة: طلبوا ابنتي، أخذوا ابني وابنتي. هو أمير واحد به كل شرور الأمراء مجتمعين. طوال عمري لا أهتم بالمماليك ولا بأمرائهم، وأحيا في سلام. سلطان يأتي وآخر يقتل، وواحد يهرب، والثاني يبطش ويظلم، وأنا لا أبالي. أين هرب السلطان الأعرج الناصر محمد؟ ترك الحكم لبيبرس كالأطفال.

لم يجب عبد الكريم، فقال أبو بكر: سأنتظر بعد أن يطلق سراح ابني، ثم أقدم الشكوى. أيام ويأخذ ابنتي إلى قصره، قرة عيني وكل ما أحب. لا أدري ما سيحدث لها هناك. لست

متأكدًا من أن ابني وابنتي سينجوان من هذه المحنة.

أَمْرُ السلطان بيبرس الجاشنكير كان لا يعني المصريين كثيرًا في البداية، ولكنهم لم يعرفوا سبب بقاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون هاربًا خارج مصر للمرة الثانية، وأصبحوا يبدعون في نكاتهم عن الناصر محمد السلطان الأعرج الهزيل الذي يهرب بين الحين والآخر كلما ضغط عليه أمراء المماليك. وعندما منع بيبرس الجاشنكير الخمر وبنى الزاوية صفق العامة في حماس، واتجه الفقراء إلى الزاوية بالآلاف، وطلب منهم جنود المماليك الدعاء للسلطان الجديد بيبرس، وأصبح الدعاء له يهز أركان الحواري. إلَّا أن بيبرس كان في نفسه فجور كما كان فيها التقوى على ما يبدو، وكما همس الشيوخ في الخفاء فبدا أعنف من كل السلاطين وأكثرهم قسوة وطمعًا، وترك العنان لأمرائه يُغِيرون على الخانات ويطلبون الإتاوات من التجار. واعتاد المصريون مشهد تعليق العامة في الخازوق وسحلهم وضربهم حتى الموت، كان يتكرر كل يوم في الحواري، ومن لم يقتله الوباء كان بيبرس وأمراؤه المقربون يتربصون به بضمير وإتقان. ولكن أبا بكر تجاهل كل هذا، وتعلق بأمل الشكوى للسلطان في إنقاذ ابنته.

عندما عاد أبو بكر للبيت ليلًا نادى ابنته، وطلب منها أن تقرأ الشكوى. قرأتها في هدوء وربتت على كتفه قائلة: أعتقد أن السلطان سينصفنا. لا تقلق عليَّ. سأكون بخير. أنت تعرف ابنتك.

قال في خوف: تصرفي بحذر وعقل، لا نعرف حدودًا لظلمهم ولا شرهم.

هزَّت رأسها، واتجهت إلى حجرتها، واتجهت عيناها إلى صناديق ملابسها وجهازها المرتبة في عناية منذ شهور في

الغرفة ليوم زفافها من يوسف. فتحت الصندوق وأخرجت بعض الملابس، ونظرت إليها، ثم جلست على سريرها وهي تتمنى أن يكون هذا حلمًا أو سحرًا أو عملًا من الشيطان، وينتهي وتستيقظ صباحًا لتجد أنها لم تتزوج الأمير ولن تذهب إلى قصره غدًا ولن تضحي بنفسها، ولن تبيع جسدها كالغانيات.

دست يدها داخل أحد الصناديق تبحث عن عرائسها القطنية، كانت دومًا تطمئنها وهي طفلة وتتكلم معها. نظرت إليها ثم عدَّتها، ثمانية، كلما مات لها أخ أو أخت وقت الوباء كانت تعدهم وتلومهم وتشكو لهم وتسألهم عن رأيهم. عندما ماتت أختها التي تصغرها بعام أخذت تتفحص العرائس في هستيرية، وتبحث عن البقع السوداء، وتشعر بالموت قريبًا منها ومن عرائسها، فالوباء لا يفرق بين الجماد والإنسان كالغول في ثورته، وكان لموت أختها المقربة من القلب وقع آخر، فقد مس الموت جزءًا من نفسها وجس جسدها، ثم آثر الرحيل، وليته لم يرحل! فكرت في أن تأخذ معها عرائسها، ثم قررت أن تبقيها في أمان في بيت والدها.

عندما دخلت عليها أمها ونظرت إلى الصناديق والعرائس قالت: زينب...لم تعودي طفلة، انسي أمر العرائس. هل تريدين أن تأخذي الصناديق معك؟

قالت في صرامة: لا.

بدا على الأم التردد ثم قـالت في رجـاء: زينب...احذري إغضـاب الأمير، لا نعرف عواقبه.

بقيت ساكنة، فأكملت الأم: أطيعي كل أوامره وإياك...إياك أن تتمنعي عنه. لو فعلت يقطع رقبتك ويقتل أخاك وابن عمك. تعرفين هذا، أليس كذلك؟

اقشعر جسدها وارتجفت يدها برهة، وهزَّت رأسها بالإيجاب.

بدا على الأم التأثر ثم قالت: لو كان عنيفًا معك فإياك أن تصرخي أو تقاوميه، تفهمين؟ ولدت المرأة لتتحمل العذاب. قدرها يا ابنتي. كنت ستتعذبين في أثناء الولادة أو بعدها هذا مكتوب لكل النساء. تحملي في صبر؛ حتى تزول المحنة. أريد الاطمئنان عليك. حاولي أن تستأذنيه في أن نزورك من حين إلى حين...لا.. لا تطلبي منه شيئًا؛ حتى تتأكدي من أنه لا يؤذيك.

* * *

الفصل الثاني

قصر الأمير محمد في الروضة كان جميلًا ومكوَّنًا من ثلاثة طوابق وحديقة واسعة والكثير من النافورات، ولكن بيت والدها أيضًا كان كبيرًا وبه نافورة مياه وثلاثة طوابق، ولم يؤثر فيها كبر القصر، ولم تنظر حولها. كانت قد حسمت أمرها ورتبت خطتها؛ لن يملكها هذا الأمير، وربما عندما يشعر بنفورها يملها ويتركها هو من نفسه، نصحتها فاطمة أن تكون متجمدة وقت الحب بينهما حتى يملها ويعود إلى جواريه.

لو استطاعت تأجيل هذا اليوم الأسود الذي تعطي فيه نفسها للأمير يكون من الأفضل، ستفكر في حيلة لتأجيل هذا اليوم؛ فهو يوم بيعها ويوم تصبح غانية تعطي نفسها لمن تحتقر وتكره. ما أبشع هذا الزمن الذي يولي العبيد على الأحرار. ويعطي الظالم القدرة على البطش والعفو.

نظرت إلى حجرتها في حسرة، كانت ستكون اليوم في بيتها الذي جهزته بأفخر أنواع الجهاز، وستكون بين ذراعي حبيبها الذي يرقد الآن في السجن بين الحياة والموت. جلست على الأرض وسجدت وهي تدعو الله أن ينقذها وأن يعطيها القوة لتخرج من هذه الهوة وهذه البئر.

شعرت بخطى وراءها، فالتفتت مسرعة ورأته، ربما لأول مرة قريبًا، هكذا في كامل ثيابه ولا يمتطى فرسًا، بل ينظر إليها في تركيز وكأنها حشرة تدور حول عينيه.

قامت من على الأرض وطأطأت رأسها، فقال في صوته القوي: بماذا كنت تدعين؟

قالت وهي تجلس على حافة السرير: هذا بيني وبين الله يا مولاي، ما بين العبد وربه لا يعرفه أحد حتى المماليك والبصاصون.

جلس بجانبها ثم قال: تتكلمين وكأنك تعرفين الكثير. درست في بيت أبيك؟

قالت وهي تبتعد عنه: نعم.

- درست تفسير القرآن والفقه .

وماذا أيضًا؟

- الجبر والطب والفلسفة.

- شيء غير مألوف عن النساء. لماذا درست؟

قالت وهي تبتعد أكثر حتى وصلت لحافة السرير: أحب القراءة والغزل، تعلمته في بيت أبي.

- تغزلين أيضًا؟ والدك تاجر وغني، لا تحتاجين تعلم الغزل.

- أحبه فقط.

نظر إليها في تركيز، ثم قال: إذا تحركت جانبًا أكثر من هذا فستقعين من على السرير.

قالت مسرعة: اعذرني يا مولاي، حدث كل شيء بسرعة، ولم أملك الوقت الكافي للتفكير في الأمر.

قال في دهشة: التفكير في أي أمر؟

- أمر زواجي وانتقالي لخارج المدينة، وحياتي مع المماليك وفي قصرك و.. كل شيء.

- تفكرين أيضًا؟ شيء مذهل حقًّا.

ثم نظر إليها وكأنها بضاعته، وقال: أزيحي شعرك بعض

الشيء، أريد أن أرى عينيك. والدك لم يكن شديدًا معك، تركك تذهبين للسوق وتتكلمين مع الرجال. غريب أمر العامة، هل كلهم مثل والدك؟

قالت مسرعة: لم أتكلم مع الرجال، كنت مع أخي فقط. لا أخرج إلَّا معه، وطار الخِمار عن وجهي. أرجو ألَّا تسيء بي الظن.

- ماذا تفعلين بالجبر والحساب؟

- أساعد أبي في حساباته.

اقترب منها وأحاط وجهها بيديه، ثم قال: جمالك مختلف، لم أكن أعرف بوجوده عند العامة.

ارتفعت دقات قلبها وقالت: هناك من هُنَّ أجمل مني بكثير، تستحق من هي أفضل منى يا مولاي، أميرة مثلك. أنا لست أميرة.

ابتعدت بعض الشيء، وأزاحت يده بحركة لا إرادية، ثم قالت: لو سمحت لي، أشعر بغثيان ومرض شديد، لا أستطيع التنفس، إذا تركتني اليوم فقط، أرجوك وأقسم لك أن أكون أفضل غدًا.

وضعت يدها على قلبها، وبدا وجهها شاحبًا، فأطال نظره إليها، ثم قال: لم أفهم ما تقصدين؟

قالت على الفور وفي بطء وهي تتوقع أنه لا يفهم العربية جيدًا ربما: كنت أقول إنني متعبة جدًّا اليوم ومريضة، وأطمع في عفوك عني اليوم.

- أفهم كلماتك يا زينب، ولكنني لا أعرف ماذا تقصدين؟

قامت من على السرير، وقالت في توتر غير معهود: لو تركتني اليوم فقط، أكون ممتنة لك ما دمت أحيا.

نظر إليها برهة، ولم تعرف هل أغضبه كلامها أم لم يتوقعه.

قام من على السرير، واتجه إلى الباب، وتنفست في ارتياح، ولكنه أغلق الباب بالمفتاح وشدَّها إليه قائلًا: كيف أترك زوجتي يوم زواجنا؟ لا تطلبي مني أشياء مستحيلة، تطلبين الكثير أنت وعائلتك.

بلعت ريقها وهي تشعر بجسده ولا تعرف ماذا تتوقع ولا ماذا سيفعل بها، وهمست في ترجٍّ: أرجو فقط أن تعاملني برحمة وصبر.

لم يجب.

دفع بها إلى السرير، وأغمضت عينيها، وتجمد جسدها وكأنه انفصل عن روحها انفصالًا تامًّا، وأصبح جثة لا تشعر ولا تعترض. وعندما شعرت بألم اختراقه ضغطت على عينيها، ولاحت بذاكرتها سنين الطفولة وضحكات الأطفال وجريها ساعات بلا قيود ولا خوف، وتذكرت عرائسها القطنية وكلامها مع العرائس ساعات وهي طفلة، وكيف كانت تغضب منها أحيانًا وترمي بها على الأرض ثم تصالحها وتشرح لها سبب عصبيتها. ترى هل أخرجت أمها العرائس من الصناديق؟ لابد أنها مازالت في بيت والدها في الصناديق الخشبية، ربما كانت تحتاج إلى بعضها معها هنا.

بعد أن انتهى وابتعد عنها قليلًا نظر إليها في شيء من الريبة أخافتها وأربكتها، فقالت وهي تضع الغطاء على جسدها: هل أغضبتك أيها الأمير؟

قال وهو يفرد ظهره على حافة السرير بعيدًا عنها: لا. لماذا تغضبينني؟

هذه الريبة في عينيه تخيفها ولا تعرف عواقب غضبه، لم يكن عنيفًا معها ولم يغتصبها عنوة كما توقعت، وبدا لها أنها لو فصلت الجسد عن الروح كما فعلت اليوم تستطيع التحمل

بعض الوقت إلى أن يقدم والدها شكوى إلى السلطان ويتم طلاقها.

بعض الصبر مطلوب، والخطة تسير على أكمل وجه. أغمضت عينيها وهي تحاول النوم وتشعر بشيء من الراحة، ففقدان العذرية لم تكن آلامه مبرحة كما توقعت، ولم تصرخ ولم تطلب العفو كما ظنت. هذه إذن حياة البغاء، هكذا تشعر بائعة الهوى، بلا شيء داخل النفس والجسد. ليس صعبًا فصل الروح عن الجسد كما فهمت اليوم.

* * *

تجولت في القصر في أسى وهي تقسم أن تنسى هذه المحنة وتمحوها من ذاكرتها عند انكشاحها، وعودة الحياة إلى طبيعتها، وعودة المماليك إلى قلاعهم، وأهل مصر إلى دروبهم، والعيش في سلام وسكينة، والعودة إلى والديها وحبيبها.

يشغلها أمر المماليك؛ لم تعرفهم يومًا، ولم ترَ سوى الجنود أحيانًا في الطرقات، والأمراء على خيولهم من بعيد يتفقدون حواري القاهرة. يوم تولي السلطان كانت تخرج في الاحتفالات وتستمع إلى الأغاني والموسيقى وتفرح مع العامة، ولم تسأل نفسها يومًا أين يختبئ المماليك، ولا كيف يعيشون، ولا ماذا يأكلون. سمعت بعض الشائعات، قيل: إن المماليك هم من منعوا بيع الإوز والدجاج في أسواق العامة، وتركوا لهم اللحم الرخيص والخضراوات، وإن المماليك يأكلون أفضل أنواع الفواكه ويرتدون الحرير والذهب، وإن حال العامة، سيكون أفضل لو لم يأكل المماليك في بطونهم الحقوق والأموال. همسات أهل بيتها كانت نادرة وحذرة، وهيبة المماليك لم تتزعزع حتى مع اختفاء الدجاج من الأسواق، ووصول سعره إلى سعر الذهب.

كلما تغير سلطان كانت تسمع اسمه مرة أو مرتين ثم تنساه، ويتغير سلطان آخر، وبدا لها أن السلطان في بلادها كالدجاج بالضبط، اختفاؤه أو وجوده لا يؤثران كثيرًا على الحياة، والعيش بغير وجوده ممكن، والتعود على غيابه جائز. تنسى اسم السلطان، ولا تعرف لماذا جاء، ولماذا قتل، ولماذا اختفى، ولماذا مات، فأمراء المماليك موجودون في كل ليالي العمر الباقية كالقاهرة ودروبها. لا يغيبون ولا يختفون بمرور الوقت وقسوة الأيام، وهكذا هم المماليك قلاعهم عامرة بالأسلحة، ورجالهم يذبحون في إتقان. كل عام يأتون بهم من بلاد الأتراك ويدربونهم ويعلمونهم أن القتل واجب، وأن الدفاع عن الدين ودار المسلمين فرض، وأن الدجاج لا يأكله العامة من أهل مصر.

بعد ثلاثة أيام لاحظت نظام زوجها الأمير اليومي. وكيف يتدرب يوميًّا على السيف والرمح والجري والمصارعة ثلاث ساعات بعد الفجر مباشرة. أدهشها بصلاته للفجر كل يوم وقراءته بعض القرآن قبل التدريب، ثم الاختفاء تمامًا من القصر حتى المساء.

لم يؤثر فيها قصره ولا جواريه، ولكنها بفطنتها فهمت أهمية خلق الأصدقاء والموالي. فأخرجت بعض المال الذي أعطاه لها والدها، وأعطته لكبيرة الجواري، وكانت سيدة في السبعين، لم تعرف زينب قط من أين أتت ولا لماذا تعيش في قصر الأمير.

لفت نظرها منذ اليوم الأول، وجود جارية شقراء شديدة الجمال اسمها سارة، وفهمت أن علاقتها بالأمير مختلفة، وأنها أقرب واحدة له في القصر، لا يتكلم معها إلا بالتركية، وكأنها لغتهما السرية لا يفهمها العامة، ولا تفهمها هي.

كانت سارة هي أول بارقة أمل لها. لو كان متعلقًا بسارة فسوف يتركها هي قريبًا. ابتسمت لسارة في حماس

وصافحتها بحرارة وهي تتمنى لو تقبل يدها وترجوها أن تغوي الأمير فيبتعد عنها وينساها نسيانًا تامًّا. فكرت منذ اليوم الأول كيف تخبرها بهذا، وكيف تطلب منها هذا الطلب. خافت وسكتت وهي تدعو الله وتنتظر الفرج القريب.

بعد بضعة أيام عرض عليها الأمير أن يريها القصر وحدائقه، ويتكلم معها عن واجباتها، وما يريده منها داخل القصر، وكيف تتعامل مع الجواري والجنود.

وافقت على الفور. أحكمت الخِمار على وجهها، وارتدت ملابسها الفضفاضة، وسارت بجانبه مطأطئة الرأس وهي تدعو الله أن يفرجها قريبًا، فصبرها ينفد، ودور الغانية المتجمدة صعب عليها، لا تحبه ولا تريده.

قالت في خجل: مولاي الأمير، هل لي أن أسألك سؤالًا؟

قال وهو يسير وينظر إلى الأزهار: بالطبع.

- هل أفرجت عن أخي وابن عمي؟

نظر إليها ثم قال: ليس بعد.

فكرت قليلًا، ثم قالت: كنت أطمع في كرمك، واعتقدت أنك ستفرج عنهما يوم زواجنا.

قال في حسم: أفرج عنهما عندما أريد هذا.

- هل رأيتهما مولاي الأمير؟ أخاف..

صمتت فسأل: ممَّ تخافين؟

همست في صوت خائف: أخاف أن يموتا من التعذيب، سمعت عن عقاب المماليك، وأعرف أنهما يستحقانه، ولكنني أخاف.

نظر إليها في استياء، ثم قال: لا تثقين في المماليك، أليس كذلك؟

- أثق بهم بالطبع؛ خيرهم يعم البلاد، ولكن الخوف كالوسواس يدخل النفس بلا استئذان.

- تتكلمين بفصاحة من جديد، لماذا لم يمنعك والدك من القراءة؟ بعض العلماء نصحوا بهذا، تعليم البنات آفة أحيانًا!

قالت في ثبات: وبعضهم نصح بالعلم؛ فهو فرض عين وجهاد، والقراءة هي مفتاح الدين والمعرفة.

أطال نظره إليها ثم قال: لم أدرس طبًّا وحسابًا. درسنا علوم الدين فقط. تريدين أن أشتري لك بعض الكتب؟

قالت في حماس: أتمنى هذا، وأرجوك أن تطمئن على أخي وابن عمي، وأطمع في...

صمتت، وأدارت وجهها إلى حيث ينظر هو، ورأت أمامها رجلًا مكبلًا بين جنديين ومساعد الأمير يجرُّه ناحيته.

تحققت من ملامح الرجل، وبدا لها أنه ليس من العامة، وليس أحمد ولا يوسف. تنفست الصعداء وهي تشاهد هذا المشهد الذي علمها أكثر من كل الكتب التي قرأتها مجتمعة.

سأل الأمير محمد في قوة: هو من نبحث عنه يا شمس الدين؟

قال شمس الدين وهو يرفع رأس الرجل المنتكس: هو من تسلل إلى القصر يا مولاي.

أخرج الأمير سيفه في سرعة وقطع رأس الرجل في ثوان فوقع على الأرض، واختلج الجسد، وفارت منه الدماء المندفعة وهي لا تعرف أين تسكن ولا أين موطنها.

أعطى الأمير سيفه إلى شمس الدين فمسحه في إتقان، وأعاده إليه فأدخله في غمده، ثم قال: ضع رأسه في صندوق وابعث به لمن استأجره. تعرفه.

قال شمس الدين: أوامرك أستاذي.

أثناء ذلك كان الدم قد هرب من كل جسد زينب، واختل توازنها، فأسندت يدها على الشجرة تستغيث بها وصوتها لا يجرؤ على الخروج من حلقها.

هزَّ الأمير رأسه إلى شمس الدين، فسار بالجسد والرأس مع الجنود بعيدًا.

ثم التفت إلى زينب وقال: كنت تطلبين شيئًا؟ ذكريني، ماذا كنت تقولين؟

فكرت في أن تنطق ولم تستطع، بقيت ساكنة حتى قال في قوة: زينب؟

قالت وهي لم تزل تستند إلى الشجرة: اعذرني يا مولاي؛ الدماء تشعرني بالإعياء.

مد يده لها قائلًا: الدماء هي ما تعيشين به، لا إعياء في الموت والدماء، هي حقائق وحياة. هل ستأخذين يدي؟

نظرت إلى يده في خوف وهي تتذكر مشهد القتل، ثم أمسكت بيده مسرعة، وقالت: ماذا فعل الرجل؟

- خان. الخيانة عقابها القتل.

رددت: عقابها القتل. ولكنه لم يتكلم، لم يدافع عن نفسه؟

نظر إليها في استياء: تعتقدين أنني ظلمته؟

قالت مسرعة وهي تضغط على يده: يقطع لساني قبل أن أقول هذا يا مولاي، أنت لا تظلم أبدًا. من استأجره؟ هل كان يريد قتلك؟ من يريد قتلك؟ وإلى من ستبعث بالرأس؟

- قلت لك تعليم النساء يأتي بالكثير من المشاكل، وكل هذه الأسئلة لا تروق لي. لابد من زيارة السلطان والتعرف إلى زوجاته. بعضهن لا يتكلمن العربية. ربما يمكنك تعلم التركية. هل تستطيعين هذا؟

كان يتكلم وكأنها ستحيا هنا إلى الأبد. أقلقها كلامه عن المستقبل. قالت بلا تفكير: بالطبع. ما تأمر به يطاع.

- أريدك أن تفهمي أن هذا الزواج غريب على المماليك، كان لابد من إذن خاص من السلطان، فلا تتوقعي الترحيب من زوجاته، لا يعرفن العامة.

همست في تلقائية: لماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا تزوجتني لو كان هذا الزواج صعبًا هكذا؟ أعني حظي جميل أنك تزوجتني، ولكنني أتمنى ألا تكون قد شقيت بسبب هذا الزواج.

- سؤال غريب لم أتوقعه منك، ولم لا أتزوجك؟

- أعني لست بجمال سارة مثلًا، وأنت لا تحتاج إلى أي امرأة من أهل مصر، أنت أمير، وتستطيع الحصول على أي شيء.

قال في حسم: نعم؛ ولذا تزوجتك.

- لأنك تريد الحصول على كل شيء؟

- ربما، لا أعرف، لا يستهويني هذ الحديث. تحبين العيش هنا؟

قالت بلا تردد: جدًّا، أحب العيش هنا جدًّا، وأقدرك وأشعر بأنِّي محظوظة بوجودي معك.

نظر إليها في ريبة من جديد ثم قال: ماذا تحتاجين مع الكتب؟

- بعض الخيط لأغزل به، كرمك يخجلني يا مولاي.

* * *

هذا القتل بدم بارد وبتر الرءوس جديد عليها. لم تنم ليلتها، رأت الجسد يرتعش والدم ينبثق من الأوردة، واقشعر جسدها، وأصاب الرعب كل نفسها.

كل يوم يمر على زينب داخل القصر كان يقرب لها أمل الخلاص. لم تعرف ما إذا كان الأمير ملَّها أم لا. اعتادت أن تطفئ النور، وتغمض عينيها، وتفصل الجسد عن الروح، وتتحمل في صبر. ولم تعرف إذا كان لم يزل يزور حجرة سارة أيضًا أم لا. كانت تدعو الله كل يوم أن يملَّها، أن يكرهها، أن يعود إلى جاريته، ولأنها سريعة الفهم والتأقلم بدأت تستثمر في علاقتها بنساء القصر، وخاصة أم خليل التي تبدو القائدة في القصر، فأعطتها طوقًا ذهبيًّا من مصاغها الخاص، وتكلمت معها. وكانت أم خليل من القليلات في القصر اللاتي يتقنَّ العربية بطلاقة.

لم تكن سارة تحبها، بدا هذا واضحًا، وتحاشتها زينب.

زيارة والدها وعائلتها والشيخ عبد الكريم كانت بمثابة حياة جديدة بعد موتها في قصر الأمير.

نظرت من مشربيتها إلى المجلس وبجانبها فاطمة وأمها وهي تتمنى سماع أي خبر عن يوسف وأحمد.

قال والدها في رفق: مولاي الأمير.. متى ستفرج عن أحمد ويوسف.

قال: قريبًا. لا تقلق.

نظر أبو بكر إلى الشيخ عبد الكريم، فقال الشيخ في رفق: نشعر بك وكأنك واحد منَّا يا مولاي. بيننا نسب وعشرة الآن.

نظر إليه الأمير في دهشة، فقال الشيخ مسرعًا: والمقامات محفوظة بالطبع. ولكن يقلقني أمر آخر جئت لك من أجله وأنا أحمل روحي على كفي، ولكن «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، ولا أعرف هل أحاول أن أغيِّره بلساني أم بقلبي. أترك الاختيار لك، ولا أريد أن أقضي بقية عمري في

السجن كمُعلِّميَّ.
قال الأمير: تكلم، وأعدك بالأمان.
- أثق بقرارك وبعدلك. وعدتنا بالإفراج عنهما، ولم يحدث بعد.
- هل جئت من أجل هذا؟
التقت أعين أبي بكر والشيخ عبد الكريم، ثم قال عبد الكريم: ليس فقط، هناك أمر جلل، وسأخاطر بالتكلم فيه.
- وعدتك بالأمان، تكلم.
- البلاد في حالة مزرية منذ رحيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون.
التفت الشيخ عبد الكريم حوله ثم أكمل: فكرت كثيرًا في الكلام أو الصمت، ولكن لابد من قول كلمة الحق، ربما تشفع لنا عند السلطان بيبرس، أتمنى هذا. رجاله تعيث في الأراضي، تغتصب الحقوق، وتسرق الطعام، وتفرض الضرائب، وتحابي الفاسدين، وتقبل الرشوة والمحسوبية بصدر رحب، وتفرضها أحيانًا. بالأمس حرقوا عشرة منازل في حارتنا؛ لأن أصحابها رفضوا إعطاءهم ما يريدون، وعلقوا رءوس التجار الشرفاء على الأبواب عبرة لمن تسول له نفسه ويقول "لا" في وجه الظلم والفساد. الأسعار أصبحت قاسية حتى على الأغنياء. هذه البلاد كانت تعج بالخير، وأصبحت تئن من الظلم والفقر. كيف لبلاد هزمت التتار والصليبيين أن تئن من الظلم؟! ليس للعامة إلا طاعة ولي الأمر، ولكن عندما يهمس العامة من الشباب بالرغبة في الفناء والرحيل إلى بلاد أخرى لابد من وقفة وكلام.
استمع له محمد في صبر ولم يقاطعه.
فأكمل الشيخ عبد الكريم: من السلطان الشرعي؟ ومن السلطان المغتصب؟ لا نعرف نحن العامة. تبقى هذه الأسرار

بين المماليك، وحينما يختفي الناصر محمد ويتخلّى عن واجبه وسلطته ويرحل إلى الكرك. ماذا نفعل نحن؟ أعطيتني الأمان يا مولاي، ولو أردتَ قتلي أو تعذيبي فلن أبالي. فكرت كثيرًا، ووجدت أن قول الحق يستحق المجازفة. ولو كان الظلم يقتصر على عدد قليل ربما كنت أطلب الشفاعة، وأدعو إلى اللين، ولكنه غَشِيَ كلَّ البلاد وخَيَّم عليها. كم من المال في خزائن أمراء السلطان ومواليه؟ وكم من المال في خزائن العامة الذين يعملون ليل نهار من أجل العيش في سلام، لا يتدخلون في شيء، ولا يطلبون شيئًا. السلطان ندعو له كل يوم، ولكنني لا أستطيع الدعاء له وهو يحرق البيوت ويقتل الأطفال. أي مسلم يفعل هذا؟ وأيُّ عقل يفكر هكذا؟ يثني عليه زملائي الشيوخ؛ لأنه منع الخمر؟ وإذا منعت الخمر ونشرت الفساد والظلم فكيف تحمي ديار المسلمين؟ الخمر حرام لأنها تذهب العقل، وأفعال السلطان وأمرائه تذهب عقول أهل مصر يا أمير. إنَّه يفرض الإتاوات، أين هيبة الأمراء لو أخذوا المال عنوة من التجار؟ هذا يذهب ريحهم وزمانهم.

قال الأمير محمد في حسم: أكتفي بسماع هذا يا عبد الكريم، لا تعب في المماليك في حضوري.

- أجنادنا وحكامنا، أنا أعيب في الفاسدين، وطلبت حمايتك.

- أفهم، وأعرف عمَّا تتحدث.

تنفس عبد الكريم في ارتياح ثم قال: وماذا ستفعل؟

قال في وضوح: الدعاء للسلطان واجب، واحترام المماليك فرض، ولكنني لن أتخلى عنك. ألا يكفي أن تعرف هذا؟

التقت عينا عبد الكريم بعيني الأمير، ثم قال: عندما أخرج من قصرك هل سيتم القبض عليَّ وتعذيبي؟

- عندما تخرج من قصري لن يتم القبض عليك، ولكن سيتم

القبض عليك بعد برهة. تعرف هذا أليس كذلك؟

نظر إليه الشيخ عبد الكريم لحظة مرة أخرى، ثم قال: هل ستبلغ البصاصين عمَّا حدث بيننا؟

ربت الأمير محمد على كتفه، ثم قال: أنا لن أبلغ البصاصين، ولا بصاصين في قصري، ولكنك تتكلم مع غيري، وكلماتك لابد أنها وصلت السلطان والأمراء. سيقبض عليك يا شيخ تعرف هذا، أليس كذلك؟

أطال نظره إليه من جديد وقال: فكرتُ في الصمت كما أصمت دائمًا ولم أستطع، شجاعة أو حماقة لا أعرف. في الموت النجاة وفي الخزي أمام الظلم معصية الله، والله أرحم من السلاطين، ولكن لابد من عدم استغلال كرمه ورحمته. تفهمني؟

- أفهمك. لو خرجت من قصري الآن أمامك نصف يوم لا أكثر لتجهز أشياءك وتأخذ أبناءك والثمين في بيتك وترحل. بعد هذا سيتم القبض عليك وجرك في الحارة أمام العامة، ولن تشفع لك عمامتك ولا علمك. للسلطة قوانينها الخاصة وحساباتها المختلفة. لو قررتَ الهرب لساعدتك. تذهب إلى الصعيد مثلًا. حتى لا تشعر بالخزي والجنود يجرُّونك في الطرقات. يعز عليَّ أن أرى هذا.

قال عبد الكريم في قوة: لن أهرب. لو هربت لخسرتُ هيبتي بين العباد.

- ولو بقيتَ لخسرتَ هيبتك بين العباد.

- ولو بقيتُ لا أخسر هيبتي، العامة تفهم وتعي، وتعرف أن للظلم أيامًا يطفو فيها على السطح ثم ينهزم. سمعتني وكنت صبورًا معي أيها الأمير. أثق بك، لا أعرف لماذا؟

ابتسم الأمير محمد لأول مرة ثم قال: أنت ساذج يا شيخنا،

اعذرني. لم تمارس السياسة ولم تعرف السلطة. نصيحتي لك ونحن في نفس السن: لا تثق في أحد. إذا قررت ألا ترحل فأستطيع أن أتأكد من أنهم سيحسنون معاملتك في السجن. أعدك بهذا. لإهانة الشيوخ عواقب يعرفها المماليك. سأتكلم مع السلطان.

- أي سلطان؟

- من سيحبسك بعد غروب الشمس.

قال أبو بكر: وابني يا مولاي؟

- وعدتك، اصبر وثق بي.

قال أبو بكر: قلتَ للتو إن الثقة سذاجة.

- ولكنك لا تملك سوى الثقة بي، فلو لم تثق بي فماذا ستفعل؟ جازف بالثقة بي فليس لك خيار آخر.

* * *

فاطمة.. ابنة خالة زينب كانت حالة خاصة، وسببت لأهلها الكثير من المشاكل، حتى فكر والدها جديًّا في قتلها ودفنها تحت الأرض. منذ الصغر لم تحب القراءة ولا الكتابة، ولم تتعلم ولم تحفظ أيًّا من آيات من القرآن، بل كان لديها هوس بشيء واحد، وهو الموسيقى والغناء. طلبت من أمها شراء دف وعود وهي طفلة، ومنذ ذلك الحين وهي تنتظر الأعياد لسماع الموسيقى والغناء وتقليد المطربين وترديد أغانيهم. في البداية لم يأبه والداها بهذا، فقد كانت ابنة من عشرة أطفال، ولم تر والديها إلا قليلًا، وفي الغالب كانت تقضي يومها في بيت خالتها مع زينب التي كانت في نفس السن وقلبها يتسع للجميع. زينب كانت تستمع لغناء فاطمة في حماس، ولحكايات فاطمة، وطموحات فاطمة، وإحباطات فاطمة، وكانت صديقتها الوحيدة. ومع اختلاف الشخصيتين استمرت الصداقة قوية

تتحمل الأوبئة والأزمات؛ فزينب كانت أكثر هدوءًا وأكثر تفكيرًا في كل الأمور، وأقلَّ تمردًا وإحباطًا من فاطمة.

وتمرد فاطمة وإحباطها كانا سيكونان مصدر تجاهل من أهلها، لولا فعلتها المشينة وهي في الخامسة عشرة، فقد قضت فاطمة على أهلها ومستقبل أخواتها قضاءً تامًّا لولا الوباء الذي أنقذ بعض الإخوة بالموت وألهى الأب عن دفنها حية.

فقد لملمت فاطمة بعض ملابسها وذهبها، وخرجت من البيت فجرًا لتعمل مطربة في خيال الظل بعد أن أقنعها بهذا أحد المطربين الرجال الذين قابلتهم في المولد يومًا، وتبادلا الهمسات والكلمات، وترك لها عنوانه، ورأى وجهها المشرق، وسمع صوتها الجميل.

عندما استيقظت الأم ولم تجد ابنتها صرخت وولولت، وبدأ الجميع يبحث عنها، وكانت زينب تعرف كل شيء. بقيت صامتة؛ لا تعرف هل تخبرهم بالحقيقة أم لا، فصديقتها ستموت في الحالتين لو عملت مع المغنين وعاشت في بولاق على النيل وسط المجون والدعارة، وكذلك لو عادت إلى بيت والدها. بقيت زينب تفكر يومًا كاملًا وخيالها يجمح بها إلى أفكار مخيفة عن اغتصاب فاطمة من قبل المغني، وعن دخول فاطمة في الدعارة، وعن مستقبل فاطمة الذي انتهى انتهاءً تامًّا. بعد يومين ذهبت إلى والدها في خجل، وكانت في الرابعة عشرة، وأخبرته بما حدث، وأن فاطمة كانت تريد الهرب منذ زمن، وأنها تعتقد أنها ذهبت إلى بولاق.

هزَّ الأب رأسه في وجوم، وأخبر والدها، وذهب رجال العائلة للبحث عنها بالسيوف والعصيان. بعد يوم كامل وجدوها تغني في حماس وسط الرجال. ما إن رأت والدها حتى شهقت في فزع، وهمت بالجري، ولكن الرجال حاصروها وشدوها في عنف

إلى العربة، ثم إلى بيتها.

وأغلق الأب الحجرة عليها هو وإخوتها، وبدأوا ضربها ضربًا مبرحًا، وكانت زينب تسمع في ألم ولا تدري هل أنقذت صديقتها أم قتلتها، قالت لوالدها في رجاء: أبي، اطلب منهم ألا يقتلوها.

قال الأب في حسم: تستحق القتل يا ابنتي.

قالت مسرعة: القتل لن ينفعهم، ستقبض عليهم الشرطة، وسيفضحونها أكثر، ربما لو وجدوا لها زوجًا من منطقة أخرى لكان ذلك أفضل.

نظر لابنته ثواني، ثم قال: أنت ذكية دومًا يا زينب، ولكن يجب تأديبها أولًا.

قالت في رجاء: لو شوهوا جسدها فلن يتزوجها أحد.

قال الأب: نعم معك حق.

بعد أن طرحوها ضربًا، خرجوا من الحجرة وبعضهم ينهج من مجهود الضرب، واقترح عليهم أبو بكر اقتراح ابنته، وحاول تهدئتهم.

في نفس اليوم بدأ الوباء يفترس البيت والإخوة، ولم تتزوج فاطمة إلا بعد عام من هذه الحادثة، وكانت سعيدة جدًّا تغني في فرح يوم زواجها، وبدا للجميع أنها نسيت نسيانًا تامًّا حلم خيال الظل والغناء في بولاق، وأصبح شغلها الشاغل غباء زوجها وعائلته، وأنانية أولادها، ولكنها لم تتوقف عن الغناء، ولم تخمد روح التمرد بداخلها.

كلما تقابلت مع زينب بدأت في الغناء والضرب على الدف، والعزف على العود، وزينب تستمع في حماس وفرح. ولكن الفرح ترك زينب إلى الأبد. وغناء فاطمة اليوم يجعل القلب يعتصر والعقل يشرد.

* * *

تفحصت الأم وجه ابنتها، ثم قالت: أنت بخير يا زينب؟

هزَّت زينب رأسها بالإيجاب.

فقالت الأم: لم يؤذك؟

قالت في فتور: إذا كنت ترين أن تحطيم كل عمري ليس أذية فلا، لم يؤذني.

- لا أحب الكلمات الكبيرة التي تقرئينها في الكتب، هذه القراءة أفسدت عقلك، أعني لم يؤذك؟ لم يضربك؟ لم يكن عنيفًا معك؟

- لا لم يكن عنيفًا معي.

قالت فاطمة مسرعة: المماليك مثل رجالنا أم مختلفون؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- نعم بالطبع. تكرهينه؟

التفتت حولها ثم قالت: أكرهه إلى أقصى حد. لم أكره أحدًا هكذا قط.

ساد الصمت برهة، ثم قالت الأم: لا أعرف ماذا أقول. هل تعتقدين أن أمل والدك في الطلاق سيتحقق؟ أخشى ألَّا يتحقق، وفي هذه الحالة تعيشين مع من تكرهينه طوال عمرك. لا أعرف يا ابنتي، هل يمكن أن تحبيه بعض الشيء؟

قالت في حسم: لا يوجد شيء اسمه أحبه بعض الشيء، قلبي مع الرجل الذي سرق المملوك حقه، ولن يتغير هذا ما دمت أحيا.

ضربت الأم كفًّا بكف وتركت الحجرة.

همست فاطمة لزينب: أختي.. قررت الهرب، هذه المرة لن يجدني أحد. سأرحل إلى الشام، ولن يعرفني أحد، ولن ينغص

حياتي أحد. لو أصبحت مغنية مشهورة أرسل لك لتأتي لي وتتركي المملوك.

شهقت زينب في فزع وقالت: وزوجك وأبناؤك؟!

- سأجن هكذا يا زينب، لا أحبهم. أفكر في الغناء طوال الوقت، ولا يستمعون إليَّ. هل تصدقين هذا؟ حتى غنائي لا يستمعون له. ماذا أفعل.

- إياك! لو فعلت هذا، أنا متأكدة أن الأمير سيقتل كل أهلي ويحرق كل بيوتنا. هل تسمعين؟ أرجوك لا تفعلي هذا. أنا أستمع إلى غنائك. هيا غنِّي.

- تعتقدين أن صوتي جميل؟ قولي الحقيقة؟

- أعتقد أنه رائع، وأكثر من رائع.

- زوجي يقول: إن صوتي كصوت الحمير، بلا روح ولا رقة.

- يغار منك ويغار عليك، أنا أسمعك هيَّا غنِّي. ولكن إياك والهرب!

قالت فاطمة في أسى: لا تفهمين! هذا المارد بداخلي يريد الخروج، أحيانًا أفكر في حرق نفسي؛ لأتخلص منه.

- أيُّ مارد؟

قالت أم زينب مسرعة: أفقدت عقلك يا فاطمة أم جنٌّ لبسك؟! نحتاج إلى زار..

- خالتي... المشكلة في زوجي الحداد، كم أكرهه، لو استمع إلى غنائي مرَّة ربما، لو أبدى أيَّ إعجاب بصوتي كنت أتحمل. هكذا أموت أو أصيب بالجنون.

قالت زينب في أسى: اصبري يا فاطمة؛ فحالك أفضل من حالي.

- هذا ما تعتقدين يا ابنة خالتي، لا تفهمين ما معنى وجود

شـيء بـداخلك لا يخرج ولا يستطيع، يفتت النفس ويذهب العقل.

قالت خالتها: ركزي مع أطفالك وانسـي زوجك.

- أتمنى أن ينساني هو، لا أطيقه، كنت سأطيقه لو استمع فقط لغنائي!

نظرت إليها زينب، وقالت في أسـى: اصبري يا فاطمة، كما أصبر أنا.

* * *

زيارة السلطان كانت من أسوأ أيام زينب في عمرها بعد يوم زواجها بالطبع.

عندما وصلت زينب إلى قصر السلطان بيبرس الجاشنكير استوقفها زوجها الأمير محمد، وقال وهو ينظر إلى الحلوى التي تحملها الجواري خلفها: جئت بهذه الحلوى لزوجات السلطان؟

قالت في شيء من الخوف: نعم يا مولاي، من عاداتنا في الزيارات أخذ الحلوى والطعام.

نظر حوله ثم اقترب منها وقال: زينب، يمكنك أن تعطيها لهن، ولكنهن لن يأكلن منها، وأنت لا تأكلي أو تشربي عند السلطان. في المستقبل سأعلمك كيف تعطين طعامك للجواري أولًا ليتذوقوه، ثم تأكلين بعد مرور ساعة على الأقل. سنتكلم عن هذا في وقت آخر. اليوم آمرك ألَّا تأكلي أو تشربي في قصر السلطان أو أي قصر تذهبين إليه.

لم تفهم قصده، ولا عرفت هل ارتكبت خطأ بصنع الحلويات أم لا. قالت في صوت خافت: اعذرني يا مولاي؛ لا أفهم.

قال في لامبالاة: للأمراء قوانين مختلفة عن العامة، وأمراء المماليك لا يثقون في طعام ولا دعوات؛ الطعام والدعوات

وسائل سهلة وخفية للقتل.

- مولاي، ألن يغضب السلطان إذا لم تقبل أن تأكل عنده.

قال في يقين: لن يغضب؛ هو يعرف وكل الأمراء يعرفون، هو أيضًا لا يأكل ولا يشرب عندي. هذا لا يعني عدم الثقة بين الأمراء، ولكنه حرص المقاتلين. للقتل قواعد ومنهاج نعرفه جميعًا ونتوقعه.

صمتت برهة ثم قالت: ولكن أليس وجودنا في قصر السلطان كافٍ لو كان يريد القضاء علينا؟

نظر إليها، ولم يتوقع أن تجادله، فقالت مسرعة: اعذرني، أريد أن أفهم فقط لأتبع القواعد يا مولاي.

قال وهو ينظر حوله: أحيانًا الزيارات تكون مجازفة، ولكن إذا ذهب الأمير محاطًا بجنود خشداشيته فقتلُه قتلًا مباشرًا صعب ويؤدِّي إلى حرب وخراب على الفاعل. أما السم في الطعام فشيء آخر. اذهبي الآن.

هزَّت رأسها، واتجهت إلى باب الحرملك وكلماته تتردد بداخلها، ولا تصدق هذا الكم من الحذر والخيانة بين من يحكمون بلادها.

زوجات السلطان جميعًا تعاملن معها وكأنها جارية، ولم يرحبن بها ولم يصافحنها، وأدرن وجوههن عنها وكأنها صرصار صغير لا يكترثن حتى بقتله. بقيت ساكنة لمدة ساعتين، ومع أنها جاءت بالهدايا والطعام والحلويات، ومع أنها أشرفت على القطايف والكنافة بنفسها، وصنعت الشربات بيدها، لم يشكرها أحد. كبرياء زينب الذي مسح به الأمير محمد بلاط قصره منذ وقع نظره عليها لم يعد يحتمل!

بقيت واجمة لا تحاول الكلام ولا الفهم لما يقولون من وراء ظهرها، وأقسمت ألا تتعلم التركية حتى تنقذ نفسها من

الكلام مع هؤلاء النسوة المغرورات اللائي كُنَّ جميعهن في الأصل جواري ومماليك، كانت تتعجب من أمر زوجات السلطان لا هُنَّ حرائر ولا هُنَّ بذكائها وتعليمها، فلِمَ كل هذا الهمس واللمز والغيرة ونظرات الاستعلاء؟ يا لَهُ مِنْ زمن تعيس، ذلك الزمن الذي يولي هؤلاء الغانيات حكم بلاد النيل. زَفَرَتْ في غيظ، وأدارت وجهها وهي تذكر نفسها بغنى والدها ونفوذه بين التجار، وتدليلها في بيته، وتقدير كل من حولها لها، مع أنها بنت وليست ولدًا.

الأمير محمد كانت زيارته للسلطان مهمة، ودعاه السلطان دعوة خاصة للمشاورة في أمر، وجاء الأمير محاطًا بجنوده. قال له السلطان بيبرس الجاشنكير، وهو يتفحص وجهه: أثق بولائك.

هزَّ محمد رأسه بالإيجاب، فأكمل بيبرس: إذا تقاتل المماليك بعضهم مع بعض أمام العامة والعلماء تضيع هيبتهم، ويصبحون عرضة للسخرية والاستهتار. لذا فضلت أن أجْنَح إلى السلم مع الناصر محمد.

قال الأمير محمد: أتفق معك.

- مشاكلنا نحلها بيننا، ولا يتدخل فيها أهل مصر. وجود الناصر محمد في الكرك يقلقني، ومماليك الشام ولاؤهم مشكوك فيه، ويعتقدون أنه هو الوريث الشرعي للعرش. وعرش مصر لا يورث. فهم المماليك هذا ولم يفهمه أحد من قبلهم، وربما لن يفهمه أحد بعدهم. لذا لا بد أن يمسك بزمام الأمور قائد وجندي. هذه مشكلة تقابلنا يا محمد، فهناك فرق، وأنت تعرف ما بيني أنا وأنت والناصر محمد. تفهمني، أليس كذلك؟

نظر إليه محمد برهة ثم قال: أنا وأنت مماليك.

أكمل بيبرس: مقاتلون وجنود حاربنا معًا في مرج الصفر،

وانتصرنا على المغول كما فعل المماليك من قبل. وأنا وأنت كنا من خشداشية السلطان قلاوون. تعرف يا محمد. والناصر محمد مهما كان ابن سلطان وليس محاربًا ولا جنديًّا مثلنا، لم يتدرب على القتال منذ الصغر، ولم يقسم ولاءه لأستاذه مثلي ومثلك، هو من سلالة المماليك، ابن ناس وليس مملوكًا.

قال محمد بعد تفكير: أقسمت ولاءك للناصر محمد.

- أقسم ولائي لمملوك مثلي، وليس لابن ناس، هو ابن سلطان، ولكنه ليس مملوكًا. تعرف قصدي، وتعرف الفرق بين أن يكسر المملوك ساقه وأن يكسرها ابن السلطان.

تذكر الرجلان الحادثة منذ زمن بعيد. عندما استمرا في التدريب ساعات، ووقع محمد على الأرض، فهمس له بيبرس الجاشنكير: لو كُسِرَتْ ساقك لجعلوك خادمًا. تذكر؟

لم يكن يفهم في تلك اللحظة كيف لطفل أن يتحكم في ساقه ولا يكسرها. وكانت ساقه تؤلمه ألمًا لا يوصف، ولا يحتمل، وكان في الثامنة. كتم صرخاته واستمر في التدريب، وبعد الانتهاء، جلس على مخدعه وحرق آلام العظام ليس بعده حرق. وردَّد لنفسه ولعظامه أن ساقه لم تكسر، وأن أربطته بخير، وأن أي تشوه في أطرافه معناه نهايته كرجل. وأن القتل حرفة وفن، والصرامة عهد وبناء.

في الصباح كان موعد خروجه إلى الشمس خارج القلعة، ولم يكن يحدث هذا كثيرًا، وكان موعد تنزهه بين أركان القاهرة التي لا يراها إلا في أوقات قليلة ومحددة. وعندما جرى أطفال المماليك في نشوة بعد فك سجنهم داخل القلعة شهورًا يتدربون ويتعلمون، كان محمد جالسًا في أحد الشوارع يخفي ألم ساقه ولا يتحرك.

قال له بيبرس في ذاك اليوم وكان يكبره بأعوام: لو أخبرتهم

أنك كسرت ساقك تعرف ما سيحدث.

فأجاب محمد: لم تكسر.

- تؤلمك؟

- لا تؤلمني. من قال: إنها تؤلمني؟

- ولِمَ لا تجري؟

- لن أجري كالأطفال. المحارب لا يجري إلا في ساحة المعركة للهجوم على العدو.

بقي الألم في ساقه شهورًا، وكان لا بد من إخفائه إخفاءً تامًّا، ولم يكن متأكدًا ممَّا حدث بعد ذلك، هل هي معجزة وإنقاذ أتت من حيث لا يدري فتلاشى الألم؟ أم أن الخوف بداخله شفاه وأنقذه من مصير سيئ يصبح فيه خادمًا، ربما في حمامات النساء؟ لا يعرف أين تكمن القوة ولا الحقيقة. أقنع نفسه أنه لم يكن خوفًا، كان يقينًا. المحارب لا يخاف. حجرات القلعة تعج بالمحاربين، وليصبح أميرًا لا بد من الصرامة والقسوة مع النفس، ولا بد من الألم والقوة المفرطة. والبتر بلا أي تردد. التردد شيمة العامة، والرحمة شيمة الفقراء. والخوف لمن يحتاج إلى المماليك لتحميه.

وكان مملوكًا وعبدًا، والعبيد مستويات، هناك العبد الذي يملكه السلطان، ولا يخرج للنور من بين جدار القلعة سوى في أيام معدودات، وعندما يخرج يعرف موعد الرجوع، ويعرف الغاية والهدف وسبب التدريب والشقاء. وعندما كبر، فهم أكثر وتأقلم ورأى الغواية في سلطة الأمراء، وامتلاك الرجال والقصور، وكل النساء من أركان الأرض، وحتى لو اختلف الأستاذ لا بد من القتال للبقاء. وأفضل أنواع القتال هو القتال من أجل سلطان النفس، وليس سلطان البلاد؛ فسلطان النفس غوايته تدغدغ الروح وتشبعها. لم يختر أن يكون مملوكًا، ولكنه اختار أن يكون

أميرًا. وليصبح أميرًا بتر الكثير من الرءوس، وخاض الحروب، وفهم المكائد ومارسها. بعض أقرانه لم يزالوا جنودًا يطيعون أوامره هو، للإمارة سحر الوصول والشوق، كان يتمناها منذ كان في الثامنة، حاك المكائد عند اللزوم وحارب مع المحاربين، وبتر بلا تردد ولا تفكير، ولم يكترث إلا للهدف الذي يقترب، وللسلطة التي عاش من أجلها، طموح الأمير محمد كان بيبرس قد شم رائحته منذ زمن واستهواه، ووجد فيه شيئًا مشتركًا بينهما، وعندما أصبح أميرًا كان يظن أنه سيخرج إلى الشمس ويطوف البلاد، ولم يحتج إلى الشمس، احتاج السطوة التي تغوي وتنادي النفس... واستلقى العالم على ركبتيه بكل أمواله ونسائه وكل خفاياه. ليالي قضاها يستمتع بالإمارة، والرجال حوله رهن إشارته، والنساء ألوان بين يديه لا يختارهن له أستاذ ولا معلم، بل يختارهنَّ ويمتلكهن كلما أراد وهوى، ويختارهنَّ من كل أنحاء الأرض، للحرية غوايتها وأهواؤها الخاصة، ولكنه يشعر بأنه لم يزل مملوكًا لا يدري لماذا بالضبط، لرغبة النفس في السطوة والسيطرة أم لبحث النفس عن الوصول؟

بعد سنوات حاول المدرسون تدريب ابن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون على الحرب وفنونها، وكسر الناصر محمد قدمه، وصرخ وبكى، ولكنه لم يصبح خادمًا، وبدا لمدربيه أنه لا يملك بنية المماليك، ولا قوة بيبرس ومحمد. ولم يستطع الأطباء مداواة قدمه، فأصبح يوصف بالأعرج بقية عمره، بل بالنسبة للمماليك كان السلطان الأعرج وكان ابن ناس.

وكان لقب أولاد الناس مقصورًا على أولاد المماليك، وليس للعامة، وليس للمماليك. فأولاد الناس ولدوا في مصر، ولكنهم ليسوا من العامة. أما المماليك فدائمًا يأتون من بلاد بعيدة، ويتم تدريبهم منذ الصغر. المماليك لا يُولدون في مصر ولا

الشام أبدًا. المماليك يخطفهم الجنود من بلاد غير مسلمة، ويتم تدريبهم على يد أستاذهم، وولاؤهم للأستاذ والدين فقط، لا لبلد ولا عائلة، ولا أموال يرثونها من الآباء، أموالهم يكسبونها بعد انضمامهم للجيوش وهم في خشداشية الأستاذ. وكان السلاطين يفضلون دائمًا تدريب المماليك وليس أولاد الناس، فالمملوك محارب، والمحارب لا يمكن أن يكون لديه ذيول، أموال وأشياء يخاف عليها، يأتي من الصغر ويقسم بولائه. وبقي الحال هكذا، المماليك يُخطَفون وهم أطفال، ويدرسون الدين والفقه وكل فنون القتال، فيهم من يرتقى إلى أمير، وفيهم من يبقى جنديًّا، وفيهم من يغتصب الحكم ويصبح سلطانًا.

قال محمد في بطء: أفهم منطقك، وأتفق معك على أن المماليك يختلفون عن أولاد الناس. ماذا تنوي؟

قال بيبرس: أريده أن يرسل لي كل أمواله وكل مماليكه، وأن يقسموا بولائهم لي أنا كسلطان للبلاد. هو من قرر البقاء في الكرك، وهو من اختار المنفى، واجبي أن أنقذ بلاد المسلمين.

نظر إلى محمد وقال في وضوح: المغول والصليبيون يتفقون معًا على حربنا. دائمًا يتآمرون. محمد، هم لا يريدون تحرير كنيستهم وأماكنهم المقدسة فقط، أملهم وغايتهم مصر. تعرف وأعرف. واجبنا الصرامة والاتحاد.

اقترب منه، وقال في أذنه: الناصر محمد أعرج. لن يملأ عيون أهل مصر بجسده الهزيل والتشوه في ساقه. أهل مصر لا يملأ عيونهم سوى المحارب، يخرج لهم في زينته وملابسه بجسد كامل والقوة تنبثق من أطرافه، هم هكذا دائمًا.

ثم قام بيبرس، واقترب من محمد، وقال في حسم: الفرق بينك وبين الناصر محمد هو أنك لو أصبحت أعرج يتخلصون منك، كأنك كلب أجرب، لأنك من المماليك. أما الناصر فلو أصبح

أعرج يحكمنا ويكتم أنفاسنا لأنه ابن ناس وابن سلطان. أيُّ عدل وأيُّ منطق؟ ننسى الماضي. ما حدث بيني وبينك أعدك أنه لن يتكرر.

لم يجب محمد. ساد الصمت حتى قال بيبرس: أريدك أن تذهب برسالة إلى قائد المغول. نحتاج الـتأكد من السلم بيننا.

قال محمد: بالطبع، متى؟

- بعد أن أتأكد من أن الناصر محمد قد أعاد كل أمواله وكل مماليكه.

التقت أعين الرجلين، فقال بيبرس: محمد، الأمراء يفضلون أن يقسموا ولاءهم لي عن أن يقسموا ولاءهم لابن قلاوون الهارب الأعرج. لو لم نكن معه في حربه لكنا الآن كبغداد، ننحني للمغول ونطلب رضاهم لنحيا. وأريدك أنت أيضًا أن تقسم ولاءك لي أمام الجميع حتى أضمن رجالك. لا بد من الاتحاد في وجه العدو، مماليك مصر هي نعمة الله عليها. ستقسم لي؟ وسنبدأ من جديد. تقسم للمماليك أم لابن الناس؟ تذكّر.. حكمي لمصر مثله مثل حكم السلطان قلاوون من قبلي، كان من المماليك واقتنص الحكم من أبناء الظاهر بيبرس، وازدهرت البلاد، ونعمت برجلٍ محاربٍ يحافظ عليها، "رجل كامل" كما كان دومًا يقول عن نفسه، لمَ يرث الحكم ابنه الناصر محمد؟ إذا كان الأب جنديًّا اقتنص الحكم من ابن الناس، فلمَ يوصي لابنه بحكم بلاد تستعصي على أصحاب الرفاهية تحتاج السلطان القوي العادل؟

ردَّد محمد: تحتاج إلى السلطان القوي العادل.

- تقسم لي؟

قال بلا تفكير: سأفعل. سأقسم لك.

قال بيبرس بعد برهة: ولاؤك يهمني، ونفوذك غايتي، أزوجك

ابنتي الآن هنا في القصر لتعرف نيتي وتثق بي.

ابتسم محمد وكأنه توقع كلمات بيبرس، ثم قال: تعلمنا معًا وتدربنا معًا.

- عهدتك تريد السلطة والمال، وابنتي تحقق لك أكثر من هذا.

- ألا تضمن ولائي بلا زواج؟

- أضمنه.

- ولكن تريد أن يطمئن قلبك؟

- تفضل فتاة من العامة على أميرة من أولاد المماليك؟

- أفضل أن أختار نسائي بعناية، ولا أضطر أن أضحي بمتعتي من أجل السلطة، فقد راهنت بعمري، وقامرت به من أجل القوة، ويكفي أن أموت من أجلها، ولا أحتاج العيش مقيدًا من أجلها.

ضحك بيبرس ثم قال: أي منطق هذا؟ لم تر ابنتي. الزواج دائمًا من أجل النفوذ هكذا حياتنا وأنت تعرف.

- لا بد أنها من أجمل الجميلات.. أما النساء فاتركني أختار وأنتقي من أريد. هم كالفاكهة، وأنا لا آكل سوى الأنواع التي أشتهيها. ولكن ولائي لك في كل الأحوال.

* * *

عند خروج الأمير محمد من القصر تتبعه جندي، واقترب منه، وانحنى وأعطاه ورقة. فهزَّ محمد رأسه وأخذها.

بقيت زينب صامتة طوال الطريق، وعند الوصول إلى القصر اتجهت إلى حجرتها في وجوم.

وكان وراءها.

جلس على السرير وهو ينظر إليها وقال: لم تستمتعي مع زوجات السلطان؟

- لا أفهمهن.
- كنت أعرف.
- اعذرني يا مولاي. لم أكن عند حسن ظنك.
هزَّ رأسه بالإيجاب ولم ينطق.

خرج من الحجرة فتنهدت في ارتياح، ودعت الله أن يذهب إلى جاريته، ويعتقها من هوان الرضوخ والتحمل في صمت. لو تركها وحدها ولم يقترب منها تهون الحياة معه بعض الشيء. شعرت بأنها من سجناء القلعة، تحيا في ظلام دائم، ولا أمل لها في النجاة. ما جعلها تكرهه حقًّا هو اللامبالاة التي يتعامل بها مع المأساة التي تسبب فيها، وكأنه بلا ضمير أو قلب، وكأن البشر أدوات أمامه يستعملها ثم يتخلص منها. لا أفرجَ عن يوسف ولا عن أحمد. ضحت بنفسها ولم يفِ بوعده. وماذا توقعت من العبيد؟ أن يتصرفوا كالأحرار؟ أقسمت أنها يومًا ستصرخ في وجهه، وستخبره برأيها فيه في استفاضة، ثم ستبتر جسده قطعة قطعة بسيفه. الفكرة جعلتها أكثر أملًا. أغمضت عينيها، وابتسمت لنفسها لأول مرة وهي تتصوره مبتورًا وميتًا أمامها. وراحت في نوم عميق.

كان أمس أجمل يوم مَرَّ عليها في قصره، تركها تنام وحدها بكرامة، وبلا رضوخ وذل، وبلا أن يرى كل جسدها رغمًا عنها، ويعبث به كيفما يشاء. فتحت عينيها في فرح، ربما عاد إلى جاريته وملَّها، وربما الفرج قريب، وربما عودتها ليوسف ممكنة. ستنكشف الأزمة إذن، وستنجح في هذا الابتلاء، فقد تحملت في صبر وضحت، وفعلت كل ما تستطيع لإنقاذ الآخرين.

ما أجمل هذا اليوم! فهي لم تره في الصباح، ولم تره طوال اليوم. لأول مرة تأكل في راحة، وتردد أغاني سمعتها من فاطمة، وتسير في الحديقة تبحث عن الأزهار الزاهية. لو

اختفى كل المماليك من القاهرة! لو قضى الوباء عليهم! لو تقاتلوا حتى الموت! لو ثار عليهم سكان القاهرة بالسيوف وقطعوهم إربًا. كل الأماني أصبحت ممكنة. ما رأته من المماليك في الأيام الماضية يحتاج إلى أن تكتبه في كتاب خاص وتنشره بعد عصر من الآن. كل هذا الشر واللامبالاة والغطرسة والأنانية! ليس لها مثيل عند العامة.

قالت أم خليل: تبدين سعيدة اليوم يا مولاتي؟

قالت في حماس: سعيدة جدًّا.

نظرت إليها أم خليل في دهشة وتركتها.

جلست في حجرتها تغزل وتقرأ وتحلم بالغد وبنهاية المحنة. لو لم يأتِ الليلة أيضًا فلا بد أنه ملها وعاد إلى جاريته.

بدأت تدعو الله وتصلي وبقيت ساجدة ساعة كاملة ولم يأتِ.

تنفست الصعداء، واتجهت إلى سريرها واستلقت عليه. وهمَّت بالنوم في ترقب وأمل. ولكنه جاء.

جلس بجانبها ونظر إليها. كانت تعرف وتتوقع ما سيفعل. تجمد الجسد حتى قبل أن يقترب منها، واختبأت الروح في مكان بعيد حيث يكمن يوسف البريء في سجنه وأخوها، لأنه قال لا ولم يرضَ بالظلم.

شعرت بجسدها يبنى حصونه ويستعد للهجوم الجديد. بقيت مكانها والغطاء يصل إلى رقبتها ونظرت إليه.

قال في صوت هادئ: أخوك، هو كل ما تبقى لوالدك، يشق علي أن يشطر نصفين.

بلعت ريقها وهي تحاول أن تبدو شجاعة، فأكمل: ويوسف.. ابن عمك. تتذكرينه؟

نظر إليها فجأة وركَّز في عينيها وهو ينتظر أن يرى الحزن والتوق الذي يراه منذ البداية، ولكنها بقيت صامتة.

فأكمل: أصدرت قرارًا اليوم بالعفو عنهما معًا. سيسعدك هذا القرار.

جلست على سريرها وعيناه لم تزل تخترق قرة عينيها، وانشرح صدرها، وقالت: والدي سيفرح جدًّا. أشكرك على كرم أخلاقك معنا.

قال في صوت حاسم: زينب. سأفرج عنهما غدًا بعد أن أقطع أنفيهما وآذانهما، فالقانون لا بد أن يطاع، وأهلك عبرة لغيرهم. يهمني شأن هذا البلد وأريد الإبقاء عليه آمنًا دومًا.

قالت في ترج: أتوسل إليك. ليس لأبي غير أحمد.

قال وهو ينظر إلى سيفه: أنقذ أحمد وأقتل يوسف؟

أغمضت عينيها ثم قالت: أثق في عدلك.

- ماذا تتوقعين؟

قالت وهي تمسك بيده: مولاي الأمير... أتوقع كرمك. وعدت أبي أنك ستطلق سراحهما الاثنين معًا.

قال وهو ينظر إليها: وعدته أنني سأطلق سراحهما، ولم أعده أنني لن أعاقبهما.

نظرت إليه في حيرة لا تعرف ماذا يريد، ولا لماذا كل هذا الحقد داخل نفسه.

كانت تكرهه كرهًا لم تعتقد أنها تملكه داخل النفس. قالت في صرامة: سأفعل أيَّ شيء. أيَّ شيء وتنقذهما معًا. اطلب مني أيَّ شيء.

ابتسم، ونظر إلى سيفه من جديد، ولمس طرفه بأصبعه ليتأكد من حِدَّته وقدرته على البتر السريع بلا ألم ولا صراخ، ثم قال: زينب. تعرفين ماذا أعجبني فيك؟

أطالت نظرها إلى سيفه، وتخيلت يوسف مبتورًا أمامها،

وكادت تتوقف عن التنفس، ولم تقوَ على الكلام.

قال: لا تسمعينني؟

قالت وهي تدير عينيها عنه حتى لا يرى الألم واليأس. ماذا تتوقع من مملوك سوى الخيانة والمراوغة، نقض عهده وتنصَّل من وعده. عبد بلا أصل ولا وطن. قالت: أسمعك يا مولاي.

قال: عيناك، هي ما أعجبتني، كانت تعج بالحياة والشجاعة، لم أرَ امرأة ذات عينين كهاتين طوال عمري، كان لا بد أن آخذك لنفسي.

ودَّت لو نطقت وقالت: إنها ليست بضاعة تباع وتشترى، وإنها ليست مثله مملوكة، ولا تقتل من أجل العيش، ولا تشيع الفوضى لتحكم بيد من حديد.

أطالت نظرها إلى سيفه وهي تتصوره مبتورًا أمامها قطعة قطعة.

قال في بطء: يعجبك السيف؟

نظرت إليه ثم للسيف من جديد، وقالت: مولاي، لا بد أنك تختار أجمل السيوف وأكثرها حدَّة.

مدَّ يده بالسيف، وقال: تريدين أن تحمليه؟

أطالت نظرها إلى السيف، ثم أمسكت به، فوقع من يدها، وكان أثقل كثيرًا مما تصوَّرت. لا أمل لها في الخلاص إذن.

اقترب منها وكأنه يفهم ما تفكر فيه ثم قال: كنا نتكلم عن عينيك القويتين.

بقيت ساكنة، فأكمل: هاتان العينان منطفئتان بين ذراعي. لماذا؟ أين تخبئين كل الشجاعة والحياة وقت الحب بيننا؟

ارتجفت فجأة، وقالت مسرعة: اعذرني يا مولاي، ليس لديَّ خبرة بالرجال ولا الأمراء، ربما خدعتك عيناك، ربما لا أملك أي

قوة، وربما كنت بنتًا ضعيفة كغيري.

هزَّ رأسه ثم قال: ربما، ولكن عينيَّ لا تخدعانني أبدًا، لو خدعت المحاربَ عيناه لانتهى يا زينب. ربما أنت تخدعينني وليس عيني.

قالت مسرعة: لا أجرؤ يا مولاي.

التقت أعينهما، فأمسك بيدها ثم قال: يهمك أمر ابن عمك؟

قالت مسرعة: فقط يهمني أمره لأنه ابن عمي فقط، وأثق في عدلك، ووعدك لأبي.

قال في تأكيد وهو يفتح كفها وينظر إليه: سأفكر في الأمر، ستكون سابقة خطيرة لو أفرجت عنهما بلا أي عقاب.

قالت في رجاء: ولكنهما لم يفعلا أي شيء. رأيتهما بنفسك.

قال في ذهول: أهذا ما تعتقدين؟ لم يفعلا شيئًا؟ لم يعتديا على رجالي، عندما يعتدي العامة على المماليك ينتهي كل شيء، ويعم الخراب البلاد.

قالت مسرعة: معك حق.

قرَّب كفها إلى فمه وقال: تطيعين كل أوامري.

- سأطيع كل أوامرك.

- القوة في عينيك.

- ماذا تريد مني؟

- تتركين الزمام لمشاعرك، تحبينني بقوة هاتين العينين. لو فعلت أنقذ الاثنين!

قالت دون تفكير وهي لا تفهم ما يريد منها: سأفعل.

قبَّل كفَّها وقال: جسدك البارد... لا أريد أن أشعر به اليوم.

قالت في حيرة: ماذا أفعل؟ هي طبيعتي ربما. اعذرني، ليس بيدي شيء.

ابتسم في تهكم: اتركي لي اكتشاف هذا، لا تقاومي مشاعرك ولا تسيطري على جسدك كما تفعلين كل يوم. لو شعرت به باردًا اليوم فغدًا نهاية الاثنين بلا نقاش.

هزَّت رأسها في حماس وقالت: أفعلُ أيَّ شيء تريده.

همس وهو يقترب منها: بل تفعلين ما تريدين أنت.

ما حدث لزينب حدث جلل، ومأساة بكل المقاييس، احتضنت جسدها وابتعدت عنه على قدر الإمكان، وتساقطت الدموع في صمت، والجسد لم يزل يعج بالحياة والإشباع. هذا المملوك اغتصب جسدها وروحها، ثم أطفأ كل الخير بداخلها. هي روح شريرة سيطرت على جسدها منذ برهة، وجعلته يختلج ويصرخ، ويتشبث بنشوة قادمة، وراحة من نوع مختلف. غرزت أظافرها في ظهره لا لتدفع به، بل لتكتم تأوهات من نوع خاص وألم من نوع جديد، واختلاجات تصل إلى الروح، ولا يمكن تجاهلها أو عزلها عن بقية الذاكرة. هذا القتل شطر الروح نصفين أو أكثر.

بعد أن تناثرت زينب إلى ذرات رمال في الهواء، وبعد مرور العاصفة. ابتسم ابتسامة بسيطة تحمل كل الزهو من النصر المحقق، والتقت أعينهما، ثم ابتعد عنها، وأدار وجهه، وأغمض عينيه.

قامت من على سريرها وهي لم تزل ترتجف، وارتدت جلبابًا، وفتحت الباب، وخرجت والدموع لم تزل تتساقط. يوسف.. هذا الطاهر الأبي الذي لا يستحقها، لم تحافظ عليه. خانته اليوم خيانة لا تغتفر، وسيطرت عليها هذه الروح الشريرة سيطرة تامة. بدت القاهرة مظلمة وبعيدة، وسكون الليل يبعث على المعصية، ويحث على البغاء.

جهشت في البكاء، وغطت وجهها بيديها. لو ماتت الآن.. لو

حرقها المملوكي وقضى عليها فسترتاح راحة أبدية. قسوة المماليك سمعت عنها، ودهاؤهم في الحروب يردع كل معتد وآثم وطامع ومستغل، وهزيمتها اليوم لا توصف.

خروج الجسد عن قواعد العقل غريب عليها، ويقظة كل هذه الأطراف وتصرفها بغير إذن مسبق لعنة جديدة، وقهر من نوع مختلف.

حاولت ألا تتذكر؛ ففي الذكرى خزي وعار وهزيمة لم تعتدها، ولماذا أبقى الوباء عليها وعلى أخيها؟ ولماذا لم ينسفها قبل هذا العار؟

عادت إلى السرير، واستلقت على ظهرها وهي لم تزل تشهق، ولم تلاحظ أنه كان يتكئ على جنبه ويسند ذراعه على السرير حتى سمعت صوته: زينب، كنتِ في الشرفة طوال الليل تبكين؟ لماذا؟

لم تجب.

فقال في صرامة: لماذا تبكين؟

بلعت ريقها وقالت في توتر: كنت أفتقد عائلتي، لم أرهم منذ زمن.

هزَّ رأسه بالإيجاب وشدَّها إليه وعانقها في قوة قائلًا: نعم أعلم.

عندما بدأ يقبلها من جديد كانت تعرف، وكانت على يقين أنه يحاول أن يحكم سيطرته عليها إحكامًا تامًّا، وأن ينسف كل بيت في البلد الذي أعلن التمرد والعصيان. قالت في ترجٍّ، وطعمُ الهزيمة لم يزل يصبغ الجسد المنهزم: أرجوك لا تفعل هذا بي!

- ماذا أفعل ليحزنك؟

- ما تفعله يفزعني.

- هي طبيعتك تتجلى إليك ونفسك وقوتك. لم أفعل شيئًا.

شعرت بنفسها تختلج من جديد برغبة مفزعة وقاتلة: نؤجل هذا للمساء؛ فالنور أشرق في البيت و...

قاطعها: أفضل أن أراك وأشعر بك.

- أعتقد أنني مريضة.

- لا أعتقد هذا.

عضَّت على شفتيها، وضغطت بأصابعها على كتفه، وجسدها يختلج بين يديه، والدمار يعم كل البلاد، والهزيمة بطعم الاحتضار.

أغمضت عينيها حتى تحد من وطأة هزيمتها، فقال في تهديد: إياك! افتحي عينيك!

فتحتها على مضض، وخيانة الجسد ليس بعدها خيانة!

وكان يتعمد أن ينظر إلى عينيها في لحظة الهزيمة الساحقة، ويتعمد أن يوضح لها أن جيشها قد فني، وأن الديار له هو، وله كل الذخيرة وكل الغنائم.

ضمَّها إلى صدره، وقال: هذا أفضل بكثير. هذه هي زينب التي أعرفها.

قالت في صوت مهزوم: لا تعرفني.

قال في قوة: أعرفك. ربما أكثر من نفسك.

قالت وهي تذكر نفسها بسبب هذه الحرب: ستفرج عنهما.

قال وهو يقوم: سأفكر جديًّا في الإفراج عنهما لو ظللت كما أنت الآن قوية وممتلئة بالحياة.

قالت في شيء من ضيق: إلى متى؟ متى ستفرج عنهما؟ وعدتَ أبي.

- أُوفي بكل وعودي، قريبًا، عندما أتأكد من عودة الحياة إليك.

- متى ستتأكد؟

قال في صرامة: لا أحب الإلحاح. لا تتكلمي معي في هذا الموضوع فيما بعد، وإلَّا فسأقطع رقبتيهما على الفور.

قالت مسرعة: اعذرني يا مولاي، أتمنى لك يومًا سعيدًا.

* * *

الفصل الثالث

سجن جب القلعة كان مبنيًّا ومجهزًا بعناية فائقة كألواح الفنانين ونقوش الحرفيين، في كل ركن من أركانه يظهر عظمة الفنان المبدع، وقدرة البشر على الشر، وكأنَّ من جهزه كان يرسم ويشيد في حماس لاهث وراء الخلود أو محب للسلطة، ولاهث وراء القدرة على البطش التي لا توقفها استغاثات ولا تصطدم بها أفكار.

لِمُشيِّد العمائر هذا جائزة وفوز، وسيكتب عنه التاريخ ويمجده، فلولاه لما استمر الزمن في رسم وإبداع التعذيب والبتر، ولا بد للكلمات من عقاب رادع، ولا بد لمن استطاع أن يُخرِج من فمه هواءً ممتزجًا بنقد للسلطة والسلطان أن يعرف معنى الهواء فيحرم منه، ومعنى الكلام فينقطع لسانه، ومعنى الأهداف فتفقع عيناه. إذا نطق العامة بكلمات غير محسوبة، واستمروا في استهتارهم وغفوتهم، فتلقينهم الدرس واجب ومستحب.

وجود السجن على مستوى الأرض معناه أن السجين قام بجريمة عادية لا تستحق عقابًا شديدًا رادعًا، وأن السجين لم يحاول تغيير نظام الحكم، أو الإضرار بمصالح العباد، وبث الذعر في نفوس أهالي البلاد. لذا كان لا بد من أن يكون هذا السجن داخل جب القلعة، والوصول إليه بعد مشقة، ودرجاته لا تظهر وسط الظلام، وإن ظهرت فهي منهكة ومحطمة، قدرها كقدر من ينزلها بالضبط، ومن ينزلها ربما لا

يخرج ولا يصعد عليها من جديد، وربما لا يتكلم ولا يحكي عمَّا رأى وعمَّا سمع، وربما لن يرى ولن يسمع، ففي ظلام الجب سكن للخفافيش التي تهوى الظلام وتخاف النور، ووسط الخفافيش يعتاد السجين على رفرفة الأجنحة غير المحسوبة التي تأتي مفاجأة كصفعات السَّجان، وخوازيق السجن. يعتاد السجين الخفافيش بحركاتها المفاجأة، ويتوقع بعد حين مجيء السجَّان وصوت الخازوق والسكين والسيف، وكل الأسلحة البطيئة التي تنهك النفس، ولا تريحها راحة أبدية. صرخات المساجين تضيع هباءً في الجب، ورائحتهم تفوح خارج أبواب القلعة.

لكل سجين زنزانة مفصلة خصيصًا له وعلى قدر جريمته، والاهتمام بالشخوص هو الهدف هنا، والإبداع في فهم نقاط الضعف وأماكن الإيلام التي لا تقتل، ولكنها تعذب تعذيبًا يمتد إلى خارج الروضة، موهبة لا يملكها سوى سجَّانين بأعينهم.

اليوم بدا يومًا حزينًا في سجن القلعة؛ لأن الحادث جلل، ومن ألقي به في السجن ليس من العامة، ولكن من العلماء، الشيخ عبد الكريم.

وضع الشيخ يده على أنفه، ويد تدفعه لينزل الدرج، وكاد ينكفئ على وجهه، ولكنه أمسك بحائط خشن حتى لا يسقط أمام السجانين. دخل وأغلقوا الباب عليه. وبقي أيامًا خارج نطاق التاريخ، لا يعرف الليل من النهار، ولا يعرف الفرق بين رفرفة الخفافيش وصوت دخول السجناء.

كان يردِّد أذكارًا وآيات طوال الوقت، ويحاول أن يتذكر اليوم والعام والشهر. في الأسبوع الأول بدا الأمر سهلًا، وفي الأسبوع الثاني الأمر كان أكثر صعوبة.

وعندما سمع صوت الباب يفتح قال وهو يتصنع الهدوء: لا

داعي للتعذيب؛ الذنوب تجلب الخيبة، والظلم يجلب الوباء.

ولكن لا تعذيب حدث ولا صوت سجان جاء. رأى القنديل في يد رجل وكان يعرفه، قال في دهشة: الأمير محمد؟

وضع الأمير القنديل على الأرض، ثم قال: قلت لك يا شيخ عبد الكريم أن تهرب إلى الصعيد. تتذكر؟

قال في يقين: أتذكَّر.

قال في تهكم: تستسيغ الهرب الآن؟ في بعض الأحيان الهرب واجب.

- كنتَ تفضل أن أهرب؟

- كنتَ تفضل أنت البقاء تحت الأرض بقية عمرك؟

- مولاي الأمير، ما يحدث للعلماء لن يؤدي إلَّا إلى الفناء؛ فالمماليك يحتاجون العلماء، وأنت تعرف.

- لم تكسر القلعة روحك! أيُّ رجل أنت؟ كثيرًا ما زرت العلماء بعد بضعة أسابيع في القلعة، وكانوا يرجون ويتمنون ويلهثون ويثنون على كل مملوك ولد أو لم يزل في رحم أمه. ترى لم تصل لهذه الدرجة بعد أم أنك لن تصلها؟

- الظلام والحبس سيكتمان كلماتي، ولكنهما لن يجعلا الباطل حقًّا، ولن يزيِّنا الظلم بألوان الفواكه ورائحة الحلوى.

جلس الأمير محمد أمامه على أرض السجن، وقال: ماذا تبغي من كلماتك؟

التقت أعين الرجلين وسط الضوء الخافت للقنديل، وبدا وجهاهما أحمرين، بعيدين ومشوشين بلا ملامح ولا خطوط، ثم قال عبدالكريم: هل لي أن أسألك السؤال نفسه؟

- تعجبني يا شيخ، تتكلم كالفقيه وتخطب كالعالم، وتتوه بين الكون كالصوفي، تعجبني كلماتك وأفكارك، وتعجبني روحك

القوية. رأيت الكثير من العامة والعلماء ولم يؤثر فيَّ سوى القليل. للروح القوية رونقها الخاص. واحترامها من العدو قبل الصديق. في عينيك سخرية من العمر، ورغبة في الوصول إلى ما بعد الفناء، لا توجد هذه النظرات عند الكثيرين من العلماء، ولا المماليك، ولا كل أهل مصر.

ابتسم الشيخ عبد الكريم في أسًى ثم قال: عندما أموت داخل الجب أرجو أن تذكرني بالخير، وأن يغفر الله أخطائي.

- أيّ أخطاء ارتكبت يا شيخ؟ إذا دعوت أنت بالمغفرة فبماذا أدعو أنا وكل الأمراء؟

- هل تعرف كم سأبقى هنا؟

- وكيف لي أن أعرف؟ قرار القبض عليك من السلطان بيبرس نفسه، وليس من أمير ولا وزير.

- إذن سأبقى إلى الأبد.

- أو إلى أن يعفو عنك السلطان، أو يختفي.

اعتادا ضوء القنديل، فبدت ملامحهما أوضح في الحجرة العتمة، ورأى الشيخ وجه الأمير الصارم وعينيه الثاقبتين، ثم قال: أرى النفوس أحيانًا، وأرى في نفسك كره الظلم، تعطيني الأمان يا مولاي؟

- لك الأمان دومًا. فلا أحد يدري كم من الوقت ستعيش.

- ولو تكلمت تقتلني أنت على الفور، وهذا أفضل، لا أعرف هل سأتحمل التعذيب أم لا؟

قال الأمير في صرامة: لن تتعذب، أعدك بهذا.

اقترب الشيخ منه وقال في أسًى: الإنسان ما أضعفه! لا يتحمل الكثير.

- تتكلم عليَّ أم على نفسك؟

- علينا معًا. النهاية قريبة ربما، وأريد أن أخبرك بالحقيقة. مولاي الأمير، اتبعت هواك مع أنك تبغي العدل وتمجده.

اقترب منه الأمير أكثر والتقت أعينهما مرة أخرى، وقال: ومن منَّا لا يتبع هواه؟! انظر بداخلك أيها الشيخ وابحث عن غرور نفسك وضعفها. الفرق بيننا أنني أعرف بوجود الضعف والغرور، وأتعايش معه. أمَّا أنت فتخبئه في جب القلب، تعرف كل شيء وتفهم كل الناس؟

- أغضبتك كلماتي؟

- كنت أتوقعها. رأيتها في عينيك منذ التقينا في صلاة الجمعة، المحارب لا بد ألَّا تخدعه عيناه وإلَّا انتهى. أشكرك على شجاعتك، ولا أعرف أهي نتيجة غرور نفسك أم صدقها أم الاثنين معًا، تعلمت يا شيخ وأنا صغير أن الإنسان إذا لم ينتزع ما يريد بالقوة بلا تردد ولا تفكير ولا شرح للنفس والضمير، يفقده. هذا هو الفرق بين العامة والمماليك، للقوة رونقها، ولانتزاع ما تريد هيبة وقدسية، هو الهوى، هكذا تقول، ولكننا نسميه في لغتنا الوصول والمجازفة، لم تتبع هواك قط.

- لا أحكم عليك يا مولاي، فقط أريح ضميري.

- أيُّ ضمير هذا الذي سيتحمل ظلام جب القلعة، من يخرج من هنا حيًّا لا بد أن يكون خارق القوة، وأنت لست كذلك، ولكن... تتذكر يا شيخ قلت لك: إنني أهتم بأمرك.

- لماذا؟

- لا أعرف. ربما لأن المماليك بلا علماء يصبحون بلا شرعية ولا طريق. لا أستطيع أن أتحكم في مكان سجنك ولا مدته، ولكنني أستطيع التحكم في الضوء الذي يدخل زنزانتك، والنظافة والطعام وربما بعض الهواء، الضوء في الزنزانة يساعد على التغلب على الجنون.

- أشكرك وأدعو لك.

ابتسم الأمير قائلًا: وهل سيتقبل الله منك وكل هذا الغرور في قلبك يا عالم بكل الحقائق؟ لعل الضوء يظهر لك ما خفي عن نفسك. تستحق ما هو أفضل.

- شكرًا لك مرة أخرى يا مولاي.

قام الأمير وقال: أشعر أن بقاءك هنا لن يطول، اثبت حتى نهاية المحنة، ألم تقل هذا في خطبك يا شيخ؟

- أقوله، وأحاول أن أفهم كل ما قلت وكل ما سأقول. للاجتهاد طعم، وللفهم ضوءه الخاص.

* * *

حَزَمت زينب أمرها على أنها لن تستسلم مرة أخرى، وأنها ستقاومه بكل قوتها ولو ضربها، فهذا أفضل، فلن تختلج بين ذراعيه. لماذا تشتهي رجلًا تكرهه؟! أيُّ جسد هذا؟! يستحق الحرق والرجم هذا الجسد! وقررت أنها لن تسمح له بلمسها بعد هذا اليوم.

وليذهب يوسف وأخوها إلى الجحيم، يقتلهما أو يحرقهما لا تبالي، إنها نفسها التي تحارب من أجلها، وروحها التي لا بد أن تنقذها، ولكنها لم تستطع، خوفها من رد فعله جعلها جبانة، إلى درجة جعلتها تحتقر نفسها. هناك من يموت في جب القلعة من أجل كلمات ضد المماليك، فلماذا تخاف هي من هذا الأمير، أم أنها تخاف من جب القلعة؟ لا تدري.

هزيمة زينب الساحقة جعلت التركيز صعبًا، والقراءة مملة، والغَزْل عملًا شاقًّا، وأصبحت تجلس في حجرتها وحدها ساعات شاردة تلوم النفس، وتوبخ الجسد، وتحاول فهم ما يحدث لها في هذه اللحظات التي تفقد فيها سيطرتها، ولماذا لم يعد الجسد قادرًا على التجمد ولا على الانتصار؟ لم تزل

تحاول أن تشرد بروحها بعيدًا وتتذكر الطفولة ولا تستطيع، حتى عرائسها أصبحت تنساهم نسيانًا تامًّا وقت الحب بينهما، مس العقل جان وسخره، فأصبح لا ينشغل إلا بلمسات الأمير وقبلاته. كانت طبيعتها التحليل والتفكير العميق، وخافت من المشكلة ومن الحلول؛ فالفهم سيجني عليها بالتأكيد. ما حدث له معنيان فقط، إمَّا أنَّ زينب باغية وشيطانة وجسدها ينبض مع كل الرجال، وإمَّا أنَّ الأمير هو الشيطان، وهو من أيقظ الجسد وأخرج الهلاك من جوف الأرض. سحر لها، وأخرج شياطين الأرض والبحار، وكانت متأكدة من الاحتمال الثاني؛ فهي متدينة بطبعها، تحفظ القرآن، وتحتقر البغاء. لوم النفس على الهزيمة كان يهزُّ كل روحها، ولكنه هدَّدها. هدَّدها بأن يقتل أخاها ويوسف. يوسف، لن تستطيع نطق اسمه بعد اليوم، لو لم يهدِّدها، لو لم يُخِفْها لم تكن لتستسلم له بهذه الطريقة. فعلت هذا من أجل يوسف وأحمد. ضحَّت من أجلهما. فلماذا لا يتوقف الجسد عن الاختلاج والنبض بين ذراعيه؟ في كل مرَّة وبعد كل لمساته دائمًا يختلج الجسد، ودائمًا يتمنى. أمر محير، يحتاج إلى تفكير أو موت، لا تعرف.

نظر إلى وجهها العابس، وقال وهي جالسة بجانبه على الإفطار: ما الذي يقلقك؟

تردَّدت قليلًا وتحاشت عينيه، ثم قالت: كنت أفكر في أمور الحروب والغزوات، ترى هل يمكن استعمال السحر في الحروب؟

قال في تأمل: السحر... ولِمَ يحتاج المحارب إلى السِّحْر؟

قالت وهي تتظاهر بالأكل: ربما لو خاض حربًا مستحيلة.

مرَّ بيده على شعرها من رأسها حتى خصرها، فاجأتها لمساته، والتفتت إلى الخدم حولهما والخجل يسيطر عليها،

وشعرت ببعض الغضب من جرأته وحريته في التصرف فيها، وكأنها سيف من سيوفه أو جواد يمتلكه، وشعرت أيضًا ببعض مفعول السِّحْر الذي لا يترك وجدانها، نظرت إلى الخدم وأعينهم المربوطة بالأرض.

ثم قال: زينب، لا توجد حرب مستحيلة. هناك غزوات خطيرة، وغزوات تحتاج إلى تخطيط ومجازفة، وبعض الغزوات يحتاج إلى جسارة وإبداع، وبعضها إلى ممارسة وخبرة في القتال، والوقت والمكان من أهم العوامل، لم تقرئي عن الحروب في كتبك؟

أبقى يده على خصرها، فابتعدت عنه في ارتباك، وقالت: لم أقرأ عن الحروب يا مولاي، لا تستهويني.

أحاط خصرها من جديد فابتعدت عنه، وأزاحت يده بيدها في صرامة.

التقت أعينهما ثواني، ثم أعاد يده إلى خصرها، واعتصره حتى آلمها، وقال: إياك أن تبتعدي عني هكذا!

ابتلعت سخطها، وقالت بصوت خافت: أخجل من الخدم يا مولاي لا أكثر،. لو.. أجلنا هذا إلى وقت آخر..

شدَّها إليه في قوة وقال: أفعل ما أشاء وقتما أشاء، هذا قصري، وليس قصر الخدم.

رأت نفسها خارج جسدها، وتخيلت رأسها رأسًا بتره ووضعه على مائدته ليفتخر بها، هذا قصره، هكذا قال، وهي ملكه كما يملك الخدم والعتاد، باعت نفسها على ما يبدو.

أطبقت شفتيها لتسيطر على الغضب بداخلها، والثورة تتكاثر في سلاسة، للثورة طعم العسل في فمها، وللموت فداء للكرامة ضوء البدر المكتمل، ستدفع بهذا الطعام وتصيح في وجهه بشجاعة، ثم تقوم في كبرياء وترحل عن قصره، ستصرخ قبل الرحيل بأنها حرة، وأن أرضها لن تطأها قدمه، ولن تُعلِّم

عليها سيوفه، وأنه لن يلمسها مرة أخرى قط، وأنه لن يأمرها ولن يخيفها، وأن للمماليك نهاية معروفة ستضعها هي بنفسها.

كان ينظر إليها ويرى ضوء الثورة في عينيها، يعرفه ويلاحظه حتى عن بُعد، ويعرف أنه ضوء غالبًا مَا يتلاشى أمام الصرخات والسيوف الحادة، فقال وهو لم يزل يعتصر خصرها: لم تجيبي يا زينب!

قالت في تحدٍّ: لم تسأل يا مولاي.

- أنا لا أسأل يا زينب، أنا أوضح لك الأمور، وأتوقع كلمتين فقط: «أمرك مطاع».

بقيت ساكنة لحظات، ثم قالت في جفاء: أمرك مطاع.

قال وهو يرخي يده بعض الشيء، ويمرِّرها على ظهرها: أمرك مطاع مولاي الأمير.

شعرت بغصَّة في حلقها ثواني، ثم قالت: هذه أربع كلمات يا مولاي، طلبت مني أن أنطق كلمتين فقط.

رفع حاجبه ثم قال: تجادلين ببراءة طفل لا يميِّز الخطر، ولا يعرف الفرق بين الماء والنار، من أين أتيت بهذه الجرأة؟ لا بأس، أريد أن أسمع منك الكلمات الأربع في جملة واحدة.

لم تزل يده تحيط خصرها، ولم يزل يفرض سيطرته ويبنى قضبانه على المناطق التي فاز بها في غزواته. قالت في بطء: أمرك مطاع مولاي الأمير.

ترك خصرها، واعتدل في جلسته، ثم قال: حسنًا، كنا نتكلم عن الحروب. لا بد أنها تستهويك الآن، وإلَّا فلماذا تفكرين فيها طوال الوقت وتتأملين بوجه عابس نتائجها وطرقها وأهدافها.

- كنت فقط أفكر في أمر السِّحْر.

ردَّد وهو ينظر إليها: السِّحْر. نعم، ماذا يفعل السِّحْر؟

تمارسينه؟

قالت في حسم: أبدًا لا أفعل. الشيخ عبد الكريم قال لأبي إنه حرام، ولكنني فقط أحاول أن أفهم كيف يكسر الإرادة ويفقد العقل الطريق.

أطال نظره إليها كما يفعل دائمًا، فطأطأت رأسها، وقال: وهكذا هو الانتصار، يُذهب العقل كالخمر، ولكنه لا يكسر الإرادة، لا انتصار بلا إرادة، في لحظة التمكن من العدو يكمن كل السِّحْر والنشوى بلا جان ولا وسيط ولا سِحْر. لماذا تهتمين بأمر السِّحْر؟

- لا يوجد سبب معين يا مولاي، ربما لأنني أفتقد أهلي وحارتي، وربما أخاف أن يمسني السِّحْر.

- وإذا مَسَّك السِّحْر فماذا تفعلين؟

- لا أدري.

قال في قوة: فكري في القراءة عن الحروب ودراسة الغزوات، مفيدة أكثر من طرق السِّحْر وأهدافه. تفتقدين أهلك؟

- هي صديقتي وابنة خالتي من أتمنى الحديث معها. لو سمحت لي يا مولاي أن أدعوها.

هزَّ رأسه بالإيجاب، وقام.

وعندما جاءت فاطمة ودارت حول القصر، ونظرت لعيني زينب المنطفئتين، قالت في فضول: ماذا حدث يا زينب؟

قالت في كرهٍ: هذا العبد التركي، كم أكرهه!

تفحصتها فاطمة ثم قالت: أفرج عن يوسف وأحمد منذ زمن.

فتحت عينيها في دهشة وقالت: السافل!

- ماذا قلت؟

- متى فعل هذا؟

- منذ أسبوع على ما أعتقد.

- كذب عليَّ يا فاطمة، وجعلني أخجل من نفسي، أفعل أشياء شنعاء يا فاطمة، كم أكرهه! أنا لا أصلح ليوسف الآن. أصابني الشيطان بمس. سَحَرَ لي هذا العبد المملوك!

قالت فاطمة من جديد: ماذا حدث؟ كان عنيفًا معك؟ بعض الرجال يفضلون العنف، لا بد أن تصبري وتتحملي حتى تزول الغمة. والدك يخطط للذهاب إلى محكمة المظالم، وسيرأسها السلطان نفسه، وسوف يطلقك، ويكف أذاه عن كل عائلتنا.

قالت في نفاد صبر: لا تفهمين شيئًا. لن يكفيني أن أطلقه الآن، أريد أن أمزِّقه إربًا إربًا بين يدي، لا تعرفين كم أكرهه!

- أساء معاملتك لهذا الحد؟ أنت ابنة تاجر كبير، وللعلماء رأي في هذا، تريدينني أن أتكلم مع خالتي، نحتاج شفاعة العلماء للطلاق.

قالت في أسى: نفذت نصيحتك، أغلقت قلبي وفصلته عن جسدي، وأبقيت حبي الصافي ليوسف بداخلي؛ فهو من أراده قلبي. ولماذا للقلب أن ينهزم في هذا الزمن العربيد. يحكمنا العبيد ويحملون السلاح حولنا، ونبقى أبد الآبدين أذلة لهم. لو عندي فرصة واحدة أقتله في مخدعه، وأريح الناس من شروره هو وكل أمرائهم. نفذت نصيحتك، ولم ينصرف عني، ولم يذهب لجاريته الشقراء.

- ماذا فعل؟ عاقبك؟

- لا تفهمين. لم أعد نقية كما كنت، أتلف روحي، وأخرج كلَّ الشر بداخلي. يومًا سأنتقم منه، ولكن لن أستطيع مواجهة يوسف، قضى عليَّ المملوكي. أتمنى الموت بعاري الآن.

- لا أفهمك يا زينب.

- وكأن جسدي ليس مني، سَحَرَ لي، هزمني على ما يبدو.

- لمِ تتجمدي؟ استجبت له؟

هزَّت رأسها في خجل.

- ماذا فعلتِ؟ هل بدا عليك أنك استجبتِ له؟

قالت في عصبية: ليس بيدي، لا أعرف ماذا حدث لي، هدَّدني في البداية، ثم يده على جسدي وفمه ولمساته. هو شرير، روحه شريرة. لا أصلح ليوسف، لم أعد أصلح ليوسف. حاولت ولم أستطع، كان ينتصر كل مرة. تفهمين؟ كل مرة أقسمُ ألَّا أشتاق إليه، وألَّا أرتجف، وألَّا أصرخ، وألَّا أضغط على جسده، ولا أستطيع. هذا الضعف جديد عليَّ. تعتقدين أنه سَحَرَ لي؟ معروف عنهم هذا.

هزَّت فاطمة كتفيها وقالت: وما المشكلة؟ هو زوجك الآن.

قالت في تأكيد: ليس زوجي، ولن يكون زوجي هذا المملوكي أبدًا. وأنتِ تعرفين، فَرَّقَ بيني وبين من أُحبُّ وخطفني غصبًا وابتزازًا. لن يكون زوجي يومًا.

- زينب، لا أعرف ما مشكلتك. تحبينه؟

قالت مسرعة: أكرهه، لم أحب سوى يوسف، أنت تعرفين.

- وقريبًا يتم طلاقك ويتزوجك يوسف.

- لا تفهمين، كأنني امرأة مختلفة. لا أستطيع مواجهة يوسف بعد هذا.

- أفهمك، يحدث هذا أحيانًا، المماليك تسحر طوال الوقت، يتقنون السِّحْر، ولديهم تمائمهم المؤثرة، ليس ذنبك. عندما تبتعدين عنه يختفي السحر، لا تكترثي للأمر، ويوسف عندما يتزوجك لن يعرف شيئًا عن مشاعرك أو ما حدث بينك وبين المملوكي. استمري في الأمر ولا تعارضيه حتى يملَّك ويتجه لغيرك.

قالت وكأنها لا تسمعها: وكأن كل شيء بالنسبة لهم يباع

ويشترى، وكأن كل البشر قاتل أو مقتول، لا أفهمهم هؤلاء الحكام، الظلم من شيمهم، والقسوة عنوانهم.

- أهم من كل شيء هو أخذ الدواء حتى لا تحملي منه، هل تأخذين الدواء؟

هزَّت رأسها بالإيجاب، فأكملت فاطمة: سيملُّك قريبًا ويتجه إلى غيرك، أو إلى جاريته الجميلة. اصبري.

قالت في ضيق: لن أنتظر حتى يملَّني. ماذا تقصدين بيملُّني؟ وكيف تقارنين بيني وبين الجارية؟

- هي تربَّت كالأمراء مثله، جميلة يا زينب، رأيتها اليوم.

قامت في عصبية وقالت: ماذا تقولين يا فاطمة؟ هذه الجارية لا بد أن تترك هذه الدار.

- ماذا حل بك يا زينب؟

- تكرهني وتريد قتلي، لا أثق بها.

- أنت متعبة، خلي بالك من نفسك يا أختي، وكما اتفقنا لا تكترثي بما يحدث لك؛ فلن يعرفه غيرك، سيزول السِّحْر عندما تبتعدين عنه، وستنسين كل شيء، وتبدئين من جديد قريبًا. هي أزمة كبيرة، ولكنها ستنتهي، فتفاءلي.

رددت: ستنتهي.

ثم قالت فاطمة وهي تشدُّ على يدها: اشكري ربك على أن زوجك بلا عائلة تنغص عليك عمرك الباقي. لو تزوجتُ من جندي مملوكي فسأكون أسعد امرأة في العالم، أخت زوج وحماة تتدخلان في طعامك وشرابك، ويراقبانك طوال الوقت، وكأنك عقرب ستلسعهم. أما أنت فزوجك الآن أمير، ولا أهل له. تعرفين أين أهله؟

هزَّت كتفيها وقالت: لا تفهمين. لا أهل له سوى المماليك، كل المماليك، كل جنوده عائلته، يقضي معهم كل أوقاته،

ويتكلم معهم ساعات. ثم احمدي ربك أنَّ لك زوجًا بلا جواري، أهله يمكنك التعامل معهم، ولكن تصوري وجود نساء أخريات يقضي معهن وقته. هذه هي المأساة؟

- ماذا بك يا زينب؟! كنت أظن أن وجود الجواري يرحمك من تحمل الأمير.

صمتت ثم قالت بعد برهة: لا أريد الحديث عن هذا الآن. تكلمي معي عن غنائك. وإياك أن تقرري الهرب!

* * *

بعد الفضفضة لفاطمة بدأ تأنيب الضمير عند زينب يقلُّ بعض الشيء، واتفقت مع نفسها على أن يوسف لن يعرف ما يحدث بينها وبين الأمير، ولا ما تشعر به، ولا السِّحْر والشيطان الذي يسكن جسدها. ستبقي الشر مختبأ من يوسف، وعندما تترك هذا الشيطان ستنسى كل ما حدث وينتهي الشر بداخلها.

هذا الاتفاق مع النفس كان مريحًا، وجعلها تتقبل الهزيمة بروح مرحة، وتنتظر لمساته بلا قيود أو شعور بالذنب أو الخطر؛ فمشاعرها نتاج سِحْر من جان قوي وشرير، وعندما تتخلص من الجان تنتهي هذه المشاعر، وكأنه فترة من حياتها على وشك الانتهاء أو عصر من العصور الزائلة.

كانت تبتسم له من الحين إلى الحين، وتتكلم معه أحيانًا قليلة. وسألها يومًا إذا كانت تريد أن تمتطي جوادًا، وقالت: إنها لا تعرف كيف، فأخذها أمامه على حصانه، وجرت وهي تصرخ من الخوف، وقلبها يخفق إلى أبعد حد، وكانت هذه لحظات تستعصي على الذاكرة، ولا تعرف كيف تمحوها. ومرة أخرى كانت تساعده على الاستحمام، فشدَّها إلى الحوض الكبير بملابسها، وصرخت وضحكت، وبادلته قبلته بلا قيود. ولكنها كانت تتساءل ليلًا كل يوم متى تنتهي هذه الغمة؟ ومتى تعود

إلى حياتها التي تعرفها؟

أسى الهزيمة لم يتركها، ولم يمهلها كثيرًا لتقف وتفهم، وحَجْبُ الروح أصبح صعبًا هذه الأيام، وأصبحت تراقبه بفضول السجين في سجن مظلم ليس به سوى سجان واحد يأتي أحيانًا.

علاقته برجاله كانت منظمة وواضحة، وكلماته معهم كانت كلها بالتركية، والعيون تنظر إليه في تبجيل، وتنتظر أوامره في خشوع. وبدا لها أنه اعتاد إعطاء الأوامر طوال عمره، واعتاد تهذيب النفوس، وترويض التمرد لدى الرجال والنساء. أخافتها نظراته الساكنة الطويلة لها ولغيرها، والرجفة التي تراها في يد من يعمل عنده أو معه. كلماته كانت قليلة وعلاقته بخشداشيته كانت تستحق أن تدرس في الكتاتيب، يفهمون ما يريد من نظرة، وينكبون على عملهم بلا سؤال أو استفسار. كثيرًا ما تساءلت: ماذا يتوقع منها، وماذا يريد، وهل سيملَّها قريبًا؟

بدأت تحاول أن تفهم كلماته التي تسمعها من نافذتها، وتحاول أن تستشف سبب خوف الجنود، واستنتجت بعد حين شغف الأمير بالخيل، وامتلاكه الأحصنة المختلفة والسيوف المسنونة، ولم تتأكد بعد، ولكنها فطنت إلى أنه ربما يتجسس على بقية الأمراء، ويعد أحصنتهم وإقطاعياتهم، ويتأكد من أنه يملك أكثر منهم، وأنه دائمًا أقوى منهم، وكأن الأمراء يقضون أوقاتهم في عدِّ ثروات أقرانهمْ والترقب في حرص لأي إنذار بالخيانة أو الثورة. القوة كانت طريقه، والأسلحة لباسه، ولم تره قط يأكل مع الأمراء أو يدعوهم للطعام.

رجل بهذه القسوة وهذا الجمود لن يفهم معاناتها، ولن يعرف كيف دمَّر كل عمرها، فلا هو يملك مشاعر، ولا هو يفهم معنى

كلمة مشاعر. وعندما كان يسألها ماذا فعلت في يومها كانت تتردد وتتوتر، ولا تعرف ماذا تقول بالضبط، أو ما هي واجباتها في هذا السجن الشاق.

خافت منه ولم تفهمه، ولكن لعصبية زينب شرود لم يدركه أحد، ولهدوئها حدود، من يتعدها يشهد ما يحدث لها أحيانًا من عدم القدرة على تهذيب النفس وفهمها!

وجود سارة ونظراته لها وكلماته لها بالتركية كانت لا تدري لماذا تستفزها، ربما لأنها تشعر أن سارة هي سيدة الدار، وأنها هي الجارية، أو ربما لأنها لا تفهم ما يحدث بينهما ولا عمَّا يتكلمان.

بدأت تصيح في وجه سارة كلما استطاعت أو حانت لها الفرصة.

وفي يوم رأته يتكلم مع سارة أمام حجرتها، فطوقت الجارية عنقه، ودفنت رأسها بين ذراعيه في هيام، وكان هذا فوق احتمالها. انتظرت لحظات، سمعت كلماته لها، ورأت يده تحيط خصرها.

وأيقنت زينب حينها أن معاملة المماليك للنساء كانت تختلف من وجهة نظر زينب كل الاختلاف عن معاملة العامة لنسائهم، فيبدو أن زوجها كان يتصرف معها وكأنها بضاعة، قطعة قماش يجربها، ويتزين بالحرير مرة، والكتان والقطن أحيانًا.

ظلت عيناها مسلطتين عليهما حتى تركها الأمير، واتجه إلى حجرته، ولم يلاحظ وجود زينب. ولأن فورة زينب وعصبيتها كانتا من السمات المصاحبة لها منذ الصغر، اتجهت بخطى ثابتة نحو سارة وقالت بالعربية: سارة. لديك عمل تقومين به في هذا القصر، تفهمين؟ تنظيف وطبخ والكثير من العمل.

ابتسمت لها في استياء ثم قالت: أقوم بكل أعمالي مولاتي.

- ليس كلها، بعضها فقط، الأعمال التي لا تخصك فقط. من صاحب هذا القصر؟ أنا، أنا سيدتك. وأنا أقول: إنك تحتاجين إلى تدريب، الكثير من التدريب. من الغد ستذهبين معي إلى المطبخ لأدربك.

قالت في فتور: معذرة يا مولاتي، لا أعمل في المطبخ، لكل منَّا اختصاصاته في هذا القصر.

- كل منا؟ أنا وأنت مثلًا؟ متساويتان؟ أنت هنا تحت أمري. جاريتي.

قالت في هدوء: جارية الأمير يا مولاتي.

فتحت زينب فمها في فزع وقالت: تتحدينني؟ تجرئين على أن تتحديني؟ أنت لا شيء في هذا القصر!

- مولاتي ليس كل الجواري سواء.

قالت زينب في قوة: كلهن سواء.

ابتسمت سارة قائلة: لو أمرني الأمير بأي شيء أفعله على الفور.

فكرت زينب جديًّا في صفعها في اللحظة والتو، وحاولت ألا تفعل، واتجهت إلى حجرتها هي والأمير والنار تحرق حلقها.

كان مستلقيًا على السرير وذراعه وراء رأسه كما يفعل دائمًا. قالت في غيظ: لِمَ تحتضن الجارية وتأتي إلى حجرتنا في نفس اللحظة؟

فتح عينيه وهو لا يصدق ما تقول ولا طريقة مخاطبتها له.

فقالت وهي تحاول السيطرة على نفسها: مولاي الأمير، اعذرني ولكن رأيتك تعانق الجارية، ولا أفهم لماذا تفعل هذا؟

قال في ذهول: لا تفهمين؟ ولِمَ تفهمين؟ من أنت لتفهمي؟ هذا قصري، أعانق من أشاء، وأفعل ما يحلو لي. جننتِ أم

ماذا؟
قالت في عصبية وهي تجلس على السرير: مولاي الأمير، لن أبقى في بيتٍ واحدٍ مع هذه الجارية.
نظر إليها في شيء من الدهشة لجرأتها في فرض شروطها، وقال: سارة ستبقى، هذا بيتها.
قالت وكلماته أشعلت الغضب بداخلها: أرحلُ أنا إذن.
- تهددينني؟
قالت والغضب أعمى بصرها: ستقتلني، أعرف أنها ستقتلني. تريدها أن تقتلني؟
- لا أحد يجرؤ على مس زوجتي في هذه الدار، اطمئني.
قالت في تحدٍّ: إنْ كنت تريدها فطلقني إذن.
فتح عينيه ودهشته تزداد، ثم قال في تأكيد: هل فقدتِ عقلك؟
قالت في صرامة: لن أبقى معها في بيت واحد.
- أنت لا تقررين شيئًا هنا يا زينب، هذا ليس بيت والدك التاجر، هذا بيت أمير.
- إنْ كنت تحبها فلماذا تزوجتني؟ ولماذا تتعمد إذلالي؟ لماذا تفعل كل هذا؟
قال في صرامة: لا أريد أن أسمع صوتك، ولا أريد كلمة في هذا الموضوع.
قالت مرة أخرى وهي لا تسمعه: لن أبقى معها في بيت واحد.
اتجه إلى الباب قائلًا: والدك لم يحسن تربيتك، ولم يعلمك كيف تتكلمين مع زوجك وأميرك.
قالت وهي تقوم وكل ذل الأيام الماضية يطفو على السطح:

لست أميري. والدي حر يعرف كيف يربي ابنته، ولا يغتصب الحقوق ويقتل ويشق الرأس.

قال وهو يطيل نظره إليها: سارة ستبقى هنا إلى الأبد، هذا بيتها. وهي أهم امرأة في هذا البيت.

قالت في قوة وهي تنظر إليه: بالطبع، أفهم.

- ماذا تفهمين؟

- أفهم هذه الأيام البائسة التي تولي العبيد على الأحرار؛ ليتحكموا في مصائرهم ويفضلوا عليهم عبيدًا آخرين.

أمسك بذراعها، ونظر إلى وجهها برهة وكأنه يحاول استيعاب ما تقول، ووقْعُ ما قالت يحوم حول نفسها، لا تعرف كيف نطقت هذه الكلمات، ولا تعرف هل سيقتلها في التو أم بعد حين.

ندمت بعد ثوانٍ من نطقها بهذه الكلمات، واحمرت وجنتاها في خجل من عصبيتها وتهورها. رفع يده، وهوى بها على خدها في قوة، صفعها صفعة هزَّت الجسد كله، فوقعت وهي تتأوه.

ثم قال في ثبات: هؤلاء العبيد يحمونك ويحمون أهلك من صليبيٍّ يغتصبك ويحرقك، ومغولي يسوِّي بلادك بالأرض ويحرق كل شجرة وكل دار، بدون العبيد يختفي أثركم من على وجه الأرض ووجه التاريخ يا ابنة الأحرار.

أمسكت بخدها ونار صفعته تحرق أعماق القلب، وتوقعت أن يقتلها في التو واللحظة وتمنت هذا.

انحنى وأمسك بذراعها ونظر إليه ثم قال: جلدك رقيق سيجرح سريعًا، لا بد من توخي الحذر عند استعمال السوط، يعرف المماليك كيف يستعملونه بلا قطع للجلد، من واجب المماليك فرض النظام وتعليم العامة. زينب، قفي هنا أمامي.

قامت في بطء وهي تزيح شعرها، ولم تنظر إليه بعد أن كسرها مرة أخرى.

- تحتاجين إلى وقت لفهم حجم خطيئتك، ثم دفع ثمنها. هنا في الروضة سجن خاص بي، به بعض الحجرات العفنة التي لا ترى الشمس، وبعض الحجرات المشرقة للسجناء الشرفاء المهمين مثلك ومثل عائلتك، سأتركك فيه بعض الوقت ثم أبت في أمرك، وأقرر كم جلدة تستحقين على كلماتك.

همست في صوت مبحوح: ستلقي بزوجتك إلى السجن؟

قال في لامبالاة: ماذا تتوقعين من المملوك سوى هذا؟

تمتمت في ترجٍ: أرجوك لا تفعل هذا!

ثم أكملت لنفسها: لا تجعلني أكرهك أكثر.

لم يسمعها. خرج من الغرفة وقال وهو يغلق الباب وراءه: جهزي أشياءك. خذي معك بعض الكتب والخيوط لتقضي معها وقت فراغك. في السجون يتمدد الزمن وسط الجدران الثقيلة، تحتاجين إلى بعض التسلية.

عندما جرتها أم خليل إلى السجن كانت صامتة، والهوان طعمه مختلف اليوم، ولكنه موجود منذ رأته عيناها. حياتها قبله كانت شيئًا وبعده هي شيء آخر. بعد برهة تمتمت أم خليل: ماذا فعلت لتغضبيه كل هذا الغضب؟ لا يلقي الرجل زوجته في السجن إلا لو فعلت فاحشة.

قالت بصوت خافت لنفسها: هو ليس ككل الرجال، شيطان، وليس بشرًا.

قالت أم خليل بصوت خافت وهي تفتح بابًا صغيرًا وراء القصر: توخي الحذر في كلماتك. يقطع رقبتك لو سمعك، هو صبور معك.

تحسست خدها بيدها وقالت: ضربني.

- بالسوط؟

- ضربني على وجهي، أريد أن يعرف أبي هذا ويذهب إلى

السلطان.

- ومن يخبر والدك؟

- أنت أم خليل، أعطيك كل ما تطلبين.

- يقطع رقبتي أنا لو عرف، لن أستطيع.

نظرت إلى الحجرة المتواضعة والملاءة على الأرض وقالت: لا أستطيع البقاء هنا.

تقهقرت السيدة والكلام مع زينب يخيفها، ثم قالت: سآتي لك بالطعام كل يوم.

ثم أغلقت الباب، وسمعت زينب صوت المفتاح الكبير.

دفنت رأسها بين يديها وهي تلعن اليوم الذي ولدت فيه، والذي ضحت فيه بنفسها لتنقذ كل الرجال في العائلة، واليوم الذي أصبحت فيه تحت رحمة هذا المملوك. صدق يوسف عندما قال: إنهم قتلة وفجار، وإن التخلص منهم واجب مفروض، لو ثار العامة، لو ثار العلماء... لو ثارت هي أولًا.

دقت على الباب في يأس، وصرخت بكل الشتائم التي تعرفها، سبَّته وسبَّت المماليك وكل البلاد، وعندما هدأت واستلقت على الأرض لامت نفسها. ليس لأنها فقدت أعصابها وسبَّته، بل لأنها لم تفقد أعصابها منذ البداية وتسبه في الحارة أمام رجاله، فيقتلها على الفور، وتنتهي قصتها وتذله. كان لا بد أن تذله.

لم يزل خدها ساخنًا من وطأة يده. دقت على الباب من جديد وهي ترجو والدها أن يأتي.. ترجو الزمن أن يتغير. ترجو القدر أن تموت كما ماتت أخواتها.

تهاوت من جديد، وبدأت تلوم نفسها لسبب آخر، لماذا كل هذا الحقد على سارة؟ هي جارية، وإذا كان يريدها فهذا أفضل لها، أليس هذا أفضل لها؟ فهي تكرهه من أعماق القلب،

وتتمنى أن يبتعد عنها. لماذا كل هذا الغضب؟ ربما لم تعتد وجود امرأة أخرى في بيت الزوجة. والدتها لا تسمح بالجواري الحسناوات ولا تسمح إلا بالخدم.

لم تتصور كيف يمكن للزوجة تحمُّل امرأة ثانية في بيت زوجها.. تعاشره وتعشقه... أمام عينيها. الزوجة! وهي ليست زوجة. هي مغصوبة على تقبل هذا الزواج، وستنتهي منه قريبًا لو عاشت.

ماذا حدث للنفس؟ منذ تمرد الجسد وهي مختلفة، هل تغار من امرأة أخرى؟ لا يجوز ولا يمكن.

مرَّت أيامها في السجن بطيئة كما توقع، وكلها حسرة ووحدة. لا هي تعرف متى ستخرج، ولا ما العقاب القادم، كسرها على ما يبدو. في الأيام الأولى كانت تنتظر أم خليل لتعرف منها كل الأخبار، وتطلب منها أن تخبر والدها، ولم تكن أم خليل تجيب كثيرًا، وكأنها خائفة، أو لا تثق بها. بعد مرور أسبوع كانت ترجو أم خليل أن تتوسط لدى الأمير ليسامحها، فهذا السجن يذهب العقل. هي انتهت من كل الكتب، وغزلت الكثير من الخيوط، ولم تعد تحتمل البقاء وحدها. قالت أم خليل في شيء من التعاطف: لو سنحت لي الفرصة فسأخبره.

ولكنها لم تخبره، ولم تسنح لها الفرصة.

قالت لها من جديد: هل سيأتي ليراني؟ ألن يأتي ليراني؟ سأموت هنا. ألا يملك أي رحمة في قلبه؟

قالت أم خليل في عطف: هو يسجنك فقط، لم يقطع لسانك، ولم يقطع يدك، لا بد أن تحمدي ربك على هذا.

قالت وهي ترتجف: فعل هذا من قبل؟

- بالطبع يفعل هذا مع الخائن والمتمرد، كل الأمراء يفعلون هذا. هو أفضلهم في اعتقادي، ولكنه أمير، وللأمير هيبته.

فتحت كتابًا وقطعت منه ورقة، وكتبت كلمات له بقلمها: مولاي الأمير. سامحني، أطمع في عفوك، كنتُ حمقاء وتعلمت، تعلمت، لا أستطيع البقاء هنا، سأموت.

قالت لأم خليل في ترجٍّ: أرجوك أعطيه هذه الورقة، عديني أن تعطيها له فقط.

ثم خلعت قرطها الذهبي، وأعطته لها قائلة: هو لك.

نظرت إليها أم خليل، وأخذت قرطها، وقالت: سأحاول.

- اتركيها له على سريره.

- لو فعلت لظنَّ أنك تتصلين بأحد، ويقتلك أنت على الفور.

قالت في حقد: يقضي لياليه مع سارة بالطبع.

خفضت أم خليل رأسها وقالت: لا أعرف.

- ولو عرفت ما أخبرتني، كل هذا الخوف في قلوب كل من حوله، ما الهدف من العيش وسط كل هذا الخوف؟! إِنْ كان يريد الجارية ويفضلها يتركني أعود إلى أهلي.

ثم ربتت على كتف أم خليل وقالت: أنت مثل أمي، سأموت هنا، كلمات نطقتُها لا تستحق كل هذا، لم أرتكب جريمة، لا سرقت ولا قتلت.

أمسكت أم خليل بكتفها وقالت: ابنتي.. الكلمات هي ما تخيف الأمراء، كل الأشياء الأخرى لها حل ومخرج، أمَّا الكلمات فلها وقع آخر، احترسي من كلماتك في المستقبل.

- لو كان لي مستقبل.

ليلًا خرج كل الغيظ والحقد الذي بداخلها، ولعنت المماليك العبيد ومن أتى بهم، وتصورت حياتها الرغدة الجميلة تحت حكم المغول والصليبيين مجتمعين، وكيف سيكونون أكثر رحمة وإنسانية. وقالت لنفسها بصوت مسموع: لا أصدق، يتخلص

من زوجته في لحظة، وكأنها من جنوده الخائنين، أي رجل يفعل هذا؟ صدق أبي حين قال: ليس لهم أصل ولا بلد، جنود مستأجرون للقتل. كيف أعطيت نفسي له؟!

لامَتِ الجسد على الاستجابة له، والعقل على التضحية بنفسها. سَحَرَ لها، هذا أكيد؛ فهو يفعل كل الشر الذي يمكن أن يكون موجودًا في هذا الكون. ألم تره يقطع الرقبة في جمود، ثم يستمر في الحكي والكلام، رأته! من لا يحركه الموت لا يحركه أي شيء. ألقت بنفسها في كهف الغول، وظنت أن هناك نجاة، لا نجاة لها. أخرج الغول النار من فمه وحرقها وانتهت.

في اليوم التالي جاءت أم خليل، وقالت: إنها أعطته الورقة.

فقالت زينب: وماذا فعل؟

- قرأها ثم ألقى بها، ولم يتكلم.

- تكذبين عليَّ. لِمَ تكذبين عليَّ؟

- أقسم لك إنني أعطيتها له.

ثم جرَّت بعض الكتب والخيط، وقالت: طلب مني أن أزودك بكتب جديدة وخيط جديد.

قبضت يدها؛ حتى لا تحطم معصمها وهي تضرب الحائط. وقالت: سيفقدني عقلي!

قالت أم خليل في رفق: اصبري يا ابنتي، هذا سجن خاص وجميل، لا تعرفين السجون التي يضع فيها الجنود ليعاقبهم.

- يعاقب الجنود؟

- بالطبع، بصرامة، أحيانًا يقطع الرأس لو تعدى الجندي الحدود.

- كنت أظنه يملك قلبًا، يشعر ناحيتي بأي شيء، أي شيء

ولو شفقة.

قالت أم خليل في حزم: ابنتي، التوسل للأمير ليس جديدًا عليه، كم سجينًا يتوسل في اعتقادك؟ الأمراء لا يحركهم التوسل، بل ظني أنه يعرف بالضبط متى ستتوسلين، ومتى ستكونين على استعداد لتقبل ضربات السوط لتنقذي نفسك من المكث هنا، السجون هي لعبتهم وملهاهم، تفهمين؟

- يعرف أنني سأتوسل؟ وأطلب عفوه؟

- ويتوقعه.

قالت في يأس: لا أمل لي.

الوحدة هي رفيقة اليأس وعاشقته، أصبحت تنتظر أم خليل كل يوم لتتكلم معها، ولو كلمات قصيرة، وتسألها عن حال الدنيا، وأحيانًا كانت تسألها في يأس لو أن الأمير سيبقيها بقية عمرها دون أن ترى الشمس، ولو أنه سينهي حياتها بين جنون السجون لمجرد كلمات قالتها في لحظات الغضب. كانت أم خليل تربِّت على يدها في تأثر، وتطمئنها أنه لا بد سيفرج عنها، وأنه لا بد أن لديه موعدًا في ذهنه للإفراج عنها، وأن عليها أن تفرح لأنه لم يقرر جلدها، ورحمها من آلام السوط. كانت تقول في أمل: تعتقدين أنه يومًا سيفرج عني؟

فتقول أم خليل في تأكيد: بالطبع، هو صارم، وأنا متأكدة من أنه قرر أن تبقي مدة محددة، ولن يغير رأيه، ولكنه سيفرج عنك. اصبري.

فتقول في عدم صبر: متى؟ ما رأيك أنت؟

فكرت أم خليل قليلًا ثم قالت: بعد شهرين، ثلاثة أشهر، عام على الأكثر.

شهقت زينب في فزع، فقالت أم خليل مسرعة: لو جلدك لكان سيفرج عنك قبل هذا، ولكنه لم يفعل. اصبري حتى

ينسى ما قلته.

- ولو لم ينسَ أموت هنا؟

فتحت أم خليل يديها في استسلام، ثم قالت: لا أدري يا ابنتي، تسألينني وكأنني أعلم الغيب، اصبري؛ فليس أمامك سوى الصبر.

قالت في ترجٍّ: سأطلب منك طلبًا واحدًا، أريدك أن تسأليه عن موعد الإفراج عني، فقط اسأليه متى ينوي أن يطلق سراحي. لا تشفعي لي، فقط اسأليه.

اقتربت أم خليل منها، وهمست: يا ابنتي، لا تفهمين المماليك ولا الأمراء. فكري بعقلك.

- ماذا تقصدين؟

- السجن محدد المدة نوع من أنواع العقاب، ولكن السجن بلا أمل في النجاة نوع آخر من العقاب، يستهوي المماليك، اعتادوه، وأحيانًا يحدث لهم هم أيضًا، هي عادتهم وطرقهم، ستفهمينها بعد حين.

- يا إلهي، أيُّ قسوة وأيُّ ذنب اقترفته؟

ابتسمت أم خليل في أسى ثم قالت: أخبرتك من قبل ماذا تفعل الكلمات، اصبري.

هوت إلى الأرض مرة أخرى في يأس .

بعد مرور ما يقرب من شهر دخلت عليها أم خليل في ميعاد مختلف ووراءها بعض الجنود، وقالت: حظك جميل أو تعس لا أدري.

- ماذا حدث؟

- والدك مريض، ويريد أن يراك، سمح لك الأمير أن تزوريه ثم تعودي إلى السجن. غطِّي وجهك، سيصاحبك الجنود، لا

تحاولي الهرب، هكذا قال. وإلَّا فأنتِ تعرفين العواقب.

- أبي حي؟

- هو حي، ولكنه مريض جدًّا.

* * *

لم تصدق عينيها وهي ترى الشمس من جديد، استنشقت الهواء، ورفرف القلب وهي تتجه إلى القاهرة وتبتعد عن الروضة وكل قصور وقلاع المماليك.

ما إن وصلت بيت والدها حتى اتجهت إليه بسرعة وهي تقاوم دموعها.

كان طريح الفراش، وأمسكت بيده وقبلتها، وقالت في أسى: أبي.

قال وهو ينظر حوله: قضيت عليك بهذا الزواج، أعرف.

لم تجب.

فقال في صوت مبحوح وهو ينظر إلى زوجته: تكلمت مع قاضي محكمة المظالم، ومع العلماء، لن أتركك معه يا ابنتي.

قالت في صوت باهت: أنا بخير، صدقني.

- أيُّ زمن هذا! ليتني مت في الوباء قبل أن أرى أسياد القوم في بلادنا وهم ينتقون الأسماء لأنفسهم كاللقطاء، أناس بلا أصل ولا بلد، ماذا تتوقعين منهم؟ الأمير محمد بن عبد الله! عبد الله لأنه لا يملك أبًا، ومحمد لأنه لا يملك اسمًا، ويريد التقرب من المسلمين والتظاهر بحماية الدين. ما اسمه الحقيقي وما نسبه ومن أبوه؟! يعرفون أننا نحتقرهم ونعرف أصلهم.

نظرت حولها في خوف، وقالت في صوت خافت: أبي كلنا عباد الله.

- يسجنك، يجرؤ أن يسجنك، وكأنهم اشترونا كلنا، عبيد

ويشترون الأحرار.

لم تعرف كيف عرف والدها، ولكنها شعرت بخجل من ذُلِّها أمام أبيها.

قالت في تأكيد: لم يسئ معاملتي، تشاجرنا فقط، لا تدخل مع المماليك في شجار، يكفي ما حدث، أستطيع الدفاع عن نفسي.

ابتسم في تهكم: إذا كان أخوك لا يستطيع الدفاع عن نفسه أتستطيعين أنت ذلك وأنت البنت الصغيرة؟

نظرت إلى أخيها، فهزَّ رأسه لها في وجوم.

قالت مسرعة: أبي، أنا لا أريد أن أترك الأمير. اسحب الشكوى.

- ماذا حل بك يا زينب؟ تخافين منه؟

- صدقني هو زوجي ولا أريد تركه، لا تشغل بالك بي، اهتم بصحتك، وأبعد أحمد عن هذا الأمير، من الأفضل أن نبتعد عن كل المماليك، نحيا كما كنا من قبل.

نظر إليها الأب في حنان ثم قال: قلبك الكبير يتحمل الكثير.

قالت في يأس: لن ينصفنا السلطان، هو من نفس الأصل، سنغضب الأمير، وسينتقم منَّا جميعًا، أخاف على أخي.

نظرت حولها لرجال الأمير الذين يقفون في آخر الحجرة، ثم قالت في قـوة: لا أريد شكوى، أنا سعيدة معه.

ثم قامت من جانب والدها، وخرجت من الحجرة إلى حجرة النساء، عانقت أمها وفاطمة، ووضعت رأسها بين يدي أمها وهي تحكي ما حدث في حسرة وخجل.

وضعت الأم يدها على قلبها، وفتحت فاطمة فمها في فزع، فقالت زينب: أعرف، لا تصدقوا ما قاسيت، سجنني وضربني،

أنا سجينة الآن، وحدي في غرفة صغيرة.

هزَّت الأم رأسها بالنفي ثم قالت: فقدتِ عقلك يا زينب. كيف نطقتِ بتلك الكلمات؟

قالت في تحدٍّ: هي الحقيقة.

- أيُّ حقيقة؟ أفيقي يا ابنتي، هذا الأمير يحبك، لا بد أنه يعشقك، وإلا كان قطع رأسك على الفور، أيُّ زوجة تقول لزوجها هذه الكلمات؟!

قالت في عدم صبر: أنت لا تعرفين يا أمي، يفضل الجارية عليَّ، ويحبها هي، قلت الحقيقة، هو من قضى على عمري كله بهذا الزواج.

قالت فاطمة في رفق: توخي الحذر يا زينب. سيقطع رأسك بهذه الطريقة، أو يجلدك جلدًا لن تتحمليه، انسي أمر الجارية، واطلبي منه الصفح اليوم، حاولي.

قالت في قوة: أموت قبل أن أفعل هذا بعد أن ضربني. حتى أبي لم يضربني قط.

قالت فاطمة في رفق: سيبقيك في السجن لنهاية عمرك. لِمَ التعنت والكبرياء، هو أميرك وزوجك، شئت أم أبيت. تطلبين من والدك أن يتنازل عن شكواه وتريدين أن تتحديه؟ أيُّ منطق هذا؟

قالت مسرعة: يفضل الجارية عليَّ. ألا تفهمين؟

قالت الأم في صرامة: يفعل ما يشاء، ما هذا الكلام الغريب؟ هو أمير يشتري جارية واثنتين وثلاثًا، ويتزوج من واحدة واثنتين وثلاث وأربع.

قالت والدموع تترقرق في عينيها: كنت أريد الزواج من رجل يحبني وحدي، ويريدني وحدي، لا من المماليك ولا من الأمراء، حرمني من هذا، دمر كل عمري.

همست فاطمة في أذنيها: تحبين يوسف؟ ما زلت تحبين يوسف؟

قالت وهي تمسح دموعها: لا أعرف.

فهمست من جديد: هو هنا، يريد مقابلتك.

شهقت في فزع ثم قالت: لا يمكن.

- أفهم، رجال الأمير يقلقونك، ولكن لو تقابلت معه في حجرة والدك، وكأنه يريد أن يطمئن عليه فلن يشك أحد. يريد أن يراك. طلب أن يراك.

استمرت في مسح دموعها وقالت: وأنا مهزومة وذليلة؟!

قالت فاطمة: هيا اخرجي له، لم يتبقَّ الكثير على غروب الشمس، وسيطلب الرجال منك العودة.

هزَّت رأسها، وقامت في خطى متثاقلة، وذهبت إلى حجرة أبيها، كان نائمًا.

أدارت عينيها، ورأت يوسف بوجهه الملائكي وعينيه البريئتين وكل الطيبة من حوله. ما إن رآها حتى ابتسم في صمت.

ثم نظر إلى فاطمة، وقال: عمي بخير، لا بد أن يسامحني. تسببت له في كل هذا الأذى.

قالت زينب وهي تتحاشى عينيه: يسامحك، بالطبع يسامحك.

- ترى هل لي أن أعيد له حقه من الأمراء؟

لم تجب، فأعاد السؤال وهو ينظر حوله: لو تقدم للمحكمة وحكم القاضي أعيد له حقه، فهو يستحق أفضل من الأمراء.

قالت وهي تربت على يد والدها النائم: لا يستطيع ترك الأمراء.

- الخوف لا ينفع في هذا العمر، هو سبب حسرتنا وفنائنا،

وبقائنا تحت طوع الأمراء.

- لا بد أن للشجاعة وقتًا فات وولَّى. اهتم بأمرك يا ابن عمي وسيرزقك الله بما تستحق، ولا تستهن بآلام السجون وشق الجسد والخازوق، تنسي الشجاع كل شيء، ينسى شكواه وظلمه. لا تَمُتْ. حاول ألَّا تموت، لا تغامر مع الأمراء. قواعدهم غير قواعدنا وقوانينهم غير قوانيننا.

- إنْ كان عمي خائفًا فلا بد أن يقول: هل سبب بقائه الخوف؟ السجن؟ أم أنه يريد البقاء؟

أدارت عينيها، وسقطت دمعة من عينها اليمنى، وقالت: امتزج الخوف بالكثير من المشاعر، يعرف أن العودة مستحيلة، وأن القصة انتهت، اعذر عمك، هو بشر.

قال في رقة: أعذره وأنتظره؟

قالت في تأكيد: لا تنتظره؛ فلن يعود.

نظرت إليها فاطمة في ذهول.

فخرجت زينب من الحجرة متجهة إلى حجرة أمها لتودعها، فهمست فاطمة: زينب، يمكنني مساعدتك على الهرب.

شهقت زينب في فزع، فأكملت فاطمة وهي تلتفت حولها: سيسجنك من جديد، اهربي. قلت من قبل إنه ليس زوجك، اهربي إلى الشام أو أي بلد آخر، وربما تستطيعين الزواج من يوسف والحصول على الطلاق. هناك سرداب سري أعرفه، لن يصل إليه الجنود. نذهب إليه الآن...

قاطعتها زينب قائلة في غضب: ماذا تظنين؟ أنا لست غانية. لِمَ الهرب؟ كيف تتكلمين معي هكذا؟

- أخاف عليك فقط، لا أعرف ماذا سيفعل بك، ربما يجلدك مئة جلدة على كلماتك، أو يبقيك في السجن بقية عمرك، لن يساعدك أحد. تعرفين هذا؟ والدك مريض الآن.

لم تجب زينب، اتجهت عيناها إلى الباب، ووضعت الوشاح على وجهها وخرجت، وقالت للجنود: يمكننا العودة الآن.

* * *

دفن يوسف رأسه بين يديه وهو جالس في حجرة عمه بعد أن رأى زينب ثواني ثم رحلت، كيف لعمره أن ينقضي بلا استئذان بإشارة من يد أمير مملوكي؟ كيف لحياته التي رتبها واليوم الذي كان ينتظره منذ الطفولة أن يبقى خارج نطاق الممكن لأن الأمير قرر هذا في لحظة؟! وكيف لزينب أن تنكسر وتُقهر وتُسجن وهو يقف عاجزًا لا يستطيع أن يفعل أي شيء. أيُّ رجل هو؟! وأيُّ زوج كان سيصبح لو تزوجها؟ كثيرًا ما كان يضحك على المماليك، ويسخر من لغتهم وملابسهم وقراراتهم وأصلهم المجهول. يتذكر ساعات قضاها مع أحمد في عدِّ أخطائهم وهفواتهم وجبروتهم، وها هو ذا أحمد يفضل السلم ويشعر بالامتنان؛ لأنه لم يبق في السجن طوال عمره الباقي. أيُّ امتنان هذا لأن الظالم لم يبتر، بل كسر وحطم فقط! أيُّ امتنان لأن الأمير قرر أن يفرج عنهما ويقضي على حياته وكل آماله. زينب كانت كل ما يحلم به، أيُّ نفاق وأيُّ ذل وأيُّ رضوخ؟ وإذا استمر الاستسلام للمماليك فماذا يتبقى؟ حتى عروسه أخذها منه الأمير، ماذا تبقى؟ سيبقون إلى أبد الآبدين تحت رحمة أمير مملوكي يقرر مصيرهم وكأنهم هم العبيد؟ أيُّ حماية وأيُّ أمن؟ الحقد بداخله عاجز وعميق.

ترى كيف يعذبها الأمير؟ يحبسها ويضربها وماذا يفعل بها؟ يغتصبها. اقشعر جسده وهو يتصور زينب تحت رحمة المماليك في السجن الذي كان فيه.

وتذكر آخر ليلة له في سجن الأمير محمد هو وأحمد، عندما دخل الجنود بأدوات التعذيب المبتكرة ووضعوها أمامهما، ثم قال

الجندي في قوة ليوسف: هل رأيت ابن عمك يتعدَّى على الجنود؟

بقي يوسف ساكنًا والخوف يزلزل كل جسده وهو ينظر للسكين الحاد والمعصرة والسيف السميك.

نظر الجندي إلى أحمد وسأله لو تعدَّى على الجنود، وبقي أحمد أيضًا صامتًا.

أمسك الجندي بالسكين، ثم قال في حسم: لا تنطقا، هذا أفضل. طلب مني الأمير أن أتأكد من شيء قبل خروجكما اليوم، ولدي طريقتان للتأكد، واحدة سهلة عليكما، وواحدة سهلة عليَّ أنا.

هوى الاثنان إلى الأرض والعرق يتصبب من جبهتهما والبتر أسهل على الجندي بالتأكيد.

قال الجندي وهو يلوح بسكينه وكأنه يهم بالقطع السريع: لو قطعت لسانك يا يوسف لتأكدتُ أنك لن تحكي ولن تهذي بكلمات تمس المماليك، ولو قطعت لسانك يا أحمد لتأكدتُ من أنك نسيت لحظة تصورت أنك تعديت على جندي من المماليك.

قالا في رجاء: نفعل ما يأمر به الأمير.

فقال الجندي: الأمير يريد أن يتأكد من أن التعدي على الجنود كان هذيًا من عمل الشيطان، لم يحدث، ولن يتكلم عنه أيٌّ منكما، ولو حدث وحكى أحدكما شيئًا، لو حكى من فعل أو حكى من شاهد يقطع لسانه في الحال، حتى لو حكى لأمه أو زوجته، الأمير سيعرف.

قال يوسف حينها في حماس: لم يحدث شيء، ولم نَرَ شيئًا.

فقال الجندي: تدعون للأمير وتثنون على كرمه ورحمته؛ فهو قد قرَّر الإفراج عنكما اليوم.

دعوا له معًا وأعينهما على السكين والسيف، وأمل النجاة يسيطر على كل الخلايا داخل العقل والوجدان. الآن.. ترى أي عذاب تذوقه زينب برقتها وحنانها؟ وماذا قالت للأمير ليسجنها؟ لا بد أن الأمير عرف أنها تكرهه، لا بد أنه شعر باشمئزازها من اغتصابه، لا بد أنها قاومته فقرر عقابها، ولا بد للعجز أن ينكشح كالفقر والوباء.. عجزه أبشع من الوباء.

وماذا بيده أن يفعل؟! يقتل الأمير فيوضع على الخازوق على باب الحارة، ولا يموت أيامًا، بل تنبثق الدماء من أذنيه وعينيه، ويعجز اللسان عن الإفصاح والاعتراف؟ يلجأ للسلطان؟ ولِمَ يثق في سلطان غريب من المماليك؟ ومتى أنصفه المماليك؟ كيف يلجأ للظالم ليرد عنه الظلم؟ قالت زينب: إن هذه هي النهاية وإن قصتهم انتهت. ترى أتضحي من أجله أم استسلمت لقدرها؟ للمرارة نار تحرق الكون، وللعجز صفير يودي للجنون.

زينب.. ولو لم تُضَحِّ من أجله ومن أجل أخيها؟ لم يكن يستطيع العيش عمراً في السجن، ولو ضحت ما استطاع العيش عمرًا بغيرها، طلبت منه أن يعيش وينسى، ضغط على جبهته بيديه.

* * *

الفصل الرابع

أثناء الطريق الطويل وسط الظلام كان التفكير سهلًا والحلول واضحة، فرصتها في الطلاق ضئيلة، وهزيمتها أمام الأمير ساحقة. لم يكسر كبرياءها ونفسها فقط، بل كسر الجسد وأخرج الجنون والاشتهاء. أملها الوحيد في النجاة هو أن يسامحها وتعود حياتهما كما كانت. لم تكن متمردة مثل يوسف وأحمد، ولم تكن تكره المماليك أو تحبهم. كانت تريد العيش في سلام. العودة ليوسف ما دام الأمير على قيد الحياة وما دام المماليك يحكمون البلاد مستحيلة، والطلاق قرار يتخذه هو عندما يملُّها، وفكرة أن يلقي بها في القمامة بعد أن يمتص عمرها لا تستهويها، بل لا تستهويها على الإطلاق. ولا تعرف السبب، هل كبرياؤها كامرأة تجعلها تتمنى ألَّا يملَّها أبدًا، وأن تكون هي الوحيدة التي تسيطر على قلبه أم شيء آخر لا تعرفه، تكرهه، لم تزل تكرهه، ولن تسامحه، وتعرف هذا، ولكنها لا تتحمل العودة إلى السجن، ولا تتحمل الوحدة، ولا تتحمل فكرة انتصار الجارية عليها، ولا أن جسد الجارية أشبع كل رغباته بينما هي لا تعني شيئًا بالنسبة إليه.

هذه الفكرة تسيطر على كل أروقة القاهرة وكل أروقة عقلها. سارة لا يمكن أن تنتصر، ولا يمكن بقاؤها في القصر لو كان لزينب أن تستمر وتتأقلم. هناك شيء ما... تشعر به منذ البداية... هذا الأمير يملك بعض المشاعر تجاهها، قالت هذا

الأم اليوم، ربما لا يحبها ولا يعرف الحب، ولكنه يملك بعض المشاعر. لو استغلت هذا بالطريقة الصحيحة لاستطاعت الاستمرار، ولابد من الاستمرار خارج السجن وليس بداخله. تربت في بيت والدها كأميرة، كلماتها مطاعة من الخدم وكبرياؤها لا تمس من أحد، كانت مدللة من الأب، يحترمها ويقدر حكمتها، وينظر إلى ذكائها بإعجاب والآن بعثر الأمير كرامتها وأذلها ذلًّا لا يوصف. بدا واضحًا أيضًا أنها لو أرادت الاستمرار فلابد أن تنحي كرامتها جانبًا، فلا كرامة تعيش وسط حوائط السجون الضيقة، ولا كبرياء تنهض وسط جواري القصور، هي حياتها.. أخذت منعطفًا خطيرًا ويبدو مميتًا، ولابد من إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولو أرادت أن تكمل هذا السباق وتفوز به فلابد أيضًا من الأبناء وإلَّا فسيتجه إلى جواريه. ستتخلص من الدواء، وتدعو الله كل يوم أن تنجب له الكثير من الأولاد، فلو لم تفعل سينتهي أمرها، تعرف.

التفكير المرتب السليم يؤدي دائمًا إلى نتائج إيجابية.

ولكن التخلص من سارة وعودة حياتها مع الأمير أمانٍ تبدو ساذجة وبعيدة، ولا يقوى على حملها سوى زينب بسذاجتها وثقتها في قدراتها الخارقة. في بعض الحروب الهزيمة تعني الموت، ولا يمكن التفكير في هذا الاحتمال. هزَّت رأسها كأنها تطرد الشك من العقل.

ويوسف... يوسف. حلم وخير وطفولة وأمل. لا عودة للماضي، هو بخير، وسينسى ويتزوج ويعيش، وستستمر هي بقلب ضعيف وروح منكسرة وتتأقلم مع قدرها وتستسيغه. لابد من الانتصار في معركتها اليوم بأي طريقة. انتصر عليها الأمير مرارًا. وجاء وقت رد الصفعات وضرب السفن. في هذه الغزوة إمَّا أن تهزم العدو وإما أن يقضي عليها قضاءً تامًّا.

ما إن اقتربت من القصر حتى جَرَتْ من الجنود بأقصى سرعة وهي تصيح: أريد أن أقابل الأمير. مولاي الأمير محمد.. مولاي الأمير.

كانت تعرف أنه موجود، وأن الجنود لن يجرءوا على لمسها. دقت على باب القصر، فتحت إحدى الجواري، فجرت بأقصى سرعة في اتجاه حجرته.

قابلته في منتصف الطريق، نظر إلى الجنود وراءها يلهثون في خوف، همس أحدهم في أذنه، ثم أشار لهم بالانصراف.

قالت في صوت لاهث: جريت لأراك وأتكلم معك.

ثم أكملت في ترجٍّ: اسمح لي أن أتكلم معك. دقائق لا أكثر.

قال في حسم وهو يفتح باب الحجرة: دقائق وتعودين إلى سجنك.

جرت مسرعة إلى داخل الحجرة وأغلقت الباب ونظرت إليه وهو يقف أمامها مسيطرًا على كل شيء. كيف لها أن تهزمه اليوم؟ مدَّ ذراعه على السرير ثم قال: ماذا تريدين؟ تريدين التوسط ليوسف من جديد، لو فعلت أقتلك اليوم.

كانت تلهث بعض الشيء وهي تحاول أن تتذكر كل الكلمات التي فكرت فيها وحضرتها طوال الطريق. قالت في تلعثم: أريد أن أشرح لك، أن أطلب عفوك. أن يتسع صدرك لـ...

قاطعها: لن يتسع صدري. هل انتهيت؟

قالت وهي تهوي إلى السرير وترتجف بعض الشيء: لا تسجني مرة أخرى، سأموت.

قال وهو ينظر إلى النافذة: لماذا؟ لديك مدفأة وطعام، وحتى الخيوط والكتب تركتها معك.

همست وهي تمسك بيده: سأموت لو ابتعدت عنك. لا أستطيع.

قال في جفاء: زينب، اذهبي من هنا. لا أحب ألاعيب النساء.

قالت في قوة وهي تشد يده وتقوم: هل عهدتني كاذبة؟ لم أكذب عليك من قبل. سامحني، لم أقصد ما قلت. كنت أخاف...كنت أخاف أن أتحطم.. أن تعذبني وأنا أراك مع غيري، لا أتحمل لا أستطيع.

قال: لم أسألك عن رأيك، وليس لك رأي.

بدا لها أنه لا يحب الكلام عن المشاعر وعن العذاب وعن التفاصيل، وبدا أيضًا أنها ستخسر هذه المعركة.

ألقت بنفسها على صدره، وتشبثت بكتفه وقالت: أحبك، أبقني معك اليوم فقط ثم احبسني بقية عمري، أبقني بين ذراعيك اليوم فقط.

أمسك بذراعيها ليدفع بها بعيدًا، فأحاطت وجهه بيديها، وقبلته قبلة قوية تحمل كل الخوف واليأس بداخلها. وكانت أول مرة منذ زواجهما تبادر فيها بتقبيله. في البداية كانت تتحمل قبلاته وتفصلها عن روحها ثم استجابت لقبلاته واختلجت بين يديه، ولكنها أبدًا لم تبدأ بتقبيله أو لمسه منذ زواجهما، وإذا كانت هذه القبلة هي كل الأمل لديها في النجاة، فلابد أن تسكب فيها كل يأسها وخوفها.

لم يدفع بها ولم يحتضنها، ولم تكن تدري هل فاجأته أم أنه لم يعد يريدها، ولكنها شعرت به في بطء يبادلها القبلة في قوة، ويحيط وجهها بيديه، بعد برهة، تركت فمه وهي تلهث وقالت: أحبك، أبقني معك اليوم، لن أغضبك مرة أخرى، أعدك، سامحني، أتمنى فقط أن تسامحني.

شعرت بذراعه تحيطها، فابتسمت في ارتياح وقالت: ضُمَّني إليك ولا تتركني مرة أخرى مهما جرى.

قال وهو يضغط على خصرها: تخافين السجن إلى هذا الحد؟

قالت وهي تتحسس جسده وفكرة المكوث في السجن تربك كل نفسها: أخاف الابتعاد عنك.

أبعدها عنه بعض الشيء، ونظر إلى عينيها وشعر بقلبها الذي يخفق في قوة وكأنها ولدت للتو أو على وشك الموت، كانت كالأرنب الذي يهم المشتري أن يمسك بأذنيه ليذبحه، تنظر إليه في حذر وتخاف النهاية المحتومة، اتسعت عيناها وهي تنظر إليه، كانتا عينين تستغيثان وترجوان، ولكنه رأى القوة لم تزل كامنة في الأعماق، ولم تختفِ حتى بعد المكوث في السجن.

قال وهو يمر بأصابعه حول عينيها وهي تحدق فيه بلا توقف: زينب...ترى ماذا تريدين؟

ألصقت رأسها بصدره وطوقت كتفه وأغمضت عينيها وقالت: سأفعل أي شيء من أجلك يا مولاي.

- تقولين هذا دائمًا وقت يأسك وخوفك.

لم تجب، لم تعرف ماذا تقول، تمتمت لنفسها بأدعية وهي تتمنى النجاة.

همس في صوت هادئ وفمه يقترب من فمها وهو يمر بأصبعه حول شفتيها: يمكنني أن أقبلك اليوم وأبادلك الحب ثم أعيدك إلى السجن غدًا، تعرفين، أليس كذلك؟

بقيت ساكنة ثم قالت: لو أعدتني إلى السجن يا مولاي فلن أبالي طالما ستزورني كل يوم وتضمني إليك. أمَّا أن تتركني وحيدة بعيدة عنك، فعدلك ورحمتك لن يسمحا بهذا.

- رحمتي؟ نعم رحمتي، تعتمدين عليها كثيرًا منذ عرفتك.

هل كذبت عليه أم لا، لا تدري. انتصرت في معركتها، هذا مؤكد، ولكنها أرهقت الجيش، وقضت على العتاد.

ولحظة فرض سيطرته عليها وأصبحت له اليوم، التقت

أعينهما، وكان الضعف والشوق يطغيان عليها معًا، وقوة مشاعرها الملتبسة ويأسها وخوفها من السجن تظهر في رغبة الجسد وسيطرته، لم تدرِ هل ازداد مفعول السحر أو هو الخوف من البقاء وحيدة في السجن؟ ولكنها كانت تبادله العشق، وكأن عمرها وصل لنهايته، وكأنه جان بداخلها سخرها له وقضى على عقلها. رأت شيئًا من الدهشة في نظرته وشيئًا من الحذر، ولم تبالِ، تحارب وتغزو فلا مفرَّ من القتال.

بعد أن انتهى ابتعد عنها كما يفعل دائمًا، فتشبثت بذراعه وقالت وهي تضع رأسها على صدره: اجعلني أنام بين ذراعيك اليوم فقط، اسمح لي.

نظر إليها في حيرة لأول مرة ربما، ثم قال: لم أعتد هذا.

حاول أن يتحرك، فأمسكت بذراعه قائلة: اشتقت لك وافتقدتك، اتركني اليوم فقط أنام بين ذراعيك، هذا طلبي الوحيد.

قال في رفق والحيرة بدأت تطغى على كل مهاراته: قلت لك لم أعتد هذا، لن أعيدك للسجن، يمكنك النوم يا زينب، لا تحتاجين ذراعي.

أغمضت عينيها وهي لم تزل تتشبث به، وابتسمت لنفسها في ارتياح وتصنعت النوم العميق، بقي ساكنًا، شعرت به مستيقظًا وساكنًا، لم تجرؤ على الكلام، ولم تعرف بعد لو أنها انتصرت في غزوة أم معركة، خافت أن يدفع بها بعيدًا وأن تبقى خارج نفسه. للانتصار في هذه المعارك خطط ودهاء، هكذا قال الأمير، وهكذا علمها، وهي تتعلم سريعًا، في هذه الغزوات لابد من غزو الأزقة والحارات، وليس القلاع فقط.

أحاطت ساقه بساقها وكأنها تحبسه بين سني عمرها؛ وهمست: أنت قررت الزواج بي، وقررت أن تعذبني بهذا الحب،

وقررت أن تحبسني، ألا تشعر بالذنب من أجل كل هذا الظلم؟

قال بعد قليل: ظننتك نائمة.

- أريد أن أستمتع بوجودي بين ذراعيك، لم تعدل معي أيها الأمير.

قال في عبوس: ماذا تريدين؟ إنقاذ يوسف؟

قالت وهي تمرُّ بيدها على ذراعه: أن أبقى معك. لا أهتم بأمر يوسف ولا غيره، لا تتركني.

بقي صامتًا وعابسًا، وكأنه يشعر بهزيمته ويعرف طعمها.

قالت وهي تحكم السيطرة على الحارات والعطوف الضيقة داخل نفسه: كنت تريد أن ترى شجاعتي في العشق، تعرفها الآن، وتعرف عذابي بهذا الحب.

قال وهو ينظر إلى الأفق: ولِمَ تتعذبين؟

بقيت صامتة لا تدري أتضرب بالسيف الآن، أم تعطي مهلة لاستساغة الهزيمة والتأقلم معها.

ولكن وقت تقهقر العدو لابد من الضرب. قبلت ذراعه وهمست: لم أعرف غيرك ولم أحب غيرك، سأتحمل أي شيء لأسعدك، أي شيء. حتى لو ذابت روحي وسحقت من أجلك فسأفعل، فلا محارب غيرك يهزمني.

- لا أفهم.

- لو شعرت بك مع غيري لمِتُّ، لا تعرف كم أموت، تسير نفسي بين الطرقات في جنون ومس من الشيطان، ولكنني سأتحمل من أجلك؛ فليس لي سواك. افعل بي ما شئت، اقتلني لو أردت، ولكن لا تتركني.

قال في جدية: زينب. أي لعبة تلعبين؟!

حاول القيام، فقالت مسرعة وهي تدس رأسها في زاوية

ذراعه: اتركني بين ذراعيك، وثق بي.

- ماذا حدث بينك وبين يوسف؟

قالت مسرعة: أنت تعرف، كان رجالك في الحجرة، جاء ليرى أبي.. هو لا يطيقني الآن.

قال في حسم: ولكنني سأقتله. تعرفين، أليس كذلك؟

قالت وهي تقبل رقبته وتمر بيدها على كتفه: افعل ما تراه عدلًا يا مولاي، لا يهمني إلَّا أنت، واغفر لي أيَّ خطأ بكلام لم أقصده، فليس لي خبرة بالزواج ولا بالأمراء، أتعلم بسرعة، وأعدك بأن أحسّن من أخلاقي.

ثم قالت وهي تتظاهر بالأسى: ماذا أكون أنا أمام جواريك؟ لا أنا في جمالهن ولا في دهائهن، بنت من العامة. ستملُّني وأموت بعدها. أعرف. ولا أبالي. أبقى معك حتى تملَّني، فلا عمر لي بدونك، ولا حياة لي وأنت مع غيري. ماذا أقول؟ لا تعرف عذابي وأنت بين ذراعي... غيري، كل النساء حولك وليس لي غيرك أنت. أيُّ عدل هذا؟!

همست وهي تتظاهر بالبكاء: مولاي، تعرف بماذا كنت أشعر في سجني. كل يوم. ليلًا؟

قال في وجوم: بماذا؟

- كنت أريد الموت وأنا أتصورك بين ذراعي..

لم تكن تريد أن تنطق اسم سارة؛ اسمها فقط يصيبها بالاشمئزاز، كرهها لها لم يصل إلى مرتبته أحد من قبل، والآن تكرهها أكثر بكثير من قبل. قالت في تأثر: بين ذراعي أي امرأة، كنت أريد الموت وأموت كل ليلة وأنا أشتاق إليك وأعرف أنك لم تعد تريدني. أنا آسفة أكرر كلماتي المملة، فقط أريد أن أتكلم معك.

ضغطت على ذراعيه أكثر وهي تتنهد، وكأنها كانت تبكي،

وأغمضت عينيها وهي تتصنع النوم من جديد، وشعرت به لا يتحرك مستيقظًا وعبوسًا، لم تنم ليلتها ولم ينم ليلته. تظاهرت بالنوم وقد قالت كل ما رتبته طوال الطريق، ترك لها الفرصة لتتكلم، هذا في حد ذاته أراحها، وبقي هو ساكنًا وعيناه تنظران إلى النافذة.

في الصباح قام من مكانه، وهي لم تزل تتظاهر بالنوم، وارتدى ملابسه، وخرج من الحجرة.

بقيت مكانها، لا تدري هل كان انتصارها أمس كاملًا أم لا. لم يقل شيئًا، هل سيأمر بقتل يوسف الآن؟ وضعت يدها على فمها وهي تتمنى أن تكون هذه المغامرة الحربية قد مرَّت بنجاح، لم تحلل مشاعرها ولم تفهمها. للحروب أولويات وعتاد.

ارتدت ثيابها، وخرجت بخطى بطيئة إلى صحن الدار، سمعته يتكلم مع سارة، أمسكت بقلبها، لا تدري أخوفًا على قلبها أم على ما سترى وتسمع. لم تستطع أن تسمع أي شيء، رأت سارة تقبل يده في امتنان وتنصرف. لم تدرِ أتقترب منه أم تعود إلى الحجرة.

التقت عيناها بعيني أم خليل، فقالت أم خليل: كيف خرجت من السجن؟ مولاتي، لديك قدرة تفوق جنود المماليك!

قالت مسرعة: أرجوك لا تثني عليَّ، لا أعرف بعد متى يعيدني إلى السجن.

ابتسمت أم خليل: هل أنت غاضبة منه لما فعل بك؟

تمتمت لنفسها، وكأنها تريد أن تتأكد من أن النفس تتبع العقل: لن أسامحه.

لم تسمعها أم خليل.

قالت في إصرار: والآن أخبريني، هل كان يقضي لياليه مع سارة؟

نظرت إليها أم خليل برهة ثم قالت: مولاتي، ليس لي أن أتكلم في ما لا يعنيني، واسمحي لي، لا أفهم لِمَ يعنيك هذا؟

التقت أعينهما، فقالت زينب في ضيق: بل تفهمين، ولكنك لن تتكلمي، ستتركين غيظي ينبت في الأعماق كما تفعلين دائمًا. لا بأس أنت صديقتِي على كل حال.

طأطأت أم خليل رأسها ولم تجب.

فقالت زينب بلا تفكير وعيناها تتجهان إلى باب حجرة سارة: ماذا يحدث بين الأمير وسارة؟ لماذا تقبل يده؟

قالت أم خليل: أعتقها يا مولاتي.

همست في فرح لم تكن تعرف أنها ستشعر به: هل أنت على يقين من هذا؟

- أعطاها بعض المال ومكانًا تعيش فيه وأعتقها. أدعو له كل يوم مولاي الأمير.

تمنَّت لو تعانقه عناقًا قويًّا في هذه اللحظة، أمسكت بقلبها وتوجَّهت إلى غرفتهما وهوت إلى السرير. غريب أمر هذا القلب، مربك وغريب.

وكأن في الانتصار طعم الهزيمة والاستسلام، هكذا هو انتصار بعد موت آخر جندي، ردَّدت من جديد لنفسها بأنها لن تسامحه، لن تسامحه.

لم تره بقية اليوم، ولم تعرف هل سيقتل يوسف كما قال أم لا، ولم تجرؤ على أن تسأل، ولا أن تغضبه بعد هذه المهادنة.

عندما عاد ليلًا كان صامتًا واجمًا. قالت وهي تساعده على خلع عباءته: أحضر لك العشاء بنفسي. أحب أن أطبخ لك بنفسي.

جلس وقال: زينب...

ارتجفت، لا تدري لماذا وأمسكت بيده وقالت: نعم.
قال وهو يسلط نظره إلى عينيها: يوسف...
قالت في ثبات وهي تقبل يده: لا يهمني أمره.
- لم أقتله.
دارت ارتياحها، وقالت في بطء: أنت عادل دائمًا. أحضر لك العشاء.
قال وهو يتفحص عينيها: لن تسألي لماذا لم أقتله؟
قالت في ثبات: لن أسأل.
قال وكأنه يراوغ في معركة صعبة: زينب، قتل يوسف الآن سيجعل منه شهيدًا، ولن أكون أنا من يخلِّد ذكراه.
كانت تود أن تسأله هل كان يقصد أن يوسف سيكون شهيدًا عند العامة أم عندها هي؟ هل أراد الأمير أن يمحو يوسف من ذاكرتها هي أم من ذاكرة أهل مصر جميعًا؟ لم تفهم ولم تجرؤ على السؤال، ولكنه لم يتكلم عن العدل، ولا عن التروي عن قتل النفس دون ذنب اقترفته.
ثم قال في حسم: ولكن لو قابلته مرة أخرى في أي مكان... عند والدك أو حتى صدفة في السوق لقتلته على الفور ولقتلتُكِ معه.
هزَّت رأسها بالإيجاب، وقالت: حقُّك يا مولاي.
قال في قوة: هناك قوانين لهذه الدار تسيرين عليها، تفهمين؟
هزَّت رأسها بالإيجاب. فأكمل: وأريدك أن تتعرفي بزوجات المماليك، وأن تحسِّني علاقتك بهنَّ، وزوجات السلطان، وكل من في الروضة.
- أمرك مطاع.
- أريدك أن تتصرفي كزوجة من الآن.

- سأفعل كل ما يرضيك.

نظر إليها وهي لم تزل تمسك بيده وتقبلها من الحين إلى الآخر، ثم قال: إيَّاك، إيَّاك أن تظني أنك ستنتصرين عليَّ أبدًا، إيَّاك أن تحاولي خداعي.

- أقسم لك إنني لا أستطيع ولم أعتد الكذب.

قال في جفاء: أعتقت سارة اليوم.

قالت وهي تسيطر على ابتسامتها وتقبل كفه: القرار لك يا مولاي.

- هذا أفضل بالنسبة لها، لا أريدها أن تقاسي معك.

ابتسمت ولم تنطق.

فقام قائلًا ووجهه لم يزل واجمًا: نأكل الآن.

قالت مسرعة: هل لي أن أطلب منك طلبًا واحدًا؟

نظر إليها في ريبة، فهمست في خجل: أريد أن أنام بين ذراعيك اليوم أيضًا، اليوم فقط، اسمح لي، وحدة السجن جعلتني أريدك معي ليلًا.

قال وكأنه يتكلم مع نفسه: قلت لك لم أعتد هذا.

قالت وهي تمسك بيده: افعل هذا من أجلي.

لم يتكلم.

نامت بين ذراعيه وضحكت وتكلمت معه ساعات. لم يزل واجمًا وكأنه يعرف هزيمته ويتقبلها في سكون. قالت فجأة وهي تنظر إليه: مولاي. من أين أتيتَ؟

نظر إليها وهو لا يفهم ما تعني، فقالت مرة أخرى: من أين جئت؟ متى جئت إلى مصر؟

قال وهو لا ينظر إليها: لا أتذكر.

- لا تتذكر أين بلادك؟!

- بلادي هي مصر.
- بالطبع، شرف لمصر أنك بها، ولكن أين ولدت؟
- وما أهمية مكان المولد إذا كان مكان العيش والحكم وكل شيء هو مصر.
- تزور أهلك أحيانًا؟

بدا عليه الضيق من أسئلتها، فقالت مسرعة: اعذرني!

قال في حسم: لا أعرف أهلي، كيف أزورهم، جئت إلى الروضة في الثامنة، أهلي هم المماليك.

هزَّت رأسها بالإيجاب وهي تفكر في أمر المماليك وأمر هذا الأمير تحديدًا. تخيلت لو انتزعوها من حارتها وهي في الثامنة ولم ترها قط ولم تر أخاها ولا أمها ولا أباها. أي حياة هذه؟! المماليك حالة خاصة وفهمهم يصعب عليها. جريمة خطفهم من أحضان أمهاتهم لا تغتفر، ولكن كيف يمكن خطف الطفل وجعله أميرًا في آن واحد؟ بين العامة هناك خطف للأطفال، وعادة يتم قتلهم، أو أكلهم وقت المجاعات كما تقول الإشاعات، ولكن في الغالب يتم توظيفهم في الشحاذة من قبل المجاذيب والشحاذين، ولكنها لا تفهم كيف يتم خطف الطفل ليصبح أميرًا على بلاد كمصر، أمر يحتاج إلى تفكير عميق.

قالت: مولاي، هل فكرت في العودة إلى مكان مولدك؟ في البحث عن والدتك؟ هل فكرت؟

قاطعها وهو يضع يده على فمها: هذا التفكير الكثير يضرُّ بك يا زينب، نامي حتى لا أتركك وأذهب إلى حجرة أخرى.

أغمضت عينيها وتشبثت به وقالت: سأفعل على الفور.

* * *

تأقلمت زينب مع حياتها، وبدأت تتقبل قدرها، ولكن لبلوغ الحصون صعوبات وأهوال في بعض الأحيان.

كانت تريد أن تحفر طريقًا سلسًا وسريعًا للوصول ثم الهدنة، والطريق يحتاج إلى قوة وعتاد وتخطيط، وجولتها التي كسبتها مؤخرًا لن تكون نهاية المعارك. القراءة تفيد في هذه الأوقات، وخاصة قراءة المنطق والفلسفة. تقبُّل زوجات الأمراء لها كان مستحيلًا، وخاصة زوجات السلطان بيبرس، وسبب خروج الأمير محمد عن المألوف يسكن في باطن عقله، أو ربما لا يعرفه هو أيضًا، فلا أمل لها في الوصول إلى معسكرات المماليك أو حياتهم؛ فحياتهم مغلقة عليهم، يتكلمون بلغتهم ومصطلحاتهم، ويتذكرون تدريباتهم وأساتذتهم وغربتهم وخطفهم، والزج بهم وسط عالم جديد، هم ليسوا فقط أسياده بل وجنوده وعتاده. كانت لهم حياتهم الخاصة، وكان الأمير يجلس مع الأمراء ساعات يتكلمون بالتركية في الكثير من الأحيان، ويخططون وينفذون ويكتبون وينشئون الدواوين والمناصب، وينظمون في إتقان المراتب والأعمال، ويتجلى النظام الدقيق في كل حركة يقومون بها وفي كل لفتة ونظرة، وتتجلى القدرة على تهذيب النفس وتحمل الأهوال أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت ترى في بيوت الأمراء كل الفواحش والفسق وشرب الخمر والرقص والمجون. لم تكن متأكدة هل الأمراء مختلفون؟ أم أنَّ لكل منهم وجهين: وجه الجندي ووجه الحاكم؟ أمر المماليك بدأ يشغلها، وما تعرفه عنهم من مرورهم في الأسواق بالأحصنة والملابس الزاهية قليل جدًّا. أما أمر الأمير محمد؛ فاختلط عليها اختلاطًا تامًّا، ولم ينفع في فهمه كل كتب المنطق.

كانت وحيدة في القصر، ووحيدة في الروضة، ووحيدة بين المماليك البحرية. والغريب أنَّ الوحدة كانت تقلُّ كثيرًا عندما

يعود الأمير ويتكلم معها أو يضمها إلى صدره. هذا الأمر الغريب لا يمكن تفسيره أيضًا، بل يمكن إلى حد ما، وفسرته زينب بأنه الوحيد الذي يتكلم معها بالعربية، والوحيد الذي يتكلم معها من الأساس، والوحيد الذي ربما لا يراها من العامة وأهل مصر الذين تصيبهم غفلة الأمن ورخاء الأمان، ولا يشعرون بالأخطار المنتظرة في تربص، لتلتهم كل شيء في البلاد، العامة لا يعرفون ولا يفهمون، يقضون أوقاتهم مع خيال الظل والنكات التي تنتقد المماليك، ولا يفهمون حجم تضحيات المماليك ولا صراعاتهم، ولا حياتهم البائسة وسط الرفاهية.

الأمير محمد كان لسبب مجهول الوحيد الذي لا تشعر حوله بكل هذا الاضطهاد وهذه الغربة، ولكن للأمراء طقوسًا وقوانين لم تعتدها ولم تحبها. واليوم بالذات لم تكن متأكدة من فوزها ولا تأقلمها، فاليوم أهدى السلطان بيبرس للأمير محمد جاريتين من أجمل ما رأت عيناها، وكانت بداخلها قناعة أن السلطان بيبرس يريد بهديته أن يوبخ الأمير على زواجه من العامة، أو ربما يريد أن يتقرب إليه، لم تفهم.

أمر الجاريتين كان أكبر من احتمالها، والتخلص من سارة كان شاقًّا إلى أبعد حد، وأدَّى بها إلى إنهاك كل الجيوش، جيشها وجيشه، ولو استمر أمر الجواري يؤرقها؛ فلا حياة مع الأمير. هكذا كان قرارها الأخير. ولم تعد تبالي بمصير يوسف أو أخيها أو كل أهل مصر؛ فمصيرها هو العذاب الدائم والظلم المكتوب.

وعليها توخي الحذر قبل البدء في الهجوم هذه المرة.

بقيت واجمة تنتظره حتى يعود، وعندما عاد ونظر إلى عينيها رأى الحزن وتجاهله.

فقالت في عبوس: مولاي هل يمكن أن أتكلم معك اليوم؟

- يمكنك أن تتكلمي معي أي يوم.

التفتت حولها، ثم وضعت يدها على ذراعه، وقالت: تسمح لي أن أسير معك في حديقة القصر؟

نظر إليها ثم قال: بالطبع.

سارا معًا في صمت حتى قالت هي: أرأيت الجواري اللاتي أتى بهن السلطان هدية لك؟

- زينب.. ماذا تريدين؟

فكرت ثواني وفهمت أنه لا يحب الكلام في المشاعر ولا في آلامها، ولا الأشياء التي لم يعتدها. قالت في قوة: اشتريت لي الكثير من الذهب وقت الزواج، كرمك يخجلني.

- ما علاقة الذهب بالجواري؟

- أشتريهن منك.

ضحك فجأة ثم قال: تشتريهن؟ كيف؟

- أشتريهن وأهديهن لأخي، بالذهب الذي أعطيته لي.

- ولِمَ تضحين بذهبك لتهدي أخاك الجواري.

قالت في يقين: أنت تعرف لِمَ. يمكنني أن أتحمل أي شيء، ولكن لا أتحمل وجود أي امرأة غيري في حياتك.

توقف فجأة، ونظر إليها في غضب، فقالت: أعرف، ليس من حقي، هو أمر غير مألوف ما أطلبه، ولكنني سأشتريهن؟ ما المشكلة؟ سأدفع ثمنهن.

- وعندما يهديني الأمراء أو السلطان غيرهن؟

- سأشتريهن أيضًا. سأشتري كل جواريك.

أمعن النظر إليها، ثم قال: لماذا؟

أمسكت بيده في قوة وقالت: لا أريد حاجزًا بيننا، أريد أن أحبك كما تستحق، وأنت تستحق أكثر من كل الأمراء. تفهمني يا مولاي؟

- أحاول، أكملي.

- لا يوجد امرأة في العالم تعطي قلبها كله لرجل يعطيها جزءًا منه، ليمتلك الرجل المرأة بلا حواجز ولا قيود لابد أن يكون على استعداد لأن يكون لها وحدها، أريد أن أعشقك كما يستحق مقاتل مثلك، ولا أعيش معك لأنني خائفة أو لأنك قوي أو غني أو أمير، بل لأنك محمد، الرجل الوحيد لي.

- تقرئين الكثير، وتتكلمين كالشعراء والصوفيين، غريب أمرك يا زينب.

- أرجوك، أعطني الفرصة، لن تندم، أعدك لن تندم، سأفعل كل ما أستطيع لأسعدك، ولا أطلب منك سوى طلب واحد: أن أكون أنا فقط في حياتك.

- هذا طلب غريب وغير مألوف، لا أعتقد أنني أعرف أي أمير لديه زوجة فقط ولا يملك جواري، أي طلب هذا؟! يمكنك أن تكوني زوجتي في مرتبة مختلفة عن كل الجواري دائمًا.

- في الحب لا يوجد مراتب يا مولاي، إما أن تحب بكل نفسك وإما ألا تحب.

ردَّد وهو ينظر إلى الأشجار: إما أن تحب بكل نفسك وإما ألا تحب.

ثم نظر إليها وقال: من أين جئت بهذه الاعتقادات؟

- قرأت عن الحب يا مولاي، ولم أجد شاعرًا يناجي امرأتين، فلا عشقَ قيس سوى ليلى، ولا عشقَ عنتر سوى عبلة، ولا عشقَ جميل سوى بثينة.

- ضلَّ من يصدّق الشعراء ويستمع لهم، لا أعرفهم يا زينب، ولا أصدق أن الكلمات تعكس سوى الكذب في معظم الأحيان. وكلمات الشعراء هي مصدر رزقهم؛ لذا فهي أوهام وأضغاث أحلام دومًا. لا تخرج مناجاتهم إلا وقت الاحتياج والعوز.

- القلب يصدق دومًا يا مولاي.

لم يجب، استمر في السير دون أن ينظر إليها.

قالت بعد برهة: في مخيلتي يتبع الإنسان القلب وينفذ أوامره، ولو لم يفعل فلا وفاء له، فاتباع الهوى يؤدي إلى الجحيم، فلا طمع نفع صاحبه ولا فضول أدَّى إلى دخول الجنة.

نظر إليها برهة ثم قال في قوة: القلب هو كل الهوى، من يتبع القلب يتبع الهوى.

قالت في شيء من اليأس: بل القلب يصدق دومًا، هو منبع الإيمان واليقين، أما الهوى فيلعب بالأبصار كالسراب، والقلب يعشق واحدًا دومًا.

- ربما أخطأت هذه المرة يا زينب، فكم أمير يعشق زوجته ويتزوج غيرها، وكم زوجة تحب زوجها الذي يملك جارية واثنتين وزوجة وأربعًا.

قالت في ترجٍّ وهي لا تستطيع التفكير في حجة أخرى: لا أريد أيَّ شيء، كل زوجات الأمراء يطلبن الحلي والحرير، وأنا أريدك أنت فقط، هذا أيضًا أمر غير مألوف.

ردَّد: هذا أيضًا أمر غير مألوف.

- وزواجك من العامة أمر غير مألوف.

- نعم هذا أيضًا.

- هل تحتاج إلى الجواري؟

أطال نظره إليها، ثم قال: وضِّحي ما تقصدين إليه بالضبط.

- أنت لي وحدي كما أكون أنا لك وحدك بقلبي ونفسي.

ابتسم قائلًا: وكأن الرجل مثل المرأة في عالمك الخيالي.

صمتت وهي تفكر في أخذ الخطوة القادمة والمجازفة غير المحسوبة، تتطلب الحروب أحيانًا هذه المجازفات.

- مولاي، رأيت أبي لا يعرف سوى أمي مع أنه تاجر غني، ولدينا جوارٍ كنَّ لها هي فقط، لا أستطيع تحمل وجودك مع غيري، ولا يمكن الاستمرار في الحياة معك لو حدث.

نظر إليها في غضب، وخافت أن يصفعها أو يلقي بها في السجن، فأكملت: يمكنك أن تملكني بالطبع كما كنت تفعل في بداية زواجنا، ولكنك لن تملك قلبي كما تفعل الآن. ستضع حاجزًا بيننا إلى الأبد. اعذرني، صراحتي تغضبك، أعرف.

- تجرُئين على تهديدي؟!

- لا أجرؤ، ستفعل ما تريد، أنا فقط أعبر عمَّا بداخلي لرجل أعرف أنه يشعر بي بين كل هذا العالم الذي يلفظني ويكرهني.

صمت برهة يفكر ربما، ثم قال: من يكرهك؟

- تعرف، كل المماليك.

- ليس كل المماليك، لا تعممي ليس كل المماليك سواء، زينب..

قالت وهي تحيط ذراعه بيدها: نعم يا مولاي.

- لا تخافي ممَّا يمكن أن يحدث لك بعد كل هذه التهديدات.

- احبسني أو اقتلني قلت لك، أَهْوَنُ عليَّ من أن تلمس غيري، صدقني لا أستطيع، أنشطر نصفين.

- أيُّ زواج هذا؟!

- قلت: إنه غير مألوف، وكانت لديك الشجاعة لتقدم عليه، وأنا أعرف أن هذا كان صعبًا. أتمنى أن يكون لديك الكرم بأن تمنَّ علي بهذه النعمة فقط، وأعدك بأنك ستملأ كل عمري الباقي، وأقسم لك إنني لن أطلب منك أي شيء طوال عمري الباقي. مولاي أخاف من قهر الروح الذي يؤدي مع الوقت لجفائها وتبلدها.

قال بعد برهة: سأفكر في الأمر.

فتحت فمها لتكمل، فرفع يده ليشير إليها بالتوقف، والتقت أعينهما، وعرفت أن صبره بدأ ينفد، وأنه لا يريد أي كلام أكثر في هذا الأمر، سيطرت على الكلمات الكثيرة بداخلها بصعوبة، والغيرة تطغى على كل المشاعر، والمجازفة لا بد أن تكون محسوبة، صمتت بقية الطريق.

بقيت متوترة طوال اليوم، كانت تتجول في القصر، والكل ينظر إليها وهي تنفخ في عصبية وتتمتم ببعض الشتائم أو الكلمات التي لم يفهمها أحد. نظرت من نافذتها، كان يتدرب مع بعض جنوده على المبارزة، تفحصته وهي تحاول أن تستشف قراره من عينيه أو حركاته، ولكنه كان يعطي كل اهتمامه للتدريبات، وكأنه يحارب معركته الأخيرة.

أخذت تغزل خيوطها في عدم صبر، ولم تستطع القراءة. قطَّبت حاجبيها وهي تقول لنفسها: ماذا أتى بي إلى هنا؟! ليتني لم أره!

تأخر اليوم بالذات، وبدأ يساورها الشك في أنه ربما يجرب بعض جواريه، وقررت أنه لو فعل لرحلت على الفور ولو قرَّر قتلها أو حبسها، فهذا أفضل.

تأرجحت مشاعرها ما بين غيرة بأمواج عاتية، وغضب لا يوصف من كل أفعاله، سجنها وربما سيملُّها ويتركها بين حجرات قصره، ويبحث عن مغامرة جديدة. اختلطت كل الأمور عليها، أقسمت في الماضي إنها لن تسامحه، وأقنعت النفس بأنها لا بد أن تتأقلم، والآن سيطر الخيال على كل وجدانها، وكان خيالًا شيطانيًّا ينذر بهلاكها واندثارها.

نظرت إلى نفسها في المرآة وهي ترى وجوهًا مختلفة للجاريات ولسارة، ووجوها ستأتي في المستقبل. من يدري؟!

أيُّ جحيم هذا وأيَّ ذنب اقترفته؟! ضغطت على عينيها، والغيرة تطغى على حنايا قلبها، ولو قرر أن يبقي على الجواري، ماذا ستفعل؟ ليس لها اختيار! ستبقى في حجرتها وهي تعرف أنه بين ذراعي امرأة أخرى، يقبلها كما قبلها هي ويستمع إلى أنفاسها المتقطعة. وستستسلم، هي وربما تستمر في الشوق إليه؟ لو استمر الشوق إليه لابد أن تموت على الفور! حتى السِّحْر لا يملك هذه القدرة الشريرة على تفتيت النفس والزج بها في مغارات الجنون. هذا الشعور بالعجز الذي بدأ ينبثق من بين شرايينها كان الأسوأ على الإطلاق. لا بد من سَبِّ المماليك والدعاء عليهم في كل صلاة، هم كل الجبروت والظلم في كل البلاد مجتمعة.

وكان هناك الأمل الطفيف الذي يغزو النفس العاجزة بأنه ربما ينصفها. أنصفها من قبل! هزمها أيضًا، جبرها وكسرها، لا تدري ماذا سيفعل بها، وحتى لو تظاهرت بالقوة؛ فالعجز هو سمتها في بيت الأمير. تحاول وتقاوم كالغريق، ولكن اليأس يتسرب إلى النفس المغامرة.

بعد منتصف الليل دخل الحجرة، وكانت جالسة على مخدعهما، وقالت وهو يستلقى بجانبها: هل فكرت في الأمر يا مولاي؟

قال في دهشة: لم تلقي عليَّ السلام حتى!

قالت في عدم صبر: اعذرني يا مولاي، كيف كان يومك؟

ابتسم، ولم يكن يبتسم كثيرًا، ثم قال: كيف كان يومك أنت؟

بقيت صامتة وعبوسًا.

فقال: لم يكن يومًا جميلًا؟

قالت في صوت خفيض: لم يكن يومًا جميلًا، من أتعس أيام حياتي.

ردَّد وهو يتظاهر بالدهشة: من أتعس كل أيام حياتك؟ لماذا؟

طأطأت رأسها ولم تجب.

فقال: تعرفين! أنت لا تخفين مشاعرك جيدًا، مشاعرك دائمًا واضحة في عينيك، أفهمها منذ رأتك عيناي، شيء محيِّر، هذا الوضوح، ترى هي واضحة لي أنا فقط أم للجميع؟

كانت تفرك يديها وتحاول السيطرة على الغضب الذي زجَّ بها إلى السجن في المرة الماضية.

وقالت وغضبها يشتعل بداخلها: هل فكرت في الأمر يا مولاي؟ اعذرني، يقلقني هذا الموضوع.

قال في لامبالاة: بعض الشيء.

- وماذا قرَّرت؟

نظر إليها، ورأى كل الضيق والتوتر.

- أفضِّل الأفعال غير المألوفة دائمًا، تؤدِّي إلى نتائج أفضل، ونصر محقق، زوجة مثلك تحتاج إلى الكثير من الوقت والعناء، وتكفي الرجل لعمرين.

لم تدرِ بنفسها وهي تطوِّق صدره، وتهمس في فرح طغى على كل المشاعر الأخرى: محمد!

- لم تنطقي اسمي هكذا من قبل.

- أنت أفضل زوج في كل البلاد.

- مع أنني من المماليك؟

- مع أنك من المماليك.

قالت بعد برهة: تريد الذهب الآن؟

قال في اقتضاب: لا، لا أريد ذهبك.

فقالت وهي تحاول التأكد من مصير الجاريتين: ماذا ستفعل بالجاريتين؟

قال في هدوء: أهديتهما لاثنين من جنودي، لا داعي لأن تشتريهما يا زينب.

ابتسمت في ارتياح.

فسلَّط نظره إلى عينيها وقال: زينب، اصدقيني القول، ماذا يقول العامة عن المماليك؟ وإياك أن تكذبي.

فاجأها بسؤاله، ترددت قليلًا، ثم قالت في خضوع: يحمون البلاد ويضحون بأنفسهم وحياتهم.

ابتسم في تهكم ثم قال: وأهل مصر يفهمون هذا؟ يعرفون الأخطار؟

طأطأت رأسها ثم قالت: ربما لا يدركون سوى أخطار الوباء والفقر يا مولاي، ولكن العلماء يدركون بالتأكيد.

ردَّد وهو ينظر إليها: العلماء يدركون بالتأكيد، وأنت؟

قالت وهي لا تنظر إليه: أعرفهم أكثر الآن، للإدراك يومٌ وميعاد، مثله مثل الموت والميلاد.

قال وهو يزيح شعرها عن وجهها: أحيانًا يا زينب تصلني كلمات يرددها أهل مصر، ينقلها لي البصاصون، كلمات غريبة لا أفهمها. أتشرحينها لي؟

قالت وهي تخاف مما يريد: مولاي، تتكلم العربية أفضل مني.

- الفهم يأتي باليقين يا زينب وليس بالمعرفة، أهل مصر يقولون: إن المماليك عبيد من العجم ، بلا أصل ولا قبيلة، يقضون أيامهم في المجون وسط القصور، يحاربون بأجر ويحمون بإتاوات، لا هم عرب ولا هم خلفاء. ما رأيك؟

قالت مسرعة: لم أسمع هذا الكلام قط.

- عهدتك ذكية يا زينب، الكذب لا يجدي، سمعتِه وردَّدتِه مثلك مثل غيرك.

قالت في تأكيد: أقسم لك الآن إنك أفضل زوج في كل البلاد.

- لأنني لا أريد الجواري أم لأنني أحمي ديار المسلمين وأبقي على بلادك آمنة وسط الخراب؟

لم تكن تعرف الإجابة، في هذه اللحظة كانت تريد إرضاءه ونصرته كما نصرها، ولكنها بقيت صامتة.

فقال: أين فصاحتك يا زينب؟!

همست: كثيرًا ما يعجز لساني ويحتار عقلي أمامك يا مولاي، الجهل يعمي البصيرة ويخرج الضغائن، ربما لو عرف أهل مصر المماليك أكثر لتلاشى الخوف.

اقترب منها وقال: وأنت تعرفينني أكثر؟

قالت في تلقائية وصدق: خوفي منك وعليك لن يتلاشى يا مولاي.

نظر إلى قرة عينيها، وقال بصوت خافت: ها هي ذي فصاحتك تنقذك من جديد.

- كنت تريد عقابي يا مولاي؟

- كنت أريد فهمك.

- ظننتك تقرأ عينيَّ؟

- للاجتهاد قيمته وسط الأخطار، والثقة تؤدِّي إلى الهزيمة، لم تسأليني ماذا يظن المماليك بأهل مصر!

ابتسمت وقالت: لا أريد أن أسأل عن أشياء لو بدت لي تسؤني وتخذلني.

* * *

الفصل الخامس

تأقلمت زينب ولم تعد تكره حياتها، بل لم تعد تفهم نفسها على الإطلاق، فأحيانًا تحتقر ضعفها أمام الأمير والمماليك، وأحيانًا تقنع نفسها بأنه زوجها، وبأن من واجبها إسعاده وطاعته. وبين الارتباك والحيرة عرفت أنها حامل، وفرحت فرحًا لا يوصف، وبعثت لأمها وأبيها وأخبرتهما، وانهالت عليها التهنئة. كان الأب يحتضر، وعندما رأى ابنته للمرة الأخيرة قالت وهي تربت على يده: أنا سعيدة مع الأمير، أقسم لك، يحسن معاملتي ويحبني، أعرف أنه يحبني، سترى حفيدك قريبًا.

لم يقتنع الأب ولم يكن يرى سوى مأساة زواج ابنته غصبًا لأمير مملوكي. وكان قد ترك لها إرثًا كبيرًا ليعوضها عن التضحية بها من أجل إنقاذ أخيها. أمَّا أحمد فكان طموحه محدودًا، ولم يكن يتمنى سوى المكوث في حارته، والبيع في خان والده، والزوجة، وربما بعض الجواري لو أمكن.

وعندما مات الأب بكت في صمت، ربت محمد على كتفها وقال: عهدتك قوية ومؤمنة.

مسحت دموعها وقالت: اعذرني أيها الأمير، لابد أنني مملَّة هذه الأيام وكئيبة، أتمنى ألَّا تكرهني.

قال: كيف أكرهك؟ ما هذا الهراء؟! أريدك فقط ألَّا تهملي صحتك وتأكلي وتخرجي للهواء.

هزَّت رأسها بالإيجاب. وحاولت التغلب على الحزن؛ فوالدها

كان سندها الوحيد، والوحيد الذي يفهمها ويعرفها.

أصبحت هذه العادة الغريبة التي بدأتها زينب، وكان غرضها إضعاف الأمير، عادة تنتظرها زينب كل يوم.

وإذا حاول الأمير أن يبتعد عنها ليلًا تتشبث به قائلة: أريد النوم بين ذراعيك.

الغريب أنها لم تكره النوم بين ذراعيه منذ البداية، ولم تشعر بالاشمئزاز من ظلم ذراعيه حتى في البداية. مع كل غضبها وحنقها عليه لم تكن تكره النوم بين ذراعيه بعد حادثة السجن، كانت تحتاج إلى من يؤنس وحدتها غالبًا. لا تدري، ولكنها الآن تحتاج إلى ذراعيه ليلًا، لابد أنه الحمل وفقدان الأب معًا أَدَّيَا إلى هذا اللبس في المشاعر.

استمرت في زيارتها المقتضبة لقصور الأمراء المماليك وقصر السلطان، وعندما عرفت الأميرات بحملها نطقن كلمات قصيرة بالعربية لتهنئتها والاستعلاء واضح في نظراتهن. اليوم زيارة نساء السلطان كانت مختلفة، كان هناك الكثير من الهمس بين الجواري والأميرات، وكأنهن يعرفن شيئًا مهمًّا عنها، وبعد لحظات طلبت منها الزوجة الشركسية أن تأتي لأنها تريد الحديث معها، وكانت من القليلات اللائي يتقنَّ العربية.

قالت وهي تلتفت حولها: أريد أن أحذرك، سيقتل زوجك في رحلته.

- أي رحلة؟

- لا تعرفين؟

ثم تركتها ورحلت.

وكلمات الزوجة الشركسية كانت تصل إلى عمق النفس، وتتردد بداخلها طوال الطريق إلى القصر.

وعندما دخلت القصر وجدت أم خليل تجهز الصناديق الممتلئة

بالطعام والملابس لرحلة الأمير.

الشعور بالضيق كان يطغى عليها، كلمات غريبة ونساء غريبات، لم يخبرها أنه سيرحل إلى أي مكان. ولِمَ يخبرها؟ هي بضاعة في هذا القصر على ما يبدو، ولو قتل؟ أليس هذا ما تتمنى؟ لو قتل تعود إلى حياتها وإلى يوسف وإلى بيت أبيها، ويعود العمر إلى صوابه بعد كل هذا الضلال والعبث. ألم تقل يومًا إن موته يحل كل المشاكل، فلِمَ الضيق، ولِمَ الشعور بالاختناق وكأنها هي التي ستموت؟!

هوت إلى سريرها وهي تكاد تهذي من الحيرة، وكانت تنتظر قدومه في عدم صبر.

ما إن دخل حتى نظر إلى عينيها برهة، ثم خرج من جديد، وطلب من أم خليل أن تذبح الدجاج والإوز، وتجهز الفاكهة، وتضع كل هذا في صناديق كبيرة ومغلقة بإحكام.

ثم عاد إلى الغرفة، ووجدها في مكانها وعيناها ممتلئتان بالحيرة والعجز.

قال وهو يجلس بجانبها: ماذا حل بك يا زينب؟

نظرت إليه برهة وكأنها تراه لأول مرة أو لآخر مرة، ثم وضعت يدها على يده، وقالت في قوة: لا تسافر!

فتح عينيه في دهشة، فأكملت: سيقتلونك. أعلمْ أنهم سيقتلونك.

- من سيقتلني؟ لِمَ هذا الهذيان؟ حملك أثَّر عليك. هل أنت بخير؟

قالت في قوة وهي تمسك يده: اسمعني. أنا أعرف. زوجة السلطان بيبرس أخبرتني اليوم أنهم سيقتلونك، ذهبت لأزورها.

- أيُّ زوجة؟

- الشركسية.

التقت أعينهما فقال في لا مبالاة: لا تصدقيها.

- ولِمَ تكذب؟

- ولِمَ لا تكذب؟ وإذا كانوا ينوون قتلي فهل سيخبرونك؟ هم فقط لا يريدون سفري ولا السلام مع المغول، دائمًا هناك من لا يريد السلام.

قالت في ترجٍّ فجأة: لو أرسلتَ أحد رجالك يكون أفضل. لو قتلوك ماذا أفعلً؟

نظر إليها في تهكم: ماذا تفعلين؟ تسألينني؟ تعودين إلى حياتك وبيت والدك، وربما تتزوجين من...

قاطعته وقالت في استياء: لماذا تقول هذا وأنت تعرف أنه لن يحدث؟ لماذا تريد تعذيبي؟ ألا يكفيك ما فعلت بي طوال الأيام الماضية؟ ألقِ بي في السجن يا مولاي من أجل كلماتي الجارحة هذه المرة أيضًا. هيا لا تنتظر! ولكن لا تسافر، وكأنك بلا عائلة وبلا ولد. لا تعبث بقدري أكثر من ذلك، فلم يعد للنفس القدرة على التحمل.

نظر إليها وكأنه لا يفهمها، ثم قال: زينب، أنا لا أهرب. ماذا تقولين؟ سأقتل يومًا، أعرف. قدري وقدر كل المماليك، ولكن عندي واجب وعمل لابد أن أقوم به، خلقت من أجله، ولا أعرف غيره، لابد أن تعرفي هذا وتتقبليه طوال حياتنا.

- قصيرة حياتنا معًا على ما يبدو.

نزعت يدها من يده، وأدارت وجهها في ضيق.

بقي ساكنًا ينظر إليها، ثم قال: كنت تتوقعين ألَّا أسافر؟ ماذا توقعتِ؟ كنتُ أظنك ذكية، أنا جندي، والجندي يقاتل للنهاية، تدربت على هذا منذ الصغر، ولا أعرف شيئًا آخر.

هزَّت رأسها بالإيجاب، ثم قالت وهي تفتح الباب: اسمح لي

يا مولاي، أريد أن أجهز لك بقية أشياء السفر.

تحاشت عينيه، وقال هو في برود: اذهبي.

* * *

احتضنت جسدها وجلست القرفصاء، وتمتمت لفاطمة: إذا قالت الشركسية إنهم سيقتلونه. فسيقتلونه حقًّا. لماذا تقول هذا؟ لماذا تكذب؟ من يريد قتله؟ ترى من يريد قتله؟ فاطمة، تسمعينني؟

قالت فاطمة في حماس فجأة: أسمعك، زينب، حظك جميل يا أختي. أنقذك منه الله إذن. قلت هذا، قلت إنَّه لا إنقاذ منه سوى موته، لو مات ترثين ماله وتتزوجين يوسف. تفهمين؟ ما الذي يقلقك؟

أمسكت بقلبها، وفتحت عينيها في فزع، ثم قالت: لا تقولي هذا، إياك أن تقولي هذا! لن يموت! من قال: إنه سيموت؟!

تفحصتها فاطمة في حيرة ثم قالت: تريدينه أن يموت؟ تتذكرين؟ هو من قضى على مستقبلك، ومن حرمك من حبيبك، وتزوجك عنوة، وحبس أخاك، وحبسك وأذلَّك و.. زينب تسمعينني؟

احتضنت نفسها أكثر ثم قالت: ماذا قلت؟

قالت فاطمة في حيرة: لم تسألي عن يوسف. كل هذه الأيام لم تسألي عنه ولو مرة، تغيرت يا زينب، ماذا حدث؟!

ردَّدت وكأنها لا تسمع: يوسف؟

- تريدين أن تعرفي أين هو؟

قالت في شرود: من يريد قتله؟

- من؟ يوسف؟

- الأمير.

- سيطر عليك تمامًا هذا الأمير. سَحَرَ لك من جديد؟ كيف سيطر عليك؟!

قالت في حيرة: لو مات وأنا حامل ماذا أفعل؟ أخاف أن يموت ويتركني أرملة بطفل بلا أب.

قالت فاطمة: زينب، أنت صديقتي وأختي. أنت لا تتكلمين عن غيره، ولا تفكرين في غيره، منذ جئت إلى هنا وأنت شاردة وقلقة، ولو مات ماذا يضرك في هذا؟ يوسف يتزوجك ويربي ولدك.

قالت في قوة: لا تقولي هذا! إياك أن تقولي هذا! لابد أن أفعل شيئًا. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أرجو السلطان أن يبعث وراءه الجنود؟ كيف أصل إلى السلطان؟ أطلب مساعدة زوجاته؟ ماذا أفعل؟ لا يمكن أن يموت.

- لماذا تكذبين عليَّ؟ لو كنت تحبينه لماذا تكذبين... لم أعد أثق بك يا زينب، هل كنت تحبينه منذ البداية؟ هل أحببت يوسف حقًّا؟ أيُّ امرأة أنت؟! تحبينه أم لا؟!

قالت مسرعة وهي تقوم: لا لا أحبه.

- تحبين يوسف؟

- لا أحب يوسف، أكره كل الرجال، وكل الأيام الباقية، وهذا البلد وكل من فيه.

* * *

عندما نامت على سريرها تحسست مكانه بحركة لا إرادية، ثم أمسكت ببطنها، وطبقت جسدها على السرير، وأغمضت عينيها، لم تفكر في يوسف، أصبحت ذكراه بعيدة وصعبة المراس، وأصبحت تراه من منظور مختلف وكأنه طفل صغير يلعب معها ويلهو ساعات ويضحك ويعاتبها ويجري معها، كان صديقها، ما أجمل هذا الرجل وما أطيبه! ولكن قلبها الشرير

يفضل المغتصب والمحارب على ما يبدو. خانت عائلتها وأهلها وكل ركن من أركان نفسها. انهزمت وتقهقرت وباحت للأعداء بكل الأماكن وكل الأسرار. يومًا كرهته كرهًا لا يوصف، هزَّ أعمدة القلب، ويبدو أنه دكَّها دكًّا، وليته قضي عليه، فتوقف عن التوق والحيرة، ولكنه دسَّ يده في جوف القلب، وغير كل الخطط والمحتويات.

مرت بيدها على مكان نومه، للظلم والافتراء أناس متخصصون أتقنوا اللعب والقسوة، تعرفهم، هو أولهم، يبتر بلا وازع، ويقتل بلا تردد! أيُّ خيانة وأيُّ ذل أن تستسيغ حبسها وتتوق إلى السجان الذي جرها إلى الظلام والهوان! كيف فعلت هذا؟! كيف تركته يمر بيده على خطوط الروح ويعلم عليها علامات بعمق سجون جب القلعة الممتلئة بالخفافيش؟!

ولو مات الأمير، أصبح البعد عنه مستحيلًا، تحتقر نفسها وتكره القدر وكل المماليك، ولكنها تعشقه، تعشقه عشق مراهقة، حوَّلها إلى امرأة في لحظات، وعبث بقلبها وفتته، ثم استقر في النفس كما لم يستقر أحد من قبل، لا يوسف ولا أي إنسان، ولا حتى عرائسها التي تعينها على تحمل فراق الإخوة. الخزي من الضعف له طعم جديد، ولكن العشق ينتشر بين الشرايين كلما غاب وكلما ساورها الشك في مصيره.

* * *

في الصباح ارتدت ملابسها، وقالت لأم خليل في رجاء: هل تأتين معي لزيارة السلطان؟

نظرت إليها أم خليل في فزع ثم قالت: مولاي لن يسمح لك بالخروج وهو مسافر يا مولاتي، وزيارة السلطان ليست في أي وقت، وليست تبعًا لرغباتنا.

قالت في يأس: نحاول، ساعديني لإنقاذ الأمير، أخاف عليه،

يمكنك مساعدتي، تعرفين زوجات السلطان جيدًا، أليس كذلك؟

قالت أم خليل في تردد: مولاتي، اصبري لنسمع من الأمير، تصرف كهذا سيغضبه ويعرضك للخطر أنت وابنك في أحشائك.

قالت في يأس وهي تهوي إلى المقعد: سيموت، أخاف أن يموت، ماذا بيدي أن أفعل؟ لابد من المحاولة.

قالت أم خليل في صرامة: اعذريني يا مولاتي، ولكنني أعرف أن الجنود لن يسمحوا لك بالخروج دون إذن من الأمير، وأعرف أن السلطان لن يستقبلنا، اهدئي من أجل طفلك.

هزَّت رأسها وغطت وجهها بيديها ولم تجب.

بعد عدة ساعات سمعت همسات في الحجرة المجاورة، فاتجهت إليها.

عندما دخلت الحجرة ووجدت أمها تنظر إلى فاطمة وأحد الجنود يقف مطأطئ الرأس عرفت أنَّ شيئًا قد حدث.

قالت في فزع وهي تمسك ببطنها: الأمير بخير؟

فقال الجندي: لا نعرف مولاتي، هاجم اللصوص قافلته، وقتلوا بعض أفراد القافلة، وفرَّ الآخرون، لا نعرف، ولكن..

احتبس صوتها وقالت: أكمل.

- قال الذي أتى بالخبر: إن اللصوص كانوا يريدون قتله هو بالذات، وقتلوه، لم نتأكد بعد.

شهقت وهوت إلى الأرض، فأمسكت بها أمها، وشعرت بجسدها البارد، وقالت في رفق: لم يمت يا زينب، اصبري يا ابنتي.

كان البصر يخذلها الآن، والكون يبدو مبهمًا ومختلقًا، أغمضت عينيها ولم تنطق.

قالت فاطمة: لا تخافي يا زينب، لا تخافي.

لم تجب، أسندتها أمها للحجرة، واستلقت على السرير، ولم تنطق. نامت على جانبها وعيناها مفتوحتان، وكانت تتساءل بصوت مسموع أو لا، لم تتأكد: لماذا دخل حياتي؟ ولماذا سجنني؟ ولماذا خرج منها بلا استئذان؟ فعل كل هذا بلا استئذان. تعود أن الحياة لا تعطي الاختيار، وأن القوة هي المنتصر دائمًا، لن أسامحه! لن أسامحه! حطمني، لو مات أنتهي. ماذا أفعل لو مات؟ لا أريد العيش.

هزَّتها فاطمة قائلة: ستفقدين طفلك هكذا، حتى لو مات يا زينب كل الناس تموت، ماذا بك؟ هو السِّحْر صدقيني.

حركت جسدها في حركات رتيبة وتمتمت: لو مات لا أستطيع العيش بعده.

ضربت فاطمة كفًّا بكف، وهمست للأم: سَحَرَ لها، أخبرتك يا خالتي، انظري لعينيها الزائغتين!

ربتت الأم على كتفها وقالت: اهدئي... هو حملك أثَّر فيك، اهدئي يا ابنتي. لماذا؟ تحبينه إلى هذا الحد؟ لماذا؟

قالت فاطمة مسرعة: تذكري، هو من حبسك وأذلَّك و...

قاطعتها: لا أريد الكلام. أرجوكما، لا أريد الكلام.

دخلت عليها أم خليل وقالت في رفق: مولاتي. كُلِي شيئًا، هل أنت بخير؟ لم يؤكد الجندي شيئًا، ربما لم يحدث شيء.

لم تجب، أغمضت عينيها وغطت وجهها، وبقيت مستلقية على السرير، والكل يحاول الكلام معها بلا جدوى.

بعد مرور يوم كامل لم تأكل فيه ولم تخاطب أحدًا، دخلت عليها أم خليل وقالت في حسم: اتركوني معها. جئت لها بدواء سيشفيها، اتركوني دقائق معها وحدنا.

خرجت فاطمة ووراءها أم زينب، وعندما تأكدت أم خليل من

خروجهما أغلقت الباب بإحكام، وجلست بجانب زينب على السرير، ووضعت يدها على رأسها، وقرأت بعض الآيات، ثم قالت: قلب العاشق دائمًا مفعم بالآلام يا ابنتي. أشفق عليك. تسمعينني؟

هزَّت رأسها ولم تنطق. همست أم خليل في أذنيها: الأمير محمد بخير، لم يحدث له مكروه.

قالت في ألم: ربما.. ربما لا.

قالت في تأكيد: استمعي لي، وإياك أن تنطقي بكلمة، لو نطقت بكلمة لأهلك سيموت على الفور.

اعتدلت في جلستها، ونظرت إلى أم خليل، فأكملت المرأة: لم يكن مع القافلة أصلًا.

ردَّدت في خوف: لم يكن مع القافلة!

- ولم يزل حيًّا وبخير، وسيعود في موعده.

- سيعود، لم يكن مع القافلة، لم يسافر مع القافلة، ولماذا؟

سقطت الحقيقة فوق رأسها كالضرائب المتراكمة، أمسكت بالوسادة، وضربتها بكل قوتها وقالت في غضب: لم يخبرني، أخبرك وأخبر جنوده ولم يخبرني. ولِمَ يخبرني؟! من أكون؟! جارية اشتراها من العامة؟ من أكون؟! الكاذب! ماذا كان يتوقع؟! كنت سأموت اليوم، أحمل ابنه..

قالت أم خليل في رفق: طلب مني أن أخبرك في الوقت المناسب، وبعد وصوله إلى هدفه، لا تلوميه، ربما كان يخاف عليك.

- وربما كان لا يثق بي، وربما كان لا يأبه بي، كم أكرهه! هذا الرجل أسوأ رجل رأته عيناي. أخبريه أنني أكرهه، ابعثي له بهذا، وأنني سأتركه حتى لو قتلني، وأنني لست بضاعة تباع وتشترى.

انتفضت من مكانها تبحث عن بعض أشيائه وتلقي بها على الأرض في غيظ وقوة، ووجهها يزداد احمرارًا، والدموع حبيسة العينين.
ظلَّت أم خليل ساكنة، ثم قالت: تحبينه كل هذا الحب؟! حب امرأة بقوتك خطير على الرجال، أشفق عليه وعليك.
قالت وهي تنهج وتهوي إلى السرير: بل أكرهه من كل قلبي، هل تفهمين ما حدث لي؟ أمس كنت أريد الموت. تمنيت الموت، لم يخف عليَّ ولا على طفله في أحشائي.
- ولكنه طلب مني أن أخبرك في الوقت المناسب.
- الوقت المناسب؟ من يحدد الوقت المناسب؟ أنت؟ أيُّ وقت؟ المجرم.
- اهدئي يا مولاتي.
هزَّت رأسها وقالت: سأهدأ ولن أسامحه أبدًا. طفح الكيل واكتفت النفس.
* * *
الأمير محمد حكايته في بدايتها تشبه حكايات الكثير من أمراء المماليك، نشأ في بلاد الترك بين خمسة إخوة على ما يتذكر في قرية صغيرة بين والديه، كانا يعملان معًا في الزراعة، ومرت أيامه الأولى في توقع وفهم. ذهبت به أمه مرَّة أو مرتين إلى أماكن عبادتهم، يتذكر الأضواء والمقاعد الخشبية وبعض الطقوس المبهمة لديانته حينها. وعندما أتم عامه الثامن رأى الأطفال يجرون بكل ما لديهم من طاقة، ونظر حوله وهو لا يفهم سبب الجري ولا الهرب، حتى صاح أخوه الأكبر: اجرِ بأقصى سرعة وإلَّا خطفوك.
جرى في خوف وقوة لم يكن يظن أنها بداخله، ولم يكن يعرف في هذا الوقت أن من يجري أسرع هو من يريده الجنود ويبغون

خطفه. تلاشى أخوه من أمامه، واهتزت الأرض، وقلبه على مسمع منه ينبض، وكأنه وحش بري وقع فريسة ثعبان سام ويعرف نهايته وعمره الضائع. أمسكت به يد قوية، ضغطت على بطنه، فحاول أن يزيحها ولم يستطع. صرخ وبكى ولا فائدة. كان الضوء يهرب من أمامه والجري يفقده توازنه وقدرته على الفهم والرؤية، أو ربما ظلَّت تلك اللحظة غير مكتملة في الذاكرة مبتورة كطفولته وقريته وذاكرته وأمه.

لم يتذكر سوى الرحلة الطويلة لبلاد غريبة، ووجوه مختلفة، وقلعة حصينة، وأولاد في عمره يتكلمون لغته ويربتون على كتفه، وأولاد أكبر سنًّا يطمئنونه أن الحياة ستبدأ، وأن الأمل لم يزل موجودًا.

قال بين دموعه: أمي؟ ستأتي؟

فقال من يكبره بالتركية: انسها، لن تراها من جديد، عادة يولد الإنسان ثم يحسب عمره، أمَّا المماليك فتحسب أعمارهم من لحظة الوصول إلى الأستاذ، وحظك جميل، فأستاذك هو السلطان قلاوون نفسه، ومكانك هنا في الروضة.

بقي الطفل ساكنًا لا يتقبل ولا يفهم، ويخطط للهرب السريع، والعودة إلى أراضٍ يعرفها ويبتغيها. نظر حوله يبحث عن مخرج من هذا السجن الكبير، وأمه تلوح في الذاكرة بملابس قديمة، ورائحة دافئة، ويد قوية ممتلئة بالعروق من العمل الشاق. استمر في البحث عن مخرج مفتوح من السجن ولم يجد، ولكنه حاول في يأس، وجرى إلى الباب بأقصى سرعة حتى شعر بمن يمسك رقبته في قوة ويصيح: تفعل هذا مرة أخرى، أقطع رقبتك أمام الجميع.

استغاث في ألم وكل الأطفال ينظرون إليه في أسى، ثم قال الرجل: لو أطعت أوامري لأصبحتَ أميرًا، ولو خالفتني لقطعتُ

رأسك هنا الآن أمام الجميع، هنا الطاعة تجعلك أميرَ مئين، لو أردت لكان تحت يدك مئة رجل أو أكثر، وكل أهل مصر رهن إشارتك.

تمتم الطفل: أمي.

قال الرجل وهو يضرب ظهره: لا تتكلم كالنساء! اخترناك لأنك قوي، فلا تجعلنا نندم على الاختيار ونقرر أن تصبح خادمًا وليس مملوكًا، تفهم الفرق؟ تريد أن تكون رجلًا أم لا؟ الخادم نخصيه، والمملوك يصبح أميرًا، وحوله كل النساء الجميلات، ماذا تختار، أن تكون رجلًا أم لا؟

قال في خوف: أن أكون رجلًا؟

- وأميرًا؟

- وأميرًا.

- تطيع كل الأوامر، وتفهم كل الدروس.

قال في خوف وقد أقسم ألَّا يحاول الهرب مجددًا أبدًا: أفهمُ كل الدروس.

- أين عائلتك؟

فكر الطفل قليلًا وهو يتخيل سكينًا تقطع رجولته، ثم قال في حسم: أهلي هنا، لا أهل لي سوى هنا.

- أهلك وغايتك السلطان.

ردد في تأكيد: السلطان.

- وليٌّ نعمتك. وأستاذك.

معاملة المعلمين للأطفال كانت صارمة، ولكنها ممتلئة بالتقدير والاحترام، النظام الصارم كان يعني عدم الكلام وقت العمل، وعدم التعبير عن المشاعر، وعدم البكاء، وعدم الشجار. ووجود أطفال آخَرين يتكلمون نفس لغته جعل التحمل أسهل

بالنسبة لمحمد. بدأ التعليم بتعليم علوم الدين والفقه وأصول الصلاة والوضوء، وكان المعلم يتأكد من صلاة كل الأطفال كل يوم ومن حفظهم للقرآن ومن تعلمهم للغة العربية.

بعد برهة بدأ التدريب على فنون القتال والخيل والمبارزة، وكان تدريبًا شاقًّا، وكاد محمد يفقد ساقه في أحد التدريبات، والقدرة على التحمل والمثابرة كانت من أهم السمات التي تجعل المملوك يترقى في المناصب، وكونه جزءًا من خشداشية السلطان نفسه، فهو محظوظ. ترددت كلمة محظوظ طوال الوقت بين المعلمين والأطفال، وقال المعلم في قوة: ماذا كنت ستصبح؟ فلاحًا كأبيك في قرية صغيرة لم يسمع عنها أحد، والآن أنت محارب تحكم وتأمر وتنهى، قائد تلبس الحرير، وتتزين بالسيوف الفاخرة، وتأكل اللحم والدجاج، أيَّ المصيرين كنت تريد؟!

وكانت إجابة الأطفال دائمًا في قوة وفخر: أن نكون جنودًا ثم أمراء.

لحظات الضعف كانت قليلة، ومحيت من ذاكرته منذ زمن، ولم يعد يتذكر سوى حروبه وقوته ونجاحاته وترقيته، والبحث عن السطوة والسلطان، وتعلية شأن المماليك، فما يدفعه المملوكي من تضحية بالطفولة والأهل والبلد من أجل الدفاع عن ديار المسلمين أغلى من أي شيء، ولا يقدر بثمنٍ، ولا بكل ما يدفعه العامة من ضرائب. الأمير محمد كان معروفًا عنه الدهاء في الحرب، والصرامة في التعامل، وترقَّى بسرعة جعلت المماليك تحسده وتهابه.

بعض جنوده تم خطفهم وهم أكبر سنًّا منه، وتذكروا مكان قريتهم وأسماء أهلهم، وعادوا في وقت لاحق بحثًا عن العائلة والأم، ووجدوهم وأخذوهم معهم إلى مصر، أو زاروهم

باستمرار. أحيانًا كان يفكر أن يفعل نفس الشيء، ولكنه كان يخاف من نفسه، ومن هوس البحث عن شيء مبهم وقديم، ومن التعلق بأمل ضئيل في عالم كبير، وكان هناك الحاجز النفسي الذي بناه معلموه سنين من أن التعلق بالأمل ضعف وهوان، والبحث عن الماضي سيضيع رجولته وبقية عمره. أزاح الهوس في الأعماق، وتأقلم مع الواقع.

كان من عادة المماليك التمسك بعلاقاتهم فيما بينهم؛ فهم غرباء، ولغتهم لا يفهمها العامة، ومع التخلي عن كل حياتهم الماضية كان التمسك باللغة والعرق، وكانت صلاتهم فيما بينهم كأمراء أو جنود ودفاع بعضهم عن بعض مثالًا يحتذى به، إلَّا إذا كان الصراع على المصالح والسلطة. كون الأمير محمد قد قرر الزواج من العامة شيء محيِّر لا يفهمه أحد، لا صديق ولا عدو، ولم يعرف الأمراء ما وجده في ابنة التاجر حتى جعله يزهد في كل النساء دونها ويخرج عن شرع الأمراء، ولم يفهم محمد نفسه قط.

* * *

ترك الأمير محمد جنوده على حدود الكرك، وجرى بفرسه إلى داخل البلد، ودخل وحده إلى قصر السلطان المعزول الناصر محمد. دق باب القصر، وفتح له بعض الرجال، وعند دخول الأمير محمد على الناصر أشرق وجه الناصر، واتجه إليه بسرعة وهو يعرج وعانقه في قوة، وربت على كتفه وهو ينتظره منذ شهور، قال الناصر: كنت أتمنى ألَّا تراني هكذا في هذه الحالة، ولكنك صديقي، لا بأس.

الناصر محمد كان جسده هزيلًا، والإصابة في قدمه واضحة لكل من يحضر مجالسه، ولكنه كان يملك وجهًا قويًّا وعينين ثاقبتين، ونظرات طويلة تنم عن أصل عريق وتعليم وافر.

جلسا معًا، فقال الناصر بعد برهة: بيبرس يعيث في الأرض فسادًا، أليس كذلك؟

هزَّ محمد رأسه بالإيجاب.

- بعث يطلب مني رجالي وكل أموالي. أتصدق هذا؟

- يشيع أنك تركت الحكم وهربت.

- لم يكن لدي الاختيار وأنت تعرف، كان سيقتلني في أي لحظة ويتخلص من جثتي ويحكم للأبد، على الأقل الآن هناك أمل.

- هذه ثاني مرة يا مولاي تترك الحكم.

- مولاي! لم أسمعها منذ زمن من أهل مصر، اسمعني يا محمد، لا أمان لبيبرس، وربما معظم المماليك، السلطة هدفهم، وأمامها يخونون أيَّ عهد، تربوا بطريقة مختلفة، القتال هدف ووسيلة، والولاء يباع ويشترى.

صمت محمد قليلًا ثم قال: إذا فكرت بهذه الطريقة فلن تصل إلى الحكم مرة أخرى أبدًا.

- ماذا تعني؟

قال محمد في حسم: لن يساعدك سوى المماليك. يملكون السلاح والذخيرة وتدربوا على القتال.

- تخلَّص مني المملوكي.

- وسيعيدك أمراء المماليك، لا تخسرهم يا صديقي، فليس لك سواهم، يتعاطفون معك، ويكرهون طمع بيبرس.

ربت على يد محمد وقال: ستساعدني؟

- تعرف أنني أساعدك منذ رحيلك.

صمت لحظات ثم قال في حسرة: يمنع عني الطعام. تصدق هذا؟! لا آكل الطيور، الخضراوات فقط، تعرف أنه منع عني الإوز

والدجاج؟ قال: إنها باهظة الثمن، وإن البلاد في حالة حرب، وفي حاجة إلى كل درهم. عندما تذل السلطان ماذا تتوقع؟ يريد كسري، أفهم وأصبر، حدث هذا من قبل. أنت تعرف يا محمد، مصر كلها تعرف أن السلطان الصغير أختبأ من الأمراء وخرجت أمه لتتفاوض معهم، وترجوهم أن يبقوا على حياته، ووعدتهم برحيله، فعلت، لولا تدخلها لكنت ميتًا الآن. أنا لم ولن أنسى؟ وكيف لأهل مصر أن ينسوا؟ وكيف لأمراء المماليك أن ينسوا؟ أي سلطان هذا من يحتمي وراء أمه؟

- هذا كان وأنت لم تعد صغيرًا ولم يعد لك الاختيار.

- أصبحت أتذوق طعم الذل في فمي.

قال محمد: الصبر مهم والتخطيط أهم. لو كسبت ولاء أمراء مصر والشام ما استطاع بيبرس البقاء في الحكم، أتيت لك بالإوز والدجاج لا تقلق.

ابتسم الناصر في أسى ثم قال: كيف حال أهل مصر؟

- لا تسأل عنهم؛ حتى تستطيع الأكل.

- يقاسون الأمرين بالطبع؟

- سيقضى على البلاد لو بقي أكثر من شهور، يظنون أنك هربت وتركت الحكم له، قبض على العلماء والتجار وأصحاب الحرف، لم يترك رجلًا في المدينة إلَّا كسره.

- لو عدت سأغير كل هذا، أهل مصر يستحقون الأفضل.

أطال الناصر نظره إليه ثم قال: تزوجتَ من العامة؟ هل فعلتَ؟ وسمح لك بيبرس؟

ابتسم: وكيف له أن يمنعني؟ يتوخى الحذر معي، يحاول إرضائي، ويحاول التخلص منى في الوقت نفسه.

- لِمَ تزوجت من العامة؟ عهدتك لا تتبع أهواءك، هل أغضب هذا المماليك؟

- وما شأن المماليك بزوجتي؟

- كيف ستساعدني يا محمد؟

قال في حسم: تكلم مع أمراء الشام واضمن ولاءهم، واترك لي أمراء مصر أتكلم معهم وننتظر الفرصة لعودتك.

- أخذ نصف رجالي ولم يرضه هذا، كان يريد كل الرجال، يعرف ويشعر بخطتنا.

- التصرف السريع يضمن السرية والإنجاز.

- ولِمَ يساعدني أمراء المماليك؟

- لأنَّ في هلاك البلاد فناءهم، يعرفون ويفهمون، وعندما يفوق الظلم حدود المعقول تظهر الحقيقة للجميع وتتجلى العواقب حتى للطامع والفاسد. اترك لي الفرصة.

ربت على كتفه: لا أعرف كيف أشكرك!

- تربينا معًا يا مولاي السلطان. كنتُ مملوك والدك وأخًا لك، الإخلاص لابد أن يبقى سمة المماليك ليستمروا.

* * *

الفصل السادس

كان يبحث عنها في حماس، وكانت تهرب منه بقدر المستطاع، فكل خطاياه غفرتها له إلَّا هذه الخطيئة، فقد حسمت أمرها أنها لن تغفرها أبدًا.

ولكنها لم تكن تستطيع أن تتحاشاه إلى الأبد.

أغلقت زينب عينيها وتصنَّعت النوم، وغطت رأسها؛ حتى لا يراها، ويشعر بعطف القلب ولهفة النفس والقتل الذي تسبب به في كل كيانها.

شعرت بيده تزيح الغطاء وفمه يقترب من خدها، وأنفاسه داخل الروح. عندما قبَّل خدها تساقطت الدمعة التي أبقتها بداخلها شهرين ولم تفتح عينيها، فقبل رقبتها. انكمش جسدها وحاول الهرب.

همس في رقة لم تعهدها فيه: افتقدتك.

ضغطت على عينيها أكثر ولم تجب، فقال في رفق: ماذا بك؟ ماذا حدث؟ غاضبة مني؟

لم تجب، فلو فتحت فمها لأجهشت في بكاء خوف وحب يهز كل النفس.

وضع يده تحت رأسها وقال: ماذا بك؟ تكلمي معي؟

قبضت على يدها وقالت وهي تزيح يده: أتمنى أن تتركني أيها الأمير، للأبد وليس اليوم فقط، لم أعد أخاف السجن.

اعتدل في جلسته وقال في جدية: ما هذا الهراء؟ ماذا حدث وقت غيابي؟ أهكذا تستقبل الزوجة زوجها بعد شهرين؟

فتحت عينيها وقالت: أعطني الأمان ولا تصفعني ولا تجلدني لأتكلم.

قال في جفاء: تكلمي.

كان قلبها يخفق وهي تنظر إليه وتتمنى أن تعانقه، وأن تحبه، وأن تقبله، وأن تقتله، وأن تعذبه. قالت في صوت مبحوح والغيظ يملأ قلبها: كذبت عليَّ. كذبت عليَّ، وكأنني لا شيء، بضاعة في قصرك بلا قلب وبلا روح. كذبت عليَّ واعتقدت أنني خسرتك إلى الأبد وأنك ستموت حتمًا، وأن هجوم المغول على قافلة المسافرين كان هجومًا عليك. هل تشعر؟ هل لديك قلب لتشعر؟ هل تعي ما فعلته بي؟ لم تسافر إلى المغول أصلًا، ولم تخبرني، ولِمَ تخبرني؟ أنا لا شيء. قضيت علي مرَّة واثنتين وثلاثًا. لماذا تكترث بي وبمشاعري؟ ألم تقلق على ولدك في أحشائي وعلى حزني الذي سيؤثر عليه؟ لا يهمك، فيمكنك شراء جارية غيري أجمل وأفضل، أو ربما خطفها من عائلتها وتهديدها وإخافتها، افعل بي ما شئت ولكنك لست زوجي من الآن.

سمعها في صمت ولم يقاطعها، ثم قال في بطء: أفهم بعض كلامك، ولكن معظمه هراء، أنت زوجتي وتعرفين هذا.

انتفضت من السرير وقالت في جفاء: اسجني أو اقتلني، ولكنني لن أغفر لك، غفرت كلَّ شيء، كلَّ ما حدث، ولكنني لن أغفر لك لحظة، ظننت أنك قتلت وأن ابني سيولد بلا أب، لن أغفر لك هذا. كنت تعرف وكان يمكنك طمأنتي بكلمة واحدة ولم تفعل.

قام وأحاط وجهها بيديه وقال في قوة: لا أستطيع، تعرفين

هذا.

شعرت بأنفاسه قريبة منها، وتجلى كل هذا الهوان داخل النفس والتوق، أغمضت عينيها وهو يقترب بفمه من فمها ثم ابتعدت بسرعة، وأزاحت يديه، واتجهت إلى الباب وجرت من الحجرة.

كانت زينب حاملًا في شهرها الخامس، وكلما نظر إليها شعر بهذا الحنو الذي بدأ يعتاده وهي معه، وجنتاها تورَّدتا، والحياة تشع من أطرافها. لم يكن قادرًا على إذلالها كما تمنى في لحظات الغيظ من عنادها، ليته يستطيع أن يحطم بابها، ويرغمها على التوسل وطلب الصفح، ولم لا؟ أليست ملكه وتحت سيطرته؟ فلِمَ هذا اللين تجاهها الذي يسيطر على عقله، ويجعل القسوة مستحيلة؟

عاشر الكثير من النساء قبلها، وبحث مثل غيره من مماليك خشداشية السلطان عمَّن جاءت من بلده وقريته وتتذكر رائحة أشجاره وهواء ماضيه، وجد الواحدة تلو الأخرى، ولم يشعر بالسكينة، ولم يستقر ماضيه ولا عقله، وإشباع الجسد لم يطعم الروح، ولم يساعدها على الوصول والاستغناء.

أما زينب فشوقه لها ينسكب من روحه، ومشاعره تجاهها لم يستطع أن يفهمها منذ البداية، وكأنها هفوته الوحيدة وكل المشاعر التي كتمها طوال طفولته، وكل فطرته وتلقائيته التي دفنها حية وهو طفل يمسك السلاح ويتعلم القتال. احتياج الروح غريب عليه، أخافه في البداية، ثم بدأ يستسيغه ويعتاده مع واحدة فقط، لا هي من أصله ولا تتكلم لغته، ولكن وجهها يشع بالحياة والقوة والتلقائية التي حرم منها منذ الأزل. زينب!

تحاشت الكلام معه أسبوعًا كاملًا، وكلما اقترب منها كانت تبتعد بأقصى سرعة؛ حتى تقي النفس الانهيار أمامه كما

يحدث دائمًا، ولكنها كانت تختبئ كثيرًا وراء باب أو شرفة لتسمع صوته وتخمد إلحاح القلب والتوق إلى ريحه حولها، أحيانًا كان يتوقف عن الحديث وينظر إلى الشرفة وكأنه يشعر بوجودها خلفها تراقبه، فتختفي من حول الشرفة بأقصى سرعة، ولكنها كانت دومًا تغلق حجرتها ليلًا وتبقى في سريرها ساكنة وشوقها يحرقها، وقلبها يخفق له، والغضب يسيطر على كل شيء. افتقدته وعشقته وخافت عليه، وبمرور الأيام ومع بقائها وحيدة في حجرتها كانت النفس تتدغدغ، والحب يطغى على كل الغضب والكبرياء، ولكنها دومًا قوية، أو هكذا تتمنى.

بعد أسبوع فتح حجرتها قبل أن تغلقها، وجلس على السرير، وقال في قوة: كفِّي عن هذه الصبيانية، لماذا تفعلين هذا بي وبنفسك؟ ألم تفتقديني؟!

أغمضت عينيها وغطت وجهها ولم تنطق. فأزاح الغطاء وقال: انظري إليَّ!

أمسك بذقنها، وأزاح وجهها ناحيته، فتحت عينيها وقلبها يتهاوى، فقال في حسم: أعدك، لن يحدث هذا مرة أخرى، لن تقلقي عليَّ، ولن أخفي عنك شيئًا. ألا تشتاقين إليَّ؟

خانها جسدها واستغاث به، طأطأت رأسها فضمها في قوة وهو يحك خده بخدها، وقال: تشتاقين إليَّ، أليس كذلك؟

هزَّت رأسها بالإيجاب في خجل من النفس والهزيمة، وضغطت على ظهره بيديها، وانهمرت في البكاء، وهمست: لا تفعل هذا بي، أرجوك لا تفعل هذا بي مرة أخرى.

بدأ يقبل شفتيها وعينيها ورقبتها، وأنفاسه تتسارع وشوقه وضعفه وكل قوته معها هي فقط.

قال بين قبلاته: وعدتك، لن يحدث.

بادلته القبلات واللهفة تجعل التنفس صعبًا، وقالت: لا تنفذ وعودك.

- بل أنفذها كلها، كم افتقدتك! لم أعد أرى غيرك، وكأنك جنٌّ يسيطر عليَّ، كيف فعلت هذا؟! وكأن كل نساء العالم لا وجود لهن.

- تكذب عليَّ.

- لا أكذب.

- هل ستعدني من جديد؟

- افتقدت إلحاحك.

- لن تموت، عدني ألَّا تموت.

- أمَّا هذا فلا أستطيع أن أعدك به.

اليوم عندما أحست به بداخلها تساقطت دموعها بلا توقف، وطوقت عنقه وتجلَّى كل الألم، همس في أذنيها في رقة: ماذا حدث؟ لِمَ البكاء؟

لم تكن تعرف لِمَ البكاء... لحظات ظنت أنها فقدته ربما... تهاوت أمامه وتهشم الوجدان، كانت حياتها معه من قبل حيرة وخوفًا ثم أصبحت عشقًا واندثارًا من احتمال الفقد والموت، الموت الذي حرمها من أخواتها ثم والدها، لم تكن متأكدة من القدرة على العيش بعد موته، والشعور به قطعة منها بداخل روحها، حطم حاجز الزمن وأخرج كل التوق المخضب بالمرارة، قال من جديد: زينب، ماذا بك؟

لم تكن تعرف أن الحب يمكن أن يشق النفس هكذا، ولا أن الخوف يذهب العقول، ويغرس اللعنات في القلب.

قالت في حزن وهي تقبل صدره: أحبك.

- ولِمَ البكاء؟ أنا معك.

أحاطت رأسه بيديها كي تتأكد من أنه معها، ومن أنها لم تفقده، ومرت بيدها على لحيته، ثم قالت: لابد أن تعدني.

ابتسم ولم ينطق. هذه الغزوة كانت غزوة فناء الجيشين، خسراها معًا. وسيطر كل منهما على الآخر سيطرة تامة، فلا هي ترى غيره، ولا تعرف غيره، ولا تعشق غيره، ولا تريد غيره، ولا هو يبغي من العالم سوى وجودها حوله ومعه.

قال بعد برهة وهو يضمها: كُفِّي عن البكاء!

قالت في صوت متحشرج: لا تغامر بنفسك، عِدْني بهذا أولًا.

قال بلا تفكير: أعِدُكِ.

بقيت بين ذراعيه ساعات لا تنطق ولا تتحرك ولا تقوم ولا تنام، تحيطه بذراعيها وتسقي قلبها من وجوده معها، ولهفتها وخوفها عليه لا يجفان.

وفهم كل منهما قدرة الآخر على الفوز ونسف الجيوش، وبقي الحذر على القلب والنفس من أي أذى.

هذا البكاء كان غريبًا عليه، بكت من قبل في أوقات كثيرة، ولكن ليس بهذا الصدق وهذا الأسى وهذا الهوان، وليس وهو بداخلها وبين أضلعها، وليس وهي تتشبث به وترتجف. لم يحدث هذا من قبل لا من زينب ولا أي امرأة عرفها. حتى عينا المحارب لم تستطع الفهم ولا الغوص داخل هذا الأسى، ولكنها هزَّت كل روحه، أيُّ حب وأيُّ خوف يعذب هكذا؟!

في الصباح قامت من جانبه في بطء، وبقي هو على السرير يطبق ذراعيه وراء رأسه وينظر إليها، اتجهت إلى درج فتحته وأخرجت منه صندوقًا مزخرفًا كبيرًا، حملت الصندوق إلى السرير وهو ينظر إليها في دهشة، ثم فتحته وقالت: محمد. خذ كل هذا.

- ما هذا؟

- وقف تركه لي أبي، وربع كبير في الحارة تركه لي أيضًا لأؤجره، وكل ذهبي. خذها كلها.

نظر إليها في ذهول ثم قال: لا أحتاج إلى أموالك.

قالت في حماس: خذها كلها هي لك، هدية مني، نرحل من هنا، ونترك الروضة، ونبتعد عن المماليك والمؤامرات والسلطان والاغتيالات والقتل. نحيا معًا في سلام.

هزَّ رأسه بالنفي ثم قال: هل تمزحين يا زينب؟

- أمزح، لماذا؟ أعطيك كل ما أملك، كل شيء لك، خذه ولنرحل من هنا، لو أردت يمكننا الذهاب إلى الشام، أو الحجاز، أو أي مكان تريده، نبتعد عن المماليك والسلطة والحكم.

- أنا من المماليك يا زينب.

- سيقتلونك، تعرف أن السلطان بيبرس سيقتلك، حاولَ من قبل، أليس كذلك؟ هو من بعث بالرجل ليقتلك، وسيحاول من جديد.

- ولو أصبحت من العامة فلن يقتلني؟ ولو تركته يشيع الفساد فسيغفر الله لي؟ خلقت للقتال ولا أهرب، الهرب للجبناء، تريدين زوجًا جبانًا؟

- أريد زوجًا حيًّا.

- هذا الجبن هو السبب في الاحتياج إلى المماليك، فشجاعتهم تحمي الجميع، لدي واجب وهدف، تعرفين.

فتحت فمها فوضع يده على فمها وقال في رقة: أريدك أن تحبيني كما أنا، وعندما يأتي الأجل ولو مت مقاتلًا فلا تحزني، أفضل الموت بسهم سريع على المرض والذل والهوان. زينب... ساعديني ولا تصعبي الأمر عليَّ.

صمتت. التقت أعينهما ثم قالت: وهل لي اختيار؟! لم تترك لي الاختيار قط.

- اليوم أريدك أن تقفي معي وأن تسانديني. أحبك.

هزَّت رأسها بالإيجاب وقالت: لن تكذب عليَّ، على الأقل لا تكذب عليَّ، أقسم لك إن أيَّ سرٍّ بيننا سأموت قبل أن أبوح به، أنت تعرف هذا، تشعر بي؟ تثق بي؟

قال في يقين: أثق بك.

* * *

طوال هذا اليوم وزينب تضع الحقائق في ترتيب منطقي، وتحاول فهم ما غفلت عنه منـذ عاشت داخل القصر. كان واضحًـا أن الأميـر محمدًا زوجهـا لا يحب السلطان بيبرس، كيف لم تلاحظ؟! حتى عند زيارته كان يحيط نفسه برجاله طوال الوقت، وإذا لم يذهب إلى بغداد فلا بد أنه ذهب إلى الكرك ليقابل الناصر محمدًا. لماذا؟ ماذا يدور بين الأمراء؟ وما دور زوجها؟

في المساء انتظرته حتى عاد، ثم جلست بجانبه وقالت في يقين: ستخبرني بكل شيء اليوم كما وعدتني؟

قال في دهشة: وعدتك؟

- كل شيء.

التفتت حولها ثم قالت: لِم ذهبت إلى الناصر محمد؟

- زينب.

قالت في قوة: وعدتني، ستخبرني بكل شيء.

تردد قليلًا، ثم استلقى على السرير، ومد لها ذراعيه وقال: تعالي هنا.

اتجهت إلى صدره وأراحت رأسها عليه وأحاطت كتفه وقالت: أخاف عليك، لو عرف بيبرس لقتلك، لو قتلك فماذا أفعل؟ لا أستطيع العيش بعدك.

أسند ذقنه على شعرها وقال وكأنه لا يسمعها: للمماليك قوانين وقواعد، وأصل وأستاذ، تعرفين.

- أعرف.

- تفهمين قدر قوتهم وما فعلوه لبلاد المسلمين؟

- هزموا التتار، أعرف، والصليبيين.

- ما فعله المماليك لم يفعله أحد من قبلهم قط، نظام المماليك نظام مبتكر وذكي، أريدك أن تفهميه ولا تتبعي كلام العامة، لو فهمتِ ما أقصده لعرفتِ كيف يفكر بيبرس وكيف يفكر الناصر محمد.

قالت في حماس: أستمعُ إليك.

- من أجل أن تحاربي جيوش الصليبيين وملوك بلاد أوروبا مجتمعين أو منفصلين، ماذا تحتاجين؟

- رجالًا؟ وخطة؟

- أكثر بكثير، وعلى الرغم من أن قطز هزم التتار في عين جالوت، فمازال التتار يهجمون ويتحرشون بالبلاد، فماذا تحتاجين؟

- نفس الشيء رجالًا وخططًا.

- ولو كنت مسئولة عن كل الأماكن المقدسة للمسيحيين والمسلمين فماذا تحتاجين؟

- لا أفهمك.

- هل تعرفين لماذا يأتي كل سلطان وكل أمير بمماليك جدد ولا يعتمدون على أولاد المماليك؟

- لا أفهم.

- في نظام المماليك للجنود قدسية وهدف، ولحياتهم معنى وخصوصية. وأنا في الثامنة مثلًا جاء بي السلطان قلاوون إلى

القلعة، وبدأ تدريبي الشاق، تدريبي لأحافظ على البلاد فقط وليكون ولائي للدين وللأستاذ. هذا التدريب الشاق في معسكرات القلعة لا يقوى عليه أولاد المماليك، فهم أحرار لهم بيت وأب وأم وتاريخ في تلك البلاد. أما المملوك فليس له سوى السلاح والأستاذ، لا أم توبخه، ولا عائلة يحبها ويفضلها على الحرب، ولا انتماءات تجعل ولاءه للأستاذ مشكوكًا فيه.

- فابننا لن يكون من المماليك.

قال في يقين: ابننا ليس من العامة وليس من المماليك، هو من أولاد الناس، يمكنني أن أتأكد من نجاحه ونفوذه، ولكنه ليس جنديًّا، ولن يكون جنديًّا، فلن يستطيع أن يفني حياته في القتال، لديه إخوة وعائلة وبلد يعرفه، وحارة يسير فيها، وطقوس وانتماءات. نجاح المماليك يعتمد على قدرة الجندي على القتال، وقدرة الجندي تعتمد على تربيته وولائه وفصله عن بيئته ومحيطه، وتعليمه الفقه وفنون القتال، والقسوة عليه أحيانًا والضغط عليه ليعرف معنى الحروب والعيش في الأسر، لا تستطيعين فعل هذا مع ابننا. هل تستطيعين؟

قالت مسرعة: لا.

- لأنه من أولاد الناس وليس من المماليك، نجاح الحكم والحروب كان بسبب المماليك وليس بسبب أولاد الناس، وعندما يورث السلطان المملوكي الحكم لابنه فمن يمسك بزمام الأمور؟ ابن السلطان من أولاد الناس، وليس من المماليك، فالسلطان الناصر مثلًا ولد في مصر، وتربى فيها بين أبويه، لم يتم خطفه ولا تجهيزه في معسكر القلعة؛ ولذا يتوقع المماليك من السلطان أن يكون حكمه صوريًّا، وأن يعطي الزمام للجندي الذي يعرف معنى النصر والشهادة والمجازفة. تفهمين؟ ما قام به المماليك في هذه البلاد من إنجازات

وانتصارات حربية لم ولن يقوم به أحد بعدهم أبدًا، العامة في غفوة عمَّا يخسره المماليك في المقابل من روح وعتاد.

- والناصر محمد لا يريد أن يعطي زمام الحكم للمماليك؛ لذا تخلصوا منه؟

صمت قليلًا ثم قال: الأمر أصعب من هذا في حالة الناصر محمد، جاء إلى الحكم صغيرًا، وسيطر عليه أمراء المماليك سيطرة تامة، وكلما حاول التخلص منهم كانوا يزيحونه من الحكم أو يهدِّدونه أو يخافهم ويرحل. الناصر محمد بالنسبة لهم من أولاد الناس، ولكنه حكيم وقوي وعادل، وبعض أمراء المماليك نسيت الهدف والغاية والقتال، وأصبحت تفكر فقط في جمع الأموال والإقطاعيات والقتل والنهب والسرقة. الناصر يعرف هذا، وحاول أن يوقفه ولم يستطع.

أطالت نظرها إليه ثم قالت: محمد... لا أفهم. أنت مع المماليك الجنود الذين يمسكون زمام الحكم أم مع أولاد الناس من أبناء السلاطين؟

- الحكم في زمن المماليك كان يجب ألا يورث، يعطي للجندي القوي والمملوك المحارب فقط، ولكن منذ البداية أصبح نظام توريث، لذا لن يبقى في الحكم سلطان سوى وقت قصير؛ لأن المماليك لا تؤمن بهذا التوريث، تؤمن بتفوق الجندي الذي يضحي بالروح، والمملوك الذي ترك الأهل والدار وعرف الأزمات وتدرب عليها، ولكن للسلطة طريقها الخاص الممتلئ بالتضحيات، يهون فيها الغالي والنفيس، زينب، بيبرس سيدمر البلاد لو بقي سلطانًا، والناصر ليس فقط السلطان الشرعي، ولكنه الأصلح حتى ولو لم يكن من المماليك.

- ولكنك قلت: إن المماليك فقط هم من يصلحون، لو أخذ السلطة من الأمراء فماذا ستفعل؟

اعتدل في جلسته وقال: في بعض الأحيان لا بد أن يفكر الجندي في خسائر الحروب، وفي بقاء الدار، فلا فائدة من حماية دار محروقة ومهدمة. فساد بيبرس وطمعه سيقضيان على المماليك قبل العامة، أفضِّلُ سلطانًا من أولاد الناس على سلطان مملوكي يجمع المال والذهب ويفرقه على حاشيته، في بعض الأحيان لابد من استشارة الضمير والدين في اتخاذ القرار.

نظرت إليه في جدية وقالت: وماذا تنوي؟

التقت أعينهما، لم يكن يخاف أن تفشي سره، ولا يعرف ما جعله يبوح لها بكل ما في نفسه، تسربت إلى نفسه في سلاسة وإتقان.

قال في جدية: لا بد من الإطاحة ببيبرس وعودة الناصر محمد.

قالت في فزع: يقتلك لو عرف، بل لا بد أنه يعرف ويحاول أن يقتلك بالفعل، لماذا تفعل هذا يا محمد؟

- لن أستطيع أن أفعل أي شيء وحدي، لا بد من الاتفاق مع الأمراء المماليك.

قالت في استياء وخوف: ولِمَ يوافقون؟ كيف تعتقد أنهم سيوافقون على تقليل سلطاتهم وعودة السلطان الذي يريد أن يحجمهم؟ لن يسمحوا.

- الناصر لا يريد الإضرار بالمماليك، يريد حمايتهم من أنفسهم، وإلَّا كانت نهايتهم قريبة، فعندما تتسرب الرفاهية إلى حياة الجندي ينسى الحروب، لا يريد أن يمسهم، سيتركهم في مناصبهم، ولن يولي غيرهم، ولكنه فقط يريد أن يكون قراره في يده، وألَّا يضطر إلى استئذان كل أمير قبل البدء في شيء، سيطرة المماليك عليه كانت مميتة، ولكنها مميتة لهم قبله، لو استمر الحال هكذا فدخول الصليبيين محقق.

قالت في تأكيد: هو لا يريد المساس بالمماليك إذا لم يتدخلوا في شئون الحكم.

- لا أعرف ما يدور بخلده، ولكن هذا اعتقادي.

- ولِمَ تساعده؟

نظر إليها برهة ثم قال: أفعلُ ما يجب أن يفعله الجندي وداره تحترق، واجبي ومسئوليتي.

همست وهي تمسك بيده: محمد. لم أر أحدًا في شجاعتك.

قال مازحًا: ألا تخافين من المماليك وظلمهم؟

قالت وهي تبتسم: مازلت أخاف من ظلمهم، وظلم رجل بعينه غيَّر كل حياتي.

* * *

لم تزل قصة زواج زينب ومحمد غريبة ومزعجة للعامة والمماليك على حد سواء، العامة تقول في تهكم: إن الأمير المملوكي أعجبته ابنة التاجر بجمالها المعروف، وكان يعدِّد نساءه ويجرب كل الألوان والأصناف، فالمماليك معروف عنهم الطمع والشراهة، ومن المؤكد أنه سيملها ويرميها قريبًا أو ينفيها إلى حجرة مظلمة في قصره ويتجه إلى الجواري ويتزوج من جنسه، وإذا لم يملها فهذا لأنها ورثت معظم أموال والدها، والمماليك طمعهم يصل عمقه إلى جبال الصحراء، ويصل طوله إلى طول جيوش التتار، مهما كان الأمير غنيًّا وأموال زينب هي هدفه وغايته، سيبقي عليها؛ حتى يأخذ أموالها كلها، وإلا فلِمَ يطلب أمراء المماليك الإتاوات وهم أغنياء؟ ولِمَ يفرضون الضرائب وينهبون التجار؟ هو لص واللص لا يكتفي من الكنوز، ولا يملأ جوفه سوى مياه ثلاثة بحور على الأقل.

أما المماليك فقد شعروا أن محمدًا فعل هذا ليظهر قوته ونفوذه، ويثبت للسلطان أنه يستطيع أن يفعل أي شيء

يريده، فلا يمكن أن يكون الأمير محمد قد وقع في غرام ابنة التاجر، هي لعبة قوة لا يفهمها سوى الأمراء والمحاربين، سيملها قريبًا ويقتلها أو يحبسها أو يدفنها في حجرة بقصره، بل من المؤكد أنه يحتاج إلى أموالها، فمحمد معروف عنه حب الخيول والأسلحة وجمع الرجال والأراضي، يريد أن يقوي جيشه الخاص، وما هي سوى جندي من جنوده، سيعتصرها وعندما يفرغ منها سيلقي بها إلى الصحراء والجبل؛ لتموت جوعًا وعطشًا، وتفهم أنها ليست منهم ولا تعرف شيئًا عن قدراتهم ولا عاداتهم.

* * *

عندما زارتها فاطمة بعد عودة الأمير لتطمئن عليها وعلى صحتها؛ فالحمل الأول دائمًا صعب ومتعب، تشاجرتا شجارًا لم يحدث مثله من قبل، بل انفجرت فيها فاطمة كالسهام المتتالية بلا توقف ولا تفكير، كانت تعرف عصبية فاطمة، ولكنها لم تجربها من قبل، ولم تعرف سببها في ذلك اليوم بالذات.

عندما نظرت فاطمة إلى عينيها وجدت شيئًا أخرج المارد من بين الأضلع، شيئًا جديدًا ولابد من الانفجار بسببه، وجدت في عيني زينب هذا الرضا عن كل العمر، والثقة في الوصول، والاكتفاء بما أعطاها الزمن. نظرات مختلفة على زينب ومثيرة للقلق والكراهية، لا يعرفها سوى من قضى عمره تائهًا باحثًا ولاهثًا.

في البداية قالت فاطمة وهي تحاول أن تبقي المارد بداخل الأضلع: أنت بخير؟

قالت زينب وهي تضع أمامها العصير والحلوى: بخير.

كانت زينب تتحرك في حماس طفل وجد كل ما يحلم به، وبثقة وثبات وحيوية غير معهودة، فقالت فاطمة: ما أخبار

زوجك؟ لم تعودي تحكي لي أي شيء! تحبينه يا زينب؟
فاجأها السؤال وأحست لبرهة بالحرج من الإجابة، ربما لأنها تعرف أن فاطمة لا تحب زوجها، وربما لأن سعادتها بوجوده حولها هبة لا تستحقها، ولم تعرف معناها قبل أن تقابله. فاطمة تَرَبَّتْ مع زينب، وكانت تعرفها جيِّدًا وهذا الارتياح في عيني زينب والاطمئنان يزعجانها إلى أبعد مدى، ومع أنها تحب وتعرف زينب منذ الطفولة، ولكنها قط لم تر زينب بكامل رونقها كما رأتها اليوم.
قالت فاطمة: تحبينه، كذبت عليَّ، تكذبين في كل شيء.
قالت زينب في إحراج: فاطمة، أنت تعرفين، كان زواجًا صعبًا في البداية، هو زوجي وأبو طفلي.
قالت فاطمة في جفاء: لماذا إذن تتظاهرين بأنك لا تحبينه؟ تخافين من الحسد يا زينب؟ تخافين من عيني؟
قالت زينب مسرعة: بالطبع لا، أنت أختي وصديقتي، تعرفين، كانت هناك مشاكل في البداية...
ابتسمت فاطمة في جفاء: ترى هل اتفقت على الزواج منه من البداية؟ هل كنت تحبينه طوال الوقت؟ كنت تكذبين في كل شيء، أليس كذلك؟
قالت زينب في غضب: فاطمة ماذا حل بك؟! لِمَ تتكلمين معي هكذا؟!
رضا المرأة وعيناها اللتان تستكفيان من كل العالم لوجودها مع رجل بعينه لم تفهمهما فاطمة ولم تعرفهما، وكرهها لزوجها كان سببه الأساسي هو كرهه لغنائها، كانت تنتقم منه كل يوم على كلماته التي اخترقت الأضلع وأهانت المارد، بل أحيانًا كانت تعتقد أن الحب ليس غايتها، وأن الرضا لا يأتي بين أركان بيت وأضلع رجل، بل يأتي بخروج المارد من القلب. لم تكن تريد

أيَّ رجل، ولا أيَّ حليٍّ، ولا أيَّ حلوى، كانت تريد الخلاص، ولم تستطع الوصول.

صاحت فجأة وهي تزيح العصير: أيُّ صديقة أنت؟! وأيُّ خائنة؟!

فتحت زينب فمها في ذهول ولم تنطق، فأكملت فاطمة: تعتقدين أني لا أعرف؟ أنت من قضيتِ على عمري، أنت مَنْ أخبرتِهم إلى أين هربت، لن أسامحك ما دمت أحيا، لماذا فعلت هذا يا زينب؟ لماذا الخيانة؟ أهو شرٌّ بداخلك أم حسد من صوتي؟ أم ماذا؟

بقيت زينب ساكنة ولم تنطق.

قامت فاطمة ودفعت بصينية العصير والحلوى، فوقعت، ثم صاحت من جديد: سأدعو عليك يا زينب! أنت لا تستحقين سوى الشر! تخونين صديقتك؟! وتحطمين عمري؟

ثم خرجت وهي لم تزل تصيح وتسب.

لم تفهم زينب بالضبط سبب الانفجار، ولا سبب الأسهم المصوبة ناحيتها في البداية. وبعد يومين من التفكير فهمت وأيقنت، كانت تحب التأمل والفهم، وتعرف أن للغيرة قوانينها الخاصة، وأن الرضا هو الغاية شبه المستحيلة، وأن السعادة ليست مكتوبة للجميع، وأن الحب هبة يختص بها الزمان أناسًا بأعينهم، لم تحقد على فاطمة ولم تغضب منها. وبعد ثلاثة أيام جاءت لها فاطمة والدموع في عينيها، مطأطئة الرأس ومعها الكثير من الطعام، وقالت وهي تضمها في قوة: سامحيني يا ابنة خالتي، هو هذا الرجل البائس الذي أعيش معه، أفقدني عقلي.

ربتت زينب على كتفها، وقالت وشعور طفيف بالذنب يساورها من حين إلى حين؛ لأنها أخبرتهم عن مكانها عندما هربت: لا

يهم. غنِّي لي يا فاطمة. أحبُّ صوتك.

التقت أعينهما، فقالت فاطمة: تعتقدين أنه صوت جميل؟

- جميل جدًّا.

لم تكن زينب متأكدة كلَّ التأكُّد من أن ما فعلته هو الصواب، لو هربت فاطمة كانت ستعمل غانية، وربما لا تصل إلى ما تبغي أبدًا، ولو لم تهرب كانت ستبقى تعيسة إلى أبد الآبدين.

* * *

نظرت من مشربيتها على لقاء الأمراء في قصر زوجها والقلق لم يزل يسيطر عليها، أمسكت قلبها بيدها وهي تنظر إلى وجوههم ولا تفهم كلماتهم التركية.

قال محمد في جدَّة: أمس حدث شيء خطير! بعضكم يعرفه وبعضكم لا يعرفه، ما حدث ينذر بانتهاء عصرنا لو استمر، واجبنا التدخل سريعًا. أمس خرج أحد الأمراء ومعه جنوده يتجول في أطراف القاهرة، وخرج عليه العامة ظانين أنه بيبرس الجاشنكير ومعهم السكاكين والحجارة وهاجموه، تعرفون معنى هذا؟! لم يحدث طوال عمري أن تجرأ أهل مصر على المماليك هكذا، ولا على رجل يظنون أنه السلطان.

ساد الصمت، فأكمل: تعرفون لماذا تجرءوا؟ لأن المماليك حول بيبرس لم يتركوا لأهل مصر ما يريدون العيش من أجله. الظلم الحَذِر يستمر، ولكن الظلم الغاشم يدمر صاحبه. أغض الطرف عن أهواء المماليك أحيانًا، ولكن غلظة بيبرس لم يعد يتحملها أهل مصر، هجومهم على الأمير أمس كان به قوة اليائس، وقوة اليائس تنهي المماليك في ليلة وضحاها؛ فهو يقتل وينهب ويفرض الإتاوات على التجار لحمايتهم. لو كان العامة يدفعون الضرائب لِمَ فرض الإتاوات؟ وكأن المماليك قطاع طرق وليسوا أمراء؟ أيُّ سلطان عاقل يبالغ في العنف؟! يقتل ويبتر على

الملأ، لم يترك بيتًا إلّا وقتل أحد أفراده، ولم يترك متجرًا إلّا ونهبه أمراؤه. عندما خرج العامة، أو اللصوص أو الفقراء أو المجاذيب على الأمير أمس ظانين أنه السلطان كان الموت يحاصرهم، لليأس جرأة، وللموت استهانة بدأت عند العامة. واجبي أن يبقى المماليك في حكم البلاد، ولكي يبقى المماليك لابد من التخلص من بيبرس. قبل أن تتكلموا...كان صديقي، تربينا معًا، وجئنا من نفس الخشداشية، ولكن وقت الحروب نستشير العقل وننقذ أنفسنا، أهل مصر يخرجون على المماليك ويهاجمونهم بالسكاكين.

قال أحد الأمراء مسرعًا: يقتل من فعل هذا وتقطع أطرافه أمام العامة، وندعي أنه مجنون.

فقال محمد: لا تستخف بهم، يكرهون الحروب، ويهابون المماليك؛ لأن المماليك يدافعون عنهم وينظمون حياتهم، ولو بدأ المماليك إبادتهم فماذا يتبقى لهم؟ كيف لحامي الدار أن يحرقه؟ قَتَلَ رجال الأمير المهاجمين، ولكن الحدث لا يمكن محوه من ذاكرة أهل مصر، وسيحدث غيره غدًا أو بعد غد، سيخرج شبابهم مندفعين يبغون رقاب الأمراء، ننقذ أنفسنا ولا ندس رأسنا في التراب. السلطان الأعرج أرحم على أهل مصر من بيبرس، أقول لكم مرة أخرى: كيف لحامي الدار أن يحرقه؟! لو خرج العامة يهاجمون المماليك لقتلتم كل العامة! فكروا في الأمر.

بدا الوجوم على جميع الأمراء، ثم قال بدر الدين: ما تقترحه خطير، لو أفشى أحدنا هذا السر ستقتل على الفور، تعرف يا محمد؟

فقال محمد في تأكيد: أعرف، وأنا متأكد من أن أحدًا لن يفشي هذا السر؛ فمصلحة الأمراء في عودة الناصر.

قال بدر الدين: الناصر لا يحترم المماليك.

- لن يمسهم؛ فبدونهم لا وجود له، ولم يمسهم من قبل، سيُبقي على نفوذهم وقوتهم، ولكن لا خيار لدينا، البلاد تنهار، أنتم تعرفون. لو اتفقنا وأقسمنا اليوم على الإطاحة ببيبرس وعودة الناصر لعاد نفوذنا وعادت هيبتنا؛ فلا هيبة بلا عدل، ولا نفوذ على الأموات.

- تتكلم كالعلماء هذه الأيام، اعذرني يا محمد، ولكنني أخشى من ولائك، ولاؤك لمن؟ للمماليك أم للعامة؟

قال في قوة: بغير العامة لا يوجد مماليك، تفهم هذا يا بدر الدين، أليس كذلك؟

- لم أعهدك تتكلم عنهم طوال الوقت ويهمك أمرهم ومعاناتهم.

قال محمد في تأكيد: بدر الدين.. يمكنك الرحيل ونسيان كل شيء، والإبقاء على بيبرس كسلطان، ولكن الخراب سيطول المماليك أولًا. حاولت أن أشرح لك.

ثم نظر محمد إلى المماليك وسأل في قوة: أيهمكم أمر هذا البلد؟

قالوا بلا تردُّد: نعم.

- ويهمكم أمر أهل هذا البلد.

أكدوا كلهم: يهمنا أمرهم.

فقال محمد في حسم: أنتم معي أم مع بيبرس؟

نظر الحضور بعضهم لبعض وتهامسوا ثم قالوا: نحن معك يا محمد.

قال محمد في قوة: نقسم أن نساعد الناصر على العودة، ونقسم على مقاتلة بيبرس إن لزم الأمر، نبعث بالرسائل

للناصر بالعودة وسط رجال أمراء الشام، ونتوكل على الله.

* * *

أرسل بيبرس مرسالًا لمحمد بأنه يريد مقابلته والكلام معه في موضوع مهم، وأرجأ محمد المقابلة ولم يذهب، وكان يعرف جيدًا أن قتله ينقذ بيبرس، وأن ذهابه هو نهايته. كان يحيط نفسه برجاله طوال الوقت ويتصرف ويتحرك بحذر.

وصله بعد يومين نبأ قرار القبض عليه من السلطان، وأيقن بفراسته خطة بيبرس للتخلص منه، سيقوم أولًا بإقناع رجاله بخيانة محمد للسلطان بيبرس، ووجوب انضمام الجنود لكنف السلطان. القبض على محمد أفضل من قتله بالنسبة لبيبرس؛ فالسيطرة على رجاله أسهل هكذا، والتعذيب ربما يؤدِّي إلى اعتراف واضح بالخيانة وإقناع الخشداشية بعدم جدوى الانتقام لأميرهم. من يدري؟ قرأ الأمر بسجنه ووضعه في غرفته الخاصة ولم يخبر زوجته، وأيقن عدم تحملها، بل لم يكن متأكدًا من مصيرها لو تمكن منه بيبرس. في العادة يحترم المماليك زوجات الأمراء والجنود فهم من جنسهم وبلادهم، والتنكيل بهم يغضب العلماء، ويضيع هيبة الحكام وحماة الدين، ولكن زينب ليست من جنسهم، ولن تكون منهم يومًا. ما سيفعله بها بيبرس لا يمكن توقعه، بل عين المحارب يمكن أن تتصور بعض النهايات، يسجنها ربما وهي في آخر شهر في حملها فتموت مع طفلها وتنهي سلالة الأمير وسيرته إلى الأبد، وربما يقتلها فور القبض عليه وكأنه قتل خطأ حدث من أحد الجنود الغاشمين، وربما يعطيها هبة لأحد جنوده ليذل محمدًا حيًّا وميتًا. لن يأبه بيبرس بغضب أهل مصر؛ فهو يحارب من أجل البقاء، وانتقامه ممن يريد إزالته من وجه الأرض لابد أن يأتي عنيفًا، ويقين محمد هو أن بيبرس لن يضمن بقاءه سوى

بالقضاء على محمد وسلالته معًا. من يدري ربما يقرر بيبرس أن يشق جسدها من بطنها وهي في شهرها التاسع، ليكون مصيرها عبرة لكل الأمراء والعامة، والتنكيل بالمصرية ممكن، يفعله بيبرس الجاشنكير بأهل مصر كل يوم، القسوة المطلقة تعطي درسًا وتعلم العامة والمماليك معًا. هذا الخوف يربك النفس المغامرة ويفتتها معًا.

حصَّن قصره وأشهر رجاله السيوف وهم على استعداد لمحاربة رجال السلطان في أي لحظة، ولو توخى الحذر ونشر البصاصين لن يطوله بيبرس؛ فمهاجمة قصر الأمير صباحًا أو ليلًا والدخول في حرب معه أمر خطير لن يقدم عليه بيبرس بسهولة. سينتظر حتى يخرج الأمير من القصر أو يحاول خطفه.

وكانت خطة محمد محكمة، فكر فيها طوال الشهور الماضية، والهدف يقترب وعودة الناصر ممكنة، ولكن لابد من الوقت المناسب واتخاذ كل الاحتياطات.

في هذه اللحظات الدقيقة كان محمد يغلق قلبه وعقله عنها إغلاقًا تامًّا ويتحاشاها، وينام في حجرة وحده ويفكر طوال الليل ويخطط للضربة وعواقبها؛ فلقاء المماليك في حرب بين بيبرس والناصر أمر لا يستسيغه وظاهرة لا يحبها، ولكنها ضرورية وليس منها مفر.

كان يحتاج إلى أن يبقى وحده يفكر في العواقب والخسائر. دقت على بابه بعد يومين، فأذن لها بالدخول، فقالت في رفق: محمد. هل أنت بخير؟

قال وهو لا ينظر إليها: نعم، لا تقلقي.

ترددت لا تدري أتخبره بما تشعر به أم لا، كانت تعرف أنه لا يفهم الكلام الكثير عن المشاعر والخوف، وكانت تعرف أن وحدته ضرورية له، يقدرها ويعرفها ويحتاج إليها حتى معها.

وكانت تفتقده حتى بعد يومين، وتريد أن تشاركه أفكاره وكل صراعاته، فلا هو حكى لها عما حدث بينه وبين الأمراء، ولا هو ضمَّها إليه ليلًا منذ يومين.

جلست على السرير، وقالت: اعذرني، لا أريد أن أزعجك.

قال في فتور: أنت لا تزعجينني، هل تحتاجين إلى شيء؟

همست: أحتاج إليك أنت!

قال في نفس لهجته وهو لا ينظر إليها: تعرفين أنني مشغول هذه الأيام.

قالت في رفق: لِمَ يشهر الرجال سيوفهم ليلَ نهارَ؟ هناك شيء لا أفهمه.

التفت إليها، وكانت تستجدي كلمة منه أو نظرة، ربما ترشدها إلى الطريق إلى نفسه، ثم قال في هدوء: لا تشغلي بالك بهذا، اذهبي إلى حجرتك يا زينب.

كانت تعرف نبرته الآمرة الهادئة دومًا، ولم تزل تخافها أحيانًا.

قالت: سامحني، أنتظرك عندما تنتهي من عملك.

قال وهو لا ينظر إليها: حسنًا.

اتجهت إلى الباب وتوقفت وأسندت ظهرها بيدها، وكانت تتمنى أن يناديها، واعتمادها عليه في الأيام الماضية جعلها تشعر بضعف غريب عنها، فتحت الباب وخرجت في أسى.

وليلًا وهي تنام على جنبها وتحتضن جسدها وتشعر بطفله يتحرك في أحشائها وجدته قد جاء. في صمت استلقى وراءها، وأحاط ظهرها بذراعيه، فأمسكت بيده على بطنها وابتسمت في راحة.

في الصباح نظرت إليه وهو يقوم من جانبها، ونفذت عيناها إلى عضلات ذراعيه وصدره المشدودة والمتأهبة للقتال والدماء

التي تكاد تنبثق من جسده وكأنها تتأهب للمعركة، ترددت قليلًا ثم همست في رجاء: محمد...

أشار إليها بالصمت وفهمت، واختارت أن يأتي إلى ذراعيها كل ليلة حتى لو لم يخبرها بما يحدث، ولم تود المجازفة بإغضابه اليوم.

اتجه إلى أبواب قصره، وجاءه النبأ الذي خاف من حدوثه، استطاع بيبرس القبض على بعض الأمراء ممن حضروا اجتماع محمد واستطاع أن يتمكن من خشداشيتهم، وجاءته اليوم أيضًا رسالة وكان يتمنى غيرها، كان ينتظر وصول الناصر محمد، ولكن الرسالة التي وصلته كانت من بيبرس الجاشنكير، وقف جندي بيبرس أمامه وقرأ الرسالة بشيء من التردد وهو يتوقع أن يذبحه محمد بعد قراءة الرسالة، طلب بيبرس من محمد الاستسلام والقسم بولائه للسلطان في اللحظة والتو وأمام جنوده، وإلَّا فسيأتي السلطان بيبرس نفسه إلى قصر محمد ويحاربه ويحاصره، ويحرق القصر بكل من فيه، ولا قبل لمحمد بمحاربة سلطان البلاد.

استمع محمد إلى الرسالة في صبر، ثم قال: بيبرس ليس سلطانًا للبلاد، ولا عهد لمن خان.

هزَّ جنود محمد رءوسهم بالإيجاب، فأكمل محمد: لو هاجمني بيبرس فهي نهايته، يعرف هذا، أخبره بأن في مهاجمتي هلاكه وفي حرب المماليك فناء لكل مصر، ليس أمامه سوى الاستسلام.

خرج الجندي وترك محمد يحارب حربه مع نفسه وداخل قصره، ويجازف بكل شيء كما اعتاد وكما تدرب، ولكن للمجازفة مرارة مختلفة هذه المرة، وللخسارة طعم الهلاك، لا أمل في انتصار مصحوب بالانكسار، ولا حياة مع هزيمته أو خزيه

حيًّا أو ميتًا، ففي موته اندثار، وفي حياته مهزومًا تمني الموت، وبين أسوار قصره في الروضة تسكن عائلته الوحيدة كل ما تبقى من وحدته وغربته.

مرَّ يومان آخران وهو لا ينام وعيناه على أسوار قصره في الروضة ينتظر الهجوم ويستعد له، ثم جاءه خبر أراح النفس المهمومة، بعث أمراء الشام إلى بيبرس الجاشنكير وأعلنوا ولاءهم إلى السلطان الناصر، وهددوه بأنهم مستعدون للقائه ومحاربته. في اليوم التالي جاءته الرسالة التي ينتظرها، وصل الناصر مصر وهو في طريقة إلى القاهرة مع جنوده.

استلقى بجانبها وأغمض عينيه لأول مرة منذ يومين، تركته ينام في عمق، وأحاطت هي ظهره بلا كلمة.

طوال اليومين الماضيين وهي تلاحظه ليلًا وهو مستلقٍ على ظهره وعيناه مفتوحتان ينظر إلى النافذة في صمت، لم تجرؤ على سؤاله ولا حتى لمسه دون أن يسمح لها. كانت تتظاهر بالنوم، وتحاول أن تقترب منه قدر الإمكان، ولا تجرؤ على أن تطوق جسده. اليوم عندما أحاطت ظهره لم يعترض، وعندما أسكنت جسدها داخله أيقنت معنى عذابات الحب عندما ينكل بالنفس.

نظرت إلى عينيه في الصباح، ورأت الطمأنينة تتسرب إلى نفسه.

فقالت: في الأيام الماضية كنت أتمنى أن أتعلم لغتكم، وأفهم كل ما يدور حولي وبداخلك.

قال في تأمل: لو تعلمتِ لغتنا ربما تستطيعين فهم ما يدور حولك، ولكن ليس بالضرورة ما يدور بداخلي.

قالت وقد التقت أعينهما: حصون نفسك لا يصل إليها أيُّ محارب، ولا تخترقها كلمات أو ألسنة، وكأنني أطمح في

التسرب إلى بعض أسوارها ولا أستطيع.

ربت على يدها وقال وكأنه لا يسمعها: أنت في أمان دائمًا.

لم تفهم ما يقصد.

وضعت يدها على كتفه وقالت: ماذا يقلقك؟

صمت وقد عاهد نفسه أنه لن يخبرها بالخطر الذي يقترب منها ومنه.

قالت من جديد: هل حاول بيبرس قتلك؟ اصدقني القول، وعدتني أن تصدقني القول، يحاول كل يوم، أليس كذلك؟

قال في حسم: لن يستطيع، لا يقلقني بيبرس، لن يستطيع أحد الاقتراب من القصر، لم يتبقَّ سوى القليل.

- تخاف من ولاء الأمراء؟ تعتقد أنهم سيخونونك؟

قال: لا أعتقد هذا، أخاف من حرب أهلية بين المماليك، وأكون أنا السبب فيها.

فكرت لحظات ثم قالت: تخشى أن يقاوم بيبرس ويحارب الناصر في القاهرة؟

- لو تصارع المماليك لانتهى أمر بلاد المسلمين، وينتهي أمر مصر بالذات. الصليبيون والمغول أملهم الاتحاد ودخول مصر.

قالت في تأكيد وهي تضع يدها على كتفه: ولكن بيبرس لن يحارب.

نظر إليها في ذهول فأكملت: لن يحارب، صدقني، مما تقوله عنه هو يطعن من الخلف، ولكنه لا يحارب وخصوصًا حربًا خاسرة، سيستسلم فقط ويتوقع عفو الناصر، فهو لم يقتله وكان يستطيع، سيتوقع من الناصر ألا يحاسبه وأن يعفو عنه.

أطال نظره إليها ثم قال: لِمَ كل هذا اليقين؟

- قالت: إن عين المحارب لا تخدعه.

- وأنت محاربة يا زينب؟
- ماذا تتوقع ممَّن تعيش معك؟

* * *

الفصل السابع

وصل الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة محاطًا بجنوده وأمراء المماليك، وتوقع مقابلة بيبرس في معركة مميتة، يتقاتل فيها المماليك، وكان الأمير محمد وجنوده على رأس الأمراء في مصر في انتظار وصول السلطان الناصر إلى القاهرة ومحاربة بيبرس والمماليك الموالين له.

استيقظ في الصباح في هدوء، كانت زوجته نائمة، ربت على خدها في رفق ففتحت عينيها، اقترب منها وقال في صوت خافت: زينب، اسمعيني جيدًا.

اعتدلت في جلستها وهي تبحث بين مقلتيه عن شيء يطمئن قلبها ولا تجد، نظر إلى بطنها ثم إلى وجهها وقال: سأذهب بجنودي لمقابلة الناصر محمد، وربما الحرب مع بيبرس.

ظلَّت ساكنة فأكمل: تركت نصف جنودي حول القصر.

فتحت فمها، فقاطعها: سيحمونك من أي خطر.

ثم قال في قوة: تذكري يا زينب قوتك وشجاعتك هما ما أعجباني فيك.

همست في صوت ضعيف وهي تداري رجفة خرجت من قلبها: محمد...لا تترك الجنود...تحتاجهم.

قال وهو ينظر إلى عينيها ويضع يده على بطنها: أنت تريدين

لطفلنا العيش، وأنا أريد لك وله العيش مهما حدث، هذا سيريح نفسي. تفهمين هذا؟

كانت في الثامنة عشر، وكانت تعشقه ولا تدري لو كانت هذه هي النهاية، وكانت حائرة حيرة الهائم بين ظلمات سجون القلاع لا يعرف الطريق إلى الهرب ولا يتحمل عذاب الأيام القادمة، وكانت أمًّا وكانت تحتاج إلى عرائسها الآن. وتريد البكاء كثيرًا.

قال وكأنه يفهمها: الحمل ثقيل عليك، أعرف، لو حاصر جنود بيبرس القصر لابد أن تهربي خارج مصر كلها، هذا أمر من زوجك. شمس الدين لن يخونني ولن يستطيع، سيأخذك إلى باب سري تخرجين منه وسيحرسك هو والجنود إلى حدود الكرك. ستكونين في أمان دومًا كما قلت لك، هناك اتفاق بيني وبين جنودي حيًّا كنت أو ميتًا. يعرفون، لن يخونوكِ ولن يخونوني.

فتحت فمها فقاطعها في قوة: في طريقك إلى الكرك لا تتكلمي مع الجنود ولا مع شمس الدين، ولا تسألي عني أبدًا، لا تسألي عن مصيري، وحتى عند وصولك إلى الكرك لو قال لك أحد: إنني حي وأريد أن أراك لا تعودي إلى مصر، ولو قالوا سجين لا تحاولي رؤيتي، ولو قالوا يتعذب أغلقي أذنيك ولا تصدقيهم، ولو قالوا قتل، ربِّي طفلنا بعيدًا. لا تسألي ولا تسمعي. في الكرك سيأخذك شمس الدين والجنود إلى بيتٍ ويعطونك أموالًا هي أموالي هناك، لا تسألي عن إرثك في مصر، ولا تبعثي لأحد هنا أبدًا مادام بيبرس يحكم.

قالت وهي تطبق فمها؛ حتى لا تجهش في البكاء وكل الكلمات تطمس من الذاكرة: محمد...

قال في صرامة: تقولين: إنك تحبينني، قلت هذا، لو كنت

تحبينني فستفعلين كل ما أطلبه منك، ستتصرفين بحكمة وشجاعة، لو حدث وكنت حيًّا سأجدك، ولو مت سأموت مطمئنًّا.

قالت في صوت خافت: ولو لم تذهب؟

قال في حسم: سنموت معًا لو لم أذهب، ولكنني أعرف أن شيئًا لن يحدث، ولكن لابد من التفكير في كل الاحتمالات.

أمسك بيدها وقال: أنت شجاعة دائمًا. ستنفذين أوامري؟

ظلت صامتة، وعالمها يتزلزل من حولها، والظلام نعمة لا تستطيع الوصول إليها الآن، فقال: زينب...أعرف أنك صغيرة، وأن هذه الصراعات جديدة عليك، وأنك لم تعتادي هذه الحياة، أعرف. ستنفذين أوامري كلها؟ وتتصرفين بشجاعة، طلبت مني أن أصارحك بكل شيء، لابد أن تكوني أهلًا لذلك الحمل.

قالت في ألم: لا أستطيع، لا أستطيع ألا أسأل عنك، ولا أن أتركك وأرحل.

نظر إليها في غضب، وظنت للحظات أنه سيسكب أمامها كل حنق الأيام الماضية وكل غيظه وقلقه، ولكنه تنفس الصعداء ثم قال: ستنفذين أوامري. لا تتكلمي ولا تعترضي، لا جدوى من هذا، أريد شجاعتك، وأريد الاطمئنان عليكما معًا، لا أريد أن أخرج اليوم وأنا لا أعرف مصيرك.

قالت في نفس المرارة: ولكنني أنا لا أعرف مصيرك!

- سأعود بعد الغروب، ألم تقولي: إن بيبرس لن يحارب؟ إنْ صح كلامك فسأعود، وإنْ حارب فسأنتصر وأعود، إنْ لم أعد. تنفذي كل ما اتفقنا عليه.

- لم نتفق، أنت قررت وأنت من تجازف...

قاطعها: زينب...ليس لدي الوقت الآن. ستنفذين أوامري.

التقت أعينهما فهزت رأسها بالإيجاب بعد برهة.

قال في صرامة: أقسمي الآن أمامي.

أقسمت بصوت مكتوم ورأس منتكس.

فقام من جانبها قبل أن تمد يدها لتضمه، وفتح الباب دون أن ينظر إليها وقال: سأراك بعد الغروب.

انتفضت من سريرها فقال: لا تقتربي، ولا تبكِ، إياك!

نظر إليها ثواني وإلى ذراعيها الممدودتين تستغيثان به وترجوانه، ثم خرج وأغلق الباب.

أبقت ذراعيها ممدودتين وقتًا طويلًا، ولم تستطع النهوض ولا التفكير في عواقب المجازفة والمعركة. في غضون شهور كانت أسيرته وزوجته وعشيقته وربما أرملته، وفي غضون شهور عصف بمصيرها وحياتها وفتت كل قلبها تارة بالتهديد والخوف، وتارة بالعشق والفقد، أحاطت رأسها بيديها وهي تردد أدعية وتتمنى النجاة، ولا نجاة إلَّا به، سيعود، لابد أن يعود، وإلَّا فلِمَ أبقى عليها الوباء ولِمَ لم يمزق أحشاءها ويغطي بسواده جسدها؟ سجدت وطلبت الصفح من الله، فهي لم ولن تفي بقسمها، ولا تستطيع سوى البقاء حوله ومعه مهما جازفت، وتمنت ألَّا تحتاج إلى أن تتنصل من قسمها له، وتمنت أن يعود دون أن تحارب من أجله؛ فهي تشعر بالإعياء في هذه اللحظة والغثيان، وتكره كل العمر الباقي لو كان مع سواه، لابد أن يعود.

* * *

ولكن بيبرس لم يذهب للقاء الناصر، بقي في قصره، وآثر السلم على القتال، دوت كلمات زينب في أذن زوجها، ولم يصدق أن هذه الفتاة المصرية الصغيرة تفهم كل السلاطين والأمراء، عقلها بدا أكبر بكثير من عقول كل الرجال الذين عرفهم، لم يكن يحبها ويشتهيها فقط ولكن الاحترام لها كان يزداد بداخله يومًا بعد يوم.

وعهد إليه الناصر بالذهاب إلى قصر بيبرس ومطالبته بالاستسلام، وعندما دخل محمد مع أمراء المماليك قصر بيبرس وطلب منه الاستسلام أو القتال قال في قوة وهو ينظر إلى محمد: لن أقاتل المماليك، لن أشهد قتالهم في عهدي، سلطانك هرب وترك السلطة فلا تلومني لو حاولت أن أنقذ البلاد.

- تذهب معي إلى السلطان.

- أذهب معك.

مقابلة بيبرس والناصر محمد كانت قصيرة وممتلئة بالكره والحقد. قال بيبرس في رجاء: ستعفو عني يا مولاي؛ فأنا من مماليك والدك؟

قال الناصر في قوة: أعفو عنك؟! كيف لي أن أعفو عنك؟ كنت سأعفو عنك لو أخذت كل مماليكي وكل أموالي ولو حرمتني حتى من الطعام. تتذكر يا بيبرس؟ كنت تقول لي: إن النهر منخفض والبلاد تعاني المجاعات، ولا يوجد لحم أو طيور تتذكر يا مملوك أبي؟!

قال بيبرس: أطلب العفو أمام كل الأمراء.

- كنت تقول: إن الإوز اختفى من البلاد، قلت هذا. لِمَ كل هذا الحقد؟! تعتقد لو أكلت الإوز سأحاربك؟ في الإوز سحر وقوة بالنسبة لبيبرس على ما يبدو.

ابتسم محمد ولم ينطق، فأكمل الناصر وهو ينظر إلى بيبرس: ولكنه ليس الإوز الذي كنت تريد حرماني منه، إنها الحياة بأكملها. تعتقد أنني لا أستحق شيئًا. كيف لي أن أبقيك حيًّا وأنت تعتقد أنني لا أستحق شيئًا؟ وأنت تعاملني كأنني لص وشحاذ يطلب الكثير والأموال في يده خطر على المسلمين. لو كنت مكاني ماذا ستفعل؟

قال بيبرس في تأكيد: أتقتل أمراء المماليك؟ لو قتلت أمراء المماليك فمن سيحميك؟!

قال الناصر محمد مسرعًا: أعوذ بالله من شرك يا بيبرس! أمراء المماليك من أتوا بي إلى هنا ودعموني، أقدِّرهم وأحترمهم، هم عماد الدولة. أقتل الخائن، لن أعفو عنك.

ردد بيبرس: ستقتل أميرًا من أمراء المماليك؟ أيَّ حقد ستولد بينهم؟!

- أقتل متمردًا من متمردي بلاد تحت حكمي.

ثم أمر بقتله.

اتجه الناصر محمد بن قلاوون إلى الأمير محمد وقال: محمد. أريدك نائبًا للسلطان، ما رأيك؟

قال محمد في ثبات: مولاي السلطان.. اعفُ عن المساجين من الأمراء والعامة وأهل العلم بأقصى سرعة ثم نقرر، اعفُ عن العلماء. بقاؤهم في السجن يهدم كل الدول.

- وستوافق على أن تكون نائبي؟ والدي كان أستاذك، أثق في ولائك وأخلاقك.

- دعني أفكر في الأمر.

* * *

الإفراج عن الشيخ عبد الكريم كان حدثًا مهمًّا بالنسبة للأمير محمد، وتعلقه بالشيخ كان ينبع من احترام؛ لرزانته وقوته وضميره وتعاطفه مع العامة يكمن داخل نفسه بعد زواجه من زينب، أمر بعض جنوده بانتظاره وتوصيله إلى بيته في الحارة، ووعد بزيارته قريبًا.

احتفلت القاهرة بعودة الناصر، وشعر أهل مصر أن الظلم سينكشح، وأن أمراء المماليك لم يزل بهم إنسانية ونخوة

وحب للبلاد، وأنهم ليسوا جميعًا لصوصًا ومنافقين، فيهم أصحاب المبادئ وفيهم من يخاف على هذا البلد بإخلاص. زينت الشوارع بالقناديل والأوراق الملونة، وخرجت النساء والرجال والأطفال ينتظرون مرور السلطان الأعرج العائد إلى البلاد في ذهبيته على ضفاف النيل، عمَّت الفرحة كل مصر.

وأنجبت زينب طفلًا سمَّته أبا بكر، سمته على اسم والدها الذي أعطاها كل الحب والثقة والذي لا تستطيع نسيانه أبدًا.

وبدا أن الحياة تسير على أكمل وجه، المظاليم خارج السجون، وأمراء المماليك المغتصبون في السجون بدلًا منهم، والسلطان وعد بأن يحارب الفساد، ويحد من الضرائب، ويستمع إلى شكوى العامة كل يوم اثنين بنفسه. وفي غضون شهر فقط أصبحت بلاد النيل جنة بالنسبة لأهلها، ومكانًا يزوره كل رحالة وكل عالم، وتفاءل المصريون؛ فليس لهم خيار آخر.

لم يزل محمد يفكر في ما طلبه منه السلطان، جلس ينظر إلى زوجته وهي ترضع ابنهما، ثم قال: السلطان طلب مني أن أصبح نائبه، ما رأيك؟

أذهلها طلبه رأيها مباشرة، لم يفعل هذا من قبل، نظرت إليه وقالت: ما رأيك أنت؟

- لا أعرف.

قالت في تأكيد: بل تعرف.

- ماذا تبغين يا زينب؟

قالت في قوة: ارفض.

- لماذا؟

- محمد، السلطان ناصر لن يثق أبدًا في المماليك، خانوه من قبل مرة ومرات، لن يثق بهم طوال عمره، يتحملهم لأنه لابد أن يتحملهم، ولكنه سيفتك بأي رجل يشك فيه أو يذيع صيته، هو

رجل متمرس الآن بعد كل ما حدث له ويتسم بالدهاء، لا يتصرف سريعًا، ولكنه ينتظر الفرصة؛ ليتخلص من أمير تلو الآخر لو استطاع، وخاصة من يقفون ضده أو من يذهب بين الناس صيتهم، تفهمني؟

صمت برهة فأكملت: تعرف أنني على صواب، أخاف عليك، العامة تحبك وتتكلم عنك بكل خير، مشهور عنك العدل. لو وجد السلطان أن نائبه محبوب سيقضي عليه، ولن تشفع له صداقة ولا ذكريات طفولة. في الحكم الخيانة واجب والخداع فريضة. لا تفعل يا محمد!

ظل ساكنًا ولم ينطق.

نظرت إليه ولم تكن متأكدة من منطقها، ولم تكن تعرف هل تأكيدها على الرفض جاء نتيجة خوفها عليه من السلطان أم من السلطة؛ فلو أصبح زوجها نائبًا للسلطان لابد أن يتزوج غيرها واحدة واثنتين وثلاثًا، ولن تستطيع أن تمنعه أو حتى تراه. اختلطت الأمور عليها، فلم تعد متأكدة من سبب إعطائه النصيحة، وهل النصيحة نابعة من أنانية وخوف على نفسها أم عليه أم على الاثنين معًا؟

نظر إليها من جديد وهي تهز طفلهما لينام ولم يتكلم.

وفي الصباح رفض المنصب في رفق، وقال للسلطان: إنه يفضل أن يعمل بعيدًا عن المناصب.

* * *

وفي اليوم نفسه ذهب لزيارة عبد الكريم في بيته، فاستقبله عبد الكريم بالترحاب والاحترام. جلس محمد أمامه وقال: أريد أن أبني وقفًا، وأقتطع جزءًا منه لك أنت ومن بعدك أولادك، تعلم ابنك ليصبح من العلماء، أليس كذلك؟

قال عبد الكريم: كرمك يخجلني مولاي الأمير.

قال محمد: أريدك أن تخط لي مصحفًا وترصعه بالذهب هدية لزوجتي، أريده غير كل المصاحف في مصر.

- هذا يحتاج إلى وقت.

- لا يهمني الوقت، أصبرُ.

- سنين ربما ليخرج تحفة فنية.

- أثق بك وبقدرتك، وأنتظر.

سكت محمد برهة ثم قال: يقلقني أمر الأعراب. لا يحبون الأنظمة ولا يقدِّرون السلطان، ما رأيك فيهم؟

- جئت تطلب نصيحة رجل مجهول مثلي!

- جئت أطلب نصيحة رجل وقف في وجه الظلم ولم يخف من ظلمات جب القلعة ولا خفافيش السجن.

- تثني عليَّ يا مولاي، وربما أصابُ بالغرور هكذا.

اقترب منه وقال: شيخ عبد الكريم، أنت مغرور طوال عمرك، منذ تحدَّيتَ أساتذتك، ومنذ نطقت في وقت خاف فيه كل الشيوخ، لم أزل أعتقد أن شجاعتك نابعة عن غرور كامن واعتقاد بأنك الأفضل والعالم بخبايا الأمور، ولكنك كذلك فعلًا. ربما ثقتك في محلها، تثق في نفسك يا شيخ ولا تتساءل كالكثيرين عن مكان العدل، تعرفه وتصاحبه، انصحني لأنصح السلطان.

بقي صامتًا لحظات، ثم قال: غريب أمر أهل مصر. اعتادوا الحكام وتربوا على طاعتهم، أما الأعراب فلا يؤمنون بالدول والسلاطين، حياتهم حياة بدو ورحالة، لا الأخطار تخيفهم، ولا سيوف الجنود ترهبهم، البدو يعيشون بالخطر وحوله، ربما يستطيع المماليك منع العامة من ركوب الخيل، ولكنهم لا يستطيعون منع الأعراب، فالخيل خيلهم.

- لا أريد للسلطان أن يقاتل الأعراب، لا في الصعيد ولا في

الدلتا، ولكنني أريد أن أنصحه، وأريد رأيك أولًا.

- تكلم مع شيوخهم وحاول بالحسنى، تشترون منهم خيولكم، لابد أن هناك طريقة للتفاهم معهم.

- لا أعرف لماذا يقطعون الطرق ويحرقون الحقول، وما الذي يضر المماليك في هذا؟ يضرون أهل مصر أولًا.

- والمماليك يا مولاي؛ فالمماليك يأتون بشرعيتهم من حماية أهل مصر، ولو فشلوا في حمايتهم فربما فقد أهل مصر احترامهم للمماليك.

بقي محمد ساكنًا ثم قال: لابد من التفاوض إذن.

- شيوخهم، مفتاح الحل معهم.

- شيخ عبد الكريم لم أزل أخاف عليك، ولكن حظك السعيد أن السلطان الناصر محمد عادل وحكيم، أتمنى أن يبقى في الحكم من أجل مصر ومن أجلك أنت.

ذاع صيت الشيخ عبد الكريم بوصفه شيخًا لا يخاف ظلم حاكم ولا بطشه، وكعالم وسطي يشرح للعامة ويتحدى العلماء بمنطق وبرهان، حسده الكبار، ونظر إليه الصغار في إعجاب، وبينما كان يمشي في تواضع ويطأطئ رأسه أمام الفقراء قبل الأغنياء لم تكن نفسه متواضعة، وكان يشعر أنه أعلم وأحكم من الكثيرين، وكان على صواب في الغالب.

* * *

مأساة يوسف بعد ضياع زينب منه كانت حديث الغرباء والأقارب؛ فقد كان يحلم بيوم تنام بين ذراعيه وتصبح له، ويشكر حظه ودنياه التي أعطته زينب ولا يريد غيرها. كان قليل الطموح خجولًا بطبعه، يضحك على نكات أهل مصر التي تنتقد المماليك، ويشاهد خيال الظل، ويفهم تلميحاته ويستمتع بها، ولكنه لم يكن بطبعه ثائرًا، ولم يكن يحلم سوى ببيت صغير مع

زينب، وأن يرث خان أبيه ويستمر في العمل في الحارة ومع أصدقائه الذين يعرفهم جيدًا، وبين أركان الحارة التي نشأ فيها طوال عمره. وكان يعتقد أن في الأمان الخير، وفي المجازفة كل الشرور، ولكن عندما خطف المملوك حلم عمره كله وسجنه وأذله ظلمًا تغير حاله كثيرًا. في البداية كان قد عزم أمره أن الشدة ستزول، وأن زينب ستعود له، وأن السلطان سينصفه، وعندما رأى زينب وعينيها المنكسرتين كان متأكدًا من أنها تتعذب مع الأمير. وآلمه عجزه عن المواجهة أو إعادة حقه. كان يتمنى أن تطلب مساعدته، أن تؤكد له أنها لن تنساه، ولكنها لم تفعل. خياله الخصب صور له حياتها التعيسة بين سجون المماليك والضرب بالسوط والاغتصاب اليومي. ولم يكن يجرؤ على طلب حقه علنًا، وكان يعرف أن نتيجة هذا هو الاختفاء في جب القلعة. الصبر والإحباط يسيطران على ما تبقى من أيامه وهو يفكر في طريقة لمحاربة المماليك دون الموت المحقق.

وقرر بعد عام الرحيل عن الحارة وترك أركانها الآمنة، ولكن كان يود قبل كل شيء أن يمر على الشيخ عبد الكريم الذي باع نفسه للمملوكي ولم يقل كلمة الحق.

الغضب داخله لم يكن يستطيع سكبه على الأمير ولا المماليك، ولكنه لابد أن يسكبه على العلماء؛ فهم من سمحوا لهم بالظلم ومن أعطوهم الفتاوى. الخونة المنافقون! هكذا كان يراهم.

دخل على الشيخ عبد الكريم في المسجد، كان الشيخ يجلس القرفصاء، فسلم عليه الشيخ، لم يرد له السلام، قال في غضب: لا تتكلم مع ربك؛ فلن يتقبل منك.

نظر إليه الشيخ في دهشة: ربي؟ أليس هو ربك أيضًا؟

- لا أعرف، ولكنه لن يتقبل منك، لم تقل الحق ولم تفعل

شيئًا. زوجتها بنفسك للمملوكي. لماذا؟ ماذا أعطاك في المقابل؟ وقفًا تعيش من خيره؟ بعت ضميرك يا شيخنا!

قال عبد الكريم في صبر: له في خلقة شئون، اصبر لحكم ربك يا يوسف.

قال يوسف في غضب: هذا ليس حكم ربي، هذا حكم الأمير.

- قضاء الله، وكيف لك أن تعرف أنها ليست سعيدة مع زوجها؟ ربما يرزقك الله بمن تستحق. اصبر على ما لم تحط به علمًا.

- أنا لم أحط علمًا بأي شيء، وهم يعرفون كل شيء! جعلتموهم آلهة وعبدتموهم يا منافقون!

قال عبد الكريم في صبر: أفهم ألمك، لا تجعله يسيطر عليك، لا تأخذ الأمور هكذا، كلنا بشر، اصبر على ما أصابك.

- للعامة الصبر وللمماليك جني ثمار الصبر، أيَّ نفاق وأيَّ سموم تقولها؟! كنت تعرف أنها لا تريده وزوجتها له، لم تعترض ولم تخبره.

- وإذا أخبرته كان سيقتلك ويتزوجها، لابد أن تختار معاركك وتعرف عدوك وتحاول أن تهديه. الأمير محمد ليس بهذا السوء.

- هو شيطان كسيده، عبد كبقيتهم.

- ولكنه أنقذك من ذل الصليبيين والتتار.

- أنقذني من ذل التتار ليذلني هو كيفما يشاء، يومًا سأقتله. أعدك بهذا!

- لا تكن عبدًا لأهوائك، قتله يغضب الله. ستقتل نفسًا بغير نفس؟

- بل بنفسين. أنا وزينب.

- يوسف، لا أعتقد أنها قتلت، أراها أنجبت له الولد، وستنجب الثاني، هي ليست امرأة حزينة كما تظن.

- أرغمها على معاشرته واغتصبها، ضحت بنفسها من أجلي.

- وربما تعيش معه برغبتها وباختيارها، انسها واستمر. للحروب قواعد، لا تُلقِ بنفسك إلى التهلكة.

قال يوسف في تهكم: أريد أن أسألك يا شيخ وأطلب فتواك.. في السجن دعوتُ للأمير والجندي يضع السيف على عنقي والسكين على طرف لساني، هل سيستجيب ربك لهذا الدعاء؟

قال عبد الكريم في ثبات: الدعاء لابد أن يخرج من القلب، لو خرج من قلبك، وأنت تعرف أكثر مني إذا كان قد خرج من قلبك.

- خرج من قلبي يا شيخ لأنني أريد العيش.

- ربك أعلم بالنوايا والقلوب، تسألني أسئلة فوق مقدرتي، ليس لي أن أجيبك.

- ولكنك تدعو له كل يوم، أليس كذلك؟ لماذا؟ لأنه يسلط سيفًا على رقبتك أم يغرقك بالعطايا؟ اختلط الفساد بالورع، وأصبح رجال الدين رجال النفاق والكذب.

- يكذب الإنسان ويخطئ ولا يضر الدين، لا تزج بربك الكامل في أفعال كلها نتيجة نقصان البشر، لو علم ربك في الإنسان خيرًا كاملًا لا يشوبه السوء لأبقاه في الجنة أو نشر ملائكته في الأرض وهم يمشون مطمئنين، ولكنه لم يفعل.

- المماليك هم كل السوء، ومن يحابيهم هم منافقون وكاذبون، من بين كل أهل مصر هناك من يستطيع محاربة المماليك والانتصار عليهم.

- ولِمَ الانتصار على المسلمين وعدونا يعبث في البلاد المجاورة؟!

- لا يستطيع محاربة المماليك سوى الأعراب.

تأمله عبد الكريم ثم قال: قاطعو طرق ومجرمون؛ يحرقون

الزرع ويسرقون الماشية. كيف تفكر؟ عندما تشيع الفوضى سيكونون أول من يظلمك ويقضي عليك، ليس لهم ولاء ولا نظام، كل شيء مباح عندهم.

- ويكأنك تتكلم عن المماليك!

- بل عن الأعراب، اقرأ كتاب الله؛ حتى لا يختلط الأمر عليك، الخراب لا يبني والفوضى لا تشيد المجد.

- اسأل نفسك يا شيخ لماذا يحتاج المماليك لدعاء الأسير العاجز بين حوائط السجون ومنابر المساجد، لو كانت كل القوة بين أيديهم لما حللوا طغيانهم وظلمهم؟ ولما لجئوا للشيوخليناموا ليلًا بضمير سليم، هل سألت نفسك يومًا؟ لا بأس. ابق أنت يا شيخ تحيا حول مجد المماليك، وسأنضم أنا للأعراب.

* * *

تنتقي الذاكرة لحظات وتلملمها بين راحتيها كما يلملم الطفل مياه الأنهار ليشربها من راحتيه، ويوم زيارة زوجات السلطان الناصر محمد للمرة الأولى كان يومًا لن تنساه زينب طوال عمرها.

فقد جمع لحظات الاستسلام والبوح بينهما هي وزوجها. سألته في عدم ثقة لو يمكنها أن تصنع الحلوى لزوجات السلطان، ولو يمكنها أن تأكل عند الناصر محمد فهو ليس بيبرس الجاشنكير، قال في حسم: زينب لا يتناول طعام في بيوت الأمراء والسلاطين، هذه قاعدة لا تنطبق على الأعداء فقط بل على الأصدقاء أولًا.

قالت والتوتر يبدو عليها: حسنًا.

وعندما ذهبت لمقابلة زوجات الناصر كانت تتوقع عدم الترحيب وتتوقع الشعور بالغربة، ورأت جمال الأميرات واختلاف ألسنتهم وعرقهم وجلست صامتة، وشعور بعدم الثقة يتسرب

إليها. كانت في الماضي مقتنعة بأنها أجمل وأذكى بنت في عائلتها وربما كل جاراتها، والآن تغير كل شيء، إذا كان السلطان لديه أميرة من كل بلد فكيف لزوجها أن يستمر في الاستغناء عن نساء العالم من أجلها، وإلى متى سيفعل؟ ومن تكون ليضحي بكل الأطعمة ويظلُّ يأكل هذا النوع من الطعام فقط، أليست النساء بالنسبة للأمراء كالأطعمة تفتح الشهية على الحياة لا أكثر ولا أقل؟

بل لـمَّحت لها الزوجات بحماقة الأمير في عدم البحث عن ابنة أمير من المماليك؛ ليضمن إخلاص الأصدقاء، وينام مطمئنًّا أن هناك أمراء موالين له للأبد.

واجتاحتها غربة طاغية وسط قصر السلطان، ومع أنها أنجبت الولدين الواحد تلو الآخر في غضون ثلاث سنوات من زواجهما، ومع أنها شعرت بالاطمئنان والزهو من إنجابها الذكور، وتوطيد سلالة الأمير، وخلق عائلة له وحوله بعد أن اقتلع من عائلته وبيئته، إلا أن ثقتها اهتزت اليوم كما لم تهتز من قبل.

بعد انتهاء الزيارة بدأت تشغل نفسها بالكثير من الأشياء لحين عودة زوجها، وما إن عاد حتى استقبلته بعينين منكسرتين ووجه مهزوم.

وعندما دخلا حجرتهما وجلس على السرير كانت تنظر إليه بعينين شاردتين، ثم جلست على الأرض، وأراحت يدها على ساقه، وهمست: مولاي الأمير، أنت أميري طوال العمر.

نظر إليها في دهشة ولم يرها بهذا الانكسار من قبل قط حتى وهي تطلب عفوه بعد المكوث في السجن، ولم يفهم في البداية ما يجول بخاطرها.

فأكملت وهي تمسك بيده وتقبلها: لم أكن أحلم بالزواج منك، ليس لأنك أمير من المماليك، ولكن لأنك أميري أنا.

نظرت له في انبهار وكأنه من عالم غير عالمها، وكأنه ساحر يملك كل الكنوز، وأذهلته باستسلامها ورضوخها.

قال في هدوء: ماذا حدث في زيارة زوجات السلطان؟

لم تنظر إليه، وقالت وهي تقبل يده: عرفت وفهمت كيف تضحي من أجلي، حتى لا تذلني.

فهم قصدها وصمت وهو يستمتع بلحظات الانكسار ولو لبرهة؛ فجاذبية انكسار هذه المقاتلة تغوي حتى الأحجار!

قالت مرة أخرى: مولاي الأمير، أيقنت اليوم أنني لا أستحقك، من أنا بالنسبة إليك؟! أنت كل ما أحلم به، أريد أن أقضي حياتي أنظر إليك، وأملأ قلبي من وجودك.

نظر إلى شعرها المنتشر على ساقه، وأزاح رأسها ناحيته لتنظر إليه، وقال: تعرفين، أنا أسمع «مولاي الأمير» من الجنود طوال الوقت، ولكن عندما تنطقينها أنت فلها وقع مختلف، أحب أن أسمعها منك، لرضوخ المحارب المتمرس مثلك رونق خاص ونشوة لا تضاهيها نشوة!

قالت في ثبات وهي تقبل أصابعه الواحد تلو الآخر: ولكنك أميري، وأفضل رجل في هذه البلاد، سأفعل أي شيء من أجلك يا مولاي.

ابتسم وهو يقول لنفسه ولها: أحب سماع هذه الجملة، وأنتظرها بين الحين والحين. مِمَّ تخافين اليوم يا زينب؟

قالت في تأكيد: أقسم لك إنني سأفعل أي شيء من أجلك.

-لا تقسمي، أصدقك، ولا تخافي، لا أريد غيرك، ولم أُرِدْ غيرك منذ رأيتك، بل لا أرى غيرك، مفعول السحر بالتأكيد، ولكنه سحر لا يزول بالتمائم ومرور السنين.

أغمضت عينيها وأمسكت بقدمه، وانحنت أكثر، وقبلت قدمه في بطء، ثم مرت بيدها من قدمه حتى ركبتيه، وقبلت ركبتيه

قبلات كثيرة، شعر بقبلاتها داخل حنايا وجدانه، وقالت في أسى: إذا كنت أنا محاربًا فهذا المحارب قد هزمته أنت منذ زمن.

شدَّها إليه وقال في جدية وهو ينظر إلى عينيها: زينب، لا محارب في قوتك رأته عيناي.

لم تفهم قصده.

فأكمل: بل هذا المحارب يهزمني كل يوم، غريب أمرك يا زينب، كلما بدا عليك الانكسار والهزيمة أمامي أيقنت هزيمتي أنا وتذوقتها في فمي.

طأطأت رأسها ووجهها متجهم، فقال وهو يمسك بيدها: تعرفين، كان هناك يوم نظرت إلى عينيك هاتين ورأيت حبك لي، ولم أكن قد رأيته من قبل، وكنت أعرف وكنت أتمنى، ولم أجرؤ على الاعتراف لنفسي ولا مواجهة عقلي بالتوق الصبياني لنظرات الحب في أعماقك، وعندما رأيتها ظننت أنني انتصرت وفزت ووصلت، وأن الأرض لي بحرثها، ولم أعي أنني أتقهقر وأسلم كل أسلحتي، أقرأ عينيك دومًا.

التقت أعينهما فأكمل: كان يمكن ألا تحبيني، وكنت ستعيشين معي وتخلصين لي وتطيعين كل أوامري، ولا أعرف لماذا تعنيني مشاعرك، لم تشغل بالي مشاعر النساء قط، ولم أعبأ بها.

قالت في أسى: وكم امرأة قبلت يديك؟! وكم امرأة تمنت أن تقضي ليلة واحدة معك؟! أعرف أنانيتي وطمع نفسي وأطلب صفحك؛ فقد سيطرت على كل الروح، فأصبحت أتشبث بقلبك، وكأنه غنيمتي الوحيدة، وبغيره أعود بلا سلاح يحميني ولا غطاء يكسو أطرافي التائهة. اعذرني يا مولاي واغفر لقلبي أنانيته.

مكث ساكنًا يستوعب كلماتها ويستمتع بها، ثم قال في حدة وهو يضغط على يدها: زينب، لا أريد أن أرى الخوف في عينيك.

فتحت فمها وقالت في بطء: للأيام مواسم، وللسنين فصول متعارف عليها عند أهل مصر، ولكنني أخاف من المواسم التي تأتي بغتة، فتقضي على المحاصيل وتودي بالعقول، ولو أستطيع أن أضمن السنين والمواسم، وأعرف أن حبك لن يتغير، ولن تصيبه أيام كأيام الوباء فيموت بلا مقدمات! وأن..

فقاطعها في حسم: لا أريدك أن تخافي، هذا أمر. قلت لك لا أريد امرأة غيرك ولن أريد غيرك.

انحنت وقبلت ركبتيه من جديد، وقالت: مولاي وزوجي...وحبيبي.

ثم احتضنت ساقيه ونامت عليهما ومكثت في صمت.

فقال وكأنه يتكلم مع نفسه: تعلمت وأنا صغير أن المعارك تدار بالإرادة والفراسة، ولكن الإرادة لا تصمد أمام التعذيب والبتر، لا أحد يصمد للأبد أمام التعذيب حتى ولو كان كاهنًا وعابدًا، ولا أحد يستطيع أن يمنع نفسه من الرجاء لحظات البتر، غريب أمر الإنسان، ضعيف وكسره سهل وممكن، وإرغامه على أي شيء جائز، إرغامه على الموت والرجاء والاعتراف والاستسلام، ولكن من المستحيل إرغامه على الحب.

بقيت محيطة ساقيه بذراعيها وهي لا تفهم ما يقصد.

فأكمل وهو يمر بأصابعه على شعرها: أتعرفين لماذا لا تستطيعين إرغام النفس على الحب؟ لأنك تحتاجين كل نفسك لتحبي حبًّا حقيقيًّا، هكذا قالت زوجتي، تتذكرين يا زينب؟ كنت تقولين في الحب: لا يوجد مراتب، إمَّا أن تحب بكل نفسك وإما لا تحب.

ردَّدت وهي تقبل فخذيه وركبتيه وتحتضن ساقيه أكثر: إمَّا أن

تحب بكل نفسك وإما لا تحب.

بعض قبلاتها كانت تشعل الشوق، وبعضها الآخر يوقظ الحنين، ولكن هذه القبلات الممتزجة بالاستسلام التام والخوف على الغنائم ما لبثت أن تسربت في سلاسة إلى شرايين وجوده وفتت إرادته، وتمنى ألا تدرك مدى تدحرج فؤاده ومدى شغفه الذي لم يستطع يومًا أن يدرك أسبابه ولا أن يحيط حدوده.

أكمل وهو ينظر إلى خصلة من شعرها بين يديه: من الممكن تعذيب الجسد وقتله، ولكن السيطرة على كل النفس صعب، كسر إرادة النفس جائز، ولكن فرض الحب عليها مستحيل. ولو لم تحبيني؟ كان يمكن ألا تحبيني؟

همست في شيء من الحزن: محمد، لا يمكن لأي امرأة ألا تحبك.

قال في ثبات وهو يمسك بيدها وهي لم تزل تخبئ رأسها على ساقيه: أن تحبي بكل نفسك يا زينب يعني الهزيمة إلى أبد الآبدين ولا مفر منها، تفهمين؟

هزَّت رأسها بالإيجاب في أسى، فأكمل وهو ينظر إلى يدها في يده: تعرفين هزيمتي الآن؟ أم تفهمين هزيمتك أنت فقط؟

لم تكن تستطيع أن تنظر إلى عينيه في تلك اللحظة، وكانت تعرف أن هذه اللحظات ستبقى في الذاكرة إلى الأبد، وأنهما لن يتكلما عنها مرة أخرى أبدًا، ولن يواجه أيٌّ منهما الآخر بكل الضعف والاستسلام الآن، وسوف يتنصلان من البوح والهوان.

أبقت رأسها على ساقيه بلا كلمة، وهي لا تعرف كيف تبقى على هذه الذكريات حقيقة وحيَّة بداخلها إلى يوم موتها.

كانت تعرف أن زوجها لا يتكلم عن الحب كثيرًا، ولا يحلل مشاعره، وأنه عندما تكلم عن هزيمته وحبه كان يربطهما بالحروب والتعذيب، وكان يقر حقيقة وكأنه جندي أمام قواده،

يعرف حجم خسارته وحجم انتصاراته.

أحاط خصرها، ثم حملها، فاستقرت فوق صدره، وشهقت من وهل المفاجأة، وطوقت عنقه، وهمست اسمه في لوم، ثم قالت وهي تحاول أن تطوي اللحظات وتبقيها إلى الأبد: متى رأيت الحب في عيني؟

ابتسم ومرَّ بكفه على وجنتها، وقال: للجنود أسرار في غزواتهم كما تعرفين.

- متى ستخبرني؟

- ربما لا أخبرك أبدًا.

ضربت كتفه بأصابعها في رقة وقالت في توعد: محمد!

- أين الانكسار والهزيمة؟ ولِمَ اختفيا سريعًا؟ كنت أريد الاستمتاع بهذه اللحظات أكثر من هذا.

* * *

شعرت زينب بيد أم خليل توقظها في رفق فتجاهلتها، ودفنت رأسها في الوسادة، ولكن أم خليل استمرت في النداء عليها في إصرار، فأدارت وجهها، وقالت وهي مغمضة العينين: ما الأمر؟

قالت أم خليل في صرامة: مولاي الأمير يريدك الآن.

قالت وهي تقوم في بطء وتدعك عينيها في تذمر: لماذا؟

- لا أدري، طلب مني أن أوقظك وأن تذهبي إليه الآن، وأنت ترتدين خِمارك وكامل ملابسك.

ثم مدَّت يدها ببعض الملابس الباهتة وقالت: يريدك أن ترتدي هذه الملابس.

قامت في حيرة وشيء من الخوف وفعلت ما طلبه منها، وسارت بجانب أم خليل للقائه وهي لا تعرف لِمَ لم يتكلم معها

مباشرة، ولا سبب بعثه لها بكامل ملابسها. لم تزل تهابه ولم تزل تستكشف عالمه حتى بعد ثلاث سنوات.

توقفت أم خليل لدى باب حجرة وقالت: ادخلي يا مولاتي فليس مسموحًا لي بالدخول هنا.

دخلت عليه بخطى مترددة، وكان جالسا وحوله الكثير من الأوراق وجنديان واقفان أمامه. أشار إلى الجنديين بالانصراف وأغلق الباب. نظر إلى زينب ثم قال في صرامة: اجلسي يا زينب.

جلست في بطء ثم قالت: هل حدث شيء؟ هل فعلت ما يغضبك؟

تذكرت كلامهما أمس وبوحه وضعفه، وخافت أن ينتقم منها على أنها أخرجت كل هذه المشاعر المخزية للجندي فقالت مسرعة: مولاي، هل أغضبتك؟

قال وهو لا ينظر إليها: لا، لم تغضبيني.

أزاحت الخِمار عن وجهها بعض الشيء فقال مسرعًا: أبقي الخِمار.. دائمًا.. كلما دخلت هذه الحجرة حتى لو لم يكن بها سوانا، تفهمين؟

هزَّت رأسها بالإيجاب والتقت أعينهما ثم قال: زينب كنت تساعدين والدك في حساباته، أليس كذلك؟

قالت في حماس وهي تتنفس الصعداء: نعم، تحتاج مساعدتي يا مولاي؟

ابتسم وقال: ربما، ولكن لديك طفلان الآن، هل يسمح وقتك بالعمل معي؟

قالت في حسم: وقتي كله ملكك أنت.

قام وأعطاها بعض الأوراق وقلمًا ودواة، ثم قال: لديك هنا أعداد رجالي وخيولي وكل إقطاعياتي وكل رواتب الجنود، كم

من الوقت تحتاجين لمراجعة هذه الأرقام؟

نظرت إلى الأوراق في تمعن وقلبها يخفق، ثقته بها ومعاملته لها وكأنها ليست فقط امرأة في حياته، ولكن أحد أصدقائه المقربين، وأحد مستشاريه، ربما، كانت كل ما تتمنى.

قالت: قبل صلاة الظهر إن شاء الله أنتهي منها كلها أو أقل من هذا.

- ابدئي إذن.

أمسكت بالأوراق، وبدأت مراجعة الحسابات وهو ينظر إليها بلا كلمة. بعد برهة قالت: مولاي يمكنني أن آخذها معي لو كنت تريد أن تبقى وحدك هنا.

- لا أريد البقاء وحدي، أريد أن أرى ما تفعلين، وهذه الأوراق لا تترك هذه الحجرة أبدًا.

هزَّت رأسها بالإيجاب وهي تشعر بشيء من التوتر، ثم قالت: هل يمكن أن أزيح الخِمار بعض الشيء؟

قال في صرامة: ما دمتِ أنت في هذه الحجرة لا تزيحي الخِمار أبدًا، تفهمين؟

قالت : أمرك مطاع.

بدأت في عدِّ الأرقام واستمرت بلا كلمة، غاصت في الأرقام كما كانت تفعل في الماضي، ولكن هذه المرة كانت أرقامًا أكثر تعقيدًا وأكثر صعوبة. بعد أن انتهت مدَّت يدها بالأوراق، ثم قالت: أتمنى أن أكون عند حسن ظنك يا مولاي.

أخذ منها الأوراق، ونظر إلى حساباتها برهة ثم إلى عينيها من جديد، ولاحظت ابتسامة طفيفة حول عينيه، ولكنه تظاهر بالجدية، وقال: كيف فعلت هذا؟ أيُّ امرأة أنت؟!

قالت وهي تداري فخرها: أتمنى أن أكون عند حسن ظنك.

مدَّ يده لها وقال وهو يشير إلى الأريكة: تعالي هنا، اجلسي بجانبي.

جلست بجانبه وطأطأت رأسها فقال في حسم: لو كنتِ رجلًا لكان لابد أن تكوني أنت نائب السلطان.

- لا تُثنِ عليّ يا مولاي، لا أستحق كل هذا. تدربت على الحساب فقط.

- زينب..

ثم مدَّ يده بأوراق وقال: في هذه الحجرة كلُّ حسابات مصر والشام، لو اطَّلع عليها أحد لمُتنا معًا، تفهمين؟

- أفهم يا مولاي.

- في الأوراق أرقام كثيرة لا تخص رجالي فقط، بل كل المماليك والعامة، لأضمن استمراري أنا لابد من معرفة كل حسابات الأمراء وكل حسابات مصر، للمماليك عادات أريدك أن تعرفيها، وأريدك أن تساعديني.

- أساعدك وأطيع كل أوامرك.

ابتسم وقال: تطيعين أوامري؟ هذا صعب عليك، ولكن تساعدينني، أعرف.

التقت أعينهما من جديد وفهمت ما يريد وقالت: أعطني أسبوعًا وأعطيك كل الأرقام التي تبغيها.

- وكيف أكافئك على هذا.

ابتسمت وقالت: ثقتك تسكن خوف نفسي وكل آلامها وقلقها.

هزَّ رأسه بالإيجاب وقام قائلًا: أثق بك كما لم أثق في إنسيٍّ من قبل، اتفقنا.

ثم مدَّ يده بمفتاح الغرفة وقال: مفتاحك، لا أحتاج إلى أن أقول

لك ماذا سيحدث لي ولك لو ضاع أو سرق.

هزَّت رأسها وأمسكت المفتاح من يده وانحنت بعض الشيء، وقبلت يده وهمست: هل تعرف كم أحبك؟

التفت حوله ثم انحنى وهمس في أذنيها: بل أعرف كم أحبك أنا.

ثم شدَّها وقال في صرامة: في هذه الحجرة أنت لا تعرفينني يا زينب وأنا لا أعرفك، هنا لا أحد يعرف من تكونين أبدًا. لسلامتنا معًا، بل بعضهم يعرف من تكونين، وبعضهم سيشك، وبعضهم لن يعرف أبدًا، وأنا أفضل هذا، أن يبقى الشك عند بعضهم والجهل عند الآخرين.

هزَّت رأسها في حماس، فقال وهو يتجه إلى الباب: ليس الحب فقط ما فتح لك هذه الغرفة، بل عقلك وذكاؤك ومعرفتك، عقل كهذا لابد من الاستفادة منه، ولا يشغلني لو كان في رأس امرأة أو رجل.

- يخجلني إطراؤك يا مولاي.

- أنا أقول الحقيقة فقط، لا إطراء يفيد في القتال والحروب ولا في الحسابات والدفاتر!

منذ ذلك اليوم وزينب تعرف عن مصر والشام أكثر من السلطان نفسه، وتخبئ بذاكرتها كل ميزانية بلاد المسلمين، وتقضي ثلاث ساعات يوميًّا تعمل مع زوجها، واستمر سر عملها معه بينهما هما فقط لا يعرفه حتى أولادها.

* * *

الغريب أن الناصر محمد قرر عدم تعيين نائب، بل إلغاء منصب نائب السلطان، وقرر أيضًا أن يجتمع هو بجيوش المماليك، ولا يجتمع بها نائب السلطان كما في الماضي. تنفس محمد في ارتياح؛ لأنه استمع إلى زوجته ولم يقبل المنصب، كانت لديه

شكوكه، وكان يتوجس نفس ما توجست به زينب، وبدأ يتوخى الحذر في معاملاته مع الناصر محمد، فللصداقة حدودها، ولتضارب المصالح ثمن، وللغيرة تضحيات، وفي وقت الخطر يستسيغ السلطان القسوة وينقض كل العهود. الناصر وفى بوعوده في محاربة الفساد، وعيَّن الأمير ابن الوزيري رئيسًا لدار العدل، وكان معروفًا عنه كرهه للفساد. بدأت البلاد تئنُّ من وطأة العدل المفاجئ الذي لم يعتده العامة، ومن منع الرشاوي والمحسوبيات، حتى إن التجار والمماليك بدءوا يدعون على السلطان في صلاتهم، ويلعنون اليوم الذي عاد فيه إلى البلاد ويشيعون الإشاعات والنكات عنه، ويتمنون أن يرحل من جديد، وأن تكون ولايته الثالثة فيها هلاكه. الضرب بيد من حديد مع الفاسدين والطماعين طال المماليك بطبيعة الحال، ولكن ازدهار القاهرة وحب الفقراء للناصر محمد حالا دون القضاء عليه. بعض الأمراء ندم على مساندته، وبعضهم دبَّر للتخلص منه، وبعضهم رأى فيه الحاكم العادل الذي يبغيه الجندي، ولكن الناصر محمدًا كان مهووسًا بأمنه، يعرف أنه سيعيش أبد العمر محاصرًا ومطاردًا، وأن هدفه لابد ألا يكون حكم البلاد فقط، بل درء الأذى عن نفسه.

استقرت مصر وأصبحت مصدر إلهام لكل البلاد حولها، ومرت السنون بين العسر واليسر، وأنجبت زينب لزوجها سبعة أطفال، عاش منهم خمسة: أبو بكر وعلاء الدين ونفيسة وعلية ومحمد. أصغر أطفالها هو الآن في الثامنة، وأكبرهم أبو بكر هو في الواحدة والعشرين. تزوج أبو بكر إحدى بنات أمير من المماليك مُوالٍ لوالده، وتزوج علاء الدين من أهل مصر بنت تاجر صديق لأبي زينب، وتزوجت نفيسة من تاجر من العامة، وتزوجت علية من أحد أمراء المماليك، والحب بين زينب وزوجها لا يخمد ولا يقل، بل أصبحت فاطمة تحكي لأولادها عن هذه

القصة الغريبة، وهذا المملوكي الذي غصب الفتاة على الزواج منه، ثم أحبته حبًّا لا يوصف، وعشقها وضحَّى من أجلها بكل شيء وبكل نساء العالم. قصة خارج نطاق الواقع، أو ربما هي كل الواقع بإبداعه وغرابته.

لم تزل زينب تنام بين ذراعيه كل يوم ولو مر يوم عليها وهو مسافر أو غائب لا تنام، تنتظره في قلق ولهفة.

لم تكن ترى سوى زوج ظاهره القوة والمخافة، وباطنه الرقة والحنو، وباطنه لا يراه سواها، ولا يتجلى سوى بين ذراعيها هي فقط، غزلت حبها غطاءً حوله يفترشه ليغمر كل نفسه، وكلما شعرت به يغلق نفسه عنها يومًا لأنه قلق أو غاضب مدَّت الغطاء لتلفه حوله أكثر، وتعاقب كل جزء تمرد عليها بداخله أو حاول إبعادها، ومع مرور السنين هدأ الخوف بداخلها من أن يتغير كما يتغير المماليك، أو أن يبحث عن ابنة أمير من جنسه، وأيقنت أنه لن يفعل؛ فما يربطهما صعب فهمه أو شرحه. هدأ الخوف بداخلها، ولم تهدأ آلام العشق الذي لم تكن تعرف أنها قادرة عليه، وكانت تحتاج إلى أن تسمع أنفاسه كل يوم، وتشعر بدقات قلبه، وتتأكد من سكون نفسه وهدوئها قبل النوم، وأصبح يحتاجها وكأنه لم يعرف حياته قبلها، ويتوق إلى الحنان الغزير قبل أي شيء. وأيقنت مع الأيام نقاط ضعفه وقوته، وعرفت أن ما يقلقه أكثر من أي شيء هو أي تهديد على قوته وحرثه، وكانت تستمع ساعات وتعطيه رأيها، وتعرف أسماء كل الأمراء، وكم من الخيل يملكون، وكم من الأسلحة والرجال. حفظت كل هذا عن ظهر قلب، وكانت تردده له كلما احتاج المعلومات، وكلما أراد التأكد من أنه الأقوى، كانت تعد العتاد، وتتأكد من أنه من أقوى الأمراء دومًا. لا، كانت تهتم بالقوة، ولا تعرف حياة الأمراء، تعلمت من أجله، وبدلًا من أن تحسب تجارة والدها أصبحت تعدِّد رجال كل أمير وتحسب

أملاكه، وتناقش فيها زوجها، ولم تصفُ الأيام من القلق على زوجها والخوف عليه من أمير يكيد له المكائد، وآخر يلملم أموالًا طائلة، أحيانًا كان يصيبها الهوس، وتبقى مستيقظة أيامًا تتصوره قتيلًا أو سجينًا أو معذبًا، وكان يعرف، ويشعر بها كأنها أم لظبي صغير تحيطه الأسود المتوحشة، ولم تكن تدرك قط أنه منهم ويعرفهم، وعندما يصيبها هذا الداء تصيح باسمه قبل أن يخرج صباحًا وتقبل يديه، وتطلب منه ألا يخرج، وإذا خرج تطلب أن يحيط نفسه برجاله، وتبقى طوال الليل تتقلب من اليمين إلى الشمال، ووسواس النفس يعذبها وهي تتصور حياتها دونه. في بعض الأحيان كان يهدِّئها، وفي أحيان أخرى كان يأمرها بالتوقف عن القلق في صرامة وقوة، فتكتم آلامها؛ حتى تتلاشى مع الوقت.

وأنشأ لها محمد وقفًا لها خصيصًا، وآخر لأبنائه، وثالثًا للشيخ عبد الكريم، وشرع في بناء مسجد في قرافة المماليك ليدفن فيه مع زوجته وأولاده، والشيخ عبد الكريم لم يزل يخط لزينب المصحف بخطوط الذهب الذي طلبه زوجها ليعطيه لها هدية.

وبدأ الفساد يصبح غريبًا على مصر، والعدل يسود بلاد المسلمين، وتوقفت الحروب والخراب، وأحكم الناصر محمد سيطرته طوال أكثر من عشرين عامًا إلى أن قرَّر أن يحارب فساد بعض أمراء المماليك، وهذه قصة أخرى.

* * *

هدف الناصر من محاربة فساد المماليك كان أن يحد من ثرواتهم الطائلة، وخاصة إقطاعاتهم التي بدأت تزداد عن الحد الذي يستطيع العقل استيعابه أو تقديره، ورواتبهم التي تتعدى كل أرباح التجار والحرفيين مجتمعة. صبر الناصر؛ حتى يُحكم السيطرة ثم ألقى المفاجأة على عاتق الأمراء. بعضهم ظن أنه

أصيب بمس من الجنون، وبعضهم طلب إعدامه على الفور، وبعضهم رأى في القرار مصلحة البلاد، أو لم يُبالِ بالقرار، ولكن الأمير بدر الدين الذي ساعد الناصر على العودة رأى في فعلته هذه خيانة لكل دولة المماليك، وعدم تقدير لحجم خدمتهم التي قدموها له، وأنهم أعادوه إلى العرش. ورأى بدر الدين أن الناصر فقد عقله، وأنه كان دومًا يحتقر المماليك ويخافهم، ومع ذلك فلولا المماليك لكان سيبقى منفيًّا في الكرك حتى نهاية عمره، وأن قراره يعني الجحود وعدم تقدير المسئولية، ويعني أنه تربى في رفاهية السلاطين، ولا يفهم معنى عناء المملوكي ولا تدريبه الشاق ولا ولائه الذي لا يتجزأ. قرر بدر الدين التخلص من الناصر في أقرب وقت، وتولية أخيه، أو أي سلطان يفهم أن من يستحق أن يحكم مصر هم أمراء المماليك المدربون على القتال، وأن عصب هذه البلاد هم المماليك، وألا يتحدى المماليك ولا يفرض عليهم سلطته، ولا يطمع في أموالهم. وكان لابد من خطة محكمة للتخلص من الناصر في هدوء وخاصة أن العامة تحبه، وأن الفساد بدأ يتقهقر وينتهي وتكسر شوكته، حتى بعد دعاء الفاسدين على السلطان.

اجتمع بعض العامة وبعض الأمراء على أهمية الفساد والوساطة وتأصلهما في الدولة، واتفقوا على أن محاربة الفساد تضر الكثيرين، ولا تنفع سوى الضعفاء والفقراء، والضعفاء والفقراء لن ينفعوا السلطان في دار الحياة، فسيظلون دومًا بلا صوت ولا قوة، ولن ينفع السلطان سوى الأغنياء والأقوياء، والسلطان لا يأبه بهم على ما يبدو. حربهم على الناصر محمد بدأت بضرب العملة وبث عملات مزيفة في السوق؛ فتوقفت التجارة وضاعت ثقة المصريين بالسلطان العائد بالعدل من زمن غير الزمن وتاريخ غير التاريخ، وازدادت

ريبة كل التجار، وأصبحوا لا يثقون في العملات، ويزنوها قبل أن يتعاملوا بها، وطفَّف التجار في الميزان، ووجد كل فاسد فرصة للثأر، وعلت الكلمات التي تسب السلطان وتلوم السلطان، وأصبحت مصر مستعدة لقلب نظام الحكم.

تزعم بدر الدين الحركة الجديدة التي ستطيح بالناصر للمرة التالية والأخيرة.

* * *

الفصل الثامن

رحلة يوسف مع الأعراب لم تستمر سوى عام. في بداية الرحلة شعر يوسف لأول مرة بقدرة تفوق قدرة كل أمراء المماليك مجتمعة، امتطى الجواد الذي كان مقصورًا على المماليك، وحمل السيوف المسنونة، وأصبح فارسًا بين ليلة وضحاها، وجرى ساعات بفرسه بين صحراء مصر والروح حرة وقدرة المماليك تتضاءل، والخيول ليست لهم فقط، وليست حكرًا على الجنود، ولكن طوال العام ويوسف في خصام دائم مع نفسه ومعتقداته، ومع اقتناعه في بداية الرحلة بأن هدفه هو إزاحة المماليك وكسر شوكتهم في البلاد بدأ يدرك أن غارات الأعراب على القوافل المسافرة وحرقهم حقول الفلاحيين لن تهزَّ عرش السلطان، ولن تساعده على أخذ حقه من الأمير محمد، بل لم يعد هناك فرق واضح بينه وبين المغتصب. أصبح هو المغتصب والسارق والظالم. ومع أن الأعراب كان لهم منطق وفكر، وكانت تؤكد على أهمية إذلال المماليك، وأن إذلال المماليك لن يكون سوى بالتوضيح للعامة أنهم سيعجزون دومًا عن حمايتهم وحماية ممتلكاتهم، مع كل ذلك شعر يوسف بغربة كبيرة وتوحش داخل النفس، فلم يقتنع بأن إذلال المماليك يجب أن يكون بكسر العامة وشقائهم. ومع اقتناعه التام بأن حماية المماليك زيف وسراب، وأن العامة ستقهر على يد المماليك وعلى يد الأعراب، كان بداخله يفهم

قهر المماليك ويستسيغه أكثر، فبالنسبة ليوسف، قهر المماليك محسوب ويمكن توقعه، يأتي دائمًا وقت الفقر، ويطول من يعترض أو يتكلم. أما قسوة الأعراب فكانت تطول أي رجل أو امرأة أو طفل ولا تتبع أي نظام، وكأن الظلم بنظام مفهوم ويمكن التأقلم معه.

يومًا خلال العام، وأثناء غارة على حقول الفلاحين شقَّ بسيفه أحد جنود المماليك وقتله، فصرخ زميله في نشوة، وقال في زهو: أخذتَ بثأرك يا أخي، ليت العامة كلهم في شجاعتك.

ولكن يوسف لم يكن يستسيغ القتل ولا يمارسه بانتظام. عندما استلقى على مخدعه في خيمته لم ينم، وطغت شفقته على الجندي الغارق في دمائه، وقال لرفيقه: هو ليس الأمير محمد، كيف ثأرت لنفسي؟

قال الرفيق في تأكيد: كلهم سواء، كسرتهم وأذللتهم، فلماذا تشعر بالقلق؟

طغت الشفقة على نفسه، وكأنه قابيل بعد مقتل أخيه! وصرخت النفس بيا ويلتى أعجزتُ أن أتوقف أو أفكر، ليس للقتل رجعة، ولم يعد للنفس هيبة، وإنْ لم يعف عني ربي أبق في ضلال إلى يوم الدين. كان يظن أن لحظة القتل سيمتلك قدرة تفوق قدرة كل البشر، وسيشعر بنفسه سلطانًا على العالم، ولكنه شعر بضعفه وهزيمته، ولم يصب الإشباع جسده كما وعده رفيقه من رؤية الجندي طريحًا بلا حراك.

قال رفيقه في غضب: لست رجلًا، ربما، تذكر أمراءهم، لا يترددون في القتل والنحر، أيُّ مقاتل أنت؟! تفكر في مقتل جندي من المماليك؟ كلهم يستحقون الموت؟ لو كان الجندي أمسكك لكان سيسلمك للمماليك، وكانوا سيحضرون لك

المعاصير، ويعصرون جسدك؛ حتى تفقع عيناك من الألم، وتنبثق الدماء من أذنيك.

تمتم وقد أيقن نهاية رحلته مع الأعراب: يفعل الله ما يريد، ليتني بغرورك وقدرتك أعرف من يستحق الموت ومن يستحق الحياة، لم أصِل ربما لشجاعتكم، اعذرني يا أخي.

فقال الرفيق في احتقار: تستحق أن يغتصب منك الأمير امرأتك، أنت كغيرك من العبيد، فلو اختار العبد مصيرًا بعد أن يعتقه سيده لاختار بيت سيده سكنًا، وخدمة سيده غاية.

لم يجب يوسف.

وبلاؤه لم ينتهِ، وقلبه لم يغفر. وعندما رحل عن الأعراب ترك الأموال الطائلة التي سرقها، ولم يأخذ سوى أشيائه القليلة، وترك كل مصر إلى الشام، وبدأ يعمل هناك في التجارة، ويبعث لأهله يطمئنهم بعد أن تغيب عنهم عامًا بلا كلمة أو رسالة.

في الشام استقر يوسف وقلبه لم يستقر، اشترى الجواري الجميلات، وعاش في بيت من ثلاثة طوابق، وأنجب الولد والبنت، ولم يتزوج، ولم يستطع نسيان الظلم الواقع عليه، ولا استطاع العودة لمواجهة مماليك مصر.

* * *

ابتسم الناصر محمد وهو يداعب محمدًا الصغير ابن الأمير محمد وزينب، وقال: يشبهك يا محمد، اتركه يتربى هنا في قصري مع أولادي.

قال محمد: لا أستطيع يا مولاي، والدته لن توافق.

فتح الناصر محمد عينيه في دهشة ثم قال: أراك تأخذ برأي زوجتك وتتكلم عنها على الملأ. ما بال العامة يسيطرون على المماليك؟! لم أتزوج منهم ولا أعرفهم، ولكنني لست نادمًا على هذا بعد أن رأيت حالك. محمد، كنت سأزوجك إحدى

بناتي كما فعلت مع بقية الأمراء، ولكنني أعرفك وأعرف أنك لن توافق، وأفهمك يا صديقي، وأعرف أهدافك، لا تريد لأحد المساس بما لديك ولا تهديد نفوذك، وهذا حقك وحق كل الأمراء، وأنا لا أريد المساس بهم، فقط أريد أن تبقى الثروات في حدود المعقول، تفهمني؟

قال محمد: لا تحتاج إقناعي يا مولاي، تعرفني.

- أعرفك، وأعرف أنك لن تقبل ببنت من بناتي زوجة؛ لأنك زهدت في كل النساء سواها، ولكنك لا تزهد في القوة والمجد لم تزل غايتك القوة.

- مثلي مثل غيري تربينا محاربين يا مولاي.

- تثق بقراري؟

- أثق به وفيك.

ثم نظر الناصر إلى الطفل الذي يدور بعينيه حول جنبات القصر، وقال: هل ستأكل معي اليوم؟ أنت ومحمد الصغير؟

نظر إليه الأمير محمد برهة ولم يجب، فقال الناصر: هل رأيت مني خيانة طوال الأعوام الماضية؟ أتمنى أن يصبح قصر السلطان مكانًا آمنًا لأمراء المماليك بلا خيانة ولا غدر، هل هذا ممكن في رأيك؟

- ممكن، معك أنت، ولكنك لست أيَّ سلطان.

- ستأكل معي؟

قال: سآكل معك.

- لا تخف على ابنك؟ ثقتك تعطيني الأمل في وقت ضاقت عليَّ الدنيا يا محمد.

- ولِمَ تضيق الدنيا بسلطان مصر؟

- لنتكلم في شأن بدر الدين، يدبر لي أمرًا، وصلني أنه يدبر

لي أمرًا مع بعض الأمراء والعامة.

- لا يدهشني هذا.

- يذهلني أهل مصر، أريدهم أن ينعموا بالعدل، ولكنهم يختارون التحالف مع الأمراء! أو بعضهم على الأقل.

- المصالح لا تفرق بين المماليك والعامة، أمام القوة والمال الناس سواسية وضعاف.

- لا أعرف لِمَ يكون إرضاء المماليك صعبًا على كل الأحوال، ماذا فعلتُ ليغضبوا كل هذا الغضب؟ قطعتُ من أراضيهم الشاسعة؟ ماذا في ذلك؟ مرتباتهم وأكلهم وكل شيء على السلطان، لم آخذ من حقهم شيئًا، قاضي القضاة من الأمراء، وكل رؤساء الدواوين والولاة من المماليك. لا أفهم لِمَ كل هذ الحقد في نفوسهم؟!

- ليس كلهم يا مولاي، القليل منهم.

- بالطبع تدافع عنهم.

- لا أدافع عنهم لأنني منهم، أدافع عنهم لأنني أعرفهم، ومعظمهم معك ويقدرك ويقف بجانبك، كان من المتوقع أن يثور القليل.

هزَّ رأسه بالإيجاب، ثم قال: يعزُّ عليَّ قتلهم وحبسهم؛ فهم رجال أبي ومماليك خشداشيته، ولا أريد أن أكسر هيبتهم أمام العامة. ماذا أفعل؟!

- العامة تقدر عدلك أكثر من أي شيء آخر، ولا هيبة للظلم. هات برهانك، ثم حاسب المعتدي، ولا تسجن غدرًا فتفقد ثقة كل المماليك، لابد من ثقة المماليك لتضمن أمنك ووجودك.

نظر إليه الناصر بإمعان، ثم قال: تغيرتَ يا محمد أم أنك كنت هكذا من البداية؟ لا أعرف، عهدتك في شبابك لا تأبه بالظلم ولا تتكلم إلا عن القوة. كنت تزيد من ثروتك ورجالك كل يوم،

وكلما شعرت بغيرة أحد الأمراء لملمت عتادك وأظهرت قوتك؛ حتى يرضخ من سولت له نفسه بتحديك، القوة كانت غايتك.

- لم أعد في شبابي ربما، لم تزل القوة غايتي، ولكن الحد من الإقطاعيات مشروع ومطلوب للمحافظة على المماليك والسلطان معًا. لا أريد لمصر الخراب، وفي تفشي الثراء خراب.

- بل لم تتغير طوال أكثر من عشرين عامًا، لم تزل في أوج قوتك، ولكن أهدافك تغيرت، وكأنك تتعاطف مع العامة وتقدر العدل؟ ترى من له الفضل في هذا التغيير؟ السن أم المرأة؟ لا بأس، أحتاج إلى مساعدتك من جديد.

هزَّ محمد رأسه بالإيجاب، فأكمل الناصر: لا أريد أن أثير ضغينة أمراء المماليك، ولا أن أبدو ظالمًا بالنسبة للعامة، وأعرف ما يدبر لي. لك سلطان على رجالك وعلى الأمراء، تكلم معهم، واشرح لهم ووضح لهم لماذا فعلت هذا، ولماذا قطعت من أراضيهم، وطمئنهم أنني لن أمس امتيازاتهم، وأن جنود المماليك تحمي دار المسلمين كلها من اليمن إلى الشام.

- سأفعل.

نظر إليه الناصر برهة، ثم قال: في الماضي كان لديك جاسوس عند كل أمير، تعرف عدد أسلحته وخيله وإقطاعياته، كنت أعرف وأفهم. بقاؤك يا محمد كان دومًا يعتمد على حرصك وذكائك.

قال محمد وهو يبتسم: لا تتوقع مني أن أتجسس على الأمراء لمصلحة السلطان، تعرف أنني لن أفعل.

- تتجسس عليهم طوال عمرك لمصلحتك أنت.

- للأمراء أولويات وحسابات وأنت تعرف، هناك طرق أخرى لمساعدة السلطان، ولكنها لا تتضمن التجسس.

- بدر الدين يحرض الأمراء ضدي ويريد الإطاحة بي من جديد.

قال محمد في يقين: لن يحدث.

* * *

الأمير محمد كان جنديًّا منذ انتهى به المطاف في قلاع المماليك، ولم يكن يبغي سوى القوة والنظام والاستقرار والأمان، ويهدف إلى الفتوحات والإنجازات العسكرية. منذ البداية فهمت زينب وأيقنت أهدافه، وكانت تساعده على تحقيقها لو استطاعت. رتبت كل عمرها حوله ومعه، ونفسها تبحث دومًا عن هذا الضعف الكامن بداخله لها هي بالذات، فطنتها وقراءتها جعلاها على يقين من رقة لا يراها سواها بداخل الطفل الذي فقد كل شيء وليس الجندي. أحبته بكل القوة والحياة التي تملؤها، ولأنه جندي كان في بداية زواجهما يعدد غنائم حروبه ويفهم قيمة ما فاز به، ولأنه جندي كان يقدِّر قيمة زينب؛ فهي أرض خصبة ممتلئة بالطمي والخير، ولو ضحى بها من أجل أراضٍ أخرى لا يعرفها، ولو حاول أن يجني ثمارًا أقل في أراضٍ قفراء فسيخسر غنيمته. وكان يعرف قدراته، ويعرف أنه لا يستطيع أن يخسرها، وأن حبها انغرس في أعماق وجدانه دون أن يدري، واغتصب كل روحه وجعله يرضخ بلا قدرة على المقاومة. وعقل المحارب بداخله جعله على يقين بقدرتها وحبها؛ فلم يفكر يومًا في غيرها، ولم يحتج إلى سواها. حب المرأة يعرفه، وعطاؤها ذاقه قبل زينب كثيرًا، ولكن هذا الفيضان من القوة في العشق والعطاء والقدرة على الرفض والثورة لم يعهده في أي امرأة. في الماضي لم يترك لها الاختيار، وفي الماضي لم تترك له الاختيار، كانت تصر على النوم بين ذراعيه، وذراعاها كل الأمن والاستقرار والنظام، التي يبغيها في حروبه، وكل الحنان الذي لم يعرفه ولم يستسغه وهو طفل ثم مراهق ثم رجل. أصبح ينتظر اللجوء إلى ذراعيها،

ويشتاق إلى لحظة شعوره بها رقيقة ومستسلمة له في نومها، أحيانًا كان يشاهدها ساعات وهي نائمة بين ذراعيه في سكينة، ولا يفهم لِمَ كل هذه الثقة فيه وكل هذه الغزارة في العشق؟! كانت أحيانًا لو ابتعد قليلًا أثناء نومه، أو أحست به ينظر إليها وهي نائمة تقرب جسدها منه أكثر وكأنها تريد الدخول في أعماقه وتطوق عنقه أو ظهره، وتقبض على كل الأجزاء الثائرة بداخله إلى الأبد، سيطرت على ضعف الطفل بداخله وغرور المحارب وقسوة القائد. كانت ماضيًا لم يعد يتذكره وحاضرًا لا يريده أن ينتهي. كانت كل الحب الذي لم يعطه لأحد ولم يستطع، ومجرد انطفاء عينيها أحيانًا كان يحيره وكأنه ضل الطريق. لم يزل يراها أجمل فتاة بعينيها القويتين وشعرها المتدلي على ظهرها. امتلأ جسدها بعض الشيء، وظهرت تجاعيد قليلة حول عينيها ورقبتها، ولكنه لم يكن يرى سوى هذه الفتاة التي جرت ناحيته منذ اثنين وعشرين عامًا تستغيث به بلا خجل ولا تردد. غمرته بذراعيها حتى أصبح يحتاجهما قبل القيام بأي عمل، وأرهقته بعطائها التلقائي وبغياب الحذر في مشاعرها، وبقوتها وثورتها، فأصبحت الثائر أمام الجندي لا ترهبها أسلحته، وأصبحت الزاهد أمام الأمير لا تخيفها هيبته، الرضا لم يكن دومًا غايته، كانت القوة هي أستاذه ومصدر إلهامه، ولكنه عرف وفهم بمرور الوقت قيمة وسحر الوصول وسكينة الحب، وكانت عيناها المبتسمتان هما الوصول والرضا. أيقن منذ البداية أن الرضا والسكينة لا يستحقهما أحد، وبخاصة هو، وأنها انسكبت على روحه لأنه محظوظ ومختلف عن بقية البشر.

قوتها تغمر كل من حولها، سيطرت على القصر بكرمها مع الخدم وحزمها وقت الأزمات، كانت تستمع في صبر للخادم والجندي، وتهب العطايا وتعاقب الظالم، ترك لها زمام الأمور في

القصر تركًا تامًّا بعد عدة أعوام، ولم تزل نساء المماليك ينظرن إليها في حذر واستعلاء، ولم تزل زينب تسير في طريقها في ثقة بلا أدنى تفكير في رأيهم.

بعد زواج الأبناء جمعت زوجتي أبي بكر وعلاء الدين وابنتيها نفيسة وعلية، وكانت إحداهما من أهل مصر، والثانية ابنة أمير من المماليك، ووضعت قواعد للمعاملة بينهم جميعًا، ونظامًا للأكل والشرب والمصاريف وكل شيء، وقالت في حزم: إنها لن تفرق بين زوجتي ابنيها ولا بناتها، ولن تفضل لا ابنة المماليك ولا ابنة العامة، وإنها لن تتوانى عن معاقبة من يخالف النظام حتى لو فعلت ذلك إحدى بنتيها. كانت تدير إرثها من القصر وتتبرع للفقراء، وبنت زاوية، وبنى زوجها زاويتين للمسافرين والصوفيين والفقراء يأكلون فيهما وجبتين يوميًّا. ولكن بالنسبة لزينب، كان محمد أهم من كل التجارة والأولاد وتفاصيل الحياة اليومية، لو لاحظت أن عينيه تناديها تركت العالم بفوضاه واتجهت إليه.

كانت دومًا تستمع إليه في اهتمام، وتقطب حاجبيها وهي تنظر إليه وكأنها تحاول الوصول إلى الحل، وكأنها تكره حيرته. وكان يحكي لها دائمًا ويشركها في كل شيء، ثقته بها لم يكن يحلم أن يثقها في أي امرأة أو رجل. كان دومًا يتوخى الحذر، ويفكر في المخاطر والجيش والأسلحة، ومعها كان يترك الضعف يطفو على السطح، والرقة تتسرب إلى القلب، ويلقي بكل حيرته على عاتقها، وكانت تتحمل في حب وصبر.

أحيانًا كانت القوة تنسكب من عينيها، وكانت تصر في هدوء على أن تقوم بعمل ما، أو أن يفعل الأطفال شيئًا ما ولا تخاف منه، ولا تبدي رغبة في التنازل عن رغباتها، تصمم في ثبات المقاتل على النصر.

وتعلمت سريعًا ألَّا تواجهه؛ ففي مواجهته خسارتها لا محالة، وألَّا تتحداه أو تلومه، وبدأت رحلة تهذيب النفس الممتزجة بالتجربة والفراسة، ولو فعل أي شيء لا يروق لها تفكر في هدوء، وتخطط لغزوة صامتة ومفاجأة. أحيانًا تتقي عبوسة وتتحاشاه، وأحيانًا تحاول إقناعه في هدوء بالمنطق والحساب، وكثيرًا ما تصبر وتثبت حتى تصل إلى ما تريد.

وكثيرًا ما كانت تأخذه بين ذراعيها وتدلِّلـه وكأنه طفلها، وتسكب حنانًا لم تكن تدري أنه داخلها، تضع رأسه على صدرها وتضمه، وكأنها تريد أن تذيبه داخل قلبها، وتهمس له بكم تحبه، وكيف أنها لا تستطيع أن تشعر بكل هذا التوق والحنان إلَّا ورأسه على صدرها وكأنه وليدها.

شعوره بعشقها الممتزج بكل الألوان، الألوان الرقيقة والصارخة، الهادئة والعنيفة، كان ما يجعله دومًا محاربًا يوشك أحيانًا على الهزيمة، ويذهب لاستقبالها بصدر رحب، في بعض الغزوات للهزيمة انتصارها الخاص وجمالها البراق.

ذات يوم منذ بضع سنين طلبت منه طلبًا يخص ولديها؛ فأبو بكر وعلاء الدين لم يكن لديهما موهبة ركوب الخيل ولا القدرة على تدريبات القتال الشاقة، وأخبرا والدتهما في خوف أنهما يريدان أن يتوقفا عن هذه التدريبات، وكان أبو بكر في سن الرابعة عشرة وعلاء الدين في الثالثة عشرة. كانت تعرف وقع هذا الخبر على الأب، وظلّت تفكر أيامًا كيف تفاتحه، وعندما جلست بجانبه وشرحت له في رفق أنهما ليسا جنديين، ولن يكونا مثله، وأن هذا ربما أفضل لهما؛ لأن حياته صعبة وممتلئة بالمخاطر، شعرت بغضبه ينبثق من عروقه، وظلت ساكنة وهو يقول في حسم: إن هذا غير جائز، وإنهما سيستمران في التدريبات شاءا أم أبيا!

صمتت، وبعد عدة أيام فاتحته من جديد، فرفض من جديد، وبدا لها أنه سيفقد صبره معها ومعهم. قال في حسم: لا أريد كلامًا في هذا مرة أخرى.

هزَّت رأسها بالإيجاب، وبدا عليها العبوس طوال اليوم، ولم تحاول الكلام في هذا الموضوع أو فتحه، ولكنه شعر بحاجز رقيق بينها وبينه، وكان يشعر بها، ويعرف عندما تسدل هذا الحاجز، أحيانًا يكون رقيقًا شفافًا وأحيانًا جافًّا، ولم يكن يستطيع إغضابها كثيرًا.

لم يكن يتحمل هذا الحاجز، ولا يعرف لماذا يشعر به بهذه الحساسية.

جلس بجانبها وقال على مضض: يمكنهما التوقف.

ابتسمت وربتت على يده، وقالت: لا تغضب منهما، ليس كل أبنائك مثلك، لا أحد مثلك يا محمد.

وعندما ذهب ليخمد ثورات الأعراب، ويعاقب من سرق ونهب منهم، كانت تنتظره في ترقب وتفهم أهدافه، وتعرف أن زوجها لديه ثلاثة أهداف في عمله: النظام والاستقرار والأمن. وإذا حقق هذه الأهداف الثلاثة يشعر بالرضا والنجاح، ويعرف أن البلاد ستستمر، وأن الخير والعدل سيعُمَّان على أهل مصر، ومع أنها لم تكن ترى في الأهداف الثلاثة الأهمية نفسها التي يراها كانت تذوب داخل نفسه، وتحارب معه في كل حروبه بلا تفكير ولا تردد، وتستمع في إتقان لمخاوفه من الفوضى والخراب.

بعد أعوام من زواجهما مرَّت البلاد بأزمة طائفية هزَّت القاهرة، وحُرقت الجوامع والكنائس، وكان ذلك اليوم من أصعب أيام زوجها، وكان وجهه عابسًا ونفسه محبطة، والكل يبتعد عنه في رهبة ومعرفة بأن العواقب وخيمة إلَّا زوجته، لم تبتعد ولم

تخف، وسط ذهول الأولاد من جرأة الأم دخلت الأم على زوجها ولم تفتح فمها لتنطق، بل ظلت جالسة أمامه في صمت تنظر إليه من حين إلى حين. قال بعد برهة: زينب، ماذا تريدين؟

قالت في رفق: لم تأكل ولم تنم.

قال في عدم صبر: أعرف، ولا أريد الأكل، لا تسأليني مرة أخرى.

هزَّت رأسها وظلت صامتة.

بعد برهة قال وهو ينظر من النافذة كما يفعل دائمًا: ستبقين هكذا إلى متى؟

فقالت في هدوء: تريدني أن أخرج؟

قال وهو لا ينظر إليها: لا، لا تخرجي.

طأطأت رأسها وقالت في صوت خافت: أزمة حدث مثلها من قبل، لا تقلق، هذا بلد كبير، ومن المتوقع حدوث أزمات.

لم يجب، فأكملت: أعرف أنك تكره الفوضى، ولكنك فعلت ما تستطيع، والسلطان أمر بالقبض على المُحرِّضين.

قال وكأنه يتكلم مع نفسه: هذا النوع من الأزمات أخطر من كل الحروب، وتداعياته تفوق غارات المغول والصليبيين، في زمن كزماننا والخطر يحدق بالبلاد والعدو يسحق القوي والضعيف، تختلط الأمور على العامة فلا يفرِّقون بين الصليبي والقبطي، وعندما تختلط الأمور على أهل مصر يزول عصرنا وكل العصور. الخوف يا زينب يذيب العقل أكثر من الأفيون والخمور بكثير، ووقت الهلاك يدهس القوي والضعيف. المماليك لابد أن تعي الخطر، حدث كهذا يعطي الصليبيين الذريعة للدخول وللبقاء قرونًا.

- لا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها.

لم يجب، ظلت جالسة تنظر إليه في توق وحنان، ومع أنه لم

يكن ينظر إليها كان يشعر بها وكأنها كل الحنان الذي لم يعرفه طفلًا ولم يفهمه شابًّا. قال بعد برهة: إلى متى ستبقين هكذا؟

قالت في تهكم: إلى أن تطردني، لو لم تكن تريدني.

قال وهو لم يزل ينظر إلى الأفق: لا يمكن ألَّا أريدك، تعرفين، أريدك دومًا.

وضعت يدها على خدها، ومكثت تنظر إليه وكأنها طفلة تنتظر انتهاء والدها من عمله، ثم ابتسمت وقالت: لم أزل أراك أجمل رجل رأته عيناي، تعرف؟

كتم ابتسامته وقال وهو يتصنَّع الجِدَّ: وأنت مازلت تتكلمين كالشعراء والصوفيين، أتقرئين هذه الأيام؟

- أحاول.

نظر إلى النجوم في سماء القاهرة وقال: وكأنك تتفوقين على كل الرجال في ذكائك ومعرفتك، تتكلمين كالقضاة، وتحاورين كالتجار. أيُّ امرأة أنت؟! لم أفهم كيف أصبحت هكذا.

قالت في رقة: ولكنني لم أعد أجمل امرأة. لم أعد في الثامنة عشرة.

أدار وجهه ناحيتها ثم قال: أنت أجمل مما كنت، جمالك لم أرَ مثله، قلت لك هذا من قبل، ولم أستطع حتى أن أرى غيرك منذ وقعت عيناي عليك.

التقت أعينهما فقالت في قوة: محمد.. لو حاسبت المتسبب في الفتنة في حزم وعدل وأمام الجميع فلا تداعيات، مهما كان منصبه ومهما كانت ثروته.

قال في فضول: لماذا؟

- لأن العدل كالطوفان يزيح الفوضى ويغرق الفتن، لا تتردد في محاسبة الشيخ أو القس، لو ترددت من أجل منصب المتسبب

أو تداعيات عقابه فالعواقب وخيمة.

اقترب منها وأمسك بذقنها وقال: ماذا فعلت لأستحقك؟! أنت كل غنائم الحروب مجتمعة.

أمسكت بيده وقالت: أحبك يا محمد، وأعرف أنني أقول هذه الكلمة كل يوم منذ أعوام كثيرة، اعذرني، كلما قلتها هدأت نفسي واستكانت!

ابتسم ابتسامة مفعمة بالرضا، ثم ضمَّها في حنان وقال: هذا أيضًا لا أعرف لماذا أستحقه.

لم يبادلها الكلمات ولم يخبرها بكم يحبها، ولم يفعل هذا سوى ثلاث مرات طوال السنوات الماضية، ولم تحتج إلى كلماته قط، ولكنها كانت تستدعي لحظات البوح في أوقات بعينها ويفوح العالم بالسكينة من حولها.

قالت بعد برهة: تدهشني دائمًا، لم أعهدك متواضعًا.

- لا لست متواضعًا، إنها لحظات قليلة بين ذراعيك أكون فيها إنسانًا آخر، شاعرًا أيضًا وعالمًا بخفايا نفسي.

* * *

فاطمة لم تتغير طوال العشرين عامًا، زوَّجت أولادها ومات زوجها ولم تزل تضحك وتغني في حماس، وترى من الدنيا أمواجها وزهورها وفضاءها الواسع، ولا تأبه بالمماليك ولا بالسلاطين، لم يزل عندها الأمل في أن تهرب يومًا وتعود إلى بولاق؛ لتغني في خيال الظل والموالد كما حلمت طوال عمرها، ولم تزل تلم أفراد العائلة والأصدقاء وتضرب بالدف وتغني في حماس طفولة لم تختفِ طوال العمر.

جلست وسط الدائرة محاطة ببنتي زينب: نفيسة وعلية وبناتها وزينب وكل الأصدقاء، وبدأت في الغناء ساعات، وعندما انتهت تنهدت وقالت في حسرة: لا نملك الاختيار في هذا البلد

الحزين!

جلست زينب بجانبها وابتسمت ولم تجب. فقالت فاطمة في حماس: مثلًا خالتكم هذه تزوجت من الأمير غصبًا.

فتحت بنات زينب أعينهن في دهشة ولم يتوقعن هذه الكلمات أبدًا؛ فأهل بيت الأمير محمد لديهم طابع خاص، الأمير جندي أولًا وأخيرًا وكلماته مقتضبة، ووجهه دائمًا جاد وعابس لا يبتسم إلَّا قليلًا، حتى وهو جالس مع أولاده لا يتكلم إلَّا قليلًا، ويهابه الجميع أولاده قبل بناته. ولكن كل أهل البيت يعرفون أن أحدًا لا يستطيع الوصول إلى غور الأمير سوى زوجته زينب، طوال السنوات كانت كالحاجب بالنسبة للسلطان تتوسط بين العالم الخارجي والأمير، فلم يجرؤ أولاده على طلب أي شيء منه مباشرة، كانت الأم دائمًا الوسيط، ولم يجرءوا على الاعتراض على أي قرار، كانت الأم هي أيضًا الوسيط. كيف تتعامل معه زينب؟ لم يفهم أولاده، ولِمَ كان لديها هذه القدرة على الوصول إلى نفسه؟ لا يعرف أحد، ولكنها قدرة لم تصل لها نفيسة ولا عليه مع زوجيهما. لم يفهم الأولاد طبيعة هذه العلاقة، ولكنهم فهموا من البداية أن والدهم يحمل ضعفًا في نفسه تجاه شخص واحد، وهو أمهم، ولا يحمل نفس الضعف ناحيتهم أو ناحية أي شخص أو أي شيء آخر. حاولت البنتان فهم هذا الضعف ولم تستطيعا. سألتا أمهما قبل زواجهما: ما سر قدرتها على التأثير على زوجها؟ وقالت في تأكيد: أعطيا بلا مقابل، وأحبَّا بكل أنفسكما.

لم يفهما قصدها.

قالت نفيسة في مرارة: إذا أعطت المرأة للرجل تمرد وطمع في غيرها.

ابتسمت الأم ثم قالت: الرجال أنواع يا ابنتي كالسيوف، نوع

يتحطم بين يديك، ونوع يخدعك، ونوع بارد، ونوع يبهرك فتحملقين فيه عمرك الباقي؛ لتستوعبي جماله، هذا النوع سيقدر عطاءك.

قالت نفيسة في عتاب: لِمَ لم تجدي لي رجلًا من هذا النوع؟!

- قليلون يا ابنتي، هذا النوع من الرجال لا يمكن أن تجديه، لابد أن يجدك هو.

ولم يروا والديهم يتلامسان أمامهم، رأوهما يتبادلان النظرات العميقة التي تصل إلى الروح وتلخِّص كل الكلمات، وبدا لهم أن هذه العلاقة لا تتكرر في العالم كثيرًا. بل لم تتكرر في أي من علاقات أولادهم مع زوجاتهم وأزواجهم. والمذهل هو الصداقة والتقارب الذي كان يربط بين الزوجين معًا أكثر من صداقتهما مع أولادهم الذين من دمهم. هذا أيضًا كان غريبًا. وعندما أنجبت نفيسة ابنة زينب ولدها، كانت تعشق ولدها أكثر بكثير من زوجها، وتراه قطعة من قلبها، ولكنها دومًا كانت تشعر أن أمها تحب الأمير الأب أولًا ثم أيًّا من الأولاد، وكان الأمير يفعل نفس الشيء، يبحثان عن أعين بعضهما البعض؛ ليتأكدا مما يريدان، ولا يأبهان برأي أحد غيرهما، علاقة معقدة وصعبة على الأبناء، فمع حنان الأم وعطاء الأب كان الحاجز الرقيق بين الأبناء والزوجين، وكان الفناء بين روحي الزوجين.

وعندما قالت خالتهما فاطمة هذه الكلمات فتحت نفيسة وعلية فمهما في ذهول، لا يصدقان أن والدتهما تزوجت والدهما غصبًا؛ فهو كل حياتها.

نظرتا للأم في انتظار كلماتها، فنظرت لفاطمة في عتاب ثم قالت: خالتكما تمزح، من تحلم بالزواج من الأمير محمد؟!

قالت فاطمة في تلقائية: أتفق معك. قلت لك من البداية

ملابس جنود المماليك تكفي للوقوع في حبهم، لم تصدقيني، أمك يا نفيسة حكاية، كانت تخفي عني شغفها بالمماليك، ولكنني فهمت وعرفت.

قالت زينب وهي تغير الموضوع: أكملي الغناء يا فاطمة.

إحباط فاطمة وكبت موهبتها كانا يفتتان قدرتها على العطاء والحب، فأصبحت تكره كل من حولها أحيانًا، وأحيانًا تغضب من كل العالم وكل الكره للعالم كان كما في الماضي منصبًّا على زوجها حيًّا أو ميتًا.

بعد أن انتهت من الغناء اليوم نظرت إلى محمد الصغير، وكان يرسم في تركيز، ثم قالت لزينب: يحب الرسم؟ لن يصبح محاربًا كوالده؟

قالت وهي تلتفت حولها: لا تقولي هذا، فهذا الكلام يغضب الأمير محمدًا، لم يصبح أي من الأولاد مثله، لا يستطيعون التدريب ساعات ولا حمل السلاح الثقيل أيامًا.

نظرت إليها فاطمة في خبث وقالت: تفضلين هذا؟

ابتسمت زينب: محارب واحد في البيت يكفيني.

أطالت فاطمة نظرها إلى محمد الصغير ثم قالت: يشبه والده بالضبط. يُدَللِّـه أكثر من إخوته بالطبع.

قالت نفيسة مسرعة: هو قرة عينه، لم أر أبي ينظر إليَّ هكذا يومًا، ولا لأيٍّ من إخوتي، يراقبه ساعات ولا يرفض له طلبًا.

قالت فاطمة: بالطبع يا ابنتي يشبهه بالضبط، وآخر أبنائه لابد أن يختصه بالحب.

أمسكت فاطمة الورقة من محمد، ونظرت إلى المبنى الذي رسمه بإتقان، ثم قالت: يرسم كالمحترفين، انظري.

ثم قالت لمحمد في رفق: يا بني... استمع إلى خالتك

فاطمة، لا تجعل أحدًا يحبطك أو يقتل خيالك.

- لا أفهمك يا خالة.

- تريد الرسم طوال عمرك؟

قال الطفل في يقين: أريد الرسم طوال عمري.

- ارسم طوال عمرك، وليذهب الجميع إلى الجحيم!

فتحت زينب فمها في ذهول وسط ضحكات الطفل وترديده: ارسم طوال عمرك .... ارسم طوال عمرك!

ثم أشارت فاطمة إلى أضلعه، وقالت في بطء للطفل: محمد يا بني...هنا.. في أضلعك يكمن المارد، أحيانًا يبدو قزمًا، وأحيانًا يتجلى ماردًا عملاقًا. لو تجاهلته لحرقك، وأصبحت مثل خالتك، لو نفذت كل أوامره لحقَّقت الرضا والسعادة. تفهم... مارد هنا في أضلعك...

قال الطفل في تلقائية: ولكنك أنت سعيدة يا خالتي.

قالت في حسم: لم أذق طعم السعادة إلَّا في عدة أيام هربت فيها إلى بولاق، غير هذا حياتي الجحيم بعينه، افهم كلام خالتك ولا تنسه.

* * *

كانت لحظات محمد الصغير مع أبيه لحظات ينتظرها طوال يومه، ولو مَرَّ يوم دون أن يحنو عليه والده يبقى واجمًا تائهًا ولا تلهيه أطفال ولا ألعاب.

اليوم بعد زيارة فاطمة كان يبحث عن والده في حجرات القصر والحديقة، ووجده يتفحص خيوله، فجرى ناحيته، ونظر إليه في انبهار بلا كلمة، استمر الأب في تفحص أسنان الفرس الجديد، وقال دون أن ينظر إلى ابنه وقد اعتاد خطواته الصغيرة التي تطارده: محمد... كيف حالك اليوم؟

ربط الطفل نظره بالأب وكتم خوفه من فم الفرس المفتوح وأسنانه الكبيرة وقال: بخير.

- تريد أن تمتطي جوادًا معي؟

صمت الابن وهو لا يجرؤ على أن يبوح بخوفه من الخيل ولا من هذا الفرس بالذات.

نظر إليه الأب ثم قال: لم تجب، تريد أن تمتطي الجواد معي؟

قال الطفل في تلقائية: أريد أن أبقى معك. لو أمكن.

ابتسم وانحنى على ركبتيه لينظر إلى عينيه، وقال: تخاف من الخيل؟

قال الطفل مسرعًا: لا أخاف، أقسم لك إنني لا أخاف.

- محمد، الخوف شعور يمكن ترويضه كالخيل بالضبط، أن تخاف فهذا شيء جائز، وخاصة أن تخاف ممَّا هو أقوى أو أكبر، ولكن أن تطيع خوفك؛ فهذا ما لا أريده.

قال الطفل وهو يطبق فمه؛ حتى لا تخرج الدموع من عينيه: أنا لا أخاف.

ربت الأب على صدغه وقال: لو امتطيته معي فلن يستطيع أن يؤذيك.

ثم مدَّ يده قائلًا: ستأتي معي؟

ارتجفت يد الطفل، فأخذها الأب في ثوانٍ، وحمل الطفل على ظهر الفرس وجلس وراءه، وجرى بالفرس ومحمد يكتم صرخاته قدر المستطاع وتتساقط دموعه بلا حساب، أغمض عينيه، وترك جرأة النفس تترعرع وتنطلق، ونسي لثوانٍ فم الفرس، واستقر بين ذراعي الأب.

عندما توقف الأب وأنزله من على الفرس ونظر إليه قال محمد وهو يصفر في إعجاب: أبي، أنت أشجع رجل في كل البلاد، أنا

لا أخاف من الفرس، هل رأيتني للتو وأنا أمتطيه وحدي؟

ضحك الأب وردَّد: أنت أشجع ولد في كل البلاد، ستمتطيه غدًا أيضًا؟

فكَّر الطفل قليلًا ثم قال: ربما، لا أعرف، لدي دروس غدًا، ولكنني لا أخاف، أقسم لك.

- أصدقك، كيف لابني أن يخاف؟!

ثم جرى الأب بالفرس بعيدًا، وتلاشى من الأفق.

عندما عاد محمد راكضًا إلى القصر نادى نفيسة أخته التي تتولاه كأمه، وأخبرها في فخر أنه امتطى جوادًا وحده أمام أبيه ولم يخف ولم يبكِ. ضحكت نفيسة في سخرية فقال في غضب: لا تصدقينني؟ أثنى أبي على شجاعتي بنفسه.

ردَّدت وهي تضحك: أبي أثنى عليك؟! لم يفعلها مع أي منَّا قط. ولِمَ أنت بالذات؟ سأغار منك يا محمد، ولو غرت منك لوضعتُك مع الفرس في نفس الحظيرة يومًا بأكمله.

نظر إليها الطفل في خوف وغضب، ثم قال: وأنا سأخبر أمي وأبي.

- أمزحُ معك يا أخي.

- لا أحب مزاحك، تصدقينني؟

- أصدقك، وأعرف كيف تسيطر على أبينا بكلماتك وعينيك البريئتين! من أين أتيت بهذا المكر؟!

- نفيسة، إيَّاك!

أخذت تدغدغه وهو يصرخ تارة ويضحك تارة.

* * *

كانت زينب جالسة تراجع الحسابات والدفاتر عندما دخل عليها ولم يبد منها سوى عينيها، وعيناها كانتا دومًا صديقة

دربه ورفيقة أيامه، التقت أعينهما، جلس وقال: بحثت في أمر قرار السلطان؟ كيف سيؤثر علينا وعلى الأمراء؟

قالت وهي تمد يدها بالأوراق: قرار لمصلحة البلاد مولاي الأمير كما توقعت أنت، بعض الأمراء يعيثون فسادًا، ويكنزون المال المغتصب والأراضي المسروقة، لو استمر هذا لكان نهاية السلطان وبعض الأمراء الموالين له، أنت تعرف، كان يؤرقك هذا منذ زمن.

وكانت دومًا تناديه بمولاي الأمير، وهما في هذه الحجرة وبين هذه الأوراق. قالت في تأكيد: يهمك أمر مصر دومًا، واستقرارها يعني وجود المماليك. كما أنك لا تمارس هذا الظلم مع أهل مصر، ولا يسمح لك ضميرك بأخذ الرشاوي وكنز المال المسروق واغتصاب الأراضي، فسيبقى هؤلاء الأمراء أغنى منك لو لم يقتطع السلطان من ثرواتهم؛ حتى يحد من أطماعهم وفسادهم.

قام وقال وهو يعرف ما تخفيه من كلمات: كنت أفكر في الشيء نفسه.

- ليس كل الأمراء مثلك يا مولاي، ولكن بعضهم سيتفهم، ويعرف أين مصلحة البلاد، وسيرحب بأوامر السلطان.

بدأ محمد الاجتماع بالأمراء والكلام معهم. بعضهم فهم واستوعب ووجد في عدل الناصر محمد استقرارًا للبلاد ورادعًا للأعداء، ووجد في سمعة مصر التي وصلت إلى ملوك أوروبا وحتى بابا الفاتيكان الذي قرر زيارة مصر انتصارًا لهم هم، فالسلطان من أولاد الناس، ولكنه من سلالة المماليك. وبعضهم الآخر شعر بأن هذه الخطوة والمبادرة من الناصر محمد خطيرة وبدعة لابد من صدِّها ومحاربتها؛ فاقتطاع المال أو الأرض من المماليك هو فقط البداية، وربما يأخذ منهم الإمارة نفسها،

وربما يغير النظام كله، وربما لا يوليهم المناصب، لا أحد يدري ما يدور في خلد الناصر، وكل أفعاله غير متوقعة. انقسام المماليك إلى جزأين جعل مهمة محمد أسهل إلى حد ما، وأصعب في بعض الأحيان. ومقابلات الأمراء محفوفة بالمخاطر والهلاك، فلا مأمن من سهم تائه أو سم في الطعام أو الشراب.

* * *

كان محمد واجمًا طوال العشاء، ولم يتكلم مع أبنائه ولا معها.

أغلقت زينب باب الغرفة، واتجهت إلى زوجها المستلقي على السرير، وقالت في قلق: ماذا بك؟!

أطال نظره إلى وجهها ولم ينطق.

فتسللت إلى جانبه وأحاطت رأسه، وكانت تفهمه وتعرفه، وتعرف أنه أحيانًا يغلق نفسه حتى عنها، ويعود إلى ماضٍ بعيد لا يتذكره ولا يعرف ملامحه، يعود غريبًا في بلاد تتكلم بلغة مختلفة ولها عادات مختلفة. وحيدًا وحدة موحشة وهو طفل انتزعوه من ذراعي أمه ولم يرها مرة أخرى، وكانت أمه تجهز الطعام في حماس، وتضمه إلى صدرها كلما بكى وكلما ضعف. أحيانًا يشم رائحتها، لم يعد يتذكر ملامحها، يراها وجهًا بلا ملامح ولا شعر، ولكنه يتذكر رائحتها الدافئة، مزيج من البصل والثوم والحنان والفحم والخشب. دفن الرائحة، وحاول ألَّا يعود إلى تذكرها؛ حتى لا يضعف ويتحول إلى خادم. كان لابد أن يصبح أميرًا، والأمير بلا أهل يفني نفسه كالراهب في خدمة البلاد والدين لا يفكر في أم تنتظره ولا وطن يفضله. للمماليك قدرتهم السحرية وقوتهم التي لم يصل إليها أحد لا بعدهم ولا قبلهم.

زينب... هذه الفتاة التي اخترقت الوحدة والذاكرة بنقائها وحيويتها وحبها الغزير، فاختل الميزان، وارتبك المحارب. غريب

أمر القلب يبحث عن الذاكرة بين العامة، ويترك قومه وجنوده، ولا يجد الخلاص سوى بين ذراعيها. لم يكن يستحقها، أخذها عنوة من بين حنايا الأرض، كان يحتاج إليها ولم يكن يستحقها!

وضعت رأسه على صدرها، وضمته في حنان يمتد إلى كل ديار المسلمين، وداعبت خصلات شعره وهمست: ماذا بك يا حبيبي؟

قبلت رأسه وكأنه طفلها، طوق كتفها وبقي ساكنًا، لم يحتاجا إلى الكثير من الكلمات طوال الأعوام الماضية، كانت تفهمه من نظراته وتعرفه كما لم تعرف أحدًا من قبل.

واليوم بالذات كان يحتاج إلى حنانها الطاغي وسكينتها المنتشرة حوله منذ عمر، كان يريد البقاء بين ذراعيها ونسيان العمر الطويل ووجه أمه يبتعد أحيانًا ويقترب كثيرًا.

كانت زينب تهمس في أذنه بكلمات كثيرة، وتهزه وتقبل رأسه مرات ومرات، وتربت على كتفه وتمرِّر يدها على ظهره بقوة؛ لينام ويستكين، ويعرف أن الماضي كان وانتهى، وأن الحروب لن تكون هي كل عمره الباقي، وأن بلاده البعيدة هي ذراعاها فقط، فلن تسمح له سوى بالتفكير فيها ومعها، ولن تتركه يشرد بعيدًا.

كانت تغمض عينيها وتقول بصوت رقيق: لا تقلق من أيِّ شيء، لا شيء يستحق قلقك، لا شيء يستحق عبوسك، أنت أهم من كل الكون، حبيبي.

أغمض عينيه، وأحاط كتفها بذراعيه، وكان ساكنًا يرتشف ألوان السكينة، ويشرب من الحنان الذي اعتاده سنين ولا يستطيع العيش بدونه.

بقي على صدرها برهة، ثم اعتدل في جلسته، وقال: زينب.. عليَّ القيام بعمل خطير سيغضب بعض الأمراء. أريدك أن

تعرفي، لابد أن تعرفي.

بلعت ريقها وارتجفت، وقالت في رجاء: لماذا؟

- أفعلُ ما أراه في مصلحة البلاد، الناصر محمد أفضل من حَكَمَ مصر والشام، أصبح بطل الإسلام، اسمه يتردد حتى في بغداد التي تخضع للتتار واليمن والحجاز والهند والصين، حتى ملوك إفريقيا يذكرونه بالخير. للعدل رائحة تفوح كرائحة الياسمين ولا يمكن حجبها، يأتي كالشمس ليضيء العالم، لا يمكن أن أترك المؤامرة عليه تنجح.

ظلَّت صامتة، كانت تريد أن ترجوه، أن تطلب منه ألَّا يتدخل، أن يترك السلطان يدافع عن نفسه، ألَّا يجازف بعمره وبها. ولكنها ظلَّت صامتة، تعرفه وتعرف أن كلماتها لن تجدي.

أمسكت بيده وقبلتها وهمست: لا أستطيع العيش من غيرك، محمد... لا تجازف بنفسك، ليس لي غيرك، نضجت بين ذراعيك، وعددت سِنِي عمري منذ تزوجتك.

قال في تأكيد: لن يحدث شيء، لا تقلقي.

ضمَّت رأسه إلى صدرها في قوة وقالت: سيقتلونك، تعرف هذا؟

- ربما، ربما لا، تعرفين.. وكأنني وقَّعت على وثيقة وأنا طفل أن أعيش أميرًا، وأن عمري قصير ومليء بالمؤامرات والمكائد، يوقعها كل المماليك، لو مت بسهم أو سيف أفضل لي من الموت على سرير من مرض عضال، قلت لك هذا منذ زمن، تتذكرين؟

قالت في غضب: وأنا؟ لم تفكر في؟!

قبلَّ صدرها وكان يريد أن يقبِّل أعماق القلب، وضمِّها أكثر، ثم قال في حسم: أنت كل شيء.

* * *

عندما خرج زوجها صباحًا تبادلا النظرات كما يفعلان دائمًا وابتسمت له، وما إن خرج حتى شعرت بوخز في القلب، جرت وراءه بكل قوتها، ونادته، لم يسمعها، صرخت وهي تمسك بقلبها: محمد!

نظر إليها في دهشة فقالت في رعب: معك جنودك؟ لا تخرج اليوم؟ أرجوك لا تفعل.

ابتسم ولم يكن يبتسم كثيرًا، وأمسك بيدها فقبلت يده في بطء، وقالت: ستخرج ولن تأبه بكلماتي. توخَّ الحذر.

أحاط يدها بيديه وقال: سأفعل.

ظلَّت طوال اليوم تشعر بروحها خارج الجسد، في مكان بعيد، كانت ابنتها تتكلم وتسأل وقالت: أمي. ماذا بك؟! لا تتكلمين، أنت بخير؟ أمي...

هزَّت رأسها ولم تتكلم، فأكملت نفيسة: كنت أحكي لك عن زوجي والحلي التي اشتراها لي أمس، لا يعجبني هذا العقد ول...

شرود الأم أقلقها فقالت من جديد: ماذا بك؟

رفعت يدها وكأنها توقفها عن الكلام، ثم قالت: أريد الذهاب إلى حجرتي، رأسي يؤلمني.

أغمضت عينيها، وضغطت على جفنيها وهي تردد بعض الآيات.

دقَّ الشيخ عبد الكريم أبواب القصر، وطلب مقابلتها سريعًا، وكانت تعرف وكانت تشعر. منذ الصباح.

جلس أمامها بوجه واجم وقال: الأمير!

ثم دار بعينيه إلى أولاد الأمير وهم ينظرون إليه في تركيز.

تردَّد قليلًا فقالت زينب في صوت قوي: قُتل؟

هزَّ رأسه بالإيجاب، ثم قال: لم يكن الإنقاذ ممكنًا. جاء السهم في القلب مباشرة، مات في الحال، سهم غادر، ليت القاتل الجبان واجهه وحاربه، فالأمير محارب، وكان سيحترم محاربًا مثله، ولكن القاتل فعل ذلك غدرًا، كان جبانًا ككل القتلة، قتله في المسجد بعد أن انتهى من الصلاة وهو يتفقد المصحف الذي كتبه لك يا مولاتي، نقلته الآن مع الجنود إلى حجرته. أنت سيدة مؤمنة وهذا قدر. أنا آسف أن...الأمير مات شهيدًا ومات غدرًا.

صرخت نفيسة في قوة، وعلت كل الصرخات من بنتيه وزوجات ابنيه وابنه الصغير ولم تصرخ زينب. قالت في صوت ثابت: كان يريد أن يموت محاربًا ومات محاربًا.

جرى الأولاد إلى حجرة الأب. كان مستلقيًا على سريره وعيناه مغمضتان والدماء تحيط بالقلب والوجه ساكن.

بدأ أبناؤه البكاء وتقبيل يده والصياح كم يحبونه وكم سيفتقدونه!

ظلَّت ساكنة تنظر إليه ومرارة الحلق صعبة الوصف. والتنفس بلا قيمة.

قالت في صوت لاهث: اتركوني معه!

لم يأبه أحد بكلماتها، فقالت في قوة: اتركوني معه!

خرجا في حزن، أغلقت الباب واتجهت إليه. مرت بيدها على وجهه الذي لا تتذكر حياتها قبله ولا تعرفها ولا تريدها بعده، لم يزل وجهه قويًّا جميلًا، ولكنه يبدو باردًا الآن، مرَّت بيدها على لحيته والشعيرات البيضاء المختلطة بلحيته السوداء التي لم تزده إلَّا رونقًا.

همست: محمد، حبيب العمر.

ثم قبلت فمه في قوة ووضعت رأسها على صدره وكأنها تريد

لدمه أن يصبغ أيامها القادمة كلها، ولم تشعر بدقات قلبه هذه المرة كما كانت تفعل في الماضي.

قامت ومسحت دمعتين سالتا بغتة، وفتحت الباب ثم قالت: ودِّعوا والدكم، ولا أريد نائحات ولا صراخًا وعويلًا، والدكم كان مقاتلًا ومات شهيدًا.

ولم تذرف دمعًا بعد ذلك، فحزنها كان عمقه يستعصي على الدموع، والفجوة في نفسها كان من الصعب التعبير عنها أو وصفها، انطفأت عيناها ودُفنَت روحها.

* * *

الفصل التاسع

خبر مقتل الأمير محمد أحزن الناصر محمد إلى أبعد حد؛ فالأمير لم يكن فقط أحد أعوانه القلائل الذين وثق بهم، بل كان أيضًا صديق العمر، تربى معه في قصر قلاوون، ولعب معه وعرفه طوال عمره. تغيَّر حال الناصر محمد بعد هذا الخبر، وبقي شاردًا وقتًا طويلًا في حجرته وحده لا يزور زوجاته ولا جواريه، وقرَّر على الفور القبض على الأمراء المتورطين، وعدم منح بدر الدين أيَّ فرصة. بعد القبض عليهم بدأ محاكمة سريعة، واتهمهم بمحاولة قلب نظام الحكم، وقتلهم شنقًا، ولم يخشَ غضب باقي المماليك ولا ضياع هيبتهم، وكان الكيل قد طفح، ومقتل الصديق الذي لا يكبره إلا بعدة أعوام قد أوضح حقيقة الفناء وانتهاء العمر سريعًا.

قرر الناصر أن يقضي بعض الوقت كل يوم في خلوة مع نفسه يفكر في الدنيا والآخرة، وامتنع عن لبس الحرير والحلي، وأغدق على الفقراء في أنحاء البلاد، وبدأ المؤرخون يكتبون عنه دون أن يعطيهم الهدايا، وكتبوا أنه أعظم سلاطين المسلمين، وأن عهده هو عهد الأمان والاستقرار، وأن العدل ممكن، ومحاربة الظلم فضل، وأن انتزاع الخير من أنياب الشر صعب ولكنه ليس مستحيلًا، وأن بعض المماليك كالأمير محمد، وبعضهم كالأمير بدر الدين، وأن مصر تستحق الناصر، جعلها أم البلاد مزدهرة تعج بالخير والشمس والبشر. بنى المورستان

والمدارس، وعرف ما لم يعرفه حاكم بعده أن الفناء موجود وأن الملك يزول.

طلب السلطان مقابلة أرملة صديقه وأبنائه. ذهبوا إليه جميعًا، وساد الوجوم على الجميع.

كانت زينب تمسك بيد ابنها الصغير وعيناها قد فقدتا بريقهما إلى بقية العمر.

قال السلطان في رفق: زوجك كان نعم الصديق، أقدر تضحيته.

حبست الدمعة في حلقها، وقالت: شرف لنا يا مولاي.

قال في رفق: أريد أن أكافئه، وأن أوضح للجميع أنه أفضل الأمراء.

- ادعُ له يا مولاي، فلم يعد ينفعه سوى الدعاء.

- تعرفين من قتل زوجك؟ الأمير بدر الدين هو من قتله، ولولا محمد لكنت سأكون أنا الميت الآن، هو مختلف عن الجميع.

لم تجب، اسم زوجها كان يخترق القلب ويغوي الشوق والوحشة بداخلها.

أكمل الناصر محمد: أنا قتلت بدر الدين، انتقمت لزوجك، من قتل يُقتَل.

- عدلك يعمُّ البلاد يا مولاي.

قال في حسم: ماذا يعمل أبو بكر الآن؟

- هو تاجر.

- أعطية ولاية لو استحقها، وعلاء الدين؟ يدرس ليصبح قاضيًا، أولاد الأمير محمد يستحقون كل خير، ولكن لا بد أن يثبتوا أنهم على قدر هذه المناصب. أما محمد الصغير فأتمنى أن يكبر هنا في القصر وسط أبنائي.

بقيت زينب صامتة فقال السلطان: لا تتكلمين؟ توافقين؟
- هل لي أن أرفض أمرًا للسلطان؟ ولكنني أحتاج إليه لو سمحت لي، يؤنس وحدتي ويشبه والده، يذكرني به، لو سمح كرمك.
بقي السلطان صامتًا برهة، ثم قال: نعم. قوية كما قال عنك محمد، لا بأس.
ثم قال وهو ينظر إليها: أنت أرملة أعز صديق وأفضل أمير، واجبي أن أعرض عليك البقاء في قصري والزواج من السلطان، فمحمد يستحق مني هذا.
فتح ولداها فاهَيهما في ذهول، وطأطأت هي رأسها، وقالت في صوت بطيء: شرف لا أستحقه يا مولاي، ولكن محمد لا يترك في القلب مكانًا.
قال في شيء من الدهشة: ترفضين الزواج من السلطان؟!
قالت في ثبات: إذا سمحت لي يا مولاي، سلطان بلاد المسلمين لا بد أن يتزوج من امرأة بقلب بكر وسليم، وليس من امرأة مثلي أنهكها عشق طويل، ثم نهش الموت غدرًا بقية قلبها، فأصبح كبقايا عظام وجلد ممَّا أكله السبع.
نظر كلٌّ من ولديها للآخر، وساد الصمت. أطرق السلطان ثم قال: لديك فصاحة العلماء،
ثم نظر إليها فالتقت أعينهما لحظات، وطأطأت رأسها بسرعة وقد فهمت أنه قد نظر إليها كامرأة وليس كأرملة صديقه، ودارت خوفها من قرار يتخذه رغمًا عنها.
قال بعد برهة: أقدر زوجك واختياره أكثر الآن، وأفهم لماذا خرج عن المألوف واختار زوجته من أهل مصر.
أبقت رأسها مربوطًا بالأرض، فأكمل: وأحترم قرارك يا أم أبي بكر، تتصرفين كالجندي في صرامة وقدرة على القتال، لم

يحدث منذ زمن أن أطلب طلبين من أحد ويرفضهما معًا، لا بأس، إذا احتجت أيَّ شيء أنت أو أحد أبنائك تأتين إليَّ فورًا، ولا تنتظري موعدًا.

قالت في رفق: كرمك يخجلنا يا مولاي، وعدلك ورحمتك تعمُّ البلاد.

عند خروج زينب من قصر السلطان توقفت فجأة، ونظرت لولديها وقالت في صرامة: ما حدث اليوم في قصر السلطان كأنه لم يحدث، وما سمعتماه من طلب للسلطان لا يعرفه إنسيٌّ أو جنيٌّ ولا زوجاتكما ولا أختاكما. تقسمان الآن.

نظر كل منهما حوله ثم قالا: نقسم يا أمي.

قالت في صرامة: لو وصل للمماليك أو العامة أن أيَّ امرأة رفضت طلب الزواج من السلطان ستكون نهايتكما أنتما قبلي.

أقسما في وجوم.

ثم تساقطت الدموع من عيني محمد الصغير بغزارة فجأة وهو يمسك بيد أمه ويسير بجانبها، فتحاشت عينيه وقالت: محمد الرجل لا يبكي، هكذا قال والدك، كان في سنك عندما سافر إلى بلاد لا يعرفها، وترك أهله للأبد بلا وداع وصنع مجده بيديه، أصبح أميرًا ليس لأنه ابن سلطان بل لأنه محمد، أريدك مثله، سمَّيتك على اسمه لأنك تشبهه، تذكره دومًا ولا تبكِ، فلا بكاء يضاهي فقده، ولا دموع تساوي وحشة العيش بعده.

* * *

تحسَّست مخطوطة القرآن المرصعة بالذهب التي طلب زوجها نسخها هدية لها، كانت تشعر بالحروف البارزة اللامعة بأصابع مرتجفة فقال عبد الكريم: كان يريد أن يعطيها لك منذ زمن...أعوام... تأخرتُ في نسخها، اعذريني، تأخرتُ أكثر من عشرين عامًا، ولكنني أعطيها لك الآن كما كان يريد.

انحنت وقبلت المصحف وتمتمت بكلمات وأدعية لم يسمعها الشيخ، ولكنه كان على يقين من أنها تدعو للأمير، وتدعو الله أن تلقاه أيضًا.

ونظرت إلى السبيل والمسجد، وإلى وجه الشيخ عبد الكريم الذي يبدو واجمًا اليوم بعد وفاة الأمير، ثم قالت: أريد للمصحف أن يبقى في مسجده، وأريد للسبيل أن يسقي كل الفقراء، كان يقِّدرُك يا شيخ.

قال الشيخ عبد الكريم في حسم: كان أفضل أمير رأته مصر.

قالت في قوة: أوصى لك بوقف ولأبنائك من بعدك، أريد زيارته كل يوم جمعة، وأريد أن أدفن معه في هذا المسجد.

* * *

قالت فاطمة في رفق: زينب، زوجك مات منذ عام، ألا تفكرين في الزواج؟ أنت ما زلت في الأربعين، لِمَ لا تتزوجين؟

قالت في حسم: لا زوج لي بعده.

- تعرفين من سأل عنك أمس؟ يوسف، يريد الكلام معك مرة واحدة، يظن أنه يستطيع إقناعك بأن العمر لم يزل به بقية، قال: إنه لم يزل يريدك، وأنك حبه الوحيد، وأنه لم يزل يريد الزواج منك. تعرفين أنه لم يزل يحبك؟ لم ينسكِ قط.

ابتسمت في أسى وقالت في رفق: هل تمزحين يا فاطمة؟ قلت لك لي زوج واحد، جندي ومقاتل، ولا أستطيع التفكير في غيره. لا يوجد مقارنة بينه وبين غيره.

- ولِمَ البقاء وحيدة؟

- لست وحيدة، معي أبنائي جميعًا، لست وحيدة، لي عملي وتجارتي، والأهم من كل هذا أنه معي ولن يتركني.

فتحت فاطمة فمها، فقالت زينب في صوت قوي: ابنة خالتي،

هناك نوع من الرجال لا تستطيع المرأة نسيانه أو المقارنة بينه وبين غيره، كالأمراض المستعصية، كالوباء تقتل بلا رحمة وتذيب النفس بلا رادع. محمد لم يترك في قلبي جزءًا يصلح لغيره، مات كل القلب بعد موته، هذا الرجل يتمكن منك كلَّ التمكن. ماذا أقول، لم تقابلي مثله، أليس كذلك؟

- لا لم أقابل مثله.

- لا أعرف هل هذا من سوء حظك أم من حسن حظك، يشبه أبا بكر في شخصيته ومحمدًا الصغير في شكله، أولاده مثله، شخصيتهم صعبة وقوية. محمد يا فاطمة كالجني أخذني في جبه وأنا طفلة، وأخرجني من جبه أميرة الكون، أعطاني كل شيء، وترك القلب مهشمًا من دونه.

وقع رفض زينب القاطع ليوسف، أربك كل أحلامه وأفكاره، لم يتوقعه، ولم يكن في الحسبان، توقع أن زينب كانت تتعذب وهي مع الأمير، وأنها لم تنسه قط كما لم ينسها؛ وأن طغيان المماليك لا بد أن يقف حاجزًا بينها وبين حب الزوج الذي طغى وظلم وهدَّد وسجن. كيف فعلت هذا به؟ لم يستوعب ولم يصدق، حاول من جديد أن يقابلها، وأرسل لها الرسائل، وفي كل مرة كانت تجيب نفس الإجابة وبنفس الصرامة.

أحبته! أحبت الأمير المملوكي؟ هل يمكن لزينب أن تخونه هكذا؟ أم أنه قضى عمره في سراب ولم يستطع الفهم أو التأمل. وكأنه لم ير ولم يستوعب، وكأن العمر الضائع ضاع بلا هدف بين شرود وضلال وعبث وفناء. كيف لم يلاحظ؟ لم تطلب الطلاق قط، عاشت اثنين وعشرين عامًا مع الأمير المملوكي، أنجبت واستقرت، لا سألت عنه ولا اهتمت بأمره. خائنة إذن وليست فقط مرغمة، سيعود إلى الشام ويحاول الفهم، ولكنه اعتاد البحث والانتظار، وأصبح العمر بلا معنى ولا غاية بعد هذه

النهاية.

سار في طرقات القاهرة بين زوايا وخانقات بناها أمراء المماليك، وفي كل زاوية يلجأ الصوفي والحائر والذي يبحث عن الطريق. دخل إحدى الزوايا، وكان بها خادم يقدم الطعام في حماس، أعطاه طبقًا من الطعام وقال: خذ طعامك يا رجل.

أطال نظره للخادم ثم قال: من الأمير الذي بنى هذه الزاوية؟

فقال الخادم: الأمير محمد بن عبد الله المحسني رحمه الله.

نظر يوسف لقطعة اللحم التي كان ينوي أن يضعها في فمه وكأنها قطعة من لحمه هو، ثم قال في حسم: وكيف تساعده الزاوية؟! والله لو أطعم كل القاهرة سيحرق في نار جهنم هذا المغتصب الظالم.

فتح الخادم عينيه في غضب، ونظر الحاضرون ليوسف، ثم بدءوا يدفعون به خارج الزاوية وهو يسب ويلعن، والغضب بداخله لم يختفِ ولم يهدأ.

كان يلاحظ الشيخ عبد الكريم من بعيد ويشهد ذيوع صيته وشهرته، ولجوء العامة إليه عندما تواجههم أيٌّ مشكلة أو أزمة. وبعد أن اكتشف يوسف أنه أضاع العمر في ضلال وتمرد على القدر قرر زيارة الشيخ مرة أخيرة. لا يدري ليوبخه من جديد أم ليطلب مساعدته.

جلس أمامه والشيخ ينظر إليه في تركيز، وحكى له عن كل رحلته مع الأعراب وفي بلاد الشام، ثم قال: ولِمَ ينتصر الشر في النهاية؟

ابتسم الشيخ وقال: لا يعلم القلوب إلَّا الله، ولا نعرف تحديدًا أين يكمن الخير داخل البشر وأين يكمن الشر.

قال يوسف في يقين: لن يغفر الله له، لو فتح مئة زاوية ما غفر الله للمملوكي ولا لكل المماليك. الله لا يحب الظلم، أليس

كذلك يا شيخ؟

قال عبد الكريم في هدوء: له في خلقه شئون. قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا). ربما لم تغفر أنت، ولكن الله غافر الذنب، قابل التوبة.

قال في حسم: لا تطلب مني أن أغفر. لم أغفر، ولم يطلب مني أحد أن أغفر وأسامح.

قال عبد الكريم: سعيد أنت في حياتك الآن بعد أن عرفت الحقيقة، وأيقنت أن زينب لم تكن مغصوبة على البقاء مع الأمير؟!

قال يوسف في بطء: وكأنني لا أعرف طعم الرضا ولا طعمًا للعيش.

ربت الشيخ على كتفه وقال: كيف لي أن أساعدك؟ الوصول إلى الرضا يحتاج جهادًا وصرامة مع النفس، ويحتاج مشقة وعملًا ولن يساعدك فيه أحد، لا أنا ولا غيري.

قال في أسى: أحاول. عندي الولد والمال، ولكنني لا أريد شيئًا.

- كيف تحاول؟

- أصلي وأزكّي وأصوم وأفعل كل ما أستطيع، أستغفر لذنوبي أيضًا. ماذا بيدي أن أفعل؟

- كل الطقوس سهلة ومريحة، ولكنها ليست المراد، هي الوسيلة للمراد، هو عمق جهاد النفس الذي تحتاجه. ابحث بداخل نفسك عن الرضا، والرضا لا يأتي بالولد والمال ولا بالمرأة الجميلة. تعد غنائمك الرخيصة وتنسى الأهم.

- وما هو الأهم؟

- هذا ما تحتاج الوصول إليه، الضلال هو البحث بين الفناء عن

الرضا، والرضا من سمات الخلود وليس الفناء. الرضا من صفات الجنة، وكل ما تملكه من صفات الدنيا الفانية. كيف تصل إلى شعور من صفات الجنة عن طريق مغانم الدنيا؟!

- لا أفهمك يا شيخ.

- ولكنني لا أستطيع شرح هذه الكلمات.

ابحث وافهم واقرأ وحقق الوصول.

* * *

بعد عامين من موت الأمير محمد ماتت زينب بداء الكلى في عام ألف وثلاثمئة وأربعة وعشرين ميلاديًّا، وكانت في الثانية والأربعين أو أقل.

بدأت تعاني من الداء في حياة زوجها، وبعد مولد محمد الصغير بعدة أعوام، ولم يكن من طبعها الصراخ والشكوى، وعندما اشتد عليها الألم يومًا بقيت في مخدعها تمسك بظهرها ولا تتأوه، ولم يلاحظ أيٌّ من أبنائها مرضها، حتى جاء زوجها، وما إن نظر إلى عينيها حتى أرسل لطبيب السلطان اليهودي ابن كوجك، وجلس بجانبها يمسك بيدها ساعات بلا كلمة في انتظار الطبيب، وعيناه تراقبان عينيها الباهتتين في تركيز.

أشار للطبيب بالدخول، ثم قال له في صوت حاسم تتذكره جيدًا: لك ما تطلب، أي شيء، لا أريدها أن تتألم ولا أن تموت.

قال ابن كوجك في بطء: الموت لا يخاف من بطش الأمراء مولاي، اعذرني لا تطلب مني ما ليس بيدي.

قال محمد في تصميم: ولكنها ستعيش!

- سأفعل كل ما بوسعي، ولكن أتمنى أن تعرف اتفاقي مع السلطان يا مولاي، في دينكم وديننا العمر بيد الله، لا تبطش بي لو لم تعش، ولا تبطش بي لو زاد ألمُها، ولا تحملني ما لا أطيق، حتى أستطيع أن أتقن عملي هكذا قلت للسلطان

وهكذا أقول لك.

قال محمد في شيء من الرجاء: فقط افعل ما بوسعك، ولك كل ما تطلب.

ثم أكمل في لهجته الآمرة: ولكن لا بد أن تعيش.

ابتسمت حينها من بين آلامها وهي تتوقع نبرته الآمرة، وأذهلها الرجاء في صوته أيضًا، لم يزل صوته يملأ الأذن والروح.

أعطاها الطبيب بعض الأفيون عندما بدأت تتأوه من آلام الداء غير المحتملة، وبقيت تهذي طوال الليل.

قالت نفيسة لوالدها في استحياء: أنا أبقى معها.

ولم يكن من عادة الرجال البقاء مع زوجاتهم المريضات، خاصة إذا كانوا أمراء، ولكن محمدًا أصر على البقاء معها طوال الليل، وهي تهذي وتناديه وسط ذهول ابنتيه، طرد الخدم والأولاد بعد برهة وبقي وحده معها، وأخذها بين ذراعيه وتمتم في أذنيها بكلمات لم تتذكرها، ولكنها كانت تتذكر لمساته التي حاربت كل الآلام. في الصباح كانت في حال أفضل، وكتمت آلامها الطفيفة، واستمرت ورأت القلق والخوف في عينيه لأول مرة في حياتها وهو ينظر إليها، فقالت في صوت خافت وهي تقوم: أنا بخير. أقسم لك.

قال في حسم وهو يدفع بها برفق إلى الوسادة: ولكنك لن تقومي، لن تتحركي إلَّا إذا سمحت لكِ.

ابتسمت وقالت في استسلام: كما تريد يا مولاي الأمير، أنفذ كل أوامرك دومًا.

أمسك بيدها في قوة وقبل جبهتها وقال: لا تنفذيها أبدًا، ستكونين بخير، سيحضر الطبيب اليوم أيضًا وكل يوم حتى أطمئن عليك.

تذكرت واشتاقت، وابتلعت الدموع التي لم تتساقط منذ

وفاته، وأيقنت أنها النهاية، وأيقن أولادها أنها النهاية، تجمعوا حولها يبكون، فأوصتهم بوقف الشيخ عبد الكريم، وبالمدرسة، والسبيل، والزوايا، وبالجامع الذي أنشأه والدهم، وطلبت منهم أن يبقوا على المصحف داخل الجامع دائمًا، وأوصت أن تدفن معه في الجامع كما خططا وكما اتفقا، وطلبت سيفه بجانب جسدها في مدفنها، ونامت في تمنٍّ ورجاء بلقاء آخر وظروف أفضل وعمر بلا غدر ولا طمع.

حضر السلطان نفسه عزاء زوجة صديقه، وطلب من جديد من أبي بكر أن ينضم محمد إلى كنفه يربيه مع أولاده وكان محمد في العاشرة. وافق أبو بكر على الفور على طلب السلطان وتربى محمد مع أبناء السلطان.

* * *

عندما خرج يوسف بعد مقابلة الشيخ كان أكثر حيرة وأكثر إحباطًا. ولم يكن يعرف أيَّ طريق يسلك، سلك الكثير من الطرق ولم يصل.

سار هائمًا بين حواري القاهرة، فكر في الخمر والحشيش، كانا أحيانًا تعطيانه الرضا المؤقت، ولم يكونا ما يبغي الآن. كان يريد الوصول إلى رضا دائم، وعلم بموت زينب ولم يحزن، ولم يسامحها، بل تمنى أن تكون قد تعذبت أيامًا وندمت وطلبت الصفح؛ لأنها فضلت المغتصب عليه هو. وجد أناسًا يستمعون إلى رجل أمام زاوية من الزوايا في حماس، فالتف إلى الرجل هو أيضًا، وبدأ يستمع. وكان الرجل يحكي عن رحلاته وما رأى وسمع في بلاد غريبة، وكان يثني على أهل مصر، وعلى عظمة البنايات، وكرم المماليك، وهيبة الشيوخ، وهذا السلطان العادل الذي ذاع صيته في بلاد المسلمين وبلاد ما بعد البحار.

استمع يوسف في حماس، ثم سأل الرجل على اسمه وقد

سمع عنه من قبل، وكان اسمه محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، واشتهر بابن بطوطة. سار يوسف معه وصاحبه حول القاهرة والصعيد والإسكندرية، واستمع إلى حكاياته، ثم قال: هل لي أن أصاحبك في بقية رحلتك؟

ابتسم الرحالة قائلًا: وهل لمن يحيا في أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد أن يبغي غيرها؟! لم أرَ كل هذا الطعام وكل هذه الزوايا وهذا المارستان وهذا الزهد والعطاء في أي بلد آخر. أمراء المماليك يهتمُّون بأمر البلاد ويبذلون المال بسخاء للفقراء والعلماء والصوفيين.

قال يوسف في مرارة: يُكفِّرون عن ذنوبهم يا أخي، من يعطِ بسخاء يأخذ بسخاء، صدقني، هي أم البلاد، ولكنه فرعون ذو الأوتاد الذي لا أستطيع العيش تحت كنفه.

أطال الرحالة نظره إليه ثم قال: حسبتك تبغي الوصول، تريد أن ترافقني بعض الوقت؟

- أريد أن أرافقك كل الوقت.

- هذا ما لا أستطيعه؛ للرحالة طقوس وعادات، والرحلة دائمًا تنتهي بالوحدة. رافقني بعض الوقت، رافقني؛ حتى نبتعد عن بلاد المماليك.

- هذا هدفي وغايتي.

سافر يوسف بعيدًا، كان يبعث بأخباره لأهله من حين لآخر، ثم انقطع خبره بعد أعوام. قال بعض الناس: إنه استقر في الهند وتزوج فيها، وقال بعضهم الآخر: إنه مات وهو في رحلة في عرض البحر.

* * *

استمر الحال في مصر من ازدهار إلى ازدهار، حتى ملوك أوروبا انحنوا احترامًا للناصر، وكأن الزمان قد استقام وعادت كل

الحقوق إلى أصحابها، وعم الخير والبركة على هذه الأرض الطاهرة أو هكذا بدا...حتى وفاة السلطان الناصر محمد.

وكأن هذه الأرض المباركة لا تتحمل العدل كثيرًا ولم تعتده، وكأن العالم لا يستقيم للأبد، والنهايات أصعب من البدايات!

سمع الشيخ عبد الكريم دقًّا على بابه وتوقع القادم. ولَّى عصرُ الناصر، وجاء عصر جديد، وسجن جب القلعة الذي أصبح مهجورًا في عصر الناصر لم يزل موجودًا في انتظار من يجدده ويفتتحه بسيف لامع ودرجات سلم جديدة، وسعة أكبر تتسع للجميع.

صرخت زوجته في وجه الجنود وقالت: إن زوجها شيخ كبير، وإنه من العلماء، وإن إهانة رجال الدين ستؤدِّي إلى الوباء والجفاف. لم يسمعها الجنود، جَرُّوا الشيخ إلى سجن القلعة، ولم يكن الأمير محمد حيًّا ليسأل عنه، ولم يكن هناك سلطان يدعو إلى العدل والتسامح ويحد من النفوذ والفساد.

وهو في طريقه إلى السجن سأل من جديد: ما تهمتي؟! وماذا فعلت؟!

فأجاب رجل من رجال الشرطة: لديك أكثر من تهمة يا شيخ، لم تدعُ للسلطان في خطبة الجمعة، وتكلمت عن الظلم والفساد، وحرضت العامة على الثورة، وتكلمت عن الأعراب بإعجاب، وشجعت على التخريب.

- لم أتكلم عن الأعراب بإعجاب، ولا أحب التخريب. والعامة لا يثورون، لِمَ الخوف ما دام العامة لا يثورون؟! غريب أمر البصاصين! يخافون من العامة! وكلمات العامة، وبيدهم السيوف والأسلحة!

- ها أنت تتكلم يا شيخ، كان من الأفضل أن تطلب المغفرة.

- المغفرة نطلبها من الله، وأنا لست صغيرًا لتجّرني أمام

الناس.

- تكره المماليك، لماذا تكره المماليك؟ لِمَ كل هذا الجحود؟

- كيف أكره المماليك والوقف الذي يصرف على وعلى عائلتي من أمير مملوكي، أيُّ منطق هذا؟!

- اطلب المغفرة واعترف بأخطائك، وامتنع عن خطبك المحرضة وادعُ للسلطان.

- لم أفعل شيئًا، ولا أعرف مَن السلطان لأدعو له.

- كنتَ مدلَّلا أيام الناصر محمد، كان يشجعك على الكلمات الخطيرة، مات الناصر محمد وانتهى عصر العبث، كفى بجدلك هذا يكفي ذنبًا للقضاء عليك.

ظلَّ الشيخ في السجن أقل من عام، ثم مات بعد أن غُرس بين الظلام وحول القاذورات. ظلَّت سيرته باقية بوصفه رجلًا لم يبع نفسه، وتمسك بالحق دائمًا في وجه كل السلاطين والأمراء، ولكنه لم يعرف، ولم يسمع، ولكن أيامه الأخيرة وسط العتمة وبلا أمل كانت صعبة، ولم يعرفها أحد، ولا شعر أحد به وهو ينسى أيامه وساعاته ويستسلم للأبدية التي لا تفنى. لم يكن متأكدًا في النهاية هل فقد عقله أم لا. عندما حُبِسَ داخل الظلام اضطر أن يمتص النور من عقله، ولجأ إلى حنايا العقل حتى امتص كل النور منه، ولم يبقَ للعقل سوى الظلام، ودُفنت الحقيقة داخل خبايا الساعات الثقيلة بلا كلمة ولا كتاب، تاه العقل، وتطلع إلى الخلاص. استمر في ترديد الكلمات وسرد التاريخ، واستمر في ترديد اسمه وعمله وأسماء أطفاله. ربما أصيب بحمى قبل الموت، لم يعد يتذكر اسمه، واختلطت عليه كل الأسماء، وتلاشى التاريخ حول عتمة الساعات الكئيبة وصوت العذاب والصراخ من حوله. ربما أدرك أن العقل استسلم، وربما عاد إلى صوابه ليعرف ويعي أن

النهاية قريبة، لم يتأكد قط.

بعد موت الشيخ عبد الكريم جاء ابنه أحمد ليتسلم جثته، ودخل السجن المظلم بمشكاة وهو يبكى ويُقال إنه وجد على الحائط بعض أبيات من شعر الإمام الشافعي منحوتة بحجر، قرأها أحمد والبكاء لا يتوقف،

«دع الأيام تفعل ما تشاء   وطب نفسًا إذا حكم القضاء
ولا تجـزع لحادثة الليالي   فمـا لحوادث الدنيا بقـــاء»

الباب الثاني
أولاد الناس

«ما أسهل فناء البشر، بعد الوباء شعرت بضآلة الإنسان وتفاهته، تعرف، لا بد أنك تعرف أن الحروب تذهب هباء لو لم نسجلها ونخلدها بالعمائر، لا وباء يقتل العمائر ولا غدر يغتالها».

شاد العمائر

الفصل العاشر 1353م

العيش في قصر السلطان الناصر محمد كان أفضل من مشاهدة خيال الظل بالنسبة لمحمد، وكان لديه نظامه الأسبوعي الخاص. وكونه من أولاد الناس وليس من المماليك جعل المماليك يتجاهلون وجوده تجاهلًا تامًّا، وبعد موت السلطان شاهد وعاصر القبض على سلاطين في أعمار الأطفال الواحد تلو الآخر، وقتلهم أحيانًا، كلما فتح السلطان الصغير فمه لينطق يتخلص منه أمراء المماليك، فبالنسبة لهم هو ابن ناس أيضًا، وليس من المحاربين ولا المدربين ولا المماليك.

كان المشهد يتكرر، وفي البداية فزع منه محمد، وقرر الرحيل عن القصر، ثم اعتاده وتوقعه، وعندما شاهد الحسن الابن الصغير للناصر محمد وهو مجرور ومكبل ورأسه مغطى بغطاء أسود، شعر بشيء من الغصة؛ فقد كان يعدُّ الحسن أخًا صغيرًا بريئًا وتلقائيًّا ويعشق الحياة، ولم يكن يستحق هذه القسوة، ولكنه كغيره من السلاطين حاول أن يكون صاحب قراره. فانتهى أمره إلى السجن. ولأن محمدًا بطبعه يحب الإتقان وينظر إلى أركان القصور ويرسمها، فهاله طريقة القبض على الحسن. للقبض على السلطان قواعد، وما حدث مع حسن لا يجوز، فقد جرَّه جنود المماليك من بين زوجاته، وكأنه رجل من العامة سرق مشكاة من مسجد.

بعد القبض على الحسن أصبح البقاء في القصر مملًّا ورتيبًا، ومحمد بطبعه يكره الملل، كان يزور إخوته يوم الجمعة، ويذهبون جميعًا إلى ضريح والديهما، ويصلون في مسجد الأب، ويوزعون الخبز والمنين على الفقراء، ثم يعودون كلٌّ إلى بيته، وكان دائمًا يصطحب زوجتيه إلى زيارة الجمعة؛ فقد كان لمحمد زوجتان من أهل مصر كأمه، واحدة يحبها بجنون، وواحدة تحبه بجنون. تزوجهما معًا في نفس العام، ولم يستطع أن يجد واحدة فقط تقوم بمهام الاثنتين، فمن يحبها بجنون تتقبله ببرود، ومن تحبه بجنون يتحملها من أجل سطوة والدها التاجر وأولاده الثلاثة.

كثيرًا ما سمع من إخوته عن والده وحبه الغريب لزينب أمه، وكيف أنه لم يملك الجواري، وكيف عاش معها هي فقط طوال اثنين وعشرين عامًا أو أكثر حتى قُتل في مسجده، وكثيرًا ما شعر بالحيرة من سذاجة والده وعدم تقديره للأمور، فلماذا يبقى الرجل مع امرأة واحدة وكل نساء العالم مختلفات؟!

تدرَّب على بناء العمائر، وبنى بعض قصور المماليك، ولم يحتج إلى العمل كثيرًا؛ فقد ورث من والديه أكثر من رَبْعٍ في القاهرة يؤجرها، ووقفًا من والدته، وهذا المال كان كفيلًا بإطعام أولاده وزوجاته وتلبية كل احتياجاته. كثيرًا ما كان يهيم وسط القاهرة يتحدث إلى الباعة والحرفيين ويقضي يومه في الرسم.

لم يزل يتذكر السلطانَ الناصر محمدًا ويحن إليه، كان الناصر محمد يزوره في جناحه كل أسبوع، ويجلس بجانبه يحكي له عن مصر وعن والده وعن المماليك، ثم ينظر إلى الصور التي رسمها ويقول: أنت مُشَيّد عمائر ولست مقاتلًا، لا بد أن تحمد الله أن والدك مات قبل أن يرى ابنه محمدًا الذي يشبهه في الشكل تمام الشبه وفي الاسم أيضًا يعمل مُشَيِّد عمارة، ولا يجيد فنون القتال. كان سيموت في هذه اللحظة. والدك كان لا

يعرف في حياته سوى الحرب، ولا يسيطر عليه سوى القتال ودهاء الحروب وأمك بالطبع، رأيتها مرة واحدة ولكنها ليست سهلة، كيف استطاعت السيطرة على أحد المماليك؟ لا أعرف. فليرحم الله الاثنين. لولاه كنت أنا الميت الآن، محمد، أنت مُشَيِّد عمارة، وعندما تبني استعمل الحجارة؛ لتخلد اسمك، وتضمن بقاء صرحك.

كان محمد يتأمل السلطان، لفت نظره في البداية الإصابة في ساقه وجسده الهزيل ومشيته التي تجعل العامة يشعرون بأنه سيتهاوى في أيِّ لحظة. رفض أن يتكئ على عصا، واستمر في المشي أعرج، وكان يعرف ويسمع النكات من العامة والمماليك ويضحك عليها أحيانًا. بعد برهة شعر محمد أن الناصر أذكى رجل حكم البلاد، كان هادئًا ويتعامل مع المماليك بكل احترام وحذر، ويكرههم كرهًا لا يوصف، وعندما يجد الفرصة المناسبة يشرح للأمراء لماذا يجب التخلص من هذا الأمير أو ذاك، ويستشيرهم ويلجأ لقوتهم، ويحيط نفسه برجال الدين، ويأتي بفتوى واثنتين، ويبدو كالصوفي العادل الذي لا يطمع إلا في رضا الله أولًا. أحيانًا كان يجلس ساعات مع أمراء المماليك، وما إن يرحلون حتى يبصق عن يمينه ويقول لمحمد في رفق: العبيد يبقون عبيدًا حتى لو حملوا السيوف.

ولكنه استمر في شراء المماليك، ودلَّل مماليكه أكثر كثيرًا من تدليل والده لمماليكه، ورباهم على يده، وكان يمر عليهم كل عدة أيام. في أحيان أخرى كان يقول لمحمد في حماس: أمراء المماليك لا يمكن للسلطان الاستغناء عنهم، هم الحماية والجيش، والدك كان منهم، أنقذوني وأعادوني إلى مصر، بعض المماليك لم يأتِ مثلهم في الورع والشجاعة في تاريخ المسلمين، لا بد أن تنتقي من بين الأمراء، ولا بد أن تفكر كثيرًا وأنت تنتقي وتفهم الأطماع ونقاط الضعف، احترام المماليك

واجب على كل سلطان. محمد يا بني، أنا وأنت والدانا مماليك، ولكننا لسنا مماليك، شيء محير. تعرف ما أقصده، نبقى نتأرجح بين أصناف البشر، لا ننتمي إلى أي صنف، لا أنا أقوى على القتال المستمر، ولا أنت تهوى القتال، ومع ذلك شيء يجمعنا، أعتبرك ابنًا لي يا محمد.

وكان محمد يعتبره مثل أبيه الذي لم يمهله الزمن كثيرًا للتعرف عليه، والذي لم يترك حبُّه قلبَه يومًا. كان يتوق إلى نظرات والده وصوته القوي ورائحته المريحة، ولم ينسَ هذه الأشياء يومًا، ولم يزل يتذكر لحظات بينهما يرسمها في إتقان مُشَيِّد العمارة الماهر، رسم بعد وقت صورة لوالده على ظهر الفرس، وصورة أخرى له هو وهو يمتطي الجواد وحده ووالده ينظر إليه في فخر. أما تعلقه بالناصر وإعجابه به فقد زادا يومًا بعد يوم، وكان الناصر يعامله كأبنائه بالضبط، بل أحيانًا كان يشعر بأنه يفضِّله على بعض أبنائه ويستمتع بالكلام معه ساعات. تذكر وهو طفل صغير ينظر لقدم الناصر، وكيف أن الناصر لا يستقيم في مشيته، ويومًا جلس الناصر بجانبه وقال: ما رأيك في قدمي المشوهة؟ تعرف سبب هذه الإصابة؟

هزَّ رأسه بالنفي في ارتباك، فقال الناصر: كنت أتدرب مع معلمي وأصبت هكذا، ولكن لِمَ يحتاج القائد إلى قدم سليمة؟ هو العقل السليم الذي يحتاجه القائد. لا أحاول أن أتكئ على عصا؛ لأن العامة تطلق عليَّ لقب السلطان الأعرج، أعرف، ويعجبني الاسم، أجمل شيء يا بني أن تتعلم أن تحب نفسك كما هي، ولا تحاول أن تغيرها لترضي أحدًا.

لم يفهم محمد كلماته بالضبط، ولكنه شعر بالحنان في نبرته، وابتلع بداخله الابتسامة الصافية التي ابتسمها له. أما اليوم الذي لن ينساه طوال حياته فهو ذلك اليوم الذي غيَّر كل مجرى عمر محمد، عندما كان جالسًا في مجلس السلطان

ومعه أولاد السلطان كلهم، وبدأ مُشَيِّد عمارته يشرح له شكل المسجد الذي سيبنيه له، ويضع الورقة الكبيرة أمامه في حماس. استمع له الناصر محمد، وعندما انتهى هزَّ رأسه بالإيجاب، ثم قال: اقلب الورقة.

بدت الدهشة على الرجل، ثم نفَّذ أوامر السلطان، فأمسك السلطان بدواته وقلمه، وبدأ في الرسم على الورقة في بطء وإتقان، ومحمد ينظر من مكانه في فضول، ثم بدأ محمد يتحرك باتجاه الورقة، ويتسلل لينظر إلى رسم السلطان، حتى شعر بيد تشده بعيدًا عن السلطان، وسمع السلطان يقول وهو لم يزل يرسم: اترك محمدًا بجانبي؛ إنه يحب الرسم.

جلس محمد على الأرض وبقي محملقًا في الورقة دون أن ترمش عيناه. عندما انتهى السلطان قال لمُشَيِّد عمارته: ما رأيك؟ نستطيع بناء هذا المسجد؟

نظر مُشَيِّد العمارة للرسم ثم قال: أوامرك كلها مطاعة يا مولاي، ولكنني فقط قلق بشأن هذا الركن والمادة التي سنستخدمها فيه.

قال الناصر في حماس: ابتكر وفكِّر. بل فكِّر ثم ابتكر.

قال الرجل: مولاي، لا يوجد شيء لنبتكره؛ فقد ابتكر القدماء كل شيء.

ابتسم ونظر إلى محمد قائلًا: ما رأيك أنت يا محمد؟

بقي الطفل صامتًا، فأعاد السلطان السؤال.

فقال محمد: يعجبني رسمك يا مولاي، يعجبني جدًّا.

قال السلطان في يقين: الرسم أعجب محمدًا وأعجبني، نفذه إذن بجرأة وشجاعة، تحتاج إلى الجرأة والشجاعة في أخذ القرارات وبناء الصروح.

أمر مسجد الناصر محمد كان يشغل محمدًا الصغير يومًا بعد

يوم، وكلما سنحت الفرصة كان يسأل السلطان: ماذا حدث للمسجد؟ وكان السلطان يشرح له ما يفعله مُشَيِّد العمائر، وعندما انتهى المسجد ذهب مع السلطان لرؤيته وقال في حماس: مولاي. تصميمك أفضل من تصميم مُشَيِّد العمائر.

ربت الناصر على كتفه ثم قال: تذكر الجرأة في الابتكار، هناك الآلاف من مُشَيِّدي العمائر، ومبدع واحد بينهم جميعًا، يطل برأسه كالجن كل مئة سنة أو أكثر.

ردَّد محمد: الجرأة، هل يمكنني أن أحتفظ بالورقة؟ لقد انتهى البناء.

قال الناصر: نعم يمكنك أن تحتفظ بها.

حكم الناصر محمد ما يقرب من ثلاثين عامًا بعد عودته من الكرك، وعاش معه محمد ما يقرب من سبع أو ثماني سنوات، ويتذكر آخر لقاء بينهما بعد أن حج الناصر وغسل الكعبة بنفسه، وبدت عليه نظرات الموت البعيدة التي يتذكرها محمد في نظرات أمه الأخيرة، ولكنه كان يقظًا وعالمًا بكل الأمور، والتقت عيناه بعيني محمد، فربت على كتفه، واحتضن ابنه الصغير قماري الذي سمَّى نفسه بعد ذلك الحسن، وقال: هذا الموت دائمًا يأتي في وقت غير مناسب، ودائمًا يقضي عليك عنوة، ودائمًا يأتي للإنسان وهو غائص في أعماق العمر، وينتشله من بين أمواج المستقبل والأحبة.

ثم تمتم الناصر في حيرة: نترك للأبناء الإرث واللعنة، وحتى في لحظات الموت يطفو طمع النفس ورغبتها في الخلود على الأرض وليس في السماء.

همس الأبناء: أبي، لا ترهق نفسك.

فأكمل: وهل أستطيع أن أضمن حياتكم؟ لو أوصيت لابني بالحكم من بعدي فهو هالك لا محالة، ولو أوصيت بالحكم لأحد

مماليك خشداشيتي فكل أبنائي سيهلكون، هي الحياة تطمس الأبدية دومًا، والفخر يؤدي للهلاك، أوصي بحكم البلاد لولدي سيف الدين أبي بكر.

عندما مات حزن عليه محمد؛ فربما كانت صلة بينه وبين والده الذي لم يزل يتذكر وجهه وصوته، صلة خفية لا يعرف كيف. ربما كان يسمع من الناصر عن والده أكثر مما يسمع من إخوته، فلم يتكلموا معه كثيرًا بصراحة واستفاضة، وربما لم يعرف إخوته الكثير عن والدهم، كانوا يمدحون أمهم وأباهم ساعات، وينفثون الكلمات كالدخان في الهواء، فتطير من عقله سريعًا.

وعندما يسأل أخته نفيسة عن أمه كانت دائمًا تتكلم عن علاقة أمه بأبيه وتقول: أمنا زينب غير كل النساء، ترى عينيها تلمع عندما يدخل والدنا، وتطارده بعينيها، وكأنها لاهثة في الصحراء وجدت الماء، وعندما تلتقي أعينهما يتكلمان ساعات دون أن ينبسا بكلمة واحدة.

كان أحيانًا يشعر بالضيق فيقول: تكلمي معي عن أمي وعني؟ أكانت تحبني؟

تقول نفيسة مسرعة: تحبك جدًّا، تمسك بيدك معها في كل مكان وتخاف عليك، ربما شعرت بأنها ستموت وأنت صغير، أوصتنا بك، ولكنها بعد موت والدنا ماتت من الداخل، لم تعد كما كانت معه، وكانت منفصلة عن العالم وعنا. تفهمني؟ لا ترانا ولا تعرفنا، رحلت إلى مكان مختلف، كنت أشعر بها، حتى وهي تضمُّك كانت تنظر إلى الأفق وكأنها لا ترى غيره، أو ربما تبحث عنه، توقعت أنها لن تعيش طويلًا، أمنا هذه حكاية وقصيدة طويلة، أنت بخير يا محمد؟ سعيد عند السلطان؟

لم تروِ كلمات أخته، ولم تعجبه سوى كلمات السلطان عن والده وشجاعته ومهارته وتحمله. وتدرب على العمارة بإخلاص

وإتقان.
أحيانًا كان يزور مع إخوته ابنة خالة والدته فاطمة، وكانت الوحيدة التي بقيت من عائلة أمه، وكان يحبها ويحب الجلوس معها، تتكلم ساعات عن أناس لا يعرفهم، وتحكي عن تاريخ لم يعاصره، وتضحك وتغني، ويلومها أبناؤها؛ لأنها تفضحهم حتى أمام أولاد الناس. وكانت تحكي له عن أمه وحكمتها وحنانها، وكيف رفضت أن يذهب هو ليعيش في بيت السلطان، وكيف بقيت معه حتى ماتت وهو في العاشرة، وماتت وهو بين ذراعيها يبكي. الغريب في فاطمة أن نفس القصة تختلف كل يوم باختلاف حالتها النفسية ورضاها عن أولادها. أحيانًا كانت تسب المماليك وأولاد الناس والعلماء وكل طبقات المجتمع، وأحيانًا كانت تُثني على المماليك وحزمهم ونظامهم، وتقول: إنَّه لولا المماليك لفني الشعب وعم الخراب، يقفون للعدو كالبنيان المرصوص، يصدون كل غازٍ ومخرب، ثم تبدأ في الحديث عن الأمير محمد وتقول لمحمد: والدك كان كريمًا، أتذكر ولائمه لنا جميعًا في رمضان، كان يحب أهل مصر، لم يكن له وطن سوى هذا البلد.
ابن فاطمة الأصغر كان كارهًا للمماليك منذ الصغر وكان في سن محمد، وكلما زار محمد خالته فاطمة كان ينظر إليه في نفور، ويتكلم عن ظلم المماليك وافترائهم على أهل مصر، واليوم كان يتكلم عن ظلم أولاد المماليك بالذات، قال في برود: لا تؤاخذني يا محمد ولكن للفساد حدودًا، وسيطرة أولاد الناس على البلاد ستؤدي إلى مصائب في المستقبل، التجارة يحتكرونها، الأراضي يشترونها بأبخس الأسعار، والمناصب لهم، وكأننا نحن أبناء البلد رجس من عمل الشيطان، هذا الظلم لن يستمر!
لم يكن محمد يحب الكلام في السياسة، وكان يكفيه

سياسات القصر ومؤامرات المماليك. قال في لا مبالاة: أتفق معك يا علي.

نظر إليه علي في دهشة ثم قال: ولكنك منهم!

- لا أنا أحتكر تجارة ولا أشتري أرضًا، أمي من العامة.

قال في ضغينة كامنة: ولِمَ تحتاج إلى كل هذا؟ تعيش من ميراث والديك.

- لا ينشغل بالي بهذه التفاهات، الأموال والإرث، هناك ما هو أهم.

- ولِمَ تشغل بالك لو كانت عندك كل أموال أهل مصر.

قال محمد في ضيق: ورثت المال ولم أسرقه، ولم يسرقه أبي، حارب من أجل بلادك وبلادي.

- ليس للمحارب أن يستولي على كل خيراتها.

- وبلاد المحارب لا خيرات لها.

استدارت فاطمة لمحمد وقالت وحديث ابنها لا يستهويها: المماليك من أهل مصر، أليس كذلك؟ لم أتأكد قط، لا يتزوجون من العامة عادة، ولكن أولاد المماليك يتزوجون من العامة، ويصبحون بمرور الوقت ناسًا وليس أولاد ناس، تبتلعهم البلد وتصهرهم وتقلبهم، فيذوبون وينصهرون ويخرجون من صهد الفرن الساخن وقد صاروا من أهل مصر. هذه بلاد تحرقك وتصهرك كالحداد وتشكلك وتميتك. اعذرني يا بني، أنت محمد ابن زينب والأمير المملوكي، أليس كذلك؟

يبتسم محمد ويقول كما يقول دائمًا: نعم.

تقترب منه وتقول في خجل: أسألك سؤالًا، ولكن لا تسئ فهمي؟

- اسألي يا خالتي؟

- مَن السلطان اليوم؟

كان يجيبها فتهز رأسها ثم تقول: مِنَ المماليك؟

- نعم.

- ولكن المماليك لا يولدون في هذه البلاد، هم محاربون وليسوا سلاطين؟ مِن أولاد الناس مثلك؟

- ربما نعم، معك حق، من أولاد الناس.

- ولِمَ يتغيرون كل برهة؟ لا يحب المماليك توريث الحكم، فلِمَ لا يمسك الحكم أمير الجيوش وأستاذ الخشداشية؟

- تفهمين في السياسة يا خالتي؟ زوجاتي لا يتكلمن في السياسة.

- لديك زوجتان؟ سعيد معهما؟

- نعم، معًا إحداهما تكمل الأخرى.

حدَّقت في عينيه طويلًا، حتى ظن أنها نسيت من يكون، ثم قالت: لديك مارد بداخلك مثلي، أتذكرك، ترسم... ترسم المباني بدقة الساحر. ماذا فعلت بالمارد؟

نظر إليها ولم يجب، فأكملت: زوجتاك لن تكفياك، ولا نساء العالم، ولا مال الجن السفلي، لن يريحك شيء؛ فقد أصابتك لعنة هذا المارد، إياك أن تتوه في العالمين كخالتك! اجعله يخرج، طلقهم واجعله يخرج، لا تُلْهِكَ عنه نساء، اسمع كلماتي!

ابتسم ثم قال: تحتاجين شيئًا يا خالتي؟

تنظر إليه عادة ثم تقول: أنت ابن زينب؟

- أنا ابن زينب.

- مَن السلطان اليوم؟

* * *

الوباء عبث بالقاهرة كما عبث المغول ببغداد؛ فلم يترك بيتًا بلا حزن، ولا شارعًا بلا نعوش، ولا حفرة بلا جثث، هرب محمد مع زوجتيه إلى الإسكندرية.

وكان يخاف موت أولاده ونفسه، ويهاب صرخات الحسرة التي اعتادها كل برهة تخرج من الرجال قبل النساء. تذمرت الزوجتان وقالتا: إن الموت لا هرب منه، وإنهما تفضِّلان الموت مع أهليهما وليس كغرباء في الإسكندرية، ولكن محمدًا كان مقتنعًا أن البحر يطهِّر كلَّ الأوبئة، ويفهم ما لا يفهمه الأطباء، وأنه طاهر طهارة الجنة مع كل ما ينصب به من جثث، وكل ما يلقى بداخله من قاذورات، البحر قوي وغزير يشفي من الوباء، ويشفي مَن حوله. أما النهر فعذب وطويل، ولكنه لا يتحمل القاذورات، يلفظها في تقزز وإعياء. لحظة الوصول إلى الإسكندرية أمرهم جميعًا بالاستحمام في مياه البحر؛ لتطهير الجسد، فاتهموه بالجنون، وصرخت زوجته التي يحبها: انظر حولك في الإسكندرية يموت الناس أكثر من القاهرة، انظر إلى الأكفنة وراء البحر!

ولكن محمدًا غاص في المياه ولم يسمعها، وعندما سمع نفس النواح وأكثر النظر إلى جسده، وأيقن أن العيب ليس في البحر، ولكنه في الجسد الضئيل الواهن الذي يفنى قبل أن تفنى النملة، وقبل فناء القطط الشريدة، البحر بريء من القاذورات والوباء، والإنسان يمتص الأمراض كالنباتات الجافة التي تمتص الأمطار، هو الجسد الذي يحتقره ويتقزز منه، يفنى ويموت ثم يتعفن ويذوب، لا شيء يخلد كالعمائر والأحجار، وغيرها الفناء؛ الحروب لعبة بين أجساد مبددة وممزقة، والوباء هزل يصيب جسدًا واهنًا ومترهلًا كقطع اللحم من مؤخرة بقرة شمطاء. كان يبحث عن متع الجسد ولم يزل، ونسي الخلود، ولا يستطيع أن ينسى الجسد، ولكنه كان

يبغي الخلود.

بقي في الإسكندرية، لا ليهرب من الوباء ولكن ليغيظ زوجتيه. قررت الزوجتان العودة للقاهرة والبقاء بجانب الأم والأهل، وصمم هو على البقاء في الإسكندرية، وأخبرهما أنه بالتأكيد لا يود الموت بالقرب من حماتيه، وأنه يفضل الموت بجانب شاطئ البحر. رحلتا مع أولادهما وبقي هو.

وبدأ يشيد قصور المماليك هناك. وهناك وقع في غرام فتاة من صقلية جاءت لتبيع بضاعتها في الثغر، وتشتري القوارير الزجاجية والمشكاوات لتبيعها في بلادها، ولم تكن تتكلم العربية.

كانت ممتلئة بالحياة وملامحها الحادة تنم عن قدرة على التصدي للموت، وأصابعها الطويلة تشي بإتقان الرسم وممارسته كل يوم. منذ اللحظة الأولى بدأ يتكلم معها بالعربية ويرسم لها اللوحات؛ ليشرح لها، ومنذ اللحظة الأولى كانت ترسم هي أيضًا وتتكلم لغتها. وأصبح الرسم لغتهما المشتركة والسرية، وأصبح البوح بالأسرار سلسًا كالألوان اللينة في يد الفنان، وكانت ترسم له القوارير الزجاجية والقارورات الملونة التي تبحث عنها وتريد المتاجرة بها في بلادها، وتتمنى لو تتعلم كيف تصنعها في صقلية وحولها.

نسي زوجتيه وأبناءه، وذهب إلى بيتها، وقضى به شهرًا كاملًا دون أن يسأل عن أحد أو يتكلم مع أحد. لم يتبادلا سوى الإشارات، ويتكلم كل منهما لغته. هو يحدثها بالعربية وهي تحدثه بلغة أهل صقلية، ويبتسمان ويتبادلان العشق.

كان يسألها عن أهلها وبلادها وبحرها، وكانت تشير إليه في نفاد صبر أحيانًا، وفي الكثير من الصبر أحيانًا أخرى، وترسم له ما تريد أن تعبر عنه، وتتكلم ساعات ويستمع في اهتمام،

ويحكي لها الكثير بلا قيود وبلا حرص، ويسب ويلعن ويضحك ويتذكر.

حكت له عن والدها الذي لم ينجب غيرها، كان تاجرًا وطمع في أمواله أحد الأغنياء، فقتله وأخذ الأموال، وهربت هي إلى الإسكندرية، واستمرت في تجارة أبيها.

قال وهو يداعب ذراعها ويستلقي بجانبها: تعرفين...أتذكر أبي في موقفين فقط، مرة رأيت وأحببت وأحسست بوالدي حيًّا، ويومًا رأيته غارقًا في دمائه، ولا أتذكر عنه أيَّ شيء آخر.

نظرت إليه وكأنها تفهمه، فأكمل في حماس: كان ذلك يوم زيارتنا للسلطان الناصر محمد.

ثم أشار إلى يديه وقال: مددت يدي وقلت لأبي بعد أن استجمعت شجاعتي أيامًا، أبي، هل يمكن أن آتي معك؟

نظر إليَّ برهة، وكنت أهابه وأخشى من وجومه ونظراته الثاقبة وكلام إخوتي عنه، وندمت على الكلمات، وظللت ساكنًا أنظر إلى الأرض، قال أبي وهو يمسك بيدي: يمكنك أن تأتي معي.

ضغطتُ على يده، ونظرتُ إلى إخوتي في زهو، وسرت معه، كان طويلًا ويسير بخطوات قوية، ظلَّ صامتًا طوال الطريق، وما إن وصلنا حتى ترك يدي وقال: ادخل بجانبي كالرجال، ولا تمسك بيدي أمام السلطان، الرجل لا يحتاج إلى مساعدة أحد، الرجل يا محمد يتحمل ويجازف، جازفتَ اليوم وطلبتَ الذهاب معي، أعجبني هذا، لو استمررت هكذا لأصبحت محاربًا مثلي.

ابتسمتُ وكلي كبرياء، وكان أبي بالنسبة لي خارج نطاق كل الكون، عملاقًا بقوة خارقة، سمعت عن غزواته، ورأيت الرجال حوله ينظرون إليه في رهبة كالتي في عيني.

صمت، ورسم لها صورة لوالده من خياله، ثم أكمل: قصر السلطان كان رائعًا، ولم يشغلني بداخله سوى الأبواب وزخرفتها والمشكاوات وأشكالها.

عندما فرغنا من زيارة السلطان جريت لأمشي بجانب أبي، واستحييت أن أمسك بيده من جديد، ولكنني قلت في حماس: أعجبني جدًّا قصر السلطان.

هزَّ أبي رأسه ولم يتكلم، فأكملت في نفس الحماس: هل أعجبك يا أبي؟

نظر إليَّ أبي في دهشة، ورأيت الابتسامة التي حاول أن يكتمها، ثم قال: تريد الحديث معي ولا تخاف مني؟ لديك جرأة أمك، نعم أعجبني القصر، وما يعجبني دائمًا هو سيوف الملك المعلقة على الجدار، وماذا أعجبك أنت؟

قلت في تلقائية: أعجبني باب القصر، سميك ومزخرف، لن يستطيع تحطيمه مئة رجل، ما أجمله! هل يمكن أن نصنع بابًا مثله في قصرنا؟

قال أبي في دهشة: أعجبك الباب؟ كل ما رأيته في القصر هو الباب؟

ثم نظر إلى عينيَّ فقلت في خجل: لم أنظر إلى السيوف، ربما كان لا بد أن أرى السيوف، في المرة القادمة سأرى السيوف.

- تحب السيوف يا محمد؟

صمت لحظات، وكنت أحب أبي في هذه اللحظة، أحبه لأنه لبرهة فتح قلبه وتكلم معي، ولأنه كان من عالم آخر قوي ومحارب، ولأنه أمسك بيدي ولو برهة، ونظر إلى عيني وكأنه يراني ويهتم بي، لا أستطيع أن أكون مثله، لا أحد يستطيع أن يكون مثله!

قلت في سرعة: أحبها جدًّا.

فقال وهو يربت على كتفي بيده القوية: ستكون محاربًا مثل أبيك. أعجبتني اليوم، كنت جريئًا وشجاعًا.

ثم سار بعيدًا في بطء ووجهه يبتعد قبل أن أكمل حديثي معه، وقبل أن أمسك بيده مرة أخرى، واختفى من كل حياتي. رأيته غارقًا في دمائه، لا يتحرك وسط نواح إخوتي وصمت أمي، قبلته مرة أو مرتين لا أتذكر، وأمسكت بيده، وتمنيت أن أكون محاربًا ولم أستطع. تفهمين؟

تذكر يوم موت والده وكأنه اليوم، رائحة الدماء الطازجة ونظرات الأم الفارغة من الحياة، ووجه الأب الساكن النائم وسط كل هذا الصخب. ولم يزل يشعر بأصابعه المتشابكة بأصابع الأب القتيل. شبك أصابعه بأصابع أبيه حينها كما فعلا معًا يوم زيارة السلطان، ويوم أصبح والده رفيق عمره وصديق كل أيامه. شبك أصابعه بأصابع والده القتيل ودموعه تتساقط في صمت، وبعد برهة، ساعة ربما لا يعرف، شدته نفيسة وهي تبكي، فأبى أن يتحرك، فقالت في رفق: اتركه ينم في سلام يا محمد! كلنا سنفتقده. تعالَ معي.

سار معها في صمت ووجوم والدموع لم تزل تتساقط، وتلاشت واضمحلت صورة الأب كما تفعل دائمًا، واختلط عليه الأمر، فرآه يجري بفرسه تارة، ورآه نائمًا حول دمائه تارة. ولكن الأمير محمد بن عبد الله كان دائمًا موجودًا كل يوم وكل ليلة في أحلام محمد وفي لحظات شروده الكثيرة.

هزَّت ماريا رأسها بالإيجاب وهي تنظر إلى عيني محمد الحزينتين، وترقرقت الدموع في عينيها، ثم رسمت سيدة وقالت بلغتها: وأمك؟

- أتذكرها أيضًا قبل موت والدي، ولا أتذكر شيئًا عنها سوى

يوم موتها بعد ذلك، كانت صارمة أيضًا، ولكنها تتكلم أكثر، وتضمني أحيانًا. ويوم وفاتها جلست أبكي وربتت على يدي بوجه مبتسم وعينين تخترقان عينيَّ ولا تصل إليهما، وهمست وهي تخترق عينيَّ بعينيها ولا تراني: محمد.

ثم فتحت كفَّها ومدَّت ذراعها إليَّ، ولم أفهم، هل كانت تريد أن تضمني، أم أنها كانت تخاف عليَّ من اليُتم، أم أنها لم تكن تقصدني أنا أصلًا. تفهمين؟

أشار محمد إلى عينيه وعيني ماريا، وأكمل: لي أخت اسمها نفيسة، تظن أنها الآن والدتي، ولكنها دائمًا تغيظني، تعرفين ماذا قالت لي؟ قالت: إن أمي لم تكن تناديني، كانت تنادي أبي. اسمه هو أيضًا محمد. نفيسة تقول: إن أمي كلما ازداد عليها الألم تنادي أبي فقط، وكأنه احتكر قلبها كما يحتكر المماليك الإقطاعيات. ما رأيك أنت يا حبيبتي يا ماريا؟

نظرت إليه ماريا، لم يبد أنها فهمته، فقال في بطء وهو يشير بيده: أكانت أمي تناديني وهي تحتضر أم كانت تنادي أبي؟ اسمه محمد، أبي اسمه محمد، وأنا اسمي محمد، ما رأيك؟ نفيسة تقول: إنها كانت تنادي أبي.

فكرت ماريا ثواني، ثم رفعت إصبعين فابتسم وقبلها في قوة قائلًا: أنت حبيبتي قلت لك، تظنين أنها كانت تناديني وتناديه؟ ما أجملك.

ثم أكمل: تركت عالمنا منذ زمن، أراها ملاكًا في مخيلتي، ولكنه أبي الذي يحضر معي كل يوم، ويبقى بداخل العقل طوال أيامي. لا أعرف لماذا. ألأنه قتل؟ نفيسة تقول: إن أبي كان يحبني أنا بالذات ويدللني أكثر منهم؛ لأنه أنجبني على كبر، وربما شعر بأنني سأعيش يتيمًا وسط المماليك، ربما خاف عليَّ من المماليك، أم خاف علىَّ من العامة، فلا أنا من

هؤلاء ولا من هؤلاء، أنا منك أنت ولك أنت، لا بأس فلنتكلم عن شيء آخر. سأرسم لك.

ثم رسم لها مبنى وقال بالعربية: ماريا، ما رأيك؟

كان مسجدًا صغيرًا رسمه بدقة وتركيز، هزت رأسها في حماس وأمسكت الورقة، وبدأت ترسم له بيوتًا من بلدتها وتنتظر رأيه، فقال في تأكيد: تعجبني بلدتك، ولكنني أريد أن أبني بناء لا يبنيه بعدي رجل. ماريا، تعرفين.. نشأت يتيمًا، أتذكر أمي بعض الشيء، ووجه أبي أحيانًا يصبح مبهمًا في ذاكرتي. في قصر الناصر محمد كنت طفلًا مثل الكثيرين، طوال عمري أبحث عن شيء خاص بي، حب خاص بي، ولغة خاصة بي، وامرأة مختلفة، وصَرْح فريد من نوعه يجعلني أنا أيضًا فريدًا ومختلفًا. يقولون: إن والدي خرج عن المألوف وتزوج من أهل مصر، أريد أن أخرج عن المألوف دون أن أُقتل، ففي بلادي من يبتكر ويخرج عن المألوف وهو ليس من المماليك يفقد عقله وعمره، أنا من أولاد الناس ولست من المماليك، تفهمين؟

قالت بلغتها: في بلادنا ملكان يتقاتلان منذ بداية الزمن... ونحن بينهما نتلقى الضربات في هوان، لا أعرف ماذا سيحدث.

ثم أشارت إليه بإصبعيها وهي تردد: ملكان.

فهمها وابتسم قائلًا: حظك جميل يا ماريا. لدينا عشرة وعشرون وخمسون...

ثم فتح كفَّه لها وأكمل: الملك واحد والأمراء كثيرون، والملك لا شيء بالنسبة للأمراء، ولا شيء دون الأمراء، والأمراء يحتاجون إلى شرعية الملك، بلاد عجيبة لا يتدخل أهلها فيها. تفهمين؟

هزَّت رأسها فقال: ما أشجعك! امرأة تتاجرين مع المسلمين ولا تخافين أن يتهموك في بلادك بالخيانة والكفر، لم أرَ شجاعة كشجاعتك، زوجتاي الاثنتان جبانتان، وما شأن التجارة

بالسياسة؟ التجارة كالفن تتخطى الأزمنة والبلاد.

نظرت إليه وابتسمت، فضمها وتمتم: أنت رائعة.

ثم أبعدها عنه بعض الشيء وقال: نفيسة التي حكيت لك عنها، أختي، كانت تقول: إن أمي كانت تحب أبي حبًّا لا يوصف، تحبه بكل نفسها، غريب هذا النوع من الحب، عشت في قصر السلطان، وعاصرت زواجه من الرومية والمغولية والشركسية، وعشت مع والدي ثماني سنوات، ولم أر والدي ينظر لأي امرأة سوى أمي، وظننت أن كل الرجال كوالدي! وأحببت الناصر محمد وأحببت والدي. لا بد أن قدرة كل منا على أن يحب بكل نفسه تختلف، ولا بد أن غاية الحب أيضًا تتنوع بتنوع البشر، فهناك من يحب السلطة بكل نفسه، وهناك من يحب المال، وهناك من يحب امرأة، وهناك...

ثم بدأ يشير إليها ليشرح لها ما يقول، وأكمل وهو لم يزل يشير بأصابعه ويرسم اللوحات حتى تفهمه: هذا النوع من الحب نادر جدًّا، ولكنه موجود. لا أستطيع أن أترك عائلتي أكثر من هذا، أيُّ رجل ينسى أولاده وزوجتيه وقت الوباء؟! بل أتمنى نسيانهما، ولكن للموت قواعده وواجباته، ماريا أنت كل الحياة، بين ذراعيك أشعر أن الطاعون لا وجود له؛ لأنك شجاعة لا تخافين أهوال الوباء ولا غضب أهلك وكنيستك، تعجبينني يا حبيبتي، وأتمنى قضاء عمري معك، تفهمين؟

ابتسمت له وقبلته فأكمل في بطء: أنا أيضًا أحب بكل نفسي، ولكنني لا أستطيع أن أحب شخصًا بكل نفسي، أحب شيئًا آخر... صعبًا ومرهقًا، شيئًا بداخلي يلحُّ عليَّ ويطلب الخروج، لا أعرف كيف أرسمه إليك. سامحيني، ولكن مجدي لا يأتي بعشق النساء، الإشباع عندي يأتي بالبناء، هو كل حياتي.

رحل ليلًا وماريا نائمة ولم يعد إلى بيتها، أخذ معه لوحتين رسماها معًا، واحدة لوالديه، وأخرى لها هي وهي تمسك بقارورة زجاجية ومشكاة وتبتسم. في القاهرة وجد زوجتيه في انتظاره في غضب، فدخل حجرته، وأغلق الباب وبدأ يرسم وكأن العمر سيتوقف غدًا، وكأن الحياة هي هذا المسجد ولا شيء آخر يرضيه أو يسعده.

شعور المبتكر شعور مزعج ومؤلم، فهناك نقر على رأسه وبين أضلعه، وهناك قزم يريد الخروج من أعماقه، وإن خرج يتحول إلى جني عملاق فيبتلعه ويلعنه ليتوه بقية عمره. هذا النقر داخل ضلوعه كاد يصيبه بالجنون، ولا امرأة تخمده، ولا عمل يسكته، ولا موت يريحه، ظلَّ يتحرك في عصبية وهو نائم بين ذراعي زوجته التي تحبه، فقالت بعد برهة: كفَّ عن الحركة! لا أستطيع النوم.

قام وأخذ يدور حول الغرفة وكأنه سكير يتذكر آلامه، وأخذ يبحث عن أوراقه في الظلام، ثم صرخ: لا أجد أوراقي! أين خَبَّأتِ أوراقي؟ أطلِّقكِ الآن.

انتفضت الزوجة من سريرها ثم قالت: فقدت عقلك يا رجل! أيُّ أوراق؟

- الرسم على الأوراق، أين هو؟

- تحتسي الخمر يا رجل أم فقدت عقلك؟ توقظني في منتصف الليل لتسأل عن أوراق.

قال في تهديد: معاملتك هذه ستجعلني أتزوج الثالثة، احذري!

مصمصت شفتيها وقالت: ابحث إذن عمَّن تتحمل جنونك.

أضاء شمعة وتجاهلها وبدأ يبحث عن الأوراق، ولم يجدها، فارتدى ملابسه، وتمتم بكل الشتائم التي يعرفها، وأمسك

بأوراق جديدة، وخرج من البيت هائمًا في حواري القاهرة يستمع لأذان الفجر وينظر إلى المآذن حوله وتصميماتها. ويرسم من جديد. لم يعد إلى بيته إلا بعد يومين، ولم يكن يهتم إلا بالمآذن وتصميماتها، بين أضلعه تسكن أربع مآذن، كل واحدة مختلفة عن الأخرى، وكل منها مختلفة عن كل مآذن بلاد المسلمين.

ترك لزوجتيه بعض المال، ورحل غاضبًا؛ لأنهما معًا لم يفهما ولم يتعاطفا مع المارد.

زار أخته نفيسة وسألته عن حاله، واشتكت من الوباء الذي ينهش في جسد من حولها، ولم يستطع أن يشرح لها مدى السهد والأرق الذي يفترسه، بل بدأ في الشكوى من زوجتيه وحياته، فربتت على كتفه وقالت: أنت طيب يا محمد يا أخي، تترك لهما الزمام فتمتطيانك وتتحكمان بك، الرجل لا بد أن يكون حازمًا مع الزوجة، أتذكر أمنا، لم أرها يومًا تنظر إلى أبينا إلا في احترام وانبهار، لا تنهره ولا تبادله الكلمة بالكلمة.

قال محمد في تهكم: ربما فعلت، ولكن ليس أمامنا، لا يوجد امرأة في العالم لم تبادل زوجها الكلمة بالكلمة، لا تعرفين النساء يا نفيسة كما أعرفهن أنا.

قالت في امتعاض: حظك قليل يا أخي، تيتمت صغيرًا، ثم لم يعوضك الزمن بزوجة تحنو عليك، مسكين يا أخي، لو كانت أمنا حية لكانت ستتصرف مع زوجتيك، كانت امرأة قوية أمنا هذه. وضعت نظامًا صارمًا لقصر أبينا ولزوجات أبي بكر وعلاء الدين، لو كانت حية الآن لما جرؤت زوجتاك على تنغيص أيامك هكذا، مسكين يا أخي!

رحل وكلماتها لم تبرد السهاد والوجد الذي يكاد يمزقه إربًا.

لاح والده بذاكرته كما يفعل في وقت الضيق، وكان دومًا يظهر

كالمارد من المصباح، ثم يختفى في بطء بين ذرات الدخان، يمتطي جواده ويركض بعيدًا، فيتوحد مع الصحراء وتستعصى رؤيته، والده يتجلى وقت الضيق، ويبتسم ويثني عليه في قوة كما فعل من قبل ثم يختفي، دائمًا يختفي.

استمر عذابه والجني يخرج من بين أضلعه، والإبداع يفتت الجسد والعقل، ولم يأكل كثيرًا، ولم يهندم ملابسه، ولم يتكلم مع أحد، كان كالمجانين يهيم في الشوارع ويقيس حجم المآذن وتصميمات الجوامع، وكان كالمصاب بداء عضال يتألم باستمرار، ويعرف أن آلامه لن تتوقف إلا بالموت. لعنة الإبداع تصيب القليلين ولا يدري أهي نعمة أم نقمة.

* * *

قرر زيارة الحسن في سجنه؛ فهو صديق الطفولة والسلطان الشرعي للبلاد التي لا تحترم السلاطين ولا تمجدهم. يقولون: إنَّ أهل مصر لا يثورون على الحكام، ولِمَ يثورون إذا كان السلاطين يقضون حياتهم بين السجون والمؤامرات والعذاب الدائم؟ يشاهدون المماليك يتقاتلون كما يشاهدون خيال الظل، ويضحكون ويسخرون ويستمرون، فالوجود لهم والفناء للأمراء دومًا وأبدًا.

وافق الأمير يلبغا على أن يسمح لمحمد بزيارة السلطان الشاب الحبيس، وما إن دخل عليه محمد حتى عانقه في قوة، وقال: كيف حالك يا أخي؟

قال الحسن في أسى: أقرأ، لا يمنعون عني الكتب، ولكنهم يمنعون عني كل نسائي وكل أولادي وكل من أحب. هل تصدق؟ أمراء المماليك تذلني يا محمد كما حاولوا ذل أبي!

ربت محمد على كتفه ثم قال: أجمل ما في هذا البلد أن كل شيء يتغير بسرعة، سأشفع لك عند الأمراء، ولا بد من

مخرج، ولا بد أن تعود إلى عرشك. لو رضخت لهم بعض الشيء لتركوك على عرشك.

- لن أرضخ لهم، هم عبيد أبي، مماليك وأبي أستاذهم، كيف أرضخ لهم؟! حتى لو قتلوني كما قتلوا أخي المظفر حاجي.

- هم من يحمونك ويحمون البلاد، ولا تنسَ أن جدك كان منهم.

- كان، ولكنني لست منهم، ولست عبدًا، ولا يوجد لي قائد أو أستاذ. يمنعون حتى زوجاتي من مقابلتي، هل تصدق يا محمد؟ عندما كنت تحت وصايتهم كان الأمراء يعطونني ثلاثة دراهم. السلطان يعيش بثلاثة دراهم وكل منهم مرتبه يزيد على ثلاثين ألف دينار، أيُّ عدل هذا؟ وأيُّ جنون؟ وأيّ بلد يرضى بهذا؟! لو كان لأهل مصر صوت لثاروا على كل الأمراء، واختاروا السلطان.

- اهدأ، واحْكِ لي ماذا تقرأ؟

- أقرأ في الدين والتفسير والفقه والصوفية والمذاهب الأربعة، تعلمت الكثير طوال السنوات الماضية، ربما احتجت لهذه الخلوة لأتعلم. كيف حال العامة؟

- تعرف، الوباء قضى على أكثر من ربع البلد، البيوت مهجورة ولا يوجد بيت بلا حزن.

- وزوجاتك بخير؟

- للأسف نعم.

ابتسم الحسن ثم قال: ماذا تصمم الآن؟

- لدي فكرة منذ زمن لمسجد يفوق كل العمائر.

ردَّد الحسن: مسجد، يفوق كل العمائر.

- يفوق في روعته كل المساجد وكل القصور، ويمتد في

حجمه ليتسع للآلاف، مسجد ومدرسة، حلم منذ زمن يستهويني.

قال الحسن: هل لي أن أرى الرسوم؟

- هنا في محبسك؟

- تلهيني عن حزني وبُعد كل النساء عني، وتذكرني بالموت والنهاية. لو كان هذا مسجدًا للسلطان فلا بد من وجود قبره وضريحه به.

- نعم لا بد من دفن السلطان بداخله.

- صرح كهذا يعوض العامة عن الفقد، ويذكرهم بقابض الروح ومانح الحياة، ويخلد ذكرى السلطان ويضمن له الجنة!

ابتسم محمد: لا يضمن الجنة!

- بل يضمنها؛ فكل الذنوب تغتفر أمام كل سجدة يسجدها مسلم في مسجد كهذا، وكل درس يتعلمه طالب العلم، وكل مئذنة يذكر فيها اسم الله. محمد.. وكأن العمر لم يضع هباء. أعطني هذا الكتاب.. ارسم لي على ورقة شكل المسجد.

* * *

سيطرة الحلم على محمد كادت تفقده عقله، وكثيرًا ما فقد الطريق إلى بيته ليلًا، وكثيرًا ما قرر البقاء داخل أروقة المساجد وقضاء ليله بين الصوفيين والزاهدين، وكان دائمًا يحمل أوراقه وحساباته وقلمه ويرسم.

وعندما قضى ليلته في مسجد الحاكم بأمر الله وسمع صوتًا يقترب منه، نظر أمامه، وكان أحد الشحاذين ينظر إلى رسمه في تمعن وتفوح منه رائحة كريهة. قال الشحاذ في فضول: ما هذا؟ هل تعطيني بعض الطعام؟

أطال محمد نظره إليه، ثم قال: ما رأيك في مسجد الحاكم

بأمر الله؟ يعجبك تصميمه؟

انتفض الشحاذ من أمامه وهو مقتنع أنه ممسوس من الجن. نظر محمد حوله، ثم قرر العودة إلى بيته وحياته ومقاومة هذا المارد الذي يسكن الأضلع، ويحاول الخروج. عاد إلى زوجتيه وسأل عن أبنائه، وكان قد نسي أسماءهم، ثم زار إخوته وقبر والديه، وحاول النوم بلا جدوى.

تمتم لنفسه: ستفقد عقلك، عد إلى حياة الناس يا بن الناس، وانسَ حياة الخيال والإبداع، بدأتَ تفقد عقلك وطريقك، صمِّم القصور ومساجد الأمراء، وانسَ هذا الحلم، ستفقد عقلك... في الإبداع فناء، وفي خروج المارد موت بطيء للقلب وفجوة للنفس، وفي بلوغ المراد مرارة الوصول وانتهاء الطريق. عد إلى حياتك يا بن الأمير محمد، تذكر من أنت وعد إلى حياتك!

وبدأ يحلم كل يوم بباب القصر الذي تكلَّم مع والده عنه، ولم يترك مخيلته يومًا. بل زاد في حلمه بالأبواب من يوم لآخر، فأصبح يحلم بباب كل يوم، باب كبير ذهبي ينفتح على شمس نحاسية، ويتجلى منها والده بفرسه، شامخًا عملاقًا يبتسم إليه ثم يتضاءل ويختفي كعادته، وتارة يحلم بباب نحاسي برسوم دقيقة يوصد، ثم يفتح فتخرج منه أصوات المناجاة والعشق الزاهد، وتارة يحلم بباب ظاهره الخير وباطنه الشر، وآخر ظاهره مبهم وممل وباطنه كل الحياة والإبداع والصخب، خطوط ومثلثات تسيطر على عينيه تتجلى منها براءة المبدع وجبروته، تفتح العمر وتغلقه، وتسجل أسى الأيام واستمرار الإنسان في البحث الدائم عن الخلود.

ولكنه لم يكن يقدِّر حياته، ولا يعرفها ولا يستأنسها ولا يريدها، وهذه اللعنة تنهش جسده وتشوه نفسه، لا بد من

التخلص من المرض، والداء هو الدواء. طلب مقابلة أمراء المماليك، وقابل يلبغا وشفع للحسن، وقدَّم فروض الطاعة نيابة عن الحسن، وقال للأمير: إن الحسن سيكون مشغولًا في بناء مسجد، ولن يدير شئون البلاد، ولن يهتم بالحكم، ولن يزعج أمراء المماليك.

قال محمد للأمير يلبغا في ترجٍّ: تكلم معه فقط، فهم الدرس واستوعبه، كان صغيرًا ونضج الآن.

قال يلبغا: فعلها من قبل، قبل أن يتم العشرين، حاول التخلص من أمراء المماليك، ابن الرومية يريد التخلص من الأمراء، لم يجرؤ والده على هذا! الحسن قبل أن يتم العشرين قبض على الأمراء، وصادر أملاكهم، ماذا سيفعل بهم الآن؟! بعد ثلاث سنوات في السجن؟ لا أثق به.

- تكلم معه واتفق على نظام للحكم، أتمنى أن تنفع شفاعتي، كنتَ تعرف أبي.

قال يلبغا في حسم: الأمير محمد بن عبد الله المحسني كان أستاذي، لو كان حيًّا لما وافق على قلة هيبة المماليك قط، كان يعرف ويقدر أهمية المحاربين وكان منهم.

فقال محمد في رفق: اذهب لمقابلة الحسن، الحسن أصبح صوفيًّا وزاهدًا، لن يدير البلاد، سيكون مشغولًا في بناء المسجد.

عندما ذهب يلبغا ومعه بعض أمراء المماليك للكلام مع الحسن كان الحسن هادئًا، وعيناه منكسرتان. فقال يلبغا في قوة: لو قتلتك الآن ما لامني أحد، أستطيع، ولن أفعل. مَن الأحق بحكم هذه البلاد في رأيك؟ السلطان المراهق أم الأمير المقاتل؟ من يعرف السياسة ومارسها أعوامًا أم من خرج من القصور وتعلم بين جدرانها وقضى ساعاته في الحرملك أكثر

من القلاع؟

بدا الضيق ثواني على الحسن، وكلمات يلبغا تغيظه إلى أبعد حد، والوصاية عليه تجعله يشعر بأنه من متمردي الأعراب في هذه اللحظة، ثم قال وهو يحاول السيطرة على أعصابه: أمراء المماليك يتسمون بالحكمة، ولا أستطيع الاستغناء عنهم.

- لماذا غيرتَ اسمك إذن من قماري إلى الحسن؟

- كنت أريد اسمًا عربيًّا يقربني من العامة.

قال يلبغا في حذر: ولِمَ التقرب من العامة؟

- هو اسم حفيد النبي صلى الله عليه وسلم، لا اعتراض عليه، لو تريدني أن أعيد اسمي الأول أفعل!

فكر يلبغا قليلًا ، ثم قال: لا بأس، بعض الأمراء يتخذون أسماء عربية أيضًا. حسن، كما تطلق على نفسك.. لو أخرجتك من السجن وفكرت ولو مرة في الإضرار بالمماليك فلن أعيدك إلى السجن. سأقطع رقبتك على الفور!

قال الحسن وهو ينظر حوله: اعذرني يا أمير، لو تكلمتَ معي هكذا أمام القضاة والأمراء والعلماء فلا قيمة لي، أتمنى فقط أن تحترمني أمامهم كسلطان البلاد، هذا هو طلبي الوحيد.

اقترب منه يلبغا ثم قال: سلطان البلاد نعم، ولكنك لست سلطانًا على المماليك، ولا تتدخل في شئون الحكم.

قال الحسن في حسم: أفعل ما تأمرني به، ولكن أخرجني من هنا.

ووافق الأمير بعد الكلام مع الحسن، واستمر محمد في الرسم، وخبأ أوراقه في مكان آمن، ولم يعد يتذكر سوى مكان الأوراق.

* * *

حسن شعر بعد فك سجنه بنشوة لا توصف، ونشوة الحرية لا يشعر بها سوى من عاش سجينًا طوال عمره، وكان قد أقسم أنه عندما يخرج من السجن سيذهب أولا إلى أحضان زوجاته، ويشبع كل الحرمان الذي عاش فيه ثلاث سنوات، ثم سيخرج إلى الأسواق متنكرًا ، ويشتري الفواكه والحلوى، ويسير على شاطئ النيل ليلًا بلا حراس، ثم يذهب ليصلي الفجر في زاوية صغيرة، ويشكر الله على نعيم الحرية، ويطلب المعرفة والفهم.

وبينما هو سجين كان قد وعد الأمراء أنه سيطيع كل الأوامر وسيشاورهم في كل الأمور، وأقسم إنه يقدر تضحياتهم ونظامهم وكل ما يفعلونه للبلاد.

وكان الحسن في بداية العشرينيات، وكان بطبيعته محبًّا للحياة ومحبًّا للدين معًا، يعيش حياته ويستمتع بها إلى أبعد مدى، ويذوب في حب الله إلى أقصى مدى، وكان قد تعلم في سجنه الكثير وفهم الكثير، وعرف أن الحياة قصيرة، وأن المعرفة أبدية.

ما إن خرج حتى زاره محمد بالتصميم، فنظر إلى الأوراق وقال: تعجبني، أحب الفكرة، ولكن اليوم أريد أن أسير بين شوارع القاهرة. عشت عمري سجينًا وطفولتي كأفقر شحاذي القاهرة. أريد أن أسير معك في شوارعها ونزور عائلتك، وأعرف من هم أهل مصر، ومن هم من يتشاجر عليهم المماليك كل هذا التشاجر ويتناحرون ويتقاتلون، لا بد أنهم قوم جبارون!

ابتسم محمد وقال: لست متأكدًا من أن المماليك يتشاجرون على أهل مصر، أعتقد أنهم يتقاتلون على مصر نفسها وليس أهلها!

- وما مصر بلا أهلها؟

- لا أدري، لم أفكر في هذا، نيلها ربما ومبانيها وكل ثرواتها،

جميلة مصر لو تمكنت منها كامرأة تستعصي عليك، ولو وهبتك نفسها تذوب بين ذراعيها.

- وهل أتمكن منها يا محمد؟

ابتسم محمد: لم يتمكن منها أحد بعد، أحلم بالمسجد الذي تريد بناءه كل يوم، بدأ يسيطر على كل أيامي ولياليَّ، حتى النساء زهدتهن والمال والأصدقاء وكل شيء، أريد فقط أن أبدأ في هذا الصرح، ولا أريد أي شيء بعد ذلك، أكمله وأموت لا أبالي.

- خذني أولًا إلى قلب القاهرة، ولو أعجبتني الرحلة نبدأ في العمل، سأبني أجمل وأكبر مسجد في العالم، تستحق مصر هذا مني.

ارتدى الحسن ملابس قديمة، ووضع غطاء على وجهه، وطلب من الحراس أن ينتظروه داخل القصر، وتسلل خارج القصر، وسار بجانب محمد وهمس: تعرف، هدنتي مع المماليك تنفع في هذه الظروف وإلَّا كانوا سيقتلونني في التو واللحظة، أعرفهم، ولكنهم يطمئنون إليَّ. وعدتهم أنني سأطيع كل الأوامر.

سارا معًا على ضفاف النيل، وتوقفا أمام عربة كبدة وسجق، وحسن كطفل صغير يرى العالم للمرة الأولى، وتبحث عيناه في كل مكان ويصفر في إعجاب، قال في حماس: انظر إلى المياه تتلألأ ليلًا وإلى سكون النهر، تذوق طعم الحياة في هذا الطعام الدسم الممتلئ بالبهارات، أريد أن أشتري حلويات أيضًا، وأن أتكلم مع المصريين.

سار بين الحواري ينظر إلى مساجد أجداده ومساجد السلاطين الغابرة، وقال في حماس: كلهم، كل ما بنوه سيكون صغيرًا أمام صرحي، أعدك يا محمد. انظر لمسجد قلاوون جدي،

حتى مسجد أبي، كل هذه المساجد ضئيلة ومتواضعة.

ابتسم محمد ثم قال: وأين ستبني هذا الصرح العملاق؟ في السماء؟ لا مكان في حواري القاهرة وعطوفها لهذا؟

فكر قليلًا ثم قال: ننغص على بعض المماليك، يستهويني مكان بعينه به قصر لأمير مملوكي.

- أخاف بطشهم يا حسن.

- لا تخف، لو قضينا عليهم قبل أن يقضوا علينا فلا توجد مشكلة، آه لو استطعت أن أقتل منهم واحدًا كل يوم.

- حسن، لا تتهور ولا تعادهم.

- قصر الأمير يلبغا اليحياوي في سوق الخيل يصلح للمسجد، من أفضل وأوسع أماكن المدينة.

قال محمد في فزع: ستفتح نارًا عليك، بناه والدك للأمير خصيصًا.

- والدي كان كريمًا معهم وهم لا يستحقون الكرم، أهل مصر يستحقون الكرم، انظر لوجوههم تبتسم مع كل هذا الأسى، مات أولادهم، وخربت ديارهم، ولم يترك لهم الطاعون فرحة واحدة، ولم تزل وجوههم راضية، خذني إلى بيت أحد أهل مصر.

فكر محمد قليلًا، وقرر أن يأخذه إلى بيت خالته فاطمة، فلم يكن يريد مصارحة إخوته بما يحدث، وإخوته يعرفون السلطان، ويعرفون شكله، وهذا خطر عليه وعلى السلطان. أما خالته فاطمة فمستهترة وجريئة، وتنسى سريعًا ولن تسأل الكثير من الأسئلة.

دقَّ باب بيتها، وكانت تسكن وحدها الآن مع بعض الخدم، مات بعض أبنائها في الوباء وبعضهم الآخر رحل خارج القاهرة، يأتون لزيارتها أحيانًا، وأحيانًا يأتي الأحفاد، وتسعد بزيارات

الأقارب، فالوحدة موحشة وكئيبة عندما تمتزج بالعجز والمرض والعمر الطويل!

فتحت الباب وعانقته قائلة: محمد ابن زينب، ابن الغالية، كيف حالك يا حبيبي؟ من معك؟

قال وهو يشير إلى الحسن: صديق غالٍ عليَّ، هل لنا أن نجلس معك بعض الوقت؟ صديقي غريب عن المدينة، ويريد أن يتعرف عليك.

أطالت نظرها للحسن ثم قالت: أريد أن أرى وجهك، أزِحْ هذا الغطاء.

تردَّد الحسن قليلًا، ثم أزاح الغطاء، فنظرت إلى وجهه وأطالت نظرها إليه ثم قالت لمحمد: كأنني رأيته من قبل، هل كان يعمل في خيال الظل في بولاق؟ أذهب هناك طوال الوقت.

كتم محمد ضحكاته وقال: لا يا خالتي، ولكنني حكيت له عنك وعن صوتك العذب.

شدَّت يد الحسن وأجلسته، وقدمت لهم الحلوى، والحسن ينظر إليها في انبهار، ثم قالت: ما اسمك يا غريب؟

ابتسم وقال: حسن.

قالت مسرعة: كاسم السلطان، ما أجمله اسمًا! يقولون: إنَّ السلطان سمَّى نفسه حسنًا؛ ليتقرب من العامة.

قال حسن في جدية: نعم، أعتقد أنه فعل.

- غشيم هذا السلطان، كان من الأفضل أن يتقرب من المماليك، من هم العامة وماذا يملكون؟!

- أهل هذا البلد.

ضربت على فمها وقالت: غريب أنت يا بني، لا بد أنك غريب، لا تعرف الكثير عن الحكام ولا عن مصر. تريد أن تسمع غنائي؟

قال في حماس: أتمنى هذا.

بدأت تغني وهي تقرب كفها لوجنتها وغاصت في الغناء، وعندما انتهت قالت: سمعتَ قصة الأمير الذي أحب زينب؟

- لم أسمعها.

- أم محمد هذا تزوجت من أمير مملوكي، هذا غير مألوف في بلادنا، وأنجبت منه خمسة أولاد، محمد أصغرهم، كانت تعشقه ويعشقها، زهد في كل النساء من أجلها ولم تتحمل العيش بعده كثيرًا، أولادهم ليسوا مماليك، بل أولاد ناس، ولكن ترى أحفادهم ماذا يكونون؟

قال مسرعًا: من أهل مصر.

- أتساءل دائمًا: ماذا يحدث لأولاد الناس في هذه المدينة؟ يتوهون بين أروقتها، وينصهرون بين بقية الناس، هذه المدينة غريبة، تبتلعك كالنهر، وتفقدك الذاكرة والهدف، كلنا فيها مجاذيب؛ لذا كان من الأفضل للسلطان أن ينسى العامة ويفكر في المماليك!

قال مسرعًا لا يعرف لماذا: خالتي. أنا السلطان حسن.

نظرت إليه، أطالت نظرها له، ثم قالت: وجهك مستدير وجميل وعيناك خضراوان، ما أجملك!

لم يبد عليها أي دهشة، ابتسم محمد ثم همس له: كبرت في السن وأحيانًا تفقد التركيز.

قالت وهي تقوم: سأطبخ لك يا بني، ابقَ معي اليوم ، أريد أن أحكي لأحفادي أن السلطان قضى ليلته في بيتي، وسمع صوتي، كان زوجي يكره سماع غنائي، غار في ستين داهية، رجال بشعة، لا بأس. يعجبك غنائي؟

ابتسم: جميل يا خالتي.

اقتربت منه وأمسكت بيده وقالت في جدية: تريد أن تعطي

القوة والسلطة للعامة؟ تهتم بأمر العامة؟
- أهتم بهم وأقدرهم.
اقتربت أكثر ونظرت إلى عينيه، وقالت: تذكر.. ربما لا يدركون ولا يفهمون، وربما يستمر الضلال بين أركان البلاد، وربما تُغضب من لا قبل لك به، احترس وتوخَّ الحذر. تتذكر زينب؟ قُتل زوجها غدرًا. المماليك أعمارهم قصيرة، ولكنهم يحبون العيش فوق العباد، وأنت تحب العامة... مشكلة!
أكلا معًا وضحكا معًا، وجهزت له سريرًا بملاءة زوجها التي تحتفظ بها ولا تستعملها أبدًا، وفي الصباح ربت على يدها وقال: خالتي. أشكرك على كل شيء، تحتاجين إلى شيء؟ أيِّ شيء؟ بيت جديد؟ مال؟
ابتسمت وقالت وهي تسند على يده: أحتاج عمرًا جديدًا وفرصة لأغني في بولاق.
ضحك ولم يجب، فقالت وهي تشده ناحيتها: أريد أن أقبِّلك يا حسن قبلة في خدك؛ لأقول إنني قبَّلت خد السلطان.
أعطاها خده فقبلته، وربتت على كتفه وقالت: تحب العامة! ما أحزنك! اذهب بسلام.
* * *
مجلس السلطان اليوم كان مختلفًا والموضوع الذي ستتم مناقشته كان أخطر من غزو التتار والصليبيين معًا.
بقي محمد ساكنًا والسلطان يتكلم في حماس عن المسجد والمدرسة، وعن الصرح الذي سيبقي تاريخ المماليك إلى أبد الآبدين. ثم طلب من محمد أن يصف الصرح الذي سيبنيه.
علت دقات قلب محمد، ووضع الرسوم على الطاولة، وبدأ يشرح في حماس وهو يشير إلى الرسوم: هذا المسجد سيفوق في مساحته كل المساجد، سيخلد ذكرى المماليك

إلى أبد الدهر، أريده أن يكون أكثر من مئتين وسبع وسبعين ذراعًا في طوله، وأكثر من مئة وخمس وعشرين ذراعًا في عرضه، وأريد أن أبني أربع مآذن، وأن تطول القبة كل القلاع وتفوق كل القبب، اتفقت مع السلطان على بناء أربع مدارس مع المسجد للمذاهب الأربعة.

ثم أشار بإصبعه لكل مدرسة: المدرسة الشافعية هنا، والمدرسة الحنفية والمالكية والحنبلية، هذا الصرح ليس للصلاة فقط بل للعلم، صرح للحياة وليس ضريح موت، أريده أن يتسع لأكثر من خمسمئة طالب ومدرسين ومراقبين وأطباء وعلماء.

قال الحسن في حماس: أريد مكتبين ومعلمين لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن، العلم غاية وسبيل إلى الوصول، وسأدفع من خزانتي لكل طفل يتعلم ويحفظ القرآن ولكل معلم علَّمه.

نظر إليه يلبغا في تهكم ثم قال: وخزانتك هذه لا تفنى، من يزودها بالنقود؟ وكأنها ماء النيل يأتي الفيضان ليزيدها كل عام، أيُّ فيضان يأتي لك يا سلطان؟

فأكمل الحسن: بل سأدفع لهم ثمن الكسوة والطعام أيضًا، مسجدي سيصبح مكانًا للعلم والفقه والحياة كما قال محمد، أكمل يا محمد.

فقال محمد وقلبه يخفق بشدة: هذه بناية لن يبني مثلها ملك ولا سلطان. وإيوان مسجد السلطان حسن سيكون أكبر من إيوان كسرى، وقبته ستفوق في ارتفاعها كل القبب في كل البلاد وعند كل المسيحيين والمسلمين، ومئذنته ستعلو على بنايات العالم أجمعين.

ردَّد السلطان حسن: لن يبني مثلها ملك ولا سلطان!

استمع له الأمراء في صمت، ولم يُبدوا أي حماسة، ثم قال الأمير يلبغا في جفاء: وأين ستجد المال الذي يكفي لإنشاء هذا المسجد العملاق الخرافي؟

نظر إليه الحسن برهة ثم قال: أراك لا تقدر سلطانك يا أمير، ولا تعرف قدراته، فكرت في الأمر، كل الأوقاف والبيوت المهجورة التي مات أصحابها في الوباء ملك للدولة نتصرف فيها، ومن أموالها نبني المسجد.

قال الأمير في ضيق: ولم التبذير؟ ابن مسجدًا مثل مسجد أبيك، لماذا تريد الزهو حيًّا وميتًا؟

- تذكر أنك تتكلم مع السلطان.

قال يلبغا في حسم: أنا من جعلتك سلطانًا، تذكر هذا أيضًا، مولاي، أموال البيوت والأوقاف لن تكفي، ستدمر خزانة الدولة بمبنى بهذا الشكل، وأمر آخر خطير لا بد من الحديث عنه الآن، بالنيابة عن كل الأمراء أريد التحدث معك عن رجالك المقربين وكل من أعطيته مناصب في البلاد.

قال الحسن في قوة: تكلَّم.

- لا يوجد مماليك بين رجالك المقربين يا سلطان، كل من له الولاية، وكل من يجلس مع السلطان، وكل من يحكم، وكل رجال القضاء والشرطة من أولاد الناس، حتى مُشيِّد العمارة الذي استعنت به من أولاد الناس.

بقي محمد ساكنًا ويلبغا يشير إليه.

فقال السلطان في حماس: أعرف. أريد للمماليك أن يتفرَّغوا للحروب والأخطار، وتترك الحكم لأولاد الناس؛ فالحرب أمر أخطر وأهم من الحكم، وأولاد الناس يتعاملون مع العامة أكثر من المماليك، يتزوجون منهم ويعملون معهم، هم منهم ومن المماليك، حلقة وصل بين العامة والمماليك، لا يوجد أفضل من

أولاد الناس لمساعدتي، تفهمني يا يلبغا؟ وكل امتيازات المماليك لا تمس.

- كيف تفكر؟ كيف فكرتَ في هذا؟ أيُّ خبرة لديهم؟ من هم أصلًا؟ لا تدربوا على الحروب ولا تعاملوا مع دهاء العدو، لا نظام ولا صرامة ولا فهم، حزمة من المرفهين والأغنياء ليس لها بحكم بلد كهذا، لن تقوى ولن تستطيع، ستدمر مصر والشام والحجاز وربما بغداد واليمن، من يدري؟ أولاد الناس لا يقدرون ولا يرقون لحكم مصر.

أطال الحسن نظره إليه ثم قال: يعرفونها أكثر من المماليك، ويعرفون مشاكل العامة وطلباتهم، لا تستهن بالعامة يا يلبغا، لو أرادوا واتحدوا مع الأعراب لعمَّ الخراب والفساد.

- لا العامة يجرءون ولا الأعراب يجرءون، طالما الجنود يتربصون بأي مخرب، أما إذا حكم البلاد أولاد الناس فسوف تذهب هيبتكم، ولانكسر المماليك، وانكشحت دولتهم، وانتهت كالدول قبلها، للرفاهية ثمن يا مولاي، اعذرني ليس لمن يقضي وقته في القراءة والحرملك والسير بين الأزهار في حدائقه البراقة الحكم على هذه الأشياء.

قام الحسن وقال في قوة: اخرج من هنا يا يلبغا قبل أن أقطع رقبتك أمام الأمراء، ولم يعد يخيفني شيء، لو أردت قتلي فاقتلني، ولكنني أهتم بهذا البلد وبالمسجد. لو قتلتني فسيكتمل المسجد، فهدم مسجد ليس من عادة المماليك البحرية أو هكذا أعتقد.

قال يلبغا في حسم: حَكَمَ والدك سنين لأنه احترم المماليك ولم يغدر بهم، افهم واستوعب، أم أنَّ حماقة الشباب تعمي بصيرتك؟!

* * *

بدأ محمد تصميم المسجد وهجر زوجاته واعتكف عن كل العالم، ولم يعد يتذكر سن أولاده ولا شكلهم، وكأنه أصابه مس من الجن. أصبح مهووسًا بالجامع، ولا ينام ولا يشرب إلَّا وهو يفكر فيه، يحلم به ليلًا ويتخيل أروقته ومدارسه وحجمه الذي سيستعصي على العين المجردة أن تلم به، وكان يحلم بمرور العصور وخلود اسمه وبقاء المسجد شاهدًا على عبقريته. عاش حياته يبحث ويحاول الفهم، ولم يجد الرضا في حب ولا مال ولا نفوذ ولا حتى بلد وسكن، لم يجد الرضا إلا بين أركان أحلامه ومحاربة الزمن والانتصار عليه؛ ففي الإبداع يكمن الخلود، وفي التشييد تكمن القوة، وفي الرسم تكمن المعجزة، وفي الانتهاء من البناء الرضا والاستقرار. لم يعد يريد شيئًا، ولم يطلب أجرًا. بدأ العمل وهو يفكر فيمن سيزور الصرح، ومن سيبدي إعجابه به، ومن سيرسمه ويشيد به، كم من القادة والسلاطين، وكم من مُشَيِّدي العمائر والمصلين، وكم من العامة والمماليك، وكم من الناس سيمرون عليه ويشهقون في ذهول من عظمته!

كم من الناس سيبحثون ويقرءون اسم محمد بن محمد بن بيليك المحسني كمشيد للعمارة، حلم بعده يهون العمر وكل ملذاته، وكم من عاشق أضاع حياته في البحث والشوق، وكم من باحث أضاع حياته بين خبايا الضلال وهو الهائم والمجنون!

كلما انتهى محمد من جزء من المسجد كان يزوره المرة تلو الأخرى، ويحدق فيه ساعات، ثم يدور بعينيه حول مساعديه والخطاطين والحرفيين، ويستنشق هواء الإبداع المفعم بالرضا والشجن، ثم يستمر.

وبدأ في تصميم الباب النحاسي للمسجد والتنور، وأصبح معروفًا بين الحرفيين بدقته، وإتقانه وجنونه، وكم من مرَّة طلب منهم أن يعيدوا العمل مرَّة ومرَّات، وكم من مرَّة لم تعجبه

الزخارف، وكم من مرَّة قاس المسافات وراجع كل عملهم. أصبح العمال يتمتمون بالشتائم ويفكرون في ترك العمل، ولكنهم استمروا لقلة العمل في البلاد، وتحملوا مشيِّد العمارة الذي غلب الأمراء في طلباته التي لا تنتهي، وكأن صرحه لا بد أن يبقى طوال الدهر، وكأن باب الجامع سيفتح أبواب الأرض بكنوزها، وينتصر على الزمن ويرضخه. وعندما انتهى من الباب وزخرفته طلب من السلطان أن يأتي بنفسه ليتفقد الصرح والإبداع، ويشهد على خروج المارد من الأضلع وإعطائه حرية الانطلاق.

بدا على الحسن الدهشة والنشوة وهو ينظر إلى الباب، ثم قال: محمد.. يساورني الشك في أنني سأنتهي من هذا المسجد وأدفن فيه، يتكلف عشرين ألف درهم يوميًّا، وأمراء المماليك يحسبون كل أموالي ويراقبونها.

قال محمد في تأكيد: ولكنك تبني مسجدًا ولا تصرف أموالك على ملذات.

قال الحسن في يقين: نعم، معك حق، لن أتوقف عن بناء مسجد، أيُّ سلطان يفعل هذا؟! أريده أن يعيش دهرًا ويشهد على عظمة البلاد.

ثم اقترب من محمد وقال: صديقي، يدبرون لي المكائد كل يوم، لو لم أتخلص منهم سريعًا لقتلوني كما فعلوا مع أخي وكما يفعلون دائمًا.

قال محمد وهو لم يزل ينظر إلى الباب: لا بد من الحذر، لا تغضبهم جميعًا، ولا تقبض عليهم مرَّة واحدة، تعلَّمْ من والدك، كان يصبر عليهم ثم ينتقيهم واحدًا تلو الآخر، ولكن لا بد لك من بعض الأمراء الموالين لك كما كان يفعل والدك، تذكر كان والدك يقول: السلطان بلا جنود مماليك لا يملك عزوة ولا شرعية.

ألديك أمراء موالون لك؟

بدا على الحسن الحيرة، ولولا أن محمدًا كان تحت تأثير سكرة الإبداع لكان سيشفق على صديقه الشاب؛ فقد بدا أكثر وحدة وتوحشًا من أيٍّ مرة رآه فيها.

قال الحسن: محمد، حولي أبنائي وزوجاتي وبعض الرجال، ولكنني لا أثق في أي أمير مملوكي، لا أعرف كيف يفكرون ولا ماذا يخططون. بلغني موعد قتلي وإذا لم أتحرك قبل أن يتحركوا أضيع، لا بد من التخلص منهم. أنت تعرف، وأنت صديقي الوحيد وأخي. أنت تعرف لماذا أثق بأولاد الناس، أليس كذلك؟ ولدوا أحرارًا وليسوا عبيدًا، والأهم من كل ذلك أنهم ولدوا في مصر، ومن مصر يتزوجون من أهلها ويتكلمون لغتها، بعد سنوات يصبحون منها، مع أنهم أبناء المماليك. يهمني أهل مصر، أعرف الأفضل لهم، والأفضل لهم ألَّا يتولى المماليك أمرهم.

قال محمد: الكل يتكلم عن الأفضل لأهل مصر يا أخي، فكر في أمرك أنت أولًا. فالأفضل لأهل مصر لا يعلمه أحد، بلاد عجيبة تبدو للوهلة الأولى سهلة ومفهومة وتذهلك بمفاجآتها.

لم يستطع محمد أن ينتشل عينيه من الباب، ولكنه ربت على كتف الحسن، وقال: أنت أخي الصغير، تعرف هذا. مات والدي وأنا في الثامنة، ومات السلطان الناصر محمد أيضًا وأنت في حوالي السادسة. في زماننا موت الأب هو ضياع الهيبة والقوة، أشعر بك يا حسن وأتعاطف معك. وأفكر فيك طوال بنائي للمسجد.

دار الحسن بعينيه حول المسجد وقال: لم أرَ في جماله. يفوق كل المساجد في ارتفاعه وشموخه.

استمر في بناء المسجد، وطلب من السلطان طلبًا واحدًا، أن

يكتب اسمه بوصفه مشيِّد العمارة لهذا المسجد بعد اسم السلطان، ولم يكن يسمع أخبار السلطان، حتى الحسن لم يعد يراه أو يسأل عنه، بنى المئذنة الأولى والثانية والثالثة ولم ينتهِ من الصرح، يحتاج إلى أعوام وأعوام، ولكن حدثٌ حدث جَلَل غيَّر كل الخطط.

* * *

افتتح السلطان جزءًا من الجامع للمصلين، وجاء المصلون من كل فج عميق، وفجأة انهارت عليهم المئذنة الثالثة في أثناء الصلاة، وبدا أن الحسن حقًّا ذو حظ سيئ من الطفولة.

سقوط المئذنة على المصلين كان كارثة أبشع بالنسبة للعامة من كارثة الطاعون نفسه، مات ثلاثمئة مُصَلٍّ، وتحاشى المصريون الذهاب إلى المسجد تحاشيًا تامًّا، بل أصبح السلطان فألَ شؤم وخراب على مصر والشام. وأشاع المماليك خبر نحس السلطان الذي يصيب الجسد والبلد وكل الناس، حتى المساجد لا تسلم من نحس السلطان الذي تخلى عن المماليك، وعهد بزمام البلاد إلى أولاد الناس المرفهين الفاسدين الذين لا يملكون خبرة ولا نظامًا. سيعم الخراب وسيأتي الجفاف، وسيغضب النيل كما غضب المسجد، وسينتهي حال البلاد. ماذا فعل السلطان حسن ليتودد إلى المصريين؟ لماذا يحبه العامة؟ تفشى أمر النحس الذي يصيب كل من يقترب من السلطان أو مسجده، وأصبح الجميع يهابونه ويتحاشون الحديث عنه. لم يكتفِ السلطان بموت المصلين خطأ بل خرَّب الخزانة وقضى على الأموال.

في عهده تفشى الوباء وعمَّ الفقر وترعرع الموت، وابتعد ذوو الخبرة والمعرفة وانتشر الجهل، أيُّ سلطان هذا؟! وأيُّ مسجد وأيُّ دولة؟!

علت همسات المصريين والمماليك، وحتى أولاد الناس شعروا بالحرج بعد تحطم المئذنة وموت العامة من الأطفال والكبار وهم يصلون. إن لم يستطع السلطان أن يبني مئذنة واحدة فكيف له أن يحكم بلاد المسلمين؟! ومن سيحمي؟ ومن سيردع؟! تفشى الخبر، هو الحسن، السبب في الظلم، هو الحسن السبب في الفساد، هو الحسن من يريد الزهو بمسجده وفناء شعبه وجنوده، شاب في العشرينات يقضي على بلد عاش آلاف السنين، من يرضى بهذا؟! ومن يصمت؟ ومن لا يثور؟!

من يثور؟!

العامة لا يثورون. لا يقوون على شيء بعد الطاعون، لم يتبقَّ الكثير ليفقدوه، ولكن إذا ثار المماليك فلن يبالي العامة، سلطان ولَّى وسلطان عائد، لا بأس.

أما محمد فبقي هائمًا لا يصدق هذه المأساة، ولا يعرف هل هو السبب فيها أم مساعدوه؟ بكى كالطفل الصغير وزار قبر والديه وطلب المغفرة؛ لأنه لم يصل ولم يعرف، ولكن المارد بين الأضلع لا بد أن يخرج، وإلَّا قضى عليه، لا يستطيع التوقف ولا الاستسلام، هي ليست مشكلة المسجد ولا الحسن ولا البناء، هي روحه التي تَخِزُّهُ وخزًا وتحثه وتؤرقه وتحفر في قلبه بسيف بارد، إمَّا أن يكمل الصرح وإما يُقدِم على الانتحار، لا يوجد طريق آخر.

توقف البناء.. وجاء موعد قتل الحسن.

* * *

مقتل السلطان الحسن كان حدثًا مجهولًا ولم يحظَ بأيِّ اهتمام؛ فلكل بيت مصيبة، ولكل أسرة في مصر غاية وهدف، بعض الناس يبحث عن الخبز، وبعضهم يريد شراء جهاز الفتيات،

وبعضهم يريد أن يتحايل على المحتسب، وبعضهم يريد أن يهرِّب زجاجة خمر مع غانية في حارة، وبعضهم فقد الأمل، وبعضهم يتنهد في يأس، وبعضهم يتحمل في صبر ويستمر.

يوم ذبح الحسن كان يومًا مبهمًا ومظلمًا، ولكن نهايته مستساغة ومعروفة. عندما جرَّه الجنود لقتله داخل حديقة قصره لم يحاول الفرار أو المقاومة، وعندما وقف أمام أمرائه قال أحد الأمراء في قوة: نقتلك لأنك خراب على هذا البلد، مصر تحتاج إلى من هو أفضل منك، تبذر الأموال وتبني الصروح، وتولِّي أولاد الناس، وتعبث بالبلاد وكأنها حديقة ورثتها عن جدك! هذه نهاية توريث حكم مصر.

قال في يقين: أحبُّ مصر، وأهلها يعرفون هذا ويصدقون، اقتلوني، ولكنني فعلت هذا من أجل مصر.

قال الأمير في تهكم: مشكلتك ومأساتك أنك طفل لا يفهم ولا يعي، أهل مصر لا يفهمونك ولا يحبونك، ولا يعرفون ولا يشعرون بأهدافك السامية!

ضرب رأسه بالسيف ثم قال: كنت تنوي سجن كل المماليك؟ تعتقد أننا لم نعرف؟ كنت ستنتهي منهم كلهم اليوم، مراهق وطفل لا تفهم البلاد ولا تعرف المماليك، ستموت بلا ضريح ولا تابوت، لا تستحقهما يا حسن، وستظلُّ بعد وفاتك مجهولًا وفاشلًا، لا يعرفك أحد ولا يأبه بك أحد، سينساك التاريخ يا مجنون، فلم يعد لك وجود على الأرض.

ذبحه الأمراء وسط حديقة قصره، ثم وضعوا الحجر حول رأسه أولًا، ثم حول جسده، وألقوا بهما معًا في أعماق النيل، اختفى أثره، وذهبت سيرته.

وقرَّر الأمراء التوقف عن بناء المسجد الذي خرَّب ميزانية الدولة وأتى بكل هذا الدمار.

وتوقف البناء، وجُنَّ جنون مشيِّد العمارة محمد، أصبح يدور حول نفسه ويبحث عن الأمراء والسلاطين، ذهب إلى السلطان الجديد وخاطب الأمراء وقال: لا بد من اكتمال المسجد حتى ولو مات الحسن، لا يهم موت الحسن، كان يريد أن يدفن فيه ولم يدفن فيه، ولكن لا بد من اكتمال المسجد، في وقف البناء الفقر والمرض، هذا بيت الله لا بد من اكتماله؛ حتى لا تصاب البلاد بوباء جديد، أنا أكمله ولا أريد أجرًا، اتركوني أكمله.

ولم يستطع الأمراء ترك المسجد غير المكتمل، أيُّ فأل هذا؟ وأيُّ نحس سيصيبهم؟ اكتمل البناء بعد مقتل السلطان بعامين، وتنفس مُشَيِّد العمارة في ارتياح، وكتب اسمه مع السلطان.

كان قد نذر أنه سيقوم بزيارة قبر والديه وحده، وسيدفن التصميم في مسجدهما، وسيوزع على روحيهما الخبز والسكر، ولن يصطحب أيًّا من إخوته، فقد أراد مرة واحدة أن يتقابل مع والديه دون حاجز ودون مفسر للماضي، يتذكر من الماضي ما يتذكره، ويعرف عن والديه ما يعرفه، ويحتاج أن يكون معهما وحده.

خطف الأطفال الحلوى من بين أصابعه، وأخرج هو التصميم، واتجه إلى قبر أبيه، جلس أمامه ورفع الأوراق وقال في صوت متأثر: أبي، تتذكر الباب في قصر السلطان؟ لا بد أنك تتذكر. تكلمنا عنه في زيارتنا للسلطان، كنت فخورًا بي لأنني شجاع، بنيت بابًا أفضل منه آلاف المرات. لا تغضب مني؛ لأنني لم أصبح محاربًا مثلك، ما بنيته يخلد ذكراك ويبقى بعد فناء البشر، ما أسهل فناء البشر، بعد الوباء شعرت بضآلة الإنسان وتفاهته، أريد للأوراق أن تبقى بجانب رأسك دومًا، رسمت لك المسجد، ورسمت لك الباب. لا أدري متى سآتي لأزورك من جديد،

ولكنني أريد أن أخبرك كم أحبك، أراك في مخيلتي طويلًا مهابًا ومحاربًا عادلًا، وأسمع عنك كل خير، كنت رجلًا مختلفًا، وجازفت وابتكرت، أتمنى أن أكون مثلك بطريقة ما، تتذكر، انتظرت أعوامًا لتهدي أمي المصحف المرصع بالذهب، تعرف، لا بد أنك تعرف أن الحروب تذهب هباء لو لم نسجلها ونخلدها بالعمائر، لا وباء يقتل العمائر ولا غدر يغتالها. أعرف أنك تسمعني، وأعرف أنك فخور بصرحي، أعدك بأن اسمك سيتردد إلى أبد الآبدين، تستحق هذا؛ فقد كنت رجلًا غير عادي، أحبك، اعذرني إن كنتُ أعبر عن مشاعري وكأنني لست محاربًا، ولكنها لحظات ربما لا تتكرر.

ظلَّ ساكنًا أمام القبر برهة، ثم اتجه إلى قبر أمه، وقال في رفق: ما زلتُ أتذكر تشبثك بي يوم وفاتك، ترى أكنت تخافين عليَّ أم تنادين أبي، عيناك كانت ممتلئتين بالحنان دومًا، أمي، أردت أن أحب بكل نفسي، وأحببت هذا الصرح. وانتهيت من البناء والنفس لم تزل تتمنى وتنتظر، لعل سجدات الطالبين داخل المسجد الذي شيدته تغفر الذنوب وتعوض الفقد والحزن، كُتِب علي الحزن على ما يبدو، تفهمين، أنت لا بد تعرفين، عيناك تسبران الأغوار وتصلان إلى ما لم يصل إليه غيرك، أمي!

قبَّل قبرها في رفق ورحل.

ثم عاد إلى زوجتيه فلم يجد مكانًا في حياتهما ولا حياة أولاده، وكان العمر قد مرَّ والفجوة التي تركها قد امتلأت، فرحل إلى الإسكندرية باحثًا عن تاجرة صقلية ولم يجدها، كان بيتها مهجورًا، واشترى بيتًا على شاطئ البحر، وقضى بقية أيامه يتأمل ويفتخر في راحة ورضا وحيدًا وسط رمال البحر. كان يزور المسجد بين الحين والآخر، ويجلس بين أركانه يستمع إلى شهقات الحاضرين ويفتخر في صمت. لبلوغ المراد فناءٌ من نوع

خاص، وفجوة الأضلع بعد خروج المارد تعذبه وتَخِزُه من حين إلى آخر، وكان يعرف ويوقن أنه لن يستطيع أن يقوم بإبداع آخر، وأن مأساة المبدع هي انسكاب المارد من داخله، لم يزل معذبًا أحيانًا وراضيًا بعض الوقت، ومنتظرًا الوصول كثيرًا.

* * *

ولم يتبقَّ من السلطان الشاب سوى صرح لم يبنِ مثله أحد من السلاطين، لا دفن فيه ولا رأى نهايته وجماله... ولكنه لم يزل يعطي للمدينة لونًا براقًا زاهدًا وينطق بكلمات كثيرة، ويشهد بأن وسط المؤامرات يأتي الإبداع، وفي رحم الحزن تولد العظمة، وبين حنايا القتل تنتشر الحضارات وتترعرع. شاهد المسجد على العمر. لا أحد يعرف السلطان حسن ولا كيف مات، ولم يعرف العامة اسم المهندس إلا بعد عمر طويل.

ولم يزل جامع الأمير محمد حيث دفن مع زوجته أيضًا باقيًا في قرافة المماليك أعوامًا، وبقاياه لم تتناثر إلا بعد الكثير والكثير من الأعوام. دفن الأولاد والأحفاد في نفس المكان، وكانوا أولاد ناس، وليسوا مماليك. ثم تناسى العامة سيرتهم سوى القليل، ولم يعمر من عائلة زينب سوى فاطمة ابنه خالتها، لم تزل حية وهي قد تجاوزت الثمانين. لا تقوى على الحراك، عاصرت وباء بعد وباء وسلطانًا بعد سلطان.

وبدأت ذاكرتها تخونها بعض الشيء كما خانتها أطرافها، ونسيها الأبناء من الجيل الجديد، ولم يعودوا يسألون عنها إلا في الأعياد والمواسم، وفي هذا اليوم بالذات في عيد الفطر، الحفيدان يطلبان السماح والعفو، ويريدان التكفير عن نسيانها حولًا بأكمله.

قالت بصوتها المبحوح المقهور إنها ستسامحهما لو أخذاها في جولة خارج المنزل، فهي لم تخرج منذ عامين. نظر كل

منهما إلى الآخر ثم قالا: نخاف عليك يا جدتي، ستموتين لو خرجتِ.

ابتسمت وبينت لثتها التي تجرَّدت تمامًا من الأسنان ثم قالت: وماذا يحدث لو مت؟ أيُّ جيل أنتم؟ جيل عَفِن أقسم لكما، خُذاني إلى المسجد الجديد، لم أره من قبل.

نظر كل منهما إلى الآخر، وفكرا جديًّا في تركها والرحيل، ولكن يوم العيد يوم بركة، وإذا دعت عليهما السيدة العجوز فستنهار حياتهما أكثر من كل الانهيارات التي تمر بالبلاد.

قالا في عدم صبر: تريدين الذهاب لمسجد السلطان حسن؟

- أريد الذهاب إليه، من هذا السلطان؟ هو يحكم الآن؟

التفت كل منهما إلى الآخر ثم قالا: لا.

- ما اسم السلطان الآن؟

- الأشرف بن حسن بن ناصر.

- كنت أظن أنَّ اسمه المنصور؟

- هذا كان السلطان السابق يا جدتي.

- متى تغيَّر؟

- العام الماضي.

- وأين الحسن؟

- مات.

- سنذهب إلى مسجده؟

- نذهب يا جدتي.

- وسأحكي لكما عن ابنه خالتي التي عشقت المملوكي، تعرفونها؟

- حكيتِ قصتها من قبل يا جدتي.

- تسمعانها من جديد يا أولاد الصرم! كل هذا الجفاء! لا أراكما

سوى كل عام أو اثنين، ثم تتعاملان معي كالمحتسب الظالم، وتهربان مني وكأنني أختلس أموالكما، تستمعان لي من جديد، أين المسجد الجديد؟ جميل؟

حملاها إلى المسجد فالتفتت حولها وقالت: تعرفان يا رعاع، زارني السلطان في بيتي منذ بضعة أعوام.

انفجر الحفيدان في الضحك، ثم أشار كل منهما للآخر أن جدتهم خرفت وفقدت عقلها فقدانًا تامًّا.

قال أحد الأحفاد: أي سلطان يا جدتي؟

- السلطان حسن، وجهه كالبدر أبيض وعيناه خضراوان، شاب في عمر الزهور، طلبتُ أن أقبِّل وجنته، وجعلني أقبِّلها، أحببته لا أعرف كيف.

ضحكا من جديد، فنظرت إليهما في غضب، ثم قالت: لا تصدِّقان يا أغبياء! ولِمَ أكذب؟ أقول لكما شيئًا، مُشَيِّد العمارة الذي بنى هذا المسجد هو ابن ابنة خالتي وصديقتي زينب التي تزوجت من الأمير المملوكي غصبًا، ثم وقعت في حبه... كانت بارعة الجمال...زينب..

قاطعتها حفيدتها: نعرف يا جدتي. أخبرتِنا من قبل.

- متى أخبرتك يا بنت الكلب؟! لا احترام في هذا الزمن المشئوم! أين محمد الآن؟

- لا نعرفه، ولا نعرف أين هو.

- من مات في الوباء؟

- الكثير.

- ومن السلطان؟

- الأشرف

- هل هو سلطان عادل وقوي؟

- لا نعرف يا جدتي، يتغيرون كل عام.

- أهم شيء أهو من المماليك؟

- من سلالتهم نعم، لماذا تهتمِّين بهذا؟ اهتمي بصحتك، وانظري إلى المسجد البديع.

- الحسن لم يزل يحكم؟

- لا يا جدتي قُتل منذ زمن.

قالت في تأثر: قُتل، ما هذا الحزن! كان طيِّبًا أليس كذلك؟

- لا تشغلي بالك يا جدتي، كل السلاطين سواء.

-نعم، لا بأس، من يحكم مصر الآن؟ ذكريني من جديد ما اسم السلطان؟

* * *

على هامش التاريخ:

مسجد الأمير محمد بن عبد الله المحسني الذي دفن فيه مع زوجته وبعض أبنائه وأحفاده هُدم في زلزال القاهرة في بداية القرن العشرين، ولكن بقيت بعض أركانه، وبقي حائط المدفن حيث اسم الأمير وزوجته زينب. كان له زوجة واحدة، ولم يملك أيَّ جَوارٍ. وجد الدكتور صلاح السنوسي بقايا المسجد في قرافة المماليك، وقرأ الأسماء على جدار المقبرة.

وفي رحلة البحث اللاهثة للدكتور صلاح السنوسي وجد أيضًا في دار الكتب في منتصف الخمسينيات نسخة القرآن التي نسخها الأمير محمد لزوجته زينب بنت أبي بكر المقشعي بماء الذهب. بعد دعاء المصحف كان الإهداء واضحًا من الأمير محمد بن عبد الله المحسني إلى زينب بنت أبي بكر المقشعي، لم يزل المصحف موجودًا في القاهرة.

أما مسجد السلطان حسن الذي شيَّده وصمَّمه الابن محمد بن بيليك المحسني وتحت إشرافه الكثير من المساعدين فلم يزل حتى الآن تحفة فنية في العمارة والبناء، لا يضاهيه مسجد آخر في القاهرة، ولا في كل بلاد المسلمين. قال عنه المقريزي: «فلا يُعرف في بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع وقبته التي لم

يُبنَ بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها». لم تنته حكايات المسجد، عاصر الكثير من الأحداث والأيام، خلال عصور المماليك وما بعدها.

في عام 1416م عندما شرع السلطان المؤيد شيخ في بناء مسجده، وكان من المماليك البرجية، بحث عن أفضل باب في كل مساجد القاهرة ليضمه إلى المسجد، وعرف أنه الباب النحاسي المرصع والمزخرف بدقة لمسجد السلطان حسن، فنقله إلى مسجده في نفس العام ولم يزل هناك.

قرأت حفيدة الدكتور صلاح الرواية، لم تزل تقضي يوم السبت داخل مسجد السلطان حسن تستمع إلى الابتهالات وتصلي في أحد أركانه، وتحاول الوصول إلى الرضا أو الفهم. لم تزل تحمل الحفيدة مشكاة ورثتها عن جدها صنعت في فينيسا في الخمسينيات تدور بها وسط مساجد وزوايا المماليك، وتفتش عن أسماء تجار صقلية وعن الضوء الخافت أحيانًا، الساطع كثيرًا.

جوزفين حفيدة الدكتور صلاح أيقنت أن الحكي لم ينته، وأن رواية الدكتور صلاح هي البداية وليست النهاية. فكتبت هي...

أبناء الأمير محمد وزينب وأحفادهما كانوا أولاد ناس، ولم يزل أحفاده يتناثرون بين أرجاء مصر، ناس فقط، وربما أولاد ناس، لا أحد يدري.

قاضي
قوص
المماليك:
الحكاية
الثانية

«وأعرف يا بني أن ما تراه العين هو ما تريد أن تراه دومًا، بينما الحقيقة تختفي كالهلال قبل الظهور. الضلال.. ما أوضحه! يسطع كبياض الصبح، كلنا نسير وراء موكبه، أما الحقيقة فطمس وظلام».

بائعة الملح

مسجد السلطان حسن بالقاهرة 2017م

لفراغ النفس رهبة وجلال، ولمهام الروح حماسة واستقلال، وللجلوس في هذا الركن بجانب المنبر المغلق للإصلاحات منذ أعوام شعور بالأمان، لا أشعر به في أي مكان آخر. هنا التاريخ والعمر الضائع في أوهام البحث وإدراك العجز.

كنت أجلس هناك ساعات، تركت البيت والولد، وانتقيت هذا الركن بعيدًا؛ لعلي أصل أو أفهم. في كل رحلة وصول وقصة مكتملة، وفي كل قصة مكتملة فوز وراحة للنفس التائهة، وفي الحب كل الضلال والخلاص، وللشوق المستحيل مرارة وإدراك.

في هذا المسجد أتذكر حماس جدي دكتور صلاح، وغضب أمي وسخطها، وموتها وحيدة في بلاد بعيدة. أجلس اليوم وأبحث منذ عامين عن قصة غير القصص، وتاريخ غير التاريخ، وماضٍ يساعدني على الوصول إلى السكينة.

في كل قصة قطعة من نفسي، ربما أو كل نفسي. لتعاستي أسباب كثيرة، بعضها واضح، وأكثرها مبهم. هي الوحدة المنتشرة بين أركان الروح، استقرت منذ الأزل، تكره المنافسة، لا تترك مكانًا لغيرها أبدًا.

بحثت كثيرًا عن هذا التاريخ وهذه القصة، قاضي قوص.... اسمه موجود في الكتب والمخطوطات، عمرو بن أحمد بن عبد

الكريم المناطي.

سمعت صوت الشيخ يقول في رفق: أتحتاجين إلى شيء؟ أراك هنا منذ شهور، تأتين، تجلسين، تصلين..

قلت في هدوء: أحب الصلاة وحدي، في الوحدة استسلام لله لا أجده وسط الجموع.

- تبحثين عن شيء؟

- ربما تعرف جدي، كان يأتي هنا كثيرًا في الماضي، مات منذ أعوام.

نظرت إلى الشيخ، بدا في الأربعين. لا بد أنه لا يعرف جدي.

قلت وأنا لست متأكدة بعد من أنني أريد الكلام معه: جدي كان مع الدكتور حسن الذي اكتشف اسم المهندس الذي بنى هذا المسجد، محمد بن بيليك المحسني.

بدا أنه غير مهتم وقال: أنت عالمة آثار؟

قلت في تأكيد: أبحث منذ زمن..

- عن المهندس الذي بنى الجامع؟

- لا.. عن قاضي قوص.

نظر إليَّ في عدم فهم، فأكملت: اسمه ورد في المخطوطة، مع اسم مسجد السلطان حسن.

- وما شأن مسجد في القاهرة بقاضٍ في قوص؟!

- في الحكي البدء والوصول، وفي اكتمال القصص امتلاء للنفس وراحة للروح، تتشابك الأنفس عبر الأزمنة والأماكن، ويستحيل الفصل مهما حاولنا. ما زلت أبحث.

الباب الأول
قوص

«في الحكي البدء والوصول، وفي اكتمال القصص امتلاء للنفس وراحة للروح. تتشابك الأنفس عبر الأزمنة والأماكن، ويستحيل الفصل مهما حاولنا. ما زلت أبحث».

جوزفين

الفصل الأول

1388م

في هذا الغروب طمس ونسيان، وفي هذا الغروب محو وريبة. يستغيث العامة بالعلماء، ويستغيث العلماء بالله، ويصمم المماليك على ظهور الهلال، وعلى معرفة الحقيقة المطلقة، ووسط عتمة التردد ويقين الخوف قرر أهل مصر أن الهلال خانهم وتلاعب بعقولهم مثله مثل المماليك والعلماء، وأن قرار الصيام والإفطار أصبح لهم هَمًّا، العامة وكل قرارات حياتهم الأخرى بيد المماليك والعلماء؛ لذا انشطر العامة نصفين أو أكثر؛ نصف يرى أن الغد هو أول أيام العيد، والنصف الآخَر يرى أن الغد هو المتمِّم لشهر الصيام.

أمراء المماليك تتجلى لهم الحقائق دومًا وتنكشف الغيبيات، رأى أحدهم أو ما يزيد الهلال في سماء مصر وأخطر العلماء وأهل البلاد، واختلف العلماء مع الأمراء في خجل وخفوت نجم يهوي بلا سند وسط ظلام الكواكب، وقال بعض العلماء: إن الهلال لا يظهر لهم، وإن غدًا يوم صيام، وأكد الأمراء أن الهلال ظهر ورؤيته تكفي للإفطار، وتردد العلماء، ولكن البصر لا يخدع عادة سوى الضالين، والتصميم يعطي للعالم هيبة يحتاجها في هذه الأيام العصيبة، فخرج بعضهم للناس على استحياء، وأكدوا أن غدًا يوم صيام ومتمم لشهر رمضان، وأن أمراء المماليك لم يضلُّوا ولم يكذبوا، ولكن البصر يخدع أحيانًا اللاهث وراء المعرفة الطالب للعلم كأكثر الأمراء. إنه ورع الأمراء الذي

يقطن وراء رؤية الهلال، إنه اجتهاد الباحث عن الحقيقة وحافظ الغيب، ولكن العالم دومًا على حق، ويعرف بواطن الأمور.

انتظر أهل مصر قرار السلطان وخروج الاحتفالات، ولكن السلطان لم يصدر قراره بعد، وربما لا يصدر قراره. هذه الحيرة ليست جديدة على العامة، ولكن الجديد أن الصيام والإفطار أصبح بيدهم غدًا، وليس بيد المماليك ولا العلماء. واتخاذ قرارات بهذه الصعوبة مخيف وخطير، ولو قرر أهل مصر الصيام وعرف الأمراء فستقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويُصلبون لا محالة! ولو قرر أهل مصر الإفطار وكان هذا يغضب الله فسيُحرقون في نار جهنم.

وللمرة الأولى ينظر الأقباط واليهود للمسلمين بعين الشفقة والأسف؛ فمصيرهم أسود بلا شك!

هرع أهل قوص وراء القاضي عمرو بن أحمد بن عبد الكريم، يسألون في حيرة عن مصير الهلال والصوم والعيد والكعك، وكان جواب القاضي مقتضبًا وهو يسرع إلى بيته: اتبعوا العلماء، غدًا يوم صيام.

لم يهدأ قلق العامة، همس أحدهم في ضعف للقاضي: ولو عرف الأمراء؟

فأجاب في ثقة وهو يدخل بيته: غضبُ الله أحقُّ أن تخشوه، ولا ضرر من عدم الجهر بالصيام.

ثم أغلق بابه؛ ليستريح بعد يوم شاقٍّ وصراعات لا تنتهي. ولكن يومه ما لبث أن يبدأ، وحياته ما لبثت أن تنقلب رأسًا على عقب، والزمن ما لبث أن يثور، والعمر ما لبث أن ينشق من بين راحتيه، أو هكذا يبدو، لم يعرف بعد.

هُنَّ ثلاث نساء في هذا اليوم المشئوم جعلن الشك واليقين يلتحمان في عشق بين حنايا عقله، ورؤية الهلال تصبح حادثًا

عاديًّا لا يرهب ولا يقلق، بل كل شيء جائز وممكن، ربما بدا وظَهَرَ الهلال للأمراء فقط، واختفى وابتعد عن العلماء، وربما راوغ الهلال؛ ليشيع الفوضى، ويحفر العذاب في قلوب أهل مصر من عامة وعلماء وأمراء. هُنَّ ثلاث نساء... غيرن حياته مرة أو مرتين ربما أكثر، لم يتأكد بعد.

سمع طرقًا على بابه، وتوقع الطارق وتوقع السؤال، فتح خادمه، فدخلت المرأة بردائها الأسود وعينيها الميتتين؛ هاتان العينان مزعجتان، وكأن الروح رحلت والجسد باقٍ، وكأن الروح تفنى والجسد خالد، وكأن الكون يتلاشى أمام صرخة القتل في مقلتيها!

بقيت ساكنة لا تنطق، تنظر إلى القاضي وتحملق في عمامته بلا كلمة، فقال في هدوء: جئت تسألينني عن الهلال؟!

قالت في صوت هادئ وهي تجلس على الأرض دون استئذان: كذب الأمراء؛ لا هلال يظهر في سماء مصر بعد اليوم. كذب العلماء؛ فلن يظهر الهلال غدًا ولا بعد غد.

جلس أمامها في بطء، وعيناه لا تفارقان عينيها اللتين تبدوان كأنهما من زجاج لامع، وخاف أن تكون من عالم آخر، جن أو شيطان أو مس من نوع ما!

بدت في منتصف العمر، تكشف وجهها له بلا خجل، وتجلس في جرأة وثقة لا يعرفها سوى من خسر كل شيء، ولم يعد يخاف من موت أو حياة.

قالت في صوت هامس: مولاي القاضي... من أصغر قضاة البلاد، ترى هذا لأنك أمهرهم وأكثرهم ورعًا، أم لأنك أكثرهم كذبًا ونفاقًا؟

- أيُّ جرأة تتكلمين بها يا امرأة؟!

- أتكلم.. وأطلب من الله، وإذا كنت عبدًا لله فستسمعني وتساعدني، ليس لأنك القادر، بل لأنك الوسيلة إلى العدل والقصاص.

قال في حدة: ماذا تريدين؟!

- الطفل حسن وحيد أبويه، تبحث في شأنه.

قال -وقد شعر بشيء من الاطمئنان وانكشفت الحقيقة-: أنت أمه؟

تجاهلته وأكملت: من قتله؟

فقال في يقين: اعترف الأب بقتله، هذه الأيام السوداء تشعرني بالقرف والمرض، يقتل ابنه في السادسة ليأكله، أيُّ جوع وأيُّ جفاف يجعل آباء صعيد مصر يلتهمون أولادهم؟!

ابتسمت في فتور، وقالت: عهدتك أبًا لولدين، تصدق الرواية؟!

- اعترف بها الأب.

أحاطت رأسها بيديها، وبدأت تحرك رأسها إلى الأمام والخلف بلا كلمة.

فقال في صوت خافت: لو تعرفين شيئًا أخبريني.

- أيقنتُ الكثير. تريد الاستماع لي؟ أم تخاف من رؤية الهلال وبزوغ الحق؟

قال في تصميم: أقسم لك لو أن السلطان نفسه متورط في هذه الجريمة لعاقبته.

- حماس الشباب أم ورع الصوفي العالم ببواطن الأمور؟ هي جرأة الاستغناء أم شرارة زهو النفس وغرورها؟

- لا تكثري من الحديث، من القاتل؟

- رأيته وسمعته.

- من؟

- جمق ابن الأمير فخر الدين والي قوص.
- تتهمينه بالقتل؟

قالت في ثبات: سمعت الصرخات، ورنَّت في أذنيَّ استغاثة الصغير لم يكمل عامه السادس، ناداني بأمي، وعندما هرعت إليه أبحث عنه وراء السور العتيق، وجدت جمق قد فرغ من فاحشته والولد غارقًا في دمائه، جرى وسط الطرقات.

بقي صامتًا برهة، ثم قال: اتهام خطير لابن أمير من المماليك ووالي قوص، تفهمين وتعرفين؟ أين جثة الولد؟

قالت في ثبات وصوت لاهث بعض الشيء: مزَّقها الجنود ونثروها. هو ابني سمعت صرخته ولم أغثه، وهو ابن الأمير المملوكي من أرغمه وقتله، وما جزاء القتل إلا القتل يا مولاي القاضي، أليس كذلك؟ أم أن القتل للعُزَّل وليس لحملة السلاح والولاة؟!

قال في تأكيد: لن أكرر ما قلت، أكدت لك أن من قتل يقتل، وأنني سأعاقب الجاني مهما كان، ولكنك تكذبين ربما، لا بد من أن أتحقق من الأمر.

مدَّت يدها الباهتة، وأمسكت بذراعه، وقالت وسط ذهوله من جرأتها: ولدي لم يكن لي سواه، وليس لي أن أنجب غيره وأنا في هذه السن، لو مات من الوباء أو الجوع لهدأت نفسي واستقرت، ولكن استغاثته مزَّقت الروح، ولم يبقَ إلا الجسد. عذَّبوا الأب وأرغموه على هذا الاعتراف!

نزع ذراعه من بين يديها، ثم قال: أيُّ أب يقول هذا؟!

قالت في بطء وهي تمسك بذراعه من جديد: تعرف أنني صادقة، وأعرف أنك شجاع؛ فما يُولِّي العبد إلا لينتصر. لو نفذت شرع الله أقسم أمام يديك أن أبقى جاريتك وخادمتك إلى يوم موتي، سأنظف أمام بيتك كل صباح وكل مساء، وسأقضي

أيامي أرعى ابنيك، وسأفعل كل ما تأمر به.

أمسك بيدها، ليدفع بها بعيدًا عن ذراعه، ثم قال: العدل حق وليس مِنَّة. لو فعلها جمق ابن الأمير فلا بد أن يقام عليه الحد، ولو لم يفعلها فقد اتَّهمتِه بهتانًا وإثمًا عظيمًا.

هزت رأسها وقالت: وإن تأكدتَ فستقيم عليه الحد وهو ابن الأمير؟!

قال بلا تردد: على الفور.

قالت وهي تقوم: أصدقك، وأطلب من الله أن يعينك على ما ابتلاك.

قال في شيء من الحنو: هو ابتلاؤك الذي أدعو لك من أجله.

قالت وهي تفتح الباب: ابتلائي هو ابتلاؤك... فلطالما امتزجت المصائر في عالمنا هذا يا بني، ويا سيدي ويا مولاي، أعطيتك أمانة ينوء بها كل العباد، ويشفق من حملها كل البشر.

قال في ثقة: وأنا أهل لها.

* * *

ولأن هذا الليل لا يريد أن ينقضي، أو ربما لغاية تستعصي على الفهم من البشر العاجزين دومًا، دق باب القاضي مرة أخرى.

قال الخادم في رفق، نبعث السائل إلى شأنه يا شيخنا، كان يومًا طويلًا، فرد القاضي: "وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ"، أدخل من يطلب المساعدة، هذا واجبي وغايتي.

دخلت امرأتان تلبس كلٌّ منهما رداءً أسود يغطي كل الجسد والرأس، وجلستا في انتظار دخول القاضي، وما إن دخل حتى انحنتا له احترامًا.

فقال: تأتيان إلى مجلسي غدًا، هذا أفضل وأذكى للنساء.

فقالت إحداهما وبدت أكبر سنًّا من انحنائها وامتلاء جسدها: وهل يفرق المرض بين رجل وامرأة؟ هو داء ليس له دواء ما جئنا في شأنه.

قال وعقله شارد في وعد أعطاه في لحظة تجلٍّ هو أصعب من دخول الجمل في ثقب الإبرة: اطلبي يا أختاه، ما حاجتك وما علتك؟

رفعت خمارها الأسود عن وجهها، ثم أمرت ابنتها أن ترفع الخمار قائلة: ضيفة، ارفعي خمارك، لا بد أن يراك القاضي.

رفعت ابنتها الخمار في تردد. أدار وجهه عنهما ثم قال: ولِمَ رفعُ الخمار يا أختاه؟ أسمعك وأفهمك.

- هي العلة أريدك أن تراها، ارفع رأسك يا مولاي.

قال في تأكيد: ليس لي أن أرى نساء غرباء، قولي شكواك أو انصرفي.

قالت: ضيفة ابنتي، في السابعة عشرة، تزوجت منذ أربع سنوات، عقد عليها رجل من بيت أبيها ولم يرها ولم يمسسها، تركها معلقة أربعة أعوام. حتى بلغت هذه السن وأترابها لديهن الآن الولد والبنت، لا يتركها تتزوج غيره ولا يبني بها، ولم ترها عينه.

قال في لا مبالاة: تكلمي مع زوجك أولًا ولا تأتي للقاضي!

قالت مسرعة: هذا شأن آخر... وعمر ضائع يا شيخ، هجرني زوجي منذ أنجبت ضيفة، يعاشر جاريته الرومية فقط ولا يدق بابي ولا يسأل عني. جلب الندامة جاء من الغرب، جوارٍ بيض من الجراكسة والروم يفضلهنَّ الرجال على نسائهم الأحرار. لوني أسمر كأهل الجنوب، وابنتي سمراء داكنة السُّمرة، كنت سأقول: إن زوجها لا يريدها من أجل هذا، ولكنه لم يرها حتى اليوم!

قال في ملل: وماذا تريدين مني؟!

- تقنع الزوج والأب أن يفكا أسر ابنتي ويطلقها الزوج.

قال في تأكيد: نحاول الإصلاح أولًا، ربما يصلح زوجًا لها.

ثم التفت إلى ضيفة، وقال وهو يتحاشى النظر إليها: رأيت زوجك هذا من قبل؟

قالت في صوت مبحوح وهي ترفع رأسها وتنظر إليه: لم أره. ولا أعرفه.

قال في رفق: يعود إليك إن شاء الله.

فقالت في خفوت: لم يأتِ ويرحل ليعود، هي أقدار سوداء يتحملها أهل مصر مثل لون الطمي ولوني ولون أمي!

قال: لِمَ هذا التشاؤم يا أختاه، لا بد أنه سينصلح حاله، سنحاول معه.

قالت أمها مسرعة: مولاي القاضي، شيء آخر يقلقني.

- أخبريني سريعًا، انتصف الليل أو كاد.

قالت -وهي تشير إلى ابنتها-: هذه البنت نقمة ونعمة، ليس لي سواها، تؤنس وحدتي، وتعطي لعمرى هدفًا، ولكنها ليست كأترابها، والدها ووالدي تجار في قوص يستقبلون الحجاج في طريقهم، ويشترون ويبيعون. ضيفة تربطها صداقة مع حبشية ويمنية هنا في قوص تعملان بالتجارة، وتمارسان السحر علي ما أعتقد، تتفوه ابنتي بكلمات غريبة وكأنها ترى المستقبل أو تعرفه، أحيانًا تخبرني بما سيحدث بالضبط، كأن جنًّا أصابها، وربما هذا هو سبب ابتعاد الزوج عنها، ربما سمع الإشاعات، وربما خاف منها!

التفت إلى ضيفة لأول مرة ونظر إليها، كانت داكنة، ذات عينين واسعتين ورموش كثيفة وملامح تسحر الأحجار من روعتها. أدار عينيه وهو يتمتم لنفسه ويستعيذ ثم قال: اطلبي

منها أن تكثر من الذكر والصلاة؛ لا جن يحيا وسط الطهر والخير.

قالت الأم في صوت قوي: زوجي حج ثلاث مرات، ولا طهر في قلبه ولا خير.

قال في غضب: لا تسبي زوجك أمام عيني، إنك تغتابينه وترتكبين ذنبًا كبيرًا.

رفعت ذراعها، فبدت علامات السوط واضحة وقالت: هكذا يصبحني كل يوم يا من تقضي بالحق، تزوجني من أجل أموال أبي، ولا يترك يومًا دون أن يضربني أنا وابنته بالسوط.

- لم أسمع منه، ولا أعرف ما ذنبك.

قالت في تحدٍّ: اسمع منه إذن، واعرف يا قاضي قوص أنَّ هوى النفس يخرج أضغانها، وكره الرجل لامرأته يكفي لدفنها هي وخلفتها، تعرف هوى النفس يا شيخ؟

قال في قوة وهو ينظر إلى عينيها: لو كنت أعرفه ما كنت قاضيًا.

- تغلبت عليه إذن. انصحْ رجال قوص بالعدل في نسائهم؛ فالظلم يطول الجميع في هذا الزمان.

قام وقال: سأتقابل مع زوجك وزوج ابنتك، ولْيفعل الله ما يريد.

طأطأت رأسها ثم قالت: قبلت أن تتحمل حملنا، اعذر جرأتي واغفر ذنبي، لا تعرف النار التي لم تهدأ منذ سبعة عشر عامًا، يشعلها حبي له وعجزي عن التقرب منه.

قال في عدم صبر: اذهبي مع ابنتك بسلام الله.

غطت المرأتان وجهيهما ورحلتا.

* * *

قاضي قوص كان شيخًا حصل على عدة إجازات من أشهر وأكفأ العلماء، نشأ في بيت علم وتقوى، وعُرف عن جده أنه

كان رجلًا لا يهاب إلا الله، وقف في وجه الظلم مرات، وعانى الأمرَّين، مرة دخل السجن ثم أخرجه أمير مملوكي عندما عاد السلطان ناصر محمد بن قلاوون للحكم، ومرة بعد موت السلطان الناصر محمد، وعندما سجن في المرة الثانية كان شيخًا كبيرًا ومريضًا، مات بين ظلمات جب القلعة، ويقال: إنه قبل موته بأيام كان يهذي، ونسي أبناءه، ونسي حتى آيات القرآن التي كان يرددها، لم يتأكد أحد هل فقد الشيخ عقله من كثافة الهواء العتم، أم أصيب بحمى ومات بعدها، لم يزل حراس السجن يتكلمون عن معاناته في أيامه الأخيرة، بعضهم يتكلم عنه بشفقة، وبعضهم يتهمه بالكفر والزندقة؛ فقد خالف السلاطين وعادى علماء عصره.

سمع عمرو عنه من أبيه ولم يره، وعرف أن الوقف الذي يصرف أبوه منه عليه وعلى إخوته هو وقف خصصه أمير مملوكي يدعى محمد بن عبد الله المحسني للشيخ عبد الكريم ومن بعده أبناؤه وأحفاده. ولطالما أخبره والده عن هذه الصداقة القوية التي كانت تجمع الأمير بالشيخ طوال حياته، ولم تزل عائلة الأمير وأحفاده يزورون مسجده حيث دفن هو وزوجته وبعض أولاده، ويطمئنون على الوقف الذي تركه لعائلة الشيخ عبد الكريم.

تربى عمرو في بيت علم وتقوى، ابتعد والده عن الحكم والحكام وعن إصدار الفتاوى والتقرب من الأمراء، وتفرغ لتعليم القرآن والفقه، وربى ابنه ليصبح مثله رجل دين وليس رجل سياسة يدرس الأحكام ولا يتأكد من تطبيقها، ولا ينطق ضد حاكم ولا أمير، ولا يدعو على ظالم أبدًا؛ حتى لا يلقى مصير الجد.

ولكن عمرًا كان مختلفًا، وطموحه تعدَّى طموح الأب والجد، وأمانيه كادت تحيط بأسوار القاهرة وتزيد، تدرب وحفظ ودرس،

وتقرب من شيوخه وهو في سن العشرين، كان يجالس قاضي القضاة ويثني عليه ويبجله ويثني على علمه. وفي سن الواحدة والعشرين طلب أن يتزوج ابنته في خجل، ووافق القاضي، فلم يجد في أحد ورعَ عمرو وذكاءه، والأهم من كل هذا لم يجد في أحد من طلابه ومريديه هذا الإعجاب والإطراء، ارتشف من عسل الثناء والمديح، ووافق بلا طلبات على زواج ابنته من عمرو، بل وبدأ يرقيه ويجهزه ليصبح نائبه عندما تسمح سنه وهيئته.

تزوج عمرو من ابنة قاضي القضاة، وكان يومًا لن ينساه، وكانت جميلة ورعة وهادئة، عاش معها أيامًا طويلة كلها رضا وسكون وملل وبرود. كان يرى والدها في عينيها، ولم يشعر يومًا أنه يخاطب زوجته بل مدرسه وشيخه، وعلى الرغم من أنها كانت تحسن معاملته وتطيعه بقي حاجز والدها وقت اللهو والجد، ومرضت بعد عشرة أعوام وماتت بين يديه، وحزن عليها ولم يتزوج غيرها. أنجبت له ولدين معه في قوص منذ جاء إلى هنا منذ ثلاثة أعوام وأصبح قاضي قوص.

أصبح طموحه حقيقة وأحلامه يقينًا، ولم يزل يرفع رأسه لما هو أكثر، ويعرف أنه لم يولد جنديًّا، ولم يكن من عرق المماليك، بل هو مصري؛ ولذا لن يكون سلطانًا أبدًا، ولكن قاضي القضاة يناطح السلاطين، ويعرف ما لا يعرفون، محصن من الأخطاء ومن الذنوب، لكلمته حكم وفعل، ولإشارته تهديد ووعيد لكل السلاطين. فمن أين يأتي عبيد الأرض بالقدرة على حكم مصر وبشرعية الحبس والقتل لو لم يُعْطِها لهم العلماء والشيوخ؟ بلا الشيوخ لا يوجد مماليك، وبلا الدين لا شرعية للجراكسة والأتراك في حكم بلاد المسلمين، يعرفون ويعرف.

وإن صحَّ وكان مقتل الطفل على يد ابن والي قوص فهو هالك لا محالة، أو بطل وشهيد، لا يعرف بعد، في الحالتين هو ميت.

وربما مع الوقت يتهمه بعض الناس بالزندقة، وربما بالجنون، وربما يدعون أنه رمى ابن الأمير بالباطل لغيرة في نفسه، وربما لم يفعلها ابن الأمير.

ليتأكد لا بد من التصرف بحذر وسرية.

قبل أن ينام ليلته كانت الخطة واضحة وسلسة والوصول ممكنًا.

* * *

عزم أمره ووضع خطته بإحكام، وذكرى جده وأبيه لا تتركه، تمنى ذكاء جَدِّه وجسارته، وتفهم استسلام أبيه ومسايرته الحكام، ولكنه لم يتعاطف، وطموحه يخرج من بين خلجات نفسه، ويسيطر على قوص كلها، ويمتد إلى القاهرة والإسكندرية، ومعرفته وحب الناس له تتزايد، وطلبه للعلم لا يتوقف. لا بد للعالم من القوة والقدرة، وإلا كيف يتأكد من القصاص، وكيف يشرح كتاب الله؟

في صباح اليوم التالي كان صائمًا ككل العلماء، ودخل مجلسه، وطلب من المساعدين والكاتبين أن يبحثوا في أمر تاجر قوص الذي زوج ابنته، وغاب الزوج أربع سنوات ولم يدخل بها، طلب منهم البحث عن الزوج والتاجر ومعرفة سيرة العائلة، وحقيقة السحر والجن الذي مس الابنة، وأقنعهم أن هذه المشكلة الكبيرة هي سبب حيرته وعبوسه، وأنه لا يفكر إلا في هذه القضية، وأن تقوى الله تغيب عن تلك البلدة، فيسيء الرجل معاملة زوجاته، ويذرها كالمُعلَّقة، ويتغيَّب الزوج عن زوجته ويترك مسئولياته، ومن واجب العلماء والقضاة النهي عن المنكر وكف الأذى عن الناس. انصرفوا كلهم للبحث، وبقي هو وطالب علم يثق به ويدربه، ويعرف أنه لن يحصل على الإجازة إلا عند رضا القاضي. طلب من طالب العلم البحث في مسألة

الطفل الذي مات الأسبوع الماضي، وإحضار الأب للقاضي سرًّا، وإحضار كل الشهود في ظلمات الليل، ودون معرفة مخلوق، لتنكشف الحقيقة ويعتدل العمر مرَّة ربما.

تمنى أن تكون الأم كاذبة، جاهلة وفقيرة، واختلط عليها الأمر ربما، أو هو حقدها على الوالي الذي لم يدفع عنها الظلم والجوع، لا بد أنه الحقد والحسد جعلاها ترمي بريئًا بهتانًا وإثمًا مبينًا. والي قوص يتناول الإفطار مع الشيوخ، ويدعي احترامهم. لم يحبه عمرو يومًا، كان يرى فيه اختيالًا وفخرًا يشبه فخر الجاهلية، وكلما رآه بملابسه المطرَّزة بالذهب كان يتمتم: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا".

يستحضر الآيات دومًا، ويتذكرها ليطمئن قلبه ويحكم بالعدل.

بدأ البحث في جدية وإتقان، ولم يمر اليوم إلا وأمانيه تتلاشى والهلال يتضح، والغد عيد، أو نهاية للعمر لا يدري. لم يصدق ما سمع ولا ما رأى، سأل وأعاد الأسئلة، وأعطى الأمان للعامة وللأب، وقال: إن هذا بحث عن الحقيقة ليس بغرض القبض على ابن الوالي، بل لغرضٍ ما في نفس القاضي؛ لذا فلا خوف على الكلام، ولا كاتب يكتب، ولا أحد يستمع سوى القاضي، والقاضي يعطي الأمان، هو منهم ولهم، ويريد لهم السكينة والعيش، لا سمع شيئًا ولن يطلب شهادتهم أبدًا.

اضطر إلى أن يُقْسم لهم أولًا قَسَمَ رجل العلم أن أسماءهم طمست كالنور، وأن روايتهم ستتناثر في الهواء كالغبار، وألا ضرر من قول الحق أحيانًا لو أن الحق لا يؤذي أو يعض كالكلب المسعور!

سمع وعبس وجهه مما سمع، وعبس وجهه من الخوف المحيط به، ومن الانتحار الذي سيقدم عليه لا محالة.

جمق يفعل هذا دومًا، يخرج إلى السوق باحثًا عن طفل

جميل، يهوى الصبيان، كل البلدة تعرف، وكل الأمهات تخبئ أولادها قبل الغروب خوفًا من جمق بن فخر الدين والي قوص. هذه قصة تتكرر ووقوع القتل جائز. شهد أربعة على الأقل برؤيتهم لجمق وهو ينقض على الطفل، ولم يتركه إلَّا وهو جثة، وشهد الكثير برؤيتهم لجمق ينقض على أطفال كثيرين، فقراء في الغالب ولا قيمة لهم ولا لأهلهم.

بدا أن أهل قوص كلها تعرف، والقاضي لم يعرف سوى اليوم. بدا أن للحقائق ضوءًا مختلفًا عند العامة وعند الأمراء وعند العلماء. استغفر ربه على غفلته وضلاله.

انكشح الظلام، وبدأ الاحتفال بالعيد على استحياء؛ فالسلطان لم يأمر، والأمراء احتفلوا وحدهم قبلها بيوم.

وعيده هو لم يأتِ، والحِمْل على كتفه يفوق حِمْل البشر، وقدرته تبدو ضئيلة؛ فلا سيف معه ولا ذهب يزين ملابسه، هي كلمات وآيات، وبعض العلم لا يساوي الكثير في هذه الأيام!

ولكنه وعد وعده لامرأة ليلًا، ولن يرجع عنه.

فتح فجرًا غرفة ولديه، وأيقظهما في رفق، وقال للخادم: جهِّز أشياءهم، سيرحلون الآن إلى القاهرة.

أمسك بكتف ابنه الكبير وهو يدعك عينيه، وهمس: أحمد اسمعني جيدًا.

قال الولد في خمول: أسمعك يا أبي.

- ستذهب إلى بيت جدك، ولن تخرج منه مهما حدث، تأخذ دروسك عنده، وتبقى عنده؛ حتى آذن لك بالعودة مع أخيك، أنت الرجل والأخ الأكبر، تحمي أخاك وتتابعه.

قال في شيء من القلق: هل ثمة شيء؟

- مشكلة صغيرة سأحلها، وآتي لأعيدكم إلى هنا، ورسالة إلى جدك قاضي القضاة، أعطها إياه وحده، وإياك أن تظهرها

لغيره. تسمعني؟ لو رآها غيره وقرأها يموت والدك على الفور.

هز الطفل رأسه في خوف.

قام الأب وقال في حزم: خذ كتبك ودواتك.

طلب من طالبه مرافقة أبنائه، والتأكد من وصولهم، وأعطاه رسالة أخرى ليست لقاضي القضاة، بل لرجل آخر هو آخِر أمل ربما.

* * *

جاء معاونوه يزفون الأخبار في حماس عن عائلة الرضاوي وابنته ضيفة وزوجته. قالوا: إن البنت ليس عليها غبار، لا تخرج وحدها، ولم يتكلم عنها أحد بسوء، تُصادق امرأتين عجوزين تعملان بالتجارة، واحدة من الحبشة، والأخرى من اليمن، استقرتا في قوص منذ زمن، لا أهل لهما. تسأل عنهما وتعاودهما وتساعدهما في كل شيء. ضيفة ليس لها صديقات سوى تلك المرأتين المُسنتين، يقولون: إنها غريبة الأطوار، ربَّتها ثلاث أمهات: المصرية والحبشية واليمنية، ولا أب يهتم بها، الرضاوي لا يريد ابنته ولا أمها، منذ كانت في العاشرة وهي تتعلم من الغرباء، حتى أصبحت غريبة هي نفسها، تتكلم عندما لا يسمح بالكلام، وتصمت وقت الكلام، يهمس بعض الناس عنها: سوداء كأمها حتى أكثر من أهل قوص، ولكن جمالها لم يره بشر، لديها وجه جنية تغوي وتأمر، هكذا قالت الخاطبات والدايات.

لا أحد يعلم لماذا لا يأتي الزوج، اسْتُدْعِيَ لمقابلة القاضي ولا بد أنه سيمتثل.

أما والدها ففظ وغليظ مع كل من حوله إلا جاريته الرومية التي يعشقها كالصبيان، أنجبت له الأولاد، وسيطرت عليه سيطرة تامَّة. زوجته أم ضيفة من عائلة كبيرة في قوص، حظها

تعس وحزنها لا يتوقف، ولم يعش لها سوى ضيفة، فأصبحت كل حياتها.

لم يزل الرضاوي والدها التاجر يطمع في أرض أمها ومالها، ولكنها لا تعطيه من مالها شيئًا، مات كل أهل الأم في الوباء، فلم يعد لها سوى ما ورثته، وعند موت الأهل استفحل ظلم الرضاوي وقسوته، مع أنه يجمع المال ويكنزه. في سن التاسعة كانت ابنته تلعب في الأسواق، ثم استنشقت فلفلًا حارًّا، فعطست وهوت إلى الأرض، وضحكت سيدتان وقالتا معًا: نراك هنا كل يوم. من تكونين؟

ويقال: إنهما استدرجتاها بالفلفل الحار إلى صداقة غير عادية، فعلمتاها الشعر والقراءة والأدب، وعلمتها اليمنية الحديث والفقه، وتعاملتا معها على أنها ابنتهما معًا، فأصبحت تصاحبهما في كل مكان، وتقضي معهما وقتًا طويلًا كل يوم. وتراعيهما وهي كل الأهل. بعض الناس يقول: إنهما علمتاها السحر، وإنها غريبة الأطوار، وجمالها من عمل الجان، وآخرون يقولون: إنها فتاة ضعيفة، لم تجد الحنان إلا من الغرباء، وليس من أب قاسٍ وأم عاجزة عن التصرف. قصة غريبة.

ما إن انتهى الرجل من الحديث حتى دخلت ضيفة ومعها إحدى المرأتين المُسنتين، لم ترفع الغطاء عن وجهها، قالت في صوت خافت: أغثني يا مولاي القاضي.

نظر عمرو حوله، ثم قال في قوة: ماذا حدث؟

قالت مسرعة: عرف أبي بطلبنا مساعدتك، وانقض على أمي ضربًا، حتى كسر ذراعها، تركتُها طريحة الفراش.

قال في صرامة لأحد معاونيه: ائتني بوالدها إذن. عودي إلى بيتك.

قالت مسرعة: سيقتلني.

قال في إصرار: لن يفعل، بعثت بطلب زوجك، وسيأتي عما قريب وتذهبين إلى بيتك. عودي الآن.

بعث للأب، فجاء على مضض، والشرر يتطاير من عينيه، وقد أقسم أن يقتل ابنته وزوجته عند العودة بعد أن فضحتاه عند القاضي، وجعلتاه مصدر استهزاء الأطفال والصبيان.

جلس أمام القاضي يفرك يديه، ويسلط عينيه على الأرض، فقال القاضي في هدوء: سمعت عنك الكثير، وعن تجارتك وإكرامك لحجاج بيت الله، سيجزيك الله خيرًا عن كل هذا.

لم يتوقع هذا الإطراء. بقي ساكنًا فأكمل القاضي: بل لم أصدق أنك ذهبت إلى بيت الله ثلاث مرات، يحسدك كل الحاضرين.

قال في شيء من الزهو: كانت رحلة شاقة، عزمت عليها ونذرتها كلما رزقت بولد وعاش حتى وقت المجاعة والوباء.

- أولادك ظهر وسند، أعرف، أرميت الجمرات على الشيطان؟

قال في دهشة: بالطبع رميتها! وهل لحج أن يصح دون ذلك؟!

- انتصرت على شيطان النفس والهوى إذن، فقد رميت الجمرات على الشيطان، أم إنك انتصرت على شيطان النفس في مكة وعند العودة إلى قوص أعاد الشيطان الجمرات إلى وجهك بضراوة وحقد؟!

قال في انفعال: من قال إنني أظلم أحدًا؟!

- لم أتكلم عن الظلم، هو الهوى ما يخيفني دومًا، وشيطان النفس خافت وساحر، يتغلغل في الأعماق ولا مفر منه، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، هكذا أمرنا الله.

قال في تأكيد: سأقتلها هذه العجوز المجنونة.

فقال القاضي في حزم: ولو فعلت أقطع رأسك في الحال.

- ما بال القضاة يُحرِّضون الزوجة على زوجها.
- أعطها مهرها المؤخر، وطلقها.
- ليس لدي ما أعطيها من المال.
- طلقها أو عاشرها بالمعروف، ولا تذرها كالمعلقة.

التقت أعينهما لحظات، ولم ينطق التاجر، فقال القاضي في حزم: لو ضربتها تدفع فدية، ولو كسرت لها ضلعًا أو ذراعًا تدفع فدية، ولو كرهتها أعطها حقها واتركها.

قال في استسلام: هي زوجتي منذ عشرين عامًا أو أكثر، تأمرني أن أطلقها أمام الشهود يا مولاي؟

- تحسن معاشرتها وتعدل معها أو تتركها، وسأرغمك على دفع المهر، وتعرف أنني أستطيع.

قام القاضي، ورحل التاجر في غيظ ممتزج بالخوف، ولكنه لم يضرب زوجته وابنته كما توقعتا، بل ذهب إلى زوجته على مضض وطلب صفحها، وخرج من حجرتها دون أن يمسها.

* * *

كان ينتظر أخبار وصول ولديه، ووصول الرسالة لحميه قاضي القضاة، ولم يأته الخبر بعد، ولم يعد طالبه من القاهرة بالبشرى. وبينما كان عقله شاردًا فيما سيكون، وفي مصيره ومصير علماء مصر من بعده، دخلت عليه امرأة مع عجوز، وقالت في حزم: مولاي القاضي، أريد الكلام معك في شأن خاص، لا أستطيع التحدث أمام الشهود!

عرف الصوت، وصرف الشهود، وبقيت هي والعجوز صديقتها فقط في المجلس.

قال في هدوء: هل آذاك والدك مرة أخرى؟

قالت وهي تبتسم من تحت خمارها: عرفت صوتي يا مولاي،

شرف لا أعرف كيف أستحقه! أريد أن أشكرك أولًا.

هزَّ رأسه بالإيجاب.

فرفعت خمارها، ونظرت إليه في جرأة وقالت: وجئت أطلب منك طلبًا، وأعرف عدلك وقوتك.

نظرت إلى صديقتها العجوز، فقامت وفتحت الباب وخرجت. قال القاضي في قوة: اطلبي صاحبتك، ليس من الجائز الاختلاء بيننا.

قالت مسرعة في صوت خجول: هو أمر يعنيني وحدي، ولا بد للقاضي أن يعرفه، واجبه أن يعرفه.

قال في عدم ارتياح: قولي أمرك مسرعة، ولا تأتي إلى هنا مرة أخرى.

قالت: لا أريد زوجي، لو تركني أربع سنوات فلا بد أنك لو أرغمته على الزواج بي فسيتركني ويهجرني كما فعل أبي بأمي. أتوسل إليك أن تطلقني منه، لا أريد الزواج ولا أتحمل الرجال.

نظر إليها في استياء قائلًا: ظننت أن سنين عمرك أعطتك نضجًا، ولكنك تتكلمين كالأطفال.

قالت فجأة وهي تنظر إليه في تركيز: حلمت بك أمس مولاي القاضي.

قام في فزع أخفاه عنها، وقال: اخرجي يا أختاه، قلت ما تريدين.

- لا تسئ فهمي، كان حلمًا جميلًا. كنت تطوف حول الكعبة وتهرول...

جلس من جديد ونظر إليها في إمعان، وألهته كلماتها عن ردع النفس، فاتجه بعينيه إلى شفتيها وهي تبتسم في براءة وغواية لم ير مثلهما طوال عمره.

أدار وجهه، فأكملت: ولكن الكعبة تلاشت وأنت لم تزل تطوف حول شيء ما وتهرول وتنتظر... لا أعرف لو كانت بشرى سارة أم لا، أخاف عليك مولاي القاضي، كل أهل قوص يخافون عليك، فتحت على نفسك نارًا لن تكون بردًا وسلامًا كنار إبراهيم.

- ماذا تقصدين؟! وعمَّ تتكلمين؟!

نظر إليها من جديد دون أن يدري، إلى عينيها وذقنها، فقالت: لا بد أن تعرف أن أهل مصر يرضخون دومًا، ويتناسون ويدعون الجنون والغفلة، ولكنهم دومًا يعرفون، هناك فرق بين المعرفة وبين التصرف بعد المعرفة. شجاعتك تجعل أهل قوص يشعرون بالعجز.. رجالها قبل نسائها. يبحثون في أمر مقتل الطفل على يد ابن الأمير والوالي. كلنا نعرف، ونعرف من قتله وكيف.

بقي ساكنًا، فنظرت إليه، والتقت أعينهما برهة، ثم قالت: وكأن قاضي قوص ينجذب إلى إنسية، وهو العارف ببواطن الأمور، لا بد أن عيون النساء تخدعهم دومًا؛ فحب الذات يعمي البصيرة، وليس فيَّ ما يجذب أحدًا، وخاصة العالم ببواطن الأمور، المحصن من كل سوء.

أطرق ثم قال -وكلماتها لم تعد تفزعه، وكأنها مجنونة أو غافلة لا يدري-: ارحلي يا ضيفة، لا كلام بيننا.

قامت في شيء من التأثر، ثم قالت: تغلق بابك عن السائل يا مولاي؟

- بل أدرأ السيئات والشبهات.

- أردت أن أخبرك بحلمي الثاني.

- لا أريد أن أعرفه.

- هزَّت رأسها ثم قالت في أسى: اعذرني، الكلمات دومًا تخرج من حلقي دون تفكير وتتبع، سأحاول أن أحسن من

نفسي، ولكنني لا أريد هذا الزوج، طلقني منه.

قال دون تفكير: سأقابله أولًا ثم أبحث الأمر.

قالت في شيء من الغيظ: لا شيء سيغير رأيي.

قال في حزم: انتهى لقاؤنا يا ضيفة.

ثم فتح الباب، ونادى على الشهود والكاتب وكل من في المجلس.

* * *

قوص مدينة ذات مبانٍ عالية، بناها مُشَيِّد عمائر حرفي، وصرف عليها السلاطين الأموال؛ حتى تتألق بمبانٍ شاهقة، وتنافس مباني القاهرة، يتحرك فيها البشر بسرعة النحل، وكأن العمر سينتهي بعد قليل، والميعاد مكتوب، هو وقت وميعاد معلوم للحج كل عام، وموسم للتجارة والازدهار، تبدو القاهرة مستقرة، وحياة البشر رتيبة وبطيئة، بينما قوص كبيت النمل، الكل يعمل ويتحرك لمكان معلوم وهدف معروف، وجمع المال غاية ووسيلة في آن، والناس ألوان وأشكال، ورائحة البخور تعبق المكان من تاجر يمني وآخر هندي، بينما القليلون من التجار يبيعون القرنفل الباهظ الثمن والبهارات النادرة، والكثير من المصريين يتفننون في صناعة الخبز والحلوى لكل مارٍّ وابن سبيل.

قوص.. هي حياة ودنيا، تختلف فيها الألسنة والعملات، وتمتزج الألوان كلها الصارخة والباهتة، ويصبح العالم صغيرًا وكبيرًا في آن. يعرف أهلها الأغراب، ويفهمون لغتهم، يأتون ويستقرون أحيانًا، ويرحلون لميعاد آخَر أحيانًا.

كالكوكب المضيء والكوكب المظلم، يمتزج حب المال بالاستعداد لرحلة الروح، ويمتزج حب الجسد وإشباعه من طعام ونساء بالتفكير في الآخرة ويوم الحساب.

يتكلم أهلها عن الجن في الصحراء وفي أعماق البحار، ويتبادلون تجاربهم عن السحر والسحرة والحسد والهزيمة، ويحكون عن الأبطال والمحاربين والشعراء والصوفيين، ومن عرف المستقبل ومن اختفى من بين حنايا الأرض ولم يظهر بعد، ومن بُعث ومن قتل، ومن أحبَّ ومن خان. يتبادلون القصص والأسفار، ويبدو المستحيل ممكنًا والممكن بعيدًا، والرحلات تبدأ لتنتهي، والأيام تخون وتغدر كعادتها، ولكنها تتقلص وتستسلم أمام قوص؛ فالدنيا هنا والألوان كلها، والأصوات والحكم والقوافل والجمال وكل أنواع الطعام، وكل أنواع الشراب. هناك من يبيع الخمر سرًّا، وهناك من يبغي الغانيات، والقلب في ضلال ومغامرة، والنفس تبغي الخلود!

كل يوم يمر على قاضي قوص يفهم ويعرف الكثير عن شر النفس وأنانية القلب، يأتيه المستغيث بمن غشه وسرق ماله، ومن اغتصب بيته، ومن قتل جَمَله، ومن رحل دون أن يفي بوعده. يرى من البشر الأسوأ والأقبح. اعتاد الشر وفهم غواية المال والجسد. وترفع عن المعاصي والهوى منذ زمن.

* * *

جاءه الزوج الغائب يلهث ويطلب الصفح، كان حمق الشباب الذي حرمه من زوجته طوال الأعوام الماضية، عشق بائعة هوى في القاهرة، وتاب وانصلح حاله، يعترف بذنبه؛ لأنه ماضٍ وولّى، ويطلب فرصة أخيرة، ويشكر القدر والقاضي على أنه استدعاه؛ فقد خجل من عاره وهربه سنوات، ولم يجرؤ على المواجهة. سيدخل بزوجته بعد أسبوع لا أكثر، ويعوضها بالهدايا والذهب، ويأتي بالبيت والخدم، ويعاملها كملكة الكون. انحنى وقبَّل يد القاضي داعيًا له، مُشيدًا بعدله وحكمته.

ورحل فرحًا متحمسًا لحياة جديدة، وعروس يتكلم الجميع عن

جمالها، غريبة الأطوار وسمراء داكنة، ولكن لا بأس بالتربية الحسنة، تطيع أوامره وتفهم طباعه.

رحل والفرح ينبثق من أردافه، والضيق يحيط القاضي، لا يعرف لماذا ولا متى بدأ هذا الضيق؟ والغيظ يتسلل إلى قلبه. أزاحه جانبًا؛ فلديه الكثير الذي يفكر فيه، ومسألة زواج الفتاة لا تعنيه، ربما شعر بضيق؛ لأنها طلبت مساعدته وكانت تريد الطلاق، هو شعور طفيف بالذنب لا أكثر، لا تعرف مصلحتها، ولا تدري قيمة الاستقرار.

هو الاستقرار الذي يبغيه لها.

ولكن الضيق يثقل القلب، ويغرز الشك في جنبات الفؤاد، لا بأس، سيدخل بها زوجها وينتهى أمر هذه الجامحة صاحبة الكلمات التلقائية التي تخرج بلا حذر ولا تفكير، لا بد لها من زوج يردعها ويملأ عمرها الباقي.

بَقِيَ عابسًا طوال اليوم في انتظار رسالة من قاضي القضاة. جاءت الرسالة أخيرًا مع الطالب.

ولداه بخير مع جَدِّهما، وقاضي القضاة يرثى لحاله؛ فهذا بلاء ليس بعده بلاء، وإلقاء النفس في التهلكة لن يفيد. الشرطة ستقف مع الوالي، ولن تنصاع لأوامر القاضي، والوالي يستطيع عزل القاضي بلا شك، بل والتنكيل به وبعائلته، ولا أمل في القبض على ابن الوالي، هذا لا يحدث في أي بلد ولا زمن، يحدث فقط في القصص والأساطير.

ولكن قاضي القضاة عادل دومًا، لذا اقترح أنه إذا ما استقر في نفس عمرو أن الطفل قد مات جراء هذا الفعل المشين والفاحشة المبينة التي قام بها ابن الوالي رغمًا عن طفل دون السادسة، وبلا استحياء أو خجل، فلابد من رادع، وإلا أصبحت ديار المسلمين ديار فسق وظلم، وخَلَعَ العلماء والقضاة

عمائمهم، واتجهوا إلى الخانقاه والزوايا، واعتكفوا فيها عاجزين عن حماية الناس ورعاية مصالحهم.

هذا القتل ليس قتلًا عمدًا، ولا يجوز عليه الحد، بل الفدية. لا بد من دفع الفدية لأهل الطفل، ويقررها القاضي عن الولد الذكر، الفدية تنفع الأبوين المسكينين في هذه الأيام الصعبة، ولا بد من الإفراج عن الأب البريء. وكل هذا يحتاج إلى حذر ولين، والأهم من كل هذا هو عدم إغضاب الوالي ولا أيٍّ من المماليك. التريث مطلوب وضروري، والتحدث برفق مع الوالي وشرح الموقف له لازم، أهل مصر يعرفون، لا بد أنهم يعرفون ويتغافلون، ولكنها سمعة الوالي وهيبته، والمحافظة عليها واجبه وواجب العلماء. أمره قاضي القضاة بالحديث مع الوالي، وإقناعه باللين بدفع الفدية، وأن يخرج القاضي على الناس ويقول: إن الطفل مات عندما دهسه فرس ابن الوالي، ليس أكثر ولا أقل. درء الفتن أصدق من الصدق، والمحافظة على الأرواح واجب القاضي. واختتم قاضي القضاة الرسالة بهذه الجمل: اعلم يا عمرو أن حياتك وسمعتك وسمعة القضاء بين يدي الوالي، ولكم من والٍ أذل قاضيًا وعالمًا، وجرسهما أمام الجميع، ولكم من والٍ سجن عالمًا ثم قطع رأسه. تعرف خطورة ما تُقدم عليه فلا بد من الحكمة، ولتكن غايتك السلامة دومًا، وتذكر أنَّ ما يحدث لك سيضر كل القضاة، ويؤثر على كل الشيوخ.

قرأ الرسالة وطبقها، ووضعها في خزانة وبقي صامتًا. هذا ليل لا ينجلي، وأيام تنطبق على شغاف قلبه كالقبور.

قبل أن يخلد إلى نومه سمع دقًّا على الباب، وعرف من القادم.

أم الطفل جاءت ومعها مكنسة كبيرة، وقالت في شيء من

الهستيرية: سأبدأ بتنظيف بيتك من الآن. أكنس أمام بابك وأحيا جارية بين قدميك، ولا أقبل فدية في ابني.

فتح عينيه في دهشة، فجلست والغبار يملأ لباسها الأسود، وشعرها واضح من الطرحة يتناثر وكأنه لم تمشطه لسنوات، وقالت: لا بد أن تكون هناك فدية، وأنا لا أقبلها. مَنْ قتل يُقتل ولو بعد حين.

قال في رفق: من قتل متعمدًا يقتل، ما أدراك أنه قتل ولدك متعمدًا.

- لو قتله متعمدًا لكنت قبلت الفدية، ولكنه أذله وأذلنا، وفاحشته تستحق الرجم على كل حال، ولكن اصدقني القول مولاي القاضي لو مثلًا، واعذرني لو كانت كلماتي قاسية، لو فقأ أحد عينيك وخرم أذنيك، ثم قطع كل أطرافك، وأعطاك خَمْسمائة ألف دينار أو ما يزيد، وطلب منك أن تستمتع بها، هل ستستطيع؟ لم يعد هناك ما يشعر من بين أطرافي، هو فم يأكل ليعيش ليوم القصاص لا أكثر، هل ستتخلى عني يا عالم بخبايا الأمور، يا محقق العدل على الأرض؟!

- يحققه الله ولست أنا، لن أتخلى عنك، ولا أُخلف وعدي.

- سأحتمي ببيتك من بطش الوالي، وسأكنس البيت مرة ومرات؛ حتى تهدأ نفسي وتستقر.

لم يجبها.

وتكرر الموقف الذي مرَّ عليه أسبوعان، جلست أم الولد على الأرض تمسك برأسها، فقال في رفق: اذهبي وصلّي وسلِّمي أمرك إلى ربك؛ هو ابتلاء ولكن لا بد من الصبر. توضئي وصلي.

تمتمت: يعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسه، يعرف ويعذر، يرحم ويرفق بي.

سمع طرقًا على الباب، ووجدها تدخل عليه... ضيفة... وأمها،

وكأنه حلم يتكرر كل حين، بل كابوس لا ينتهي.

رفعت الغطاء عن وجهها، والدموع تلمع في عينيها، وقالت في حسرة: تخليتَ عني، قلت لك لا أريده زوجًا، وسيدخل بي بعد سبعة أيام. هل هذا عدل؟

نظر إلى أمها وذراعها المربوطة بخشبة طويلة، ثم قال: أخبري ابنتك أن قاضي قوص لا يتبع الهوى، وأن للزواج والطلاق قواعد وأصولًا.

قالت في صوت لاهث وهي تهوي إلى الأرض: وهل الكره سبب للطلاق؟! أليس سببًا للطلاق. إذا كنت لا أحب زوجي، فلماذا ترغمني عليه؟!

قال في فتور: تزوجته برضاك ورضا والدك، لا تتكلمي كالبغايا عن العشق أمامي!

أمسكت بيده ووضعت جبهتها عليها، وهمست: أرجوك أن تطلقني منه، أتوسل إليك، لا طاقة لنفسي بالزواج من رجل وقلبي مع آخر.

نزع يده من يدها وهو يتحاشى النظر إليها ثم قال: سأتكلم مع والدك.

همست والدموع تتساقط من عينيها: أستغيث بك، والدي لن ينصفني، ولا أجرؤ على البوح له بخبايا نفسي، لو أرغمني فسأموت، ربما في الماضي يجوز، والآن لا يمكن.

خفض عينيه، ونظر إلى وجهها برهة، ثم أدار وجهه عنها وابتعد خطوات، وقال: لا تأتي إليَّ هنا مرة أخرى أبدًا، مهما حدث، إياك، تسمعين؟

هزَّت رأسها بالإيجاب، وهي تمسح دموعها، ثم قالت: ستطلقني منه؟

تمتم: كيد النساء ليس بعده كيد!

ثم التفت إلى أمها قائلًا: يعجبك قول ابنتك؟

قالت في استسلام: لا أقدر عليها يا مولاي، لا يقدر عليها أحد، قلت لك: غريبة طوال عمرها، وعقلها يشرد وتختفي من عالمنا. مسَّها جن!

قال وهو يتصنَّع الحدَّة: ولا تستطيعين إقناعها بأن زواجها سترة لها.

قالت الأم: حاولت، ولكنها منذ زرناك في المرة الأولى مختلفة، تتمرد تمرد المجاذيب، وتتوه عن عالمنا ساعات.

بقي صامتًا، واتجهت عيناه إليها والتقت أعينهما لحظة ربما، ثم قال: هيا ارحلا. سأتكلم مع زوجك.

خرجتا في بطء، وبقي هو شاردًا، نظر إلى يده وقبضتها القوية لم تزل تضغط على روحه ربما، وجبهتها قد لمست حنايا الوجدان، ولم ينم ليلته، لامها على ذنب لا يغتفر، وعلى ضعف لم يعهده، ولم يعرفه قط. وفي الصباح استدعى الزوج وطلب منه أن يطلقها، وأكد له أنها ترغب في هذا، وأنها ستعيد له كل ما أخذت من مهر أو ذهب.

قال الزوج في إصرار: إنه لن يفعل، وإنه قد قرر أن يبدأ معها بداية جديدة، وأنها لا بد أن تكون غاضبة منه، ومن حقها هذا، ولكنه سيعوضها بكرمه وحنانه، وستنسى غضبها وتحاملها ضده.

أصرَّ القاضي على طلاقها، والزوج يرفض. استدعى الأب إلى المجلس، وقال القاضي للأب في تصميم: إن ابنته لا تريد هذا الرجل زوجًا، فقال الأب: إن القرار له هو، وهو الوصي، وإن ابنته تائهة دومًا لا تعرف الخير من الشر، ولا الأخضر من الصحراء، وليس لها رأي في هذا الشأن!

تشاور القاضي مع مساعديه، وبدا عصبيًّا اليوم قليل الصبر،

ثم قال في قوة: سأطلقها أنا هنا في هذا المجلس إذا كانت هذه رغبتها لنكفَّ عنها الفتنة، حق أعطاه الله لها. هل من اعتراض؟!

نظر إليه مساعداه في ذهول ولم ينطقا، وبقي الزوج صامتًا، وقال الأب في رفق: مولاي القاضي، أريد السترة لابنتي.

- ابحث لها عن زوج آخر.

- ولكن لا غبار على هذا الرجل.

- يطلقها الآن أو أحكم أنا بهذا، ثم يتقدم لها من جديد لو أراد، ولا بد أن توافق عليه هي، وليس أنت فقط.

- أيُّ منطق هذا وأيُّ حكم؟!

لم يجب، أصدر القرار، وكتبه الكاتب، وفض المجلس والارتياح يجتاحه، والراحة تتسرب إلى أطرافه، وعيناها لا تتركان مخيلته.

* * *

الفصل الثاني

لم يتوقع القاضي زيارة الحبشية العجوز، ولم يكن يعرف ماذا تريد. طرقت بابه وهي تتكئ على عصاها، تنحني في وهن، وجهها مكشوف، والصليب مرسوم على يدها، طلبت من القاضي أن يصطحبها؛ لأنها تريد فتواه في سر أخفته عن الجميع. قال: إنه مشغول، ولكنها أصرت، وقالت: إن المشوار طويل، وإنها استأجرت البغل اليوم فقط، ولن تستطيع السير على قدميها مرة أخرى لرؤيته والكلام معه، فقال في ذهول: تطلبين فتوى من قاضٍ مسلم؟ لماذا؟!

قالت في صوت ضعيف: هو شأن لا فرق فيه بين المسيحي والمسلم.

- أيُّ شأن هذا؟!

تأتي معي ونعود قبل صلاة الظهر.

خرج معها، وسارا بعربة البغل ساعات في صحراء قوص بعيدًا عن النهر والناس، حتى وصلا إلى كوخ في الصحراء.

أسندها وهي تنزل من العربة وتتجه إلى الكوخ في حماس.

وعندما فتحت الكوخ بيدها الرفيعة قالت: هنا يكمن سِرِّي... هي عائلة أتيت بها من الحبشة معي، أراعيها وأحضر لها الطعام، أتخاف مما سترى؟

- لا شيء يخيفني.

- أعرف، شجاعتك تشمل أهل قوص لو تعلم، ولكنها خطر على الولاة، تجعل العامة يتجرَّءون، وتبهم الفرق بين الجركسي والصعيدي، أتفهم قصدي؟

قال مسرعًا: لست متأكدًا من قصدك.

- يقولون: إن مؤذن رسولكم كان أسود اللون.

- لا فرق بين أبيض وأسود في ديننا.

- ومع ذلك فضَّل أبو ضيفة جاريته البيضاء على زوجته السمراء، ابنة الناس الطيبين الأغنياء.

- هي أهواء الرجال، لا شأن لها باللون.

- الرجال في هذه البلاد يفضِّلون اللون الأبيض وقلوبهم سوداء.

- تكرهين الرجال؟ لماذا؟

- بل أكره أبا ضيفة، أما زوجي رحمه الله فكان نعم الرجل، مات بالطبع؛ فالرجال العظماء لا يعيشون طويلًا.

- جئت تتكلمين في شأن ضيفة؟

- نعم، والدتها لا تحبني تعتقد أنني ساحرة أسحر لابنتها لتكره زوجها.

- ماذا تريدين؟

فتحت باب الكوخ، وأخرجت قُفة كبيرة ممتلئة بالعظام، وبعثرت العظام في الصحراء وهو ينظر إليها في عدم ارتياح، ثم ظهرت مجموعة من الضباع بظهر مُنْحَنٍ ونقاط على جلدها وفم مفترس قبيح. بقي مكانه ينظر إلى الحبشية بإمعان وهي تطعم الضباع وتلهو معهم، ثم تقهقرت واتجهت إلى الكوخ، وأشارت له بالدخول فدخل، وقالت -وهي تجلس وتميل يمينًا وشمالًا قبل أن تجد وضعًا ترتاح إليه في الجلوس-: مولاي

القاضي، هؤلاء الضباع عائلتي وسندي!

- ما أبشعها عائلة، وما أقبحه وأحقره هذا الحيوان!

- هكذا يظن أهل مصر، ولكننا نظن شيئًا آخر في الحبشة، أتيت بالضباع من بلادي، وأسكنتها الصحراء؛ لتحميني، ليس من البشر، فلا حماية من ظلمهم إلا بالله، ولكن من الأرواح الشريرة التي تحوم حولنا، وليس سوى الضباع يقدر عليها، قبيحة الضباع، ولكن قلبها كله خير، تعلم أيها القاضي أن ما يظهر من الأشياء مختلف عما في باطنها.

- وكأنك خَرَّفت. ماذا تريدين مني؟

- أعرفك سري فقط وجئت لك برسالة.

قال في غضب: أيُّ لهو هذا؟! وكأن نساء هذه البلدة بلا عمل ولا عبادة.

تنتظر ثواني وأعطيك الرسالة، تستريح خارج الكوخ على الجدار؛ ضباعي لا تؤذي الطيبين.

خرج وهو يضرب كفًّا بكفٍّ.

واصطدم بعجوز أخرى يمنية ذات وجه نحيف وخطوط عريضة، قالت في ثقة: مولاي جئت لأراك؛ سيرتك لا تترك حَيًّنا وحارتنا.

نظر إليها في دهشة وشيء من الحيرة، فقالت: أنا زبيدة صديقة ضيفة، ترعاني أنا ومريم، وتأتي لزيارتنا كل يوم.

هزَّ رأسه، وهَمَّ بأن يسير، فوقفت أمامه تعترض طريقه، وقالت: في اليمن أولادك في أمان دومًا.

قال في حيرة: أولادي في أمان.

- الهمس يزداد والناس يتكلمون، والتنكيل بك مؤكد. في الحبشة ملك يطمع في جنوب مصر، وفي اليمن ملك تثق في ولائه.

قال في رفق: اتركيني أمر.

- ضيفة...

قال في دهشة: ما شأني بها؟

- تشع الحياة من بين أطرافها، أعطت لعمرنا معنى، هي البنت والسند.

هَمَّ بأن يمرَّ فاعترضت طريقه، وقالت وهي تشير يمينًا: اذهب من هنا يا مولاي، فهذا الطريق أوضح وأقرب.

سار في بطء، وشعر بها وراءه.

توقف ونظر خلفه.

تسللت ضيفة إلى طرف الجدار الذي يحيط بكوخ الحبشية، وظهرت كالبرق يعمي الأبصار، ثم يضيئها، قالت في صوت رقيق: جئت أطلب رأيك مولاي القاضي.

التفت إليها، وبقي ساكنًا من صدمة المفاجأة.

قالت وعيناها تدوران حوله: لن تبخل بعلمك على طالب علم.

قال في هدوئه المعتاد: للعلم مكان ووقت، ولا أعطي دروس العلم في الصحراء!

قالت وكأن الموضوع مهم والإفصاح به صعب: لا بد للعالم أن يجيب الطالب في أي وقت، ولو استحى الطالب من السؤال في مجلس القاضي فيسمح له بالسؤال في وقت آخر.

قال وهو يتصنَّع الاستياء، ولكن عينيه كانتا حافلتين بالضحكات: اسألي، بسرعة.

قالت وعيناها تتطلعان إليه وقلبها على مسمع منها: ألم يعطِ الله للمرء حرية العقيدة؟

- بلى بالطبع حفظ له هذا الحق.

- وأعطى للمرأة حرية القرار؟ أليس كذلك؟ طلق النبي المرأة

التي خافت أن تفتن في دينها.

- فعل.

- وأليس للقلب أن يهوى من يريد؟

خفض عينيه، وبقي صامتًا برهة، ثم قال: لديك جرأة الساحرات، لماذا؟ من أين أتيتِ بهذه الجرأة؟!

- جرأتي تظهر وقت الخطر.. في بلادنا يدهس القلب تحت أقدام الخيول كما يدهس المتمرد والمذموم لماذا؟ أليس من المفروض احترام الحب وتبجيله؟

- يعتمد على نوع الحب.

نظرت إلى يده التي يستند بها إلى الجدار، واقتربت بأصابعها قليلًا في تضرع وخجل، ثم توقفت بالقرب من أصابعه ولم تتحرك.

قال في تركيز: تذكري يا ضيفة أن هناك أنواعًا من الحب تؤدِّي إلى الهلاك وخسارة النفس، حافظي على نفسك دومًا، فلا يوجد لك سوى نفس واحدة، لا تظلميها، الحب من الهوى، والنفس دومًا لا بد أن تنتصر على الهوى.

قالت في قوة: بل الحب هو الثبات واليقين، هو ما يعطي للعمر غاية ولونًا، ألم يقل الإمام الشافعي:

أكثر الناس في النساء، وقالوا إن حب النساء جهد البلاء

ليس حب النساء جهدًا ولكن قُرب من لا تحب جهد البلاء

كان أبي يريد لي أن أقضي عمري في بلاء، وأنقذتني مولاي القاضي بتطليقي، وأتمنى أن أتجنب هذا النوع من البلاء، فلا أستطيع تحمله.

قال وكأنه يتكلم مع نفسه: لا أعرف هل لديك حكمة وبصيرة أم غفلة وسذاجة. انتهيت من سؤالك؟

قالت مسرعة وهي تنتقل من مكانها لتجلس أمامه وتنظر إليه وتسند ذقنها بكفها: مولاي القاضي لا يبتسم أبدًا؟

- معذرة.

- كان هذا هو سؤالي، هل هو عناء المعرفة وأمانة العدل التي تجعل وجهك عبوسًا هكذا، أم حزن لا يعرفه أحد؟

- عدت إلى جرأتك من جديد.

همَّ بالقيام، فقالت في توسل: لم أنتهِ من أسئلتي بعد، اعذرني مولاي، هي غفلة وسذاجة إذن، أَما الحكمة فلا تظهر كثيرًا على ما يبدو.

التقت أعينهما، فقالت في صوت رقيق: تعجبك قوص أم تفضل القاهرة؟

- كنت أتوقع سؤالًا في العلم.

فقالت في نفس رقتها: وكيف لأَمَةٍ تطلب العلم أن تقتنص من القاضي وقتًا وهو يتحمل مسئولية أهل قوص جميعًا؟ يعجز لساني الآن وأنا أعرف مسئولياتك وأهمية وقتك.. ويخدعني السؤال ويراوغني... نسيته من رهبتك يا مولاي، لو أعطيتني برهة أتذكره، ثم أخذت تفرك يديها وهي تحاول تذكر سؤالها في توتر، فابتسم وكتم ضحكاته، وقال في جدية: أنتظرك حتى تتذكري.

قالت في حماس: ابتسامتك النادرة لا يستحقها أحد، ولكنك مننت عليَّ بها، ولا أعرف كيف أشكرك.

قال في صوت أراده أن يكون قويًّا ولا يعرف لماذا خرج رقيقًا: تذكرت السؤال يا ضيفة؟

علت دقات قلبها وهي تنظر إليه، ثم قالت في صوت لاهث: لم أتذكره يا مولاي، ولكنه كان سؤالًا مهمًّا، هل تسمح لي أن أتكلم معك؟

- لم تسألي من قبل.

- أريد أن أحكي لك عن صديقاتي وحياتهن.

نظر إليها رغمًا عنه ولم يجب، فبدأت هي تحكي عن زبيدة اليمنية التي طلقها زوجها وهي في الستين وتزوج فتاة في الخامسة عشرة، وتركها بلا مورد رزق، فرحلت إلى مصر لتبيع البخور والتوابل، ومنذ ذلك الحين وهي تتاجر في قوص. أصبحت قوص موطنها نقطة التقاء بين عالمين، وخلال رحلاتها الطويلة كانت تسمع عن أهل الشام في الشمال وأهل القاهرة، ولم ترَ القاهرة قط. وكانت تتناثر الأساطير عن السلاطين والحروب وقصص الحب القوية التي تتخطى الأزمنة والأماكن. زبيدة تحب الحكي، وتحكي لضيفة قصة كل يوم، وضيفة تستمع في اهتمام كالأطفال. أما مريم صاحبة الضباع فقد عانت كل المعاناة لتُهرِّب ضباعها من الحبشة إلى مصر دون أن يقتلهم عابر سبيل، أو من لا يعي أهميتها ولا يفهم أنها جاءت بها لتطرد الشر من حولها وحول من تحب، وأن الضباع البشعة لا تضر في الحقيقة، وتعرف مريم وكأنها أمها.

استمع إليها لا يدري لماذا. استمع إليها في حماس طفل ربما، وسعادة من يرى الضوء الساطع لأول مرة. راحة اجتاحته ممزوجة بالتوق إلى شيء لا يعرفه. مرَّ الوقت قبل أن يبدأ.

كانت تبتسم تارة وتضحك تارة، وتعبس لحظات، ثم تضحك عيناها.

انحنت وهي تنظر بإمعان لسحلية تترقب في الصحراء وهي تتَّجه إلى جُحرها في حذر، مالت ضفيرتها على كتفها وعيناه تتبعانها بلا تردد. ربط عينيه بها بجسدها المتناسق الغض وعفويتها وضحكتها التلقائية، ولم يستطع السيطرة على حزمة المشاعر المتضاربة بداخله. كان القاضي والعالم، قرأ وفهم ثم

محا من ذاكرته كل شيء في اللحظة ولم يرَ سوى جمالها الصارخ وضحكتها التي تذيب القلب، وتجعله يختلج برغبة وشغف لأول مرة. كيف يمكن أن تكون بهذا الجمال وهذه البراءة في آن واحد؟ أيُّ بنت هذه التي تملك جسدًا يشعل نارًا وقلبًا بتلقائية الأطفال. أغمض عينيه برهة ثم فتحهما، واتجهت إليه وهي تتكلم دون انقطاع، وهو يحمد الله أنها لا تعرف ولا تشعر بما يدور في خلده. ولم يستطع القاضي أن يدير وجه عن وجهها ولو لثوانٍ. نظر إلى الشمس وكانت على وشك الغروب.

مرَّ العمر وليته يستطيع أن يوقفه اليوم وغدًا. لا بد أن يفيق قبل غروب الشمس.

قالت في براءة وحماس: تعلمنا يا مولاي أن نكتم إعجابنا بالهلال الظاهر في السماء بكامل رونقه وصفائه، ما لي لا أستطيع أن أكبح لساني عن قول الحق أمام روعة الهلال وثباته فوق البشر جميعًا في مكانه العالي.

قال في حنان لا يدري لماذا: عن أيِّ هلال تتحدثين؟

فقالت دون تفكير: عنك أنت.

قام في بطء فشدَّت وشاحًا أبيض كانت تضعه حول عنقها، وقالت: مولاي اسمح لي.

نظر إليها في دهشة، فمرت بالوشاح على يده بسرعة، ثم أمسكت الوشاح بقبضة يدها، واستنشقت رائحته في بطء وقربته من قلبها واحتضنته في لهفة.

لم يتوقع ما فعلت، ولا عرف كيف يتصرف، بقي صامتًا ثواني يستجمع نفسه المبعثرة في الصحراء، لا يدري متى ولا لماذا، ثم سار في بطء بلا كلمة.

لم يلتفت إليها ولم يكن يستطيع.

سيتوقف عن رؤيتها ولو خدعته وحاولت رؤيته رغمًا عنه،

فسيصرخ في وجهها كما كان لا بد أن يفعل من البداية. ماذا حل به؟ لِمَ هذا الارتياح وهي حوله؟ ولِمَ الوصول والرضا وهي تنظر إليه؟ ولِمَ يسلط نظره لعينيها اللامعتين وشفتيها...

شفتيها... هل تمنى القاضي أن يقبلها؟ هل فعل؟ تلك بلاد كلها جنون تذهب العقل والفطنة. حكمته لا بد أن تنتصر، وجهاد النفس واجب.

ولِمَ يجاهد نفسه؟ يمكنها أن تكون له غدًا. يتزوجها ويملكها وتصبح له كما يريد وكما يتمنى.

ويقولون: قاضي قوص طلَّق الفتاة ليتزوجها هو، كان يريدها منذ البداية، فطلَّقها من زوجها لغرض في نفسه.

سيدعون أن قاضي قوص عشق بنت رضاوي كالصبيان، ولم يعدل بل اتبع هواه، سيتهامسون بأنه منافق وطاغية مثله مثل الوالي، ولكن الوالي يحتمي بجنوده وسيوفه، وقاضي قوص يحتمي بعلمه ودينه. أيُّ ظلم وأيُّ باطل؟!

استلقى على مخدعه وعيناها لا تتركان مخيلته، وشوقه يندفع بقوة لا حصر لها.

همس باسمها لنفسه، وخفق قلبه لأول مرة، وجمح خياله بلا رادع، وتصور ضيفة بين ذراعيه بكل هذا الشوق في عينيها، وبكل هذه الحياة في أطرافها وهذه البراءة وهذا الاندفاع في العشق. كان لا بد أن يبقى. لِمَ رحل؟ لأنه لا يضمن العواقب، لأنه لا يعرف نفسه حولها.

بل لن يراها مرة أخرى إلا وهي زوجته. عزم أمره ولم يكن ضعيف الإرادة. ضيفة له، الناس دومًا يتهامسون ويدَّعون، وزواجه منها لا يغضب الله، والله أحق أن يخشاه، ليذهب كل البشر إلى الجحيم، هذه الراحة والسعادة تستحق بعض اللوم بل الكثير من اللوم، وهذا القلب الذي خفق لأول مرة، هذا

القلب الذي يهتز كلما ضحكت أو تكلمت أو ثارت لا بد أن يروي شوقه. أغمض عينيه وصوتها يملأ وجدانه، وجسدها لا يترك مخيلته، يريدها كما لم يرد امرأة قط، يريدها كالصبي ويحلم بها ليلًا وهو ليس نائمًا، فلا نوم بلا ذراعيها ولا رضا وهي بعيدة. سحرته ربما، أم أنها لعنة سِني الشباب التي عاشها بين الكتب والمعرفة مع الزوجة والولد؟

لاح بذاكرته عشر سنوات قضاها مع زوجته، في هدوء، وحقق فيها كل ما يحلم به. كانت نعم الزوجة والأم، وعندما كان يأخذها بين ذراعيه في المساء كان ينظر إليها باحترام على أنها أم أبنائه وزوجته التي تسانده، ولكنه قط لم يشتق لشفتيها كما اشتاق الآن، ولم يخفق قلبه لرؤيتها، ولا خرجت ابتسامته في رضا عن كل الكون. كان دائمًا يتبع عقله، أما احتياج الجسد فهو لامرأة وزوجة، وليس لساحرة تسيطر عليه وتشعره بتدفق الشوق في الشرايين. هذه المشاعر من عمل الشيطان، والشوق مذلة، والقلب يخفق كلما تذكر ابتسامتها. دفن رأسه في الوسادة؛ لعل العقل يصحو والشوق يختنق. لو تزوجها لأصبحت له، بين ذراعيه وطوع إرادته، ولا بد أن يكتم هذا الشوق ويصارعه حتى تصبح له!

ولو رفض والدها؟ لو عاند قاضي قوص الذي هزمه وكسره وهدَّده بالسجن والغرامة؟ هل سيرغمه على الموافقة كما يرغم الوالي العامة على دفع الضرائب؟ هل سيسلط عليه سيف الشرطة ويهدده ليقبل؟!

كان قد عزم أمره، سيتزوجها، وسيقبل الأب بطريقة أو بأخرى، وسيعتدل الكون مرَّة ربما.

ضرب وجهه بالماء في قوة؛ لعلها توقظ الحكمة وتطهر الجسد وهي لا تترك مخيلته.

صلّى الفجر وقرأ القرآن، وخرج من حجرته فاصطدم بأم الطفل وهي تكنس في عصبية، عندما نظرت إليه قالت: مولاي القاضي، أتعرف الآن؟

- أعرف ماذا؟ اذهبي لتنامي، لا أريدك أن تبقي هنا.

- لا مكان لي سوى هنا، سيقتلني الوالي لو لم أحتمِ ببيتك، تعرف معنى الشوق إلى المستحيل وفوات الأوان؟ هو الزمن يتلاعب بنا، فيوقظ الشوق لما رحل، ويطفئ العمر والنفس حية، أتفهمني؟ أرى عينيك اليوم لامعتين مختلفتين، يا بني، وكم أشفق عليك.

قال وقلبه ينقبض: ولِمَ تشفقين عليَّ؟

- قلت لك: الزمن يوقظ الشوق عند الرحيل.

- رحيل من؟

- من نحب ونريد.

طرق برهة ثم قال: اذهبي لتنامي.

-لا نوم لي حتى أثأر لطفلي، تعرف.

* * *

عندما جلس عمرو في مجلسه في اليوم التالي كان أكثر بهجة وارتياحًا، وكان قد طلب من أحد المقربين إليه في الشرطة أن يبحث عن ابن الوالي ويعرف مكانه، والأماكن التي يتردد عليها وكل أصدقائه في حذر وبلا لفت الأنظار.

ما ينويه لم يكن واضحًا لأم الطفل، ولا حتى لطالبه المقرَّب. وعندما دخل عليه الرجل بأخبار ابن الوالي، وأنه يرتاد حانة في وسط قوص كل خميس، وأن لديه غانية يزورها كل يومين ترتدي ملابس الغلمان بشعر قصير ووجه جافٍّ، قال لرجل الشرطة: إنه يريد لقاء ابن الوالي غدًا في مجلسه، وإنه يريد

لقاءً وديًّا ممتلئًا بالاحترام والهيبة له هو ووالده، ولا علاقة لهذا اللقاء بقتل طفل أو شيخ، بل بمشروع بناء وتطوير.

إقامة الحد على ابن الوالي ستكون ضربًا من الخيال، ليس فقط لأنه لن يجد شرطيًّا واحدًا مستعدًّا لهذا، ولكن لأنه لن يجد شرطيًّا واحدًا على استعداد للقبض على ابن الوالي. ولو وجد هذا الفدائي فسيهرب ابن الوالي أو يحتمي بمماليك والده، ولا بأس بحرب صغيرة في قوص يَقتل فيها مماليك فخر الدين صاحب الشرطة، وكل رجال الشرطة، وكل رجال قوص البالغين. لو لم يستطع أن يحبس جمق في مكان آمن فلا أمل له في القصاص، ولو حبس جمق ماذا بعد؟ لا يملك السلاح ولا الخيل، هو فرس واحد يركبه؛ لأنه شيخ، وللعلماء درجة على أهل مصر. أين يمكن أن يحبس جمق؟ وأين يمكن أن يقيم عليه الحد ووالده يملك كل الأسلحة والعسكر. هناك أمل دومًا، وبالتخطيط السليم كل شيء جائز.

ولكن الابن راوغ واختفى، ولم يُلَبِّ دعوة القاضي، واستشعر الغدر في رسالة القاضي الناعمة وسيرته العطرة وكلام الناس عن عدله وحدته مع الظالم. بل شعر بالكثير من الخوف، وأبلغ أباه، وقرر الوالي أن يزور هو مجلس القاضي، وليس ابنه. كان بكامل زينته يختال، ودخل على مجلس القاضي، فقام الجميع إجلالًا ما عدا القاضي نفسه؛ فقد بقي جالسًا. فقال الوالي: ما بال العلماء لا يعرفون العلم ولا الأدب، ألن تقوم في حضرة الوالي؟!

ابتسم القاضي، وقال في هدوء: ظننت الوالي يقوم في حضرة الشيخ والعالم، سمعنا هذا من السلاطين، هذا سلطان يقف مبجلًا بين يدي قاضي القضاة، وهذا سلطان يقبل يد الشيخ..

- أيُّ غرور أصابك؟! قف أمامي؛ حتى لا أطلب من الجنود أن يأتوا بك مكبلًا إلى بيتي.

بقي عمرو في مكانه ثم قال: لو فعلتها تفقد شرعيتك، وأفتى بهذا، أقسم لك.

- فتواك تأتي بما تهوى، بكم تفتي ببقائي إذن؟ بأرض أم ذهب؟

- عدلك مفتاح بقائك.

- تحكم على الرعية يا شيخ وليس على المماليك، سلطتك تقف عند حدود قلاع المماليك وأبنائهم.

قال في هدوء: للمماليك قضاة العسكر، ولكن ليس لأبنائهم، أبناؤهم تحت سيطرتي وحمايتي.

قام عمرو في ثبات، ونظر حوله للجنود وهم يحيطون بمجلسه، والرءوس المطأطئة أمام الوالي.

فقال الوالي في بطء: وكأنك فقدت عقلك وأعماك غرورك! لا بد أنه صغر سنك وقلة خبرتك.

ثم نظر إلى الحضور وقال: تعرفون يا قوم، سمعت الكثير عن عائلة الشيخ عمرو بن أحمد بن عبد الكريم، ومع ذلك وافقت على تعيينه قاضيًا لقوص. أنا وافقت على تعيينه؛ حتى يأتي اليوم الذي يضايق ابني ويزعجني، لأهل مصر طرق غريبة في رد الجميل!

تمتم عمرو بآيات يحفظها عن ظهر قلب: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا).

- ماذا قلت؟

- كنت أردد آيات الله.

- وأنا كنت أحكي عن جدك المجنون الخرف، يقولون: إنه فقد

عقله وسط ظلمات السجون، وظلَّ يهذي أيامًا، ولا يعرف من يكون ولا لماذا سجن؟

ضحك وهو ينظر إلى جنوده، فضحكوا وراءه في احترام، ثم قال: لم تقابل جدك، ولكنك ورثت جنونه.

التقت أعينهما، فقال الوالي في بطء: أحكامك لا تتبع أي شرع، طلقت ابنة أحد العامة أمس رغمًا عن والدها. لماذا؟

قال في تأكيد: هذا هو الشرع، لا تريده زوجًا، وما بال الوالي يشغل باله بأحكام الشرع؟ هل تعلمت قراءة العربية؟

أطبق شفتيه ثم قال: عمامتك لن تحميك.

ثم دفع بيده عمامة القاضي فوقعت على الأرض، وكتم الجنود والحضور أنفاسهم، وتعالت آهات الفزع. وما إن وقعت حتى دهسها الوالي بقدمه، وقال في صوت قوي: تعود إلى بيتك ولا تخرج منه إلَّا عندما أبتُّ في أمرك، إمَّا بالسجن والعزل أو بالعزل فقط. طائش مثل بقية أهل قوص، طائش وخرف من يخرب بيته بيده، لا يلومني أحد على إهانة أهل العلم؛ فقد أهانوا أنفسهم بطيشهم وقلة أدبهم!

قال عمرو في جفاء: لا يلومك أحد أيها الوالي، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة.

- وكأنك تريدني أن أجرك وراء فرسي مكبلًا!

لم يجب عمرو، رفع رأسه وأدار وجهه، فأخرج الوالي سيفه وصمتت الغرفة كصمت القبور.

همس نائب الوالي في أذن الوالي، فقال بعد برهة: ما زلت أحترم العلماء، ولكن ليس المجانين منهم. هذا الرجل الذي كان قاضي قوص يعود إلى بيته اليوم على أقدامه، ويحذر عليه ركوب الخيل من الآن، ولا يزوره أحد إلا بأمر مني أنا.

دهس العمامة من جديد، وعمرو يقف أمامه ثابتًا لم يهتز ولم يبد أي تأثر.

التقت أعينهما والبغض يطفو على الوجه، والحقد ينتشر في الهواء، فقال الوالي بصوت مسموع: أنت.. يا عمرو بن أحمد بن عبد الكريم، لو فكرت في مسِّ ابني فسأبحث عن ولدَيْك في أنحاء مصر والأرض كلها، وسآتي بهما ولو كانا في أرض المغول أو الصليبيين، وسأسلخ جلدهما، وأقطع أطرافهما، وأعلقهما على باب المدينة؛ حتى ترجوني أن أريحهما وأقتلهما، ولن أستمع لرجائك إلا بعد أن أفقأ عينيك المتحديتين، وأقطع لسانك البذيء، أتسمعني وتفهم كلامي؟

لم يحرك عمرو عينيه من عيني الوالي ولم ينطق.

وعندما رحل الوالي مع الجنود أخذوا معهم فرس القاضي، وتركوا حارسًا أمام مجلسه يصطحبه إلى بيته.

وما إن اختفى الوالي حتى انحنى الحضور على يد القاضي يقبلونها ويتأسفون، ويطلبون الصفح من الزمن القاسي الذي يذل العلماء الذين يعطون الشرعية لكل المماليك.

قال عمرو في ثبات: ليس عليهم حرج، لا تأبهوا بكلمات تخرج من الحمقى، ابن الوالي سيقام عليه الحد. ما دام في صدري قلب ينبض سأتأكد من هذا، وهذا وعد أمامكم، كنت سأقيمه غدًا أو بعد غد على كل حال، قبل أن يأتي الوالي، وقبل أن يظهر حقيقة جهله وبطشه.

ثم خرج وسار بجانب الحارس وكل أهل قوص قد تركوا الدكاكين والبيوت وخرجوا لينظروا إلى القاضي نظرة أخيرة، بعض النساء كُنَّ يبكين ويَنُحْنَ، وبعضهن الآخر يدعون له، والرجال ينظرون إليه نظرات الإعجاب والحسد على شجاعته ووقوفه شامخًا أمام حمق الأمير!

كان يسير في بطء، ورأسه مرفوع، ولم يرتد عمامته من جديد، نظر الرجال إلى لحيته السوداء المهندمة، وقرَّروا أن كل أهل قوص سيهندمون لحاهم بنفس الطريقة وشعرهم، وسيتذكرون دومًا شجاعة القاضي بعد رحيله، فموته مؤكد، ورؤيته لن تكون سهلة بعد اليوم.

لم يجرؤ أحد على الحديث معه، هي تمتمات ما سمعها وبعض النواح من النساء.

وبالقرب من بيته خرجت أم الولد وفي يدها مكنسة، ووجهها مغطى تمامًا، وارتمت أمام قدميه تقبلهما، فتوقف وانحنى ليرفعها عن الأرض، ولكنها بقيت ممسكة بقدمه لا تتحرك، فهَمَّ الحارس أن يضربها، فأمسك القاضي بيده، وقال لها في رفق: انهضي؛ حتى لا يقبضوا عليك ويقتلوك قبل أن تري القصاص.

نهضت في بطء، ونظرت حولها، واتجهت عيناها إلى بعض النساء اللائي يقفن على بعد من البيت إحداهن لا تبكي ولا تنوح، بل تبدو بعينين مبتسمتين مشتعلتين بالحياة، التفت هو أيضًا ناحيتها وعرفها. أرخت جفنيها وكأنها تشكره ثم ابتسمت، وأمسكت بالوشاح وقبلته من على خمارها في بطء، رأى ابتسامتها في خطوط عينيها الرقيقة وكان يعرف عينيها، يعرفهما جيدًا، خرجت رجفة من قلبه لم يستطع التحكم فيها.

أدار وجهه ودخل بيته وأغلق الباب.

* * *

في الليلة الأولى له وهو حبيس بيته دخل إلى حجرة مكتبته، وتربع على الأرض بين كتبه وبدأ يقرأ. عند حلول الغروب بعد أن صلى صلاته جاءه الخادم؛ ليسأله لو كان يريد الطعام، فتدخل الحارس وقال: إن طعام القاضي يحدده الأمير فخر الدين، وهو لم يحدد له سوى رغيف في اليوم وشربة ماء،

أما الفاكهة والعصائر والقرنفل فممنوعة عليه!

ابتسم عمرو وقال في قوة: أشكرك؛ لأنك تعطيني الفرصة للغوص داخل نفسي وترك متاع الدنيا. الاعتكاف واجب لم يكن لديَّ الوقت له، سأبدأ الصيام من اليوم.

وبدأ صيامه وصلاته واعتكافه في حجرته، ولم يبد اهتمامًا بالطعام. وبعد يومين علم الأمير بما حدث فجن جنونه، وقرر أن القاضي يتحداه مرة أخرى، ويرتدي ثياب الورع وهو فاجر كافر، ولا بد من طريقة أخرى لإذلال قاضي قوص؛ حتى يطلب العفو ويأتي بعينين منكسرتين وقلب ذليل.

سأل الأمير الحارس: كيف يقضي قاضي قوص وقته، فأخبره الحارس أنه يصوم ويصلي ويقرأ طوال اليوم ولا يتكلم مع أحد ولا يجيب سائلًا، فقال الأمير في نشوة: أحرق كتبه الواحد تلو الآخر أمام عينيه.

قال الحارس في تردد: مولاي، هي كتب دين!

- لا تحرق كتاب الله، ولكن أحرق جميع الكتب التي كتبها بشر، أحرق كل مكتبته، وكل يوم أحرق كتابين حتى يطلب العفو.

هزَّ الحارس رأسه بالإيجاب، وبدأ في حرق الكتب كل يوم، وعندما أمسك بالكتاب الأول ليحرقه بدا بعض الألم في عين قاضي قوص، ثم قال: تحرق العلم والعلماء وأول كلمة في كتاب الله هي اقرأ.

لم يجبه الحارس فقال عمرو في شيء من الغيظ: تبيَّنْ وفكِّرْ ولا تطع الأوامر كالحمار الذي يحمل أسفارًا!

نظر إليه الحارس في غضب ثم قال: لولا أن الأمير لم يأمر بهذا لكنت قد صفعتك الآن على كلماتك.

هزَّ عمرو رأسه ثم قال: الإمام الشافعي يقول: إذا نطق

السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت، لو تطاول الحارس على القاضي فلا أمل في تلك البلاد، افعل ما شئت.

أحرق كتابين في اليوم الأول، ثم أربعة في اليوم الثاني، وليعجل بالأمر لأن نفس الأمير شغوفة تنتظر كسرة القاضي فقد قرر الحارس بناء على أوامر الأمير حرق كل الكتب في اليوم الثالث.

وفي اليوم الرابع قرر تحديد إقامة القاضي في حجرته فقط، وعدم دخول أو خروج أحد عليه، فقال القاضي في يقين: ما أغفل أميرك! تظنني لا أحفظ كتاب الله؟ تظنني بلا كتب لا أعرف ولا أفهم؟ ما دام الإيمان في قلبي فلا أحد يقوى علي.

قال الحارس في قوة: لم تعرف بعد آلام الخوازيق والسكين وهي تقطع الجلد.

لم يجب. أخذ يرتل القرآن ويصلي ويصوم.

بعد مرور أسبوع تسللت إلى حجرته أم حسن بشعرها المشبك الرث وملابسها القديمة، وجلست بجانبه، وأخرجت من ردائها قطع لحم وقالت: لا بد أن تأكل، هيا قبل أن يراني الحارس.

بدت متوترة توتر الحروب، وعيناها متحجرتان وقويتان كأنها على وشك الانتصار أو الهزيمة.

قال في رتابة: كليها أنت، لا أحتاج إلى اللحم.

قالت في تأكيد: بل تحتاج إليه، لا نعلم بعد إلى أي مدى سيستمر ظلم الأمير، تعرف..

ثم نظرت حولها ثم همست: لم أكن أحتاج إلى اللجوء إليك، كان يمكنني أن أقتل هذا الحقير بيدي، ربما كان لا بد أن أحاول، ولكنني خفت، خفت ألا أنجح ويقطعوا رقبتي، ويحيا ابن الناس

في سلام، وأموت وأنا أعرف أن الظلم باقٍ لا محالة. أتفهمني أيها القاضي؟

قال في صرامة: أفهمك.

- الظلم ينتصر؟

- إلى حين ربما.

- يتشبث بالمال والقوة، فيحيا دهرًا. كل اللحم من أجلي.

أمسك باللحم وكانت نفسه تعاف أن يأكلها بعد أن وضعته داخل ردائها الرث، لم يكن يستطيع أن يقول هذا. وضعه أمامه وقال: ربما بعد قليل.

- الأمير سيكسرك ويذلك، أعرف، ولكنك ستبقى بالنسبة لي أنقى من رأيت، وأشجع رجل في مصر.

ابتسم لها ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد.

قالت في قلق: يتوقع أن تطلب صفحه وتنسى أمر ابنه.

- أعرف.

- في التصميم انتحار وموتك مؤكد.

- ربما.

- ولو قتلك؟

- لكل أجل كتاب.

- تُقدِم على الموت وكأن لديك خطة، هل لديك خطة؟

بقي صامتًا.

فقالت مسرعة: ستصرف النظر عن القصاص، أليس كذلك؟ ستتهرب من وعدك؟

قال في شيء من الغضب: ثقتك بي منعدمة بعد كل هذا، أيُّ امرأة أنت؟!

- بل لا قبل لي بقوتك وعنادك وكأنك هدية الله لي، يبلي ثم

يدبر، تجعل للعيش هدفًا. من أيِّ أرض جئت ومن أيِّ نسل؟
- لو لم تخرجي فسيقتلك الحارس ولن تشهدي موت جمق.
- هذا ضرب من الجنون، كيف أشهد موت ابن الوالي؟ تهذي بعد أيام بلا طعام.
ابتسم من جديد: فقدتِ الثقة بي بسرعة، ألم تأتِ إلي طالبة القصاص؟
- لحظة جنون من أم مكلومة، سامحني.
- لا أفهمك، تريدينني أن أنسى أمر ابنك؟ تقبلين الفدية؟
- بل سامحني لأنك ستقتل ولأنني أذكرك بوعدك لي. وداعًا يا بني.
بدا جسده هزيلًا بعد أسبوع، وفي بعض الأحيان بدأت الرؤية تستعصي عليه، وأحيانًا كانت الأرض تدور به. والصبر من عزم الأمور، ومصيره يتكلم عنه كل أهل قوص. القاضي الجريء المجنون الذي يتحدى الوالي على وشك الموت كما هو متوقع وكما هو مكتوب. ولكن صبر الوالي نفد؛ فبعد مرور أسبوعين قرر أن النهاية حانت.

* * *

عندما جنَّ الليل كان هو جالسًا على الأرض، وكان الوالي قد عزم أمره أن نهاية عمرو اليوم، وأن قتله يصلح كل الفساد، ويؤدي للاستقرار التام، ولعودة قوص مهد الحضارة وقلعة الحجاج بلدًا يتَّسم بالعدل والأمان لا جرائم فيه ولا ظلمات. لو مات القاضي في مخدعه انتهت قصة الطفل المشئوم هذه، وعاد كل الناس إلى أعمالهم وأشغالهم، وهدأت النفوس كلها، وأولهم نفس القاضي! الموت يريح طموحه وعناده ووقوفه أمام النار والطوفان وحيدًا بلا سند ولا سلاح. راحة أبدية من عذاب السجون وغيابات الجنون التي تنتظره، فلن يتركه الوالي إلا

مجذوبًا يسير في الحارات والأحياء ينادي على من راح ومن قتل ومن عُذِّبَ ومن ضاع، لن يهدأ بال الوالي سوى بجنون القاضي وكسر نفسه وغروره.

لو طلب عفوه، لو راح يرجوه أمام المجلس في ذل، لو أنكر سواد نيته وخسة خططه لَفكَّرَ في حلٍّ آخر، ولكن بقاء القاضي على قيد الحياة كارثة على كل المماليك وليس عليه هو فقط. لو سأله أحد لماذا قتل القاضي لشرح لهم ماذا فعل، وسيشرح لهم لما فقد شرعيته يوم تجرَّأ على الوالي الذي عينه، يوم يتجرأ القاضي على والي قوص، سيتجرأ على والي القاهرة، وشيئًا فشيئًا سيتجرأ على أتابك العسكر، ثم يتجرأ على السلطان وينتهي حكم بلاد المسلمين. خطر قاضي قوص لا بد من شرحه وقتله بلا محاكمة رحمة له ورفقًا به؛ حتى لا يتهم العامة المماليك بتعذيب رجال الدين والعلماء.

أما قاضي القضاة فلا بد من لومه ومحاسبته على اختيار هذا القاضي الأحمق نائبًا له من بين كل قضاة مصر وبلاد المسلمين. هذا شأن آخر له يوم وليلة وعتاب وعقاب. أما اليوم فالحارس يطعنه في مخدعه ثلاث طعنات في القلب ويتركه ويهرب، ومن المسئول عن موته؟

هي عجوز خرفة تكنس بيته وتنام أمامه كل يوم، عندما عرفت أنه كذب عليها وأنه لن يقوى على الثأر لابنها الذي قتله الأب في الحقيقة، ستقتله لأنه أطلق سراح الأب ولم يأت بالفاعل. ستقتله لأنها كغيرها من فقراء الحي فقدت عقلها بعد الوباء والجفاف، وأصبحت تمزج بين الخير والشر والأخضر واليابس. قتلته الأم وستقتل هي أيضًا، ويتعلم أهل قوص الدرس، ويعود الرخاء بعد أعوام القحط، ويعود الوالي لعمله وابنه لمجونه والعمر لطريقه الصحيح.

تسلل الحارس في صمت إلى حجرته ومعه سيف مسموم، لعل الطعنات
لا تؤدِّي الغرض.

الخطة محكمة جدًّا، والتاريخ تمت كتابته بالفعل. وعندما يموت عمرو سيحزن العامة بعض الوقت، وستقام له جنازة مهيبة ليقر العامة ويهدءُوا، وسيدفن في مسجد عتيق وسط قوص، وسيزوره بعض الناس ويتبرك به، ثم سيتفق الوالي بعد عام مع أحد الشيوخ، ويدَّعي كُفْر عمرو، ويتكلم عن أفكاره الغريبة، وكيف طلق الفتاة رغمًا عن والدها، وكيف أصدر تشريعات لا تصدر عن مسلم بل عن زنديق. يعرف الشيخ الذي سيقرُّ هذا من الآن، وسيتكلم معه الوالي اليوم حتى قبل موت عمرو. وعندما يقرر الشيوخ بأن عمرو كافر مرتد سيخرجون رفاته وعظامه ويلقون بها للكلاب الضالة، فلا كافر يدفن في ضريح أو مسجد، وسيختمون صك فنائه وحرقه.

انتهى أمر عمرو حيًّا وميتًا، وسيتأكد الوالي من طمس سيرته وعذابه في الدنيا والآخرة. ربما يدخل الجنة، من يدري؟! ولكن لا بد لأهل مصر أن يتأكدوا من دخوله النار. أما ما يحدث له بعد الموت فلن يعرفه أحد. تاريخه تمت كتابته والموت خطر لو مات شهيدًا، وذليل لو مات زنديقًا. ما أغفل القاضي الذي لا يعرف أن مصيره بيد الأمير، وعمره حيًّا وميتًا في قبضته، وسيرته لم تعد عطرة، ومصيره أصبح الجحيم. وحلم الأمير بيوم يخرج رفات عمرو بيديه ويبعثرها في أنحاء قوص ويصرخ بأنه كافر زنديق. بعد وقت قصير يأتيه خبر موت عمرو، وعندما يموت عمرو لا بد من محو ما حدث من ذاكرة أهل قوص، وخاصةً تجرُّؤ القاضي على الأمير، واتهامه الكاذب لابنه. كانت خطة فخر الدين موضوعة بعناية، لا بد من جر أم الولد في الطرقات واتهامها بالبغاء، وشقها نصفين، والأب سيموت لأنه قتل ابنه، ولكنها

الأم التي لا بد من توضيح مصيرها لأهل قوص، ستجلد أولًا ثم تحرق بالنار، ثم يقطع شعرها ويحرق وجهها؛ حتى تعترف ببغائها وقذارة جسدها ونفسها. هذه الحقود الفقيرة التي تدَّعي السوء على ابن من ينعم عليها بهبة العيش والأمان، أيُّ افتراء وأيُّ جحود. وبعد الانتهاء من أم حسن يبدأ الأمير بالتفرغ لمجلس القاضي وحراسه ويعلقهم على أبواب المدينة، ثم يفرض ضرائب جديدة، ويطلب من الشيوخ أن يفسروا الجفاف بالكُفْر الذي حلَّ بالمدينة، وبالسحر الذي يمتلك أركانها. وكل هذا بسبب المرتد عمرو الذي أراد أن يغير ألوان الطبيعة ومجرى النيل، ويجعل البحر العذب مالحًا ملوحة السمك العفن الذي يأكله المصريون في أعيادهم، فرض الضرائب على الفقراء أولًا ثم التجار. أما جمق ابنه الذي تعرَّض للخوف من قبل القزم الخرف عمرو فلا بد من إعلاء شأنه، وخروجه بفرسه وسط الحارات، وكسر بعض المحلات، وضرب بعض الباعة بالسوط؛ حتى لا يتجرأ عليه أحد بعد الآن مهما حدث ومهما فعل، فلو اختل الميزان فالفناء هو النتيجة الحتمية.

سمع عمرو صوت الحارس وهو يدخل عليه، ورأى خيال السيف يبرق ويلمع في الظلمات، ولم يكن الموت يخيفه قط، بل الفقد والحرمان فقط. واليوم لا يخيفه الموت؛ لأنه ليس متأكدًا من أنه لم يزل بوعيه، كان يفقد الوعي برهة ثم يعود له الوعي، يحلم لحظات ثم يستيقظ برهة، لا يقوى على القيام من مكانه. رفع الحارس سيفه وعمرو جالس على مخدعه يفكر في وعد أعطاه لأم فقيرة ولن يستطيع الوفاء به؛ لأنه سيموت. ولو أبقى سكينًا بجانبه لكان سيدافع عن نفسه على الأقل، ولكن فكرة القتل كانت لا تستهويه حتى لحارس خائن. للموت ميعاد ويوم معلوم، كان يتمنى أن يكسب الوقت، فربما هناك خلاص، ولكنها النهاية على ما يبدو.

سمع وقع العصا السميكة على رأس الحارس، لا بد أنها أم حسن أنقذته ليثأر لابنها، ولو مات لكان الموت أسهل عليه؛ فالثأر يبدو صعبًا أو مستحيلًا، ولكن السباحة في وجه الغرق واجب، وإنقاذ النفس فرض، وموت القاتل إنقاذ لنفسه من الغرق والجنون.

بقي على مخدعه ينتظر انتهاء المعركة ولا يرى سوى خيال السيف، ولا يسمع سوى صوت العصا، ثم رأى قنديلًا يقترب منه وسمع صوتًا قويًّا ينطق باسمه، ولم تكن أم حسن التي ضربت الحارس وجرته خارج الغرفة، بل بدا له أن رسالته الثانية التي أرسل بها إلى من هو أهم من قاضي القضاة قد وجدت من يقرؤها.

سمع الأمر في قوة: إلى القاضي عمرو بن أحمد بن عبد الكريم من سلطان البلاد، السلطان يطلب حضورك إلى القاهرة اليوم، بل الآن.

في أثناء الطريق الطويل كان عمرو في الغالب محمولًا، يساعده الحراس على شرب الماء والأكل، وبعد بضعة أيام استعاد قوته، وهو يفكر فيما سيقول للسلطان، كان يفكر منذ بعث رسالته إلى السلطان مع رسالة قاضي القضاة، جازف وتمنى وتحقق الهدف، سيقابل السلطان، ولكن جمق لم يزل حرًّا، والوالي
لم يزل يحكم ويطغى.

* * *

الفصل الثالث

قال الحاجب بصوته القوي: السلطان الظاهر سيف الدين برقوق.

دخل السلطان في بطء وعيناه لا تتركان وجه عمرو، التقت أعينهما برهة، وكان برقوق جاحظ العينين طويل القامة ضخم الهيئة، يبدو في الخمسين أو أقل قليلًا، جلس وقال وكأنه يتأمل: قاضي قوص... من يثير العامة على المماليك ويثير الفتن والثورات؟

قال عمرو مسرعًا: بل من يحمي السلطان من أذى الطغيان وبطش الظلم؟

ابتسم له في سخرية، ثم فرد رداءه المرصع بالذهب وقال: اجلس هنا بجانبي؛ لنبحث في أمرك، ونكتشف كيف عينك قاضي القضاة نائبًا في قوص مع أنك دون الأربعين!

جلس على رداء السلطان، وقال مسرعًا: لست دونها سوى ببضع سنوات وما قَضَيْتُه في العلم يضاعف هذا العمر، هي ساعات العلم التي نحسبها يا مولاي، ولم أترك وقتًا من الفجر إلى العشاء إلَّا وقضيته بين الفقهاء وكتب الدين.

قال وهو لم يزل يبتسم: لا يتَّسم بالتواضع هذا القاضي، هو غرور في نفسه جعله يقف في وجه الوالي وابنه.

قال في تصميم: الوالي من المماليك له قاضٍ غيري، ولكن ابنه من أتحمل مسئوليته.

هزَّ السلطان رأسه بالإيجاب، ثم قال وهو ينظر إلى عمرو: للسلطان عمل يقوم به، وليس عليه حل مشاكل بين العلماء والأمراء، بل لا بد أن يتعاون العلماء والأمراء. ما بلغني عنك يجعلني آمر بعزلك وإذلالك أمام العامة، ولكنك بعثت رسالة تستغيث وتطلب مقابلتي. أي لغز هذا؟

- إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا.

- تتهم الوالي الذي عينته أنا بالفسق؟!

- وكيف للسلطان أن يسبر غور الوالي ويعرف ما في النفس؟ والنفوس تتغير، والطغيان كالخطيئة يغوي كل قوي وعزيز.

- الطغيان كالخطيئة، كلمات كلها خطر ويقين لا تعجبني كثيرًا، ولكنك شجاع.

قال مسرعًا: جئت أستغيث بك، وأنت تعرف أنه كان ينوي قتلي.

- ستشكو منه؟ سمعت أنك اتهمته بالجهل أمام مجلسك.

- بل كنت أردد كلمات من كتاب الله.

ردَّد السلطان: من كتاب الله ولا غواية سوى المجازفة والغرور. المجازفة والغرور أيها القاضي تغويان كالخطيئة وليس الطغيان.

- مولاي يعرف الكثير ودرس وتفقه، ليت ولاته يناقشون مثله ويتأملون ويفهمون.

- ماذا تبغي مني؟

- العدل.

- وهل هناك عدل أكثر من أن أستقبلك هنا في قصري، وأجلسك بجانبي بعد أن أبسط لك ردائي. العلماء يحملون على عواتقهم أحمال البلاد والعباد، وأنا أحترمهم، وأعرف أهميتهم، ولكنهم ليسوا معصومين من الخطأ. تتفق معي في

هذا؟

أطرق عمرو، ثم قال: لا يوجد إنسيٌّ معصوم من الخطأ، ولكن للاجتهاد فوزه وقيمته، ولا يوجد أكثر من العلماء اجتهادًا.

نظر السلطان حوله ثم قال: ولو أفتى عالم بقتل السلطان؟ ما رأيك في هذا؟

- لم أسمع بهذا من قبل.

- ستسمعه من اليوم، بل لا بد أن تسمعه وتفهمه، ما رأيك في السلطان برقوق؟

- لم أرَ منه شرًّا.

- هل فعل ما يغضب الله؟

- هذا ما لا أعرفه يا مولاي فلا تنكشف لي كل الحقائق.

- عندما استجبتُ لطلب الأمراء وأخذت الحكم من السلطان الطفل الصالح الحاجي هل كنت مغتصبًا ويجوز قتلي؟ ومَن السلطان الشرعي؟ مَن يرث الحكم عن أبيه دون وجه حق سوى عرقه وعائلته؟ أم من يقاتل في سبيل الله ويحمي البلاد ويصل إلى الإمارة بعمله وجهاده؟ ما رأيك أنت أيها القاضي؟

صمت عمرو، فأكمل السلطان في حماس: أولاد الناصر محمد ليسوا إياه، الناصر محمد كان مميزًا مع أنني ألومه، ولكنه استثناء للقاعدة، وليس هو من يملي القاعدة. هو من أولاد الناس ابن مقاتل وليس مقاتلًا، ومع كل إنجازاته لم يعرف قيمة المماليك بحق، وإلَّا لما أوصى بالحكم لسلالته، ولما وصل أمر البلاد إلى ما هو عليه؟ أكثر من أربعين عامًا على وفاة الناصر محمد أليس كذلك؟ كم سلطانًا عاش وكم سلطانًا استمر بلا اغتيال أو هرب؟ أخبرني؟ أي دولة وأي ضعف وهوان جلبه أولاد الناس إلى مصر؟ تعرف ما أبغي؟ مصر تستحق ما هو أفضل

من مجرد وريث شرعي طفل يلعب به الأمراء. مصر دومًا تستحق المقاتل من يبذل نفسه فداء لها ولبلاد المسلمين، ومن يجعلها قبلة العلماء ومهد الكون. لم يحكم مصر سلطان بقوة المقاتلين، أما أولاد الناس، أبناء المماليك فلا قدرة لهم على حكمها. الظافر قطز، بيبرس، قلاوون كلهم اقتنصوا حكمها عنوة من يد سلطان أعطاه العلماء الشرعية لمجرد كونه ابن سلطان، مع أن الإسلام ليس دينًا يعتمد على التوريث، في ديننا لكل امرئ ما كسب، أليس كذلك؟

قال القاضي في حسم: هو كذلك.

- قلاوون جَدُّ هذه السلالة، اقتنص الحكم عنوة من أبناء بيبرس، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- أما أنا فلم أطلب الحكم ولم أطمع فيه، بل استجبت لإلحاح الأمراء، وحملت هم بلاد المسلمين، وحملت أمانة تئن منها الجبال. تفهم ما أقوله؟

- أحاول يا مولاي.

- ليس للعلماء أمان أيها القاضي، مثلهم مثل المماليك، وفي عصرنا تتشابك المصالح بينهم.

- العالم منزَّه عن أيِّ سوء.

- ألم نتفق على أنه غير محصن؟

- بل اتفقنا على أنه بشر يصيب ويخطئ، ولكن للاجتهاد ميزة ودرجة دومًا تعرفها، وإلَّا لما أجلستني على ردائك.

- فلنعد إلى مقتل الطفل، استشرت قاضي القضاة، وحكم بالفدية لأنه ليس قتل عمد.

نظر عمرو حوله ثم قال: إذا سمح لي السلطان، أريد أن أقول شيئًا وأخجل من الحضور.

قام السلطان وأشار بيديه للجميع بالانصراف، ثم وقف أمام القاضي، فوقف القاضي وقال في حذر: أعطني الأمان لأتكلم.

- لو كنتَ ستسب الأمراء وأولادهم لقطعتُ رأسك على الفور، أو أتركك لوالي قوص يفعل بك ما يشاء.

ابتسم عمرو وقال في صوت خافت: ألم نتفق للتو على أن المقاتل يختلف عن ابن الناس؟ المماليك شيء وأولادهم شيء آخر.

- فهمت لماذا حصلتَ على منصبك، طموح وفطنة وخبث، الكثير من الخبث، ماذا تبغي؟

- تعطيني الأمان.

- لا أعطيك الأمان أبدًا.

ابتسم عمرو من جديد ثم قال: سأتكلم إذن، ولكن عِدْني أنك ستقتلني هنا في قصرك على الأقل، ولن تجعل والي قوص يتحكم فيَّ، القتل بيد السلطان شرف، والقتل بيد والي قوص خِزْيٌ لا أستحقه.

- وكأنك تعترف بي سلطانًا؟

- كنت وما زلت أفضل المحاربين.

- أعدك أنني لو لم أعجب بكلماتك لقتلتك أنا ولن أسلمك لوالي قوص.

قال عمرو: العامة يتكلمون، أهل مصر قساة على حكامهم ولا يملأ أعينهم سوى الجسارة، يضحكون ويسخرون ويتظاهرون بالرضوخ ونفوسهم أبية دومًا لا يراها سوى الله، يفصلون الروح عن الجسد فيرضخ الجسد للحاكم وتبقى الروح حرة دومًا.

- لا غبار على أهل مصر، الأمراء هم من يؤرقونني.

- وإذا تآمر بعض الأمراء على سلطان مصر ومعهم بعض العلماء

فلا بد للسلطان من إثبات عدله المطلق المنزه عن كل غاية.

- هي فتوى قاضي القضاة، أَمَرَ بدفع الدية.

- الأمر أخطر من مقتل طفل، سأتكلم وقلبي على كفي.

- ماذا تقصد؟

- ظهر الفساد في البر والبحر يا مولاي، ابن الوالي يفضل الأطفال والصبيان على النساء، وكل مصر تعرف. الأخطر من هذا أن بعض المماليك وأولادهم يفعلون نفس الشيء، حتى أصبحت ضحكات أهل مصر على فقر الغانيات في عصرنا، وكيف يتشبَّهن بالصبيان ويحلقن رءوسهن ليجدن من يريدهن. أتكلم معك بحرية وأقول ما أسمع وما أرى وقلبي يستعيذ من الشيطان. لا أريد أن يقال: إنه في عصر السلطان برقوق المقاتل الورع المسلم انتشرت الخطيئة بين رجاله وفضلوا الصبيان على النساء. لو حدث وأشاع المصريون هذا واقتنعوا به يضعف حكمك بحق وتهتز شرعيتك، بل أصبح العامة يتهامزون بأن الأمراء يختارون مماليكهم بوجوه كالقمر وعيون خضراء، ولا يختارونهم على أساس القوة، بل على أساس الجمال. تعرف خطورة هذا وتهديده للدولة والبلاد.

سمعه السلطان في صمت والغضب يخرج من عينيه ثم قال: كيف تجرؤ؟

- اقتلني يا مولاي لو أردت، ولكنها مصلحتك أنت التي أبغيها وليس قتل ابن الوالي. لو أقمنا الحد على ابن الوالي فماذا سيقول العامة؟ إن السلطان يكره الفاحشة ويخاف الله. لو قال العامة: إن السلطان يخاف الله ضمنت بقاءك؛ حتى يأتي أجل الله. كنت تتكلم عن المقاتلين الذين حكموا مصر أمثال بيبرس. بيبرس أتى بشرعيته من محاربة الرذيلة والتأكيد على تدينه وتمسكه بتعاليم الله.

- كيف تفكر؟ قاضٍ أنت أم سياسي؟!
- القاضي سياسي دومًا.
- خبثك مقلق، يقلقني أنا، وطموحك يخرج من عينيك، تريد أن تكون قاضي القضاة؟ أم السلطان؟ بل من تظن لديه كل القوة في مخيلتك؟

ابتسم وقال في ورع: أريد إقامة الحد على ابن الوالي، وأريد لصاحب الشرطة أن يأتي به؛ فهو هارب الآن، وأن يأتي به اليوم ونقيم الحد عليه هنا في القاهرة على باب زويلة، ويخرج أهل مصر مهللين للسلطان.

- إغضاب الأمراء ليس بالأمر الهين، عمل كهذا يُحدث ثورة عليَّ، لو أطحت بأبناء المماليك...

قاطعه في رفق: بل يظهر قوتك، ويردع من يفكر في التمرد أو يوضح لك الصديق من العدو.

نظر إليه السلطان برهة ثم قال: في مخيلتك، من يملك القوة: السلطان أم قاضي القضاة؟

- السلطان يستطيع عزل قاضي القضاة، وقاضي القضاة يستطيع الفتوى بعدم شرعية السلطان، ولكن في هذه الحالات سيقتله السلطان على كل حال، وسيبقى العامة يتهامزون بعدم شرعية السلطان. هي علاقة معقدة يا مولاي، وتعتمد على السلطان وعلى القاضي. سلطان مثلك لو أمر بهذا لكان أكثر ورعًا من قاضي القضاة، أليس كذلك؟ فقاضي القضاة أمر بالفدية، ولكن السلطان لسلامة دينه وقوة إيمانه أمر بإقامة الحد. ويعرف العامة أن الادعاءات على المماليك بهتان وإثم، وأن المماليك هم الرجال الحق ولا يفضلون الصبيان، ولا ينتقون لأنفسهم مماليك جُمَلاء بل أقوياء.

بدت الحيرة على برقوق ثم قال: سأفكر في الأمر.

- التفكير يثبط العزيمة، السلطان يقرِّر ولا يتردد.
- ستفتح عليَّ وعلى نفسك نارًا لا قِبَل لنا بها.
- هو وعد أعطيته لأم الطفل لابد أن أنفذه.
- ولتنفذ وعدك تطيح بسلطان مصر يا رجل؟! غرورك لا قبل لي به.
- بل يعجبك ويذكرك بقوتك وحروبك.
- ماذا تبغي؟
- العدل كما قلت لك.
نظر إليه برهة ثم قال: تفي بوعودك، وتبيع نفسك لسيدة فقيرة لا تملك
ما تعطيه لك، مجنون أم قديس؟
قال في حسم: الاثنان ربما، وأولًا وأخيرًا أنا رجل يهتم بأمر سلطانه ويخاف عليه.
- وفي مقابل فتح الباب الذي يفصلنا عن يأجوج ومأجوج الذي تريد فتحه ماذا تعطيني؟
قال عمرو: ولائي طوال حياتي.
- ولو ظلمتُ؟ لن تقيم عليَّ الحدَّ.
- من يملك شجاعتك مولاي لن يظلم، سأدعمك دومًا.
- لأنك تثق بي أم تحلم بأن تكون قاضي القضاة؟
- لكل أجل كتاب.
- ترتدي قناع الورع الآن، لا بأس، لك ما تريد.

* * *

انقلبت الدنيا، وتوالى البحث عن ابن الوالي جمق بن فخر الدين، بل واستدعى السلطان الوالي نفسه. وأمر بأن يبقى عمرو عنده في القصر. لا يعرف عمرو أهو رهينة أم أسير؟ أم أن

السلطان يريد حمايته، وبعد أسبوع استدعاه السلطان وقال في قوة: وجدنا جمق.

قال عمرو في تأكيد: نقيم عليه الحد على الملأ وأمام العامة والعلماء.

- وأمام أمراء المماليك؟

قال في إقناع: وازع ورادع وهيبة للسلطان.

- السلطان الذي لا يحمي مماليكه؟

- السلطان الذي يحمي بلاد المسلمين من أي ظلم.

- كلماتك حاضرة دومًا، ولو قتلتك أنت الآن أليس من الأفضل والأسهل؟

ابتسم عمرو وقال: أسهل بالطبع، ولكنها فرصة لتلقين الدروس ووضع الأنظمة، وسلطان مصر لن يفوِّت هذه الفرصة.

ابتسم برقوق ثم نظر إليه وقال: ما رأيك بعد مقتل ابن الوالي أأتخلَّص من القاضي أيضًا؟

- لو لم يعد لي لزوم لدى مولاي فلا بأس.

- تعرف أنني سأحتاج إليك.

- وتعرف أنك ستجدني دومًا.

- لفورة الشباب سحرها الخاص.

ثم قال السلطان في تأمل وهو يدور حول الحجرة: القاضي عمرو بن أحمد بن عبد الكريم لديه شجاعة جنود المماليك وورع جَدِّه عبدالكريم، تعجبني يا رجل. وتعجبني المغامرة في عينيك. يومًا أريد أن أجلس معك ونتحدث في شئون الحياة والموت، فلم أسمع نصائحك ولا قرأت عن كتبك، ولكن الآن سيقام الحد غدًا بعد صلاة الفجر على جمق بن فخر الدين، تقيمه أنت بنفسك.

- أنا قاض لا أمسك سيفًا ولا أقطع رأسًا، يقيمه أحد رجال الشرطة، هي ليست ضغينة في نفسي التي أحملها للوالي لأقتل ابنه بيدي.

هزَّ السلطان رأسه، وخرج من حجرة عمرو، والارتياح يجتاح عمرًا والنصر قريب.

ليلًا هرع الوالي إلى السلطان وركع على قدميه، وطلب الصفح والمغفرة، وعرض كل ذهبه وكل خيله وكل أراضيه لو فقط ترك السلطان ولده حيًّا. وطرق السلطان وبدا أنه يفكر في الأمر، ثم قال في حسم: القرار ليس قراري هو قرار القاضي.

قال الوالي في تلقائية: سأمزقه إربًا لو حدث مكروه لابني.

فقال السلطان: ولو مسَّه أيٌّ مكروه أقتلك على الفور، ليس لك أن تحكم قوص من اليوم، أهنت العلماء وكسرت هيبة السلطان، تبقى في القاهرة حتى أبتَّ في أمرك.

نظر إليه الوالي، وبدأ يرجوه من جديد؛ حتى شدَّه الحراس خارج القصر.

بعد صلاة الفجر، وأمام أهل الحي قطع الشرطي رقبة ابن الناس، وعلقها على باب زويلة وعلى مشهد من القاضي، وصرخة الأب تخرج من أعماق النار وتصل إلى حلب وملاطية في الشمال.

قال القاضي لأحد حراسه: اذهب إلى بيتي، ستجد امرأة عجوزًا بملابس رثة تكنس أمام الدار، قل لها: إن قاضي قوص أوفى بوعده وأقام الحد على ابن الناس، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب.

أشهر والي قوص سيفه، وأقسم وهو على فرسه: والله لو أطحت بالسلطان نفسه لأفعل، ولكنني سأمزقك إربًا يا عزَّة القضاة، سأرى دمك يسيل أمامي وأنت في الخازوق ولا تموت

بل تتمنى الموت.

ثم جرى بفرسه بعيدًا. مِنَ الناس مَنْ قال: إنه سافر للشام دون إذن من السلطان، وصرخاته لم تزل تهز أركان مصر، والنساء يتهامسن والرجال يرتجفون، وهذا المشهد لا يتكرر كثيرًا على أرض هذه البلاد، فلا بد من الحذر، ربما كان سرابًا أو أضغاث أحلام.

* * *

هذا اللقاء تنتشر حوله ذرات القلق والتوتر والمواجهة والترقب، خالف عمرو نصيحة قاضي القضاة، بل وتعدَّاه وذهب إلى السلطان. في هذا التصرف تمرُّد واضح وخطر صريح لهيبة قاضي القضاة، وأيضًا لمنصبه ووضعه. ما فعله عمرو أسوأ كثيرًا من جريمة جمق ابن الوالي؛ فقد تجرَّأ على معلميه وتحدى الشيوخ جميعًا بفعلته المشينة. الذهاب إلى السلطان رمز لما هو أكبر، ورغبة واضحة في التسلق والوصول. طموح عمرو لم يخف يومًا عن القاضي، ولكن زواجه من ابنته ومشاورته له وطلبه النصح في كل الأحوال جعله يشعر أن عمرًا سيبقى دومًا طالب العلم الذي يقدر ويعرف قدر الشيوخ والعلماء، ولن يحاول، ولن يفكر في دسِّ الوقيعة أو خلق الفتن كغيره؛ فقد كان دومًا يعمل بجد ويقرأ بإتقان، ويسأل في حماس، وقد كان دومًا يربط نظره بالأرض في حضور كبار العلماء، ويطلب العلم من كل من يرى. تغيَّر كل شيء وشاب الطالب وشبَّ على الأكتاف ودفع بالعلماء إلى الأرض. أيُّ خيانة وأي أصل؟ كان يقدِّر عمرًا؛ لأنه من بيت طيب، ومن عائلة معروف عنها الورع والإيمان والأخلاق الحسنة، والده لم يقف أمام عالم، ولم ينافق سلطانًا، كان يعمل في صمت وحذر ويصادق ويسالم ولا يعادي أبدًا، وجده عبد الكريم عادى بعض العلماء ولم تنفعه

شهرته، ولم يشفع له صيته، وكانت نهايته الموت في السجن والظلمات، ربما هذه هي نهاية حفيده أيضًا. تلك الزيارة ليست لتقديم فروض الطاعة بل لاستعراض القوة. يا حسرة على الطلاب عندما يخونون المدرس والمعلم! وكم ادعى أنه ابن قاضي القضاة؛ فوالده مات وهو صغير وقاضي القضاة رباه وعلَّمه ما لم يتعلمه من قبل، هو ابنه باختياره وإرادته.

أطبق قاضي القضاة شفتيه والغيظ يأكل القلب، بل يتمنى مصيرًا مظلمًا لزوج ابنته، ويتمنى أن يزج به في غيابات السجون دهرًا.

قال عمرو وهو يحاول بث السلام حولهما: افتقدت كلماتك يا شيخنا ونصائحك.

قال القاضي في جفاء: هذه كلمات سخرية أم استهزاء؟

قال في دهشة: ما الذي فعلتُه ليغضب أبي ومعلمي؟

هزَّ قاضي القضاة رأسه وقال وهو يربت على كتف عمرو: تريد أن تصبح أنت قاضي القضاة، أليس كذلك؟ تتملق للسلطان وتبسط أجنحتك ثم تخفضها، أعرف.

قال في فزع: أعوذ بالله، أنت خير قاضٍ وأعظم عالم، وليس لي أن أصل إلى نصفك مهما فعلت.

ابتسم قاضي القضاة في استهزاء، ثم قال: لا تأبه بالعدل ولا مصير الطفل، هي حاجة في نفسك وغرور داخل القلب لا شفاء منه.

- بل أقسم لك هو وعد أعطيته لامرأة ليس لها سوى الله.

- وأنت منفذ إرادة الله على الأرض؟

- العدل غايته دومًا، ونحن نجتهد لتحقيقه، والنفس أمارة بالسوء.

- هي نفسك التي أمرتك بالسوء، طموحك الذي سيقتلك

ويحطم مستقبلك، لو انتظرت بعض الوقت حتى يحين الأجل كنت ربما تصل إلى ما تريد.

- نفسي فداءً لك يا شيخي ومعلمي.

ثم صمت وقال وعيناه تبحثان عن ولديه: كيف حال أحمد وحسين؟

قال القاضي في حماس فجأة: في أحسن حال خالتهما ترعاهما كأمهما وربما أكثر، قلبها ممتلئ بالخير، رقية ابنتي، تصلح لك، وتربي أولاد أختها.

صدمه الطلب وأحرجه، وبقي صامتًا، فقال القاضي في غضب: وهل تحلم بالزواج برقية؟

- أنعمت عليَّ بشرف نسبك مرَّة، والحزن لا يترك قلبي على زوجتي الراحلة، ولا أحد يملأ مكانها.

- أختها مثلها تمامًا.

قال عمرو وهو يتصنَّع التأثر: أعطني وقتًا لأستوعب الفقد وأتعايش معه، فلا امرأة لي بعد زوجتي.

قال القاضي في غيظ وهو يتفحص وجهه: لن تتزوج أبدًا، أم ستشتري جارية؟

قال عمرو وعدم الارتياح يبدو عليه: لن أتزوج قريبًا، وتعرف رأيي في الجواري، أنا أعطيت عمري للعلم والعمل، وعندما يأتي النصيب أريد من تتحمل عِبئي، ورقية صغيرة وتريد حياة سهلة مع من يقدرها، وليس عدلًا أن ترث عناء أختها وتتحمل طفلين ورجلًا مثلي.

- بل هي كل الروابط بيننا التي تريد تحطيمها. اصدقني القول يا عمرو، هل عرض عليك السلطان منصب قاضي القضاة؟

قال في صرامة: لم يفعل ولن يفعل.

- وإذا فعل فبماذا تجيبه؟

- لست أهلًا له ومثلك موجود، أنت معلمي وأبي.

- سترفض؟

قال في إصرار: سأرفض.

- ستعدني أنك سترفض كما وعدت الأم المكلومة بالثأر لابنها؟

بقي ساكنًا لحظات ثم قال: أعدك أنني لن أقبل بهذا المنصب ما دمتَ أنت فيه.

هزَّ القاضي رأسه ثم قال: اذهب لترى ولديك.

اتجه إلى ولديه في شوق وهو يملأ عينيه من وجهيهما ويربت على كتفيهما، ويتكلم معهما بلا توقف، وشوقه وخوفه عليهما يبدوان من حركاته وكلماته. استمع لهما وتفحصهما، وسألهما عن حالهما وعن دروسهما وعن خالتهما وجَدِّهما، وتمنى أن يرحلا معه الآن إلى بيته في قوص، ولكن لا بد من الحذر والعبء كبير والبلاء لم ينتهِ. ودَّعهما ودموعهما تلمع في عينيهما، وعانقهما في قوة لأول مرَّة ربما، وقال في يقين: شهران على الأكثر ثم نجتمع من جديد، ولا فرقة بعد هذا أبدًا.

وعندما مرَّ على حماه وقاضي القضاة ليودعه قال القاضي في توعد: للشباب اندفاعه ومجازفته، راهنت على الفرس الخاسر يا عمرو!

- معلمي، لا أفهمك، ولا أفعل ما يغضب الله.

- برقوق ليس سلطانًا للبلاد، اغتصب العرش من السلطان الشرعي، وجاء بأهله من بلاده، تظاهروا بإسلامهم وهم على دينهم القديم، ويريد أن يحكم البلاد بقبيلته وعصبته ككفار قريش.

نظر إليه عمرو في ذهول ثم قال: تشبِّه سلطان مصر بكفار

قريش؟

- برقوق خائن للأمانة، كان أتابك العسكر، واقتنص الحكم من السلطان الشرعي، يجوز قتله.

بقي عمرو مكانه لا يصدق أهي غيرة في نفس قاضي القضاة أم غرض آخر لا يعرفه؟

قال في تحدٍّ: معلمي، اعذرني لا أفهم ولِمَ أصبح خائنًا بعد ست سنوات من حكمه وليس من البداية؟

- لأنه يتصرف دون مشورة العلماء؛ لأنه أتى بأهله وقبيلته، لأنه يفضل المماليك الجراكسة على الأتراك، لأنه يتصرف كفرعون ويتخذ أهل الأرض شيعًا! أريد أن أحذرك حتى لا تقف في وجه العلماء والشيوخ، برقوق خائن ومغتصب ويفضل بين البشر على أساس العرق، ويحرك العلماء من مناصبهم على هواه، دون وازع ديني ولا احترام لكونهم حماة الدين.

قال عمرو في تأكيد: لم أرَ منه سوى كل خير اعذرني يا معلمي، والسلام عليكم.

وعندما خرج عمرو متجهًا إلى قوص شعر بالكثير من الراحة وشيء من الاشمئزاز من غيرة حماه وحقده، وتفضيل مصلحته الخاصة على مصالح الناس، وكأن قاضي القضاة يود الإطاحة بالسلطان من أجل غيرته من عمرو، أيُّ تفاهة وأيُّ أنانية، تنكشف الحقائق ويظهر البشر برءوس ضئيلة وقلوب ضعيفة.

* * *

ما حدث ضرب من الجنون، وحادثة تقلب موازين التاريخ، وتؤذن بالخراب، فلا أهل قوص اعتادوا العدالة الناجزة ولا الصرامة ولا هذا العبث. قاضي قوص من أهل مصر، كيف -وألف كيف- استطاع قطع رقبة ابن الناس، ابن الأمير المملوكي؟ من يستطيع شرح هذا ومن يستطيع تأليف الأغاني على هذه

القصة الخرافية، لا بد أنهم شُبِّه لهم مقتل ابن الناس. جمق لم يمت بل اختبأ في مكان ما.

ولِمَ ادَّعى السلطان نفسه موته؟

ولِمَ يخاف السلطان على مشاعر أهل مصر؟ هل يهتم السلطان بأهل مصر؟ أيريد أن يشيع العدل بينهم أم الانتقام من الأمير المملوكي؟ للتاريخ دروس ونمط وحكايات، سلطان يأتي وسلطان يولي، وأهل مصر يتحمَّلون. سلطان يحمي وآخر يغيِّر، أحدهم يمنع الخمر ويبني المساجد ويضمن الجنة والمصريون يعانون على كل حال، وأحدهم يَقتل ويفرض الضرائب وينشر البصاصين يقطعون الألسنة، والمصريون يعانون على كل حال، قاضٍ يدَّعي الورع وآخر يدَّعي العلم وهم يعانون في كل حال، قاضٍ يريد نشر العدل فتأتي المجاعات لتزيل أهل مصر، وسلطان يقلل الضرائب فيأتي الوباء ليقضي على من تاجر وأصلح. لا أملَ في شفاء إن كان يتبعه مرض، ولا عدلَ إنْ كان يتبعه ظلم، ولا وَرَعَ إن كان يتبعه فسوق. ثم يأتي قاضي قوص، عمرو بن أحمد بن عبد الكريم ويغربل المصريين ويصفعهم صفعات متعددة!

ماذا فعل وأيَّ حمق ارتكب؟ وما العواقب ومن سيدفعها؟ لا بد أنهم هم سيدفعون الثمن هم وأبناؤهم. وانقسم أهل قوص إلى ثلاثة أقسام: قسم رأى في فعلة القاضي جرأة الجنون، وأن القاضي لا يعرف ما سيفعل بقوص كلها، وأنه حدث في الماضي مرة أو مرتين أن ارتكب أحد أهالي بلدة ما حمقًا ما فقرر أولو الأمر حرق البلدة كلها وتسويتها بالأرض، وأن هذا مصير أهل قوص

لا محالة. وليت القاضي لم تطأ قدمه في قوص، وليت القاضي لم يعرف قوص ولا أين تقع، وليت أم الولد ماتت مع ابنها ولم تطلب العون من القاضي. ورددوا: «فليذهب الطفل إلى

الجحيم في سبيل بقاء كل أهل قوص». أيُّ فناء ينتظرهم وأيُّ ثمن؟ سيموت كل أطفال المدينة من أجل طفل واحد، وسترمل كل النساء لأن أم الطفل أرادت الثأر، وسيستقر الخازوق في كل رجال قوص لأن القاضي الجسور كان رجلًا قتل ابن الناس. المصير مكتوب من الأزل.

وآخرون بدءوا يقلقون على مصير تجارتهم وطريق الحجاج، وعلى سمعة قوص التي مرَّغها القاضي في التراب بعد أن كانت خير بلاد الله، سيتهامس أهل المغرب بأن أولاد الناس في قوص يغتصبون الأطفال، وأن والي قوص لم يستطع الدفاع عن ابنه، بل إذا كان والي قوص بكل جبروته لم يستطع أن يمنع ابنه من الموت فما بال التجار من كل مكان؟! لو حدث وقام أحد أبنائهم بفعل ما فما مصيرهم؟ هذه جريمة، وسمعة قوص ولت بعد هذا الفعل المشين للقاضي. العدل للأغنياء والحماية للغني من جشع الفقير، أما أن يظن قاضي قوص ولو لحظات أنه يقتنص العدل من القوي والغني للفقير فهذا سبب في القضاء عليه وتجنب قوص إلى يوم موته، وليكن عن قريب إن شاء الله. فأيُّ تجارة تنفع؟! وأيُّ مال تحيطه البركة إذا كان الغني يقام عليه الحد؟! ويكأن الغني والفقير متساويان، والكل يعلم أن هذا لا يكون.

أما النصف الأخير -وهم كثر- ولكن الصمت يطغى عليهم، فيظن الأمراء أنهم قليلون، وأنهم رقم زوجي لا يتعدى الثمانية، فقد رأوا في قاضي قوص رجل العدل، وحُكْمه بارقة أمل في زمن الظلمات، وما دام الخير ينتصر أحيانًا فالحياة تستحق العيش، وما دام العمر يعتدل برهة فالتحمُّل ممكن والصراخ في وجه الظلم واجب، والشجاعة للأبطال والمخلدين، والجبن لكل الباقين أبدًا.

* * *

عند دخول عمرو قوص تجمع أهلها يحيطون فرسه والحراس حوله، وعيونهم خائفة وغير مستقرة. هرولت إليه أم الطفل تناديه، فتوقف ونظر إليها فهوت إلى قدم الفرس، وبدأت في بكاء مسموع وعويل لم يرَ شيئًا في قسوته، فقال في صرامة، اتقي الله، من قتل يقتل ولو بعد حين، صلي الآن واشكري ربك.

لم تجبه بل بقيت تبكي ساعة ربما، وهو لا يستطيع التحرك بالفرس حتى

لا يصدمها، وعندما انتهت قالت في صوت عال: يا أهل قوص، هذا الرجل وفى بوعده، لم يخف في الحق من سيف ولا من أمير، وأنا جاريته ما دمت أحيا.

قال في قوة: أعوذ بالله، والله ما فعلته إلَّا لأنه عملي وواجبي، هيا انهضي.

نهضت وجرت وراء الفرس والحذر يسيطر على العيون، والنساء خَرَجْنَ من بيوتهن والرجال مُطَأْطِئُو الرءوس خجلًا أو خوفًا أو احترامًا لا أحد يدري. بحثت عيناه عن عينيها كما يفعل دومًا ولم يجدها.

عاد في الصباح إلى عمله وكأن شيئًا لم يكن، وسمع ثناء طلابه ومساعديه ورهبة خصومه وخوفهم، وتجرع لحظات الانتصار والقوة المطلقة، وحاول ألَّا يرتشف منها الكثير حتى لا يثمل.

ولم يرها ولم تمر عليه، ولا وقفت أمام داره، ولا ادعت أنها تريد السؤال، ولا طلبت من صديقاتها استدراجه ورؤيته.

تردَّد ثلاثة أيام في السؤال عن ضيفة ولم يعد يستطيع، لم يسمع عنها ولم يطمئن على عينيها، والحنين بداخله يزداد

كلما غابت وكلما تركته وسط شكوكه، هل حبسها والدها؟ منعها من الخروج؟ هل كانت تلهو وملَّت من لعبتها. ولو كان هذا ماذا سيفعل؟ أليس من الأفضل أن ينساها ويتزوج ابنة القاضي لترعى ولديه. لِمَ التشبث بهذه الجنوبية بالذات؟

وماذا وجد فيها يجعلها غير كل النساء؟ لم يحب يومًا ولم يشتق، وكان العلم والوصول هما الهدف الأول، وعندما بحث عن زوجة كان الورع والهدوء هو أول اهتماماته وليس العشق والحياة في عينيها. لم يتبع أهواءه قط، ولن يبدأ في هذه السن وبعد هذا الوصول. ولِمَ يتبع أهواءه لو كان يستطيع أن يجعلها مِلْكَه ولِمَ يشتاق ما دامت ستكون بين يديه في غضون أيام؟ لو جذبته بالسحر أو بجمالها المختلف لا يهم، جذبته وانتهى الأمر. ربما لو رآها اليوم فقط أو غدًا.. ربما لو تأكد مِنْ أنها تتمنى وتريد ما يريد؟ لو كانت تريد رؤيته لبحثتْ عنه كما تفعل دائمًا. ربما كانت تلهو به كما توقع، فهذا الغزل الواضح لا يأتي سوى مِمَّن تلهو وتلعب ثم تَمَلُّ وتختفي، وربما رضيتْ بزوجها واستقرت معه.

لم يتردد كثيرًا، طلب من أحد مساعديه الإتيان بصديقتها الحبشية، وعندما جاءت سألها وهو يتصنَّع اللامبالاة عن حال ضيفة، فقالت في فتور إنها بخير، لم تقل أكثر ولا أقل. فقال في عصبية: تزوجت؟

- كنتَ ستعرف لو تزوجتْ يا مولاي القاضي.

- هل يمنعها والدها من الخروج؟

- لا أدري، ولكنني لا أظن ذلك.

تلهو به إذن، وسوف يغلق قلبه ويمزقه لو فكر فيها من جديد. اليوم سينساها، وغدًا سيتزوج من رقية وينتهي أمر هذه الفتاة. قوته وعقله من سمات القضاة، وإلَّا لو لهث وراءها

كالصبيان فمن الأفضل أن يعمل شاعرًا ويهيم في الصحراء ويترك العدل لأولي الألباب.

قال في صرامة: حسنًا، كنت أريد الاطمئنان عليها فقط، والتأكد من أن والدها لا يؤذيها، شكرًا لك.

هزَّت العجوز رأسها ورحلت.

دخل حجرته وتمدَّد على مخدعه، وقد عزم أمره على نسيانها اليوم، ومن الغد سيبعث إلى القاضي بموافقته على الزواج، ولم لا؟ يحتاج إلى من ترعى أولاده، ولا يأبه بمن تكون، وحتى لو لاحت ضحكتها بذاكرته أو شفتاها أو عيناها اللامعتان فسيزيح الذاكرة جانبًا، بل ويوبخها ويعاقبها، وربما يقطع رأس ذاكرته الخائنة.

نام ليلته أو كاد.

وصباحًا انطلق إلى عمله، وتقبل التهاني والإطراء في صبر وهو يحاول ألا يجعل كلمات المديح تصل إلى قلبه، فلو وصل المديح إلى قلبه فلا فرق بينه وبين الأمراء، التواضع من سمات العظماء، ولكن القليل من المديح مطلوب، وشجاعته لم يسمع عنها أحد، لا في قوص ولا في القاهرة، ولا في دولة الأيوبيين ولا العباسيين ولا حتى الفاطميين، هي شجاعة نادرة وتحدي المجاهدين. يعرف ويفهم، ويتمنى أن يكون المديح دافعًا للعدل، وليس رادعًا له، ويعي طمع النفس ورغبتها في الوصول، ويتمنى أن يكون الوصول من أجل الدفاع عن الضعيف والمحروم، وليس من أجل مجد شخصي، هو الأجدر والأعلم.

انتهى من مجلسه، وهمَّ بالقيام والعودة إلى بيته، وفرسه ينتظره بالخارج، فرس هدية من السلطان أجمل وأقوى ممَّا أخذه منه الأمير. ودخلت عليه بلا استئذان كما تفعل دومًا مع صديقتيها اليمنية والحبشية، ولم يكن معه سوى طالب. قالت

في صوت ضعيف: عجوز تحتاج إلى نصيحتك يا مولاي.

ابتسم، هل فعل؟ وهل خفق قلبه، وهل طلب من الطالب أن ينصرف ليتكلم مع العجوز وحده؟ هل فعل كل هذا؟

ما إن خرج الطالب حتى خرجت العجوزان وتوقفتا على باب وكأنهما يحرسان اللقاء، وما إن خرجتا حتى رفعت خمارها عن رأسها وهمست في شوق: مولاي القاضي سأل عني وعن حالي. جئت لأطمئنه أنني بخير ما دام هو بخير، لم أكن بخير وأنا لا أعرف مصيره، كنت تائهة منتظرة كالقطط في صحراء قوص الجافة.

قال في صرامة: لا بد أن تتوقفي عن المجيء هكذا، في المجازفة خطورة.

طأطأت رأسها، وقالت وهي تجلس أمامه: كنت قد عزمت أمري ألَّا أزعجك وأن ألتزم داري فسَكْبُ حشايا القلب أمام القاضي يضعف النفس ويذلها، ولست بمن تستحق نظرة من عينيك، ولكن أسئلتي تلح عليَّ.

نظر إليها في إمعان وقال: اسألي.

بدت غير واثقة ثم قالت: كنت أريد أن أسأل عن اليقين، كيف يدخل القلب ويهدئ النفس؟

قال بلا تفكير: بالصلاة والاجتهاد وتهذيب النفس وكفها عن الشهوات.

- ولو عبث الشيطان بنفسي فأعطاني آمالًا لا قبل لي بها، فماذا أفعل؟

- عن أيِّ يقين تتكلمين؟

التقت أعينهما فقالت: الوصول إلى اليقين يحتاج إلى جهد وقوة، والتشبث بحب مستحيل جنون أم مس؟ أم ابتلاء؟

قال وهو يتصنَّع الصرامة: تكلمنا عن الحب من قبل، فكري في

شيء آخر يعود عليك بالمنفعة.

قربت يدها من يده وقالت في تردد: وكأن السعادة لم تدخل قلبي من قبل والعذاب لم يعرف داري، أدور في الهواء كذرات العاصفة بين يأس ورجاء، عذاب ورضا طوال اليوم.

نظر إليها، بلع ريقه وأبقى عينيه على وجهها، فقالت في رقة: كنت أظن الرجال في بلادنا يفضلون بياض الروم عن سمار أهل الجنوب، أيُّ جمال في ملامحي يا مولاي؟

نظر إلى يدها التي استقرت بجانب يده لا تجرؤ على لمسها وقال: ترى ماذا تريدين مني يا ضيفة؟

بدا الخجل على وجهها وظلَّت ساكنة.

فقال بلا إرادة: لو طلبتُ الزواج منك فستوافقين؟

لم تدرِ بنفسها وهي تحتضن يده بيدها وبقيت صامتة لا تقوى على النطق.

شبك أصابعه في أصابعها وقال: ستوافقين؟ لماذا؟ تريدين الزواج من قاضي قوص؟ ماذا تبغين؟ التخلص من والدك وجبروته؟ لماذا تدورين حولي فتحجبي الشمس أحيانًا وتضيئي الأرض كثيرًا؟ تعجبين بعدلي ومنصبي؟ أصدقيني القول.

نظرت إلى أصابعها بين أصابعه وقالت: مولاي.. لا يعرف الكثير من الحب.

ترك يدها وكأنها أيقظته من غفوته وقال: تحبينني؟ هذا لا يكفي، قلت لك من قبل الحب دومًا يضعف الإرادة ويودي بالنفس إلى التهلكة.

قالت في مرارة وهي تطأطئ رأسها وتقوم: لا أملك قوتك يا مولاي، ولا أعرف كيف أسيطر على انتشار الشوق بداخلي، هو شوق مجرد من كل غاية وهدف، هو شوق لنفسك وروحك

وليس لمنصبك ولا علمك. خلقت من نفسي ولنفسي يا مولاي من بين كل البشر. اعذرني حين أتكلم بجرأة وصراحة تجعلني كالجارية وليس كالحرة، وأقسم لك إنني لم أفعل هذا إلا معك.

قال وهو يحاول أن يبدو حازمًا: وكيف عرفت أنت كل هذا عن الحب وأنت لم تتعدي السابعة عشرة؟

قالت في صوت رقيق وهي تتحاشى النظر إليه: سمعت عنه من مريم وزبيدة، ورأيته في عيني أمي المعذبة، وقرأت أشعار الشعراء، ولكنني لم أعرف كنهه إلا منذ زمن قصير. تقول مريم: إن الحب كالسجان القاسي، يحجب ضوء الشمس لو اختفى المحبوب، ويغلق حنايا القلب عمَّن سوى المحبوب. يعذب دومًا، ويخرج العجز من أعماق البحار، لا قوة تهزمه، ولا سيوف تقوى على كبحه. لم أصدقها في البداية، وكنت أتمنى حبًّا يسعدني ويرضيني، حبًّا هادئًا وديعًا كالقطط في البيوت، وليس شرسًا ومخيفًا كالضباع، فهمت يا مولاي وعرفت.

قال: وماذا عرفت وماذا فهمت؟

قالت في حنان وهي تنظر إليه: فهمت كيف يختفي النور من عيني وأنت بعيد عني، وكيف يختلج القلب وأنت حولي، وكيف تختنق الأنفاس لو ساورني القلق عليك، وكيف ينشرح الصدر عندما تنظر إليَّ.. مولاي..

قاطعها وكلماتها تخترق كل الحواجز: ضيفة.. سنتزوج.

اتجهت إلى الباب في بطء، فاستوقفها وعقله ثمل وحياته بين يديها هي في ثوانٍ، وقال في صوت خافت: ضيفة.. سأتزوجك. في هذا الشهر.

نظرت إليه في ألم وهمَّت بأن تفتح الباب وتمتمت: مستحيل ربما، كالوصول إلى الاكتمال. لديك قدرة تفوق قدرة أمراء

المماليك، وعناد وتصميم تجعلك كالجان والملائكة، ولكنني لا أعتقد أننا في الجنة.

قال في شيء من الغضب وشيء من الغصة: ماذا قلت؟ لِمَ هذا التشاؤم؟

ترددت قليلًا واتجهت بنظرها إلى الباب ثم إلى وجهه، ثم ابتعدت خطوات عن الباب، ودفعت برأسها إلى صدره.

بقي متجمدًا من هول المفاجأة، لا يعرف أيدفع بها؟ أيوبخها على تصرفها غير المتوقع، غير المحسوب، أيعنفها لأنها تخرج هذا الشوق من أعماقه، وقد ظن لزمن أن عقله هو من يتحكم فيه؟ أيدفع بها بعيدًا لأنها تربك عالمه المنظم؟ ربما كانت شيطانة أو ساحرة جاءت تختبر قوته، ابتلاء ربما لا يعرف حجمه ولا حجم خسارته.

تشبثت بصدره، وأبقت يدها على قلبه وهمست: لن يوافق أبي، لن يوافق أبدًا.

قال في صرامة: سيوافق، لن يكون له الاختيار.

رفع يده ولا يدري بعد أيدفع بها أم يمر بيده على شعرها ثم كتفها كما تمنى، أبقى يده في الهواء وقلبه يخفق بشدة، ثم مرَّ بها على شعرها في حنان جديد عليه وشوق يربك ويطمس كل الطرق.

تمتمت في ألم وهي تضغط بيدها على قلبه: تنشر العدل من حولك، ولكنني لست متأكدة من أنك تستطيع أن تعطيني هذا الحلم بالسعادة الأبدية بين ذراعيك، اليوم فقط ربما أشعر بقلبك، غدًا ربما لا، اعذرني، ليتني بقوتك وقدرتك.

تنفس في بطء وهو يمنع نفسه من أن يضمها إلى صدره كما تستحق وكما يريد، لو ضغط على خصرها وشعر بصدرها يذوب ويتلاشى داخل جسده، لو مرَّ بيده على كل قطعة منها كما

يحلم الآن، لو فقط عانقها كما ينبغي.. ولو.. لم يستطع التوقف عن الشوق.

رفع يده، ثم ابتعد عنها في رفق وقال: غدًا سنرى، غدًا ستعرفين أنك لي،
ولا مفرَّ من هذا.

وضعت خمارها لتداري دموعًا قد انهمرت، وقالت: أحبك يا مولاي.

بقي صامتًا يستجمع هيبته، ويندم على عدم عناقها عناقًا قويًّا وعدم تمزيقها بقبلات يحلم بها.. أيُّ خيال وأيُّ قلب يملك من يريد العدل؟ وأيُّ خجل وتوبيخ لنفسه؟

ثم رحلت وتركته مبعثرًا في مجلسه لا يعرف كيف وصل إلى هذا ولا ما نهاية هذه اللعنات والشوق. لو لم تأت! لو انتصر عقله! لو تركها وتزوج من رقية! لو طلب من السلطان أن يترك قوص كلها، لو أصبح قاضي القضاة! أحلام كثيرة. نظر إلى يده ولمس صدره حيث كانت وحيث مكثت، وحيث رسمت خطوط عمره الباقي. لهذه الأهداف خطط ووقت محدد، ولا بد من إعمال العقل مرة أخرى، فالقلب يعمي الأبصار. غدًا يستدعي والدها وسيوافق، رغمًا عنه سيوافق، ولو تهامس كل أهل قوص بجبروت القاضي وطغيانه ما أعار لذلك اهتمامًا، غلظة الأب وحقده معروفان ويفهمهما عمرو، ويعرف كيف يتعامل معهما، هو الحب الذي لا بد أن يبقى سرًّا، أما المفاوضات فلا بأس بها.

* * *

تبادلا النظرات ثواني، ورأى الكره والحقد في عيني الأب، فقال في قوة: التاجر رضاوي، طلبتُ رؤيتك اليوم لغرضين في نفسي، أولًا لأوضح لك أمرًا، وثانيًا لأعرض عليك مساعدتي.

بقي الأب صامتًا ينظر إلى القاضي في بغض، فبدأ القاضي بشرح حكم الشرع في موافقة الفتاة على الزواج، وأن هذا أفضل وأصح حتى بوجود الولي، وأن حساب الله عسير على إرغام الفتيات ومعاملة الحرة كالجارية، وأن الإكراه ليس من الدين في شيء، ولو كانت الفتاة صغيرة ولا تعرف مصلحتها فلا بد من الإقناع بالحسنى؛ فقد طلب الله أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، فما بال ما هو أقل عظمة من الدعوة إلى سبيل الله، كان لا بد للأب أن يتكلم مع ابنته ويعظها.

هزَّ الحضور رءوسهم إعجابًا بحكمة القاضي وورعه وتميزه وقدرته على الإقناع. استمر في كلامه وأخبره أن العادات السيئة التي يقوم بها أهل قوص لا بد أن تتوقف، وأن الموروث غير الدين، وأن الله قال في كتابه: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)، وكل ما يشوبه شبهة الظلم يجب تجنبه.

قال الأب في عدم صبر: وهل يرضى القاضي ببقاء ابنتي هكذا بلا زوج ولا رادع، تصادق الغرباء ويشاع عنها أنها ساحرة وممسوسة؟

قال القاضي في صرامة: هي ابنتك، تكلِّم عنها بالخير وسط الحضور، ما الفائدة في زوج غائب لا يدرأ الفتنة، ولا يحمي من الخطيئة؟!

قال الأب في حماس: ولكنه عاد نادمًا، وكان يود الدخول بها وطلقتهما أنت
يا مولاي، وأرغمتني برد كل ما دفع.

كان الأب على وشك أن يقول: إن هذا ليس عدلًا، ولكنه بقي صامتًا لا يجرؤ على إغضاب القاضي.

قال القاضي في صوت رتيب: نبحث لابنتك عن زوج آخر،

ويشترط قبولها، أتسمعني؟ إنْ لم تقبله فلن تتزوجه.

قال الأب في تحدٍّ: مولاي، هذا يختلف عما تربينا عليه وكلام العلماء والشيوخ في بلدتنا...

قاطعه: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) صدق الله العظيم.

- أيُّ فحشاء في سترة ابنتي وزواجها؟

- الفحشاء من ظلم النفس أو ظلم آخَرين، وإكراه ابنتك على الزواج ظلم عظيم.

نظر الأب حوله وقال: بماذا تأمرني يا مولاي؟

وبدا أنه يظن أن القاضي ليس من بلادنا ولا ديننا، وأنه ينطق عن الهوى ويطلب المستحيل ويُجَرِّئ النساء على الرجال، وأن موت القاضي أو نفيه حق على كل مسلم، وأن محاباة السلطان للقاضي ليست إلَّا لأن السلطان حديث العهد بالإسلام وأتي من بلاد لا تعرف الإسلام أصلًا.

قال عمرو في ثبات: لا تبدو مقتنعًا بكلماتي يا.. لا بأس. ما دمتُ أنا قاضي قوص فلن تزوِّج ابنتك رغمًا عنها، وأشترط على كل وليٍّ موافقة ابنته قبل الزواج.

فتح الحضور أفواههم ولم يجرؤ أحد على أن ينطق.

فقال التاجر في رفق: مولاي، لأهل قوص عادات قديمة لا يمكن تغييرها، تغييرها يؤدي إلى الدم والدمار، والبنت تنذر من المهد لابن عمها أو أحد أهل بيتها وعائلتها.

قال في حسم: ما يفعله أهل قوص لا يعنيني، وما يتعارض مع الإسلام بدعة وعُرْف لا بد من إلغائه.

- وماذا تريد مني يا مولاي؟

- تنسى أمر الزوج الذي طلق، وسأبحث لك بنفسي عن زوج يناسب ابنتك ويسترها ويعطيك ذهبًا أكثر من الزوج الغائب، رجال المسلمين كثير، والحضور هنا كلهم يتمنون ستر فتاة مسلمة.

نظر إليه التاجر في بغض ثم قال: تريدني أن أنسى أمر من اخترته لابنتي

يا مولاي، وأترك قاضي قوص يختار لها زوجًا وأنا أبوها على قيد الحياة؟ ثم ماذا تتوقع يا مولاي؟ أن أكشف وجه ابنتي أمام كل طالب وكأنها من الجواري؟ وأسألها رأيها وكأنها رجل في مجلسي؟ ما تطلبه يسال بسببه الدماء!

قال القاضي في غضب: أيُّ دماء؟

- دمها أولًا ودم أمها التي لم تحسن تربيتها.

قال في صوت ثعباني: لو قتلتَها أشقُّ رأسك، وأعلِّق جسدك أمام أبواب المدينة ردعًا لكل ظالم ومفترٍ.

قال الرجل في خوف: اعذرني يا مولاي، لم أقصد. كنت فقط أقترح...

قاطعه عمرو: أطلت عليَّ مجلسي، ولم يعد لدي وقت لهذا، يأمرك القاضي بأن تحسن معاملة زوجتك وابنتك وتتقي الله فيهما، ويأمرك أن تختار لها زوجًا توافق عليه، ولا مشكلة في أن تكشف وجهها أمام الطالب، ولكن لا بد أن توافق هي، أتفهمني؟ وتطيع أوامري يا..

نظر إليه في حقد ثم قال: أطيع أوامرك يا مولاي.

هزَّ رأسه إذنًا له بالانصراف والغضب يأكل قلبه والمعركة تبدو ضارية بينه وبين التاجر.

* * *

تقلب يمينًا ويسارًا على مخدعه، غاضب تارة، شارد تارة،

مشتاق لها تارة..

لا بد من الصبر، بعد وقت يستطيع أن يتزوجها دون إثارة الشبهات، ويكون قد مرَّ ما مرَّ على طلاقها. ليس وقتًا طويلًا، شهر ربما.. عشرون يومًا.. أسبوعان.. الصبر مطلوب، وهو لم يكن يومًا مندفعًا ولا متهورًا. إذا تصرفت هي كالطفلة فلابد أن يتصرف هو كالعاقل، أو يحاول. فلا هو في السابعة عشرة، ولا هو هائم بين الصحراء والحيوانات، لديه مسئولية وأبناء وأعداء ربما، وأناس يتحمل مسئوليتهم.

ثم قام بعد أن صلى الفجر وذهب إلى مجلسه، ودعا زبيدة اليمنية إلى الحضور، وعندما حضرت سألها عن ضيفة وحالها فقالت: إنها بخير، فقال: إنه يريد أن يطمئن عليها؛ لذا سيمر صباحًا كل يوم من أمام بيتها قبل الذهاب إلى مجلسه ليراها حتى يأتي الحين ويتزوجها، ولن يتأخر هذا الحين، في خلال أقل من شهر سيتزوجها.

وفي الصباح مرَّ على بيتها، وكانت واقفة بخمارها أمام البيت، تلألأت عيناها عندما لمحته والتقت أعينهما، واستقر الحنين في صدره، ورأى ابتسامة القدر بين مقلتيها، كل يوم تلتقي الأعين فقط وتبتسم وتجدد الوعد وتريح النفس إلى حين. لم يكن يريد أن يقابلها إلا وهي زوجته، فلن يستطيع هذه المرة ألَّا يدفع بها إلى أحضانه ويقبلها كما يحلم وكما يريد، أيام ثم يطلب الزواج منها، ولن يترك للأب الاختيار.

* * *

جاءه خبر أسرَّه وقرَّ به عينًا؛ فقد قرر قاضي قضاة المالكية أن يمرَّ على بيته قبل أن يقوم برحلة الحج.

يقولون إن عبد الرحمن بن خلدون قاضي قضاة المالكية سمع عن شجاعة قاضي قوص، وعن خبر إقامة الحدِّ على ابن

الناس، وعن إصرار عمرو على الوصول إلى العدل مع تهديد الأمير وقدرة الأمير، بل وسمع عن استقبال السلطان الحافل لعمرو، وفرشه رداءه ليجلس عليه، وتهامس قضاة المذاهب الأربعة بأن عَمْرًا سيترقى قريبًا إلى منصب أخطر وأهم، وأن علاقته بالسلطان ليست شفافة ونقيَّة كما يظن بعض الناس، لا بد أنه سيدافع عن السلطان في المقابل، ويدعو له في المنابر وهو سلطان مغتصب أراد القضاء على سلالة عائلة قلاوون، وأخذ الحكم تدريجيًّا من الطفل صالح الدين الحاجي، ورواية بعض الأمراء الموالين له بأنهم أرغموه على حكم مصر، وأنه فعل هذا لحماية مصر والشام من أخطار قديمة وأخرى جديدة، فهذا عارٍ عن الصحة. تهامس العلماء وقرروا.

أما الأمير.. والي قوص الأسبق فقد رحل إلى الشام وانضم لنائب حلب يلبغا العمري. تغامز العلماء في شيء من الغيرة والكثير من اليقين بأن عَمْرًا طموح ولكن علمه قليل، وأنه يحكم أحيانًا أحكامًا غريبة، وبدلًا من الاجتهاد يثير الفتن والبدع، ويحتقر الموروث والعادات. عمرو لا يصلح لأن يكون قاضيًا لقوص، ولا حتى مدرسًا في مسجد، هو متسلق ومنافق لا أكثر، فلا يتكلم كالعلماء ولا يتبع آراءهم. ولو قرر السلطان، لو... أو فكر في أن ينصبه قاضي القضاة فهي الثورة لا محالة، وربما نهاية السلطان نفسه.

سمع عبد الرحمن بن خلدون كل هذا من علماء المذاهب الأربعة، واستمع في فضول وترقب ورغبة جامحة في فرصة لمقابلة عمرو وفهم أهدافه، أو ربما توعيته بحجم الخطر الذي يحيط به ليس فقط من الأمير.... الذي قتل عمرو ابنه أمامه، بل من علماء مصر وبلاد المسلمين، وهؤلاء أكثر خطورة عليه لو يعلم.

استقبله عمرو بالترحاب، وذبح الذبائح، وجلسا معًا يأكلان

ويتكلمان، وبدا الحماس على عمرو، وظهرت الفرحة في عينيه، وكأنه لا يعي حجم خسارته أو لا يأبه بحجم هلاكه، أو ربما هي غفوة الشباب وعلامات العشق.

ابتسم عبد الرحمن وقال: قاضي قوص... صيتك وصل إلى بلاد المغرب وما بعدها.

- وابن خلدون صيته أكبر وأعظم. كونك قاضي قضاة المالكية شرف لمصر..

- كنت..

- معذرة؟

- لا تتبع الأخبار يا بني، اعذرني سأطلق عليك بني.. لم أعد قاضي القضاة، كنت أعرف وأتوقع، يحدث هذا في كل البلاد، المنافسة شرسة والبشر بنفوس يملؤها الغرور.

- تآمروا عليك؟ أيُّ شيوخ هؤلاء وأيُّ علم؟!

- هي المنافسة في كل مكان. في مصر يتقبلك العلماء إلى حين ويعطونك الفرصة إلى أن تقول ما يغضبهم، وهكذا هم السلاطين. عمرو، إياك أن تأمن لسلطان، العلم في أيديهم كالسيف، لو لم يُرْسِ حكمهم يتخلصون منه.

- تقصد السلطان برقوق؟

- لأصدقك القول لا أقصده هو بالذات، ما رأيك في عبد الرحمن بن خلدون.

- عالم يخرج كتبًا تكفي لملء فراغ مكتبات بغداد بعلمها.

ابتسم في تهكم، وقال: وهذا العالم سجن في فاس لأن الحاكم كرهه، وهذا العالم منع من السفر والخروج وجاء إلى مصر راجيًا باحثًا عن مكان جديد، وهذا العالم حُرِم من عائلته لأن الحاكم في تونس أبقاهم رهينة، وعندما أقنعه حاكم مصر بأن يرسلهم إلى الإسكندرية.. ثم.. انتهى كل شيء.

صمت لحظات وقال والدموع في عينيه: هذه الرحلة ليست رحلة حج عادية، هي لردم حفرة في الأعماق حفرت بالنار والفقد.

طأطأ عمرو رأسه ثم قال: سمعت عمَّا حدث، هو قضاء الله.

- قضاء الله أن تغرق زوجتي وابني في عرض البحر وهما في طريقهما إلى مصر، ولكن ليس قضاء الله ألا أستطيع الرحيل معهما من تونس إلى مصر، هو أمر الحاكم، لا أمان لهم ولا شرعية، ما الفرق بين المماليك والمغول أو أولاد عثمان؟!

فتح عمرو فمه في ذهول ثم قال: شيخي، معذرة كيف تقارن بين المماليك والمغول؟

- تيمور لنك مسلم أليس كذلك؟ وأولاد عثمان مسلمون أيضًا، والسلطان برقوق مسلم؟ أيهم عربي؟ لا هذا ولا ذاك ولا ذاك.

قال عمرو في إصرار: لم أرَ من السلطان برقوق سوى كل خير، وأعتقد أن حقد العلماء عليه لغرض في نفوسهم، يحافظ على البلاد ويعود بها إلى عصور القوة. بل إنَّ هناك فرقًا بين الغازي ومن يحرس الدار، الفرق واضح لي، أبناء عثمان لا يريدون حماية مصر ولا تمركز دولتهم عليها، وتيمور لنك حتى ولو كان مسلمًا فلن يجعل مصر مركزًا للحضارة الإسلامية، هي بالنسبة له غنيمة وليست غاية يدور حولها. أما المماليك فمصر وطنهم، ولا وطن لهم سواه، هي الأم والقلب الذي يدور حوله العالم. كيف ترى مصر الآن يا شيخنا؟

قال عبد الرحمن: هي قلب العالم وغاية العلم والمعرفة، هذا لا شك فيه، ومع حبي لقوص فالقاهرة هي حاضرة الدنيا وبستان العالم... تضيء البدور والكواكب من علمائها، كما قال كبير العلماء بفاس من لم يرَ القاهرة لا يعرف عز الإسلام.

- وهذا لأن المماليك لا يألون جهدًا في رعاية العلم وتشييد

المدارس، مصر هي بوصلة الانتصار بالنسبة لهم، ولو هزمت أو ضعفت تذهب ريحهم للأبد.

- ربما.

- هل حنقك على السلطان يا شيخي لأنك لم تعد قاضي القضاة؟

قال في هدوء: عمرو بني، اسمعني جيدًا. العالم والشيخ لا بد أن يهتم بعلمه فقط، فلا أمان للحكام ولا عهد للسلاطين، ما سيبقى من سيرتك بعد موتك هي كتبك وعلمك وطلابك، أما تشجيع السلاطين لك فهو لغرض وهدف.

بقي عمرو صامتًا فأكمل عبد الرحمن: ربما نميل مع الهوى في حكمنا على حسب قوة السلطان وقوة أعدائه، ولكن الميل لإنقاذ النفس أولًا والبقاء على العلم، هدفك لا بد أن يكون العلم دومًا، ولو كان هذا بمديح سلطان أو ذم آخر فلا بأس ولكن لا تنسَ الهدف.

لم يبدُ على عمرو الاقتناع، وكان ولاؤه قد أقسم به واقتنع به حتى النخاع وكان للسلطان برقوق.

قال عمرو في إصرار: سلطان مصر حتى لو تأثر بغيرة العلماء، وأخذ منك منصب قاضي القضاة فقد أعطاك مكانًا في المساجد لتعلم طلابك، وأحسن إليك وأكرمك يا شيخي، اعرف أن أمراء المماليك البحرية يكرهونه ويعتقدون أنه يفضّل مماليك الشراكسة عليهم، ولكن هذا ليس سببًا للإطاحة به.

ابتسم عبد الرحمن ثم قال: وعندما تدعمه ويطيح به أمراء المماليك البحرية ماذا يحدث لك؟ يقتلونك؟ لو كانت قلوبهم ممتلئة بالرحمة. ولجرَّسوا بك وأذلُّوك وكأنك سارق ماشية ولست عالمًا، سينتقم منك المنتصر لا محالة؛ لذا ابحث عن المنتصر، وادعمه وبرقوق انتهى يا عمرو، وموافقته على قطع

رقبة ابن الناس هي محاولة أخيرة لتحسين صورته، وليس حبًّا في العدل.

- اعذرني يا شيخي، لا أتفق معك، تقابلت معه وعرفته عن قرب، وليس لنا أن نحكم على النوايا، دعمي له عن اقتناع بعدله وليس عن خوف أو مجازفة.

هزَّ عبد الرحمن رأسه ثم قال: أعرف ما تقصد، وأحترم رأيك ولو خالف رأيي. ظاهريًّا ربما أدعم سلطانًا، ولكن في قرار نفسي دعمي للعلم والعلماء والسلاطين والعلماء دومًا في صراع قوة، لا بأس. أخبرني يا عمرو كيف استقبل أهل مصر خبر تفشي العدل؟

- سخريتك تذكرني بأهل مصر، أصبحت منهم إذن.

- لسخريتهم طعم مختلف، ولحبهم النظام والاستقرار تميز عن كل أهل البلاد المقبلة، سأكتب عنهم الكثير وعن نظرتهم للحكام والحكم وعن عاداتهم وأعيادهم. لو تصادم العدل مع الاستقرار ترى ماذا يفضل أهل مصر؟

- لا أعرف، أنت من تدرس عاداتهم.

بدا الأسى على وجه عبد الرحمن، وقال في صوت بطيء: ترى لو طفت حول الكعبة سبع مرات فسينطفئ الشوق في قلبي لولدي وزوجتي أم يشتعل؟ الاجتهاد يملأ فجوة النفس والعبادة لوجه الله تهدئها إلى يوم معلوم. تلك دنيا تلهو، تدور بنا وتضيق وتتسع، وليس لنا سوى الصبر والمحاولة.

نظر إليه عمرو في شفقة ممتزجة بالخوف على ابنيه وعلى مصيره وعليها. عزم أمره أنها له، ستملأ بيته بشوقها وحيويتها، وسيعود ولداه، وسيعيش حول كل من يحب، وسيعود ليلًا ليأخذها بين ذراعيه ويقبلها كما تمنى وكما حلم.

قال عبد الرحمن: في عينيك بريق شوق أعرفه، أخشى يا

عمرو أن تكون قد عجلت بنهايتك ونهاية السلطان، وفي هذه الحالة لا بد أن تدعمه فقد قضيت عليه!

ابتسم عمرو وقال: تمزح من جديد، صبغتك بلادنا بلونها.

قال عبد الرحمن: لا أمزح يا عمرو، أتكلم بصدق. كيف حال ولديك؟

- بخير.

- وزوجتك.

- ليس لدي زوجة ماتت منذ عامين.

- تلك العينان لا تشتاقان لمن ماتت، ولا تنطفئان من أجل فقد، بل تلمعان بحياة جديدة.

بقي ساكتًا فابتسم عبد الرحمن، وقال: غدًا أكمل رحلتي، وعند العودة أمرُّ عليك من جديد، لعل النار تنطفئ والحنين إلى ما لا يعود يهدأ.

* * *

في الحكي ابتكار، وفي التاريخ مرونة فريدة، وفي رؤية الهلال يختلف العلماء والأمراء، فمن المتوقع أن تختلف الرواية بين أركان الحارات وأسوار المدن. في الإسكندرية يدخل البحر بطلًا في القصة، وفي القاهرة الباب الذي شهد قطع الرأس يشهد بالكثير، وفي قوص للرواية نهايات كثيرة، بعضها كتب وختم، وبعضها الآخر في قلوب الرواة يبحثون عنها ولا يجدونها بعد. الارتباك ليس جديدًا، ومحو الحدث وكتابته جائز، والاختلاف رحمة، ولكن حال القاهرة لا يسر، واقتتال المماليك مصدر سخرية المصريين وخوفهم؛ فالسيف في أيديهم كالكرة في قدم الطفل يركلها في أي اتجاه وفي أي وقت، دون تفكير في العواقب. ومشاهدة المعارك من بعيد تزيد النفس فخرًا ورعبًا، والنهايات هي موت الكثير وتنصيب سلطان أحق بالحكم. لا أحد

يعرف بالضبط لماذا ولا من قرَّر هذا.

مصمص التجار شفاههم، وتذمر الحرفيون من قلة العمل، وعزم القضاة والشيوخ أمرهم على قلب رجل واحد، وقصة الطفل حسن تبعث في كل رواية، وتسيطر على كل مجلس. في الحقيقة القصة مختلفة على ما يبدو.. هكذا قال التجار في القاهرة... بعد الاتفاق مع بعض الأمراء المماليك.

تهامس التجار الأغنياء أن جمق بريء، ولماذا يفعل ابن الناس هذا العمل الشنيع وفي يده أن يحصل على كل غلمان مصر والشام والعراق؟! ما الذي سيدفع ابن أمير مملوكي لفعل هذا مع ابن بائعة الملح الفقيرة في قوص؟ هذا ضرب من الجنون. العقل يقول: إن جمق بريء.

ثم هناك شيء آخر لا يمكن للتجار تصديقه في هذه الرواية، لو فعلها حقًّا ابن الوالي الذي وافق أصلًا على تعيين القاضي فكيف يتجرأ القاضي ويفكر ولو في الحلم بإقامة الحد على ابن ولي نعمته ورئيسه؟! هذا ضرب من الجنون، لم يفعلها قاض في مصر من قبل. لكي نروي قصصًا لا بد أن تكون واقعية حتى يصدقها الناس ويفهموها. الرواة يتنافسون في تأليف قصص عن الجن والسحر والحيوانات الطائرة، وكل هذا يصدقه العقل؛ لأنه جائز وممكن، وبعض الناس شهد برؤية الحيوانات الطائرة والمسحورة، وبعضهم يتعامل مع الجن بشكل يومي، يأكل معه ويشرب ويمارس الجنس. أما قصة قاضي قوص فلا يصدقها عقل.

علت الضحكات المريرة الساخرة المستهترة. حتى خيال الظل لا يستطيع تمثيل هذه الرواية ولا حكيها وغناءها. فما هي الرواية؟ بدأ بعض أمراء المماليك كتابة رواية أخرى، وطرحوا الأسئلة للعامة، قاضي قوص استغاثت به بائعة الملح الفقيرة

ليعاقب من قتل ابنها. كيف وصلت بائعة الملح إلى بيت القاضي؟ ومن سمح لها بالدخول؟ ولِمَ يستمع إليها القاضي؟ ولو مات لها ولد أو اثنان؟ ما المشكلة؟ يموتون كل يوم. الأولاد يموتون في الجفاف والوباء وتنتشر جثثهم في كل مكان كالقمح وقت الحصاد. أيُّ جنون؟!

ثم ماذا؟ رفضت الفدية وأصرت على مقتل ابن الوالي؟ والقاضي طوع إرادتها يتحدى الأمير وينوي قتل ابنه؟

علت الضحكات، فالجزء الأول من الرواية جائز ربما، أما الجزء الثاني فلا يثير سوى السخرية. أيُّ جنون؟!

ثم ماذا؟ يقال قبض الوالي على القاضي وحبسه، ولكنه لم يقتله، ويقال: إن القاضي كان قد بعث للسلطان بما حدث. وكأن السلطان الذي جاء بعائلته كلها وأحاط نفسه بالجراكسة وحصن قلعته، كأن هذا السلطان يأبه بكلمات قاضي قوص وبموت ابن بائعة الملح؟ علت الضحكات من جديد. أيُّ جنون؟!

من يصدق تلك الرواية؟ حتى الأطفال في المساجد لن تصدقها، حتى الدراويش لا ترددها ولا المجاذيب.

وقال الأمراء «الأدهى من ذلك والأَمَرُّ أن السلطان استمع لقاضي قوص المصري، ثم قرر أن ينفذ قراره ويقتل ابن الأمير المملوكي. أيعقل هذا؟ ومن يرضي السلطان بفعلته هذه؟ بائعة الملح؟ أم قاضي قوص؟ من المؤكد أنه لا يبغي مرضاة الله؛ فلا سلاطين تبغي مرضاة الله، يبنون المساجد لتخليد ذكراهم لا أكثر، وشراء الجنة التي لا تشترى. أيُّ جنون؟!

انتشر الرواة في الأسواق بين التجار والعلماء والحرفيين، وبين الفقراء والصوفيين، وكانت الرواية لها زاوية مختلفة يمكن تصديقها.

وقال أمراء المماليك: قاضي قوص متحالف مع السلطان

المغتصب برقوق. أراد أن يذل المماليك البحرية كما يفعل برقوق، وأراد أن يحصل على رضا السلطان، وربما نصبه قاضي القضاة، من يدري؟ فقرر أن يلفق التهمة لابن الأمير فخر الدين الأمير المملوكي التركي، ليقضي على سمعته ويكسر قلبه، ثم يأتي السلطان بشركسي مكانه يحكم ويطغى.

بل يقال: إن فخر الدين كان نعم الوالي، العدل من سماته، ورحمته تشمل الجميع. يقولون: إنَّه أبطل الضرائب، وكان يخرج الحلوى للأطفال في الموالد ويوزعها بنفسه.

ورعه لا يضاهيه أمير مملوكي، ولا حتى عالم مصري، كان لا بد من التخلص منه. أما قاضي قوص فلا يعرف شيئًا عن العدل ولا الرحمة، قاتل مأجور، وبطنه يتسع لمال وكنوز كل مصر والشام. يقتلون ابن الأمير لغرض في نفوسهم. اليوم يتفق السلطان المغتصب على قتل ابن أمير من المماليك البحرية، وغدًا يقتل كل المماليك البحرية، لو كان فخر الدين شركسيًّا هل كان السلطان سيقتل ابنه أمامه؟ أيُّ قسوة وأيُّ فجور؟!

كم من الأموال يحصل عليها قاضي قوص كل يوم؟ بيته ثلاثة أدوار بنافورة ذهبية، ولديه خمس وعشرون جارية، وأولاده لا يرتدون سوى الحرير المرصع بالذهب. ماتت زوجته، كان يعذبها ويسيء معاملتها، وكانت ابنة الرجل التقي قاضي القضاة الذي أفتى اليوم بقتل السلطان برقوق.

لماذا أفتى قاضي القضاة بقتل السلطان؟ لأنه طاغية يحب الدم ويقتل بلا رادع.

حادثة الطفل حسن ابن بائعة الملح ليست حادثة عادية، هي مصيبة حلَّت بمصر والشام وكل بلاد المسلمين، هي مصيبة ليس من أجل فاحشة جمق المزعومة، بل من أجل الكذب والافتراء والظلم والقتل الغادر. هذه هي الحقيقة، تبدو

واضحة كهلال شوال، وتدعو للتأمل في خلق الله.

حادثة مقتل جمق لا بد أن تُنَبِّه الغافل وتوقظ النائم، فالدور على ابن التاجر وابن الحرفي وأبناء الفقراء، فلو تجرأ السلطان وقتل ابن الناس سيستسيغ القتل، وسيقتل بلا رادع. للقتل هيبة ولقتل أولاد الأمراء هيبة خاصة. أين العقل وأين المنطق وأين التفكير السليم؟! وعندما يقتل السلطان ابن الأمير لأن بائعة الملح في قوص اتهمته خطأ فما هي الرسالة التي يقولها السلطان؟ إنه يحب قتل الأغنياء؟ إنه لا يأبه بعواقب قتل أبناء المماليك، إنه سيقتل من يثور عليه ومن يشعر هو نفسه بالغيرة منه؟

يقول المماليك: إنَّ السلطان كان يكره والي قوص طوال عمره، يغار من جمال ابنه وقوته، فالسلطان رزق بأبناء ضِعاف لا يصلحون للقتال، هي غيرة بين رجلين والقاضي انصاع وباع نفسه. ألا يتقي الله؟! ألا يتذكر بأنه سيقابل ربه يومًا؟ ألا يفكر ويدرك أي فتنة وأي شر سيأتي لمصر؟

سار الراوي هائمًا بين الطرقات وعيناه ممتلئتان بالدموع وهو يخبر أهل مصر بحقيقة الرواية وبتداعيات القتل. ستقام الدنيا ولا تقعد، وستشتعل أرض القاهرة بالمعارك، وستصيب السهام كل سائر على باب الله من رجل أو امرأة، وسيأتي الخراب والفقر والقمل والضباع، ولن تنبت زرعة في أرض الظلم والسلطان موجود في القاهرة.

حادثة مقتل جمق هي كل الخراب، لقتل شاب في هذا العمر وبهذه الوحشية وقع مختلف، وخوف من نوع خاص. أما ابن بائعة الملح فلا أحد يعرفه ولا أحد رآه. من قتله؟ هو أبوه، الكل يعرف، كان الأب قد اعترف بجريمته، ولكن القاضي أرغمه تحت التعذيب باتهام ابن الأمير، هي الحقيقة.

وماذا يحدث؟

تكلم العلماء عن الحادثة في صلاة الجمعة، ودعوا على الظالم والمفتري، ومن يرمي البريء إثمًا وبهتانًا مبينًا. ولم ينس أيٌّ من الشيوخ الدعاء على السلطان في آخر الخطبة في شجاعة، وبعد أن أمرهم بهذا كبراء الشيوخ والقضاة، وبعض الأمراء بالطبع.

نهاية السلطان كانت ستأتي عاجلًا أو آجلًا، ولكن عجَّل بها قاضي قوص. وطرق الطبول في الأسواق ينذر بنذير شؤم، والحرب في قلب القاهرة على وشك القيام، والسبب قاضي قوص، ومقتل ابن الأمير. والسؤال بلا إجابة، والابتسامات تهزأ من القاضي، والأفواه تقول: لو كان الأمير فخر الدين من مماليك القلعة الشراكسة هل كان السلطان سيقتل ابنه؟

* * *

جاءه الأمر من قاضي القضاة في البريد، منذ اليوم، وبعد صلاة المغرب ويوم الجمعة، وفي كل مجلس، لا بد أن يفتي العلماء بقتل السلطان المغتصب. وكتب الرواية الأمراء، وقالوا: إن برقوق كان أتابك عسكر واغتصب العرش من السلطان الحاجي، سليلو عائلة قلاوون من أتوا بالنصر لمصر وبلاد المسلمين، وعصر الجد الناصر محمد ابن الناس الذي لم يكن مقاتلًا ولا كان من الجنود يشهد بتفوق أسرة قلاوون، ومقتل أولاده وأحفاده قضاء وقدرًا ولا يمكن الكلام فيه، ولكن لم يتجرأ أيٌّ من أمراء المماليك بأن ينصب نفسه سلطانًا.

ربما كان المماليك سيتقاتلون فيما بينهم، وربما كانوا.. ربما.. لا أحد يعرف بالضبط.. ربما كانوا يقتلون سلطانًا طفلًا من حين إلى آخر، ولكنهم لم يتجرَّءوا قط على أن يأخذوا حكم مصر لأنفسهم.

قال الأمراء: أما السلطان برقوق، أو من يدعي السلطنة فقد فجر وظلم، ألم يقتل ابن الناس منذ أيام على الملأ وعلى باب زويلة؟ كان انتقامًا من أبيه الأمير الشجاع فخر الدين، ولكن فخر الدين سيعود منتصرًا ويزيح السلطان المغتصب.

أسرة قلاوون تستحق أن تحكم؟ بعض الهمسات خرجت في مرارة: وكأن قلاوون الكبير نفسه لم يغتصب الحكم من أولاد الظاهر بيبرس؟ هي كأس تدور على كل الحكام والسلاطين، ولا توريث يشفع مع أتابك العسكر. ألم يكن برقوق أتابك عسكر، وكان متحكمًا في السلطان، وأبقى على حياته ولم يقتله كغيره؟ تذكروا، كان رحيمًا مع حفيد قلاوون، وكان الحاكم الفعلي، وأقنعه الأمراء بأخذ الحكم لإنقاذ البلاد. تذكروا...

قال قائل في قوة: بل تذكروا من قتل السلطان الحسن؟ من قتل صاحب أكبر وأعظم مسجد في القاهرة؟ أليس أستاذ برقوق؟ أليس يلبغا العمري؟

- لا يعرف أحد من قتل الحسن، كان شهيدًا، وربما غرق في رحلة صيد؟

- رحلات الصيد ليست ساحة قتال إلا في هذه الأرض، يموت فيها السلطان دومًا. الكل يعرف أن يلبغا العمري هو من جلب برقوق من الشام إلى مصر، وهو أستاذه، وأن يلبغا العمري هو من قتل الحسن. برقوق تعلم الخيانة واستباح دم السلاطين. غدًا أو بعد غد سيقتل السلطان الصغير، وقاضي قوص هو يد السلطان المغتصب، يبطش بالمماليك البحرية ويقتل أبناءهم، وغدًا يستحيي نساءهم. يا حسرة على الأمير فخر الدين! قتل ابنـه أمـام عينيـه غدرًا وظلمًا، لا بد أن يعود منتصرًا، ولا بد أن يقتل قاضي قوص وبرقوق وكل الجراكسة لو استطاع.

لم يدعُ قاضي قوص على السلطان المغتصب برقوق، ولم

يُفْتِ بقتله، وفي خطبة الجمعة دعا لدرء الفتن وضبط النفس وجهادها؛ حتى لا تتبع الشيطان، وقال: إن القتل سهل ومستساغ، وإن من أحيا نفسًا فكأنما أحيا الناس جميعًا، وإن الحروب تؤدي إلى الوباء والفقر، وإن من يحكم مصر الآن سلطان عادل لم نرَ منه سوءًا، وليس لأهل مصر التدخل في أمور الأمراء واتباع أهوائهم. صاح فيه أحد الحضور: يا قاضي.. اتقِ الله. تشكر سلطانًا كافرًا مغتصبًا لأنه نصرك على الأمير؟ أيَّ هوى تتبع وأيَّ دين؟!

ابتسم له عمرو، وقال في هدوء: أدعو لك بالهداية، وأن ينوِّر الله بصيرتك.

فصاح الرجل: بل بصيرتك أنت التي تحتاج إلى نور، كلنا نعرف مؤامرتك مع السلطان على الأمير فخر الدين.

التقت أعينهما، ولم يجبه القاضي، فهم بالهجوم عليه، فمنعه الطلاب والحضور. رحل القاضي في هدوء، وقد عزم أمره أنه لن يسب سلطانًا نصره، ولن ينفذ أوامر قاضي القضاة.

وفي المساء جاءه طارق على بابه، جندي بملابس المماليك، دخل وجلس أمامه، وقال في رفق: يا شيخ، جئت أعطيك النصيحة لعلها تنفع في هذه الأيام الغبراء.

قال وهو يتفحصه: من أستاذك؟

- تريد أن تعرف؟

- أتمنى هذا لأفهم لِمَ جئت ولِمَ تعطيني النصيحة.

- الأمير منطاش.

هزَّ رأسه وردد: الأمير منطاش بعثك لي؟ لماذا؟ ما أهمية قاضي قوص؟

قال الجندي في حسم: قاضي قوص هو نائب قاضي قضاة الشافعية، واسمه يتردد في كل مصر، دومًا يتردد مع اسم

المغتصب برقوق.
ردَّد في دهشة: المغتصب برقوق؟ ألم يعد سلطانك؟!
- لم يكن سلطان أحد سوى أمراء الشراكسة، وأهله الذين أتى بهم من بلاد غير مسلمة.
- وماذا تريد مني؟ لو كنت تعرف كل هذا؟ تريد أن تنصحني بأن أفتي بقتله؟
قال في تأكيد: كل الشيوخ والقضاة أفتوا بقتله.
- لِمَ تحتاج فتواي إذن؟
- فتواك وأنت صديقه تعني الكثير.
- ولكنني لست بصديقه، ولم أره سوى مرة في حياتي.
- هذا سبب أكبر لأن تتبع الشيوخ وقاضي القضاة.
- ولو لم أفعل؟
- الأمير فخر الدين لا يبغي قتلك أنت، يريد قتل أبنائك أولًا، والأمير يلبغا صديق فخر الدين وحليفه.
قال عمرو: والأمير منطاش أيضًا حليف الأمير يلبغا، ولو لم أفعل فسيقتلهم الأمير منطاش نفسه؟
- الأمير منطاش لا يقتل الأطفال، ولكنه يستطيع حمايتهم أو تركهم لفخر الدين ويلبغا، يعرف فخر الدين مكانهم وسيذهب إليهم.
صمت عمرو برهة ثم قال: ولو فاز برقوق في تلك الحرب ماذا سيكون مصيرك ومصير كل من أفتى بقتله؟
قال الجندي في ثقة: لا فوز لبرقوق، سينهزم شر هزيمة ويخرج من القاهرة مهزومًا.
- ثقتك تخيفني، ولكن اصدقني القول، هناك سؤال يلح عليَّ.

- اسأل.

قال عمرو: ما جدوى فتوى العلماء وقبول أهل مصر أو رفضه لو كان السيف في يد المماليك دومًا؟ هذه معركة تكسب بالسيف والغلبة للأقوى، وليس للأكثر ورعًا ولا لمن يرضى عنه العلماء.

اقترب الجندي منه ثم قال في حسم: يا شيخ، لا سيف يغني عن الشيخ، ولا سيف يعطي الأمان للمماليك، وأهل مصر متذمِّرون ورافضون. ليملك المماليك مصر لا بد من رضا العامة، ورضا العامة ليس بالسيف ولكن بالشيوخ والقساوسة. يخدعك من يقول: إن حكم مصر سهل وترويضها ممكن بلا رضا العامة.

ابتسم عمرو في مرارة، ثم قال: ولكنه حد السيف ما تهددني به أيها الجندي لآتي بفتوى على هواك.

- هو اختيارك يا شيخ، أعطيك فرصة للنجاة.

قال عمرو في حسم: اتركني أفكر في الأمر.

- لا وقت للتفكير.

- لا بد أن أفكر في الأمر.

بعد خروج الجندي بدأ عمرو تجهيز نفسه للسفر إلى القاهرة اليوم بل الآن، ولم يكن ينوي الفتوى بقتل برقوق، بل كان ينوي إنقاذ ولديه.

* * *

أغلق سكان القاهرة بيوتهم ونوافذهم وجلبوا اللبن والخبز، وجلسوا في انتظار نهاية الحروب بين المماليك ليخرجوا إلى الشوارع، ويأكلوا الحلوى على ضفاف النيل. لا أحد يعرف متى تنتهي الحروب ولا متى تبدأ، يقولون: إن نائب حلب وحاكم ملاطية ثارا على السلطان. الشام مفتاح مصر وثورة الشام خراب لمصر ونهاية للسلطان. تهامس البعض بأن برقوق كان

ساذجًا عندما ظن أن الأعراب هم أعداؤه أو أبناء عثمان أو حتى المغول، بينما الخطر جاء من الشمال، من أقصى الشمال، من ملاطية.

قال الشيوخ: الأمير منطاش حاكم ملاطية معروف عنه الشجاعة والمغامرة، اتحد مع نائب حلب يلبغا الناصري على الإطاحة ببرقوق وعودة السلطان الشرعي، يريدون نشر العدل في أرجاء مصر، وعودة الشرعية للحكم.

وقال بعض أولاد الناس والمماليك: إن العدل... كلمة يكرهها أهل مصر، ولا تأتي سوى بالخراب، لا بد من محو هذه الكلمة من الذاكرة. ألم يقلها قاضي قوص قبل قتل ابن الأمير؟ فليذهب العدل إلى الجحيم؛ لأنه يأتي بالحروب والوباء. حتى الحلوى اختفت من الأسواق. ثم هل تشعر بائعة الملح؟ الفقراء مشاعرهم متبلدة، والموت لديهم مستساغ، أليس كذلك؟ أم جمق ستبكي ويجب أن نشعر ببكائها، أما بائعة الملح فلا أحد سمع عنها أصلًا. أيُّ زمن هذا تنقلب فيه الحقائق، سيأتي الأميران ويقضيان على برقوق في القاهرة وينتهي الأمر، ثم نخرج إلى ضفاف النيل ونأكل الحلوى، أيام وينتهي الأمر.

* * *

اشتعلت الحروب في أرجاء القاهرة. وكان عمرو قد خرج بفرسه متجهًا إلى القاهرة وهو لا يفكر إلا في ولديه.

انطلق بأقصى سرعة، حتى سمع صوت دقات قلب الفرس وشعر باهتزاز جنبات قلبه هو، لن يحدث مكروه لولديه! هما حفيدا قاضي القضاة، سيحافظ عليهما، ولدا ابنته المتوفَّاة، لن يترك أحدًا يخطفهما أو يقتلهما.

في أوقات الحروب يعم الدمار والفوضى، لا بد سيخطفهما

فخر الدين لينتقم منه، ألم ينضم لجيوش يلبغا لينتقم منه؟ لماذا تبدو القاهرة بعيدة مستعصية وقاسية هكذا؟ ولماذا تبتعد المسافات كلما اقترب من النهر؟ سمع أصوات ابنيه. يفتقدانه ويصرخان؟ يستغيثان؟ لا يريد سواهما في هذه اللحظة. يريدهما بخير ثم ينتهي العمر لا يبالي.

عندما دخل أبواب المدينة بدت فارغة مهجورة، الدكاكين مغلقة، ولا أحد يجول في الحواري سوى مجنون، أو اثنين يبحثان في فضول بين النفايات ليس عن طعام بل عن بقايا بشر ماتوا في المعارك اليوم. اتجه إلى بيت حماه بأقصى سرعة، وكان الليل قد جن والظلمات تسيطر على الطرق، والبيت مظلم بلا قنديل واحد، وكأن أهله هجروه منذ زمن. دق الباب في قوة وخوف، نظر حوله يستغيث، لم يجد حارسًا واحدًا، ولا أحد ليسأله سوى مجنون يدور حول الباب بشعر متشابك طويل ولحية تعيش بداخلها كل الزواحف وتترعرع وتكبر.

سمع صياحه وصدى صوته يدق الجدران: حسين... أحمد..

لم يجب أحد. جلس أمام الباب لا يتحرك، يحاول الاستيعاب والتفكير، وأين السلطان؟ ومتى وصل الأمراء إلى القاهرة؟ ولو وصلوا إلى القاهرة فلا أمل للسلطان، سينتصرون عليه بالتأكيد، بل لابد أنهم انتصروا وانتهى الأمر. وما مصير ابنيه؟ هربا مع القاضي لحين عودة الاستقرار؟ ربما هربا مع القاضي لحين وهذا أفضل، وربما وجدهما فخر الدين، وربما ينتظر يومًا لينفذ تهديده، وربما هما أسيران وعبدان، وربما يعذبان وتقطع جلودهما.

لم يزل المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، ولكن أحدًا لا يأتي.

هرع إلى الجامع يصلي وراء الشيخ، وبعد أن انتهى قال له:

هل هرب السلطان؟

فقال الشيخ دون أن ينظر إليه: لا أحد يعرف.

- انهزم أمام يلبغا ومنطاش؟

- انهزم، هذا يقين.

- أين يمكن أن يكون؟ أريد السؤال عن قاضي القضاة. أتعرف مكانه؟

- لا أعرف شيئًا، يقولون: يحتمي بعضهم في مسجد السلطان حسن، وبعضهم يقول: إن المسجد ساحة قتال يستعمله المماليك كحصن لهم، ويرمون السهام على القلعة من أعلاه. لا أحد يجرؤ على الذهاب هناك ولا اكتشاف الحقيقة.

قال وبارقة أمل تظهر له: ربما يحتمي قاضي القضاة بالمسجد؟

- لا احتماء بمساجد اليوم يا أخي، هي ساحات قتال ودم، ليست لذكر الله بل للقائه.

دوَّت الكلمات في صدره وهو يهرع إلى المسجد: ليست لذكر الله بل للقائه.. ليست لذكر الله بل للقائه.. ليست لذكر الله بل للقائه. ولداي بخير. لا بد أن يكونا بخير.

نظر إلى المسجد، سطعت الشمس في أركانه، بدا شامخًا متحملًا دومًا، يحيط بالجبل وينتصر عليه. أحجاره براقة بيضاء سميكة منتصرة، وأبوابه النحاسية المنحوتة بعناية يصعب تقليدها أو تجاهلها تفتح ليتجلى منها روعة المبدع وجمال الخلود، تتجلى من أركانها ألوان الحياة المبهجة وزخارف الحب المتقن الراسخ في الأعماق. ما أبعده مُشيِّد العمائر هذا وما أكثره يقينًا بالفناء والموت! ويا حسرته اليوم على العباد! يتقاتلون وسط النور، ويفنون وسط الجمال وتتساقط دماؤهم

وسط ألوان الحب المختلفة. يا حسرته مُشيِّد العمائر! بناه لعل الله يغفر ويرحم، بناه لعاشق ذات الله لتارك أطماع الدنيا، ولم يتوقع أن الحروب على الأطماع ستتخذه مسكنًا، وأن الشيطان سيخترق الأحجار ويستقر بين أركان الجمال يقبحه ويذله. يا حسرته وحسرة القاضي!

ركع على أرض المسجد، وغطى وجهه بيديه، ثم سجد يدعو الله ويطلب المغفرة، فمن يدري.. ربما دخل الغرور قلبه، وربما تسرب الطمع إلى نفسه، وربما نخرها الطموح وزهو النفس، وربما هز العشق أعماق القلب، ففقد اتزانه.

وها هو ذا يطلب من جديد ويطمع في سلامة ابنيه، ويعرف أن النفس وحيدة في رحلتها، وأنه سيفر من ابنيه وحبيبته وطمعه وزهوه، وأن في النهاية استكفاء ووصولًا وخوفًا وهزيمة وانتصارًا لا سؤال فيها عن غائب، ولا مفر من مواجهة الأخطاء.

والآن يسجد بين يدي الله، ولا يطلب سوى الاطمئنان على ابنيه، لو عرف أنهما يرزقان على قيد الحياة، لو ربط الله على قلبه كما ربط على قلب أم موسى فسيعرف أنه راضٍ عنه، لو جاءه اليقين ولو اليوم فقط، ولو استقر في الزوال ساعةً أو يومًا أو بعض يوم.. ولو اعتدل الزمن كالميزان.

تساقطت دمعتان على أرض المسجد. مسحهما بإصبعه ثم قام يبحث من جديد.

تسلق السلم مسرعًا وصوت السيوف يصم أذنيه، صياح وسهام وجنود يحشرون في السلالم الضيقة يهرعون في حماس ليقتُلوا ويقتَلوا. كان يتساءل في قوة عن مصير قاضي القضاة، وعمَّن يختبئ في مدارس المسجد وفي السبيل.

قال أحد الجنود: لا يوجد هنا سوى الجنود، لا قضاة ولا شيوخ، ابحث في مكان آخر.

وصل إلى القمة، فقال الجندي في حماس: هنا ترى كل شيء بوضوح، وتنكشف إليك كل الحقائق، العدو يظهر على حقيقته والصديق يساندك. انظر إلى القلعة والعدو بها يختبئ ويلقي سهامه، وتحت سفح الجبل يختبئ سكان القاهرة.

ردد: على القمة تنكشف كل الحقائق.

ثم رَفع أذان الظهر في تلقائية وبصوت قوي، وقال في رفق: حانت صلاة الظهر، أصلي بكما قبل الاستمرار في القتال.

نظر كل منهما إلى الآخر ينتظران رأي الأستاذ. أمعن الأستاذ النظر إلى عمرو ثم قال: من أين أتيت؟

- من أرض الله، أصلي بكما أولًا ثم تواصلون القتال، هو بيت الله تذكروا وسلموا على ملائكته لو لم يتركوه فارين من استقرار الشيطان.

- أنت صوفي أم مجنون؟!

- شيخ ربما.

ساد الصمت برهة، ثم قال الأمير: لا بأس نصلي سريعًا. عجِّل بالصلاة.

بدأ عمرو الصلاة وقرأ القرآن بصوت مليء بالشجن والصدق، ونسي الجنود القتال برهة واخترقت الآيات أصوات السيوف، حتى ظهرت الدموع في عيون بعضهم. وما إن انتهى من الصلاة حتى جاءه الجنود يريدون مصافحته وبركته، وصافحهم وقال: مع من تحاربون؟ مع السلطان أم ضده؟

قالوا في قوة: مع السلطان بالطبع، مع الحاجي هو سلطان البلاد. أما برقوق المغتصب فقتله اليوم.

ابتسم في سخرية من نفسه ومنهم ومن كل شيء وقال: لا أعرف هل أتمنى لكم النصر أم لا. أتمنى لكم الهداية على كل حال.

ثم قام ونظر حوله يبحث من أحد يسأله ربما، أو دليل عن مكان ولديه.

نزل السلالم في بطء وقلبه يثقل حمله، نفسه مكسورة وإيمانه لم يتزعزع. اصطدم برجل ظن أنه يعرفه، رآه من قبل، لا يتذكر أين.

صاح الرجل في فزع: قاضي قوص!

أطال عمرو نظره إليه وبدأ يتذكر، جندي وحارس بقي معه أسبوعين، جندي وحارس فخر الدين.

أمسك الحارس بظهر السيف وقال في قوة: جئت لقضاك يا ظالم يا منافق.

ثم ضرب رأس عمرو بظهر السيف بكل قوته فانبثقت منه الدماء.

* * *

الباب الثاني
حوادث الدنيا

دع الأيام تفعـل ما تشـــاءُ   وطب نفسًا إذا حكم القضاءُ

ولا تجـزع لحـادثـة الليالـي   فما لحوادث الدنيا بقاءُ

وكن رجلًا على الأهوال جَلْدًا   وشيمتك السماحة والوفاءُ

ورزقك ليس يُنقصـه التـأني   وليس يزيد في الرزق العناءُ

دع الأيـام تَغْـدرُ كـل حيـنٍ   فما يُغني عن الموت الدواءُ

الإمام الشافعي

الفصل الرابع

قالوا: يلبغا الناصري، ما أصدق هذا الرجل وأكثره ورعًا وإيمانًا! جاء من حلب لانتشال أهل مصر من الظلم والخزي، وصدق وعده وترك الحكم وكأنه قديس أو راهب، لا طمع في عرش ولا اقتنص الفرصة ليوطد حكمه، أعاد الحكم لأسرة قلاوون العظيمة وحكمهم الحكيم، وأعاد العرش للسلطان الشاب الحاجي الذي أصبح اليوم منصورًا بقدرة الأمراء وعدلهم.

خرجت القاهرة في احتفالات وأعياد، عاد السلطان وسوف يوزع العطايا على العامة ويبطل المكوس، وانتهى عهد الجراكسة إلى الأبد، وجاء ملوك يخاف منهم الصليبيون والمغول، ويخشاهم ملك الحبشة وحتى ملك الصين، جاء من يصون البلاد ويعطي لمصر ما تستحق.

خرج العلماء من مخابئهم يهللون فرحًا؛ لأنهم راهنوا على الفرس الرابح، ولأن برقوق كان لابد أن ينهزم في القاهرة.

وعاد السلطان وذبح الذبائح، وأمر بإطعام الفقراء في الزوايا وإضاءة القاهرة بالقناديل بضعة أيام على التوالي، ولو لم تكن الأحجار محرمة على المسلمين لبنى الناس ضريحًا ليلبغا الذي أنقذ مصر من شيء ما لا يعرفه المصريون تحديدًا، ولكن لا بد أنه أنقذ مصر وأعاد السلطان ولم يطمع في الحكم.

كون يلبغا لم يأخذ حكم مصر لنفسه بعد انتصاره على برقوق يكفي لبناء ضريح له خلف أبواب القاهرة كفخر وبدعة. أما

برقوق، فلم ينجح في الهرب حمدًا لله، وتم القبض عليه ليأخذ جزاءه فيعدم.

يا لروعة اللحظة وسحر النهر بعد العشاء، والمصريون يخرجون محتفلين!

أما أهالي قوص فكان احتفالهم مضاعفًا، أو بعضهم على الأقل، التاجر الرضاوي كان يقضي أجمل أيام عمره كلها بعد أن رحل قاضي قوص الذي جلب الشؤم والعار والذي تعمَّد إذلاله مرة أو مرتين، رَحَلَ هو والسلطان الذي يدعمه وعاد العمر إلى صوابه.

ذبح عجلًا ووزعه على أهالي قوص من التجار فقط وحرم منه الفقراء؛ فقد وقفوا يومًا مع القاضي الميت إن شاء الله، وذهب إلى أحد الشيوخ يحكي له في حزن عن الظلم الذي وقع عليه هو وزوجته وابنته، وكيف طلق القاضي ابنته رغمًا عنه، وكيف تفوه بكلمات غريبة عن حق الفتاة في الرفض والقبول، وكيف تمردت عليه زوجته بعد ذهابها إلى القاضي، وأصبحت ناشزًا بكل معنى الكلمة لا يقوى على أن يأمرها، ولا تطيعه ولا ترضيه. استمع له الشيخ في تعاطف، وأفتى بأن قاضي قوص قد تم عزله، وأنه ليس له وجود الآن، وأن كل ما أفتى به قاضي قوص حرام، وأن ابنته لم تطلق، وأن زوجها أحق بها، يعيد المهر والهدايا ويدخل بها إن شاء الله.

التاجر رضاوي لم يرب ابنته بنفسه، وهجر زوجته منذ ولادة ابنته، ولم يرها سوى مرات قليلة، كان في معظمها يتشاجر مع أمها أو يضربهما معًا. كرهه لزوجته وحنقه عليها كان ينبع من حبها الشديد له دون ذنب اقترفته سوى أنه تزوجها، ومن وجودها المفروض عليه من أهله وعائلته وخوفه من تطليقها؛ حتى لا تغضب عائلتها وتحاربه. كان مُكرَهًا على إبقائها في

بيته، وتحاشاها كلما استطاع، وأصبحت تقضي وقتًا طويلًا في بيت عائلتها، ورَبَّت ابنتها بين أخوالها، وكان كل شيء يسير على نظام واضح، حتى جاء قاضي قوص وقلب الميزان ونشر الفوضى، فتجرأت البنت والزوجة.

عندما دخل بيته اليوم كان فرحًا، ولم يدخل إلى حجرة جاريته كما يفعل كل يوم، بل ذهب إلى حجرة زوجته. فاجأها وهي جالسة تأكل، فقامت، وما إن قامت حتى صفعها صفعة قوية، ثم نظر لذراعها التي كسرها من قبل، ولكمها فيها، وقال في كره دفين: تطيعين كل أوامري أو أقتلك اليوم.

لم تنطق، اعتادت لكماته، ولم تتوقع حياة أفضل حتى بعد مجيء قاضي قوص. أمرها أن تجهز ابنتها للدخول بزوجها بعد أسبوع، وأمسك بالسوط واتجه إلى حجرة ابنته فاستوقفته في رجاء قائلة: لو ضربتها الآن لن يرضى بها زوجها وعلامات السوط تشوه جسدها.

قال في عناد: كانت تشتكي والدها للقاضي، وترفض وتتكلم وتتمرد، وتقول: لا ونعم، بل لا بد من تأديبها قبل أن تذهب إلى بيت زوجها.

ضرب ابنته عشر جلدات ودموعها حبيسة، والضرب ليس ما يحرق قلبها الآن، والعمر معلق في حلقات من نار، فلو هربت تؤذي أمها، وربما تتسبب في قتلها، ولو بقيت، فالموت مصيرها، وما أبشع موت الروح!

ثم خرج إلى السوق بكامل زينته، فخورًا بنفسه وبقوته، ومر على بيت القاضي المهجور الآن. وكانت بائعة الملح أم حسن تكنس أمام الدار في حماس وكأن القاضي سيأتي الآن ويمر أمامها، فقال لها في جفاء: يا عجوز يا خرفة، مات وهلك من تعملين عنده وتكنسين من أجله، هلك وأراحنا منه ومن ظلمه،

وأنت السبب في هلاكه لو تعرفين.

توقفت عن الكنس ونظرت إليه، وكانت ترتدي ثوبًا أسود نظيفًا هذه المرة، وجمعت الماء في فمها ثم بصقت في وجهه، وقالت: غور يا رجل!

فتح عينيه وهو لا يدرك ما فعلت، ثم ركلها بكل قوته في بطنها فوقعت على الأرض وتأوهت، ثم قامت وأمسكت بالمكنسة وضربته على رأسه وهي تصيح: اضرب النساء، لعلك تصبح رجلًا يا عرة الرجال!

وقبل أن يفيق دخلت البيت، وأغلقت الباب، وابتسمت لأول مرة منذ وفاة طفلها ثم بكت.

* * *

في اليوم التالي جاء قاضي قوص الجديد، ومعه حرسه وشهوده وكاتبوه، وكان يرتدي الملابس الغالية، ويحيط نفسه بهالة من الغرور والتعالي، ومنذ يومه الأول بدأ البطش بالأهالي وإصدار الأحكام السريعة القاسية، وتهامس بعض الناس في بيوتهم بأن ألف دينار تنقذ الحياة وتمنع الجلد وتجعل شرب الحشيش حلالًا عند هذا القاضي، وآخَرون قليلون بدءوا يتهامسون بأن الأمير منطاش يفرض ضرائب باهظة، وينكل بالفقراء ومن يمتنع عن الدفع، وأنهم اقتنعوا بأن الليل لا يمكن أن يكون أسود مما هو عليه، ولكن منطاش أثبت عدم صحة هذا، بل لو كان منطاش ويلبغا قد عاصرا بزوغ هلال شوال لتحتم أن يخشى الهلال الظهور، ولا لتزم داره وترك السواد ينتشر ويسيطر. في اليوم الأول استقبل القاضي التجار وتقبل الإطراء والهدايا، وكان أولهم رضاوي الذي جاء يزف خبر زواج ابنته، ويدعو القاضي للزفاف، وجاء بهدية باهظة، وخرج سعيدًا راضيًا عن اعتدال الكون أخيرًا. أما بائعة الملح فتوقفت عن

كنس الدار، وطردها القاضي في ازدراء، وهددها بأنها لو اقتربت من هذا البيت مرة أخرى فسيسجنها لنهاية عمرها حتى يرحم البشر من منظرها الكئيب. اختفت بائعة الملح.

وحبس رضاوي ابنته في البيت هي وزوجته، وقال لزوجته: إن العلماء نصحوه بألا يسمح لها بالخروج إلا عند موتها، وحاولت ابنتها أن تربط ذراعها حول الخشبة مرة أخرى، ولكن بدا لها أن أمها لا تستطيع تحريك الذراع، وأن الكسر هذه المرة لا يمكن إصلاحه. احتضنتها، ولم تبكِ الأم بل ظلت صامتة وربتت على ظهر ابنتها.

* * *

الجرح في رأسه يدق باب عقله وكأنه ضيف ثقيل مُصِرٌّ على الدخول، أيامًا لا يرى ولا يسمع ولا يعرف أين هو ولا من يتكلم.

صدى صوت يعرفه كان يصيح: أريده حيًّا، لابد أن يبقى حيًّا حتى أقتصَّ منه، لم يبدأ العذاب بعد.

هذه الكلمات تتردد مع الضيف الثقيل داخل خبايا العقل وسمع أصوات كريهة تردد.

- «تقهقر برقوق، لا مصر أنصفته ولا جنوده دافعوا عنه، .. هرب إلى الشام، وفي الشام لقنوه درسًا.. خانه أولاد الناس.. .. أولاد الناس تريد سلطانًا منهم ومثلهم، لا جنديًّا كان عبدًا بلا أصل ولا أب وأم. المغرور كان يظن أنه ملك المصريين من العامة والعلماء وأولاد الناس..».

- «قاضي قوص.. لابد أن يرى أولاده على الخازوق أولًا، ثم ينزع فخر الدين كل جلده، ثم يخرج أحشاءه أمامه لتصافحه في حرارة، ثم يتركه يموت في بطء بعد أن يبصق على وجهه، قاضي قوص لا بد أن يعيش بعض الوقت وليس كثيرًا».

- «ولداه.. أين هما؟ يعرف مكانهما، فخر الدين يعرف كل

شيء».

تحركت العربة أيامًا.. وهو بداخلها وآلام الرأس ليس بعدها آلام، والعقل مشوش والأصوات متلاحمة والصور شظايا ألوان وشخوص حوله. هل فقد عقله للأبد؟ هل فقد ذاكرته؟ هل أصيب بمس من الجنون؟ هل مات ودفن ويحاسب من الملكين؟ أيَّ ذنب اقترفه وأيُّ عقاب ينتظره، ولِمَ لا يرحمه القدر فيقضي عليه بضربة أقوى فينتهي ويتلاشى، وكم تمنى أن يمتزج بذرات التراب ويمحو العمر الباقي الذي سيقضيه في جنون وذل وخزي وعذاب ليس بعده عذاب. أين بائعة الملح؟ ألم تزل تكنس البيت؟ ترى هل توقفت عن الكنس؟ يستنشق ذرات التراب في كل مكان، ويحتاج إلى من يزيحها من على عينيه ورأسه وجسده، التراب حوله وبائعة الملح اختفت الآن، لا تزيح الغبار ولا تتنبأ بالموت. لِمَ اختفت وهو يحتاج إليها؟

صوت فخر الدين كان يصم أذنيه. اختفى.. أو تباعد.. والمعارك والسيوف حوله.. والطريق طويل.. هذا الجمل يحمله إلى مكان مجهول.. وحده بلا ولد ولا حبيبة ولا سيف.

في سجن القلعة في الكرك حجرات مضيئة نظيفة، وحجرات عفنة ممتلئة بالفئران.

علت ضحكات صوت يعرفه جيدًا ولا يصدق أنه هنا معه، جاء الليل وانطفأ القنديل، ولم يبق سوى الصوت المميز.

- جئت يا قاضي قوص؟ يا من تسببت في كل هذا الخراب بعدلك؟

تختلط عليه الأشياء هذه الأيام. وبدا العمر كالكابوس والسنون كالأيام والأماكن تختلف كلمح البصر.

- لِمَ لا تجيب؟ ما رأيك في العدل الآن؟

هوى إلى الأرض وصحته ساءت في الأيام الماضية من طعام

عفن وأماكن مظلمة ومياه متسخة وسفر طويل لا يعرف سببه ولا نهايته. وما جعل الأماكن والمسافات تبدو بعيدة وقريبة في متناول يده ومستحيلة هو هذا الرباط على عينيه؛ حتى لا يعرف ولا يفهم، حتى يبقى الكون بلون واحد والبشر بملامح موحدة وأشكال من عمل الخيال!

منذ استقر مقبض السيف على رأسه والعالم بصورتين أو أكثر. أغمض عينيه ثم فتحهما وسمع همسات: هو ليس بخير، يريدون موته بالطبع، بل يريدون له العيش لينتقم منه فخر الدين، فخر الدين.. لا بد أن يعيش.. فخر الدين؟ بل قاضي قوص.

اندفعت المياه بقوة واصطدمت بوجهه وذراعيه أفاقته من كابوس طويل. وظهر الفجر فقال في صحوة وقوة: لا بد من الصلاة.

- تأكل أولًا. ثم نصلي معًا.

فك أحدهم الرباط من على عينيه فنظر حوله وعقله في جهة القبلة، وعدم صلاته في الأيام الماضية كان يؤلمه أكثر من الرباط حول عينيه.

* * *

اقترب منه الصوت وقال الرجل: عمرو.. لا أدري أأقتلك بيدي أم أنتظر حتى أرى جسدك الممزق أمامي عندما يقتلك فخر الدين؟

لم يكن متأكدًا ما إذا كان الصوت جادًّا أم مازحًا، وما إذا كان ودودًا أم كارهًا. ولكنه يتذكره جيدًا.

قال في تردد: مولاي السلطان برقوق؟ هذا أنت؟

قال برقوق وهو يجلس القرفصاء: لا لست أنا. فلا أنا مولاك ولا أنا السلطان، بل سجين في قلعة في الشام لا أكثر، أنتظر

مثلك يا عمرو أوامر بقتلي.

ثم قال برقوق وهو يشير إلى المسجونين حوله: الأمير سنقر والأمير شهاب الدين والأمير عبد الحميد. وهذا يا أصدقائي قاضي قوص!

تبادلوا الهمسات، ثم قال برقوق في حماس: الكل يعرفك يا عمرو، حتى أكثر من السلطان الحالي.

ثم اقترب منه برقوق وقال في صوت خافت: تعرف أنهم سيقتلونك، أليس كذلك؟

- أعرف.

- وتندم الآن على إقامة الحد على ابن الأمير؟

قال عمرو في قوة: والله لو عاد بي الزمن لأقيمنه مرة أخرى.

- عنادك غريب على أهل مصر، لا بأس.

ثم قال عمرو بلا تفكير: وأنت يا مولاي، هل كنت ستتردد في إقامة الحد على ابن الناس؟

قال بلا تفكير: بل أقيمه على كل أولاد الناس! وقفوا مع يلبغا ومنطاش وخانوا العهد، لا أمل فيهم، أولاد المماليك.

ثم قال: ولكن لا داعي لمولاي هنا، فالوقت قصير ربما والنهاية محتومة. قل برقوق بن أنس، أحب أن اسمع اسم أبي بين الحين والآخر. تعرف معظم المماليك لا يعرفون أبويهم، وإن عرفوهم فلا يعودون إلى مكان الأسر، أما أنا فلا. الكنوز لا تغني عن العائلة. ألديك عائلة يا عمرو؟

بقي صامتًا ثم قال: لدي ولدان، لا أعرف مكانهما ولا إن كانا على قيد الحياة.

قال برقوق وكأنه لا يسمعه: عندما أموت لا أريد أن أدفن في مسجدي، فلست أهلًا لهذا أريد أن أدفن مع أبي، فقط أبي.

وأنت؟

- لا أعرف يا مولاي لو كانوا سيتركون لنا الاختيار، وأشك في ذلك، بل لا دفن لنا من الأساس.

ثم نظر حوله وقام قائلًا: نصلي أولًا؟

وبعد الصلاة جلس برقوق بجانبه وقال: تعرف لماذا لم يقتلوني بعد هزيمتي؟

- لا.

- حتى يذلوني، عندما لا يقتلك أمراء المماليك لا بد أن تقلق؛ فالقتل رحمة دومًا.

ثم قال برقوق في فضول: اصدقني القول يا عمرو، عندما يقتلني الأمراء سأكون شهيدًا وأدخل الجنة؟

ابتسم عمرو في أسى وقال: أتمنى ذلك.

- بل تعرف، لا بد أنك تعرف، ألم تدرس هذا؟

- هي نيتك التي ستحاسب عليها.

- كانت دومًا المحافظة على مصر وبقاءها قلب العالم ومركز الكون.

- بما أن العمر قصير فالكلام واجب، فضلت الشراكسة وأعطيتهم المناصب وجلبت عائلتك، والعامة لا يثقون في إسلامهم.

ضحك وقال: ها أنت تتكلم كيلبغا وفخر الدين، لو قتلك فخرالدين أمامي فلن أبالي. فعلت هذا لأن الأمراء لا أمان لهم، وغايتي أمن البلاد واستقرارها، أريد لمصر والشام البقاء، واقتتال المماليك ينهي الدول. عمرو، لا يحمي مصر سوى أتابك عسكر قوي يمسك بزمام الأمور، ويقضي على الفتن والقتال، ويخيف المماليك؛ لأنه منهم ويعرفهم، أما أبناء

السلاطين فأولاد ناس، لا قبل لهم بقتال، ولا قوة ولا طاقة لهم على كسر شوكة الأمراء. المقاتل، من عاش للقتال والدفاع عن الإسلام ليس كالمرفه ابن الناس.

- ولو كنت لا تزال سلطانًا لكنتَ ستوصي بالحكم من بعدك لأمير مملوكي تثق به أم لابنك؟

قال بلا تفكير: بالطبع لأمير مملوكي، فلا قبل لابني بمؤامرات المماليك ولا مواجهة أعداء من الداخل والخارج.

عمرو من واجبك أن تضمن للمصريين الجنة، ومن واجبي أن أضمن لهم حياة كريمة، أنت تعمل للآخرة وأنا أعمل للدنيا. يكمل بعضنا بعضًا، أنت تحميهم من النار، وأنا أحميهم من ذل الغزاة وقسوة المعتدي. لكل منا أهدافه، ولكن تحقيق أهدافي لا يمكن أن يكون بنفس الطريقة التي تحقق أنت بها أهدافك، وإلا تبادلنا الأماكن وأصبحت أنا العالم وأنت المقاتل؟ ربما لو فعلنا هذا يومًا واحدًا، تفهم ما أقول؟

هزَّ عمرو رأسه بالإيجاب، وبقي صامتًا، فقال برقوق: تفتقد ولديك؟

- أخاف على مصيرهما؛ لو عرفتُه أَهْدَأُ.

- أليس في الخوف على الدنيا وما فيها ضعف يا شيخ؟

- الدنيا هي كل الضعف، والولد يحطم الإرادة.

- كان لابد أن تفكر في مصيرهما قبل أن تفعل فعلتك هذه.

- كانت محاولة للتجرد من كل ضعف.

- ألم تتردد؟

- لم أتردد.

- والآن؟

- على الأقل أثق في أن الله سيتولى أمرهما كما توليت أمر

بائعة الملح.

نظر إلى جرارة الماء الكبيرة في شوق، يريد أن يغتسل ويشرب، والماء الآن هو كل غايته وليس له سواه.

نام ليلته، والحديث مع برقوق يستهويه والصداقة بينهما تنمو، وصلى بالسلطان والأمراء الصلوات الخمس يومًا بعد يوم.

وبدا أن الإنقاذ مستحيل، وأن يلبغا ومنطاش قد توغلا في الحكم، ونسيا أمرهما إلى حين. مر شهر ثم شهر آخر بلا خبر ولا كلمة تطمئنه على مصير أحد.

ولكن الطعام كان نظيفًا والمياه وافرة، والقنديل يضيء المكان، والنوافذ ثلاث في حجرة السجن الكبيرة.

وتمنى عمرو أن يموت في سجنه لو كان ولداه قد قُتلا.

الموت يهدِّئ النفس ويزيل الآلام. هما ابتسامتاهما اللتان يتذكرهما، وكلماتهما وهما في سن أصغر وبعض المواقف والأحداث.

عندما سارا معًا على ضفاف النيل، وعندما ضحكا معًا وهما يأكلان الحلوى، هي سعادتهما التي يخاف عليها من أن تتلاشى، ويخشى عليهما من مصير مظلم وعذاب لا قبل لهما به. هي براءتهما التي يتذكرها كالضوء وهي براءتهما التي يتمنى أن تبقى بعض الوقت.

وضيفة.. ترى ماذا سيفعل بها والدها. ما أحقره رجلًا، غلظته تنفر الحمير والبهائم، وطمعه يسيطر على قوص! هل زوجها رغمًا عنها؟ يعرف أنه سيفعل؛ فالكره الكامن بينه وبين والدها لا يعرفه سواه، ويفهم رغبة والدها في كسرها والثورة على قاضي قوص وتحقيق كل ما يغيظه ويؤذيه. هل شك في أنه يريدها لنفسه؟ يتمنى ألا يكون قد فعل، فلو فعل سيعلق بها أكثر. تزوجت ضيفة، يعرف، كانت على صواب، ليس للسعادة

أن تنتصر في هذا العالم، وليس للرضا أن يتحقق للبشر على الأرض. كانت تعرف أكثر منه على الرغم من صغر سنها. وعندما وضعت رأسها على صدره كان لابد أن يضمها مرة ربما، يضمها بقوة ويخبرها بأنها غيرت الأزمنة في عقله، ونشرت الضوء حول نفسه، وأن ضحكتها البريئة كانت تزلزل كيانه كما لم يفعل شيئًا من قبل. لم يتكلم ولم يكن يعرف أنها النهاية.

كانت على صواب بائعة الملح، للشوق المستحيل طعم الدم في فمه، وللخوف على ما سيفقده، بل ما فقده، وقع الموت للنفس بلا موت للروح.

كان لابد أن يكون هو من يقبلها ويأخذها بين ذراعيه، ويبقى بين ذراعيها أيامًا؛ حتى يهدأ شوقه ويكف قلبه عن التوق. ولم يحدث، يتذكر ويتذوق طعم دموعها، كانت تعرف وكانت تفهم، وعجز هو عن الفهم والمعرفة. ظن أنه قادر على كل شيء، وأن بيته الكبير سيضم كلَّ من يحب، ولديه وضيفة، وستبقى بائعة الملح تحت حمايته تذكره بقوته وقدرته. نسي ربما أنه يعجز كالبشر عن تحقيق إرادته، وأن البلاء يأتي في صورة الفقد دومًا.

هي عينا عبد الرحمن بن خلدون التي يتذكرها، هذا العمق في الانكسار والغوص في اليأس، هذا الاستسلام للقدر والاستمرار لأن الطرق كلها قد تضاءلت وتلاشت تدريجيًّا، ولم يبقَ سوى طريق فارغ من كل روح وكل نفس. طريق طويل بلا زرع ولا حيوان يقفز في حيوية، ولا طائر يطير في حماسة، ولا حماسة ولا حياة بل رتابة وثبات باهت.

وغيرة تنتشر بين حنايا قلبه من رجل آخر يلمسها ويحتضنها ويجعلها له، وربما تستجيب له مع الوقت وتحبه، من يدري؟ سنها صغيرة ومشاعرها القوية يمكن أن تتغير مع مرور الزمن

وإنجاب الولد تلو الآخر، ستنسى قاضي قوص نسيانًا تامًّا، وتمحو لحظات الراحة والرضا من ذاكرتها، بل ربما تشعر بها من جديد مع زوج وابن.

وسينتهي أمره قريبًا، استعد للموت وتمناه كل يوم أكثر من اليوم الآخر.

وكلما تذكر ولديه ودوى صوتهما في أذنيه دعا واستغفر، وأحيانًا قليلة كان يتذمر ويثور، ثم يهدأ ويستغفر. لم يهتز إيمانه، ولكن اليأس كان يجد مدخلًا دائمًا إلى القلب، ويمتزج بمرارة الهزيمة.

ولكنه أقام الحد على ابن الناس، فعل، وربما كان هذا هو انتصاره الوحيد.

مع مرور الوقت ونمو الصداقة مع برقوق بدأ يعرف شخصيته ويفهمه، ولم يتوقع أنه يحب الضحك ويسخر حتى من نفسه، وأنه متواضع مُحِبٌّ للحياة، بل في هذه الساعات الثقيلة كان صديقه الوحيد.

قال له يومًا: لِمَ كل هذا الحزن؟ من أجل ولديك؟ ماذا عني؟ أنا لا أعرف ما سيحدث لكل أولادي وزوجاتي بل لنفسي، ماذا ستخسر يا قاضي قوص؟ منصب القاضي؟ خسرت أنا كل شيء ولم أكن بحزنك، أمْ أنَّ إيماني أقوى من إيمانك؟ هي امرأة تحبها وتفتقدها يا شيخ؟ أم مجرد ولد تخاف عليه؟ أَمْ الاثنان معًا؟

ابتسم عمرو في أسى ولم يجب.

فقال برقوق: الاثنان معًا، تعرف، لابد أنك تعرف أن لا نجاة لنا من هذا السجن، وأن هذه الرحمة التي نتعامل بها ليست رحمة منطاش ولا يلبغا، بل بعض أمراء الكرك الذين يشفقون علينا، يدهشني عدم مجيء فخر الدين ليقتلع عينيك، متى

يأتي في رأيك؟

لم يجب عمرو، فقال برقوق: ألا تغضب الله مرارتك هذه؟ أليس من المفروض أن تتقبل إرادته بقلب سليم؟

- أتقبل إرادته، ولكن أليس للإنسان أن يحزن؟ والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

- ولو اطمأننت على ولديك يطمئن قلبك، أم أنه حب وشوق إلى امرأة
يا شيخ؟

قال في قوة: يطمئن قلبي، لو عرفت أنهما بخير.

- والمرأة؟

- أيُّ امرأة؟

- لابد أن هناك من تسلبك النوم كل يوم.

بقي ساكنًا يشعر بالخزي من وضوح الشوق في عينيه.

قال برقوق في تهكم مرير: هو العشق والموت لا يفرقان بين شيخ وسلطان وغني وفقير، ليس للمماليك من اختيار، والنساء يا عمرو كالمعارك في حياتنا، نختار ما يحمي ليس ما يرغب فيه القلب.

- لا اختيار عند معظم الناس، هي أقدار مكتوبة كالموت كما قلت.

- زوجاتي لم أختر أيًّا منهن بقلب عاشق بل بقلب جندي، والجواري هدايا يجب فرزها؛ ففيها الخبيث والطيب، وفيها السم في العسل والمدسوس والطامع، لا ولاء لأحد في هذه الأيام. محظوظ القاضي يستطيع أن يعشق ويختار، لم تختر زوجتك الأولى على ما أعتقد، أهي جارية أفقدتك عقلك أم جنية من الصحراء سقتك ماء عذبًا وعجزتَ أن تحيا بدونه؟

قال عمرو في صرامة: ليس للقاضي أن يفكر كالصبيان.

ضحك برقوق وقال: في لحظات العشق لا فرق بين القاضي والسلطان، كلهم صبيان، هو داء يعبث بالعقول ويلهو بالإرادة. أفتنا يا شيخ، هل هناك عشق يودي بصاحبه إلى مصير غير النار؟

فكر قليلًا ثم قال: في عشق الدنيا غواية، ولكن من حق المرء أن يعشق وينعم بزينة الله على الأرض ما دام قد ابتعد عن المعاصي.

يَئِسَ برقوق من معرفة شيء عن المرأة التي تذهب عقل القاضي فقال: تعرف يا عمرو أن الناصر محمد أيضًا قد سجن في الكرك؟ هذه القلعة لسجن عظماء المماليك فقط.

- ولكن الناصر محمد كان من أولاد الناس، وليس مثلك مقاتلًا ومملوكًا.

- قلت لك كان الاستثناء الذي يثبت القاعدة، لا أحد يختلف على عظمته، ولكن المقاتل هو من يستحق حكم مصر؛ فهي مشكاة البلاد، يستعصي السيطرة عليها من ابن الناس، وتستحق من يكف عنها الأذى في الداخل والخارج. المماليك يا عمرو ليسوا أحرارًا في قراراتهم، في البدء ملك لأستاذ ثم ملك لحكم وبلد، ومع ذلك فلا يوجد مقاتل كالمملوك، ولا مؤمن كالمملوك، ولا مساجد ومدارس تنير القاهرة كمدارسهم، أتعرف لماذا؟ لأنهم لا يورثون ثرواتهم لابن وابن أخ، بل يأتون لعالمنا بهدف الدفاع عن البلاد والدين فقط. أقولها لك من جديد، لن يبقى على عرش مصر سنوات سوى المقاتل، أما ابن الناس فلا يعرفها ولا يفهمها، هي أرض تحتاج إلى القوي لحرثها. اصدقني القول يا عمرو، أهي الأقدار التي تعطينا الملك ثم تأخذه مرة أخرى كالكرة في يد الطفل أم أفعالنا؟

- بل أمراء المماليك.

قال برقوق في حماس: لو أعطيتنا اليوم نصيحة واحدة فماذا تكون؟ لابد أن تكون في جملة واحدة.

- كف الأذى عن النفس التي كرَّمها الله.

- وكيف هذا؟ أليس هذا ما حاولت فعله؟

- كف الأذى عن الآخرَين أسهل من كف الأذى عن النفس يا مولاي.

- تقصد نفسي؟

- ونفسي وكل أنفسنا.

- اشرح لي.

- الشرح يفقد الحقائق روعتها وبريقها، وكأنك ترمي بسيفك الذهبي في الزئبق فيتغير لونه.

- لك فصاحة تعجبني. اصدقنا القول، ما عيوب السلاطين؟

- حب المال.

- وعيوب العلماء؟

- حب المال.

- وعيوب العامة؟

- حب المال.

- وماذا عن الغرور والطمع والظلم؟

- تأتي بحب المال، قال تعالى «وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا».

- ولو كنتَ سلطانًا لمصر ماذا ستفعل لتحبك الرعية؟

- لن أفعل شيئًا لتحبني الرعية، سأفعل ما يجعل خالق الرعية يحبني؟

- ماذا ستفعل؟

- العدل، العدل يا مولاي لن يجعل الرعية تحبك بالضرورة،

ولكنه يضمن القوة والبأس، فلا سلطانَ عادلًا يخشى شيئًا.
- وكم من سلطان عادل قُتِلَ وذُبِحَ!
- القتل لا يخيف المماليك يا مولاي، هكذا قلت لي.
قال برقوق في إعجاب: معك حق، والآن جاء دورك لتسأل.
أطرق برهة ثم قال: مولاي السلطان..
- قل برقوق حتى لا تدخل الأسى في قلبي.
- برقوق.. لو كان فخر الدين من الشراكسة وليس من الأتراك، أكنت ستوافق على إقامة الحد على ابنه؟
بقي برقوق ساكنًا ثم ابتسم وقال: «لو» من عمل الشيطان يا عمرو، الأقدار ترؤف بنا دومًا.
ابتسم عمرو وردَّد: ترؤف بنا دومًا!
ثم قال برقوق: والآن اسمح لي أن أسألك أنا. مَنْ تشتاق إليها؟ أهي زوجتك؟
قال في عدم ارتياح: ماتت زوجتي منذ عامين.
- ولم تتزوج بعد؟
- ألهتني أمور الناس وطلب العلم.
- للإتقان في العمل ثمن يدفعه العاشق، من يتقن في طلب العلم يتقن في العشق.
- وللسلطان حكمة غير مسبوقة.
- تعلمنا على يد الفقهاء يا عمرو، أنت لست العالم الوحيد في هذه الحجرة. والآن اصدقني القول، أليست حياة العلم أكثر أَمْنًا من حياة المماليك؟ المماليك أعمارهم قصيرة، والقتال مكتوب عليهم لا محالة.
- بل العالِم عمره قصير، والقتال مكتوب عليه لا محالة.
- كيف هذا؟

- أليس اعتماده على المماليك؟ وإذا كان المماليك يهوون القتال والعالِم يحيا حولهم، فالقتال مصيره بلا شك. كم من قاضٍ قتل وآخر سجن والمسالم منهم التزم بيته.

- إذا كنت تعرف هذا، فلِمَ وافقت على أن تكون قاضي قوص؟

- قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا).

- أتمنى ألا تقصد أمانة الحكم أيضًا.

- الحكم أمانة، القضاء أمانة.

- لابد أن أشكر أمراء الكرك؛ لأنهم زَجُّوا بك إلى هذا السجن، الجلوس مع أمراء المماليك ممل، وكلامهم أعرفه، وكأنك تأكل نفس الطعام كل يوم، أتعرف ماذا أريد يا عمرو؟

- ماذا تريد يا مولاي؟

- أستنشق في أنفي رائحة رمان بالزيت والسكر.

ابتسم عمرو قائلًا: هذا مستحيل هنا.

- لا يوجد مستحيل ما دمت أنت مسجونًا مع برقوق، تتصور أن سلطان مصر الآن لا يستطيع الحصول على طبق رمان! لابد له من أن يتحايل ويفكر في خطة.

ثم نظر إلى القنديل وقال للأمراء: نأخذ من زيت القنديل كل يوم قطرات.

توالت الأيام وهم يجمعون الزيت من القنديل، ثم نادى برقوق على الحارس وقال في رفق: أخبرني كيف حال بلاد المسلمين؟

نظر إليه الحارس في دهشة ثم قال: بخير ما دام السلطان الشرعي يحكم.

- ولكنه لا يحكم.

نظر إليه الحارس ثم أدار وجهه، وقال: ليس مسموحًا لي بالكلام معكما.

فقال عمرو في عدم صبر: كم سنبقى هنا؟

- إلى الأبد ربما، أو حتى يبت في أمركما الأمراء.

فقال برقوق في رفق: لو أتيت لنا برمانة واحدة وبعض السكر، فلك ولاية القاهرة لو عدتُ سلطانًا للبلاد.

ضحك الحارس ثم قال: ولكنك لن تعود.

- وإذا لم أعد سلطانًا فسيدعو لك هذا الشيخ، هو عالم جليل. صَلِّ معنا اليوم لتسمع صوته الجميل في قراءة القرآن.

تردد الحارس قليلًا ثم قال: ربما.

- ربما تصلي أم ربما تأتي بالرمان؟

- ربما أصلي معكما.

انقض الأمراء على الحارس في حماس من يرى ماردًا من عالم آخر، بدءوا يسألونه ويرجونه ويعرضون عليه الرشاوي والأراضي وهو يشعر بالضيق تارة وبالزهو تارة.

قال له السلطان بعد برهة: ما اسمك؟

- طنطغا.

- اسم جميل شركسي.

التقت أعينهما ثم قال: ربما ولاية القاهرة كبيرة بعض الشيء، ما رأيك في خمسة آلاف دينار لو أتيت لنا برمانة واحدة؟

- وكيف سأحصل على هذه الأموال؟

-سأدلك على من يعطيها لك.

أطرق الحارس برهة ثم ذهب، وعاد بعد يوم ومعه رمانة وبعض السكر، أخذها برقوق منه وبدأ يفرطها في حماس،

ووضعها على زيت ومزجها به، وقال: أيها الرفاق، في هذه الأيام السوداء لابد أن تأكلوا كل حبة وحدها وببطء، فلن يحدث كثيرًا أن أشتري لكما رمانة واحدة بهذا السعر، تعرف الآن لماذا يحب الملوك المال يا عمرو؟ حتى يشتروا به حبة رمان واحدة تعطي طعمًا لحياتهم.

بدءوا في أكل الرمان في حماس، ونظر برقوق إلى عمرو وقال: لا تستمتع به لأنك مشغول بولديك، مع أنها أيام نقضيها في مغامرات تنتهي سريعًا، ويذهب كل إلى طريقه، لو ماتوا ستقابلهم قريبًا، ولو عاشوا فويل لهم.

قال في سرعة: أخاف من حياتهم تحت وطأة التعذيب.

- لو تعذبوا فلا بد أنهم ماتوا الآن.

بقي صامتًا وتوقف عن الأكل، فقال برقوق في رفق: عمرو.. ظننتك تترك حِملك على الله.

- هو ابتلاء لا طاقة لي به.

- كنت تعرف، واخترت العدل.

- كنت أعرف.

- لو كانوا مع قاضي القضاة فلا بد أنه استطاع حمايتهم؛ فهما حفيداه، فكر في أمر سجنك هنا الذي سيطول ربما لبقية عمرك.

ردد: ربما لبقية عمري.

* * *

نشوة الاحتفالات هدأت، وبدأت معاناة المكوس وبطش الأمراء، وفي هذه المرة لم تتوقف حروب القاهرة، وأصبح مسجد السلطان حسن قبلة المحاربين وغاية المغامرين والمأجورين، وأصبحت الدماء تتدفق بين أركانه لأموات لا يحصون عددًا، وأحياء مبتورين، وأسهم تصيب العدو والصديق.

استمر المصريون في عملهم اليومي. تمتم بعض الناس بأنهم ربما تسرعوا في الحكم على قاضي قوص! وربما كان جمق يستحق الموت، من يدري؟ تختلط الحقائق وتتمدد لتصل إلى أعماق الأرض، فيصعب فهمها. وما الغبار على أن يعين السلطان برقوق أهله وقبيلته؟ لو أتى بكل الشراكسة ما المشكلة؟ وكأن السلطان السجين كان يفعل هذا ليكف عن المصريين أذى القتال والصراعات بين الأمراء، يعين من يثق بهم، بعضهم يسرق، وماذا في ذلك؟ بعض الأمراء يظلم وبعضهم الآخر يعدل، أليسوا بشرًا؟ وما بال أهل مصر بالشراكسة والأتراك؟ كلهم مماليك، لو سكنوا في الروضة أو في البرج فسيبقون مماليك، ولكن لا بد لحروب القاهرة أن تتوقف قبل أن ينتهي العمر. حتى يلبغا ومنطاش بدا للجميع أنهما يتعاونان فقط على الإثم والعدوان وليس على البر والتقوى، فما إن انتهيا من برقوق حتى بدأت حربهما معًا، ومَوّلا حروبهما بأموال أهل مصر والشام.

تصادق برقوق مع الحرس، ووعدهم بالعتاد والفضة والذهب، وطلب منهم أخبار الأمراء والحروب، وبدا سعيدًا وكله أمل في الأيام القليلة الماضية، بل بعد بضعة أيام. جاءه أحد الأمراء الموالين له، وبدآ في وضع خطة لاستعادة القاهرة في صوت خافت ويائس، وفي خوف من غدر يطيح برقابهم كلهم.

لم يكن عمرو يبالي بكل هذا، طلب من الحرس بعض الكتب وبدأ القراءة وشرح الآيات للأمراء والسلطان، ومرت أيامه في فتور بلا أمل ولا يأس.

حتى طرق الباب أحد الأمراء ليلًا، وطلب من برقوق أن يخرج هو والأمراء، فالتفت برقوق لعمرو وهمس للأمير: وعمرو؟

- ليس من المماليك وليس لي إذن بإخراجه، هي صفقة

عقدتها مع الحراس في إخراج المماليك فقط. اعذرني مولاي، ربما بعد وقت تستطيع أنت إنقاذه.

التقت عينا برقوق بعيني عمرو، ثم قال وهو يربت على يده: سآتي لإنقاذك، لا تقلق!

هزَّ عمرو رأسه ولم يكن يهتم كثيرًا بهذا، كان يتمنى فقط الاطمئنان على ولديه ثم يموت بعدها أو تقطع أطرافه، لا يبالي.

بعد تسلل برقوق والأمراء خارج السجن جاء الحرس صباحًا ولم يجدوا سوى عمرو، تهامسوا ثم قالوا: هذا كان سجنًا للأمراء وكنت شيخهم، وبما أن الأمراء ليسوا هنا فلا بد أن تذهب إلى سجن العامة.

دفع به الحراس في ازدراء إلى داخل غيابات السجن المظلم والرائحة العفنة تخنقه، فيكاد يغشى عليه، وألقوا به في الغرفة المظلمة داخل أعماق الأرض، فظن أنه مات أو شُبِّه له.

* * *

وحشة الوحدة كانت مختلفة، وبدأ يردد في ذهنه آيات الله طوال الوقت ويتذكر طفولته وصباه وولديه وحبيبته، وخاف أن يفقد عقله بعد عام أو اثنين. كان السجن مظلمًا في البداية بلا ماء نظيف ولا طعام، وكان هدف السجَّان تحطيم كبريائه ربما وكسر زهوه. وكان عقله شاردًا في صوت ولديه وتذكر تفاصيل صغيرة عن كل منهما. أحمد كان قليل الكلام، يشبهه في جديته وحبه للعمل، وحسين كانت روحه بريئة، يعشق الكرة واللعب ويضحك ويتكلم طوال الوقت، ويوم موت والدتهما لم يبكيا. بقيا صامتين خشية سخرية الحضور من بكاء الولد. وما إن خرج المعزون حتى جلسا على الأرض وبكيا معًا في صمت. لم يكن من عادته أن يحتضنهما، وكان يريد أن يربيهما كما تربى

في صرامة وقوة، ولكن في ذلك اليوم جلس بجانبهما واحتضنهما بذراعيه في صمت، فلا كلام يقلل الفقد، ولا صرامة تخفف وطأة الانكسار. أحاطهما بذراعيه فازداد بكاؤهما واتضح، وبدءا يبكيان بصوت عالٍ والخوف يهز قلبيهما. يتذكر، ضمهما أكثر وربت على كتفيهما، وقال في صرامة: احزنا، لا بأس على هذا، ولكنني لا أريد الخوف في صوتكما أبدًا، ولا أريد أن أستشعره في أي شيء، لا انكسار في نظرتكما ما دمت حيًّا.

هزَّا رأسيهما، وبعد وقت طويل توقفا عن البكاء. ناما كلاهما في البهو الكبير معًا على الأرض في تلك الليلة، وقضيا الأسبوع كله حول والدهما. يتذكر، ترى هل بكيا أمس أو اليوم؟ أبكيا على فقد الأب أم على انكسار الروح؟

لا يدري لو كانت ذكراهما ستذهب بعقله بسرعة أم لا، ولكنها تذيب النفس على كل حال.

ستمر السنون في الظلمات ليعرف حجمه وخطأه، أهو الزهو أم العدل الذي سيذله؟ العدل ينقذ دومًا. ولا مفر منه، فالعدل من صفات الله وإلى وجه الله.

كان يردد آيات بعينها، ويتمنى أن تنقذه من ضلال النفس قبل أي ضلال، «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

كان يرددها بصوت مسموع كل يوم مرات عديدة.

أصبح انتظار السجان هدفًا كانتظار النجاة من النار، يستمع إلى خطواته مرة كل يوم، ويقترب بقنديل ضعيف لا يشبع ولا يسقي من ظمأ، ولكن عقله يمتص الضوء الخافت في شراهة ويحاول الثبات، مرة كل يوم يأتي بالماء والطعام وبصيص الضوء.

ردد أشعار الشافعي:

دع الأيام تغدر كل حين فما يغني عن الموت الدواءُ

الكلمات توقظ العقل وتمنعه من الضلال، وحاول أن يمتص بعقله كل أشكال البيوت وألوان السماء والأرض، أحيانًا كان يطغى الأسود والأبيض على كل الألوان الأخرى، وهذا كان يحزنه كالموت والدمار، فيعاود المحاولة والتذكر والحكي والشعر والقرآن. هي ضيفة التي تملك كل الألوان، قابلته في الصحراء الصفراء برداء مزركش بالأزرق والأخضر الإستبرق، تمايلت بجسدها كالنار والجان مجتمعين، أرهبت الضباع، وقضت على أطماع ثعابين الصحراء، ألوانها زاهية، كلما تذكرها تلاشى سواد السجن وبياض الموت، وسطعت الحياة وانتعشت أطرافه، هي الدنيا، ولكنه لم يعد يبغي سوى الآخرة، فما يغني عن الموت الدواء.

دع الأيام تغدر إلى حين..

كان في التاسعة عندما أكمل حفظ القرآن، ورمق مدرسه بعين واثقة وهو يهمس لأبيه بأنه الآن حافظ لكتاب الله. عندما خرج المدرس جلس عمرو أمام أحمد في زهو، فقال الأب في صرامة: أحسنت صنعًا يا عمرو.

قال عمرو في حماس: وكيف ستكافئني يا أبي؟

نظر إليه الأب في دهشة ثم قال: ولِمَ أكافئك؟

قال عمرو بلا تفكير: لأنني أصغر مَنْ حفظ الكتابَ كله في كل عائلتي.

صمت الأب برهة ثم قال: الإمام الشافعي حفظه وهو في السابعة، ولم يطلب أجرًا إلا من الله. أحفظتَه من أجل زهو الدنيا يا عمرو أم من أجل الله؟ تريد أن تصبح شيخًا كجدك وأبيك أم دجالًا وباحثًا عن الشهرة؟

قال عمرو مسرعًا: أريد أن أصبح شيخًا.

قال الأب في نبرة قاسية: خذلتني اليوم، وأغضبتني، أنت

أكبر أبنائي، وأتمنى أن تفهم وتعرف، ولكنك لم تفهم ولم تعرف.

ترقرقت الدموع في عين عمرو، وقبل أن ينطق قام الأب وخرج من الحجرة في غضب. كان صارمًا ولم يشجعه يومًا، ولم يطرِ عليه قط، ولكنه كان عادلًا قوامًا، أما في ذلك اليوم فكلماته ذبحت الطفل لأيام.

صلى عمرو يومها وسجد ثم ركع ثم سجد، ثم تضرع إلى الله قائلًا: أنت تعرف، لم أفعل هذا من أجل أجر، أنت أرحم من أبي، ظلمني أبي اليوم، تعرف أنني أحبك أنت، أحيانًا يظلمني... هل تعرف؟ تسمعني؟

ثم نام يومها مكلومًا، وفي الصباح دخلت عليه أمه، وأعطته بعض الحلوى وقالت: ما بك يا عمرو؟ ألم تأكل أمس؟ أنت بخير؟

هزَّ رأسه وقال: إنه لا يريد الحلوى، ثم تردد قليلًا، وحكى لها ما كان. استمعت في تعاطف ثم قالت: وتكلمت مع الله أمس.

قال في تأكيد: فعلت، هو يعرف.

ربتت على ظهره وقالت: للشيوخ آداب ونظام صارم، أنت أذكى الأولاد وأفضلهم، ووالدك يخاف أن يتسلل الكِبْر إلى قلبك.

ردد وكأن اليوم هو اليوم والساعة هي الساعة، «هو يعرف».

تاهت الشهور وفقد عدد الأيام بعد برهة، ولم يزل يردد الآيات بلا دموع ولا مرارة الآن، بل باستسلام وزهد ويقين بأن لا مفر من النهاية، وتوسل أن تأتي سريعًا، وألا يفقد ما تبقى من العقل في تلك الأثناء.

فكر في جَدِّه الذي لم يقابله قط، ولكنه يتصوره في خياله، طويلًا مهابًا بلحية بيضاء كثيفة وجلباب أبيض، بصدر منشرح

وقلب طيب وعباءة كلها عطاء وزهد، جَدُّه عبد الكريم كان يعرف أن العمر ذاهب لا محالة، واللهفة تعمي البصيرة والشوق إلى الفناء من سمة البشر، والرضا من سمات الجنة والخلود، كان يعرف. ترى هل فقد عقله أم مات سعيدًا هادئًا واثقًا بالخلود؟ ترك الدنيا وآثر الآخرة، بحث عمَّا سيبقى وسط ما سيفنى، فنَّد الأشياء وغربلها كلها، ولم يجد في شوق الدنيا خيرًا ولا وصولًا. آثر الخلود واجتهد ليصل إلى المعرفة. أين هو من جده؟ لم يزل يتوق إلى امرأة ويحلم بها، ولم يزل يخاف على ولديه والقضاء بيد القادر وحده، ولم يزل يريد منصبه ويريد العودة، ويريد القوة ويريد الانتصار، وي كأنَّ العدل ليس كافيًا، هو بداية الطريق وليس منتهاه.

صلَّى اليوم.. ونسي التشهد، حاول أن يسترجعه ولم يستطع. فزع وثار، لو خانته الذاكرة لانتهى. ترى لو أصيب بالجنون أيدخل الجنة شهيدًا؟ فقد قتل الظلام عقله، ولم يبق سوى جسد هزيل؟ لابد ألا يفقد عقله؛ ليعرف لو كان ميتًا أم لا.

دع الأيام تغدر كل حين... فما يغني عن الموت الدواءُ.

بدأ ينسى ما حفظه ويسترجعه كل يوم، ويتكلم مع نفسه ليسمع صدى صوته، ولكن الذاكرة تخلَّت عنه ككل من حوله.. في بطء بدأت تتخلى عنه. غريب أمر الذاكرة، لا تتبع قوانين ولا تدركها الأبصار. أصبحت صور الأشياء محفورة في الذاكرة، ولكن الكلمات تتلاشى. يتذكر النقش على صفحات القرآن وشكل الحروف، ويحاول تذكر كل الآيات، أحيانًا تتدفق كلها فجأة، وأحيانًا تتراجع وتختبئ. يتذكر البيوت وسوق قوص وولديه، الوجوه والنظرات وليس الكلمات، يتذكر شكل الهزيمة وليس دوي صراخها، ولكن الصور أصبحت مبهمة وبعيدة وقديمة، ولم تزل بلا ألوان.

يومًا يدرك الكون ويومًا ينام ليلة وضحاها، يومًا يغمض عينيه ويومًا يفتحهما.. ولكنه لم يزل يردِّد بعض الآيات، ما يتذكره في يوم أو بعض يوم..

الكلام بصوت عالٍ يشعره بأن هناك رفاقًا معه، ولكنه بدأ يخيفه بعد بضعة أشهر، وبدأ يسمع صدى صوته في الصمت ووسط الساعات التي لا يفرق فيها بين ليل ونهار. خاف أن يفقد عقله، فمنع نفسه من الحكي أو الكلام بصوت مسموع. وبدأ يرى حوله خيالات لأناس يعرفهم، وبعضهم لا يعرفهم. فأغمض عينيه وتذكر يقينه، وطلب المغفرة والعون، والخيال يغيب ويظهر، يتأخر ثم يعود. حاول أن يسيطر على أحلامه وعلى الصور التي يستحضرها، صور الموتى تزيد الحيرة والعبث، وصور الأحياء الذين طال بعدهم تثير الجنون، وصور الظالمين تجعل العيش واجبًا.

لو قسَّم يومه من جديد، لو قرر أين يبدأ الليل وأين ينتهي، سيتحمل إلى حين. كل يوم يبدأ من جديد، وكلما دخل عليه الحارس بالطعام يحاول امتصاص الضوء الضعيف ويتشبث بالساعات، ويتمنى مرورها أو فناءه.

بعد عام ربما، دخل عليه الحارس بقنديل فأغمض عينيه وفتحهما في بطء حتى لا يفقد بصره، بعد برهة رأى نور القنديل بوضوح للمرة الأولى، ثم قال الحارس في رفق: تعالَ معي.

كان يعرف أنها النهاية، والموعد وكان ينتظره. قال في ثبات: متى ستقطع رأسي.

- ليس اليوم، غدًا ربما، اليوم ستذهب إلى حجرة أكثر ضوءًا وتستحم وتأكل وتنام، وغدًا نهايتك لا محالة.

هزَّ رأسه واتجه إلى الحجرة وضوء الشمس أصبح كالمرأة التي يشتاق إليها ولا يستطيع الوصول إليها. وجوده جمال

وفرحة، واستحم وأكل وجلس على الفراش النظيف، وجاء الليل وانتظر الغد في شوق للحرية والنهاية، وأغمض عينيه.

* * *

كانت معه في حُلمه، لا يدري لماذا ضيفة، توقف عن التفكير فيها بضعة أيام، وسيطر عليه ولداه، واليوم يتذكرها ويشم رائحتها وكأنها معه. هل هي معه؟ فتح عينيه، وكانت معه.

أغمضهما وفتحهما من جديد، فقد عقله إذن. يرى خيالًا وكأنه حقيقة، ويغوص في الأحلام وكأنها يقين، ضرب بيده مخدعه؛ ليتأكد من أنه مستيقظ، وبقي صامتًا.

همستْ: حبيبي!

فقال في قوة: أنت حلم، أليس كذلك؟

أمسكت بيده وضغطت عليها وقالت: بل كل الحقيقة!

أغمض عينيه وفتحهما من جديد؛ حتى يتأكد مما يرى ثم قال: كيف؟

همستْ في صوت لاهث ممتلئ بالشوق: لن تموت، لا يمكن أن تموت.

اعتدل في جلسته، ونظر إلى شعرها الكثيف حول وجهها وعباءتها الفضفاضة، ثم قال: كيف أتيت إلى هنا؟

مدَّت يدها بسكين وسيف وقالت: اقتل الحارس واهرب من هنا!

قال في إصرار: كيف دخلتِ إلى هنا؟

- دفعتُ لأحد الحراس، أخبرته بأنني زوجتك، وأريد أن أراك مرة أخيرة قبل قتلك، سيقتلونك غدًا لو لم تهرب، لابد أن تهرب اليوم.

دفعت بالسيف أمامه وقالت: اقتل من يتعرض لك، هي حياتك

وحياتي ما تدافع عنه.
قال بلا تفكير: ولداي!
قالت مسرعة: بخير.
- كيف عرفتِ؟
نظرت حولها ثم قامت وأغلقت الباب باستحكام بمفتاح معها وجلست من جديد وقالت: تصدقني؟
- لا أدري لو كنت حقيقة أم أن عقلي تخلَّى عني.
أمسكت بيده ووضعتها على قلبها وضغطت عليها وقالت: تصدقني الآن؟
بقي صامتًا يشعر بدقات قلبها
قال في عبوس: لماذا جئتِ؟
قبلت يده وقالت: تعرف لماذا؟ تشعر بي وتعرف.
شعر بجسده ينتفض شوقًا إليها، فأغمض عينيه، لعله هذيان الموت، فتحهما من جديد.
اتجهت بيده إلى صدرها مرة أخرى، فنزع يده في بطء من على صدرها وقال: أيُّ جنون هذا وأيُّ خطيئة؟
قالت في إصرار: لو كانت آخر ليلة لك على هذه الأرض، فأريدك أن تموت بين ذراعي، ولو كان بإمكاني إنقاذك فلا شيء يساوي عمرك، هو جنون.. نعم.
نظر إلى شفتيها ثم قال: ماذا تتوقعين وماذا تريدين؟
- تنقذ نفسك، تعدني بهذا، وأضمك مرة ربما، وأرحل وكلي أمل في لقاء قريب، وشوقي ينخر في صدري.
قال في قوة وهو ينتفض: وكأنك كل الغواية والهوى، فلا خوف يقدر عليَّ ولا مال يشتريني، ولكنك أنت.. شيطان أتى ليقبض روحي أم ملاك لينقذني؟ لا أدري.

رفعت يدها ووضعتها على كتفه، وقالت: ولا أنا أدري، ستقتل من يعترض طريقك وتعيش من أجلي.

ابتسم وهو يضع يده على يدها: اذهبي إلى حال سبيلك وتزوجي وأنجبي الأطفال، ولا تجعلي شوق الصبايا وأحلام الفتيات تؤثر عليك.

دفعت برأسها إلى صدره وقالت في ألم: أحبك!

طوق كتفها وحك خده بشعرها ثم قال: هي أقدار مكتوبة ليست بأيدينا. عودي واستمري؛ فالحياة قصيرة مهما طالت، والشوق مكتوب علينا مهما حاولنا إخماده بالتراب والماء.

ازدادت قبضته على كتفها وشعر بشفتيها تقبل خده فهمس: ارحلي يا ضيفة، لو كنت تحبينني حقًّا ارحلي.

ابتعدت عنه بعض الشيء ثم قالت: لا زوج لي غيرك.

- هي لحظات السراب والطمس ما تخيفني، لا تبيعي كل عمرك من أجل لحظات.

قالت في إصرار وهي تنظر إليه: ولو أعطيتك نفسي الآن ستتخلى عني؟ أبي سيرجمني لو فعلت، لابد أن تعيش وتنقذني.

قال في غضب وهو ينتفض من مخدعه: أيُّ شيطان سيطر عليك؟! لا تقول هذا سوى غانية، هيا غطي وجهك واخرجي من هنا.

بلعت ريقها ثم أمسكت بخمارها وهمَّت بأن تضعه، ولكنها رفعته ورفعت رداءها بيد مرتجفة، وكانت ترتدي تحته ثوبًا أحمر مطرزًا بالفضة يظهر ذراعيها ومعظم صدرها وفخذيها ولا يخفي سوى القليل، يغوي الأرض القفراء والصخور المتشققة. طال الظلام حوله، ولم يعد للطرق خطوط واضحة، بل بدت هي كل العمر الباقي.

وشعر من جديد بأنه لابد أن يكون قد فقد الوعي وأصبح يهذي ويتصور أن شيطانًا يريد السيطرة عليه في لحظاته الأخيرة على هذه الأرض. كيف له أن يزني بعد هذا العمر وهو على شفا الموت؟ وكيف له أن يتمنى أن يزني؟ هل تمنى؟ هل اشتعل جسده وثار كما لم يثر من قبل؟

انحنى وأمسك بردائها ووضعه على صدرها قائلًا: ما تفعلينه يؤذيك أنت أولًا.

- ليس بيدي، عندما تموت تقتلني معك، ولو أعطيتك نفسي لابد ستأتي لتنقذني، لن تترك أبي يرجمني، ستدافع عن نفسك وتخرج حيًّا.

- منطق مجون وجنون، هي رغبة في نفسك وليست خطة لإنقاذ أحد، تريدينني أن أتبع هوى نفسي وأنا على وشك الموت؟!

- بل أريد أن أحبك مرة واحدة وأموت بعدها.

أمسكت بالرداء الذي وضعه على صدرها وقالت: هذا الثوب الفضي صنعته أمي لي حتى أرتديه يوم زفافي، وكنت أحلم باليوم، ولم أتخيل سوى وجهك أنت. لو مت اليوم فلن يمسسني غيرك.

قال في صوت أراده أن يكون قويًّا: ولو مت اليوم أو غدًا وذبلت أنت وتوارت سنو عمرك؟

- ما بيننا لا يمكن تحطيمه.

- لو كان اليوم آخر أيامي، هل سأنهيه بين ذراعيك؟ كيف تفكرين؟! ارتدي جلبابك وارحلي!

قالت في صوت منكسر: سأرحل إذن.

ثم مدت يدها وهمست: خذني بين ذراعيك مرة واحدة وأخبرني بأنك تريدني، تشتاق إلي.

علت دقات قلبه واختلج جسده وهي تقترب منه في بطء وتلصق صدرها بصدره وتطوق عنقه وتقول في تَرجٍّ: تحبني؟ لو لم تحبني أخبرني الآن، أتوسل إليك.

مر بيده على ظهرها وقبل شعرها وقال: أحبك وأشتاق إليك وأريدك. ارحلي.

اقتربت منه أكثر حتى شعر بها داخل جسده وقبلت وجنته، وأبقت فمها عليها تستنشق رائحته، وتريد أن تمسك بها إلى آخر العمر وقالت: ستقبلني مرة ربما؟

بقي صامتًا لا يقوى على أن يدفع بها ولا أن يمنع شوقه ولا أن يرويه، فقالت وهي تقرب شفتيها من شفتيه: مرة واحدة وسأرحل.

تمتم لنفسه ولها: ضيفة... وما الانتصار في هزيمتي لو كنت تعرفين؟

- لا أريد هزيمتك بل راحة نفسي التائهة.

- ليس بهذا تصلين إلى راحة النفس.

- أنت زوجي وليس لي سواك.

أمسك بوجهها بين راحتيه وقبلها قبلة لاهثة تمناها منذ زمن وقاومها طوال الشهور الماضية ولم يعد يستطيع، لا يتذكر متى انتهت القبلة ولا كيف تشبث بجسدها وكأنها الحياة التي تتسرب من بين ذراعيه. ما أراد شيئًا هكذا قط ولا ترك العنان لشوقه كما فعل معها، اعتصرها بين ذراعيه وكأنه يريد أن يفنيها بداخله فتنصهر وتبقى ملتصقة بصدره إلى الممات. خرجت أنفاسها متقطعة وظن أنه غرق وفني وذاب داخل المحيط العميق.

وعندما شعرت به بداخلها ضغطت على عينيها في قوة لتسيطر على ألمها، وعضت على شفتيها وهي تعرف وتفهم

حجم ما أعطت وما وهبت، شهقت من وهل الإدراك والتقت أعينهما ورأت العذاب راسخًا بمقلتيه وهو يهمس في أسى: ضيفة!

ضغطت على ظهره ودموعها تترقرق في عينيها وقالت: حبيبي، وليس لي سواك.

* * *

ابتعدت عنه بعض الشيء، ثم أدارت وجهها وضمت جسدها واحتضنت نفسها، وكأنها لا تدري هل سيقتلها للتو لغوايتها وانتصارها.. هل سيشفق عليها ويعرف أهدافها وتضحيتها.

بقي متجمدًا مكانه يحاول استيعاب ما حدث وما فعل، ثم أمسك بذراعها ودفع بها إلى صدره.

أبقت رأسها على صدره بلا كلمة وطوقت كتفه العارية في قوة، نظرت إلى عينيه برهة، ورأت العذاب مستقرًّا الآن، فهمست في صوت باكٍ: سامحني، كنت أحارب من أجل حياتك، ستقتل الحرس وتهرب، عدني، أقسم لك إنني لم أكن لأفعل هذا لو لم أكن أحارب من أجل حياتك.

لم يجب. قبلت رقبته وقالت: لا أتحمل عذابك ولا أريده، كان لابد أن أشعر بك قطعة مني بداخلي وحولي، فلو مت لن ألمسك مرة أخرى.

لم يجب.

قالت وهي تقبل شفتيه: أحبك، سامحني، أرجوك أن تسامحني.

أمسك بوجهها وقال: هي نفسي التي لا أستطيع أن أسامح، وليس أنت، أنت أجمل ما رأيت، أنت الحياة، لو كان للإنسان أن يحارب من أجل العيش، سامحيني أنت فلم أصُنْكِ ولم أقكِ شر نفسي.

نظرت لدمها على الملاءة ثم قالت: لا تتركهم يقتلونني، لابد أن تعيش لتنقذني، سيعرفون ويعذبونني ويقتلونني، عدني أن تعود حيًّا بسرعة.

قال بلا تفكير وهو يضمها: أعدك.

بدت الحيرة على وجهها، التفتت حولها وهي تحاول إدراك ما قامت به وفهم حجم تضحيتها وفنائها.

قامت وهي تغطي جسدها بيدها وقالت في خجل: لا تسئ الظن بي. أقسم لك ما تصورت أن أفعل هذا قط، هو خوفي عليك وعشق لا أعرف كيف شلَّ العقل وأرضخ الجسد، تعرف أنني لست بغانية، أرجوك أن تعرف.

هزَّ رأسه بالإيجاب، وعقله شارد بعيدًا، وصلاة الفجر تقترب وهو لا يدري أيغتسل ويصلي أم يؤجل المواجهة؛ حتى يمرَّ زمن على خطيئته أو ربما يرتكب غيرها، لا يدري!

ارتدت ملابسها بيد مرتجفة وجسدها ينبض بلمساته وشوقه ولهفته عليها، وبقي هو مكانه ينظر إليها ثواني لعل الحلم يتلاشى والعمر يفنى، قال وهو يقوم: كيف أتيت وكيف دخلت وكيف ستعودين إلى مصر؟

قالت في تأكيد: لا وقت لكل هذا الآن، لا تقلق علي.

أمسكت يده وقالت: اهرب اليوم، الآن، بعد رحيلي مباشرة، الحرس الذي أدخلني عليك يظن أنني زوجتك وأريد أن أقضي معك ساعات قبل موتك، ولكنه سيتركك تعبر للأسوار، لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا.

نظرت إلى السيف والسكين وهمست في ترجّ: سيزوجونني رغمًا عني، وسأموت أو أهرب أو يقتلني لو لم تأتِ.

قال في صرامة: سآتي.

ضمته في قوة وقالت: لا تمت! ولا تنسني! هذا سيغضب الله

أكثر مما فعلت الآن، أيُّ ظلم أن تخونني؟

ضغط على خصرها وقال: لن أخونك.

نظرت إلى دمائها على الملاءة البيضاء ثم قالت في خوف: خذ معك الملاءة، لا تتركها هنا.

ثم فتحت الباب واختفت.

رحلت في ثوان وتركته في حيرة لم يشعر بها من قبل، وفي انهزام لم يذق طعمه قط، هي ساعة ربما أمضتها معه، ربما. نظر إلى الملاءة وهو لم يزل يشعر بجسدها حوله وبداخله، جسد غض رقيق يذهب العقول.

التفت حوله، أمسك بالسكين والسيف خبأهما وسط ملابسه، ثم لملم الملاءة وخبَّأها داخل ملابسه.

وفتح الباب، فأشار إليه الحارس وقال: لو خرجت من القلعة تجد فرسًا في انتظارك أمام السور الأيمن. لو خرجت... ليس بيدي أكثر من هذا.

ما حدث أو لم يحدث بعد ذلك مرَّ سريعًا. كان يجري وأيقظ الحارس الذي جرى وراءه بالسيف فطعنه عمرو بالسكين، واستمر في الجري حتى خرج من باب القلعة، ووجد الفرس فامتطاه، واختفى عن الأنظار.

الباب الثالث
البحث

«للاجتهاد في البحث عن الحقيقة ثمن يدفعه العاشق. من يتقن في طلب العلم يتقن في العشق. ومن يفن باحثًا عن العدل يفن باحثًا عن امرأة لا تنتمي لهذه الأرض، ولا تتبع أي قواعد».

السلطان برقوق

الفصل الخامس

بعد أن جرى بفرسه نصف يوم توقف ليشرب بعض الماء عند خيمة يتجمع حولها رجال حولهم أغنام. قال في صوت متعب: هل لي بعض الماء؟

أعطوه الماء، وجلس يحتسي اللبن، وشعر بردائه خفيفًا، وكانت الملاءة قد سقطت منه أثناء الطريق، أسقطت منه أثناء الطريق أم لم يكن لها وجود؟

لم يزل يشعر بها حوله برقتها وغوايتها، كانت مختلفة، كانت كالجان والنار وسيوف المقاتلين.

كانت معه أو شُبّه له، ضل الطريق أم نجا؟ لم يتأكد.

أهو مجنون تتنافس الجن على عقله أم زان تأبى الملائكة النظر إليه؟ لا يعرف.

أهي الحقيقة أم شبه الحقيقة؟ لا يدري.

أيُّ المصيرين أخف؟ لم يبحث الأمر بعد.

أمسك برأسه، أخذ يتحسس جلبابه، فوجد بعض النقود، من أين جاءت؟ لا يتذكر. كم لبث في سجنه؟ عامين؟ ربما، كان منعّمًا عامًا في سجن الأمراء وعامًا في سجن العامة، عامه الأخير كان قبرًا وجحيمًا ربما، وأعطاه الوقت ليفكر كثيرًا، وينتظر الفرج على هيئة موت ساعات وعتق أحيانًا قليلة. لم يفقد إيمانه لحظة، ولم يندم على العدل ولو طرفة عين. ولكن خياله

الخصب يعبث بمصيره ويعطيه أملًا في أن العمر سيعتدل. ولم لا؟ يعود إلى مصر ويجد ولديه ثم يتزوج حبيبته. لا بد أن يتزوجها سريعًا؛ حتى ينسى الخطيئة أو الظلال التي مَرَّ بها. كان كرؤية الهلال ظهر لبعض الناس واختفى لآخَرين، كان كالطمس والمجون، بألوان باهتة وروعة الحياة والرمان الأحمر الطازج يأكله السجين بعد عام من أكل الخبز الجاف.

ضيفة، تطل من قلبه كل حين، وتسيطر على الظلام من حوله، سيجدها.

ثم سأل الرجل عن الطريق إلى مصر وعن السلطان، فقال الرجل: إن السلطان واجه يلبغا ومنطاش مرة أخرى، عاود الكرة وانتصر بعد أن تجرع أهل مصر والشام الأمرين على يد منطاش ويلبغا، وفي هذه المرة أيضًا أغلق سكان القاهرة نوافذهم، وانتظروا نهاية حرب القاهرة، كانت حربًا ضارية، وكل مصر تعرف قسوة منطاش وعناد يلبغا، ولكن برقوق استطاع الانتصار هو وأعوانه واستقر في مصر، وكان رحيمًا بالسلطان الصغير الحاجي، فلم يقتله، بل حدد إقامته فقط، وعاد برقوق سلطانًا لبلاد المسلمين من جديد.

لم يدرِ إلى أين سيذهب وما هي جهته؟ هل سيذهب إلى السلطان مباشرة يطلب عونه في البحث عن ولديه والزواج بحبيبته؟ هل سيستقبله السلطان؟ ومن هو الآن؟ لاجئ؟ سجين هارب؟ ما يحدث داخل جدران السجون لا بد للسلطان أن ينساه نسيانًا تامًّا. ثم لماذا سيسمح له الحاجب بالدخول على السلطان؟ عندما كان قاضيًا لقوص كان من الجائز مقابلة السلطان بصعوبة، ولكنه الآن بلا منصب ولا عمل.

كيف جاءت إليه ضيفة؟ وكيف عرفت مكانه؟ هذا مستحيل، وأين الملاءة لتثبت صحة عقله؟ أيُّ شيء يثبت صحة عقله؟

هي من ستثبت صحة عقله، هي فقط. ولو لم يبادلها الحب فلا بد أنه لم يقتل الحارس، وكيف خرج؟ ربما فتح الحارس بابه بأوامر من السلطان. ألم يعده السلطان بأنه سينقذه؟ لم يقتل ولم يبادلها الحب. لا آثار لدم الحارس ولا آثار لدمها هي ولا دماء حوله.

لا يدري أشوقه إليها فقط هو ما يدفعه للبحث عنها الآن أم الرغبة في التأكد من أن الجنون لم ينخر القلب ويسيطر عليه؟

قضى ليلته في خيمة البدو ثم بدأ سفره في الفجر. صلى الفجر والشك يتحول إلى يقين من أن ظلام السجن تلاعب بعقله، وأن ضيفة لم تأتِ، بل هو هرب من السجن وحده. ربما تلاعب بعقله برهة لا أكثر. لكل قوة شيء من ضعف، ولكل يقين شك في البدء، ولكل عاقل نفحة من الجنون، سيستقيم العمر الآن وينسى عامين قضاهما سجينًا.

عند أبواب القاهرة اتجه بسرعة إلى بيت قاضي القضاة يبحث من جديد عن ولديه.

وعرف أن القاضي تغيَّر، وأن حماه يسكن الآن في بيت آخر، فاتجه إليه في إعياء من رحلة شاقة وشك يطمس بقية العمر.

كانت أنفاسه تتسارع، ومشقة السجن تحاسب أطرافه المتعبة وتريد الانقضاض عليها، وعند وصوله إلى بيت القاضي كاد يغشى عليه، وطرق الباب في قوة ففتح له الخادم.

دخل وجلس ورأسه يدور حول المكان في إرهاق.

دخل عليه حماه، صافحه في برود وتوتر ثم قال: كنت سجينًا، أليس كذلك؟ سمعنا الخبر كلنا، سجنت مع من دعم برقوق.

قال عمرو في رفق: كيف حالك يا شيخي وحال أحمد وحسين؟

نظر إليه برهة لا يجيب، ثم قال: الولدان بخير، ولكنني لست

بخير.

تنفس الصعداء، واستجمع كلماته وقال: هل يمكن أن أراهما؟ أين هما؟

نادى عليهما، ثم قال: قلت لك إني لست بخير يا عمرو.

قال وعقله لم يزل مُشوَّشًا: أفهم يا شيخ.

- للسلطان قلب أسود، يريد الانتقام من كل من وقف أمامه.

- بالطبع.

- عزلني ظلمًا من منصبي، هذا لا يجوز.

ردَّد وعيناه تترقبان قدوم ولديه: لا يجوز.

- لابد أن تساعدني، بعد كل ما فعلته من أجلك.

ردَّد من جديد: أساعدك بالطبع، أريد أن أرى ولديَّ، ثم أنام بعض الوقت، ثم نبحث في الأمر.

أطال حماه نظره إليه ثم قال: هربت أم أفرجوا عنك؟ لو هربت ربما يقبضون عليك من جديد، وبيتي..

قال مسرعًا: أفرجوا عني بالطبع.

فقال حماه: وتعرف السلطان، أليس كذلك؟ ستساعدني.

قال بلا تفكير: بالطبع سأساعدك، لا يستحقها سواك، ولكنني أحتاج إلى أن أرى ولديَّ وأنام قليلًا.

دخل الولدان معًا في تردد وشيء من الحيرة، وما إن وقعت عيناه عليهما حتى هدأت النفس واستقر العمر. بقي ساكنًا لم يحتضنهما كما تمنى، ولم يخبرهما إلى أي مدًى افتقدهما. لكل شيء قواعد حتى أوقات الطمس والحيرة، قال في صوت أراده أن يكون هادئًا: أنتما بخير؟

قالا معًا: بخير يا أبي.

- كنتما مع جدكما طوال العامين الماضيين؟

نظر كل منهما إلى الآخر ثم قالا: لا.

هزَّ رأسه، والنوم يسيطر على كل الأفكار، ثم قال: نتكلم في الصباح.

* * *

كم من الوقت نام؟ ومتى نام؟ يومًا ربما أو يومين؟ كانت أحلامه تائهة بين الأزمنة والناس، تغازل الموت تارة وتتشبث بالحياة بعض الوقت. والده ووالدته وإخوته كانوا معًا على وليمة كبيرة، وذبحوا من أجلها أغنام البدوي الذي قابله في الطريق من الكرك إلى القاهرة، كانوا في خيمته، خمسة إخوة كلهم أولاد يضحكون ويأكلون، ثم دخلت عليهم ضيفة بطبق رمان كبير، فانقض الجميع على طبق الرمان ولم يتبقَّ له شيء. غضب منهم، ثم ضحك وقبلها قبلة طويلة، كانت تضحك بوجه بريء وعينين فرحتين كما رآها أول مرة، وكان ولداه طفلين يحبوان حوله، وكان هناك شيخ يحفظه القرآن، يجلس في زاوية البيت يردد آيــة: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

رددها ثلاث مرات، وكان هو يرددها وراءه. كان في السادسة ربما، في نفس سن ابن بائعة الملح. بائعة الملح، لماذا اخترقت حلمه الجميل بثيابها الرثة وشعرها المشبك في حلقات مستحكمة وعينيها الحادتين؟ ربت على كتف عمرو الطفل وقال: تقرأ وتتعلم، لا بد أن تقرأ وتتعلم.

فقال في استياء: من أنت؟! ولماذا دخلت هنا؟!

- مكاني هنا، بيتي هنا، جئت لك خصيصى؛ لتقرأ وتتعلم.

فتح عينيه ونظر حوله.

ماتت عائلته كلها في الوباء منذ أعوام، ولم يتبقَّ إلا هو، يتذكر مشكلة دفنهم، لم يكن هناك مكان لدفنهم جميعًا، بحث كثيرًا، وكان في السابعة عشرة حينها. وأصبح هدفه هو دفنهم فقط،

وما إن فعل حتى شعر براحة ليس بعدها راحة.

كان ولداه ينامان بجانبه على الأرض، قام وربت على كتفيهما ثم أيقظهما في رفق، وسأل مرة أخرى: أكنتما مع جدكما في العامين الماضيين؟ ماذا حدث لكما؟ سامحاني أنني تأخرت، تعرفان.

بدوا أكبر سنًّا وأكثر اتزانًا ونضجًا. قال الكبير وكان في الخامسة عشرة: نعرف يا أبي.

قال الأب: وأين كنتما؟

قال أحمد: بعد أن وقعت الحرب في القاهرة قرَّر جدي السفر بعيدًا؛ خوفًا من بطش الأمراء بقاضي القضاة كما يحدث أحيانًا، كان ينوي السفر إلى الدلتا، وقبل السفر بيومين جاءت...

- من جاءت؟

- السيدة التي بعثت بها إلينا.

أطال نظره إليهما ثم قال: وماذا فعلت؟

أقنعت جدي بأن تأخذنا حتى انتهاء الحروب، لم يقتنع في البداية، ولكنها شرحت له أن هناك أميرًا يريد قتلنا، وأنها جاءت خصيصى لأنك طلبت هذا منها، وحكت له أشياء عنك وعن حياتك لا يعرفها سوى من هو قريب جدًّا منك، فوافق جدي وبعث معنا بعض الخدم.

أطرق ثم قال: وإلى أين أخذتكما؟

- إلى بلاد النوبة. ركبنا سفينة يومين.

- وماذا فعلت بكما؟

- كانت تراعانا كالأم، وتتكلم معنا ساعات بلغتها، لم نفهم كثيرًا من كلامها، ولم تسمح لنا بالخروج كثيرًا. قالت: إن رجلًا يريد قتلنا، ولابد من الحذر. بقينا هناك عامًا، ثم عدنا بعد عودة

السلطان برقوق، أعادتنا إلى جدنا ورحلت، لم نرها منذ ذلك الحين.

- أيُّ قصة هذه؟ ألم تعرفا من تكون؟

قال أحمد: كنا قلقين بعض الشيء، ونتمنى رؤيتك من جديد.

هزَّ رأسه بالإيجاب ثم قال: بالطبع. كنت سأخاف أنا أيضًا لو كنت مكانكما. ما شكل هذه السيدة؟ نحيفة وشعرها مجعد وملامحها حادة؟

نظر كل منهما إلى الآخر ثم قالا معًا: لا.

- كم عمرها؟

- تبدو في منتصف العمر.

- ربما كانت من اليمن أو الحبشة؟

قالا معًا: لا، لم تكن من هناك، كانت تتكلم لغة لا نعرفها، ولو أخذتنا إلى هناك كنا سنعرف.

هزَّ رأسه مرة أخرى وعقله يعمل بطريقة أفضل بعد النوم ثم قال: لا بأس. انتهى الماضي وعدنا معًا. أتفهمان لماذا تركتكما؟

نظر كل منهما إلى الآخر ثم قالا: نعرف كل شيء.

قال في حسم: سنعود إلى قوص إن أذن الله. وتعودان إلى دروسكما، وننسى هذين العامين للأبد.

اقترب منه أحمد الصغير ثم قال: أبي، كنت شجاعًا. هكذا قالت العجوز، وقالت إن الشجاعة من صفات العلماء.

ابتسم وقال له: قالت هذا باللغة العربية.

- هذه الكلمات كانت من الكلمات القليلة التي قالتها بالعربية.

* * *

رحل مع ولديه لبيته في القاهرة، وما إن وصل حتى طلب مقابلة طلابه ومساعديه، وبدأ يسألهم عن حال البلاد وحال

أهل قوص، وعرف أن هناك قاضيًا جديدًا معروفًا بغروره وعناده وغلظته، وأن أهل قوص يكرهونه، وبعضهم يجد فيه شريكًا في التجارة وداعمًا في جمع المال، فلا يكرهه، بل يدعمه بكل قوة. استمع في صبر وهو يفكر. وما إن انتهى الطالب حمزة حتى سأله في قوة: كان هناك تاجر غليظ اسمه رضاوي، أتتذكره؟

فقال حمزة: نعم بالطبع نعرفه، كان يكرهك يا شيخ ويتكلم عنك بكل سوء بعد أن رحلت، وطلب من الشيوخ أن تبطل فتواك في طلاق ابنته، الجاهل فعل هذا وزَوَّجها من عبدين مرة أخرى.

توقف قلبه لثوان ثم قال: زوَّجها كيف؟

- بل أعادها إلى زوجها كما قال، قال: إن الطلاق لم يقع أصلًا وأعادها إلى زوجها.

- متى؟

- منذ عامين، يوم قبض عليك فعل هذا.

- هي متزوجة منذ عامين؟

قال الطالب: نعم، أعتقد هذا.

أطرق ببصره إلى الأرض برهة حتى قال الطالب: شيخ.. ماذا ستفعل الآن؟ ستبقى في القاهرة؟

كانت بكرًا عندما ذابت بين ذراعيه، وكان حلمًا ربما، صحوة الموت بالتأكيد. كم يشفق على عقله التائه العاشق! انتهى الأمر أو كاد.

قال في حسم: ولِمَ أبقى في القاهرة وأنا قاضي قوص؟ لم يصلني خبر من السلطان بأنه عزلني.

فتح الطالب فمه في ذهول ثم قال: يا شيخ.. هناك قاضٍ لقوص.

قام قائلًا: من قاضي القضاة الآن؟

* * *

لم يعط نفسه وقتًا للتأمل والفهم ولا للشفقة على المصير والغوص في الأحزان، فقد تأمل كثيرًا طوال العام الماضي بين الظلمات والضيق، ولم يعد يستطيع أن يحيا بين حنايا عقله كثيرًا، ولا أن يثق بهذا العقل الخائن، كان يريد أن يمشي دهرًا وسط الأشجار ويستنشق رائحة الشمس ويتذوق طعم الألوان.

بعد يومين كان قد رتَّب ميعاده مع قاضي القضاة، وذهب لمقابلته بإصرار، وعمره يتوقف على عودته منتصرًا كما يستحق وكما يجب. وافق القاضي على مقابلته وقدم له الطعام وأكلا معًا، وتكلما عن حال البلاد وعن السلطان برقوق وعن قاضي قوص الجديد، وكيف أنه قد تعين في منصبه قبل عودة برقوق ولا يمكن فصله بسهولة. بقي عمرو صامتًا يستمع إلى قاضي القضاة الجديد، ويعرف عنه الكثير منذ أن كان طالبًا.

أكد قاضي القضاة احترامه وتفهمه لعمرو، ولكنه لا يستطيع عزل قاضي قوص؛ فهو لم يأتِ بفاحشة، يحكم بالعدل وينشر السلام.

استمع عمرو في صبر ثم قال: مولاي، تعرفني منذ كنت طالبًا وحصلت على إجازة منك، وتعلمت منك الكثير.

قال القاضي في شيء من الغرور: أتمنى أن يكون علمي قد أفادك، ولكنك متمرد بطبعك يا عمرو وطموح ومغرور، ثلاث صفات تشين القاضي وتقضي عليه، لابد من الورع وترك الملذات والاعتكاف عشرة أيام كل شهر.

ابتسم عمرو في مرارة ثم قال: اعتكفت عامًا كاملًا يا مولاي،

وأي اعتكاف كان لو تدري!

- لا يمكنني مساعدتك، شرحت لك كل شيء.

ساد الصمت برهة، حتى قال عمرو: كيف حال أموال الأوقاف؟

- حتى الآن بخير، ولكنني أخشى من رغبة السلطان في السيطرة على كل شيء.

قال عمرو في لا مبالاة: لدي بيت في القاهرة ورثته عن أبي، كنت أريد أن أتركه تحت تصرفك يا مولاي.

التقت أعينهما فقال القاضي: لا أفهم قصدك يا عمرو.

فقال في تأكيد: أريد أن أتركه تحت تصرفك لو احتاج العلماء إلى وقف جديد ربما، أو لو تعسر الحال بالشيوخ، من يدري؟ هي أيام لا عهد لها وسلاطين لا يعرفون قدر العلم، لابد من الأمان والعيش في حذر، ولو تعسَّر الحال فلابد من أن يقف كل العلماء معًا في وجه الظلم. انقل حجة البيت باسمك ولك التصرف فيه. وأنت قاضي القضاة ومدرسي وشيخي، أثق بك وكأنك أبي.

قال في عبوس: ولكن يا عمرو لو كان بيتك وليس لك سواه..

قال عمرو في حماس: لذا أردت العودة إلى قوص، أردت أن أتبرع ببيتي في سبيل العلم، ثم أعمل من جديد لأكسب قوت يومي وأعلم أولادي. لو عدت إلى قوص سيكون لدي بيت القاضي مرة أخرى، ولن أحتاج إلى بيت القاهرة، هو بيت جميل من طابقين في قلب القاهرة.

صمت القاضي ثم قال: اتركني أفكر في الأمر.

فقال عمرو في رفق: هو حقي ومنصبي، كان ولم يزل، وأنت معروف عنك الزهد والعدل.

- لم يتم عزلك، أليس كذلك؟

- لم يتم عزلي، ولم تتم تولية القاضي الجديد في عهدك، في عهدك يا مولاي يبدأ العدل وينتهي الظلم، أعدني إلى منصبي فقد اشتد كربي عامين بلا ذنب اقترفته.

- سأفكر في الأمر.

قام وصافحه في حرارة ثم قال: سأبدأ في إجراءات الحجة، وأتمنى كل الخير بيننا يا شيخي ومعلمي.

هزَّ رأسه بالإيجاب وترك عَمْرًا يرحل.

وما إن ابتعد عن البيت حتى نفخ في اشمئزاز من الزمن والعصر والمدرس الذي يتذكره جيدًا، ويعرف كيف وصل وماذا يريد. للوصول ثمن، ربما، ولكنه غاية سامية ولكي يتفشَّى العدل لابد أن يتفشى الظلم أولًا، ولبزوخ الزهد الغرق في الترف في البدء.

عاد إلى بيته، وبدأ في بيعه إلى قاضي القضاة بلا تردد ولا تفكير، وطلب من أولاده إعداد كل شيء؛ فالسفر إلى قوص قريب جدًّا.

بعد مرور أسبوع كان القاضي قد قرَّر أن العدل يقضي بأن عَمْرًا لابد أن يعود إلى منصبه قاضيًا لقوص، وأنه لابد سيجد منصبًا جديدًا للقاضي المعزول، وأنه يحكم عقله وضميره دومًا ويعمل على تقوى الله ودرء الشبهات. وكانت حجة بيع البيت في جيب قاضي القضاة تعطي الطمأنينة، وتضيء نور الحق دومًا. فلا أمان لعالم في عهد المماليك، ولو قرر السلطان التنكيل به غدًا أو بعد غد فسيفعل بلا تردد ولا رهبة، لا رهبة للعلم ولا الشيوخ في هذا الزمن العربيد، لابد من العمل للدنيا وليس للآخرة فقط، ولابد من تنزيه النفس عن كل أغراض الدنيا، ولكنه العيش في هذا العالم الذي يضطر الإنسان لوقاية نفسه من الفقر، فالفقر يأتي فجأة كالموت والوباء، ولو أتى للعالم يقضي

على كل يابس وأخضر، ويذل أكثر من سجون المماليك، لم يكن هناك اختيار، الوقاية واجبة في هذا الزمان، عمرو يفهم بالطبع لماذا قبل قاضي القضاة هديته المتواضعة أو هكذا شُبّه له.

* * *

الطريق إلى قوص اليوم كان طويلًا وفارغًا، وضيفة تلوح بمخيلته أحيانًا وتبتعد تارة أخرى، لو كان كل ما حدث لم يحدث، ولو كانت الآن زوجة وأمًّا، ولو كانت قد تقبلت مصيرها وأحبت زوجها أو اعتادت حياتها معه ماذا بيده أن يفعل؟ ربما، بل جائز وأكيد، ولكن أن يبطل التاجر رضاوي فتواه فهذا لن يحدث ما دام في صدره قلب ينبض. أن يسجن عامًا أو عامين بلا تهمة فهذا ممكن، وأن يذل من والي قوص وتدهس عمامته، ويعود إلى بيته على قدميه فهذا ممكن، ولكن أن يفكر التاجر الوضيع ولو لثوانٍ في أن هناك فتوى لعمرو خاطئة، وأن العامة اليوم تصدر الفتاوى على حسب أهوائها، هو ما لن يتحمله أبدًا.

توقف أمام بيته، ورأى الأهالي مجتمعين في انتظاره ربما، أو يريدون رؤية المواجهة بينه وبين القاضي الذي سيرحل اليوم ربما. كان القاضي يضع أشياءه على العربات، ونظر إلى عمرو بحقد وشيء من الاحتقار، ولم يبادله السلام، وانتظر عمرو مع أولاده، وخدمه رحيل القاضي وعائلته وجواريه الكثيرات، وما إن رحل حتى دخل بيته وأمر الخدم بإعادة تنظيفه، فقد امتلأ بغبار الظلم والفساد في غيابه.

واتجه إلى شرفة بيته، ونظر إلى قوص.. كانت النساء يسرن في الأسواق بأرْدِيَتهن السود، والرجال يتاجرون ويبيعون ويشترون، وعالم بين أسوار تلك المدينة، الحجاج ينتظرون، والمهاجرون يسترقون السمع إلى هاتف المكوث يومًا ربما، أو

عامًا أو دهرًا، والأناس يأتون من كل فج عظيم، والبيوت العالية تنيرها القناديل، وتخرج منها الضحكات والصرخات.

نام ولداه ولم ينم هو، والكره والغيرة شعوران لم يألفهما من قبل، والضغينة والمرارة جديدة عليه كالعلوم الحسابية والجبر لا يفهمها جيدًا، ولكنها ضرورية على ما يبدو.

في الصباح ذهب إلى مجلسه في فخر، واستمع إلى التهاني والإطراء، بل والشعر الذي كتب خصيصى له من أهالي قوص، قاطعهم بعد فترة، وطلب حضور التاجر رضاوي إلى مجلسه بأسرع وقت وبحضور الشرطة أيضًا، بل لابد للشرطة من أن تقبض عليه ويأتي مكبلًا إلى القاضي اليوم.

جاءه التاجر يلهث وعيناه ممتلئتان بالحقد. التقت أعينهما برهة، ثم قال القاضي في قوة: حكمتُ ببطلان زواج ابنتك، تتذكر؟

قال في تردد: يا مولاي..

قاطعه: وعندما رحلتُ زوجتَها، أليس كذلك؟

- سأشرح لك عادتنا لو أعطيتني فرصة.

- هل أعاد العقد عليها؟

قال في خجل: لا.

- لم يعقد عليها؟

- حكم الشيخ بأن الطلاق باطل ولم أحكم أنا.

- أيُّ شيخ يحكم ضد حكم القاضي؟ أتهذي يا رجل؟!

- أقسم لك إن الشيخ قد حكم.

- هذا زواج لم يحدث ما لم يعقد عليها من جديد، وأنت مكانك السجن من الآن وفي هذه اللحظة.

ثم طلب أن يقابل الزوج عبدين، وأمر الشرطة أن تقبض على

رضاوي وتسير به إلى السجن أمام جميع أهل قوص.

ولم يهدأ غضبه ولم يرحمه قلبه.

لم يكن الزوج موجودًا، وكان لابد من الانتظار للغد حتى يبحثوا عن الزوج.

قال في صوت أراده أن يكون هادئًا فخرج ممتلئًا بالغضب: وأريد رؤية ابنة رضاوي وزوجته غدًا.

* * *

هذه المشاعر من عمل الشيطان، كان يترفع عن الكره؛ ففي الكره هزيمة لا تغتفر واعتراف بالعجز. حتى الأمير فخر الدين لم يتمنَّ موته ولم يكرهه، بل كان يشفق على غفلته، ويعرف أنه سيلقى مصيرًا مظلمًا في الدنيا، ربما وفي الآخرة بالتأكيد. في الكره هزيمة لا يعرفها ولا يستسيغها، يعرفها الآن.

ولم يكره أحدًا كما كره الرضاوي، وكأن الكره يأتي كالطوفان، فيزيح كل ما حوله، حتى جبال النفس العاتية التي تقف لتحمي النفس من السقوط في الهاوية، لا نجاة من الكره.

كان يتقلب يمينًا ويسارًا، ويفكر في أمر الحلم الذي لا يدري أهو حقيقة أم لا، والذي يتجلى له كل يوم أنه أوهام وخداع العين التي اعتادت الظلام، فنسجت أيامًا غير الأيام وأحداثًا غير الأحداث، هي العين التي لامت عليه بقاءها في الغفلة عامًا أو بعض عام، فأرادت الانتقام منه، لا رأى ضيفة ولا قتل الحارس. هل قتل الحارس؟

ولِمَ يختلط الكره في عقله بالقتل؟ أيُّ هزيمة لمن يقيم العدل في الأرض؟

يستحق رضاوي القتل، يستحقه من منطق العدل والكره معًا، ألم يرغم ابنته على الرذيلة؟ هذا الرجل ليس زوجها.

سمع طرقًا على الباب وكان يعرف ويتوقع، فتح الخدم وتعالت

الأصوات وأم حسن بائعة الملح تصرخ بأنها لابد أن تدخل لتكنس الدار، والخدم يظنون أنها مجنونة.

نزل من على السلم، ونظر إليها وقال في استسلام: مرحبًا بك، كنت أنتظرك منذ أتيت.

قالت وهي تزيح الخدم وتدخل: سامحني، كان هناك ما يجب إنجازه أولًا، مولاي وسيدي. حمدًا لله على سلامتك، ومرحبًا بك أنت هنا في بلادنا.

أشار للخدم بالانصراف، ثم قال: تعرفين أنني لا أتوقع ولا أحتاج خدماتك.

قالت في لامبالاة: أعرف.

- لِمَ تقومين بها إذن؟

- وَعْدًا وعدتُه لك، أوفيتَ بوعدك، ولابد لي من الوفاء بوعدي. أتذكر
يا مولاي؟ خُلِقَ الإنسان عجولًا، ما لا تريد اليوم ربما تريده غدًا، وما لا تفهمه الآن ربما تفهمه غدًا.

التقت أعينهما ولم يجب، فقالت: أولادك بخير، حمدًا لله.

- أنتِ من خبَّأتِهم؟

- والله لم أفعل.

- من ساعدهم؟ أتعرفين؟

- أقسم لك لا أعرف.

- الأمير فخر الدين أين هو؟ مات في الحرب؟

- لا موت لهؤلاء سوى بعد بلاء وبلاء.

هزَّ رأسه ثم قال: سأذهب لأنام، نامي بعض الوقت على الأقل، اختاري حجرة، وضعي أشياءك بها.

قالت في بطء: مولاي، عيناك ممتلئتان بالهزيمة بعد الوصول

والانتصار، لماذا؟

قال في ضيق: اذهبي لتنامي.

- قلت لك من قبل كيف يتلاعب الشوق بالنفس ويهزمها.

- أيُّ شوق؟!

- ولكن العمر دومًا لا ينتهي عندما نريده أن ينتهي، هو سيد نفسه عمرنا هذا، العدل دومًا موجود، ولكنه يحتاج لمن يبحث ويجتهد، ألم تقل هذا من قبل؟

قال في تأكيد: قلتُه.

- وفهمتَه؟

- بالطبع فهمتُه.

- اذهب للنوم بأمان الله، لك الأمان دومًا والسكينة.

كرَّرت بصوت عالٍ: السكينة أولًا ثم الأمان.

تركها وذهب إلى حجرته، لم ينم. دار حول الغرفة ونارُ قلبه تمتد لتحيط كل قوص، حتى لو تزوجها عبدين سيطلقها منه، سيطلقها منه شاءت أم أبت، لا يمكن أن تكون الآن قد أحبت زوجها. لن تعبث بقلبه سنوات ثم تلهو مع آخر وكأنه مات في سجنه المظلم، سيتزوجها رغمًا عن والدها ورغما عنها هي أيضًا. يستطيع أن يفعل أيَّ شيء، سيكتفي بتطبيق قانون في بلد ينصر القوي ويذل الضعيف، هو قانونه وقلبه ما يحارب من أجله. عندما يجلد الزوج والأب ثمانين جلدة على جريمة معاشرتها لعبدين بعد أن طلقها، سيتزوجها هو، يسألها رأيها، ليس لها رأى.

أحيانًا يريد أن يمزقها بين يديه، يصفعها صفعات كثيرة ثم يضمها ولا يتركها مرة أخرى أبدًا. أجاءت له أم لم تأتِ أكانت حلمًا أم حقيقة؟ هي من سيطرت على سِنيه، هي من بدت دومًا بألوان صارخة وسط عتمة القبور التي دفن فيها.

كاد الظلام أن يفقده عقله، ولكن زواجها عامين أفقده كل شيء، يعرف الصدق طوال عمره ويبحث عنه، كانت صادقة في حبها واندفاعها، أحبته، هذا أكيد، ولكن هل مازالت تحبه بعد عامين من غيابه؟ هي أيام تتداول بين الناس، خذلته الأيام بعد نصرته، ولكنها لم تغير مشاعره تجاهها، لم تزل عيناه تريان ضحكتها، ولم تزل رائحتها حول نفسه في خياله وظلامه وكل عمره.

لم يستطع أن يستلقي على مخدعه، بقي مستيقظًا طوال الليل. بعد أن صلى الفجر بدأ يساوره الشك في منطقه وقراره، ولكنه لم يتزحزح، أو ربما تزحزح بعض الشيء، كرهه ومرارته لم يقلَّا، ولكن إرغامها ليس من عمل القضاة! ولو انهار العدل من حوله فلا بد أن يبقى هو من دون كل البشر عادلًا، أو يحاول. إرغامها هزيمة وخذي.

جاءه مساعده في الصباح يخبره بأنه لم يجد الزوج بعد، وأن زوجة الرضاوي وابنته لا تستطيعان الحضور؛ فزوجته مريضة على ما يبدو.

استمع في صمت، وطلب مرة أخرى حضور الزوج والبحث عنه في كل مكان. سأله مساعده لو كان ينوي الإفراج عن رضاوي، فأجاب في حسم أن هذا لن يحدث، لا اليوم ولا غدًا.

استمر في عمله، وبدأ يصلح كل ما أفسده القاضي السابق ويستمع للشكوى في صبر ويعيد الحقوق إلى أصحابها، وبعث مرسالًا إلى السلطان يطلب مقابلته، الآن يصل الطلب ربما، والآن يمكن مقابلة السلطان.

عندما عاد إلى بيته ليلًا بدأ في إعطاء الدرس لولديه كعادته وتحفيظهما ما يستطيع، ثم اتجه إلى حجرته يقرأ، ولم يتكلم كثيرًا مع أحد.

في اليوم التالي جاءه الخبر أن الزوج سيأتي لمقابلته اليوم أو غدًا، وجدته الشرطة. وبعد صلاة الظهر وجد من يدخل عليه في خُطًى مترددة، وما إن نظر إلى عينيها حتى عرف من تكون.

مرَّت سنتان ربما لم يرها فيهما إلا في حلم كالحقيقة أو حقيقة بطعم الجنون. عيناها فقدتا بريقهما وبدتا منطفئتين. دخلت عليه مع أمها، كانت تسندها، ولم يستشف من نظرتها سوى الحزن، لا رأى شوقًا له ولا فرحًا به. بقي ساكنًا ينظر إليها وخاف أن يخونه صوته أو عيناه، فانتظر برهة ثم قال في صوت أراده أن يكون قويًّا: أمَّ ضيفة أهلًا بك أنت وابنتك. اجلسا.

كان الكاتب يجلس بجانبه والشهود ينتظرون أوامره. قال في نفس الصوت: تعرفين لماذا جئت بكما إلى هنا، أليس كذلك؟

قالت الأم في صوت ضعيف: سمعنا أنك عدتَ يا مولاي، مرحبًا بك، وحمدًا لله على سلامتك، وأتمنى أن تفرج عن زوجي، فليس لنا سواه.

فتح عينيه في دهشة، ونظر إلى ذراعها التي لا تحركها، وقال: ما الذي حدث لذراعك؟

بقيت صامتة.

فنظر إلى ضيفة وقال بلا مقدمات: تريدين عبدين زوجًا؟ لو كان هذا ما تريدين فلابد من عقد جديد.

نظرت إليه، وبدا شيء مختلف في عينيها تلك المرة ولم تجب.

قال في شيء من الضيق: لا بد أن تقولي ما تريدين أمام الشهود، الآن.

لم تجب.

فقالت الأم في صوت ضعيف: مولاي، هل ستفرج عن زوجي؟

قال في حدة: لا.

-ولكن..

قاطعها ثم قال: لِمَ لا تجيب ابنتك؟!

نظرت لابنتها ثم نظرت حولها وقالت: هل يمكن أن نتكلم بلا شهود أو كاتب.

قال في نفس حدته: لا، ليس لدي وقت أضيعه في هذه المسألة، إذا كنت تريدين عبدين زوجًا يمكن صَوْغ عقد جديد.

همست لأول مرَّة: لا أريده زوجًا!

كتم ابتسامته وارتياحه ثم قال: لماذا لم تقولي هذا من البدء؟

تمتمت بصوت لم يسمعه سواه: كنت أظنك تعرف يا مولاي ولا تحتاج إلى أن تسأل، أخبرتك من قبل.

تنفس الصعداء، والفرحة تكاد تقفز من عينيه، والغد مختلف ومُحاط بالهواء المنعش.

قال في صرامة: كان هذا منذ عامين، وظننت أنك غيَّرتِ رأيك، هل عاشرك عبدين معاشرة الأزواج؟

قالت في قوة هذه المرة: لا.

لم يستطع أن يكتم ابتسامته ولا السعادة في عينيه، وخاف من أن يراها الكاتب والشهود، فقال وهو يتصنَّع الجِدَّ: لا بد أن أتكلم مع أم ضيفة وحدي، يمكنكم الخروج، وسأنادي عليكم عندما أحتاج إليكم.

عندما خرجوا جميعًا نظر إليها وتوقع أن تزيح الخمار ليرى وجهها، ويتأكد من الحقيقة، ولكنها لم تفعل. قالت الأم في أسى: مولاي.. هذان العامان كانا خرابًا علينا.

- ماذا حدث؟

- الكثير.

- زوجك كسر ذراعك، أليس كذلك؟

- هو زوجي وأسامحه.

قال في مرارة: لماذا؟

- أقدار يا مولاي، وحقه أن يغضب مني ومن ضيفة، ولكن لا ذنب لنا.

قال في عدم صبر: أريد أن أعرف كلَّ شيء، كلَّ شيء لو كنت تريدين أن تري زوجك وأن أفرج عنه.

نظرت لابنتها ثم قالت: ماذا تريد أن تعرف يا مولاي؟

- كيف لم يدخل عبدين بابنتك؟

نظرت إليها في عتاب ثم قالت: مجنونة وعنيدة، وربما هي من أشاعت هذه الإشاعة الغريبة عن نفسها بأنها أصابها مسٌّ من الجن، وأنها تصادق الجانَّ وتعرف السحر، فخاف عبدين منها ولم يحاول أن يتمم الزواج، بل لم يرها حتى الآن.

ردَّد وعيناه لا تتركان عيني ضيفة: أصابها مس من الجن؟!

قالت الأم في أسى: هي السبب فيما يفعله فيها والدها، تستحق كل جلدة، أقسم لك يا مولاي.

- ماذا يفعل فيها والدها؟

- نصحوه بأن يضربها حتى يخرج الجانُّ من جسدها، وهو مقتنع بأنها تفعل هذا لأنها تريد فضحه فقط، وأن لا جان يسكن جسدها..

قال وهو ينظر إلى الأم: وكيف يضربها الأب؟

- يضربها بالسوط كل يوم.

نظر إلى عينيها فطأطأت رأسها خجلًا من ذُلِّها ربما، ثم قال: يستحق القتل حقًّا، ربما لابد من قتله.

قالت دفاعًا عن زوجها: مولاي، ضيفة فضحته وجرسته

بمصادقة الأغراب وممارسة السحر، والآن لن يرضى بها أحد زوجة له أبدًا، كان يمكن أن يقتلها ولم يفعل، هو أب رحيم لو تعرف.

قال في عدم صبر: أريد أن أسأل ابنتك عن السحر، انتظرينا بالخارج برهة.

فاجأها بطلبه، ولكنها وافقت على الفور وخرجت من الغرفة.

ما إن خرجت حتى قال في رفق، وهو يحافظ على حنينه بداخله: ضيفة، أريد أن أرى وجهك.

ترددت قليلًا ثم رفعت الخمار عن وجهها، ورأسها مربوط بالأرض. أثلج روحه من النظر إليها، بدت أكثر نحافة بوجه فقد رونقه، وظهرت عظامه بارزة بعض الشيء، ولكنها لم تزل أجمل من رأى. ساحرة ربما تتلاعب بالمصائر وتسيطر على الجسد والروح.

ملأ عينيه من وجهها برهة ثم قال في بطء: أنت بخير؟

قالت في صوت مبحوح: بخير ما دمت أنت بخير يا مولاي.

لو سألها الآن، لو تأكد من مجيئها له في الشام! لو ظنت أنه مجنون! لو كان قد عاشرها كما يعتقد ولو لم يفعل.

قال في بطء: تعرفي؟ كنتُ سجينًا.

فقالت في صوت خافت: أعرف.

- كيف عرفتِ؟ هل عرفتِ مكان سجني؟

التقت أعينهما ولم تجب برهة، ثم قالت: أيُّ سجن؟

قال من جديد: كنت تعرفين أين سجنت؟ كيف عرفت؟ هل عرفتِ؟

قالت في حسم: لم أعرف.

نفخ في غيظ وراحة، لم يزن بها إذن، هي أوهام الظلمات،

وأيُّ جنون هذا؟! وهل سيهاجمه مرة أخرى؟! ولو هاجمه ماذا يفعل؟ متى سينقض عليه جنونه؟

قال في حسم: سأتزوجك.

ظلَّت ساكنة.

فقال: هل ستوافقين؟ تغيَّر الزمن ومرَّ عامان. هل ستوافقين؟

قالت في شيء من المرارة: ألا تخاف السحر يا مولاي؟ أم تعرف كيف تسيطر عليه؟ فأنت العالم ببواطن الأمور.

نظر إلى شفتيها، عينيها، وجنتيها، وشوقه كظلمات السجون، ثم قال: ربما أعرف كيف أسيطر عليه كما سيطر عليَّ. أتوافقين؟

ظلت صامتة.

فقال في ضيق: لا تريدين الزواج مني؟

قالت في مرارة: تدهشني أسئلتك دومًا يا مولاي، وكأنك تقرأ كثيرًا ولم يدخل الفهم قلبك، ولم تفز باليقين.

قال في تأكيد: لا يقين لديَّ هذه الأيام في الكثير من الأشياء، ولكن ليس في كل شيء.

- اسْتَفْتِ قلبك دومًا.

- قلبي يقول: إنك لم تريدي غيري ولا تريدين غيري.

قامت في بطء وغطت وجهها ثم قالت: وقلبك دومًا على صواب.

بقي مكانه لم يطلب منها البقاء أو الرحيل، وكأن العالم يستقر في موضع صحيح أخيرًا والزمن يريد له الانتصار. أغمض عينيه ثواني ثم فتحهما على صوت الأم وهي تقول: مولاي أتحتاج إليَّ في شيء آخر؟

قال في حسم: لا، يمكنك الرحيل مع ابنتك.

* * *

تفحصته أم حسن بائعة الملح كما تفعل دائمًا، وهمت بالنطق فقال في حسم: أتمنى ألا تخبريني برأيك كلما رأيتِني، وكأنني أمام مَلَك الموت يسبر غوري ويشهد عليَّ.

ابتسمت، ربما لأول مرة يراها تبتسم، ثم قالت: أراك سعيدًا يا مولاي، تستحق الرضا.

قال وهو يتحاشاها: شكرًا لك، وأتمنى أن يدخل الرضا قلبك الآن بعد القصاص.

قالت في استسلام: دخل واستقر بفضل الله وبفضل عبد الله أنت.

هزَّ رأسه واتجه إلى حجرته، وأكل من كل المأكولات التي حُرِمَ منها في السجن، وانتظر الغد بشوق ومعرفة بعض الشيء وليس كثيرًا، وعندما يدخل بها سيأتي اليقين، سيعرف إذا كانت سكرة الموت التي سيطرت عليه أم أنها حقًّا ممسوسة تفعل المستحيل وتصل إلى أعماق الكون.

غدًا أو بعد غد ستكون له، وهذه المرة لا بد أن يتصرف سريعًا؛ فالأيام لو طالت تخدع وتراوغ.

أعاد على الشرطة سرعة البحث عن عبدين، وانتظر الصباح في ترقب وأمل، لم يحتج إلى أن يرغمها، لم تزل تريده.. ساوره هاتف من الأعماق: ولو لم تكن تريده؟ كان سيرغمها كما نوى؟ هزَّ رأسه ليطرد أفكار الشيطان وشك الجنون. يستحق السعادة والانتصار.

وفي الصباح تقابل مع عبدين وأخبره بأن هذا الزواج لم يحدث، وأكد له أنها ليست زوجته، وبدا على عبدين الارتياح، واشتكى للقاضي من كل ما سمعه عن علاقتها بالمرأتين الغريبتين الحبشية العجوز واليمنية، وكيف أنَّهن الثلاث يسحرن الإنس

ويحولنهم لحيوانات مثل الكلاب ويتكلمن معهم، وأنه خاف أن تسخطه هي إلى كلب أو ماعز، وأنه يفضل الابتعاد عنها ابتعادًا تامًّا، ويريد أن يحصل من رضاوي على المهر الذي دفعه.

استمع إليه القاضي في صبر وتفهم، ثم نادى على رضاوي، وطلب منه رد المهر مرة أخرى. وافق رضاوي على الفور بعد المكوث في السجن وهو لا يعلم متى يخرج. وعند رحيل عبدين بدأ القاضي يتكلم مع رضاوي ويشرح له ما سيحدث في قوة وحسم، قال: إن السحر من عمل الشيطان، وإن المؤمن لا يخشى السحر، وإن إشاعة هذا على بنت مسلمة حرام مهما حدث، وإنه يكره أن يرى ابنته على هذه الحال، وإن من واجبه كقاضٍ لهذا البلد أن يقدم يد المساعدة لها؛ ولذا فقد قرر القاضي أنها لابد أن تتزوج اليوم قبل الغد، فقال الأب أن لا أحد في قوص سيوافق على الزواج منها وهي في التاسعة عشرة الآن، ويشاع عنها أنها تصادق الجان.

فقال القاضي إنه لا يحب تلك الشائعات، وإنه يريد أن يعطي مثالًا لأهل قوص بالتضحية والسمو، ولذا فقد قرَّر أن يتزوجها هو ويعقد عليها اليوم والآن.

عندئذ فتح رضاوي فمه في ذهول وفزع وفهم لأول مرة ربما لماذا يهتم القاضي بأمر ابنته، وفي ظروف أخرى كان سيرفض طلب القاضي لكره كامن في الأعماق ورغبة في إذلال قاضي قوص المتعجرف، ولكنه الآن تحت رحمته ولا يستطيع الفرار.

قال رضاوي فجأة: مولاي هذه الزيجة مستحيلة!

قال عمرو في صوت أراده أن يكون هادئًا: لا تتحداني ثانية.. عدتُ لقوص وسأبقى..

نظر رضاوي حوله ثم قال: ليس لقاضي قوص أن يتزوج ممَّن تسحر وتتصل بالجان، هي ابنتي، ولكنني أخاف على بلادي

أكثر وديني وناسي.

ألصق عمرو عينيه بعيني التاجر وقال: قاضي قوص يتزوج ممَّن يريد، وليس لك أن تحدد له من يتصل بالجان ومن لا يتصل بالجان.

نظر رضاوي حوله ثم قال: أغيثوني يا رجال.. أقول للقاضي ابنتي لا تصلح له، ويصمم على الزواج منها.

نظر عمرو لرجال الشرطة وأمرهم بالقبض على رضاوي، ثم قال في حسم: لأنني لا أثق بك، ولأنني أعرف نواياك السيئة ستبقى هنا حتى نعقد العقد ثم تعود إلى بيتك.

ولم يجرؤ الجلوس على الكلام.

فقال القاضي: سنعقد العقد الآن، وبوجود الشهود، ثم أتركك ترحل إلى بيتك على أنك لم تكن تعرف حجم جريمتك، لم تكن تعرف، أليس كذلك؟

قال رضاوي في تأكيد: فهمت كل شيء الآن يا مولاي.

قال القاضي: وغدًا أدخل بابنتك، ولابد من أن توافق الآن على الزواج، سأستدعيها الآن أمامي لأسمع ردَّها؛ لأنني لا أثق بك ولا بما ستقوله وتفعله بها، واليوم سأتركك تعود إلى بيتك بعد عقد القران. في هذه الأثناء، من اليوم لغد لو ضربتها أو آذيتها ستدخل السجن، ولن تخرج منه ما دمتُ حيًّا.

نظر الحضور بعضهم لبعض، وبدا القاضي مختلفًا وأكثر عصبية على غير عادته، وكأنه يهتم بهذه الفتاة، ويكأن ضيفة بنت رضاوي سحرت له!

قال رضاوي في تذمر: هي ابنتي يا مولاي.

- بعد ساعة أو أقل ستكون زوجتي وتطيع أوامري أنا وليس أوامرك أنت. ليس لك عليها سلطان.

قال في حقد: مولاي القاضي يحكم بالعدل دومًا، ولا يتبع

الهوى.

فقال القاضي وهو ينظر إلى عينيه: لا يتبع الهوى صدقني، وإلَّا كنت قتلتك في التو واللحظة.

* * *

الفصل السادس

بعث عمرو حارسين وراء رضاوي؛ ليقفا أمام البيت، ويتأكدا من أن رضاوي لن يضرب ابنته اليوم، وكان رضاوي يعرف أنَّ حَنَقَه على القاضي لا ينتهي، وإذلاله له واضح، ولابد أن يدفع ثمنه، ولكن لا حيلة له اليوم، فقد تم عقد القران وأصبحت ابنته زوجة القاضي، وغدًا تذهب إلى بيته. في رحيلها راحة فقد جاءت بالفقر والحزن والفضيحة منذ ولادتها، وها هي ذي تأتي بالذل عليه وعلى بنيه، سترحل من البيت، في هذا انتصار وراحة، ولكن كرهه للقاضي لم ولن يخمد.

أمَّا القاضي فكان يتحرك في بيته في حماس وحياة، ظن الكثيرون أنها تسربت من بين أطرافه، وكان يأمر الخدم ويجهز البيت لاستقبال زوجته، وكأن الكابوس أصبح حلمًا والظلام انقشع أخيرًا، وغدًا ستكون له لنهاية حياته وحياتها، وغدًا يأتي اليقين من جنونه أو خطيئته.

أحيانًا يتمنى لو كان مجنونًا، وأحيانًا يتمنى لو كان فعل فاحشة، ولم يفقد عقله ولو لحين. تكلم مع ولديه بعد العشاء وشرح لهما ولم يعترضا ولم يبدُ عليهما الحزن، وقد أراحه هذا.

تتبعته أم حسن بعينيها، وكانت تكنس البيت في حماس أشد اليوم، ولم يترك لها فرصة لتتكلم، ولم يكن مستعدًّا لسماع ما يخيفه أو يحزنه، ويأسها يقلقه دومًا.

طلب من الخدم إعداد أفضل الطعام والفاكهة، وجلس على

مخدعه في ترقب عذب لغد يزيل الشك ويريح الشوق، وخاف من حدوث أي شيء يغير ما خطَّط له، وبعد صلاة الفجر قرأ بعض آيات القرآن و دعا الله أن يسامحه لو أخطأ، وأن يدعمه فيما يسعى للحصول عليه في هذه الدنيا. كان دعاؤه اليوم للدنيا فقط، واستحوذت عليه متع الدنيا في هذه اللحظة.

عند ظهور الشمس نادى على حارسه، وطلب منه الاطمئنان على ضيفة وأمها، وذهب إلى عمله وعقله شارد يفكّر فيها وفي سنتين قضاهما بين أمل ويأس، وكانت هي وولداه كل ما يريد. في المساء انتظر أن تأتي مع والدها كما اتفقا، وفتح الباب ورأى العربة من بعيد تقترب، وهرولت أم حسن إلى العربة تساعد العروس على النزول، وسارت ضيفة وراء والدها برأس منتكس وبلا كلمة هي ووالدتها، حتى وصلتا إلى البيت. قال الأب: مولاي.. زوجتك كما اتفقنا.

هزَّ القاضي رأسه ثم أشار لها بالدخول، وما إن دخلت حتى همست له الأم: لو سمحت لي أن أبقى معكما بعض الأيام، أخاف من البقاء مع زوجي الآن وهو على هذه الحال.

هزَّ رأسه وقال: مرحبًا بك في أي وقت.

عندما دخلت ضيفة إلى الحجرة، همست الأم له من جديد: مولاي، أريد أن أخبرك بشيء قبل أن تدخل بابنتي.

توقف ونظر إليها وقال، والشك يسيطر من جديد: تكلمي.

- أريدك أن تسامحني وتسامحها؛ فليس لهذا ذنب.

- ذنب في ماذا؟

- في العلامات على جسدها، علامات السوط على ظهرها لم تزل غضة وطازجة، كان يضربها كثيرًا، ربما كل يوم، ولكنه لم يضربها أمس. كل يوم عشر جلدات على الأقل، ولم يعد يبالي بتشوه الجسد.

عبس وجهه ثم قال: لو مات كان يريح العالم من شروره.

همست في حسرة: هو رحيم، صدقني، رجل آخر كان قتلها بلا جدال.

قال وهو يفتح الباب: لا تقلقي، أعرف الآن.

ثم أغلقه ونظر أمامه، وكانت ضيفة، حلمه وجنونه وكل نجوم السماء مجتمعة.

كانت جالسة بفستانها الطويل ووجهها مكشوف وشعرها الكثيف يغطي ذراعيها، كان فستانًا من الحرير يغطي كل جسدها.

جلس بجانبها وأمسك بيدها في قوة، بدت مترددة أو خائفة، لا يعرف، ولكنها ضغطت على يده وتحاشت عينيه، كانت مختلفة عمن أغوته في جرأة وتمكن، كانت منكسرة ومهزومة. واستقر في أعماقه أن هناك ثلاثة وجوه لهذه الساحرة، لا بد أنها ساحرة، هناك ضيفة البريئة التي تملأ الحياة بوجهها، تتكلم بلا خوف وتجري في أركان الصحراء في تلقائية وكأنها تملك الكون، كانت هذه هي من أحبها، ثم هناك ضيفة التي أغوته، تعج الأنوثة من جسدها وعيناها تدعوان للفناء بداخلها، ضيفة هذه كانت مختلفة، تحترف الغواية والسحر، ثم هناك ضيفة التي يراها الآن، كسرها والدها، هذا أكيد. هزمها ربما، وربما لا، فلم تتزوج عبدين حتى بعد كل هذا التعذيب، أيُّ إرادة وأيُّ حب؟! وأيُّ جنون؟!

مدَّ ذراعه في حنان وضمها إلى صدره وقال: تعرفين كم أشتاق إليك؟ وكم أريدك!

لم تجب. أحاطت كتفه في صمت. وبقي هكذا وقتًا طويلًا. لا يريد سوى ذراعيها، يريد أن يتأكد من أنه لا يحلم في هذه المرة وأن الكون سيعتدل. أحاط وجهها، ثم بدأ يقبلها فابتعدت

عنه في رفق، وكأنها لا تعرف شيئًا عن قبلات الشوق. لا بد أنه كان جنونًا إذن، لم يعاشرها قبل اليوم، قرَّبها منه وقبلها في رقة هذه المرة وهو يكبح رغبته الطاغية، وهمس من بين قبلاته: ما زلت تحبينني، أعرف.

ارتجفت ربما وعلت دقات قلبها ولم تنطق. شفتاها.. وكأنه تذوقهما من قبل، وكأنه يعرفهما، يعرف كل جسدها وكل قطعة منها، يحفظها عن ظهر قلب. قالت في خجل وهو يزيح عنها ملابسها: هل يمكن أن نطفئ القنديل؟

فقال في حسم: لا ظلام بعد اليوم. لا أطيق الظلام، اعذريني.

همست في خزي: ربما تكرهني.

- كيف أكرهك؟! أين عقلك؟!

- العلامات على جسدي..

قاطعها: لا تَعْنيني. لا يَعْنيني إلَّا أنتِ.

نظر للعلامات الطازجة للسوط، بعضها جروح حمراء، وبعضها جروح قديمة بقشرة سوداء وبعضها علامات حمراء ستزول ربما عن قريب. والتقزز يملأ نفسه من هذا الأب وجهله وقسوته. لم يكن هناك علامات على جسدها في مخيلته، لم يلاحظ العلامات في مخيلته، هو نفس الجسد بلا علامات، وهي نفس المرأة أو هكذا يبدو.

وهي نفس الدماء على الملاءة.. كان حلمًا إذن، تأكد من أنه هذيان من البقاء في الظلام شهرًا وراء شهر.

بعد أن انتهى أخذها بين ذراعيه واستقر رأسها على صدره، فعل هذا من قبل أو شُبِّه له.

ساد الظلام الممتزج بالنور وسافر عقله بعيدًا، رحل ثم عاد، تارة لا يصدق أنها له، وتارة تلوح عليه ذاكرة ليلة وضحاها، لم تحدث ربما إلا في أعماقه وفي صدر عقله، وتارة يحاول أن

يتأكد من أنها معه وله.

أغمض عينيه وفتحهما، ثم سمع صوتها وهي تهمس: لم تزل تريدني؟

قال في تأكيد: أريدك دومًا.

بدا أنها تريد أن تقول شيئًا آخر ولكنها لم تنطق.

ابتسم وقبل شعرها وقال: أريد أن أعرف كل شيء عن السنتين الماضيتين.

قالت في صوت متألم: أتمنى أن أمحوهما من ذاكرتي.

لمس بأصابعه علامات على كتفها تبدو طازجة ومختلفة، بعض الجلد مقشر، وبعضه يميل إلى السواد، ربط عينيه بوجهها ورآها تضغط على شفتيها لتداري الألم، ربما فقال: تؤلمك؟

قالت مسرعة: لا تؤلمني.

دفنت رأسها في صدره وكأنها تخفي عذاب خزي وعار، فقال في حَنَقَ: والدك كان يحرقك؟

لم تجب.

فقال وغضبه يطغى على رضا النفس وفرحة الفوز: كان يحرقك يا ضيفة؟

أحاطت ذراعه وظلَّت صامتة.

وفهم أنها تفضل النسيان والاختباء من وحشية الصحراء حولهما، وانتفض جسده شوقًا لها من جديد، منذ برهة كانت له، ولكنه كان تائهًا بين رغبة جارفة وحرمان منها سنوات وبين شك في جموح عقله ويقين أنها بين ذراعيه. لو ملكها الآن مرة أخرى لأطفأ نار شوقه، نسي في غمرة أحلامه كم يؤلمها جسدها من ضربات وحرق أيام وشهور وربما سنوات. كيف لم

يبال؟

همس وهو يقبلها ويده تمر على جسدها: تريدين النوم؟

قالت في صوت مكتوم: أريد أي شيء يسعدك.

ابتسم وقال وهو ينوي أن يروي جسده منها هذه المرة في بطء ويقظة: بل أريد سعادتك أنت، لا أريد أن أرهقك بعد كل ما عانيت.

قالت: أنا ملكك يا عمرو، وليس لي سواك.

لم يجب، ملكها كما كان يحلم، أصبحت له مرة أخرى، وهذه المرة كان يتذكر كل شيء، ويشعر بها بين أضلعه تشتاق وتتمنى وتختلج رغبة فيه ووصولًا إلى نشوتها، كتمت أنفاسها وأغمضت عينيها ودفنت رأسها بين ذراعيه وكأنها تريد إخفاء علامات الوصول والرضا.

قال في ثقة من نصر محقق: قلتُ لك ستصبحين لي. تتذكرين؟

هزَّت رأسها بالإيجاب ثم همست: أحبك.

قال في قوة وحزم وهو يضمها: وهذه المرة لن يفرقنا شيء أبدًا.

رددت في شيء من المرارة والخوف: لن يفرقنا شيء.

قال في دهشة: لِمَ الخوف؟!

قالت في أسى فجأة: ظننت أنني سأموت.. أحيانًا كنت أظن أنني سأموت قبل أن تأتي.

قال في قوة: لا تقولي هذا، إيَّاك!

ثم بدأ يقبلها وقال من بين قبلاته: سأعاقبك على كلماتك وخوفك وسنين قضيتها بعيدًا عنك.. سأطفئ نار شوقي لك اليوم وغدًا، ولن يغمض جفنك إلَّا بعد أن أطفئ شوق عامين

على الأقل.

خفضت جفنيها ولم تنبس بكلمة. قال من بين قبلاته في توعد ممزوج بالرقة: تسمعينني؟

قالت في خجل: أسمعك، أسمعك يا حبيبي.

فأغمض عينيه وابتسم في رضا عن العالم اليوم.

* * *

في الصباح كان قد قرر أنه لن يذهب إلى عمله أسبوعًا كاملًا، سيستمتع بوجودها معه ويخمد الشوق المشتعل منذ زمن، ولن يتقابل مع أحد إلَّا للضرورة القصوى. أمر الخدم بإعداد كل أنواع الطعام، وطلب إليها أن تأكل، ثم طلب من الخدم أن يغلقوا الأبواب، وكان قد أقسم إنه سيأخذها بين ذراعيه طوال اليوم وكل الأيام القادمة، ولم تعترض ولكن خجلها أذهله، لم تكن خجولًا في البداية، كانت جرأتها في عينيها الممتلئتين بالكلمات، كيف أصابها هذا الخجل، ولِمَ الآن وهو زوجها؟! ولم تبدأ بلمسه أو بتقبيله أو ضمه، كانت تنتظر أن يبدأ هو ثم يشعر بشوقها في نبضات القلب واختلاج الجسد. وقضى لياليه يحاول أن يطفئ شوق أعوام ولا يستطيع، كلما بادلها الحب أرادها أكثر، وكلما شعر بشوقها وعذاب النفس البادي في عينيها ازداد عطشًا.

لم تنم لياليها بين ذراعيه، وكان أسبوعًا يتأرجح بين الحلم والحقيقة، كانت له، صامتة ربما ومستسلمة، ولكن الشوق ينبثق من جسدها. همس بعد أسبوع: أرهقتك بعد عذابك أعوامًا في بيت والدك.. لا نوم في بيتي ولا راحة..

قالت وهي تتحاشى عينيه: عندما وصلت إلى بيتك عرفت طعم الراحة.

أغمض عينيه بعد الفجر، وأدار وجهه عنها وهو يعرف أن العودة

للحياة لابد منها. عندما تأكدت من نومه تسللت بجانبه، وأحاطت ظهره، ثم قبلت كتفه قبلة خاطفة ونامت. وشعر بها وابتسم وهو يتصنَّع النوم، كانت مترددة وهادئة ومختلفة، ولكنها كانت ضيفة، من حلم بها وأفقدته عقله، أجمل من رأى طوال عمره.

ومكثت الأم أسبوعًا تتابع ابنتها عن قرب وتتبادل الكلمات مع بائعة الملح، وكانت تلاحظ نظرات الشوق بين ابنتها وزوجها وعينيه اللتين تحاولان حمايتها من كل شر، لاحظت كيف يجلسها معه على الطعام ويطلب منها أن تأكل، وكيف يتغير صوته وهي معه، فيصبح أكثر رقة ومودة، وكيف يتابعها بعينيه وكأنها طفلة يخاف عليها. لاحظت واندهشت ثم انتابتها حالة من الحزن لم تفهمها في البداية، وتذكرت في مرارة كيف كان يعاملها زوجها في بداية زواجهما وكيف كان يوبخها ويضربها بعد يومين من الزواج، وكيف وكيف.. وكانت تظن أن كل الأزواج زوجها، بل بعضهم أسوأ من زوجها بكثير، ولم تكن تعرف أن هناك من يستطيع أن يعطي هذا الحنان وهذه المشاعر!

همست لها بائعة الملح: أفهمك، وأعرف معنى الحرمان.

فقالت مسرعة: لي زوج.

- لم يمسسك منذ أعوام، ولو فعل لا يعطي حنانًا يا امرأة، لا تكذبي، بائعة الملح تعرف كل شيء، ليس كل الرجال مثل القاضي، هو يتقن عمله ويتقن العشق، يفعل كل شيء بضمير وبكل روحه، الرجال طباع وليسوا سواء.

قالت أم ضيفة: وأنت أين زوجك؟

- زهدت في الرجال والعمر، ولم يعد لي سوى هذا البيت. لا حياة لي يا امرأة.

- أعرف. هي أقدار مكتوبة.

- ابنتك تحملت الكثير. أرى في عينيها، انكسرت نفسها ولم تعد قادرة على النهوض.

- هي طباع زوجي.

- أيُّ أم أنت لتتركيها بين يديه يعذبها هكذا؟!

- وماذا بيدي أن أفعل؟! لا بيت لي سوى هذا البيت، وأهلي لن يتقبلوني لو تركت زوجي، لم يقتلها، كان يمكن أن يقتلها بعد أن تحدته وفضحته.

- ربما قتلها دون أن تدري. هل ترينني حية أمامك؟!

قالت وقلبها قد انقبض فجأة: ابنتي بخير، هي بخير، تعشق زوجها كما ترين.

قالت وهي تهز رأسها: تعشقه وأكثر، ولكنها تكره نفسها المنهزمة، لتصل إلى المراد كان لابد من دفع الثمن، والثمن كان تحطيم النفس بالنسبة لها. أشفق عليها ابنتك هذه، أحبته أكثر مما أحبت نفسها.

- وماذا كان بيدها؟

- لا شيء، لو رضخت لرغبة زوجك لكانت ستدهس روحها، ولو لم ترضخ لكانت ستكسر نفسها ويبقى القلب سالمًا وهي اختارت بقاء القلب والروح، فلا انبعاث بلا روح يا أم ضيفة. وأنت؟ ستعودين لزوجك؟

قالت في مرارة: بالطبع، أم تتوقعين أن أبقى هنا أكنس البيت معك؟

قالت بائعة الملح: ابقي بعض الوقت، لا داعي للعودة لو استطعت البقاء.

* * *

كثيرًا ما كان يشاهدها وهي تتكلم مع أمها أو مع ولديه في

صوت خافت واستسلام، وبدا أن ولديه يحبانها، ولطالما حاول أن يفهم كيف لهذا الفظ غليظ القلب أن ينجب ضيفة بكل ذكائها وحكمتها، وعرف من الأم أن ضيفة كانت تقضي الكثير من الوقت مع الغريبتين العجوز اليمنية والعجوز الحبشية، وأنها هي الأم قد حرصت على تعليمها القراءة والكتابة والحديث والقرآن مع أنها هي والأب لا يقرآن ولا يكتبان. وبعد شهر ربما وهما جالسان معًا في حجرتهما يأكلان الفاكهة قالت في رفق: عمرو، هل لي أن أطلب منك طلبًا؟

فقال: بالطبع، أتمنى أن تطلبي أي شيء.

قالت في تلعثم: كنت أتمنى لو أستطيع أن أزور صديقتي، فليس لهما غيري، هما تعدانني ابنتهما، وتحتاجان إلى المساعدة.

صمت برهة ثم قال: سأبعث لهما بالخدم والطعام لو أردت.

هزَّت رأسها بالإيجاب ثم قالت: كنت أتمنى لو.. لو سمحت لي بزيارتهما.

قال وهو يداعب وجنتها: لا يمكن، ليس لأنني لا أحبهما، ولكن لأنني لابد أن أحافظ على احترامي كقاضٍ أمام العامة، وإلَّا تتفشَّ الجرائم في البلد، ولو بدأ الناس في الإشاعات عن زوجتي وصديقتيها لأضرَّ هذا أهل قوص، ولستُ أنا فقط. تفهمين؟

خفضت جفنيها وقالت: أفهم.

فتح فمه فقالت مسرعة: لم أقصد إغضابك، لن أراهما لو كان هذا يغضبك.

أدهشه استسلامها الكامل، ولبرهة شعر بشفقة لا تنتهي، وبدا أن الأب كسر الإرادة أو جزءًا منها. ولكن عبوس وجهها أظهر غير ما قالت.

بعد يومين قالت في تلعثم: عمرو، هل يمكن أن أبعث بعض العظام وبقايا اللحم مع حارس لمريم وزبيدة لتطعما الضباع؟

قال في حسم: لا، قلت لك لابد من الحذر وتجنُّب الإشاعات، ماذا سيقول الحارس عن زوجة القاضي التي تطعم الضباع في الصحراء؟!

قالت بعد برهة: نعم، معك حق.

قال في تأكيد وهو يتجه إلى الباب: هذه حيوانات مفترسة تستطيع أن تجد الطعام بنفسها، لا تشغلي بالك بها ولا تصدقي خرافات عن الأرواح والشر.

التقت أعينهما برهة، فأدارت عينيها في انهزام ولم تتكلم، ولم يشغله أمر الضباع ولا أمر المرأتين العجوزين في الصحراء بل كان مشغولًا بما هو أهم وأخطر، كان ينتظر الرسالة.

بعد أشهر جاءه المرسال بالرسالة التي ينتظرها، وبدا أن الكون ينصفه أخيرًا بعد عامين من القهر والذل. اتجه إلى بيته وبدأ في تجهيز أشيائه للسفر إلى القاهرة.

وكانت ضيفة في الأثناء قد تأكدت من حملها، وأخبرته في نفس خجلها غير المعهود، واليوم أخبرها أنه سيسافر بضعة أيام لا أكثر، وكان يبدو متحمسًا سعيدًا.

ارتجفت فجأة وقالت وهي تدخل حجرتها: لماذا؟

دخل وراءها وقال: لماذا أسافر؟ عندي موعد مع السلطان.

فقالت في تأكيد أذهله: ستتركني للأبد، ستتخلى عني، أعرف.

قال في صوت أراده أن يكون هادئًا ولكنه خرج قويًّا من شدة ذهوله: ضيفة، ماذا تقولين؟! سأسافر وأعود بعد بضعة أيام.

نبرته الحادة أخافتها أو هكذا بدا، فقالت مسرعة وهي تجلس على الأرض: لا بأس، أنا بخير.

جلس بجانبها والحقيقة تهبط على رأسه لأول مرة ربما، استسلامها نابع عن خوف كامن، وحبها له لم يعد قادرًا على إعطائها الأمان أو الراحة، سلب الأب الأمان من بين أضلعها إلى الأبد وقدرتها على الجري في الصحراء في تلقائية والضحك، والحياة تولت وتلاشت.

قال في جِدٍّ: ماذا بك؟ ما الذي يقلقك؟

احتضنت نفسها في إحساس بالخوف لا يفهمه ولم تجب.

مدَّ يده إلى وجنتها فانتفضت في فزع وكأنه على وشك صفعها.

بقي ساكنًا يشعر بعجزه ويعرف أن العمر لا يعتدل، وأن العودة ليست سالمة.

قال في رفق والمرارة تجد طريقًا إلى قلبه: حبيبتي تعالي هنا، تعالي..

نظرت إليه ثم أغمضت عينيها وفتحتهما، واقتربت منه في حذر، وقالت وهي تضع رأسها على صدره: إنْ كنت تريد تركي فلن أغضب منك، سأبقى أحبك.

قال في حنان: كيف أتركك؟!

مرَّ بيده على شعرها ثم كتفها وقال بعد برهة: ضيفة، تريدين الذهاب معي إلى القاهرة؟

قالت وهي تدفن رأسها في صدره وتطوق عنقه: الأمر لك.

- ماذا تفضلين؟

ترددت ثم قالت: أفضل أن أكون معك، ولكن لو..

قال وهو يداعب خصلات شعرها: تخافين من والدك؟ تظنين أنني لو تركتك هنا سيؤذيك؟

ضغطت على كتفه بلا إرادة، ثم قالت: لا حيلة لي.

- بل قوتك لا تضاهيها قوة لو تعلمين، لن يؤذيك ما دمت حيًّا، ضيفة، تذكري، لابد للمحن أن تزول والصبر من عزم الأمور، كانت محنة وزالت.

هزَّت رأسها في حماس ثم تمتمت: لم أكن متأكدة من نجاتك. كدت أفقد عقلي، لو لم تَنْجُ!

- لم أكن متأكدًا أنا أيضًا، ولكننا معًا، وما يهمني هو سعادتك، أنت سعيدة الآن؟

قالت مسرعة: سعيدة جدًّا.

ولكنه لم يصدقها والمرارة تخرج من عينيها وصوتها.

لبرهة شعر بإحباط جديد عليه، وعجز عن تغيير الماضي أو التأثير على الحاضر، وكأن الكون لا يكتمل على هذه الأرض.

في المساء كانت نائمة على صدره وكان مستيقظًا، ما سلبه الأب منه لا يغتفر، ولا سعادة له وكل هذا الألم والمرارة يحيطان بها، وكأنها شخص آخر لا يعرفه، تتكلم قليلًا، ولو فعلت تشرد بعينيها في خوف من الكلمات ورأسها منتكس دومًا، وابتسامتها اختفت على ما يبدو، أهذه هي ضيفة أم هكذا شُبِّه له؟!

تنفس الصعداء ونفخ في غيظ، وحاول أن يفكر في أمر مقابلة السلطان، سيأخذها معه حتى لا ينهش القلق والترقب قلبها.

* * *

عندما وصلا إلى القاهرة نزلا عند بعض الأقارب، وقرَّر أن يأخذها في رحلة عبر القاهرة، فلم ترها من قبل قط، سارت معه بلا كلمة، وكلما تكلم معها بحماس أجابت في صوت خافت ورتيب، وكأنها لا ترى ولا تنتفض فرحة لأي شيء.

وصلا معًا إلى مسجد الحسين، ثم أخبرها أنه ينوي زيارة مسجد محمد المحسني الأمير المملوكي الذي أوصى بوقف

لجده ثم أبيه وله من بعده. عند الوصول إلى المسجد حكى لها في حماس عن الأمير وعلاقته بجده، والمصحف المرصع بالذهب الذي تركه لزوجته المصرية زينب المقشعي، وقصة حبهما التي يحكي عنها الناس حتى الآن، ابنها محمد بن محمد المحسني هو من صمم وشيَّد مسجد السلطان حسن.

مرَّ بأصبعه على حروف المصحف المرصعة بالذهب وقال لها في حماس: جَدِّي هو من خطه له في الكثير من الأعوام، كان الأمير يعشق زوجته، وعندما أعطاه لها جدي كان الأمير قد قتل وماتت هي بعده بعامين، في حبهما زهد وسمو وروعة غريبة على البشر. ما رأيك؟

كانت تتحسس المصحف بأصابعها والدموع تتساقط في صمت. بقي صامتًا لا يعرف، أيغضب منها؟ أيشفق عليها؟ أتبكي رثاء للسعادة التي تسربت من قلبها للأبد أم لموت الأمير قتيلًا؟ أم لتعاستها هي؟ أزعجه الاحتمال الأخير وقال في ضيق: ماذا بك؟ لِمَ البكاء؟

مسحت دموعها بسرعة وقالت: لابد أنه غبار القاهرة.

قال بلا تفكير: بل الغبار الذي تتركينه حول نفسك، فيخنقك.

نظرت إليه في حيرة، فقال وهو يجلس على أرض المسجد: أسعيدة الآن
يا ضيفة؟

قالت مسرعة: بالطبع، سعيدة جدًّا.

قال في حدة: تكذبين، لِمَ تكذبين؟ لم أعهدك كاذبة، لم أرَ السعادة في عينيك منذ زواجنا، كنت أظن الهلال تجلى لنا بعد غياب، ولكنه لم يظهر، لم يظهر قط.

فتحت فمها، فقاطعها: ماذا تريدين؟ أخبريني ما الذي

يسعدك؟

قالت في ترجّ والدموع تتساقط من جديد: لا تغضب مني، أقسم لك إني أحبك، أرجوك ألَّا تغضب مني.

كلماتها أفقدته أعصابه أكثر فقال وهو يقوم: لا تفكري في غضبي، هي سعادتك التي يستحيل الوصول إليها، ورؤيتك هكذا هزيمة لا أستطيع تحملها.

أدار وجهه، فغطت رأسها بيديها وكأنها تخاف أن يضربها. قال في غضب: ماذا بك؟ أتظنين أنني سأضربك؟ كيف تفكرين أنني سأضرب زوجتي؟

ثم جلس أمامها وقال في جِدٍّ: ضيفة لِمَ بكيت؟ لأننا لم نصل إلى هذه السعادة في زواجنا؟ لأن هناك ما تريدين وتبغين وأنا لا أعرفه؟ أتفكرين في صديقتيك؟ كنت تريدين زيارتهما، أليس كذلك؟

قالت في تأكيد: لا، أقسم لك.

- لا تكذبي، هذا الكذب لا يجدي، عند العودة إلى قوص سنقوم بزيارتهما معًا، هل يرضيك هذا؟ هل يسعدك؟

لم تجب.

ثم قال في عصبية: ما الذي يقلقك؟ الضباع في الصحراء؟ كيف تفكرين؟ هل تفكرين؟

بقيت صامتة وعيناها مربوطتان بالأرض.

فأكمل: قلت لك لابد من الحذر والتفكير، ولكنك لا تدركين كل ما تبغين، أهو الذهاب إلى الصحراء؟ أليس كذلك؟ حسنًا سنذهب إلى الصحراء، يريحك هذا؟

كانت تحتضن جسدها وترتجف بعض الشيء ولا تجرؤ على النطق.

فقال وغضبه يشتعل: تخافين مني؟ لِمَ تزوجتني لو كنت تخافين كل هذا الخوف؟ أكنت تريدين التخلص من والدك؟ هو طموحك بأن تكوني زوجة القاضي، أليس كذلك؟ كل ما قلته كذب، لا حب يحيا وسط كل هذا الخوف.

قال في حسم وهو لا ينظر إليها: كنت تريدين التخلص من جبروت الأب منذ البداية، وكنت أنا المنقذ لا أكثر، لا حُبَّ في قلبك يا ضيفة، هذا القلب جبان، والحب مجازفة وشجاعة.

تمنى أن تعارضه، أن تصرخ بكم تحبه، أن تنتفض فزعًا، ولكنها لم تفعل.

زَفَرَ في غيظ وإحباط وقال: نذهب إلى الصحراء؛ حتى يطمئن صدرك وتهدأ نفسك.

ثم قام ومد يده لها قائلًا: هيا.

فابتعدت بلا إرادة، فأرخى يده وقال: هيا قومي، لن ألمسك، لا وقت كثيرًا لدي.

قامت في حذر.

سارت بجانبه بلا كلمة، والهوة بينهما تصرخ بهزيمته.

* * *

لم يتكلما طوال اليوم، وفي الليل نام على مخدعه، واستلقت بجانبه وهي تكاد تكتم أنفاسها حتى لا تزعجه. أغمض عينيه وخياله يتمرد عليه. كان حلمًا، ما حدث في الكرك، كان حلمًا به بعض مرارة الخطيئة، وما يحدث الآن هو مرارة الحقيقة. لم يزل يريدها ويشتاق إليها، ويتألم لألمها، ويذهل من ثباتها أمام الأب، ولكن مرارته تطغى على الحب والشوق. أصبح قربه منها يثير أعصابه ويذكره بهزيمة جديدة عليه.

قال بعد برهة: لله الأمر من قبل ومن بعد.

قالت في صوت مرير: لا أعرف ما يجب أن أقول؛ حتى لا أغضبك.

- قولي الحقيقة فقط.

فقالت: كانت هناك أيام تمنيت فيها الموت، وأيام ظننت أنني سأساق إلى الزوج رغمًا عني كالبهائم، وأيام ظننت أنني لن أراك مرة أخرى، وأيام انتظرت ضربات السوط، وكانت أحيانا تتأخر ثم تأتي، ولو تأخرت تكون أقسى وأعمق. لو قرر أبي أن يأكل ثم يضربني يقضي وقتًا أطول ويعذبني بحماس وقوة، كنت أصرخ أحيانًا رغمًا عني وأتوسل وأقبل قدمه ولم يكن يبالي، ولكنني لم أفكر ولو للحظة بأن أتقبل رجلًا غيرك.

قال وقد نخرت كلماتها قلبه: للاجتهاد وصول دومًا.

ثم مدَّ يده وهو مُستلقٍ على ظهره، فوضعت فيها يدها في تردد.

أمسك بيدها في قوة وقبلها، وقال في صوت حاسم: الصبر من عزم الأمور، والمحاولة تزيل الصعاب.

أبقى يدها على فمه ثم أكمل: أحبك.

ظلت ساكنة ودموعها تتساقط اليوم بلا هوادة، لم يحاول أن يضمها ولا أن يبادلها الحب، ترك يدها في بطء وأدار ظهره وأغمض عينيه، ولم يسمع بكاءها الصامت، ولكنه شعر به وعرف عجزه عن محو الماضي.

في الصباح كان موعده مع السلطان.

* * *

بدا برقوق بنفس هيئته وحماسه وسخريته، وما إن رأى عمرًا حتى احتضنه في قوة وقال: قاضي قوص يعود من جديد، افتقدتك يا صاحب السجن.

ثم صرف الحضور، وجلس أمام عمرو وقال: عدتَ إلى منصبك بسرعة ولم تكسرك التجربة، أهي القوة النابعة من الإيمان أم العناد النابع من الغرور؟

ابتسم و قال: الاثنان ربما.

ثم اقترب عمرو من برقوق وقال: قاضي القضاة يا مولاي يحب المال حبًّا جمًّا كما تعرف.

قال برقوق في مكر: أعرف.

ثم أكمل: ألم أقل لك إن حب المال له فوائده، بعثت إليك من يساعدك ويفتح لك الباب.

استقر اليقين في نفسه بأن السلطان هو من بعث بالحارس الذي فتح الباب، وبأنَّ السلطان هو من جاء بالفرس.

قال عمرو: لرؤية السلطان الآن وقع مختلف.

ربت على كتفه وقال: كنتَ تفضل السلطان السجين.

- بل مصر والشام وكل بلاد المسلمين تحتاج إلى المحارب القوي مثلك.

- مصر تستحق الكثير، وأهم شيء تستحقه هو الأمان دومًا والبقاء عليها واقفة لا منهزمة، في حروب المماليك انهزام لمصر.

قال عمرو في صوت هادئ: وفي كثرة المال لدى قاضي القضاة فساد يتبعه هلاك، تعرف يا مولاي.

قال برقوق بعد برهة: أعطيتَه بيتك في القاهرة؟ جئت تريد استرداده؟

- أعطيت لمن لا يستحق لأحصل على ما أستحق، كان مدرسي وأعرفه.

قال برقوق: تتصرف كالساسة وليس كأهل العلم.

- لابد لأهل العلم من المعاملة مع الساسة، والحرب خديعة.

- أعطيته ما لا يستحق وأنت تعلم أن هذا حرام.

- أعطيته ما لا يستحق لأكف الأذى عن الناس.

- هذا منطقي أيضًا، أحيانًا كف الأذى يكلف الكثير من المال والنفس، سعدت بمجيئك وانتظرته؛ فلك سحر الصوفي وغرور المقاتل. ماذا تريد

يا عمرو؟ معاقبة قاضي القضاة؟ أم بيتك الذي أخذه منك؟

قال وهو ينظر إلى برقوق: أريد الخير للبلاد.

التقت أعينهما ثم فتح السلطان فمه في دهشة وقال: عمرو.. تريد أن تصبح أنت قاضي القضاة؟ هذا ما جئت من أجله، أليس كذلك؟

ابتسم وقال: لو قلت نعم أصاب السلطان أبدو مغرورًا، ولو قلت لا أخطأ السلطان تقطع رأسي.

- رأسك يهمني كما تعرف، ولكنك كلما جئت تزورني تطلب الكثير وتجلب الحروب كما تتذكر.

- وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا، هي محنة قوتك، وجعلت نفوذك يمتد وملوك المغول تهابك، وأولاد عثمان يطلبون رضاك، في المحنة قوة وفي التخلص من يلبغا ومنطاش نصر مكتمل.

- أيُّ رجل يطمع في هذا؟

- ألم يطلب يوسف النبي من فرعون أن يجعله المسئول عن خزائن الأرض، وكان يعرف أنه أهل لها؟

قال في دهشة: تشبه نفسك بيوسف النبي يا عمرو! أيُّ غرور هذا؟

- بل أضرب مثلًا فقط بمن يطلب ما يعرف أنه أهل له.

- يوسف نهى النفس عن الهوى وصَدَّ الغواية، هل تصد الغواية أنت أيضًا؟

- لست نبيًّا، ولكنني أجتهد للوصول.

دار برقوق بعينيه حول حجرة القصر ثم قال: قاضي القضاة.. يفتي ويأمر، أفتى من قبل بقتل السلطان كما تعرف.

- وما جدوى فتوى قاض والسيف في يد الأمراء، لو لم يكن السيف في يد الأمراء لكان القاضي سيفتي بغير هذا.

- ولو جعلتك قاضي القضاة والسيف في يدي، ستقبل؟

- لو جعلتني قاضي القضاة فأنت تبغي العدل والصدق، والعدل والصدق لا يجتمعان مع سيف على رقبة القاضي.

- تطلب وتشترط، تعرف أنني أكن لك المشاعر وأَعُدُّكَ أخًا صغيرًا.

- ولم أكن لأطلب لو لم أعرف ما بيننا.

- تعترف بأن هذا ما تريد؟

- للقوة سحرها، تعرفه يا مولاي.

- كنت تقول حب المال آفة الملوك، وتعرف الآن أنه حب القوة الذي يحطمهم؟

- لا حاجة لي إلى المال.

- أتبغي الدنيا أم تشتري الآخرة؟

- هو مزيج من الاثنين ما أريد، ولكنني أعرف ما لا طاقة لي به وما أطيق.

- لك ما تريد يا عمرو، لك ما تريد.

* * *

الفصل السابع

هناك أنباء يتناقلها أهل مصر من العامة والعلماء وحتى المماليك لأنها صادمة أو غريبة، وهناك أنباء يتناقلها كل هؤلاء؛ لأنها ضرب من الخيال تذيب العقل كالخمور وتذهب بالألباب، وهذا الخبر فعل أكثر من هذا، تكلم العلماء وبدا عليهم الازدراء والتذمُّر، وقرروا الشكوى للسلطان، وتكلم الأمراء وبدا عليهم الذهول والقلق، وقرروا الشكوى للسلطان، وتهامس أهل مصر وبدا عليهم المرح والتسلية، وقرروا الذهاب إلى المولد والاستمتاع بخيال الظل. العلماء يعرفون عمرو بن أحمد بن عبد الكريم، درَّسوا له معظمهم أو كلهم، لم يتم عامَه الأربعين وغروره وطموحه يزعجان الجميع، قصته مع الأمير فخرالدين تنم عن طيش شباب وعدم دراية بالأحكام، وقصته مع التاجر القوصي أخطر بكثير؛ أبطل زواج ابنته مرتين ليتزوجها هو، معروف عنه اتباع الهوى وقلة المعرفة والقلب الأسود، يبطش بأعدائه، ويهدد من يقف ضده، وليته يحمل الجميل أو يحترم العهد، لا، عاهد حَماه أنه لا يريد منصب قاضي القضاة وكذب وأخلف، منافق بالتأكيد، وجاحد ومتسلق، بعد أن أشفق عليه قاضي القضاة وأعاده لمنصبه في قوص ذهب إلى برقوق يستغيث ويفتري ويثير الفتن ضد من ساعده ليحصل على منصبه، أيُّ رجل وأيُّ عصب ينجب هذا الظالم؟!

جده كان مغرورًا أيضًا، ولكنه فاق في فجوره الجميع، لا دين

يعنيه ولا آخرة يعمل من أجلها، يستحق الرجم والموت هذا الظالم ناكر الجميل الحاقد على أساتذته الطامع فيما لغيره، لابد من التخلص منه.

والأمراء انتابهم قلق لا يوصف من قرار بدا متسرعًا من السلطان، وكأنه يكافئ عَمْرًا على وقوفه معه في حربه ضد يلبغا ومنطاش، ولا يأبه بأهل العلم، ويتجه إلى أصدقائه؛ ليعطيهم أخطر المناصب في البلاد. أخطأ برقوق. وخَطَؤه جريمة، من بين كل المصريين والمغاربة والشوام يختار قاضي قوص الذي تجرأ وأعدم ابن أمير ليصبح قاضي القضاة؟! أيُّ رسالة يعطيها لأمرائه هذا السلطان وأيُّ ذل؟ يتحكم فيهم الشيخ ويدوس على رقابهم وهم حماة الدار؟ أخطأ برقوق وضل واتبع هواه.

أما العامة فاختلط عليهم الأمر، بعضهم اتبع الأمراء، وبعضهم اتبع العلماء، والقليل قال: إن في تولية قاضي قوص منصب قاضي القضاة إنذارًا لكل ظالم وعودة للحق والعدل، ولكن حتى إذا كان هذا هو الأمر فهو لا يعنيهم كثيرًا فمتى أنصفهم قاضي القضاة؟ ومتى أنصفهم الأمراء ومتى أنصفهم السلطان؟ لم يُنصفهم سوى بائع الحلوى على ضفاف النيل، جعل الحياة ممكنة والتحمل جائزًا.

عندما عاد عمرو إلى قوص كان يعرف أن الحرب في بدايتها، وأن المنصب الذي فاز به بعد عناء لابد من الجهاد للمحافظة عليه، ألم يخلق الإنسان في كبد؟ هو عناء الوصول والبقاء الذي سيبذله.

ما إن وصل إلى بيته في قوص حتى انهالت عليه التهاني من كل دار حتى من حميه، وما إن دخل حتى نادى على زوجته وقال في حسم: وعدتك أننا سنزور صديقتيك، تتذكرين؟

قالت في صوت خافت: لو كان هذا يضر منصبك يا مولاي فلا بد ألَّا نذهب.

ردد وهو يبتسم: مولاي؟!

قالت مسرعة: قاضي القضاة مولاي ومولى الجميع.

ثم انحنت ولمست ثوبه عند قدمه وأمسكت بيده ووضعتها على جبهتها وقالت في خشوع: قاضي قضاة مصر كلها.. لابد أن ننحني له كلنا وبخاصة أنا.

أطال نظره إليها وهو يحاول فهم ما تهدف إليه ولم ينطق فأكملت: ترى ماذا سيقول الشيوخ عن زوجته الصعيدية السمراء التي تصادق السحرة في الصحراء؟

قال في حسم: تعرفينني وتعرفين أنني لا أخشى سوى الله ولا يهمني كلام أحد.

أبقت يده على جبهتها وأخفت وجهها في كفه وقالت: هذه الزيجة لا تليق بقاضي مصر كلها. لا أنت تزوجت ابنة أحد العلماء ولا تزوجت ابنة أحد الأمراء، ولا حتى ابنة كبير التجار في القاهرة، أشعر بالذنب يا مولاي.

قال في دهشة وهو ينحني بعض الشيء ويمسك بوجهها: تشعرين بالذنب؟!

- بعض الشيء، والرهبة من منصبك.

قال في صرامة: أيُّ ظلام يطمس بصيرتك؟! تعرفين.. لابد أنك تعرفين..

قالت وهي تخفي رأسها عنه: العقل غير القلب والعمر أيام متقلبة.

قال في شيء من الغضب: ماذا تبغين من كلامك؟

قالت في خوف ويأس: لو سئمتَ العيش مع ابنة قوص فلن

أغضب، حقك يا مولاي.
أغمض عينيه وقال في صوت قوي: لو سئمت العيش معك فسأخبرك يا ضيفة، ولا أحتاج إلى نصائحك.
قالت وهي تقوم: أغضبتك كعادتي، كلما قلت شيئًا أغضبك.
- لأنك لا تفهمين، ولا تعرفين، حَرَقَ الخوف قلبك كالمغول عندما أحرقوا بغداد.. لم يعد لديك بصيرة ولا فهم.
ثم شدَّها إليه وقال في حسم: تشعرين؟ تعرفين كم أريدك؟ كم أشتاق إليك؟ ما قاسيته أعوامًا؟ تعرفين أي شيء؟
بقيت صامتة ترتجف بعض الشيء، ثم همست: لا أستحق عناءك.
قال في حسم: أنا من أقرر لو كنت تستحقين عنائي أم لا، احتفظي بآرائك لنفسك يا ضيفة.
ظلَّت ساكنة.
قال في حسم: هيا، لابد لنا من الرحيل بعد بضعة أيام. تعالي نزرهما عند الغروب.
هزت رأسها بالإيجاب ولمعت عيناها لأول مرة ربما.
اتجها إلى الكوخ الذي تقطن فيه العجوز الحبشية في الصحراء، وكانت العجوز اليمنية أيضًا في انتظارهما. ما إن رأتا ضيفة حتى انهالتا عليها قبلات وبكاء، وبقي هو جالسًا ينظر إليهن من بعيد ولا يتدخل.
لم يسمع حديثهن، ولكنه رأى الدموع تترقرق في عيني زوجته تارة، والابتسامة تجد الطريق إلى شفتيها تارة أخرى، ثم رأى زوجته وهي تمسك بالعظام واللحم لتضعها للضباع. أسند ذقنه بكفه وبدأ يشاهدها وكأنه يراها لأول مرة. في البداية كانت غير واثقة، تنظر حولها وتبحث عنه، وعندما التقت أعينهما ابتسم لها وكأنه يقول: إنه راضٍ عما تفعل. فانتظرت

ظهور الضباع في ترقب طفل، وعندما بدأت الضباع في الظهور أمامها ألقت إليهم الطعام بسرعة وقلبها يخفق بشدة وعيناها تزدادان لمعانًا. ربتت الحبشية على كتفها وقالت: الضباع تحبك يا ضيفة، وجودك يطرد الأرواح الشريرة، أنت كل الخير في هذه البلدة.

ربطت عينيها بالضباع وكانت الضباع تأكل في نهم ولم تتحرك حتى لا تخيفها. بدأت المرأتان العجوزان الكلام المستمر معها وهي تستمع في صبر، أسندت ضيفة اليمنية بيدها عندما كادت تقع، وأمسكت منها أكياس بخور أحضرتها لها خصيصي من اليمن، واستنشقت رائحتها ثم نظرت من جديد لزوجها، فأدار وجهه وكأنه لم يكن ينظر إليها. بعد برهة تركتهما واتجهت إليه ليعودا إلى البيت.

لم تتكلم طوال الطريق ولكن اللمعة لم تترك عينيها، عند الوصول إلى حجرتهما أعطته البخور وقالت: شكرًا لك، وأعرف أنك لا تريدني أن أعرفهما.

قال بلا تفكير: بل أريدك أن تصادقيهما دومًا، ربما كنت أفكر في رأي الناس والله أحق أن نخشاه، اعذريني.

طأطأت رأسها ولم تجب، فقال فجأة: ضيفة، عندما كنت تنادينني بمولاي أكنت تمزحين؟ رأيت سخرية في عينيك، كنت أظنها لن تعود.

ابتسمت على ما يبدو وقالت: لو ملكت قلبي فأنت مولاي على كل حال، أسعيد بالولاية؟

قال في حنان: ما دمت تبتسمين وتمزحين فأنا سعيد، وأغار بعض الشيء من صديقتيك، كيف استطاعتا أن تعيدا اللمعة إلى عينيك وفشلت أنا في هذا.

قالت وهي تمسك يده: بل لم تكن عيناي تريان وأنت لست

معي، لا تعرف، لا يمكن أن تتخيل شوقي إليك.

- يقلقك الرحيل إلى القاهرة وترك أمك هنا وصديقتيك؟

هزت رأسها بالنفي في قوة. ثم قالت: يقلقني شيء آخر.

- ما هو؟

- القاهرة ليس بها ضباع تطرد الأرواح الشريرة، ووصولك إلى القمة يشعل النيران من حولك، أخاف عليك من الحاسد والطامع والظالم.

قال وهو يجلس: كنت ترين كل شيء وتعرفين..

- للحب ضلاله الخاص.

في الصباح نادى على أم ضيفة ليخبرها بما سيكون وبسفرهما إلى القاهرة، عرض عليها الرحيل معهما ورفضت وقررت البقاء في قوص، وصممت على العودة لزوجها.

أما بائعة الملح فأطالت نظرها إليه وقالت: سآتي معك، أقسمت وعاهدتك أنني سأخدمك ليوم موتي.

قال في رفق: ابقي هنا بين أهلك.

قالت في حسم: لا أهل لي سواك.

كان يعرف منذ البداية أنها ستقرر الرحيل معه.

هزَّ رأسه واتجه إلى الباب فاستوقفته وقالت: مولاي القاضي..

نظر إليها ينتظر كلمات ربما تقلقه، فقالت: مررت بالكثير من المحن بسبب عهدك لي، وتحملت في صبر، وتحملت زوجتك الملائكية الجميلة، تعرف كم هي جميلة؟

قال في تأكيد: أعرف.

ربتت على يده وقالت: كسر الأب نفسها ولم يقتل روحها، احرص على روحها حتى لا تتسلل من بين ضلوعك وتختفي.

قال مسرعًا: أحرص عليها دومًا.

- واعرف يا بني أن ما تراه العين هو ما تريد أن تراه دومًا، بينما الحقيقة تختفي كالهلال قبل الظهور. الضلال.. ما أوضحه! يسطع كبياض الصبح، كلنا نسير وراء موكبه، أما الحقيقة فطمس وظلام.

بقي ساكنًا يحاول فهم كلماتها.

فأكملت: كل آلامك وكل الظلم الذي وقع عليك لم يكن ابتلاء بحق، يبدأ ابتلاؤك من اليوم يا قاضي القضاة، في القوة والقدرة أكبر الابتلاءات وأكثرها شراسة، هيا حتى لا تتأخر عن موعدك.

* * *

ظهر الهلال بوضوح هذا العام ورآه العامة والعلماء والمماليك، واحتفلوا جميعًا بقدوم العيد، وبأمل في عام بلا جفاف ولا وباء ولا بطش ولا قتل ولا مكوس ولا قهر. وبدا له أن أيامه ستتحسن، ولابد لزوجته أن تشفى من هذا الانكسار؛ حتى يزيح هزيمته، وعند وصولهما القاهرة بدت سعيدة إلى حد ما، ولكنها لم تزل قليلة الكلام والابتسام، عيناها منطفئتان بعض الوقت أو أكثره، ولكن في أحيان قليلة كانت تظهر بصورة ضيفة المندفعة البريئة التي عشقها منذ رآها أول مرة، وتلمع عيناها كالأطفال ويبدو الحماس على رموشها وحاجبيها، وكان ينتظر هذه اللحظات في صبر ويأمل في تزايدها مع مرور الوقت واختفاء علامات السوط.

حضر السلطان نفسه مراسم تنصيبه، وارتدى عمرو طرحة قاضي القضاة، واستقبل العلماء والطلاب وأصحاب الطرق الصوفية والشرفاء وأمراء المماليك وولاة المدن، وعندما عاد إلى بيته في تلك الليلة سجد إلى ربه متمنيًا أن يبعد عنه الغرور والهوى وطمع النفس، وزوجته تشاهده في صمت. في أيامه

الأولى بوصفه قاضي القضاة لم تكن تراه إلا في منتصف الليل، ولم يكن لديه وقت كثير لتبادل الحديث معها، كان يستقبل العلماء والأمراء، وشرع في اختيار نوابه بعد بحث ومعرفة، وقضى ساعات يفكر ويكتب حتى يختار أفضل القضاة في كل مكان في مصر، ثم فكر في أمر تعيين ناظر الأوقاف.

* * *

دارت عيناه حول البهو الكبير، ورأى رءوسًا منتكسة وعيونًا متضرعة، ولم يكن متأكدًا من ارتفاع مجلسه، ولكنه رأى الكون من عليته ومكانته السامية. تكشفت النوايا واختبأت، ولكن الخشوع واضح على السمات والوجوه، وهو هناك في مكان بعيد، نفسه تحوم حول الجلوس، وترى ما اختبأ وتسمع ما يكتمه الصدر، وتبحث عن الحقائق بين مغامرات النفوس الهاوية. كان هناك في مكان ما يرى الكون متسعًا وممتلئًا باللآلئ والكنوز، ولكنها كنوز لا تلمع كالبرق، ولا يمكن احتواؤها في مكان ولا بهو. كم طامعًا؟ وكم حاسدًا؟ وكم منافقًا وطالب خدمة ومنفعة؟ وكم رجلًا جاء من أجل علم أو عدل؟

طارت روحه حول المكان، ولم تلتحم بروح أيٍّ من الجلوس، طارت في معرفة وحسرة على المريدين والمنافقين وأصحاب النوايا الخبيثة.

اقترب منه الواحد تلو الآخر، هذا ينحني احترامًا، وهذا يريد تقبيل يديه والمكوث بين قدميه، وذلك يمدح في علمه ومعرفته وهو صامت لا يخترقه إطراء ولا يؤثر فيه شعر، كان جالسًا يعرف أن الكبر يدخل نفوس الضعفاء، وأن القوة في الثقة والثبات.

استمع في صبر حتى استغاث به أحد شيوخ القاهرة وقال في قوة: قاضي القضاة أغيثونا من المماليك!

في اللحظة ساد الصمت وانتكست الرءوس لسبب آخر غير

الخشوع والرهبة.

قال عمرو: ما الأمر؟

- الحال استفحل والزمن قاسٍ علينا يا مولاي.

ثم وثب أمامه وقبل يده وقال: جنود المماليك تركوا قلاعهم وأصبحوا يقضون لياليهم في حانات بولاق، ويجلسون مع العامة يتاجرون ويصاهرون، السلطان لا يسمع الشكوى.

- السلطان لا بد من ذكره بالخير في مجلس القاضي.

قال الشيخ في حسم: هي كلمة حق أقولها. ما بال الجنود يتزوجون من بنات مصر ويقطنون الحواري والعطوف؟ منذ متى يختلط الشراكسة والأتراك بالمصريين؟

علت الهمسات حتى قال الشيخ: أطلب حمايتك حتى لا أقضي عمري في السجن.

اقترب حمزة من عمرو وهمس: هو يقول الحق يا مولاي، السلطان سمح للجنود بمصاهرة المصريين والزواج من بناتهم. بل تزوج هو نفسه بأخت شاد العمارة الذي بنى مسجده. هذا أمر غريب علينا.

قال عمرو: وما العيب في هذا؟ الزواج سترة وخير للجنود والمصريات، الرجل لا يعيبه نسبه ولا جنسه وعشيرته، بل دينه وتقواه.

قال الشيخ في قوة: لا تقوى في قلوب الجنود، ولا أهل لهم ولا أصل، عبيد ومحاربون وليسوا منا ولسنا منهم.

قال عمرو في حسم: هم بشر مثلنا، ما يسري عليهم يسري علينا، ولو أخطأ أحدهم نقوِّمه، ولكن لا بأس بمصاهرة الجندي ما دام لا غبار على دينه وخلقه. أما إذا كان يذهب إلى الحانات ويشرب الخمر فهذا شيء آخر يطبق عليه العقاب مثله مثل المصري.

التفت الشيوخ كل منهم إلى الآخر، وعلت الهمسات بأن قاضي القضاة يحابي الجنود ويحب المماليك؛ لأن السلطان أعطاه منصبًا لا يستحقه، وأنه لن يحكم بالعدل في هذا الشأن.

قال الشيخ من جديد: أخاف من حرب بين الأهالي والجنود يباد فيها العامة.

- الجنود يريدون الزواج وليس الحرب.

- يا مولاي جاءني أكثر من أب يسألني أن أفتي له في هذا الزواج، وكنت أرفض دومًا؛ لأن الزواج قائم على المشاركة والقوامة والجندي لا أمان له.

قال عمرو في حسم: لا تُحرِّم ما حلَّل الله، إنْ كانت لي ابنة وجاءها طالب للزواج ولا غبار على دينه أزوجها إياه، ولا يهمني من أين جاء ولا ما عمله، من اليوم يعلن قاضي القضاة أن زواج الجنود من العامة لا غبار عليه فهو جائز وشرعي.

بعد انتهاء المجلس قام واتجه إلى حجرته فسأله طالبه في رفق: مولاي.. تريد الدفتر بأسماء شيوخ القاهرة الآن.

هزَّ رأسه بالإيجاب، وجلس يراجع أسماء الشيوخ وعملهم، واستوقفه شيخان بدا له أن سيرتهما كلها سوء، القماطي والطبابي طلب البحث في أمرهما والقبض عليهما إذا لزم الأمر.

وانتشرت فتوى القاضي وأراحت صدر أمهات يردن الزواج لبناتهن، وأشعلت صدر شيوخ لا يرون في الجنود أي خير، ويرون في زواجهم من المصريات خرابًا وعارًا، ولكن الحروب تلاشت والبلاد استقرت، وبقاء الجنود في القلعة أصبح مستحيلًا، فتركهم برقوق يمشون في الأسواق ويختلطون بالمصريين، يتزوجون ويتاجرون ويتشاجرون وينصهرون وسط الجموع.

* * *

في شهره الأول زاره الأمير سلادون والي القاهرة ومعه الهدايا والجواري. استقبله عمرو بالترحاب، أدخل خدم الوالي الطعام والفاكهة والحرير والقرنفل، ثم قال الوالي في حماس: إنه أتى للقاضي بجارية رومية من أجمل ما رأت العين، وطلب من الجارية أن تزيح الخمار عن وجهها، فقال عمرو في رفق: لا داعي، كرمك واضح أقدره وأفهمه، ولا حاجة لي بجارية.

نظر إليه الوالي في غضب وقال: ترفض هدايا الوالي؟!

قال في رفق: قبلت هداياك من طعام وفاكهة لأنني أعرف من يحتاج إليها ولا حاجة لي بالجواري.

صمت الوالي برهة ثم قال: سمعت عن بيتك الذي بعته في القاهرة.

ثم نظر إلي البيت الذي يقطن فيه عمرو وقال: تحتاج إلى بيت أكبر وأوسع يكفي لعقد المجالس واستقبال العامة والأمراء.

ابتسم عمرو وقال: والي القاهرة يغدقني بكرمه، وأعرف أنه يفعل هذا لأنه متحمس لرؤية العدل يسود تلك المدينة التي أضاءت دومًا مشكاوات العالم.

قال الوالي بسرعة: بالطبع، أريد فتواك أولًا في أمر يخصني.

نظر إليه وهو ينتظر ما سيقول، فأكمل الوالي: لا طاقة لي بصوم رمضان، حاولت ولم أستطع، يصيبني دوار ومرض. سألت أحد الشيوخ فسألني إن كان الطبيب قد أفتى بإفطاري.

قال عمرو: وهل أفتى الطبيب بإفطارك؟

قال في خيبة أمل: لا لم يفعل. إذ قال لي الشيخ: إن أفضل حل لهذا المأزق هو أن أسافر خارج القاهرة طوال رمضان، وما دمتُ كنت على سفر فلدي رخصة للإفطار، ما رأيك يا شيخ

هل أغضب الله بالسفر؟

قال عمرو: تسألني أسئلة فوق احتمالي، الله يعرف نواياك وقدراتك يا أمير.

قال في تأكيد: ولكن الشيخ أعطاني الرخصة.

- يعطي الشيخ الرخصة ولا يضمن عقابًا وثوابًا، يجتهد والأمر لله من قبل ومن بعد.

- كلامك لا يريح ولا يوضح المعاصي من الصدقات.

- كلامي واضح يا أمير، وليس غرضه الراحة والوصول بل الاجتهاد والمعرفة.

التقت أعينهما فقال الوالي: سمعت عنك كل خير يا شيخ، وأريد منك أن تفكر في أمر مهم، ثم تعدل في اختيارك.

انتظر عمرو ولم يتكلم، فأكمل الأمير: قاضي قوص.

ردد: قاضي قوص؟

- لا أقصدك أنت، أقصد من ستعيِّنه قاضيًا على قوص الآن.

فقال في حسم: من يستحقها؟

- يستحقها الشيخ القماطي الترزي.

رفع عمرو حاجبيه ثم قال: لم أكن أعلم أن الولاة لديهم كل الوقت لمعرفة حال الشيوخ.

تجاهله ثم قال: أتعرفه؟ أفكرت فيه قاضيًا لقوص؟

- لا أعرفه، ولكن سيرة الشيخ تتبعه أينما وجد، سأسأل عنه.

- لا داعي للسؤال لو أخبرك الوالي أنه نعم الرجل.

- بل هو عمل القاضي التحري والتقصي يا أمير، هي أمانة يحاسبني عليها الله.

قام الوالي في شيء من الغضب وقال: ابحث إذن، ولكنه الأصلح.

هزَّ عمرو رأسه وقال: زيارتك شرف لبيتي.
- سمعت عن معاملتك للولاة والأمراء، أتمنى أن تعرف أن وجودك يعتمد عليهم.
قال في هدوء: هو الله موزع الأرزاق ولم أعتمد عليهم من قبل.
قال الوالي بصوت خافت: للغرور الفناء يا عمرو.
- لنا جميعًا الفناء يا أمير، ولكن ما يحدث بعد الفناء هو ما أعمل من أجله، الله أحق أن أخشاه كما تعلم.
نظر إليه الوالي في غضب، ثم أمر الخدم بالرحيل وأخذ جاريته معه.
بقي عمرو مكانه ثواني ليكتم غضبه، ثم نظر إلى أحد مساعديه وقال: ابحث لي في شأن هذا الشيخ، كنتُ قد وجدت تجاوزات كثيرة، ولكنني أريد التأكد.
هزَّ الرجل رأسه ورحل.
في المساء استدعى ولديه وزوجته وأجلسهم أمامه، وقال في صوت حاسم: في هذا المنصب بلاء وغواية. والبلاء لي ولكم.
طأطأت ضيفة رأسها، وكانت قد سمعت حديثه مع الوالي وبدت كعادتها غير واثقة وخائفة، أما ولداه فاستمعا في احترام وبلا كلمة. قال وهو ينظر إليهما: بعد عدة أعوام أزوجكما إن شاء الله، والآن تتعلمان وتفهمان وتتفقهان في الدين، واعلما أن الشيطان يأتي في أجمل الصور، وينبع من داخل النفس؛ ليفسدها، وأن انحراف أبناء قاضي القضاة غاية الكثيرين، وأن فخر الدين لم يزل حيًّا يريد الانتقام، وهناك آلاف منه في مصر وخارجها، واعلما أنني لا أخشى موتكما؛ فالعمر مكتوب في كتاب لا حيلة فيه، ولكنني أخشى خسارة النفس التي

تفقدكما الدنيا والآخرة.

ثم نظر لكل منهما، وأكمل: أحمد وحسن بلغتما سن الاختيار والمعرفة، لو حدث وعرفت أن أيًّا منكما شرب الخمر أو الحشيش أو ذهب إلى بولاق يبحث عن غانية لأقمت عليه الحدَّ هنا في بيتي وبلا تفكير.

بلع الولدان ريقهما وبقيا صامتين، فأكمل في صوت حاد: لا أخشى في العدل شيئًا، لدى كل منكما حارس يحميه من شياطين الأرض، ولكنني لا أستطيع حمايتكما من شياطين النفس، ولي من الأعداء من سيفكر في إضعافي بكما، فكم من ولد كان عدوًّا لأبيه يضعفه ويثبط عزمه ويخسر به نفسه ويهبط بها إلى أسفل السافلين، وأنتما خير البنين، وأريد ألَّا تغترَّا بمنصبي ولا تظنا أنكما فوق البشر أو أفضل منهم، هو منصب فانٍ، والباقي أعمالكما فقط، أكرر لكما، سأقيم الحد بلا تفكير على ولدي قبل الغريب.

قالا في وجل: نعرف يا مولاي، ونفهم.

ابتسم وقال وهو يربت على كتفيهما: لم أزل والدكما، لا داعي لأن تنادياني بمولاي.

قالا مسرعين: نعرف يا أبي.

قام في صرامة وأشار لهما بالخروج، وضيفة لم تزل تستمع وهي مطأطئة الرأس، قال في فضول: ضيفة؟

قالت وهي تنظر إليه في بطء: نعم يا مولاي؟

لم ينطق، وكانت ترى الغضب في عينيه وتعرفه. زيارة الأمير أخرجت عناد نفسه وكبرياءها، كانت تفهمه.

قال وهو يتجه إلى حجرتهما: أريد النوم، كان يومًا طويلًا.

سارت وراءه ودخلت معه ثم قالت في صوت حانٍ: تريد أن تأكل شيئًا؟

قال في ضيق: لا.

فقالت وهي تساعده على خلع عباءته: رأيت الجارية والوالي.

قال بصوت خافت: كيف يختار السلطان هؤلاء الولاة؟! لا أعرف، هل وزَّعتِ الطعام الذي أتى به على الفقراء حول البيت كما أمرت؟

قالت مسرعة: نعم.

بعد أن خلع رداءه تمدَّد على مخدعه، فجلست بجانبه ولمست كتفه وقالت: اضغط لك على كتفيك؟ تبدو متعبًا.

لم يجب، فضغطت بكفها على كتفيه وقالت: عمرو..

قال وهو لا ينظر إليها: نعم.

- هل كنت حقًّا ستقيم الحد على ولديك لو شربا الخمر أو ذهبا إلى الغواني.

قال بلا تفكير: بالطبع.

علت دقات قلبها وقالت وهي لم تزل تدلك وتفرك كتفيه ورقبته بكفيها: ولكنهم صغار و.. أبناؤك.

- أتعرفين شيئًا عنهم أم تخافين الحدود؟

قالت وأصابعها على رقبته ترتجف: لا إنهما نعم الأبناء. لم أرَ مثلهما، أقسم لك، لم أرَ منهما سوى كل خير، فقط أحيانًا لا أفهم..

- لا تفهمين ماذا؟

- كيف تفصل بين نفسك وعملك؟ لديك قدرة كبيرة على ردع النفس، تستحق منصبك.

بقي صامتًا ويداها على كتفه تُهدِّئ آلام اليوم، ولكن الغضب لا يخمد، شعر بأنفاسها تقترب من رقبته، اقتربت بشفتيها وأغمضت عينيها وهي تشتاق وتتمنى وكأنها تنوي أن تقبله،

ولكنها توقفت في تردد فقال: يمكنك أن تقبلي زوجك في أي وقت. لا أفهم لَمَ الخجل؟

قالت وهي تبتعد وتدعك عظامه بأصابعها: لم تر الجارية التي أتى لك بها.

قال في صرامة: لا تعنيني الجواري ولا هدايا الوالي.

ثم قال والغضب لم يزل يسيطر عليه: لِمَ الخجل يا ضيفة؟

قالت وهي تقترب منه: اعذرني، لا أعرف ما تريد.

- افعلي ما تريدين أنت. ألا تعرفين هذا أيضًا؟!

قالت في تلعثم: أغضبتك الآن وكنت أقصد أن أزيح غضبك.

قال وهو يدير وجهه إليها: لم تغضبيني، هو الحمل الثقيل الذي على عاتقي ما يقلقني.

وكان لديه يقين بأنه خلق ليعمل هذا العمل وأن في العدل الغاية والحياة، وأنه الأصلح والأعلم.

لم تقل شيئًا آخر، وكانت قليلة الكلام معه. نمت علاقتهما وأخذت منعطفًا لم يتوقعه، كان يريدها دومًا، ودائمًا تشتاق إليه وتندثر من حوله وتختلج بين ذراعيه وتخبره بكم تحبه، اشتياق الجسد كان دومًا لها هي منذ البداية، ولكنه اشتياق النفس الذي حرمته منه، هي ساعات قضاها معها في الصحراء منذ أعوام، وظن أن الساعة لحظة وأن الغروب ظهر، وأن كلماتها تضيء الكون من حوله، ضحكت ولعبت واشتعلت بالسعادة. وكان هذا ماضيًا وانتهى. اختبأت نفسها الآن في مكان يصعب الوصول إليه، وبعد وقت يئس من محاولة الوصول واكتفى بإشباع الجسد، كان لا بد أن يعرف أن العمر لا يمر بلا علامات سوط وعلامات آلام تغير مجرى الكون وتجعله مائلًا معيبًا. هي حياتنا التي لا تعتدل سوى بالفناء، ولكنها ضيفة من أحبها وأرادها، ضيفة من تحملت من أجله ما يفوق تحمل البشر.

شوقه لها لا ينتهي ورغبته لا تخمد وهذا يكفيه، فلا اكتمال للقمر في كوكبه ولا وصول للمستحيل.

في الصباح استقبل مساعده في مجلسه، وجاءه بأنباء الشيخ القماطي، وأخبره بأنه مسئول عن وقف الأيتام. طلب عمرو من مساعده المقرَّب أن يأتي بكل حسابات وقف الأيتام ويجهز زيارة للوقف وللشيخ في سرية.

بعد مراجعة الحسابات بالتفصيل قام بزيارة الوقف والأيتام والشيخ، وتأكد من أن الشيخ يسرق من مال الوقف، أمر بالقبض عليه في الحال.

قال مساعده في رفق: مولاي.. التريث أفضل، وإغضاب والي القاهرة..

قاطعه: لا ولاية عليَّ من أمير، من يسرق يعاقب سواء كان شيخًا أو أميرًا.

قال الرجل في رفق: هو شيخ له المريدون والطلاب، هو ليس أميرًا يهابه العامة ولا يعرفونه، بل شيخ يخطب في الجوامع ويصدر الفتاوى.

قال في صرامة: وهذا الأمر أخطر من أمير يظلم أو يبطش، الفتنة أشدُّ من القتل، وأكل مال الأيتام كالنار في البطون.

قال مساعده في استسلام: لك الأمر يا مولاي.

* * *

طلبت منه ضيفة على استحياء أن يطلب من أمها أن تحضر ولادتها لتساعدها لو استطاع، فوافق على الفور، وجاءت الأم بعد بضعة أيام وبدت في حال أفضل، ما إن رأت بائعة الملح حتى احتضنتها في حرارة وسألت عن حالها، ثم جلست مع ابنتها ساعات تتكلم وتضمها في حنان، وجاء موعد ولادتها. وبدا هذا العام عام فقر وجفاف لأهالي مصر، النيل لم يَفِضْ

والمحاصيل ذبلت والعامة اعتادت الخبز بلا زبد أو لحم، وطلب السلطان مقابلة كل العلماء لأمر مهم، وولدت ضيفة بنتًا، ثم بدا أنها لن تعيش لتراها.

ازدادت عليها الحمى، وعجز الأطباء عن أن يجدوا علاجًا سريعًا. بعد يومين كانت لا تعرف أمها أو زوجها وكانت عيناها زائغتين وجسدها ينتفض من سخونته.

بدأت أمها في النواح بلا توقف وصراخها يهز سور القاهرة، وكانت تدعو الله أن تموت قبل موت ابنتها أو أن تبتلعها الأرض حية.

كانت بائعة الملح تكنس في رتابة ووجهها متجهم، ولم تحاول تهدئة الأم ولا الكلام معها. أما الولدان فيحاولان أن يستمرا في دروسهما، وفكرة موت ضيفة تزعجهما وتذكِّرهما بموت أمهما من قبل.

أما قاضي القضاة فبلاؤه بدأ للتو على ما يبدو، أو كاد ينتهي لا يدري، كان يصلي معظم الوقت ويترك الكلام والطعام سوى الضروري منه، ويجلس بجانبها يقرأ لها القرآن والأدعية.

ويعرف أن في موتها موت روحه وكل غايته، مرضها كان كالضربة بالحجر على وجهه قبل الموت أفاقته وأصابته بالحيرة والغضب.

لم يكن يستطيع تركها ولا مقابلة السلطان في ذلك اليوم، ولم يكن يستطيع الكلام كثيرًا مع أحد.

قالت الأم في ألم وهي تبكي: لا بد أن يعرف والدها.

نظر إلى ضيفة، إلى عينيها الزائغتين ووجهها الباهت، وأمسك بيدها ثم قال: لا يعنيني والدها.

قالت الأم وهي تبكي: هو والدها، لا بد أن يعرف، ويدفنها في قوص.

وضع يده حول كتف ضيفة ثم أجلسها على مخدعها وضمها إليه وقال: ضيفة.. تسمعينني؟ ابنتك تحتاج إليك، تسمعينني؟

أزاح شعرها من على وجهها، ومسح جبهتها بماء بارد، وبدأ يتكلم معها بلا توقف.

دق ابنه على بابه وقال: أبي، هناك من يريد مقابلتك.

قال في صرامة: تركت نائبًا ينوب عني.

دخل طبيب وراء طبيب وهي لا تموت ولا تحيا، عشرة أيام لا تعرف أحدًا ولا تسلم روحها.

جاء الأب بوجه متجهم وطلب أن يراها، دخل معه عمرو وقلبه لا يغفر، وكرهه لا يقل مع مرور الوقت، نظر إليها الأب برهة ثم خرج من الحجرة.

جلس مطأطئ الرأس بلا كلمة.

استدعى عمرو صديقتيها ربما تستطيعان مساعدتها، وربما لديهما دواء يعجز عنه الأطباء، جاءتا تهرولان وتبكيان وبقيتا في حجرتها وحولها طوال الوقت.

قال الأب لعمرو بعد برهة: يبدو لي أنها تحتضر.

فقال عمرو بصوت أراده أن يكون ثابتًا: لله الأمر من قبل ومن بعد.

نظر الأب إلى زوجته وقال في حنق: هل أعطيتها الذهب الذي ورثته عن أمك؟

صرخت الأم: أيُّ ذهب يعوض ابنتي الوحيدة؟!

بقي عمرو ساكنًا شاردًا.

فقال الأب في إصرار: إذا كنت أعطيتها الذهب كما قلت فلا بد أن آخذه أنا أو أنت، اعذرني يا مولاي القاضي هو ذهب زوجتي، وإذا ماتت ابنتي فلا بد أن يعود إلينا.

كاد يدك رأس الأب في التو، ولكنه قام واتجه إلى حجرتها من جديد، وقال فجأة في صوت غاضب منها أو ربما من مرضها لا يدري: ضيفة! لا يمكن أن تفعلي هذا، ليس الآن، وليس بعد كل ما حدث، أيُّ امرأة أنت وأيُّ زوجة؟! أفيقي.

نظرت إليها العجوز الحبشية والعجوز اليمنية في ذهول، فصاح وهو يهزها: هيا أفيقي! لِمَ تموتين الآن؟ بعد كل ما حدث؟! وبعد كل ما عانينا! هذا ليس عدلًا، ليس عدلًا.

قالت اليمنية في استسلام: هي إرادة الله يا شيخ.

قال في نفس غضبه: لا يحملنا ما لا نطيق.

فقالت وهي تزيح العرق عن جبهة ضيفة: أنت شيخ وتعرف، الأعمار بيده.

أغمض عينيه وتمتم بأدعية ولوم ربما ورجاء وأمل وشك ويقين، ثم خرج من الحجرة، فقال الأب وهو يسير وراءه: أوجدت الذهب يا مولاي؟

قال في صوت بارد: اخرج من بيتي الآن، رأيت ابنتك وانتهى الأمر، لا أريد أن أرى وجهك ما دمتُ حيًّا.

نظر إليه رضاوي في كره وفزع ثم قال: تأخذ مال غيرك إذن؟!

قال في إصرار: هو ذهب زوجتك، وابنتك لم تزل حية.

فتح فمه فقال عمرو في صرامة: لو لم تخرج لناديتُ رجال الشرطة ليأخذوك من هنا الآن.

خرج وهو يسب ويلعن، وقبل أن يخرج قال لزوجته في إصرار: تجدين الذهب الآن، لو لم تفعلي لقتلتك، ولن آبه بأي شيء.

الغضب الذي نما في نفسه كان يسيطر الآن ويخرج كل الشياطين، اتجه إلى حجرته وسجد على الأرض وغطى وجهه بيديه وتكلم كثيرًا مع الله.

دخلت عليه بائعة الملح في بطء ثم قالت: أعرف، وأفهم، ألم أخبرك بأن الشوق للغائب يمزق القلب ويذهب العقل، لا بأس.

قال في صوت قوي: اخرجي الآن.

همست: كلما تمسكت بالحبل جرح يديك وآذى نفسك، اتركه بشجاعة ويقين، يهتز اليقين لدى النفوس القوية، ولكنه يعود ثابتًا كالوتد، يا بني.. هو أرحم الراحمين.

بقي صامتًا، خرجت وتركته وهو لم يزل راكعًا يهمس: لا بد أنني لم أصل بعد ولم أفهم، ها أنا ذا أتجه لك من جديد لأمر من أمور الدنيا يملك نفسي كلها، ويبدو العالم بعده بلا فائدة، كنتُ أريد أبنائي ثم زوجتي، كل من سأتركهم يوم الحساب، لم أستطع أن أتجرد كما تمنيت من كل أمور الدنيا، ولم أستطع أن أترك الشوق سوى إليك، هي نفسي الضعيفة، رجوتك من قبل ونصرتني.

ثم قال في استسلام: لو ماتت فهي مشيئتك وعمر مكتوب، أعرف، وأرجو، ولكنني لستُ أهلًا للرجاء، عجزي يكسر غرور النفس ويهذبها، أقسم لك وأنت تعرف أنني حاولت واجتهدت، اغفر لي غضبي وسخطي، فقد صنعتَ النفس وتعرف ضعفها وانحرافها.

هدأ بعض الشيء، وبدا أنه قد تمالك نفسه أو استسلم وتقبل القدر بعزم، وخرج من الحجرة فاصطدم بولده الذي قال في رفق وخوف: أبي.. الشيوخ ينتظرونك لتصلي بنا الجمعة كعادتك، ماذا أقول لهم؟

هزَّ رأسه وقال في استسلام: لا تقل شيئًا سأصلي بهم.

ثم اتجه إلى حجرتها وسمع صرخات الأم المكتومة التي تخترق أذنه كالسهم فقال في عدوانية: كُفِّي عن الصراخ.

قالت وهي تنوح: هي ابنتي الوحيدة!

قال في حزم وهو يتحاشى النظر إلى ضيفة: هي لم تمت، لماذا تصرخين؟

- ستموت. أرى الموت في شفتيها الزرقاوين، وأعرفه.

نظر إلى ضيفة بلا إرادة، ثم انحنى ومرَّ بأصابعه على شفتيها وقال: لم تزل تتنفس، لا تقنطي من رحمة الله.

ردَّد لنفسه كلمات من القرآن وذهب يؤم الصلاة، وختمها بدعاء طويل، وخشى أن يلوِّن حزنُه صوتَه أو يصل يأسُه إلى الحضور.

همس أحد طلابه: سمعتُ عن مرض زوجتك يا مولاي وشيخي.

ردَّد: الصبر من عزم الأمور، هو قضاء الله، لا مرد لقضائه.

ثم ردَّد لنفسه قول الرسول وهو في طريقه إلى حجرتها: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي.. إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

دخل حجرته وأغلقها واستمر في صلاة وحده، وعندما جنَّ الليل كانت نفسه قد هدأت والحزن قد استقر والفقد ممكن وموجود دومًا.

واتجه الي حجرتها يتوقع الأسوأ ويستعد له بعزم ومعرفة بأن فقدها غير كل فقد، وحبها غير كل حب، وعذابه من أجلها غير كل عذاب، وأن التمسك بالدنيا ومن فيها خدعة من عمل الظلمات؛ فالكل راحل والأيام متقلبة، والوصول إلى القوة بداية الضعف وذروة النشوة في نهايتها، وضيفة التي تزوجها كانت انتصاره وهزيمته، قتلها الأب مرة ومرات، ولم يعد في نفسها الرغبة في العيش ربما، سلبه كل شيء رضاوي.. كل أيامه معها وكل أحلامه وكل لمعة في عينيها كان ينتظر رؤيتها، ليس للحقد مكان في قلوب المؤمنين، فلِمَ يحقد قلبه ويأبى أن

يغفر؟ بل يتعمد بقاء الجرح طازجًا متأججًا وكأنه بائعة الملح. ربما أحب بائعة الملح؛ لأنها منه وله، تذكره بالنار التي تأكل قلبه، والإصرار الذي يسيطر على نفسه، والعناد والحروب التي يريد أن يخوضها. ما أجهله! وما أهون العمر الآن، وما الفائدة من الحقد والكره؟!

ردَّد مرة أخرى.. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي... كلمات النبي تريح النفس العجول الجزوع، وكرهه لرضاوي لا ينتهي، لو جلده ثمانين جلدة حتى مات! ولو سجنه بقية عمره.. لو جرسه في قوص كلها... لِمَ لم يفعل؟ وأيُّ جدوى من الانتقام؟ في الانتقام قصاص وراحة أحيانًا، وفي رحمة الله كل الفوز.

كانت الأم قد بدأت بالعويل من جديد والطبيب يجلس بجانب ضيفة، تأوهت في ألم، فاتجهت عيناه إلى وجهها، وقال للطبيب: هل ستعيش؟

لم يجب الطبيب في البداية، وضع يده على جبهتها برهة وأعطاها بعض الدواء، ثم قال الطبيب في صوت حاسم: يبدو لي أنها ستعيش. انخفضت الحرارة وزالت الحمى.

تنفس في ارتياح ودخل حجرته يصلي، ولم يخرج منها حتى الفجر. بعد الفجر دخل حجرة زوجته وكانت نائمة، وضع يده على جبهتها، بدت في حال أفضل، فقبل جبهتها في بطء، ثم نظر إلى الصندوق الكبير الذي أحضرته لها أمها، وقال للأم التي تجلس بجانبها في صمت لا تنام ولا تأكل: ما هذا الصندوق؟

قالت في صوت مبحوح: هي أشياؤها التي تحبها. تحتفظ بها في هذا الصندوق منذ الطفولة.

نظر إلي الأم، ثم فتح الصندوق، وبدأ ينظر إلى محتوياته، وقال: عن أيِّ ذهب كان يتكلم الأب؟

قالت في نفس الصوت: هو ذهب ورثتُه عن أمي، حاول كثيرًا

أن يحصل عليه، ولكنني تركتُه في بيت أبي، ثم أعطيته لها وخبأته في مكان لا يصل إليه، لم أخبره أنني أعطيته لها سوى بعد زواجها، فلو أخبرته لكان سيضربها حتى تعترف بمكانه.

قال وهو ينظر إلى الأشياء داخل الصندوق: وهو معها أم معك؟

بقيت صامتة، نظر إلى عروس قطنية احتفظت بها وبعض البخور ووشاح أبيض، يتذكره جيدًا.

أمسك بوشاحها الأبيض الذي مررته على يده واحتضنته يومًا، ثم وضعه في مكانه في حرص، ودسَّ يده ينظر إلى بقية أشيائها، ثم فتح عينيه والعمر قد توقف للتو.

ضغط بأصابعه على الرداء، وناجى عقله في رجاء ألا يكون قد جُنَّ حقًا، وتملكته الشياطين، كان نفس الرداء أو شُبِّه له، رداء أحمر مزيَّن بالفضة، تحسس الفضة بأصابعه، ثم قال في صوت مهتز بعض الشيء: ما هذا الرداء؟

قالت في نفس صوتها الحزين: هو رداء صنعتُه لها خصيصى لليلة الزفاف، ألم تأخذه معها؟

ردد و هو يطبقه بين يديه: لم تأخذه معها.

- مولاي، أنت بخير؟

كانت تقبله في شوق، شعر بصدرها بين ضلوعه وارتجافها في داخل أحشائه، ضيفة، ما بين الحقيقة والخيال طمست معالم عمره، وتلاشت خطيئته ودفنت أو هكذا شُبِّه له.

قتل الحارس أم لم يقتله؟ كان قتلًا عن عمد أم دفاعًا عن النفس؟ زنا بها أم لم يفعل؟ هو السحر الذي اتهمها والدها به يلعب بعقله، فيجعله يرى ما لم يحدث، ويشعر بما لم يكن، لا بد أنه السحر، كيف لم يشك في أنها ساحرة؟ كيف لم يفكر في علاقتها بالضباع والساحرات؟ أيُّ عقل يصدق أنها تصادق الضباع؟ كيف عماه حبه عن رؤية الحقيقة؟! لو كان هناك

حقيقة!

هي ساحرة ربما.

ولِمَ سحرته؟ أحبته وسحرته، ثم تحطمت وانكسرت، ولم يتبق منها إلا أشلاء؟ لِمَ لم تكف أذى الأب عن نفسها لو كانت ساحرة؟ ولِمَ الخوف والتردد و.. الخجل.. الكثير من الخجل؟!

هي فرصته الوحيدة ليفهم ويعرف، ولو كان في الفهم فناؤه فلا بد من طمس الحقائق، هي أشياء تسوءه لو عرفها، العقل مبهم الآن، نظر إلى ضيفة وهي تتأوه في نومها، وحنانه يسيطر على كل الحقائق الآن. ثم قال للأم: هل سافرت ضيفة قبل زواجنا بشهرين أو ثلاث؟

قالت في تأكيد: لم تفعل، لم يكن يسمح لها والدها بالخروج.

فقال في قوة: لماذا كان يعذبها هكذا؟ ما الذي جعله يضربها كل هذا الضرب؟

تمتمت: هي طبيعته يا مولاي: وعنادها الذي لا نعرفه في بلادنا.

خرج من الحجرة، واتجه إلى حجرة ابنته التي لم يرها سوى ثوان من قبل، كانت سمراء كأمها بملامح جميلة وكف يتشبث بالعيش. أمسك بكفها الصغير، ونظر إليها برهة ثم خرج.

اتجه إلى مجلسه، وحاول السيطرة على وسواسه وشكه وخوفه من الجنون.

* * *

المقابلة بين السلطان والعلماء كانت قصيرة وممتلئة بالتوتر، طلب من الشيوخ أن يحصل على بعض أموال الأوقاف؛ حتى يتسنى له إطعام أهل مصر بعد الجفاف، ورفض الشيوخ مجتمعين، فلمَّحَ السلطان بأن الشيوخ تستعمل أموال الأوقاف وفق هواها في معظم الأحيان، وغضب الشيوخ، وغضب

السلطان، ثم استقر الأمر على أن السلطان سيحصل على بعض أموال الأوقاف هذا العام فقط.

اتجه إلى عمرو طالبُه المخلص، وهمس في وجل: مولاي، سمعت عن مرض زوجتك وأتمنى أن تكون في حال أفضل.

قال في اقتضاب: هي في حال أفضل.

فقال الطالب في خجل: أريد أن أخبرك بشيء وأتمنى ألا تغضب.

- تكلم.

- السلطان أفرج عن الشيخ القماطي.

رفع حاجبيه في دهشة وتحدٍّ ثم قال: متى وكيف؟

- رفع الشيخ شكوى للسلطان واستجاب له، حدث كل هذا خلال مرض زوجتك، وخشيت أن أزيد همومك، تعرف يا مولاي وشيخي كم يحقد عليك الشيوخ، أخاف عليك..

ثم نظر حوله وقال: للسلاطين سطوة وبطش، ولا عالم يرهبهم، ولا علم يصدهم عن نزواتهم عندما يشعرون بتهديد على سيطرتهم.

- ما قصدك؟

- أعرفك يا مولاي، وأعرف أنك لن تصمت، ولكنني أرجوك ألا تدخل في مواجهة مع السلطان، فلا شفيع لك بعده على الأرض.

- الله يشفع لنا كلنا.

- وطلب منا ألا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، لو عزلك السلطان يخسر المصريون أكثر من وجود القماطي، لا بد أن تختار أقل الضررين.

بقي ساكنًا ثم قال: لوالي القاهرة نفوذ كبير على ما يبدو.

نظر الطالب حوله من جديد ثم قال: شركسي ومن نفس عشيرة السلطان، لا انتصار عليه.

- والقماطي يدفع له؟

- يغدقه بالهدايا ويصدر الفتاوى على هواه.

- أرسلْ مرسالًا للسلطان بأنني أريد مقابلته.

- في محاربة الفساد مغامرة وجهاد يا مولاي أعرف، ولكن في التهلكة فناء لا فائدة منه.

- أفهمك.

* * *

نظر إلى زوجته وهي تهز ابنتها وتغني لها وتحتضنها، ثم ربت على كتفها وقال: حمدًا لله أنك بخير.

نظرت إليه في شيء من الخزي وكأنها ارتكبت فاحشة وقالت: لا أعرف كيف ستسامحني على ما حدث.

فتح عينيه وقال: وماذا حدث؟

- مرضي خلال أيام وأيام وعدم حضورك موعد السلطان.. لو مت فكنت سترتاح من عناء مسئوليتي!

كلماتها الغريبة دومًا غير المتوقعة أغضبته الآن أكثر من أي وقت آخر، ولكنه صمت؛ حتى لا يصيح في وجهها وهي لم تزل مريضة.

قالت وهي تحتضن ابنتها: سامحني إذ كنت أنجبت لك بنتًا وليس ولدًا.

قال في استياء: كنت أعتقد أنك ذكية، ماذا حدث لك؟ ألا تميزين بين الرجال؟ أنا لست والدك يا ضيفة، والبنت نعمة من الله.

ابتسمت في مرارة وقالت: أترى لو كنت قد قبلت بهدية الأمير

كان على الأقل سيكون لديك أحد لو مت.

فتح فمه لا يصدق ما تقول، قال في فزع حاول أن يداريه: كنت تريدين أن أقبل الجارية؟ كنت ستتحملين هذا؟!

بقيت صامتة لا تنطق.

ثم قالت في صوت خافت: ربما لا، ربما كنت سأتعذب، ولكنك تستحق ألا تتعذب.

بقي صامتًا ثم قال: تريدين أن تصبحي مثل أمك؟

قالت بلا تردد: لا.

فقال وهو يمسك بيدها: ولو أحببتُ الجارية وهَجَرْتُكِ، فكرتِ في هذا؟ لِمَ تتكلمين بلا تفكير؟ ولِمَ تتأسَّفين على إرادة الله؟!

طأطأت رأسها وضغطت على يده ولم تنطق.

فقال: ضيفة.. تريدينني أن أشتري جارية؟

قالت في ترّجٍ: أتوسل إليك ألا تفعل.

- كنت تقولين أن عليَّ أن أفعل هذا حتى أجد من يؤنس وحدتي لو مرضت، نسيت؟

قالت مسرعة: هو مرضي أثَّر عليَّ، لو متُّ أتمنى أن تتزوج وتسعد مع غيري، ولكنني لم أمت..

قال وحنو لها يطغى على كل الغضب: لم تموتي، والدك زارك.

تجمدت مكانها وارتجفت يدها فقال في لامبالاة: لن يأتي هنا من جديد، إنْ أردتِ رؤيته أبعث معك حارسًا لرؤيته، ولكنه لن يدخل بيتي.

بقيت صامتة. فقال وهو يمر بأصابعه على يدها: كان يسأل عن ذهبك، لم أكن أعرف أن لديك ذهبًا يا ضيفة. لم ترتدي ذهبًا قط.

بلعت ريقها وقالت: ليس لدي ذهب، إنَّما هو ذهب أمي.

- وأمك تحتفظ به؟
قالت في تأكيد: هي تحتفظ به.
قال وهو يقوم: أتمنى أن تحتفظ به في مكان آمن؛ فوالدك شَرِهٌ وطمعه لا حدود له.
شدَّت يده وقالت في ترجٍّ: لو أمكن ابقَ معي بعض الوقت.
وكانت أول مرة تطلب شيئًا بوضوح، جلس بجانبها ثم قال: بِمَ تشعرين الآن؟
- أنا بخير ما دمتَ أنت بخير.
تردد قليلًا ثم قال: تريدينني أن آخذك بين ذراعي؟
طأطأت رأسها ثم قالت: لو أمكن.. لو لا يضايقك هذا.
ابتسم وشدَّها إليه وقال: لا يضايقني.
أحاطت رقبته وأراحت رأسها على كتفه بلا كلمة.
ووسواسه ينخر في حشايا العقل.
كانت بكرًا في حلمه، ثم بكرًا يوم زواجه.
لا ملاءة بها دم وجدها، ولا شيء يثبت صحة حلمه، الرداء.. ربما مفعول السحر أو الحب جعله يرى ما ترى ويشعر بما تشعر، ألم تقل إنه قطعة من نفسها؟
قالت بعد برهة: أشكرك على دعوة أصدقائي.
لم يجب، مر بيده على ظهرها.. رائحتها ولمستها.. كل شيء.. أيُّ سحر وأيُّ جنون؟!
همس بعد برهة: سأعود إلى حجرتنا لو كنت في حال أفضل.
قالت وهي تداري حماسها: أتمنى هذا، أقصد لو لن يضايقك وجودك معي..
- قلت لك من قبل لا يضايقني.
- أعني ابنتنا معنا أرضعها وتصحو ليلًا، وأخاف أن تقلقك.

- لا تخافي، لا شيء يدعو للخوف.

* * *

جلس يراجع حسابات المدارس والأوقاف مع نوابه ومساعديه، وقد عين من يثق به ناظرًا للأوقاف. استوقفه مسجد بعينه.

فسأل: هذه كل حسابات مسجد السلطان حسن؟

قال مساعده: لم يعد يعمل بوصفه مسجدًا يا مولاي، بل أصبح ساحة قتال لأمراء المماليك وجنودهم، من قمته تبدو القلعة واضحة، ويمكن رمي السهام بسهولة والوصول إلى العدو، أقصد المماليك المتحاربة. أمر السلطان بتحطيم الدرج الذي يوصل إلى المدرسة والمسجد حتى لا يستعمله المماليك في حروبهم.

- وماذا يفعل المماليك الآن؟

- يقفزون ويتسلقون ويستعملونه يا مولاي، ولكن كل مدارسه مغلقة، لا أمل في توقفهم عن القتال بين أركانه.

- يقاتلون في بيت من بيوت الله له حرمة ورهبة تجتمع فيه الملائكة! ربما يحتاجون من يوجههم إلى الصلاح.

قال الرجل: مسجد السلطان برقوق يقوم بالغرض، ومدارسه وسبيله تعلِّم وتطعم الكثيرين.

قال عمرو: للمماليك ورع لم أرَ مثله ولا قرأت عن مثله، ولديهم جبروت يفوق كل الدول، نفكر في أمر المسجد، متى الموعد مع السلطان؟

- غدًا أو بعد غدٍ.

* * *

اللقاء اليوم كان مختلفًا، والحذر واجب والمجازفة لها قواعد خاصة.

قام السلطان في احترام ليرحب بقاضي القضاة، ثم أجلسه على عباءته وقال في عبوس: الشيوخ بطونها واسعة تأكل الأموال بلا شبع.

نظر إليه عمرو ولم يجب.

فقال برقوق: ما رأيك أنت يا عمرو؟

قال عمرو في هدوء: تدهشني كلماتك يا مولاي؛ فهي لا تتفق مع الإفراج عن القماطي، أو ربما لم تعرف بعد، كان يأخذ من أموال الأيتام.

قال برقوق وقد التقت أعينهما: أتتهم السلطان بالجهل أم بالغفلة؟!

قال مسرعًا: بل أعرف عن السلطان العدل والذكاء يا مولاي!

- ما يصلني عنك يا عمرو لا يسر، الشيوخ يقولون الكثير، ولو استمعت إليهم لأزحتك من منصبك..

بقي عمرو صامتًا ثم قال: خيركم من يستمع إلى القول فيتبع أحسنه، ليس كل القول سواء، وليست كل وشاية حقيقة.

قال السلطان في غضب: العلماء والشيوخ يحتاجون إلى وقفة من السلطان، يتجرَّءون ويطلبون ويرفضون، ولا يدرون بخطر المغول القريب منَّا، ولا بأعباء الحكم ومسئولية أهل مصر وقت الجفاف. ماذا في طلب السلطان لبعض أموال الأوقاف؟ هي ليست أموالهم ليتحكموا فيها، بل كل أموال مصر تحت تصرف السلطان وقت الخطر لو يعرفون، من غامر بحياته؟ السلطان، هو من سُجن وهو من يقاتل من أجلهم، أيُّ عالم يستطيع أن يمسك بالسلاح ويموت من أجل الدين؟ ولكنني كنت صبورًا معهم، أفتوا بقتلي من قبل وكنت صبورًا معهم، لم أسجن أيًّا منهم كما فعل أولاد قلاوون ولم أغدر بهم، يتحكمون في أموال الفقراء والمدراس وكأنهم ورثوها عن آبائهم.

بقي عمرو صامتًا. فقال السلطان بعد برهة: لماذا جئتَ اليوم؟

- لم أستطع المجيء للقائك يا مولاي، اعذرني، كانت زوجتي مريضة.

هزَّ رأسه والتوتر لم يزل يسيطر عليه ثم قال: وهي بخير الآن؟

- هي في حال أفضل؟

- عَمَّن تريد الكلام؟ عن الشيخ القماطي ووالي القاهرة؟ أكلما ذهبت إلى مدينة تشاجرت مع الوالي يا عمرو؟! هذا لا يجوز.

قال في صرامة: الوالي حاول أن يرشوني، والقماطي لا ذمة له ولا ضمير، كان لا بد من حبسه، هي أمانة أريد أن أعطيها لصاحبها.

قال برقوق في ضيق: ومن صاحبها يا عمرو؟

- من أعطاها لي.

- ومن أعطاها لك يا عمرو؟

فكر قليلًا ثم قال: هو الله يعطي ويزيل.

- بالطبع هو الله يعطي النعم، ولكنني أنا من استأمنتك على مصر يا قاضي القضاة، وأنا من يقرر من يدخل السجن ومن لا يدخل. للشيوخ الاجتهاد وللسلطان القرار.

بقي عمرو ساكنًا يسيطر على كلمات تقف في حلقه.

فقال السلطان بعد برهة: احكِ لي عن أخبارك وانسَ أمر القماطي، قاضي القضاة أكبر من أن يفكر في أمر أحد الشيوخ.

* * *

بعث عمرو مع المرأتين العجوزين حراسًا يرافقونهما عند وصولهما قوص، وطلب من الحراس أن يأتوه بالخبر اليقين،

أسافرت العجوزان خلال العامين الماضيين إلى الشام أم لا؟ هذا سيوضح له الكثير من الأشياء المبهمة، ولكن كون ضيفة تعرف مكان سجنه ثم تخترق قلعة وتصل إليه ضرب من المستحيل، لا يمكن لأحد أن يصل إلى سجين في قلعة ويقضي معه ليلة، هو خياله يلهو به مرة أخرى، ووسواس عقله يأبى أن يستسلم ويريد الانتصار، لو فقد عقله، لو تاه بين الحقيقة والوهم، لو اختفى من أمامه الضوء وسيطر على أيامه القادمة الظلام.. لو ولو..

ولو ترك نفسه بلا يقين لغرقَ أكثر، ولو حقق وفهم لندم ربما، أي قاض هو وأي محقق للعدل لو لم يكن يعرف خبايا نفسه ويحقق مع ذاته أولًا.

كان ينتظر في قلق قدوم الحراس وخبر العجوزين. بعد عدة أيام جاءوا وزفوا إليه الخبر الذي لا يعرف لو كان يريد سماعه أم لا. الحبشية واليمنية تاجرتان تسافران إلى كل البلدان، سافرتا إلى الشام مرة أو مرتين في العامين الماضيين.

بدأت الحقائق تضيء بمشكاة تعمي الأبصار أو هكذا شبه له.

عندما عاد إلى بيته لم يدخل ليسأل عن زوجته وابنته كما يفعل كل يوم، بل طلب مقابلة الأم في مجلسه. جاءت وفي عينيها فزع وقالت مسرعة: هل فعلت ضيفة ما يغضبك يا شيخ؟

أشار لها بالجلوس وأغلق الباب، ثم قال في صوت هادئ: أمَّ ضيفة، تحبين ابنتك؟

- هي كل حياتي.

قال في حسم: سافرت إلى الشام مع صديقتيها، لِمَ تكذبين علي؟

قالت في قوة: أقسم لك لم تسافر، ولم يسمح لها والدها

بالخروج.

أطرق ثم قال في قوة: تريدينني أن أعيدها إلى والدها اليوم؟ تريدين لها الموت؟ سأتركها لو لم تخبريني بكل شيء. سأتركها اليوم، الآن.

قالت في خزي: أتوسل إليك ألا تفعل، يكفي ما حدث لها.

همَّ بالقيام قائلًا: لا بأس، سأبعث معكما حراسًا حتى تصلا إلى قوص اليوم.

قالت مسرعة: سافرت.

هوى إلى الأرض، وجلس وقال: كذبتِ عليَّ، وكذبتِ عليَّ لماذا؟

تجاهلته وأخذت تتحرك في رتابة وقالت: هي أقدار مكتوبة، خافت أن تتركها، كانت تعشقك عشقًا لم أرَ مثله، إذا كنت تريد تركها فلا بأس.

قال مسرعًا: تحكين لي كل ما حدث، كل ما تعرفين.

قالت في شيء من الجفاء: أحكي لك ما فعلته يا مولاي أم ما لم تفعله؟ أحكي لك عمَّا أعرف أم ما لا أعرف؟ عندما قابلتك ضيفة، ما حدث بينكما لا أعرفه. تعرفه أنت. أم نسيته؟ أم تمنيت نسيانه؟

يبدو له أنه أضاء المصباح وأعمى البصيرة. بقي ساكنًا ثواني ثم قال: كيف تركها والدها؟ وكيف عرفت مكاني؟

قالت في نفس الجفاء: لم يتركها يا شيخ، لم يتركها، هربت مع صديقتيها.

ردد: هربت كيف؟

- تعرف الآن لماذا كان رحيمًا معها ولماذا لا بد أن تشكره لأنه لم يقتلها؟ هربت، بعد أن أخبرها بأنها لا بد أن تتزوج من

عبدين، هربت، قالت لي: إن حدث هذا فسأموت، لا أستطيع الزواج منه، قالت: إنها تقلق على مصيري، ولكنها ستموت لو تزوجت من عبدين. أعطيتها كل ذهبي وتركتها تهرب، عاشت في الصحراء مع الحبشية بين الضباع ولم يجدها أحد شهورًا، بحث أبوها عنها وانتكس رأسه، ثم أشاع أنها تصادق الجان، وأنها ليست بخير ولن تترك الدار حتى تشفى أو ينصرف عنها الجان، وضربني وعذبني وأقسم أن يقتلها.

بقي ساكنًا لا يدري أيكره نفسه أم يحتقر غروره أم يسجد طالبًا المغفرة.

أكملت: للتجار طرقهم الخاصة، وبين أيديهم كل الأسرار، يتعاملون مع المماليك والعامة والعلماء ويعرفون كل شيء. صديقتها اليمنية تبيع القرنفل للأغنياء، عرفت أن السلطان برقوق وكل من أيَّده مسجونون في قلعة الكرك، سمعتْ وتأكدتْ من أنك مسجون هناك أيضًا ولم تمت.

ربط نظره بالأرض ثم قال: كيف سافرتْ؟ كيف دخلتْ؟

- تعرف، لا بد أنك تعرف.

- باعت كل ذهبها؟

هزَّت رأسها وقالت: باعت كل ذهبها وأعطته رشوة للحارس لتراك وتطمئن عليك.

- السلطان برقوق بعث من ينقذني.

- ربما، لا أعرف، ولكنها دفعت للحارس لترى أنت النور وتأكل، ولتقضي معك يومًا أو ليلة قبل أن يقتلوك. كانوا في انتظار أوامر فخر الدين ليقتلوك، وتأخر لأنه كان يحارب ويقاتل لا أكثر. صديقتاها هما من تكلمتا مع الحراس وأعطتاهم قرنفلًا باهظ الثمن وتأكدتا من كل شيء.

تمتم: ضيفة.

قالت الأم: لا رجل يستحق من امرأة هذا، ولا أنت، لا أعرف لِمَ فعلت ما فعلت ولِمَ ضحت بما ضحت، ضلال وهوى داخل نفسها.

بقي صامتًا فأكملت: عند عودتها كان والدها قد سمع الخبر، وعرف أنها تختبئ مع التاجرتين، وما إن وصلت حتى أخذها وكان ينوي ذبحها ودفنها، وكنت أملك أرضًا ورثتها عن أبي قبل موته بلا أولاد، أعطيته إياها ليبقيها حية. عذبها وحرقها أيامًا وصرخاتها تصل إلى القاهرة، ثم عدتَ أنت.. وعندما عدتَ يا شيخ سألتها لو كانت تعرف أين كنت.. وبدا أنك نسيت كل شيء في محنتك وضلالك.

همس: كانت بكرًا.

لم تجب الأم.. دار بذاكرته لليلة زواجهما وإصرار الأم على البقاء معهما، ودخول ضيفة إلى الحجرة قبله، خدعته مع أمها، لم تكن دماء بكارتها، في خطيئته كل الحقيقة، أما ليلة زواجهما فهي الوهم والخداع.

قالت الأم في قوة: نعم كانت بكرًا ولم يمسسها غيرك يا شيخ.

قال في تأكيد: نعم، أعرف.

* * *

ربط نظره بالأرض في حجرة الاعتكاف، والآيات تتدفق داخل عقله، والحقيقة تكبح تكبُّرَ النفس واختيالها. كم مرة أمر بجلد الزاني؟ وكم مرة أمر بقتل من قتل عن عمد؟ وكم فتوى وكم حكم؟! حاول أن يكون رحيمًا، وحاول أن يفهم ويعذر. نعم، ولكنه يحتاج فتوى من القلب والملائكة الآن؛ فعقله لا يستطيع الإدراك ولا المعرفة.

جلد النفس لن يجدي والهرب هو أقصر الطرق للحقيقة في

الغالب، قتل لينقذ نفسه، ولو لم يهاجمه الحارس؟ كان سيهاجمه بالتأكيد، كان يهم بالهجوم عليه، وربما لم يكن ينوي قتله، ولو لم يقتل الحارس لكان سيحاول القبض عليه والزج به في الظلمات من جديد. لا بد أن للحارس أمًّا وزوجة وأبناء، لا بد أنه سيطل عليه من الجنة يؤنبه ويلومه أمام البشر أجمعين، أهو عشق لامرأة زج به إلى الظلمات أم تشبث بالحياة؟ أغوته أم كانت تلفظ رغبته من داخلها وتعرفها، أكانت تفهمه وتعرفه؟ أيُّ اعتكاف وأيُّ زهد؟ هي الدنيا التي تلهيه دومًا والسيطرة والمطامع، يعتكف أيامًا في رمضان وأيامًا كل أسبوع، ثم يقضي بقية عمره عبدًا لطموحه ورغباته، ولم يستطع الاستغناء والترفع عن الدنيا، أصبح الزهد مؤقتًا، والتمسك بالحياة أبديًّا، أيُّ شيخ وأيُّ قاض؟!

وهل يستطيع ترك المناصب والزهد في السيطرة؟ ولِمَ يتركها وهو أهل لها؟!

ولكنه ليس أهلًا لها لو كان قد أخطأ.

خُلق الإنسان جهولًا، والله يعلم أن الذنوب تتبع الإنسان وترافقه، والله وعد بالمغفرة، يريد تحقيق العدل وكف الأذى، يود لو استطاع أن ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف، ما حدث لم يكن عن عمد.. كان دليلًا على إنسانيته ربما.. لا يدري.

كانت دون العشرين، وكان عالمًا وناضجًا يعرف ما يفعل، أو شُبِّه له أنه يسيطر على كل أفعاله، أيُّ لوم لها لو كانت بين يديه بلا خبرة ولا معرفة، لا تعرف سوى عشقها الذي يسطو على كل الحواس! أيُّ ذنب؟!

ضيفة.. حثته على القتل والعشق، ودفعت به إلى الهاوية؛ لأنها تريده حيًّا، أيُّ امرأة وأيُّ ذنب وأيُّ مَلَكٍ وشيطانٍ! تذكر علامات السوط، لم يكن السوط هو ما ترك علامات حمراء

عميقة في ذراعها، بل النار والحرق. أغمض عينيه وبدت الدنيا شاسعة والعمر قصيرًا والدوام مستحيلًا.

* * *

كانت تهز ابنتها لتنام وتضمها وتنظر إليها بإمعان وكأنها معجزة على الأرض، وتقبل وجنتها، وتغني نغمات لا يعرفها، أطال نظره إليها برهة وهو واقف وراءها، وعندما نامت الطفلة وضعتها في فراشها ثم التفتت فوجدته واقفًا ينظر إليها في صمت، شهقت في فزع لحظة ثم قالت: لم أرك تدخل.

قال في صرامة: ضيفة، تعالي هنا.

التقت أعينهما فاتجهت إليه في حذر ونظرها مربوط بالأرض، فقال في صوت قوي: لم تزالي تخجلين مني، بعد عام من الزواج، لماذا؟

قالت في صوت خافت وهي تنحني وتمسك بيده وتقبلها وتضعها على جبهتها: مولاي قاضي القضاة.

- تسخرين أم تمزحين؟

قالت وكان متأكدًا من أن والدتها أخبرتها بما دار بينهما وهي مطأطئة الرأس ويده على جبهتها: ستقيم عليَّ الحد يا مولاي؟ وعدت أن تقيم الحد على أقرب الناس لو أخطئوا.

قال في مرارة: لا بد أن أقيمه على نفسي أيضًا لو أقمته عليك، وفي هذه الحالة فالقتل أكبر جرم، فعلته أنا ولستِ أنت!

قالت في صوت منخفض: نفسك محصنة من كل سوء.

نزع يده من يدها وقال: الإنسان، ما أجهله! يهوى خداع النفس ويعتاده، في الحق قوة وانتصار وفي الكذب هزيمة، وفي خداع النفس خسارة لا مثيل لها. مع ذلك فرحمة الله وسعت كل شيء.

- لا أدري لو كنت فعلت ما يغضبك، أتمنى ألا أغضبك.

قال في عدم صبر: وأنا أتمنى أن أمزق هذا الحاجز الذي تضعينه بيننا!

قالت في تأكيد: لا حاجز بيننا أبدًا يا عمرو، أنت كل شيء.

أطرق دقائق وهي لا تعرف فيما يفكر ولا ماذا سيقول.

رأت العذاب في عينيه كما رأته في ذلك اليوم منذ زمن، ثم بدأ كلامه في قوة: خدعتِني وباركتُ خداعك؛ لأن النفس تفضِّل الهوى على الحق.

قالت وقلبها يدق بقوة: لم أقصد خداعك.

قال في صرامة: بل قصدتِ خداعي، تعرفين.

أخذت تفرك يديها ثم قالت بعد برهة: تكرهني الآن؟

- بل ألوم نفسي على ضلالي وغفوتي، وأشفق عليك من حمل ثقيل حملتِه وحدك.

أمسكت بيده وقبلتها وقالت: يخيفني القاضي، لا أستطيع فهمه أحيانًا ولا الوصول إلى نفسه، لو طلبت منك يا مولاي أن تبحث لي عن عمرو..

نزع يده من يدها وقال: عمرو هو القاضي.

أخذت تنظر حولها في يأس وكأنها حيوان بري سُجِنَ للتو، ثم قالت في صوت ثابت: عاقبني إذن يا مولاي، لا بد لقاضي القضاة أن يضرب بيد من حديد.

قال في صوت خافت وتحديها المفاجئ أذهله: كيف تجرُئين على الكلام معي هكذا؟!

قالت لأول مرة في سخط: أتريد أن توبخني أم تلومني أم تجلدني؟ فعلت ما فعلت والله فقط من يحاسبني، هو يعرف وهو يرحم، أما أنت..

نظرت إليه وكانت نظرته جافة متحجرة فقالت: احكم يا مولاي، سأطيع أوامرك، ماذا تريد مني؟

- تخبرينني بكل شيء.

- لم أتوقع أنك نسيت، غضبت وثُرت بداخلي عندما سألتني بعد عودتك لو كنت أعرف أين كنت، تجلى لي أنك لا تريد أن تتذكر ما حدث، وأن عقلك رفض ما كان بيننا وأغلق أبوابه أمام الحقيقة، لم أكن أستطيع خسارتك ولا مواجهتك؛ ففي المواجهة النهاية ربما، غضبت نعم ونهش الغيظ قلبي، ولكنك كنتَ كل شيء بالنسبة لي.

هزَّ رأسه ثم قال: النجاة لا تكمن في الضلال.

- هو ضلالك أنت الذي احتفظت به، أما أنا فالحقيقة دائمًا كانت تتجلى لي.

قال في صوت صارم: بل أنت من أطعمت الضلال بداخلي حتى التهم الحقائق مجتمعة.

قالت في خوف وضيق: لو كان في الحقيقة موت روحي وفي ضلالك بقائي معك فماذا أفعل؟

قال في إحباط: أيُّ أوهام سيطرت عليك، كيف فكرتِ؟ ظننت أنني سأتخلى عنك؟ سأكرهك؟

قالت في تحدٍّ: لو كنت طمست الحقائق لتعيش في الأوهام فمن أنا لأوقظك منها؟ لست مَلَكًا وليست لديَّ قوى خارقة!

ساد الصمت بينهما، والتوتر والغضب والخوف والشوق، ولكن العشق الكامن في الروح لا يتزحزح ولا يتردد.

قالت في مرارة: ستتركني الآن، أعرف، أعرف أنك ستتركني.

نظر إليها وكأنه لم يسمع كلماتها، كأنه تلاشى بداخل نفسه واختفى من أمامها، ثم قال وكأنه يتكلم مع نفسه: ترى كم مرة خدعتِني؟ وكم مرة كذبت عليَّ وأنت تتظاهرين بالخجل

وقبلاتي تفزعك.. والضوء يربكك.. أيٌّ شيطان سيطر عليك؟!

همست في صوت يائس: ولكنني لم أخدعك، أنت تعرف، تشعر بي، تعرف أنني منك ولك ولم يمسسني غيرك، تعرف، أليس كذلك؟

قال في عدم صبر: أعرف نعم. ولكنني لست متأكدًا من صدق رغبتك وخجلك ولا شوقك ولا أيِّ شيء.

قالت في شيء من الترجي: عمرو.. بل تعرف، قلبك يشعر كم أحبك وكم أشتاق إليك، لا تجعل الضلال يقف بيننا مرة أخرى.

لم يجب، أطال نظره لسجادة على الأرض بها ألوان متشابكة ثم قال: لم يكن هناك داعٍ للكذب، كانت خطيئتي وليست خطيئتك، أنت صغيرة وتلقائية، وأنا العالم القاضي، لم يكن الذنب ذنبك.

قالت في سرعة: ننسى الماضي.

-لا نسيان بعد الآن، لا نسيان يشفي النفس.

قالت وهي تشهق: قسوتك لا تضاهيها قسوة، ليت أبي ذبحني ولم يتركني بين يديك أحاول الوصول إلى نفسك ولا أستطيع.

مدت يدها لتلمسه فابتعد عنها واستمر في النظر إلى الألوان، ثم بعد برهة اتجه إلى الباب وتركها، وسار خارج الغرفة إلى الشرفة الأساسية في بهو البيت يتأمل الليل والظلام ويتمتم بأدعية.

هوت إلى مخدعها وهي تنظر إلى لا شيء ولم تلحق به، شعرت بروحها تخرج من الجسد وبآلام كل ضربات السوط مجتمعة في تلك اللحظات، رأت الأب يضرب بلا رحمة ويحرق بلا هوادة والدماء تنبثق بلا خوف والصرخات لا تخمد.

اختنقت أنفاسها ولم تخرج الدموع، بل آهات وشهقات مكتومة، بقيت مكانها لا تدري أتستطيع النهوض من مكانها بعد الآن أم لا، لا بد أن تقوم، ترجوه، تقبله، تشرح له ما حدث وما كان، وتعرف أن هذا لن يجدي، هي حربه ونفسه وصراعه.

أمسكت برقبتها وشهقت وهي تعرف حجم ما ستفقد لو تركها وما أضاعت عمرها من أجله، كان لا بد للأب من قتلها، لِمَ لَمْ يُرِحْها؟!

بعد ساعة ربما عاد إليها، ما إن رأته حتى تساقَطت الدموع بلا حذر ولا فزع.

قال في رفق وهو يجلس بجانبها: أحيانًا يكون في ألم الحقيقة رحمة ومغفرة.

أخذت تشهق وتبكي وكأنها لا تراه.

قال في رفق: أفهم وأقدر، هو غروري الذي وقف بين الحقيقة وبينك، سامحيني.

- ولكنك لن تسامح نفسك.

أمسك بكفها وفتحه ثم قال: لا داعي للمراوغة ولا الخداع، شجاعتك تشفع لنا معًا، ونيتك الطيبة وبراءتك خزي للشيطان.

نظرت إلى كفِّها بين يديه ثم قالت: ماذا سنفعل الآن؟

أمسك بذقنها وأزاح وجهها ناحيته وقال: ما زلت تحبينني كما أحببتني في ذلك اليوم؟

هزَّت رأسها في حماس.

قال في حنان وهو يقبل وجنتها: والفرق أننا الآن معًا، لا يوجد سوى اليقين حولنا اليوم.

طوَّقت عنقه في تلقائية ثم قبلته في قوة بلا كلمة، قبلته على فمه أولًا ثم وجنته ثم جبهته وعينيه ورقبته، والدموع لا

تتوقف.

همس وهو يضمها إلى صدره: هذه أول مرة تقبلينني بلا حذر ولا تردد منذ تزوجنا.

لم تكن تستطيع النطق الآن، كانت عيناها تريان ألوانًا كثيرة ممتزجة بقسوة رسام مبدع لا يأبه بكسر كل القواعد!

ربت على كتفها وقال: ضيفة، توقفي عن البكاء.

ثم قال وهو يقبل وجنتها ودموعها تبلل شفتيه: لو لم تتوقفي فسأقتل كل ضباع الصحراء.

طوقت عنقه في قوة وابتسمت من بين دموعها.

قال: أين كانت كل هذه القوة العام الماضي؟

قالت في صوت متقطع وهي تشهق: كنت أخاف أن تظن أن شوقي إليك شوق المنحرفات، كان لا بد من الحذر بعد اندفاعي الأول.

- بل هو اندفاعك وتلقائيتك هما ما سيطرا عليَّ منذ رأيتك، وليس شوقًا تشعر به المنحرفات يا ضيفة.. هو شوق البراءة والصدق ما تشعرين به.

في الصباح اختفى الظلام، وبدت الأشياء بألوانها الطبيعية، وبدأت الحقائق تقترب وتأخذ مكانها في رحلته الشاقة.

كانت بين ذراعيه تنام في سلام، وعندما فتحت عينيها ابتسمت في ارتياح لم يره منذ زمن، وقبلت صدره، ورأى لمعان عينيها والحياة بين أطرافها. أمس بادلته الحب وكأنها أول مرة، اختلجت بين أضلعه ولكنها لم تغمض عينيها لتداري خجلها ولم تعض على شفتيها لتلوم النفس على الشوق والنشوة، بل نادته ورددت اسمه وأخبرته كم تحبه وتعشق لمساته وتشتاق إلى قبلاته وتريده دومًا. ضحكا بعد مرور العاصفة، وتذكرا يومًا في الصحراء توقف فيه العمر واكتمل ثم بدأ في الفناء.

قال وهو يجلس ويضمها إليه: تعرفين، تندفع الحقائق أمامي كالمياه المحبوسة بين جدران السدود أعوامًا وقد انهار السد وتدفقت الحقيقة، لغرور النفس طعم حلو كالسكر.

قالت وهي تنظر إلى عينيه: أتمنى أن تبقى معي هذا الصباح بعض الوقت، وأن أحكي لك وأتكلم معك..

ابتسم وقال: أبقى معك.

وحكت وتكلمت.. وعيناها تلمعان وكأن النفس التي دهست قد قاومت وانتصرت والروح فرحة والاكتمال ممكن والوصول أكيد، قامت وأتت بابنتها وقالت في حماس: انظر إليها؟ تشبهك يا حبيبي.

حملها بين ذراعيه وهي تحملق فيه بلا توقف بعينيها المستديرتين ثم همس: بل تشبهك أنت.

عبس وجهها ثم قالت: عمرو.. سامحني لو كذبت أو خدعت.. كل أفعالي تنبع من كونك نفسي وروحي، وأنني كنت أخاف أن أفقدك، هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به؛ حتى لا يقف الكذب حاجزًا بيننا أبدًا.

نظر إليها وقال في جِدٍّ: ما هو؟

- أنا أعرف من أخذ ابنيك وحماهما وقت الحرب.

نظر إليها ينتظر أن تتكلم فقالت في بطء: ولكنني أقسمت ألا أبوح باسم هذا الشخص.

قال في عدم صبر: من هي المرأة التي فعلت هذا؟ إحدى صديقتيك؟

هزَّت رأسها بالنفي وقالت في رفق: لا أريد للكذب أن يقف حاجزًا بيننا، أقسمت ألا أتكلم، هي ليست مريم ولا زبيدة، أولادك بخير والحرب انتهت والحقائق لا تظهر لنا كلها.

قال في حسم: بل واجبي أن أعرف الحقائق لأحكم بالعدل.

- أنت قاض وتعرف معنى القسم، لا أريد أن أحنث في قسمي.

هزَّ رأسه بعد برهة.

قالت وهي تمر بيدها على ذقنه: تسامحني؟ كل ما فعلت كان من أجلك.

قال في هدوء: أسامحك بالطبع أسامحك، أنقذت حياتي وأعدت الضوء إلى أيامي، هي عشرون، أتعرفين؟

ابتعدت عنه ونظرت إليه في حيرة فقال في يقين: عشرون حرقة على جسدك، عشر على ذراعك اليمنى وعشر على ساقك اليمنى، كان يختار جنبًا واحدًا لماذا؟ ترى أكان يريد أن يسيطر على تلقائيتك وجموحك؟

ضحكت في عصبية ثم قالت في بطء: كان قد أقسم أن يحرقني عشر مرات بالسيخ لو وجدني.

- ولكنه حرقك عشرين مرة.

- كيف عرفت؟

- تظنين أنني لا أعرفك؟ أعرف كل قطعة منك، من نفسك وروحك، لماذا حرقك ولم يكتفِ بالجلد؟

قالت في لا مبالاة: قلت لك أقسم إنه عندما يجدني سيحرقني عشر حرقات، كنت أنوي التحمل ولدي يقين بأنك ستأتي، وعدتني بأنك ستعود، وقال لي بعد الحرقة الأولى إنني إن صرخت أو جريت في البيت لأتفادى الحرق فسيضاعف كل حرقة، وصرخت بالطبع واستغثت وجريت ورجوت.. يزعجك منظر الحرق في ذراعي وساقي؟

ضمَّها من جديد وقال: بل يُخرج مشاعر كنت أتمنى أن أترفع عنها، كره كبير ورغبة في القتل، ما زلت تخافين؟

صمتت برهة ثم قالت: أحيانًا..

- لم تخافي مني أمس.

رددت: لم أخف، لا أعرف لماذا.. ربما غضبي ويأسي ورغبتي في الدفاع عن كل ما قاسيت من أجله.

- لم أزل أكره الظلام وأتحاشاه، لكل منا ماضٍ ممتلئ بالهزيمة والمقاومة، ولكنه انتهى.

* * *

قالت بائعة الملح في حسم لأم ضيفة: تجهزين أشياءك لترحلي، أليس كذلك؟

فقالت في شجن: لا أستطيع ترك زوجي أكثر من ذلك.

- يا امرأة أفيقي، وكأنك تظنين أن العمر لا يستقيم إلا بضربات زوجك! لا يريدك ولا يحتاج إليك.

صمتت برهة ثم قالت: أنت عجوز سليطة اللسان، ولا أدري كيف يتحملك القاضي.

ضحكت ربما لأول مرة ثم قالت: يا أم ضيفة كلما جئت تزورين ابنتك رأيتُ الشجن في عينيك، ألا تدركين؟ للإدراك قوة وعزة، في الإدراك خلاصك يا امرأة.

قالت في يأس: أحيانًا في الإدراك انتهاء وفناء.

قالت في حسم: بل أدركت أن عمري انتهى بعد حادثة حسن، وأن زوجي لن يعوضني، وأنه لا يملك قوتي ولا إصراري، وأن مصيري بين يدي قاضي قوص، هو من سأخدمه طوال العمر. ابقي هنا لتؤنسي وحدتي.

- لا حاجة لك بي يا بائعة الملح.

- أتخجلين وتشعرين بالعار من مصاحبتي يا امرأة؟! أنا فقيرة، ولكن قوتي تفوق قوتك بعدد سِنِي العمر.

هزَّت رأسها ثم قالت: ولِمَ يتحملني القاضي؟

- ابقي، سيتحملك والبيت كبير.

- ولو سأل عني زوجي؟

- أيُّ زوج يا غافلة؟! ليس لك زوج، هو كلب ضال ينهشك من حين إلى حين، انظري إلى ذراعك المشلولة أولًا.

بلعت ريقها وقالت في ضعف: سيوافق القاضي على بقائي؟

- لو كان غامر بعمره ليقيم العدل أتعتقدين أنه سيتركك ترحلين إلى من يؤذيك؟

* * *

اجتمع قاضي القضاة كعادته كل شهر بكل الشيوخ والنواب وناظر الأوقاف، وكان يريد أن يتناقش معهم في أموال الأوقاف وكيف سيتصرفون هذا العام لسد العجز وفي قرارات السلطان بتخفيف الضرائب عن العامة.

جاء القضاة وجلسوا حول مجلسه، وجلس هو على وسادة قاضي القضاة بملابس القاضي يستقبل الحضور. قرار السلطان بتخفيض الضرائب أسعد العامة، وجاء في وقت ضِيق على المصريين، ولم يسعد العلماء تدخل السلطان في الأوقاف، ولكنَّ عَمْرًا كان يفهم إلى حد كبير سبب هذا التدخل، وكان يفضل تخفيض الضرائب عن العامة.

صافحه قاض وراء قاض، ثم نظر حوله فلم يجد ناظر الأوقاف.

سأل مساعديه فقالوا: لا بد أنَّه سيأتي بعد قليل.

بعد برهة دخل عليه رجل بهيئة ناظر الأوقاف، وقال في حماس: مولاي، سامحني على التأخير فالمسئولية شاقة.

ساد الصمت وكأن النار اشتعلت في كل المجلس ولا أمل من إطفائها.

قام عمرو من مكانه في بطء ونظر إلى الرجل وقال:

القماطي.. ما الذي أتى بك إلى مجلسي؟

قال الشيخ القماطي في فخر: عيَّنني السلطان ناظرًا للأوقاف، أتوقع التهنئة من قاضي القضاة.

- أفقدت عقلك يا رجل؟! السلطان ليس له تعيين ناظر الأوقاف، والشيخ الطبيني ناظر الأوقاف سيحضر الآن.

قال القماطي في ثقة: بل لن يحضر، أمرته ألَّا يحضر؛ هو قرار السلطان يا مولاي.

علت الهمسات والتذمر، وبقي عمرو ساكنًا يحاول استيعاب ما حدث.

ثم قال في وضوح للحضور: يا شيوخ مَنْ مِنْ حقِّه تعيين ناظر الأوقاف؟

قال الحضور معًا: قاضي قضاة الشافعية يا مولاي.

ثم قال للقماطي في قوة: اخرج من مجلسي يا شيخ، ليس لك مكان هنا! ولا منصب لك عندي!

قال القماطي في صوت خافت: تتحدى السلطان يا عمرو؟!

- هي قوانين وأحكام مكانها قبل عهدي وعهد السلطان، اخرج من مجلسي حتى لا أعيدَك إلى السجن!

التقت أعينهما ثم خرج القماطي، وبقي عمرو ساكنًا في مكانه يحاول الفهم، لِمَ يُعيِّن السلطان سارق الأيتام ناظرًا للأوقاف؟ ليرضي الأمير سلادون؟ أيُّ حاكم يفعل هذا؟! ولِمَ يتدخل في أمر من أمور قاضي القضاة؟

قاضي القضاة.. أصغر سنًّا من كل من سبقوه، عينه السلطان واختاره لماذا؟

أغمض عينيه لحظة ثم فتحهما، عَيَّنه لماذا؟ ظن أنه سيتحكم فيه؟ أم ظن أنه سيبيع نفسه؟ أم.. ما أكثر سذاجته

وما أجهله! وما أغفل النفس وضعفها!

طلب من الحضور الانصراف والاجتماع في وقت آخر، وذهب إلى بيته شاردًا.

* * *

عندما جلس مع زوجته اليوم لم يأكل ولم يتكلم، وكانت تعرف، لا بد أن كل الناس تعلم بذل قاضي القضاة وتدخل السلطان في شأنه وعمله.

قالت في رفق: عمرو.. تَوَخَّ الحذر.

قال في قوة: لا حذر في الحق.

فقالت مسرعة: يقتلك ويجرسك، هو السلطان يفعل ما يريد.

- في هذه البلاد قوانين من آلاف السنين، وللإسلام أصول ونظام، كيف يدَّعي أنه يحمي الدين ثم يتدخل في ما لا يفهم، يأتي بسارق ليتحكم في الأموال؟!

- هي سياسة وليست دينًا يا عمرو. لا تجعل الأمر صراعًا شخصيًّا بينك وبين السلطان.

بقي صامتًا فقالت في رفق: أتمنى فقط ألا تقتل نفسك من خلال المواجهة.

قال في غضب وصوت عالٍ لأول مرة ربما: ماذا تتوقعين وماذا تريدين أن أعمل مع الناظر الذي عَيَّنه السلطان رغمًا عني وأنا أعلم أنه سارق، وأبيع نفسي للشيطان حتى أبقى معك؟ أهذا ما تريدين؟!

قالت في رفق: لم أقصد هذا.

لم يجب.

ربتت على كتفه، وأمسكت بذراعه وقالت: قاضي القضاة منصب كنتَ تحلم به وتريده لأنك تعرف أنك أهل له، ووالي

القاهرة لا يريدك لأنك لا تسرق ولا تقبل العطايا، ولكن له سطوة على السلطان، وبفعلته هذه يريد أن يزج بك في مواجهة مع السلطان أو يزيحك من طريقه، ربما لو تجاهلت الحدث واستمررت وحاولت الإصلاح لكان ذلك أفضل لمصر، أما لو أزاحك فسيأتي بمن يستطيع التعامل معه.

نظر إليها ثم قال في تهكم: كل هذه الحكمة؟ لم أسمع صوتك منذ عام ربما، ولم أسمع رأيًا واحدًا لك. ماذا حل بك يا ضيفة؟!

- هي الحقائق تفيق وتبعث الروح من جديد يا عمرو.

بقي صامتًا، فهمست: طموحك يثمل القلب بلا خمر، ورغبتك في المنصب كانت منذ كنتَ طالبًا، أليس كذلك؟

لم يجب.

فأكملت: هو قرارك أنت.

قال وهو ينظر إلى يدها التي تمسك بذراعه: وأنت تفضلين الزواج من قاضي القضاة؟

قالت في قوة: بل أفضل الزواج من عمرو.

-لا أفهمك.

-افعل ما يحفظ لك نفسك ولا يهلكها يا مولاي.

ردَّد في تهكم: مولاي! بالطبع. كنت تقولين أنه لا بد لي من احتمال ما لا أطيق.

- كنت أوضح لك ما أراه، ولكنني أعرف ما ستفعل.

- وكيف تعرفين؟

- هي نفسك التي أعرفها منذ زمن، وهي نفسك التي أود المحافظة عليها.

لم ينم ليلته.

في الصباح طلب من مساعده أن يلتقي بالسلطان لأمر مهم، ثم تتبع بائعة الملح وهي تنظف الدار في همة وحماس، وتتكلم مع أم ضيفة، وتبتسم من حين إلى حين. التقت أعينهما، وتوقع منها كلمة أو كلمتين ولكنها لم تتكلم، بل قالت في قوة: اذهب بسلام يا مولاي.

* * *

الغضب الذي يسيطر عليه ظهر في عينيه، وذل السلطان كان غير متوقع وغير مستساغ.

قال برقوق بوجه عابس: قاضي القضاة يطلب مقابلتي في أمر مهم؟

قال عمرو في صرامة: أتمنى لو صرف السلطان الحضور.

أشار لهم السلطان فخرجوا. جلس السلطان وأمامه عمرو ثم قال: أجئت تشكو أم جئت غاضبًا؟

- بل أتمنى أن أفهم، فربما لم أكن أعرف، كنت أظن أن من اختصاص قاضي القضاة تعيين ناظر الأوقاف، كان هذا الحال منذ مئات السنين، هل تغير الآن دون علم العلماء والشيوخ والقضاة؟

قال السلطان بلا مبالاة: قلت لك من قبل العلماء غير معصومين، وبعضهم يأخذ الرشوة ويفشي الفساد مثلهم مثل التجار والمماليك، ليس في الأرض معصوم.

قال في صوت أراده أن يكون هادئًا: ولكن مولاي يعرف قاضي القضاة، ويعرف أنه ليس فاسدًا.

التقت أعينهما فقال برقوق في وضوح: لكل قاضٍ آفة ولكل إنسان ضعف، الفساد أتعامل معه وأفهمه، أما الغرور والعناد فخطيران يا عمرو.

- أيُّ غرور وأيُّ عناد؟! هو حقي بوصفي قاضي القضاة يا

مولاي.

قال برقوق في تحدٍّ: وهو حقي أنا منذ اليوم.

- لا أفهم.

- منذ هذه الساعة السلطان يعين ناظر الأوقاف ويعزله وليس قاضي القضاة، فالكثير من القوة في يد رجل واحد يفسد.

ردد عمرو وعيناه لا تتركان عيني السلطان: الكثير من القوة في يد رجل واحد يفسد.

ثم أكمل: مولاي السلطان يعين القماطي سارق الأيتام ناظر أوقاف؟ لماذا؟

- لا تسأل السلطان؛ فهو ليس مجبرًا على شرح قراراته.

قال عمرو في قوة: ناظر الأوقاف يعينه قاضي قضاة الشافعية يا مولاي، فالكثير من القوة في يد رجل واحد يفسد.

نظر إليه برقوق ثواني، ثم قال: لو قطعت رقبتك الآن.. لن أسمع كلماتك.

- بل كنت أردد كلماتك مولاي، وأعرف أنني هالك لا محالة، لا بأس، ليس لي أن أعمل مع ناظر أوقاف فاسد وسارق، لدي طلب وربما اثنان.. لو اتسع صدرك لسماعي.

قال برقوق في عدم صبر: أعرف الطلب الأول.

قال عمرو: إن كانت وشاية فالسلطان يميز الخبيث من الطيب، وإن كان تفضيلًا لمن نضمن ولاءه حتى نحقن الدماء فالعدل والحق يضمنان الجنة قبل أي شيء، أتنازل عن منصبي الآن، وأرجو أن تعطيني ولاية مدرسة من مدارسك.

صمت السلطان ثواني، ثم قال: كنت أقول إنني أريد قتلك.

- قتلي يفيد لو كنت قاضي القضاة، أما وأنا أدرِّس فلا فائدة من قتلي.

- تتجرأ عليَّ وتنتقد قراراتي، أيُّ عشم لديك؟!

- هي كلمة حق أقولها، وأجري على الله.

- وكأنك لم تخطئ يومًا، ما أشدَّ ورعك!

لم يجب، قال بعد برهة: لو كان طلبي صعبًا فليسمح لي السلطان بالانصراف.

عبس وجه برقوق وقال: ماذا تريد؟ التدريس في جامع ابن طولون أم في مدرستي؟

قال عمرو: ولاية التدريس في جامع السلطان حسن.

- حسن بن الناصر محمد، ابن الناس؟ من مات على يدي أستاذي؟ ما قصدك من هذا يا عمرو؟ وماذا تبغي؟

- أبغي صلاح الدولة والمماليك وكل أهل مصر.

قال السلطان في حسم: جامع السلطان حسن أصبح قلعة للحروب بين الأمراء، وحطمت أنا درجات سلمه حتى لا يتقاتل المماليك.

قال عمرو: أعطني فرصة لنعيد بناء السلم ونحاول إصلاح أهل مصر من المماليك والعامة.

- لن يحدث، سيتقاتلون ولن يدرسوا، المماليك عيونهم على القلعة، والمسجد أصبح حصنًا لا أكثر، لا أحد يراه مسجدًا الآن، وهذا الشاب المبذر الذي صرف كل مال الدولة، ليبني مسجده لم يُفِدْ أحدًا بصرحه سوى جنود الأمراء.

- لو أعطاني السلطان فرصة أكون ممتنًّا.

- هي عقاب لك يا عمرو، وربما يصيبك سهم وأنت تعطي دروسك، فتريح الناس من غرورك، والله لولا أنك دعمتني يومًا وتبادلت معي حبات الرمان لكنت ذبحتك اليوم وعلقت رأسك على أبواب القاهرة.

ابتسم عمرو في مرارة ثم قال: إنْ كنت أعرف أن السلطان لن يقتلني لكنت قلت أكثر من هذا بكثير. مولاي، قلتَ دومًا: إن حكم مصر لا بد أن يكون في يد القائد المملوكي، وليس في أيدي أولاد الناس، قلتَ إن مصر تحتاج إلى أتابك العسكر، وليس إلى وريث العرش، تتذكر؟

قال برقوق: سأقطع رأسك يا عمرو!!

ابتسم عمرو وقال: وعدت للتو ألا تفعل، هي كلمة حق أريد أن أقولها؛ لأنني أعرف أنني لن أقابلك مرة أخرى، ولن تسمح لي بذلك، ابنك سيرث من بعدك؟ عائلة برقوق ستحكم مصر كعائلة قلاوون؟ تريد توطيد حكمه بإرضاء أمراء الشراكسة، ولا ولاء للمماليك إلا لأتابك العسكر، هي كلمة خير لك يا مولاي.

قال في شيء من الغضب وشيء من السخرية: سأتنصل من وعدي لو لم تصمت يا عمرو، ولك ما تريد، ولا تسأل عما لا يخصك.

- أقسم إنني كنت فقط أريد النصح.

- بل هو غضبك وغل صدرك الذي لا يتفق مع كونك شيخًا، تريد دومًا الانتقام ممن يتحداك ويعارضك.

ابتسم في أسى ثم قال: اسمح لي بالانصراف يا مولاي.

هزَّ برقوق رأسه، وتلاشت الصداقة بينهما وسقطت كالأحجار من جبل المقطم.

عندما عاد إلى بيته جمع أهله وأخبرهم بقراره، وبأنهم سيتركون هذا البيت ويتجهون إلى بيت أصغر في القاهرة وقريب من مسجد السلطان حسن، وابتسمت زوجته ابتسامة طفيفة، وبدا العبوس على وجهي ولديه، وعندما دخل حجرتهما قال في قوة: كان حملًا وزال، أشعر بالراحة الآن، وسأتفرغ للعلم والتدريس.

ابتسمت مرة أخرى وهزَّت رأسها.

بدا في مزاج سيِّئ وضيق، فقالت بعد برهة: فعلت الصواب يا عمرو.

قال وهو يستلقي على ظهره: لا أمان لشيخ في هذا العصر ولا عهد لملك.

أخذها بين ذراعيه وعقله شارد فقالت وهي تمر بأصابعها على وجهه: حبيبي، أنت على صواب وفعلت ما تستطيع، ولكنه زمن مجنون يختلط فيه السيِّئ والحسن، لا أحد مثلك يا عمرو.

لم يكن متأكدًا، هل تفيض بالإطراء عليه لأنها تحبه أم لأنها مقتنعة بهذا؟ كثيرًا ما فكر في أن يسألها ولكنه لم يفعل، وكان إطراؤها ضروريًّا الآن، واعتاد وجوده مع مرور الوقت واحتاج إليه دومًا.

في الصباح جمع ضيفة وأمها وقال: يا أم ضيفة، هناك أمانة لا بد أن أردها لك.

نظرت إليه ولم تجب.

فقال: أتمنى أن تبقي معنا دومًا، وأن تقبلي مني هذا الذهب تعويضًا عمَّا فقدته.

فتحت فمها في فزع، ونظرت إليه ضيفة فأكمل: سألت ضيفة عن ذهبك ووزنه ولم تعرف الكثير، ولكنها قالت لي بالتقريب، ليس هذا ميزان حق، ولكنها أمانة أريد أن أردها إليك.

قالت في قوة: لا ذهب لي يا شيخ، أقيم في بيتك، وأعيش تحت حمايتك، ولن أقبل بهذا أبدًا.

قال في تأكيد: ستقبلين لأن هذا سيريحني يا أم ضيفة ويطوي صفحة الماضي، ولا أحب أن أبدأ شيئًا جديدًا وهناك دَينْ في رقبتي، والعمر بيد الله.

قالت ضيفة في صرامة: اقبليها يا أمي.

ترددت قليلًا، ثم أخذت الذهب وهي لا تستطيع أن تداري ذهولها ودهشتها.

* * *

الباب الرابع
مسجد السلطان حسن

« في الإبداع فناء، وفي خروج المارد موت بطيء للقلب وفجوة للنفس، وفي بلوغ المراد مرارة الوصول وانتهاء الطريق».

مشيد العمائر

الفصل الثامن

خبر ترك قاضي القضاة منصبه أسعد الكثير من الأمراء والشيوخ، بل أشاع بعضهم أن عمرو بن أحمد بن عبد الكريم قد عُزِل لسوء سلوكه، وأن السلطان عنفه وهدده، ولأن السلطان رحيم بالعلماء لم يكن يريد أن يفضحه، فأعطاه ولاية مدرسة لا قيمة لها ولا هدف؛ فمسجد السلطان حسن ما هو إلا حصن وساحة قتال للمماليك، ولا يمكن إقامة درس فيه ولا تحصيل علم، وكل درجات سلمه قد هدمت عن عمد ليكفَّ المماليك عن تقاتلهم. أي عقاب وأي جريمة ارتكبها قاضي قوص الأسبق! وكان أكثر الفرحين بخبر ترك عمرو منصبه حماه قاضي القضاة الأسبق الذي كان يرى في عمرو متسلقًا لا يعرف الكثير، ويريد الوصول بأي طريقة ومستعد للتنازل عن أي شيء في سبيل المناصب والولاية. ندم على تزويجه من ابنته التقية الصالحة، بل بعد أن تزوج بنت الشيخ الصالحة تزوج ابنة تاجر تعصي والدها وتقف في وجه التقاليد والعادات، يقولون: إنها ممسوسة ولها علاقة بالجان. كيف لشيخ أن يفعل هذا؟ يتبع أهواءه ونزواته ولا أمان له ولا عهد، بل بلغ جبروت عمرو أنه تطاول على الشيخ القماطي الذي يكبره بعشرين عامًا أو ما يزيد، وطرده من مجلسه أمام الشيوخ، وحاول إيذاءه والزج به في السجن. شيخ يسجن شيخًا.. إلى أيِّ مدى يبلغ انحراف عمرو وظلمه؟! لا بد أن ابنة الشيخ ماتت كمدًا من غلظة زوجها

وفساده. أفاق برقوق من غفلته وعرف حقيقة عمرو، كان يسيطر عليه سيطرة تامَّة هذا القاضي بكلامه المعسول والتظاهر بالورع والمعرفة، ظهرت الحقيقة وانتصر الحق. والغريب أن من انتصر على قاضي القضاة وأذله كان الشيخ القماطي الرجل الجليل والشيخ العارف، ولم ينتصر عليه من قبل الأمير فخر الدين، في هذا درس لمن يفهم. الشيخ المصري العجوز انتصر على المتسلق المتكبر الشاب، أما الأمير المملوكي فلم يستطع أن ينتصر في معركته وآثر الهرب.

لا بد من تفريق الحلويات على كل المساجد من أجل هذا الخبر السعيد.

أما عمرو فكان يمشي مرفوع الرأس واثق الخطى، ولم يكن يأبه بكلمات الشيوخ أو الأمراء، ولكن نفسه كانت ممتلئة بالغضب والجحود. صلى واعتكف، وحاول أن يخمد نار طموحه وإحباط روحه. هي دنيا وأيام نداولها بين الناس. هكذا قال لنفسه، تتغير وتفنى، فلِمَ التمسك بالمناصب المفسدة والزينة الفانية وترك الباقيات الصالحات؟ كان يقضي الكثير من الوقت يقرأ ويكتب، وكان قد عزم أمره على أن مبلغ مراده هو تحصيل العلم وتوصيله لطلابه، فلا شيء أرقى وأفضل عند الله من العلم والمعرفة. في البدء قضى شهرين لا يتكلم كثيرًا مع أحد بل يقرأ ويكتب فقط، وإذا سألته زوجته عن حاله يقول: إنه يُعِدُّ دروسه للتدريس في مدرسة السلطان حسن، وإذا ذكَّره أولاده بأن المدرسة الآن حصن وساحة معركة تجاهلهم واستمر في نفس عناده وصموده.

لم يفهم ولداه لماذا اتخذ قراره بترك منصبه، ولاما عليه تعنته وإصراره، ولكنهما لم يجرؤا على الكلام معه في هذا، بل تكلما مع ضيفة، واشتكيا لها واستمعت في صبر، وكانت تفهم كيف يفكر ولداه وكيف يريان في منصب والدهما عزة وقوة، وفي

تركه المنصب خزيًا وعارًا، فالشائعات تنتشر وبعض الناس ينظر إليهما الآن بطريقة مختلفة، حتى أساتذتهما بدءوا يعاملونهما بغلظة وينظرون لهما بالتعالي والتحامل. تكلما ساعات مع ضيفة وطلبا منها أن تتوسط لهما عند الأب ليتكلم مع مدرسيهما، أو ربما يحاول أن يعود إلى منصبه. وكان هناك اثنتان في بيت الشيخ عمرو تفهمان كل شيء عنه وعن خبايا نفسه، واحدة فهمت لأنها شُطرت إلى أجزاء متناثرة ثم لملمها عمرو، فعادت شبه إنسان ولكن بالكثير من المعرفة والفهم اللذين يبلغهما الفرد بشق النفس وفنائها في العلم، والأخرى لأنها قريبة من نفسه وتعرف قلبه عن قرب، أم حسن بائعة الملح هي الأولى، وضيفة هي الثانية.

ولأن ضيفة تعرفه وتفهمه لم تحاول أن تتكلم معه ولا أن تثنيه عن قراراته، بل طلبت يومًا الدخول عليه في حجرته وهو يقرأ ثم جلست وراءه، وبدأت تدلك كتفيه في رقة كما يحب، وشعرت بعضلاته المتوترة المشدودة، فضغطت عليها بأصابعها، وقالت في رفق: فعلت الصواب يا عمرو، هي خسارة السلطان وليست خسارتك.

لم يجب وتظاهر بالقراءة حتى لا يتكلم، فأكملت: التدريس أفضل من القضاء وآمَنُ، أنا أعرف لماذا اخترت هذه المدرسة وأفهم.

قال بعد برهة: تفهمين كيف؟

- أعرفك وأعرف أنك تحب التحدي وإصلاح ما فسد، وأعرف أنك تعتقد أن في الإصلاح جزاء وثوابًا.

قال في رتابة: والولدان يفهمان؟

فركت كتفيه بأصابعها ثم قالت: تجلس هكذا ساعات، لا بد أن ظهرك يؤلمك وكتفيك.

- لم تجيبي.

قالت بعد برهة: يفهمان، ولكنهما صغيران ويحتاجان إليك أيضًا، هما أمانة وفي رعايتهما ثواب، لو أعطيتهما بعض الوقت..

نظر إليها في استغراب ثم قال: تنصحينني وتأمرينني يا ضيفة؟!

صمتت برهة ثم قالت: بل أتمنى وأرجو يا عمرو، لا بد أن تجلس معهما؛ حتى لا يسمعا عن أبيهما ما لا يسرهما، أعطهما القوة حتى يواجها الناس بقلب سليم.

قال في عدم صبر: ليس لدي وقت هذه الأيام.

قالت في تصميم وهي تستمر في الضغط على كتفيه ورقبته: هما ولداك ويحتاجان إليك، وأنت أهل للمسئولية، أم أنك تندم على قرارك؟

كان تحديًا واضحًا لم يتوقعه منها ولم يُعد له. قال في قوة: بالطبع لا أندم.

قالت في تأكيد وبطء: لأنك يا عمرو لا تبغي سوى مرضاة الله، والأيام فانية والباقيات الصالحات خير عند ربك، هكذا قلت لي.

قال في تأكيد: نعم.

- للإنسان أن يعيش دنياه أيضًا، ويتمنى ويطمح، ولكنك أقوى من كل البشر، انتصرت على ضعف نفسك واخترت الطريق الوعر.

أزاح يدها وقال في عصبية: لِمَ تقولين كل هذا؟

التقت أعينهما، فقال بعد برهة: أتفتقدينني أم تسخرين مني؟ أم كنت تفضلين قاضي القضاة؟

قالت في حسم: أفتقدك وأوضح لك ما أراه، وربما لا تراه؛ فانعكاس الضوء يطمس الحقائق.

قال في حدة: لا أريد أن أسمع هذا الكلام.

قالت مسرعة: حسنًا.

ثم قال في حدة: يمكنك الذهاب إلى حجرتك.

قامت في بطء واتجهت إلى الباب فاستوقفها قائلًا: ضيفة..

- نعم.

- لا تبدين خائفة مني هذه الأيام، ألا تخافين أن أضربك أو أهددك؟

ابتسمت في تهكم وقالت: لا، عرفت أنك لن تفعل.

تمتم بصوت خافت: ربما كان لابد أن أفعل! ثقتك تؤدي إلى الهلاك لي.

كتمت ابتسامتها وقالت: ستأتي الليلة إلى حجرتنا؟

ابتسم رغمًا عنه وقال: أعتقد هذا، عندما أفرغ من دروسي.

اقتربت منه من جديد، وجلست وراءه ولمست كتفه في رقة، شعر بأنفاسها تلفح رقبته، وقبلت رقبته في بطء قبلة طويلة وهمست: افتقدتك.

لم يستطع السيطرة على رغبته وشوقه لها، وكانت تعرف وتشعر، واختلج جسده كله رغبة فيها.

أدار وجهه ناحيتها ونظر إلى عينيها اللتين لم يزل يراهما أجمل عينين رآهما في عمره، وتذكر عذاب سنوات والأماني اليائسة والشعور بأن الوصول إليها مستحيل.

تذكر ظلمات السجون التي لا تنتهي، تتمدد وتسيطر على العقل، وكأن اليوم دهر والساعات أبدية والموت رحمة. نسي في غمرة انتصاراته وانغماسه في الوصول ما آسى وما كسب.

عانقها في قوة وهمس: أنا أيضًا افتقدتك.

ولكن هزيمته الجديدة كانت ساحقة وسريعة سرعة وصول

السهام من القلعة لمسجد السلطان حسن. ماذا توقع؟ أن يصبح السلطان شيخًا والشيخ سلطانًا؟ أيُّ سذاجة وأيُّ غرور؟! لابد أن يصلي ويستغفر الله؛ لأن ضلاله أعماه مرة ومرتين، مرة تجاهل خطيئته وعلقها داخل الركن المظلم في العقل؛ حتى لا يفكر في أسبابها ونتائجها، ومرة ظن أنه سيغير كل شيء، وأن قوة رجال الدين تعدت قوة المماليك. أيُّ غفلة وأيُّ كذب؟!

ضل سعيه إذن أم شُبِّه له؟

ابتعد عنها قليلًا، ونظر إلى وجهها وكانت صغيرة، تصغره بثمانية عشر عامًا على الأقل، بدت صغيرة اليوم، وبدا أكبر بكثير. شاب وعرف، فهم وعجز عن الوصول. للفهم والعجز عن الوصول مرارة مختلفة، ولمعرفته بالحقيقة ودرايته بقدرته أمام المماليك والفساد هزيمة مضاعفة. قاست هي أيضًا وتعذبت عذابًا لا يتحمله الرجال، كان يعرف، ولكن عينيها اليوم بدت حية وبريئة ونظرتها نظرة بنت صغيرة ومنتصرة.

لِمَ أحبته؟ وكيف تعرف عنه كل شيء؟ ولِمَ تمسكت به وسط الجنون وانهيار الجبال ودكها؟ أيُّ بنت وأيُّ امرأة؟ لا يقف أمام الجبال المنهارة سوى طفلة حمقاء، حمقها وتمسكها به تمسك براءة الأطفال وليس تمسك معرفة الناضجين، ولكن حبها له بلغ في نضجه مبلغ معرفة العلماء.

كان متزوجًا، وكانت زوجته في مخيلته عاقلة وهادئة، ومعرفتها موضع إعجاب واحترام، ولكن ضيفة في مخيلته تلهو مع الضباع وتضحك وسط الصحراء عندما تجد دليلًا على أي حياة وسط الموت، ضيفة هي ضراوة الوحوش في صدقها وولائها وتلقائية النخيل الصامد وسط الصحراء.

اليوم يشعر أنه يكبرها بالكثير، وأنه لا يملك قوتها ربما ولا

ثبات نفسها أمام كل هزيمة.

كانت ضعفه وقوته وطغيان العشق بداخله، ولكن الضعف الذي يجهله هو ما يقلقه، ظن لبرهة أنه انتصر على شيطان نفسه، عرفه وكشفه فهو يكشف كل الحقائق، ولم يكن يدري أن شيطان نفسه يتخفى في صور شتى تنادي عليه من مكان ما في عقله من حين إلى حين، وأن الشيطان يتحايل ويتجمل، وأن المناصب تثمل، والقوة تذهب العقول، والعيش فوق العباد لأنك الأعلم والأعدل والأذكى والعارف بكل الأمور تدغدغ الإرادة، ولكنه سينتصر في النهاية، سيجتهد ويحاول ويعرف ويكتشف وينتصر.

ضمها من جديد وشعر بجسدها غضًّا رقيقًا بين يديه، وهمس: اليوم سأعود إلى حجرتنا، بل ربما الآن..

قالت في توعد: ولن تتركها مرة أخرى؟ لابد أن تعدني ألا تتركها من جديد.

قال في حسم وهو يشدها إلى حجرتهما: لن أتركها.

في المساء تكلم مع ولديه واستمعا له في صمت وعدم اقتناع، ولكنه شرح لهما في حضور ضيفة، وفي نهاية الحديث طلبت منه ضيفة أن يتكلم مع مدرِّسيهما؛ حتى يغيروا معاملتهم لهما، ووافق وتوقف عن اعتكافه بعد شهر كامل نذر فيه ألا يكلم إنسيًّا.

* * *

وقف أمام المسجد الهائل مع عشرة من طلابه وقال أحدهم: يا شيخ كيف ندخل إلى المدرسة ما دام السلطان قد هدم السلم الموصل إلى سطح المدرسة وسدَّ ما وراء باب المسجد بالرمال والأحجار؟!

نظر حوله يبحث عن مدخل ثم قال: ندخل من شباك

المدرسة.

كتم الطلاب ابتسامتهم ثم قال أحدهم: يا شيخ لِمَ اختيار الصعب ما دامت الأماكن كثيرة.

قال في حسم: لو اخترتَ كل الطرق السهلة لكان من الأفضل أن تبقى في بيتك، فأسهل طريق هو الطريق إلى حجرة نومك، تعرفه جيدًا وتعرف ما تتوقع بداخله.

ثم رفع جلبابه وتسلق شباك المدرسة، فمد الطالب يده يساعده، لم يأخذها عمرو بل وصل إلى داخل المسجد، وبقى لحظات يشبع عينيه من روعة المكان، ويتذكر لحظات يأس وكَبَدٍ داخله.

ثم قال الطلاب وهم يلتفون حوله: لبناء مسجد كهذا مشقة وغاية.

اتجه إلى المدرسة الحنفية ليقرأ اسم مشيِّد العمائر المنحوت على الجدار، مر بأصابعه على الكلمات البارزة، وقرأ اسم مشيِّد العمائر، محمد بن بيليك المحسني، ثم قال: كان يبغي الخلود، في البناء خلود وفي الإصلاح بقاء، وفي إنقاذ النفس والجسد نصرة وفوز.

خرج من المدرسة إلى المدرسة الشافعية، وجلس وحوله الطلاب في حلقة، وبدأ يتكلم عن البناء والتشييد، وكيف أن البشر لابد أن تكون غايتهم إعمار الأرض، وأن قتل النفس التي حرم الله إلَّا بالحقِّ هو قتل بضعة منك أنت، تضعفك كما ضعف قابيل واستغاث في عجز بعد مقتل أخيه، وقال: «يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ».

أخبرهم أن عجز قابيل جاء بعد أن فقد أخاه، وعرف لأول مرة وهن نفسه وفناءها. لم يلاحظ عمرو الخطوات التي تتبعه ولا الجندي المملوكي الذي يقف وراءه بكامل ملابسه، كان طويلًا

نحيفًا بعينين خضراوين وشعر أشقر، يقف متجمدًا كالأحجار، لا ينظر لأحد ولا يلتفت لكلمات.

بعد برهة أدار وجهه ورآه، وتبادل الطلاب النظرات، ولكن عمرًا تجاهله، وقال لطلابه بصوت عالٍ: يبدو أن السلطان يريد أن يتأكد من أننا نتكلم في الدين وليس في السياسة، لا بأس، حارس السلطان ربما يستفيد من بعض الدروس والمعلومات.

لم يبد الجندي أيَّ رد فعل، بل بقي ينظر إلى الأفق ويده ممسكة بسيفه.

استمر الدرس زمنًا والجندي لا يتحرك، وسأل الطلاب، وقرءوا، وطلب منهم عمرو قراءة بعض الكتب، منها كتابه الذي كتبه منذ شهور، واتفقا على اللقاء في الغد.

* * *

واستمر الدرس، وازداد عدد طلابه، وأصبح دخول الطلاب من شباك المدرسة مجازفة يعيشها شباب العلماء، وكلمات عمرو المختلفة الشيقة دومًا تجعل الإجازة على يده أفضل من الإجازة على يد غيره. وكان يعرف أن زيادة عدد طلابه ستأتي بالمشاكل، وأن غيرة بعض العلماء تبث السموم، ولكنه لم يبالِ. انضم ولداه لدرسه بعد بضعة أشهر، والجندي موجود دومًا.

وهو يشرح درسه يجد الجندي المملوكي موجودًا وواقفًا كالحجر المسحور.

وهو يناقش طلابه يجد الجندي واقفًا.

وهو يقرأ كتبه قبل الدرس وبعده يجد الجندي واقفًا.

بعد عدة أشهر وأثناء انهماك عمرو في نقاش حاد مع أحد الطلاب سمع صوتًا كصوت السيوف أو السهام، ثم شعر بشيء يقترب منه بسرعة البرق وهو جالس يشرح، قبل أن يتحرك

انحنى الجندي وصدَّ السهم بدرعه بحرفية وسرعة.

والتقت أعينهما لأول مرة، وأحاط الطلاب بمدرسهم والقلق يسيطر عليهم، فقام عمرو وعيناه لا تفارقان الجندي، وقال: أأنقذت حياتي للتو أم شُبِّه لي؟

قال الجندي بصوت رتيب وملامح باردة: معذرة يا شيخ، لابد أنه سهم جاء من القلعة وشرد في الطريق.

ابتسم عمرو وقال: أو ربما سهم يعرف الهدف ويخطط لموتي منذ زمن.

أدار عينيه عن عيني الشيخ وقال: ربما.

أطرق عمرو ثم قال: أجئت تحرسني أم تستمع إلى كلماتي؟

قال الجندي في حسم: هي أوامر السلطان.

- نعم أعرف، ولكن ما أوامر السلطان بالضبط؟ أن تحرسني أم تستمع إلى كلماتي؟

قال في ميكانيكية: يمكنك أن تسأل السلطان يا شيخ.

قال وهو يجلس ليستمر في درسه: نعم بالطبع، يمكنني أن أسأل السلطان، ولكنني مغضوب عليَّ الآن كما تعرف، ما اسمك؟

تردد الجندي ثواني ثم قال: شيخ بن عبد الله المحمودي.

- اسمك شيخ؟ لابد أنك كنت ورعًا في صباك فأطلقوا عليك هذا الاسم.

- بل هو اسمي يا شيخ.

- لست ورعًا إذن؟

- لا أعرف يا شيخ.

أدار عمرو رأسه واستمر في درسه، ثم أدار وجهه فجأة في وسط الدرس والتقت عيناه مرة أخرى بعيني الجندي، وبدا له

أن الجندي أحيانًا يستمع إلى الدرس ربما، وأحيانًا ينظر إليه بإمعان، أمر مُحيِّر!

* * *

عندما عاد إلى بيته لم يخبر ضيفة بما حدث، ولكن ولديه أخبراها، واستمعت لهما بائعة الملح وأم ضيفة، وكان يتوقع الكثير من الأسئلة التي لا يعرف لها إجابة.

سألوا جميعًا وأجاب في هدوء: العمر بيد الله، ولكل أجل كتاب، لا داعي للقلق.

قال ولداه مسرعين: هل هو فخر الدين الذي يحاول قتلك يا أبي؟

- ربما.

- وربما أحد الشيوخ يريد التخلص منك.

- ربما.

- وربما سهم شارد من القلعة.

- ربما.

ثم قالت أم ضيفة: وربما السلطان يريد التخلص منك.

- ربما!

نظرت إليه ضيفة والقلق يبدو عليها والتوتر يحيط بها ولم تتكلم.

في المساء بادلته الحب في شوق كشوق الجان والسحرة وهي تعرف أن حياتها بين يديه، مرت بأصابعها على وجهه وقبلت كل قطعة منه في إتقان.

وعندما أخذها بين ذراعيه قال في صوت خافت: لابد أن يصيبني سهم كل يوم.

وضعت يدها على فمه حتى لا يكمل، ثم قبلته ونامت وهي

تتشبث به وكأنه سيهرب حتمًا. ابتسم وهو يدفن رأسه في شعرها الكثيف، ويتذكر أيامًا من الحرمان والخوف والضلال، أيامًا ولت وانتهت وبقي حبها الذي لا يعرف لماذا يستحقه ولا ماذا فعل ليفوز به.

* * *

بدأ درسه اليوم بكلمة التقوى وذكرها في القرآن، وردَّد آيات الله الواحدة تلو الأخرى:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ)

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ)

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا)

بعد البحث في معنى التقوى في سياق الآيات وتراكيبها بدأ النقاش بين الطلاب واحتد كالعادة، وترك عمرو لهم الفرصة للأسئلة والكلام، ثم قال طالب في حماس: مثلًا جنود المماليك يطيعون الأوامر بلا تفكير ويقتلون من أجل أستاذ في معظم الأحيان، ألا يتذكرون قول الله: «واتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا»؟

فتح الحضور أفواههم في ذهول والكثير من الخوف.

بقي عمرو صامتًا برهة ثم أدار وجهه للجندي، وتظاهر الجندي بعدم سماع الكلمات، وأدار وجهه وجسده يقف مستقيمًا كالسيف كعادته، فقال عمرو في فضول: شيخ.

نظر الطلاب بعضهم لبعض، ثم قال طالب في رفق: يا شيخ عمرو، كيف تطلق على الجندي لقب شيخ؟

قال عمرو: بل هو اسمه، لابد أنَّ لهذا الاسم هدفًا، وأن هذا الجندي ورع ممتلئ بالمعرفة. شيخ، ما رأيك أنت؟ هل تقتل

بلا تفكير أم تعرف أن قتل النفس إثم كبير؟

اتجهت كل العيون إلى الجندي الذي تردد قليلًا ثم قال في حسم: بل أقتل لردع الفتن والحفاظ على بلاد المسلمين، في هذا جهاد.

قال عمرو وهو يتظاهر بالدهشة: لديك فصاحة الشيوخ.

قال في شيء من التحدي: تتكلم يا شيخ كأن كل الناس في بلادنا أحرار في كل شيء، وتعرف أن الأقدار هي ما تحركنا، وأن الاختيار مرتبط بحرية الخطأ والصواب فقط.

نظر الطلاب بعضهم لبعض ولم يتكلموا، فقال عمرو: أعرف، أنت مثلًا لم تختر الوقوف هنا ساعات.

قال شيخ في تأكيد: بل اخترته.

هنا بدأت الهمسات تزيد وصوت الطلاب يصل إلى عمرو، فقال عمرو في دهشة حقيقية: اخترت الوقوف هنا؟ أم أمرك السلطان؟ لا تقل لي اسأل السلطان؛ فأنت تعرف أنني لا أستطيع هذا وأن الإنسان مُسيَّر وليس مُخيرًا، فلو أردت الذهاب إلى السلطان الآن وسؤاله ما يسمح لي.

قال في تأكيد: أنا من طلبت من السلطان أن أكون الجندي الموجود في درسك يا شيخ عمرو.

- لماذا؟

- أعرفك منذ زمن وأتابعك، وكنت أريد الاستفادة من دروسك، كل مصر تعرفك يا شيخ.

بقي عمرو صامتًا برهة ثم قال: شرف لي أن تستفيد بدرسي يا شيخ، هل لي أن أناديك باسمك؟

قال الجندي في حسم: بل الشرف لي أنا يا مولاي وشيخنا، شجاعتك يتكلم عنها الجنود كلهم.

قال في تهكم: لم أكن أعرف أن جنود المماليك يتكلمون عني بالخير، كنت أظن أنهم يكرهونني؛ لأنني حكمت على ابن الأمير في الماضي.

- بعضهم يكرهك وبعضهم يعرف ويفهم، ليسوا كلهم سواء، هناك الماجن والورع، المتكبر والمتواضع، الشجاع والجبان، مثلهم مثل كل أهل مصر.

هزَّ عمرو رأسه في إعجاب ثم قال: والله لتتفوقَنَّ على طلابي لو استمررت هكذا، وعندما تحصل على الإجازة تترك القتال أم تصبح أول شيخ يعمل جنديًّا؟

ابتسم ربما ابتسامة طفيفة، ثم قال: يا شيخ، تعرف وأعرف أن الإنسان مُسيَّر وليس مُخيَّرًا. أريد طلبًا لو سمحت لي.

نظر إليه عمرو وهو ينتظر طلبه فقال الجندي: أريد أن أتكلم معك خارج المدرسة في موضوع مهم.

قال في تأكيد: مرحبًا بك في بيتي في أي وقت.

في المساء دق الجندي باب بيت الشيخ عمرو، وما إن دخل وصافحه عمرو بحرارة حتى انحنى وقبل يد عمرو في وجل، ثم جلس أمامه في انبهار، وقال في حماس: كنت أتمنى مقابلتك منذ زمن، منذ زمن طويل.

ابتسم عمرو وقال: تبدو لي في العشرين أو أكثر بقليل، لابد أنه لم يكن زمنًا طويلًا جدًّا.

ثم دخلت بائعة الملح بالعصير واللحم والخبز والحلوى، فقال الجندي بعد خروجها: هذه أم حسن، أليس كذلك؟

قال عمرو في دهشة: تعرف أم حسن أيضًا؟ أتعمل مع البصاصين أم تهتم بشأني؟!

- كلنا نعلم قصة بائعة الملح التي أقسمت على خدمتك ليوم موتها.

بعد أن شرب العصير وأكل نظر إلى عمرو وقال في ألم: هو حادث حدث لي غَيَّرَ مجرى حياتي.

استمع عمرو بلا كلمة فأكمل الجندي: وقت الحرب بين السلطان والأميرين المتمرِّدين منطاش ويلبغا كنت بالطبع في حرس السلطان، فهو أستاذي، اشتراني منذ زمن وأنا دون الثانية عشرة، أحبه وأقدِّره.

هزَّ عمرو رأسه، واستمر في الاستماع، فأكمل الجندي وهو ينظر إلى الزخارف على السجاد: أعرف أنك سُجِنت مع السلطان عامًا، ثم سجنت وحدك عامًا بين الظلمات، كيف كانت الظلمات يا شيخي؟

قال عمرو في صراحة: كالجحيم بالضبط.

- غيَّرتك؟ أثرت فيك؟

- لبرهة جعلت الحقيقة تختلط بالخيال، وطمست الحقائق في عقلي، سوى حقيقة واحدة هي اليقين في الله.

قال الجندي: كنتَ سعيد الحظ وقويَّ الإيمان، لسنا كلنا مثلك، وسجن خزانة الشمائل ليس كسجن قلعة الكرك.

تجمَّد عمرو مكانه ثم قال في صوت قوي: سُجِنْتَ في خزانة الشمائل؟

بدا بعض التوتر على الجندي ثم قال: أبشع سجن في القاهرة.

قال عمرو وكأنه فهم كل شيء: وتعذيبك كان تعذيبًا جبارًا؟

قال في صوت متقطع: عامًا كاملًا حتى عودة برقوق ونجاته كنتُ كالكلب الأجرب مكبَّلًا في حفرة، أُحرق تارة ويقطع الحرس من جسدي تارة، وأصرخ كالمجاذيب، عامًا أو أقل، ولكنه كان بالنسبة لي الأبدية وبقية العمر.

ساد الصمت ثم قال عمرو: هل لعنت كل شيء، وكنت تبغي

خلاص الموت؟

- للتعذيب في هذا السجن قواعد، لا يدخله سوى من يخاف منه منطاش شخصيًّا، لابد أنني جندي قوي لو احتاج منطاش أن يضعني في هذا السجن، كان يبغي كسر الروح، ونجح.

- بل فشل، فهأنت ذا أمامي حي تتكلم عن تجربتك بشموخ.

- تجربتي لا تتركني أعيش ولا ترحمني بالموت، عندما رأيت نفسي أصرخ وأنبح كالذئاب وأرجوهم أن ينهوا المهمة سريعًا ويميتوني كرهت نفسي واحتقرتها، أيُّ جندي يستمر وهو محطم كسلالم المدرسة في المسجد بالضبط؟

ربت عمرو على كتفه ثم قال: الجسد لا يتحمل الكثير، خلق ضعيفًا، ولكن الروح لابد أن تنتصر حتى تحصل على الخلود. أتقرأ القرآن؟

- المشكلة يا شيخ أنني أكره نفسي وأحتقرها؛ لضعفها واستسلامها.

- وماذا لنفسك أن تفعل وسط مجون النفوس الضعيفة وجبروتها؟! استسلمت بعض الوقت وليس كل الوقت. تلك الأيام نداولها بين الناس.

ساد الصمت فترة طويلة، ثم قال الجندي: تعرف يا شيخ ما أتمناه؟

- ما الذي تتمناه؟

- أن يأتي اليوم الذي أهدم فيه هذا السجن بيديَّ، أمسك بالفأس وأهدمه حجرة حجرة.

قال عمرو: وبعد أن تهدمه لابد أن تخفي أثره بالبناء.

قال في يقين: أقسمت ووعدت نفسي أنني سأبني مكانه مسجدًا لم ترَ مصر مثله من قبل، وسيصبح مكان الصرخات تسابيح وأدعية، وبدلًا من الظلام نور القرآن، ولابد لبابه أن

يكون نحاسيًّا مُرصَّعًا بالذهب كباب مسجد السلطان حسن.

اقترب منه عمرو ثم قال: تتكلم وتحلم وكأنك تحلم بأن تكون أميرًا لا جنديًّا، بل بناءٌ كالذي تصفه لا يبنيه سوى سلطان.

قال مسرعًا: أبدًا يا شيخ، بل أحلم فقط بهدم السجن ثم الإصلاح والبناء كما علمتنا، علمتنا الكثير، ولكنها نفسي التي لا أسامحها، لم تقوَ على الفوز، رجت واستسلمت وتوسَّلت، وجسدي الذي أشمئزُّ منه كان كجسد الحيوانات المفترسة، كالضبع يأكل في حفرة ويقضي حاجته في نفس الحفرة ويعيش في العفن!

ابتسم وقال: بعض الناس يعتقد أن الضباع أفضل الحيوانات، وأنها تقضي على الأرواح الشريرة!

- من المجنون الذي يعتقد هذا؟

- زوجتي.

وضع الجندي يده على فمه في هلع من كلامه، ثم كتم ابتسامته وقال: سامحني يا شيخ، لم أقصد.

قام عمرو قائلًا: تريد أن تسير معي على شاطئ النيل بملابسك هذه فيعتقدون أن لي صلة وثيقة بجنود المماليك ولا يحاولون قتلي مرة أخرى؟

قال في حماس: لن يستطيع أحد قتل الشيخ عمرو بن عبد الكريم ما دمتُ حيًّا.

* * *

سارا معًا والجندي يتكلم بحماس عن حلمه بهدم السجن وبناء مسجد مكانه، ثم أكمل: وباب زويلة.. سيكون قريبًا من المسجد الذي لابد ألَّا تعلق الرءوس عليه، هل تصدقني لو قلت لك: إنني أكره القتل والسجون، ولكنها أقدار مكتوبة علينا، كنت أفضِّل لو أصبحت رجل علم مثلك.

ابتسم عمرو وقال: الإنسان لا يرضى بنصيبه أبدًا، ويحلم بالمزيد إلى النهاية. يبدو لي أنك تتقن عملك.

- أحاول.

سكت عمرو برهة ثم قال: حدث الكثير في حياتي، وقابلت الكثير من البشر، أحيانًا كنت أفهم وأعرف، وأحيانًا لم أفهم ولم أعرف، أريد أن أستشيرك في أمر يا شيخ المحمودي.

- لكَ أن تأمرني يا شيخي وأستاذي.

- بل أستاذك السلطان.

- معذرة يعتادها لساني، اسأل يا شيخ.

- عندما حدثت الحرب وسُجِنتُ حدث شيء غريب، أتت عجوز وأخذت ولدَيَّ لمكان آمن في الجنوب لا يعرفانه، حاولت أن أعرف من تكون تلك العجوز ولم أستطع، هل لي أن أطلب مساعدتك؟

قال في حسم: آتي لك بها قبل سبعة أيام، وهذا وعد مني.

ثم أكمل: وهل تسمح لي بأن أستمع إلى دروسك.

- تستمع وتفهم وأعطيك الإجازة.

- هذا لا يجوز وأنا جندي.

- سأعطيها لك عندما تستحقها، وستعرف أنك تستحقها، وليس عليك بالتدريس أو البوح بهذا لأحد سوى نفسك.

ابتسم الجندي في حماس وشوق إلى التعلم.

* * *

بعد عدة أيام سمعت أم حسن طرقًا على الباب وفتحته، فدخلت امرأة في منتصف العمر بوجه سافر أسمر وملامح باهتة، وخطوط العمر تسيطر على كل جلدها حتى قبل أن تبلغ الأربعين، طلبت لقاء الشيخ عمرو، وقالت: إن الشيخ

المحمودي بعث بها إليه.

دخل عليها عمرو وفهم على الفور من ملبسها أنها مسيحية، جلس أمامها ورحب بها، ثم قال: ماذا تحتاجين مني؟

قالت في رتابة: أنت من تحتاج إليَّ، لا أعرف لماذا.

نظر حوله وهو يحاول أن يفهم، واستمعت لهما أم حسن في إمعان وهي تتظاهر بالكنس.

قال عمرو بعد برهة: نعرف بعضنا يا خالة؟

- لا تعرفني ولكنني أعرفك.

ابتسم لها وقال: شرف لي، من بعثك؟ المملوك شيخ المحمودي؟

- هو بعينه.

قال في حماس: أنتِ من أنقذتِ ولدَيَّ؟ لماذا؟

ظلَّت ساكنة لحظات، ثم قالت في صوت بطيء: أم حسن هذه جريئة ومجازفة ومسلمة.

بقي ساكنًا ينتظر منها أن تكمل، فأكملت: في يوم منذ عشرة أعوام قتل جمق ابني بنفس الطريقة وهو في العاشرة، قتله عن عمد بعد أن اغتصبه ولم يمت من الألم والحادثة كابن أم حسن.

ظهرت الدموع في عيني أم حسن فأكملت السيدة: لم أجرؤ على طلب القصاص؛ لأنني فقيرة، والأهم لأنني مسيحية، وبعض الشيوخ تفتي بأن الحد لا يقام على من قتل المسيحي، تعرف هذا يا شيخ؟

قال عمرو في تأكيد: أعرف، ولكنني لست من هؤلاء، لو كنت قاضيًا حينها لكنت أقمت عليه الحد، فهي النفس التي حرم الله قتلها يا أختاه، النفس تجتاز حدود الأديان وتقسيمات

البشر..
نظرت إليه مليًّا ثم قالت: أعرف، لديك جرأة المجانين وعدل القديسين
يا سيدي؛ لذا كان لابد أن أنقذ وَلدَيْك، أخذتهما إلى بلاد النوبة في الجنوب حتى انتهاء الفتن في القاهرة.
- وكيف عرفتِ مكانهما؟
- من السهل على الأم أن تعرف أين يخبئ الأب أبناءه، في مكان آمن في بيت جَد أو جَدة، ولكن مريم الحبشية ساعدتني، تعرفك وتعرف زوجتك، وزوجتك كانت تعرف كل شيء.
قال في استسلام والقليل من الدهشة: زوجتي دومًا تعرف كل شيء، كالبئر لا تصلين لنهايته، ولكن لِمَ لم تأتي إليَّ ولِمَ لم تخبريني؟
- لم أفعل هذا لأنني أنتظر شكرًا، الشكر للرب يا سيدي، فعلته لأنه كان واجبًا عليَّ بعد أن أخذت ثأر ولدي.
صمت ثواني، ثم قال لأم حسن: هيا أحضري الغداء، والولدين ليسلِّما على من أنقذتهما من الموت المحقق.

* * *

بعد أقل من عامين كانت أم ضيفة تشعر بلا مبالاة جديدة عليها من ناحية زوجها، لا كرهته ولا أشفقت عليه، ولا كانت لديها أي رغبة في أن تراه مرة أخرى، ولم يسأل عنها ولم يحاول استرجاعها، وكأن بقاءها عند عمرو كان فرجًا وفاتحة خير، ولم تزل تستشعر الحرج من البقاء في بيت زوج ابنتها إلى الأبد، ولكن صداقتها ببائعة الملح نمت مع الأيام، وأصبحت أختًا وصاحبة، وبدأتا تخرجان معًا أحيانًا إلى السوق الجديدة التي أنشأها التاجر الخليلى في القاهرة، وسُمِّيت بخان

الخليلي، وكان بها بضاعة أكثر من بضاعة قوص بكثير، حتى إن تجار قوص بدءوا يقصدونها ويشترون منها بضاعة يبيعونها في قوص، وفي السوق كانت المرأتان تتسامران وتضحكان وتأكلان الحلوى، وتشاهدان المارة في الوكالة والساحة الكبيرة، وبعد بضعة أيام قررت العجوزان الحبشية واليمنية الهجرة إلى القاهرة لأسباب عديدة، أهمها أنهما تفتقدان ضيفة ولا تستطيعان العيش بعيدًا عنها، ومن بين الأسباب الحزينة وفاة الضباع قتلًا على يد أهل قوص، وهذا أدخل اليأس في قلب مريم العجوز، وجعلها تنذر الناس من حولها بخراب قادم وغزو مفاجئ على أنحاء مصر. بدا لها ضلال أهل قوص وحماقتهم، فكيف يقتلون الضباع ويتركون الشر يترعرع في نواحي بلادهم وأركانها؟! جاءت تشكو لعمرو وتبكي هي واليمنية، وشعرت ضيفة بالإحراج؛ فهي لم تكن متأكدة من تعاطف زوجها أو رغبته في رؤية المرأتين العجوزين، واعتذرت له عن مجيئهما، فقال في تأكيد: إنه يعرف كم تحبهما ضيفة وكم تحبَّانها، ويفهم أنها ابنتهما وسندهما في مصر.

بعد شهر من هجرة المرأتين العجوزين إلى القاهرة، طلبت أم ضيفة من عمرو أن يوافق على شرائها لزاوية قريبة من الخان وبيتًا صغيرًا هناك بالذهب الذي أعطاه إياها، وكانت قد قررت أنها ستَهبُ هذا البيت لأعمال الخير التي تقتصر في نظرها على إيجاد مأوى لكل امرأة تريد التخلص من زوجها؛ لأنه يضربها أو يؤذيها، وسيقتصر هذا البيت على النساء المطلقات أو المعلقات بلا طلاق ولا زواج مثلها وليس الأرامل، وستعيش في هذا البيت مع المرأتين العجوزين، وتدفعان لها ثمنًا لتأجيرهما حجرة أو حجرتين، وستطلب مبلغًا ضئيلًا ممن يستطيع الدفع، ومن لا يستطيع يمكنه البقاء مجانًا، وأصبحت بائعة الملح تزورها كل يوم أو يومين.

بعد بضع سنين استدعى عمرو بائعة الملح، وقال لها في حسم: إنها لن تكنس البيت بعد اليوم، وإن سنها الكبيرة لا تسمح لها بهذا، و إن عليها أن ترتاح بقية عمرها، وبيته بيتها تأكل وتشرب وتراعيها زوجته. اعترضت وصممت أن تستمر في العمل، ولكن آلام ظهرها كانت تجعل التحرك صعبًا عليها، وصممت ضيفة أن تجهز لها الطعام بنفسها، فذهبت بائعة الملح إلى عمرو يومًا وقالت في حسم: يبدو لي أنني لم أفِ بوعدي ووفيت أنت بعهدك ووعدك.

قال في قوة: بل وفيت به سنين وهذا يكفي، أحرّرِك من أي وعد.

نظرت إليه برهة ثم قالت: أنت رجل طيب، ورزقك الله بزوجة صالحة، والله هو الحافظ، كنت أريد أن أحميك من أي شر، ولكن يبدو أن مرضي وسني سيقفان حائلًا دون ذلك.

ابتسم وقال: تحميننيي؟

- بالطبع، كنت أحميك يا عمرو.. الحماية ليست بالسيوف والحصون والقلاع بل بالقلب والنية الطيبة والدعاء، لا تظن أنني لم أحمِك.

ردد: عمرو.. لم تقولي هذا من قبل.

- كنتَ قاضيًا وكنت شيخًا بالنسبة لي وأصبحت ابنًا وسندًا، ما أشعر به ناحيتك مختلف، حنان وحماية لا تشعر بها سوى أم لابنها.

ثم فتحت ذراعيها فنظر إليها في ذهول وقالت: تعال هنا.. أريد أن أضمك إلى صدري مرة ربما ثم أرحل.

تردد برهة وقال: ترحلين إلى أين؟

- إلى بيت أم ضيفة، أصبحت أختًا وصديقة، وهي سترعاني.

لم يتحرك ولم يتوقع طلبها، فشدته إليها وضمته وقالت: هيا

يا بني..

ثم ربتت على كتفه وقالت: فليحفظك الله دومًا.

ثم مسحت دمعة خرجت من إحدى عينيها، وقامت في بطء، فسندها بذراعه، وقالت: في هذا الزمن تختلط الحقائق وتضيع الحقوق، وتنتشر الريبة، ويفقد الفقير السند والثقة، ووجود رجل مثلك كظهور نجمة الشمال في صحراء القاهرة، يرشد ويهدي النفس التائهة، في سلامة الله.

ورحلت أم حسن إلى بيت أم ضيفة، عاشت فيه عامًا ثم ماتت في صمت ولم يحضر جنازتها سوى عمرو وبعض طلابه.

عاشت أم ضيفة مع مريم وزبيدة في البيت الجديد، وانضمت لهم الواحدة تلو الأخرى، وقضين أيامهن في سرد الحكايات عن قسوة الرجال وصبر النساء، وامتلأت الزاوية بالصوفيات والحافظات للحديث، وازدهرت تجارة المرأتين العجوزين في القاهرة.

أما الولدان أحمد وحسين فزوَّجهما عمرو بعد بضع سنين، وعاشا معه في بيته مع زوجتيهما حتى قرر الولدان الانتقال إلى سكن مستقل. بعد استحالة العيش بين ضيفة وزوجتي أحمد وحسين.

زوجة أحمد كانت تكره ضيفة منذ البداية، وتراها غريبة الأطوار وساحرة ربما أو ممسوسة، ولونها الداكن جعل كرهها أسهل والشك في نواياها مستساغًا،. وعدم مبالاة ضيفة برأي الآخرين من نساء أو رجال كان له وقع ضرب رقاب حاملي الرسائل للتتار. أعلنت الحرب إذن بتحدٍّ، وكانت تقول لزوجها: إن ضيفة ليست بارعة الجمال كما يظن بعض الناس وكما تتصرف هي نفسها، وإنها تسحر لأبيهم وتشربه مشروبًا ممزوجًا بشر الجان كل يوم، وإن حب الشيخ لها ما هو إلا

نتيجة لتعاملها مع الجِنيِّ الذي يأتي لها كل يوم في صورة كلب بري وقط متوحش. أسكتها زوجها في صرامة، ولكنها استمرت في الكلام وعقلها مشغول بضيفة دون العالم، بدأت تشكو لزوجها أن ضيفة تطبخ أكلات غريبة، وأنها تهتم بالكلاب الضالة وتعطيها العظام كل يوم، بل وتخرج خارج البيت مع ابنتها لتعطي الطعام للكلاب بلا خوف ولا قلق على طفلتها، وكأن الكلاب الضالة أصبحت ورودًا وأشجار نخيل تطرح الخير والمحبة. أخذت تحثه على الشكوى لأبيه، وأحمد كان يخبرها أنه لا يجرؤ على الكلام مع والده عن ضيفة، وأنه لم يرَ منها سوءًا، واستمرت الزوجة في كرهها لضيفة، وحثت زوجة حسين على كرهها أيضًا، وطعَّمَت القصص والحكايات بالجان السفلي وجان البحار،وكيف تكلم ضيفة الجان وتسحر لهم ليموت أطفالهما.

ولكن الولدين لم يجرؤا على الكلام مع الأب عن هذا قط، وضيفة كانت تعرف وتفهم كره الزوجتين، اعتادت كره الغرباء وكره من أغلق قلبه عن الحقيقة، وتجاهلت ذلك الكُره، واستمرت في الخروج يوميًّا لتقدم العظام للكلاب الضالة مع ابنتها، وتحكي لها عن الضباع التي تطرد الشر وتحمي قوص، والطفلة تستمع بعينين متسعتين وصدر منشرح.

بعد شهر من الشد والجذب قرر الولدان الرحيل من البيت خوفًا من زلة لسان من إحدى الزوجتين تصل إلى الأب، فيغضب ويثور، وكانا يعرفان أن والدهما يحمي زوجته وكأنها طفلته، وأنه لن يسمح بكلمة تؤذيها، ويفهمان لماذا يحبها كل هذا الحب.

وقبل رحيلهما وبعد موافقة الأب نادى الأب ابنه، فوقف أمامه في رهبة، فقال عمرو في حسم: أحمد، عندما ترحل إلى بيتك، وتبدأ عملك الجديد كشيخ أريدك أن تبدأ بأهل بيتك وتصلح زوجتك.

فتح أحمد عينيه في فزع فأكمل عمرو: أرى عينيها ممتلئتين بالحقد، والحقد مرض لابد من مصارعته والقضاء عليه، هي مهمتك الأولى في بيتك.

قال أحمد في شيء من الخزي: سأفعل يا أبي، هل فعلتْ ما أحزنك؟ أخبرني وسأعاقبها بقسوة.

قال الأب في قوة وهو يربت على كتف أحمد: لم تفعل، أصلح زوجتك يا بني، وقوِّمها بالحكمة والموعظة الحسنة.

قالت ضيفة في رفق عندما دخل حجرتهما: لا تلُمْ زوجة ابنك، كل الناس ترى أن أفعالي مخيفة، مع أنني لا أؤذي أحدًا أبدًا.

ابتسم في تهكم ثم قال: هي أفعال غريبة، ولكنها ليست مخيفة.

- تعرف يا عمرو لِمَ يكره الناس الحيوانات البرية؟ لأنهم لا يستطيعون السيطرة عليها وإخضاعها، لأنها حرة أبيه تأبى العبودية، حتى ولو من أجل الطعام والأمان، الإنسان يعرف أن هذه الحيوانات تتفوق عليه فيكرهها، ويعرف أنها لا تتبع قواعده القاسية فيحسدها، ويرى الكرامة في عينيها فتتحدى إرادته وتهزمه.

قال في تأمل وهو ينظر إلى عينيها: وكأنك تتكلمين عن نفسك.

قالت مسرعة: بل عن وحوش الصحراء و..

قاطعها: ولكنك أجمل بكثير من الضباع، أعتقد أن زوجة أحمد كانت تغار من جمالك.

طأطأت رأسها، فقال: معها حق، لم أستطع أن أدير عينيَّ عنك وأنا العالم ببواطن الأمور منذ أول لحظة رأيتك.

قالت في تردد: لو كنتَ تفضل أن أمتنع عن إعطاء الحيوانات الطعام مع فاطمة فلن أفعل.

- حاولت من قبل يا ضيفة، وعرفت أن الحيوانات البرية لا تخضع ولا يمكن السيطرة عليها، تموت في الأسر، وأنا أريدك حية معي.

* * *

ولم تنجب ضيفة سوى فاطمة، قال الطبيب: إن مرضها بعد الولادة أثَّر عليها ربما، وقال: إن عدم إنجابها ربما جاء خيرًا لها؛ حتى تعيش، لأنه لا يضمن أن تتحمل حملًا جديدًا. حزنت ضيفة على هذا في البداية، ثم سكبت كل حبها في ابنتها، كانت تخاف عليها من كل البشر وليس من أي حيوان، وكان والدها يعلمها كما علم أبناءه بالضبط، وفي سن التاسعة حفظت القرآن، وحصلت على ابتسامة وقبلة على خدها من الأب، وقال في ثقة: كم أنا فخور بك! ستتفوقين على كل الرجال.

ابتسمت الأم وتحسرت على سن عمرها وهي طفلة لا تعرف عطف أب ولا حنان رجل سوى زوجها بعد أعوام.

وليلًا في ذلك اليوم جلست على فراشهما،وأشارت إليه أن يضع رأسه على فخذيها، وعندما فعل بدأت تدور بأصابعها حول ذقنه، وقالت في رقة: عمرو، أسعيد أنت الآن؟

صمت ثواني ثم قال: ما هذا السؤال؟!

قالت وهي تمر بيدها على شعره: أحيانًا أشعر بأن طموحك يمتد ليحيط العالم، وأن الرضا لا يدخل قلبك سوى بالملك والقوة والسيطرة، وكأنك من المماليك.

عبس وجهه، فأكملت مسرعة: وأحيانًا أنظر إليك فأرى صوفيًّا زاهدًا في كل شيء، وهب حياته لعلمه وكتبه وعبادة الله، لا يبغي سوى رضا الله، لا يهتم بمجد ولا قوة ولا مال ولا بنين، وكأن الاثنين بداخلك يتصارعان.

قال في غضب: ما هذا الهراء؟ هي الآخرة ما أبغي.

- ألم يقل الله: (وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)؟
- أخذت نصيبي وحققت ما أريد.
- أراضٍ أنت وسعيد الآن؟
قال في حسم: راضٍ وسعيد طالما الله راضٍ عني.
أمسكت بيده وقبلتها وقالت: اعذرني، أحيانًا أقرأ نفسك بلا خجل ولا تردد هكذا، نفسك أنت بالذات.
- أعرف. تفعلين هذا دومًا.
- ولم تزل تحبني؟
- تقرئين نفسي، ماذا تقول لك؟
- تقول: إن الشيخ عمرو بن أحمد بن عبد الكريم يتسم بالعناد ولا يتزحزح عن رأيه أبدًا، وإن الحب تعنت وطغيان وعناد، وإنه سيطر عليك منذ زمن ولا فرار منه، لا تتغير بسهولة يا شيخ.
- ألن تقولي يا مولاي؟
- أشعر بأنك الآن الشيخ، سأقولها عندما أشعر بأنك القاضي.
قال في حسم: لم أقابل أحدًا مثلك قط، سيبقى شكِّي بأنك مسحورة أو ممسوسة من جان.
- لكل منا سحره الخاص، وسحرك أنت يفتن كل القلوب، وقلبي أنا بالذات.
لكلمات ضيفة وقع مختلف، تقرأ النفس كالجان، وتضغط على أوتار الضعف والقوة. تُدَلِّـلُهُ وتستمع إليه كأنه طفلها، وربما تتحمل غرور نفسه ونهمها للمعرفة. تؤكد له أنه مختلف، وورع وعبقري، كاتب وشيخ وقاضٍ وعالم ومقاتل في آن واحد، عيناها تمتلئان بالتهكم والنضج أحيانًا فتشعره بضآلته، وتحثه على الفهم والمعرفة، وأحيانًا تمتلئ نظراتها بالحنان والإعجاب،

وكأنه العالم بكل بواطن الأمور الذي وصل لكل الحقائق وفهم كل ما غاب عن الآخرين، تقلقه دومًا وتدهشه وتحيِّره، ويعشقها كما عشقها يوم رآها في الصحراء وسط الضباع. كان يغضب منها أحيانًا، ويشعر بالضيق لو تصرفت بطريقة مختلفة عن توقعاته، وكان يفقد صبره معها ويلومها، وأحيانًا تقول شيئًا لا يفهمه حينها أو تجيب في شيء من التحدي، فيتجاهلها ويقرر أن يخاصمها يومًا أو اثنين، ولا يستطيع في الغالب، فذكرى سن اليأس تقضي على أيِّ لوم، وعدم نجاح التعذيب والظلمات في تغيير القلب واستسلامه جعلت الخصام مستحيلًا.

ضيفة،.. وجودها حوله به نفحة من رضا الجنة.

* * *

تقول الشائعات: إن التاجر رضاوي بعد أن تركته زوجته أم ضيفة لم يجد أمامه سوى جاريته يفرغ فيها غلظته وخشونة طباعه، فبدأ يضربها ويسبها، فهربت الجارية بعد عام أو عامين، وسيطر أبناؤه الذكور على تجارته وتطاولوا عليه، وأصبح أهل قوص يستمعون إلى الصراخ كل يوم بين الأب وأبنائه.

وبعد أن حصل الطالب شيخ المحمودي على الإجازة لم يبلغ أحدًا حتى السلطان، وأبقى هذا السر بينه وبين عمرو إلى نهاية العمر، وقلت المقابلات بينه وبين عمرو بعد أن ترقى إلى درجة أمير وبعث خارج مصر، ولكن ذكرى الصداقة بينهما لم تترك الشيخين: الشيخ عمرو والشيخ المحمودي.

انقطعت الصلة بين عمرو وبرقوق انقطاعًا تامًّا مدَّة تسعة أعوام أو ثمانية، حتى جاءه حارس من السلطان بأن السلطان يريده في شيء مهم اليوم وليس غدًا.

بدا القلق على وَلديه وزوجته، ولكنه لم يكن قلقًا، وكان يعرف

لماذا يريده السلطان.

* * *

عند الدخول إلى القصر استقبله شيخ المحمودي بملابس الأمراء ولكن بنفس الاحترام والهيبة، وطأطأ رأسه وهو يصافحه، ووضع يد عمرو على جبهته وقال: اللقاء بك يسعد نفسي دومًا يا شيخ عمرو، سامحني لو قصَّرت لم أكن في مصر كما تعرف.

ابتسم عمرو وقال: بل لقائي بك يعطيني الأمل في المماليك في وقت لا توجد ثقة بيني وبين الأمراء كما تعرف.

ثم نظر عمرو حوله وأكمل: سوى أنت، أنت أمير مختلف. وطالب علم.

ثم أكمل: السلطان ليس بخير؟

قال شيخ المحمودي في تجهم: ليس بخير.

هزَّ رأسه في شيء من الشجن وذكريات السجن عامًا أو ما يقرب بينه وبين برقوق تعود وتجرف كل ضغينة وغضب.

دخل على السلطان ورأى أولاده وزوجاته حوله.

أشار السلطان بيديه ليصرف الحضور، ثم قال في صوت ضعيف وهو مُستلق على ظهره: عمرو.. كم أفتقد مجالسنا في السجن.

ابتسم عمرو وربت على ذراعه قائلًا: مولاي سيكون بخير إن شاء الله.

- بل هي النهاية، أشم رائحتها، للموت رائحة قوية تعم المكان، يوم يفر المرء من أخيه وأُمِّه وأبيه وصاحبته وبنيه، للحكم سطوة على النفس تجعلك تفر أيضًا من صاحبك وبنيك، أتعرف ماذا أبغي الآن؟

قال عمرو في صوت خافت: رمان بالزيت والسكر؟

- كيف عرفت؟
- هي أيام قضيناها معًا وعرف كل منا الآخر عن ظهر قلب.
- لم تزل غاضبًا مني؟
- لا جدوى من الغضب.
- تقصد لا جدوى من الغضب وقت الموت؟
- هي أيام نقضيها في غضب وشوق تنتهي سريعًا.

قال في صوت ضعيف: أتيت بك اليوم بالذات لأسألك ما إذا كنتُ سأدخل الجنة أم النار، أنت تعرف.

- مولاي يعرف أني لا أعرف.
- قرأتَ وفهمتَ، أعطني الإجابة قبل أن أسمعها بعد قليل لأكون مستعدًّا للامتحان.
- هو امتحان لم نره من قبل ولا يعرف إجابته أحد، تأتي أسئلته غير متوقعة، مرت علينا ربما ولم نلحظها في غفوتنا، وعندما نجيب نجتهد ولا علم لنا بالنتيجة، بل نتبع الدلائل ونحاول النجاة، ولكل منا شأن يغنيه يا مولاي.
- بل تفتي وتعرف، بنيتُ المسجد والمدرسة والسبيل وحاولتُ قدر استطاعتي.
- لِمَ الشك إذن؟
- الإنسان يخطئ ويطمع.
- وربنا رحمته تتسع للجميع.
- كلماتك تشفي نفسي دومًا، والخوف لا يخمد سوى بالوصول، اؤْمر الحرسَ يأتوا بالرمان لنأكله معًا.

* * *

ماتت مريم وبعدها بعام زبيدة، ولم تعرف أن نبوءتها بالشؤم ستتحقق، وأن الشام ستقع في يد المغول، و إن العلماء في

مصر يعرفون أن مصيرها على يد تيمور لنك الهلاك لا محالة.

بدا لضيفة لأول وهلة أن قتل الضباع كان نذير شؤم، وأن الأيام القادمة ستزداد سوءًا، وشكرت الله أن زوجها بلا منصب يخاف عليه، ولكن ذبح العلماء جائز وممكن على يد المغول.

السلطان الجديد فرج بن برقوق يحب الخمر، ولا يبدو أنه يفيق منها كثيرًا، والجفاف والقحط عمَّا البلاد من نهر لم يعطِ أعوامًا، وأحوال كلها ريبة وخوف.

خافت ضيفة على ابنتها الوحيدة، وأصبح العمر بلا طعم وانتظار الموت مؤكد. أغلقت عليها حجرة في البيت، ومنعتها من الخروج؛ فالأمراض تملأ القاهرة، وخطف الأطفال والكبار وبيعهم أصبح حقيقة يومية. لامها زوجها على خوفها الزائد، ولكنها لم تبالِ ولم تسمع له، قلَّ مالُهم عامًا بعد عام، وبدءوا يفكرون كثيرًا قبل أكل اللحم أو شراء الحلوى، ولكن ضيفة وزوجها لم يباليا بهذا كثيرًا، كان يشغلهما فقط سلامة فاطمة والولدين.

وجاءه زائر كان ينتظره سنين وألهتهم الدنيا عن التزاور، عبد الرحمن بن خلدون.

أكلا معًا وجلسا ساعات، وقال ابن خلدون في حسرة: سقوط الشام يعني سقوط مصر منذ الأزل، والمصير بينهما متشابك. تيمور لنك مسلم، ولكن لا دين يشفع وقت الحروب كما تعرف، ألم أقل لك؟

قال عمرو في تأكيد: تحتاج مصر إلى السلطان القوي كبرقوق ربما، ولكن أتمنى أن يأتي سلطان أكثر ورعًا وأقل تحملًا للفساد.

ابتسم ابن خلدون ثم قال: لا ورع يقف أمام سطوة المُلْك وسحر القوة. كيف حال كتبك؟ أتكتب يا عمرو؟ صيتك يصل إليَّ

وطلابك يعرفون الكثير، ومصر تبث الروح في العلماء، لابد أن تكتب.

قال عمرو: أحاول.

- هو عصر كله قلق وخوف، والاجتهاد فيه واجب ولازم. بعد وحدة نفسي وهزيمتها أصبحت أكتب عن البشر، الآن أكتب عن أحوال الناس وأفهمهم؛ فَهُم الباقون دومًا، أما الملوك فيزولون بزوال المُلْك وزوال العمر.

قال عمرو في تأكيد: قرأت كتبك، وكأن حزنك وفقدك لا يزيدانك إلا ابتكارًا ومعرفة.

- هكذا هو الفقد دومًا، ما تعلمته طوال سبعين عامًا حاولتُ أن أعبِّر عنه في كتبي، يا عمرو، التاريخ ليس قصصًا وحكايات عن حاكم طغى وآخر أخلص وأفنى عمره في خدمة البلاد، التاريخ عن الناس، عندما يهتم العالِم بالناس ويحكي عن الحاكم والسلطان بوصفهما بَشَرَيْن يصبح التاريخ طريقة للفهم.

لكل البشر أنماط وقواعد، ولكل عمران طريقة للتحليل والفهم، لو اتبعنا الطريق العلمي لفهمنا أن التاريخ يكرر نفسه، وعرفنا ما سيحدث في المستقبل. لنتنبأ بالمستقبل لابد من فهم الحاضر من خلال فهم أنماط البشر والعمران،وكيف يتخذ الحاكم قراراته، وما الذي يعطيه القوة، وما الذي يضعفه أو يخيفه.

التأمل العلمي مهم، والربط بين الأعراف والأرض والعمران والناس ضروري، رجل الدين لابد ألا يهتم فقط بكتب الدين والفقه، بل بالبشر؛ ليستطيع أن يحكم بين الناس بالعدل، ويعرف أسباب الظلم والفساد ونتائجهما.

وكانت آخر مرة يرى فيها ابن خلدون، مات بعدها، وخرج

المغول من الشام وقُتل السلطان فرج بن برقوق بعد وقت في الشام، لم يتضح من قتله، ولكن ما اتضح أن عائلة برقوق لن تحكم، وأن ابن الناس القادم لن يتقبله المماليك، وأن قوة المقاتل هي التي تستطيع الإبقاء على مصر والشام وكل بلاد المسلمين، فانتظر المصريون المقاتل القادم والمملوك المنقذ، أسيكون شركسيًّا أم تركيًّا؟ أم من المماليك البرجية أم البحرية؟ أسيفرض المكوس ثم يوزع الحلوى أم سيوزع الحلوى ثم يفرض المكوس؟ أيَّ جنون سيتحملونه بعد فرج؟ أشيع أن الزبيب اختفى من أسواق القاهرة بسبب فرج، ولكنه انتصر على المغول في النهاية،وأنقذ العلماء وأهل مصر.

وظهر الهلال واضحًا، وجاء المنقذ من المماليك، مقاتل ومحارب يعرف معنى التضحية والموت في سبيل الله والبلاد، من انتصر بجنوده على المغول.

المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي، وتهامس أهل مصر أن قتل فرج كان فرجًا، وأن طغيانه وشؤمه كادا يدمران كل بلاد المسلمين، إن كان قتله شيخ المحمودي فنعم ما فعل، ربما قتله، من يدري؟ أليست عادة المماليك؟ يقتل الكثير من السلاطين ويستمر القوي منهم فقط، كان لابد من أن يحكم مصر من يستحقها، اختفى القحط وهدأت النفوس، وتزوجت ابنة ضيفة من أحد طلاب والدها.

* * *

كان يلاحظ تغيُّر زوجته، تارة يصيبها الفزع من الوباء والمجاعات، وتارة تنتابها حالات حزن مفاجئة، وبعد زواج ابنتها وموت أمهاتها الثلاث أغلقت حجرتها، وجلست وحدها تضم جسدها وتتمتم بأنها أصبحت وحيدة ورحل كل الأحباب، طلبت من زوج الابنة أن يبقيا معها فليس لها سوى فاطمة، ولكنه

رفض، وأصبحت فاطمة تزورها كل أسبوع مرة ربما. انطفأت عيناها مرة أخرى، وعانقت وحدة تعرفها منذ الطفولة، واستسلمت لوحشة النفس وحزنها الكامن. رآها يومًا بعد يوم وحاولت أن تبدو طبيعية أمامه وتبتسم وتجلس معه، ولكنه كان يعرفها عن ظهر قلب.

في يوم دخل عليها وهي جالسة على فراشها تنظر إلى لا شيء، ثم قال: يشغلك أمر الدنيا وما يمكن فقده فتتناسين ما تملكين، أفيقي يا ضيفة.

قالت في حزن: اعذرني..

- أنا معك..

- أخاف أن تتركني أنتَ كما تركوني جميعًا. ولو تركتني ماذا أفعل؟

قال في حسم وهو يربت على يديها: في الخوف شك وضلال، وأنت مؤمنة، لابد أن تَدَعي اليقين في الله يرسم أيامك القادمة؛ فهو لا يحملنا ما لا نطيق، التقوى هي أن تأمني غدر الأيام بثقتك بصانعها، أتفهمين؟

ظلَّت صامتة.

فأكمل: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).

نظرت إليه ولم تعلق.

فقال في حماس بعد برهة: لديَّ فكرة.

نظرت إليه فقال: ما رأيك لو رافقتِني بعض الوقت؟

نظرت إليه في دهشة فأكمل: ترافقينني طالبةً للعلم،

تتعلمين وتعلمينني.

ابتسمت ثم قالت: وماذا أعلمك وأنت العارف بكل شيء؟!!

قال في حنان: تعلمينني عن الحيوانات المتوحشة، وأعلمك عن الفقه والحديث.

قالت في يأس: ستضيع وقتك معي.

مدَّ يده وقال: لا ضياع للوقت مع العلم، الإنسان خلق جزوعًا، لا تجعلي الخوف يأكل أيامك كالجذام، هو مرض يحفر سني عمرك ويشوهها.

أمسكت بيده وهمست: أحيانًا أظن أنك مَلَك ولست إنسانًا.

اقترب منها وقال: وفي الأحيان الأخرى تظنين أنني أمير من المماليك؟

قالت في شيء من الارتياح: عمرو.. أوافق وأتمنى أن أتعلم منك، وأعشقك لو تعرف.

قال في رقة: ما زلت تعشقينني؟

- هي أقدار مكتوبة يا شيخ، علمني، لعل العلم يُسكِّن النفس التائهة، ويُخمِد نار الشوق إلى المستحيل.

ومنذ ذلك اليوم وهو يقضي معها ساعتين يوميًّا يعلمها ويناقشها وكأنها أحد طلابه ويغلظ عليها أحيانًا ولا يرفق بها إن لم تفهم أو تحفظ، وكانت تقابل التحدي بقوة وثبات، وتناقش كالمحاربة، وتنفعل وتهدأ، وملأ أيامها كما أراد وكما كان يبغي، فأصبحت تقرأ في نهم، وتحاول أن تنتصر أحيانًا في النقاش، ويتركها في بعض الأحيان ويناطحها في أحيان أخرى، ارتوت من العلم بقوة الضباع وفهمته بعقل بَرِّيٍّ مبتكر.

* * *

ظهر الشيب على رأس عمرو مع ظهور الهلال، وبدأت العينان

تخدعان أحيانًا فتبدو الأشياء بعيدة أو مبهمة، ويبدو الكتاب ذو الحروف الصغيرة صعب القراءة، شاب وكتب ودرس، وحاول الاجتهاد. أما ضيفة فكأن الزمن لم يمر عليها، سحرت الزمن أو انتصرت بنقاء نفسها لا يدري، أو ربما عيناه تخدعانه، لم تزل بكامل فتنتها وجمالها. سألها يومًا كيف لم تكبر ولم تبدُ أيٌّ خطوط على وجهها طوال عشرين عامًا أو ما يزيد، فابتسمت وقالت: هو لوني الداكن يتحدى الأزمنة وينتصر على الخطوط.

لا يدري أهو لونها أم سحرها الذي لم يزل يشك فيه، ولكنها لم تتغير، حتى شعر بخوف أن تراه عجوزًا الآن وترى نفسها في السابعة عشرة كما رآها لأول مرة. لابد أنها عرفت ما يدور في خلده، فقالت يومًا وهي تجهز له الطعام: بعض الأرواح تتلاقى على موعد بالبقاء وهي متشابكة، يا أجمل رجل رأته عيناي، يا معلمي ورفيق دربي.

ابتسم وقال: اشتعل الرأس شيبًا يا ضيفة.

قالت في حنان: لا شيب يلمس قلبك يا شيخي ومعلمي، بل ألوان تغسل النفس وتضيء الأيام.

ضمَّها وهو لم يزل يشتاق إليها ويريدها كما أرادها منذ أعوام.

* * *

سارا معًا في خان الخليلي، وتساقطت الأمطار، فأضاءت مسجدًا وراء مسجد ومدرسة وخانقاه وزاوية، والتف الصوفيون حول مدرسة السلطان برقوق يشربون الماء العذب ويغسلون ذنوبًا قديمة، ويشتاقون لتجلي القرب ونفحة من الجنة. مرَّ بيده على جدار المسجد، ونظر إلى القناديل المضيئة الممتزجة بالغروب المبدع الذي يأتي كل يوم بلون جديد، وتذكر زيت القنديل وطعم الرمان وزوال المُلْك وفناء الطعام والزينة وبقاء المساجد في قلب القاهرة شامخة، شاهدة على ظلم

ونصرة وصراع وبقاء وعذاب واشتياق وقسوة ومذلة وفناء، ومنابر مرتفعة تريد أن تبتعد عن كل مذنب وسجَّان، أين السجون والسجَّان والسجين؟ لهم الفناء دومًا وللمساجد البقاء.

التقت عيناه بعيني زوجته، ورأت الذكريات تمر أمام عينيه كالبرق سريعة ومضيئة ومنعشة، فقالت: ماذا تريد أن تشتري من الخان اليوم يا عمرو؟

قال في يقين: تعرفين.

فابتسمت من تحت خمارها وقالت: قنديلًا؟

قال ونظره يتجه إلى الأفق: لعل كثرة القناديل تنسينا شهور الظلام والجنون.

قالت وهي تمسك بيده: أراك عاقلًا دومًا.

- لكل منا لحظات جنون مهمة في الرحلة تصفع العقل فتفيقه وتدهس الغرور، أريد أن أمرَّ على مسجد الحاكم بأمر الله لأرى صديقًا قديمًا، اذهبي لتشتري القنديل ثم نتقابل بعد برهة عند المسجد.

ذهبت، واتجه هو إلى مسجد الحاكم بأمر الله، دخل وصلى وبحث عن الصديق، وكان يعرف أنه يهوى الاعتكاف هنا، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي.

لمس كتفه وقال: السلام على الشيخ وطالب العلم..

كان المقريزي منهمكًا في الكتابة، نظر إلى عمرو وصافحه بحرارة وقال وهو يدعوه للجلوس أمامه: عمرو بن أحمد بن عبد الكريم المناطي، كتبك تضيء القاهرة وما حولها.

قال في رفق: أوصاني عبد الرحمن بن خلدون بزيارتك.

قال المقريزي في حنين: معلمي وشيخي لولاه ما بدأتُ ولا شرعتُ.

- وهل انتهيت؟

- بل هي كلمات أكتبها وأشرحها؛ لعلها تنتصر على الأيام التي تمحو كالطوفان ولا تترك موجودًا إلا وغيرته وطمسته، شِبْتَ يا عمرو.. لم أَرَكَ أعوامًا.. ألم أقل لك: إن الأيام تغيِّر كل شيء؟!

- تسجلها في دفاترك وتبقى على تاريخها ولو إلى حين.

- أحاول وكأن الله مد في عمري؛ لأكتب ولا أصل للفهم أبدًا، أتعلم ولا أستكفي من ماء والظمأ يحرق حلقي.

- هكذا الأيام.. تزيد العطش واللهفة، لا وصول إلا بالفناء يا أخي.

- كتبك يا شيخ مناطي تحاول أن تفرز الوهم عن الحقيقة، وتبين الخبيث من الطيب.

- أحاول أنا أيضًا.

- أتمنى لك عمرًا بلا فقد ولا حزن، ولا أدري أأطلب من الله أن يطيل عمرك أم لا؛ فعندما يموت الولد والزوجة، تعرف أن الأيام تفعل ما تشاء، وما لحوادث الدنيا بقاء كما قال الشافعي.

ربت عمرو على كتفه ثم قال: يبدو لي أن من أصيب مثلك في الولد والزوجة هو من يعطي بسخاء، يعطي العلم والمعرفة ويبدع في العطاء، وكأنه يعكس بعطائه حزنًا لا ينتهي، هكذا أنت وهكذا كان ابن خلدون.

- تعلمت منه عن البشر، ولم أدرِ أنني سأحزن مثله وأكثر، لا بأس.. تغير الحكام وتصارع المماليك كما يفعلون دومًا.

قال عمرو في يقين: يحكمها القوي، ولا يقوى على حملها سوى التقي المجازف، المؤيد شيخ يستطيع أن يؤدي الأمانة.

- تثق فيه يا عمرو وكأنك تعرفه عن قرب.

قال عمرو في ثقة: أعرفه وأعرف برقوقًا، وأعرف أن مصر كالساحرة الفاتنة ليس لحاكم إلَّا أن يقع في غرامها ويبذل المال والولد ليصل إليها، ولكنها تأبى أن تستسلم أبدًا، ادْعُ لي يا أحمد، لعلنا نلتقي قريبًا بين الأحجار الممتزجة بالمنابر والحب والشوق والأيام.

* * *

جلس عمرو على فراشه كعادته وبدا اليومَ مختلفًا، فاقتربت منه وبدأت تدلك كتفه كما اعتاد منذ سنين وكما يحب دومًا بلا كلمة. قال في حماس: المؤيد شيخ يبدو ورعًا وعادلًا، درَّستُ له بنفسي كما تعرفين.

قالت وهي تضغط بأصابعها على رقبته: أعرف.

- يريد أن يبدأ عهدًا جديدًا من العدل والرحمة.

قالت: أتمنى هذا، كلنا نتمنى هذا.

- الأخطار تتكاثر من حولنا، وخطر المغول ليس ما يقلقني؛ فحرب المماليك معهم طالت وانكشفت قدراتهم، ما يقلقني هو أبناء عثمان، العثمانيون خطر على مصر.

قالت في فضول: ولماذا؟

- الفرق بينهم وبين المماليك كبير لو تعلمين، أقول دومًا الآن مصر هي قلب الحضارة ومنارة العالم، قلت هذا لابن خلدون من قبل، أما إذا انضمت لإمبراطورية فستصبح قطعة أرض لا أكثر، وسينتقل مركز الكون إلى قلب الإمبراطورية كما في الدولة العباسية والأموية وغيرها، المماليك أعطوا مصر الكثير ولم تزل.

هزَّت رأسها بالإيجاب.

أمسك بيدها وتمدد على سريره وهو ينظر إليها وقال: عَرَضَ عليَّ اليوم المؤيد شيخ منصب قاضي القضاة.

أطالت نظرها إليه ثم قالت: وما رأيك؟

قال في استسلام: وهبت وقتي للعلم والمعرفة والتدريس ولا أمان للمماليك.

هزَّت رأسها وابتسمت ابتسامة خفيفة.

فأكمل: كما أنني كبرت وتعبت من الصراعات والمعارك.

نظر إليها، ورأى الابتسامة على شفتيها فقال: لِمَ تبتسمين؟

قالت مسرعة وهي تستقر بجانبه: لا أبتسم.

قال بعد برهة: المؤيد شيخ مختلف، ومشكلتي أنني توليت المنصب في سن صغيرة، مما جعلني أبدو وكأنني أتحدى العلماء والشيوخ، وكان صعبًا علي عقابهم إن أخطئوا، الآن سني أنسب؛ فقد تعديت الستين بقليل وخبرتي طويلة، وهذا الملك كان أحد طلابي، وهذا في حد ذاته مهم، ولكني قلت له: لا.

قالت وهي ترفع حاجبها: قلتَ لا؟!

قال في قوة: نعم. لا طموح لديَّ لمناصب، اكتفيت من طموح الدنيا.

التقت أعينهما فأكمل: ولكنها مسئولية ومهمة، وفيها رحمة بالعامة والمماليك؛ فقاضي القضاة يمكنه تغيير كل ظلم وإفشاء العدل، صمم المؤيد شيخ وحاول إقناعي، بل ووعدني أنه لن يتدخل في قراراتي أبدًا، وأنه مستعد لأن يقسم بالطلاق أمام الناس بهذا إنْ وافقت، هو مختلف عن برقوق، ولكنني صممت على رأيي وقلت لا.

هزَّت رأسها وهي لم تزل تنظر إليه فأكمل: لا طموح لديَّ الآن سوى للعلم والتدريس، صمم المؤيد شيخ حتى بعد أن قلت لا، بالطبع إنْ أصبحت قاضي القضاة فسأغير الكثير.. والسلطان الذي يضع تقوى الله قبل الولاء والأمراء هو سلطان لابد من

دعمه، ولكنني لا أطمع في مناصب الآن.

صدرت ضحكة منها فكتمتها بيدها فقال في غضب: تضحكين؟ لِمَ تضحكين؟

قالت مسرعة: لا أضحك.

- بل تضحكين. لِمَ تضحكين؟!

* * *

على هامش التاريخ:

تولَّى شيخ المحمودي عرش مصر، وسمَّى نفسه المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي عام؛ 1412م.، وأنشأ مسجده -كما عاهد نفسه- مكان سجن القاهرة الشهير بـ «خزانة الشمائل» الذي تعذب فيه من قبل، ومنع تعليق الرقاب على باب زويلة، وقرر أن يأخذ الباب النحاسي الذي أعجب به من مسجد السلطان حسن ويضعه في مسجده، وببلوغه العرش انتهت سلالة برقوق، وكان المؤيد من المماليك البرجية وليس من أولاد الناس.

قبل وفاته أصلح المؤيد شيخ السُّلَّمِ المؤدِّي إلى المدرسة في مسجد السلطان حسن، وركب بابًا جديدًا غير الذي أخذه لمسجده، وارتفع صوت الأذان في منارتي المسجد، ولكن بعد وفاته عاد المماليك لاستعمال المسجد حصنًا وساحة قتال.

وبعد حوالي مئة عام، عام 1517م. دخل العثمانيون مصر وانتهت دولة المماليك البرجية.

في القاهرة اليوم، ظهر الهلال، وبدأ الناس في الاحتفال، وجلستُ أنا أنظر إلى الهلال من ساحة المسجد.

لم أزل أشتري القناديل والمشكاوات وأجوب في قرافة المماليك تارة وفي مساجدهم تارة، لا تستوي الأقدار إلا بينهم ومعهم، حول منابرهم وأحجارهم، وهذا المسجد بالذات مبنيٌّ

بعشق ودموع وشوق إلى لقائه، مسجد السلطان حسن. لم أزل أبحث عمن سرق المشكاوات وما بقية الحكاية.

جلستُ وأنا أعرف أن النهاية قريبة والوحدة موحشة والأحجار كلها دفء.

قال لي الشيخ في اليوم التالي: أما زلت تبحثين؟

فأجبت والشجن يملأ النفس: أنا في حال أفضل الآن، في اكتمال هذه القصة نصرة وفرج إلى حين، ولكنها ليست الحكاية الأخيرة. ما زلت أبحث عن الحكاية الأخيرة. الوصول ليس أبديًّا، والحقيقة ترحل سريعًا كالعمر.

دع الأيام تغدر كل حينٍ فما يغني عن الموت الدواء.

- تقرئين للشافعي؟

- يعرف الأيام أكثر مني على ما يبدو.

* * *

حادثة
الليالي
المماليك:
الحكاية
الأخيرة

«في كتابة الحق جهاد وانتصار، وفي تدوين الوقائع وصول إلى اليقين وثبات للنفس، الدهر يتلاعب بنا وبمصائرنا، ولكن القدم تقف ثابتة على الأرض العتيقة لو كتبنا الحقيقة ولم نُخْفِ ضعفًا ولا قوة، ولم نحاب لأخ ولا عشيرة، فالتاريخ يا أبا البركات يحول دون الفناء، ويدفئ الصروح الباردة، ويحمي من غدر الطامع، إذا كُتِبَ بيد أمينة ودَوَّنَهُ رجال العلم والمعرفة. اكتب في كتابك أنني رأيت بعيني العامة يحاربون بشجاعة وزهد وببريق في العيون، وبكفاءة وإتقان الناسك والعابد، وحماس العاشق والثائر.»

من شهادة سلار المملوكي

القاهرة: مسجد السلطان حسن 2017م

دومًا تبجل المشكاوات، ضَوْءُها يسطع بلا خوف ولا تردد، لا يأبه بلوم ولا تهديد. ساورها الشك في الهدف والغاية من البحث؛ فالبحث دومًا من أجل ملء الفجوة في أغوار النفس، والبحث اللاهث هرب من الحقائق الواضحة الثابتة كضوء المشكاة. ترى لماذا يسرق اللصوص المشكاوات؟ ولِمَ يهتم بها الغزاة؟ ولِمَ يكتب عنها الرحالة والصوفي؟

كتب جدها دكتور صلاح الرواية الأولى، وعليها هي كتابة الرواية الأخيرة.

جوزفين، حفيدة الباحث والأثري صلاح عبد الله، تبحث عن بقايا الضوء في أركان المسجد، وتكتب عن المصدر وليس التاريخ. الجدة الإيطالية ماتت بحسرتها، والجد المصري مات لاهثًا وراء المعرفة، ونسى خلال رحلته المصدر والطريق. وهي ستموت حتمًا، ولكنها لابد أن تترك وراءها رواية عن ثلاث، لكل منهم تاريخ ووجود، ولكل منهم شهادة وقصة، حكوا للمؤرخ أبي البركات أو ابن إياس وكتب هو، هم المصدر وهم الأصل وهم المشكاوات المنهزمة المضيئة دومًا: هند المصرية، وسلار الأمير المملوكي ومصطفى باشا العثماني. رَوَوْا ما رأوا وسمعوا، ما قاسوا وعاصروا، انبثقت الحقائق من روحهم وسط

الشك والهزيمة والوحدة، عاصروا القاهرة قبل أن يعم الظلام وتسرق المشكاوات وتستسلم الروح. التاريخ انتصار وسط الهزائم المتتالية، وكتابته قوة وسط الدمار.

جلست جوزفين كعادتها بجانب المنبر في مسجد السلطان حسن تقرأ في كتاب ابن إياس. يعرفها الشيخ عن ظهر قلب ويشفق عليها من وحدتها الطاغية، البحث بهذه الشراهة يشى بفراغ داخل القلب، لا ولد ولا زوج ولا صديق ولا أهل، ربما وجدوا ولم يملئوا الفراغ، وربما اختفوا في ليلة وضحاها، من يدري؟

قال في فضول: أتقرئين ابن إياس؟ انتهيتِ من البحث عن قاضي قوص؟

قالت جوزفين في حماس: انتهيت من البحث ولم أنتهِ من الفهم، الوصول يحتاج إلى الاجتهاد، هكذا قال قاضي قوص.

- لديك متسع من الوقت على ما يبدو، هل تريدين أن تعرفي بعض برامج المسجد من حلقات علمية ودروس؟

- أفضِّل أن أتعلَّم وحدي؛ فالعلم بالنسبة لي كالوصول إلى الله، رحلة يقوم بها الفرد وحده بلا أهل ولا عشيرة، وإنْ لم يفعل فلن يصل أبدًا.

- تحبين الوحدة على ما يبدو.

- لها قدسية وهدف بالنسبة لي.

- تكتبين كتابًا جديدًا.

- بل أحاول الانتهاء من كتاباتي القديمة أولًا، لابد من فهم القديم للبحث عن الجديد، ولابد من تقبُّل الماضي للعيش في الحاضر. ابن إياس (أو أبو البركات كما اشتهر) اعتمد على شهادات الكثيرين، يعجبني هذا العالم والمؤرخ، يكتب بصدق، هي ثلاث شهادات ما تعنيني.

- أتريدين التحقق من صحتها؟ أستاذة تاريخ أنت إذن؟

- بل أريد معرفة قصة أصحابها، القصة الأخيرة التي تضيء الطريق وتُذهب الشك والفزع.

- قصة هزيمة أم انتصار؟

- هكذا يقسّم البشر مصائرهم حتى تبدو الحقائق واضحة، بينما العمر ليس به لا هزيمة ولا انتصار، هي أيام متفرقة تمتزج فيها الألوان، لم نعرف فيها منتصرًا قط، ولا خالدًا ولا عارفًا بكل شيء، ولا معصومًا ولا محصنًا من كل سوء، وبالطبع لم نعرف فيها قويًّا لم يفتك به غروره، ولا منهزمًا لم يَهْوِ به انكساره، لا يا شيخ، لا هزيمة ولا انتصار يعنياني، ولا شر ولا خير ولا غني ولا فقير ولا قوي ولا ضعيف؛ ففي الضوء الثابت السكينة وفي المعرفة الوصول.

- آخر رواية إذن؟

- هي الحكاية الأخيرة.

الباب الأول
المعركة

«نُوحُوا على مصر لأمر قد جرى من حادث عَمَّت مصيبته الورى

زالت عساكرها من الأتراك فـي غمضة العيون كأنها سنة الكرى

الله أكبـــــر إنهـــا لمصيبـة وقعت بمصر ما لها مثل يرى

لهفي على الفرسان كيف تقطعت أعناقهم بيد العدو إذ افترى

لهفي على عيش بمصر قد خلـت أيامه كالحلم ولى مُدْبرا»

ابن إياس

شهادات 1517-1522م
شهادة هند (1)

عمتي، سأحكي لك عن أمر قد جرى،

في ضوء هذا الصبح هزيمة، وفي ذرات هذا الصراخ خيانة ومكيدة وعبث، حدث ما حدث منذ أعوام. سأصدقك القول وأحكي ما يخجلني ويسيئني ربما، ما حدث حدث منذ ستة أعوام بالضبط.

أقسم لك يا عمتي أن ما حدث كان يفوق الخيال في عنفه وشراسته، وأن الذل هو سمة الكون، والاستسلام لم يكن يومًا من سماتي. أريدك أن تعديني يا عمتي بأن بعض تفاصيل تلك الشهادة ستبقى في قلبك حتى يأتي قضاء الله، وأنك ستقُصِّين على أبي بعض الأحداث وليس كلها، ما حدث لي لم يكن في الحسبان، كنت أقضي يومي في بيتنا أقرأ الحديث وأتفقه فيه، وأشغل نفسي بالمعرفة، ولا أتمنى الزواج أبدًا؛ فلم أكن أحب فكرة البيت والأولاد، وكنت أخاف من انقلاب الأحوال وزوال النعم، ورأيت الأمهات الثكالى والزوجات الباكيات على زوج مات أو قتل أو فضل جارية رومية أو تركية. قررت أن أهب عمري إلى العلم والمعرفة، وأبي كان يعرف ولم يرغمني على الزواج، بل أحيانًا كنت أشعر أنه معجب بشجاعتي وثباتي أمام الناس ورغبتي في حفظ الحديث وتعليمه حتى أتممت

عامي التاسع عشر بلا زوج، ورفضت أن أذهب إلى مسجد البنات في القاهرة لأمرَّ أمام المصلين لعلي أجدِ زوجًا كما فعلت ابنة خالتى. وماتت أمي قبلها بعام وهي فَزِعة على مصيرى المظلم وسط البنات، وبقائي وحيدة وحدة وحوش الصحراء، وشغلت نفسي بتربية أخي الصغير الذي تيتم وهو دون الخامسة، واستمرت أيامي بلا لون واضح وبلا ضوء ساطع، ولكنها آمنة ومستقرة كما تمنيت.

تتذكرين يوم سافرت مع أخي الكبير وشمس أخي الصغير إلى بلبيس لأزورك، تتذكرين اليوم المشئوم الذي تفشى فيه الظلام ووقعت الواقعة ولم يكن لها من دون الله كاشفة.

خرج شمس أخي، بل تسرب من الباب إلى الشارع وسط البلدة، وكان العساكر العثمانيون يخطفون الغلمان ويسرقون الغلال، وكان اقترابهم من القاهرة ينذر بالموت المحقق كصوت الغربان بعد أن تشم رائحة الجثث المتعفنة. ما أفزعه من يوم وما أحزنه من عام! خرجت أبحث عنه في فزع وأصيح باسمه وسط السوق، ولدي شعور كامن بأنني ربما لا أراه بعد الآن، وبدأت أفكر فيما سأقوله لأبي، وما ستكون حجتي في عدم حمايته ومراقبته، سيطر الشعور بالذنب على الخوف من المجازفة، فجريت في اتجاه الجنود ومعسكراتهم أبحث عن أخي.

ما حدث بعد ذلك به بعض المهانة وبعض ما أخجل منه والقليل من الشجاعة والكثير من الحيرة، سامحيني يا عمتي على ما حدث وما سيحدث.

الجنود لا أمان لهم، وهؤلاء الجنود غير كل الجند، سمعت عن بطش المماليك وسطوتهم على الخانات والتجار، ولكنني لم أعرف ولم أرَ مثل هذا الهوان قط، الهيئة رهيبة والشوارب

سميكة وكأنها مكانس سوداء تخفي الشره والطمع والوجوه متسخة، لا لحية لدى هؤلاء الجنود لتشي بالوقار أو التقوى، جريت بأقصى سرعة وأنا أمسك بأخي وأجره جرًّا ورائي، ولكن يدا أو اثنتين أو ثلاثًا أمسكت بشعري وجرَّتني الأيدي وبطشت بي، وتمنيت قدوم شيخ أو بطل أو جان من عالم آخر لينقذني. كانت أمي تحكي عن جان البحر الخارق الذي ينقذ الغريق بعد أن يسأله ثلاثة أسئلة، وإنْ أخفق في الإجابة يغرق لا محالة، كنت أحاول تذكر الأسئلة والإجابات ولم أستطع. ليت الجان يسأل أهل مصر الآن..ليته ينقذهم قبل دخول الجند إلى القاهرة..فلو دخلوا القاهرة لا جِنِّيَّ ينفع ولا شيخ. عمتي..لابد أن أهل مصر تردَّدوا في الإجابة..أم هم المماليك والأجلاب أخفقوا وانهزموا. لا أدري. في تلك اللحظة تمنيت قدوم الجِنِّيِّ من البحر ليزيح الأيدي وينظف الأزقة، ويبعث الحياة في المماليك، ويمحو الطمع والخيانة. ليته يأتي ليوقظ النائم ويقتل ويحرق بيوت الأجلاب. ليته ينفخ بفمه الواسع فيزيح غبار الخيانة والظلم، ويعيد الكون كما كان وكما يحكي لنا الأجداد...كان جدي يقول لا هزيمة للمماليك..لا يعرفونها..هم أجناد المسلمين وفخرهم..فعلوا ما لم يفعله غيرهم، حرروا الأراضي المقدسة، وتصدَّوْا لكل غاز، لا جنس مثل المماليك ولا حتى الجان، هكذا قال جدي.

تمنيت انتهاء الكابوس أو العمر، أيهما ينتهى أولًا لا أدري.

ولكن العمر لابد أن ينتهي قبل الانتكاسة والذل.

وقبل تفشي رائحة الجثث والاعتياد على الرءوس المعلقة، انكفيت على وجهي واستطعمت الدماء المنبثقة من شفتي، وتمنيت أن أموت قبل أن أشعر بدماء براءتي منتشرة حول جنود عثمانية. ما سيفعله بي الجنود هو النار التي تبتلع العمر إلى أبد الآبدين، كنت أصلي وأصوم وأحفظ كتاب الله، هربت الآيات

من رأسي، ورددت: بك أستغيث..بك أستغيث.. لعلهم يسمعون ويتذكرون دينهم لو كان لهم دين.

هذا يدسُّ يده في صدري، وهذا جندي يصفعني صفعة تفقدني السمع برهة وتسكت لساني ويصبح الكون حولي بصوت واحد، وصفير الحروب يسكت كل الأصوات. دار رأسي وزاغت عيناي، ولكنني قاومت وأردت أن أبقى مستيقظة واعية للجريمة والاعتداء، الدماء تنتشر في الحلق، كانوا عشرة أو أكثر..

دوَّى صوت الصرخات وانفصل عني، وانفصلت الروح عن الجسد لحظات، توسلت وتلعثمت، ولم أستطع المقاومة ولم يفهمني الجنود، ولا أتذكر سوى شراهة أعينهم وردائي الممزق والأيدي التي تطلب المزيد.

همست: أخي.. اتركوه! طفل صغير!

حذَّرتني يا عمتي من الجنود؛ فالجنود دومًا يشتاقون إلى امرأة، أيِّ امرأة بعد شهور من العطش في الصحراء. كنت تقولين يا عمتي إن الجندي بعد أن يقتل يصاب بداء غريب، ويحتاج إلى أن يفرغ عنفه وندمه وعجزه ويأسه في امرأة وأنه يتلذذ بالصرخات..كان لابد أن أتوقف عن الصراخ..ولم أستطع. ربما لو توقفت عن الصراخ..

ضغطت على جفني وأنا أقول في صوت لا أعرفه: أغيثوني!

بدأ الكون يبتعد والحواس تتقهقر..والتنفس يصبح سهلًا.

لا أجساد تخنق جسدي ولا أيادي تتحسس صدري ولا شيء..

هل مت وبعثت؟ لا أعرف.

شعور غريب اجتاحني، اختلط الكون أو كاد.

فتحت عينيَّ وبدا الكون غريبًا..بصوت الصفير الذي يدوي في

أذنيَّ..لم يزل الجنود موجودين، ولكنني أبتعد عنهم.

لم تزل الصرخات حولي ولكنني أبتعد أيضًا.

يد تمسك بيدي وتشدني، وضعت يدي على صدري بلا إرادة لأخفي ما أظهره الجنود، أقسم يا عمتي بأنني شعرت بالجان يحملونني بعيدًا، خلع رداءه وغطى به صدري، وتكلم مع الجنود في لغة بدا لي أنه لا يتقنها، كان يتكلم في بطء وصوت هادئ ويبحث عن الكلمات في إمعان، ثم ألقى صُرَّة مال إليهم، ووضعني على عربة كارو وقال بالعربية: لا تتحركي.

أطعته بلا كلمة، كانت عربة رثة وحمارًا عجوزًا، وجاء هذا الجِنّيُّ في هيئة غريبة ومفاجأة وغير ما توقعت، كان يرتدي عمامة فلاح بوجه يصاحب الشمس وجلبابًا باهتًا.

همست في رجاء: أخي..أنِقذْه أتوسل إليك..هو معهم..

أخرج صُرَّة أخرى وألقى بها إلى الجنود فألقوا بأخي وكأنه كومة بطاطس عفنة إلى العربة، فارتطم رأسه وصرخ، ولكن الفلاح شدَّه إلى العربة وانطلق بسرعة.

كنت أرتعد يا عمتي..ولم يتوقف الارتعاد ساعة، ربما وهو يسير بعربته وسط الحقول.

ثم قلت في صوت لاهث: يا أخي، لا أعرف كيف أشكرك، لا يكفيني أن أعطيك كل ما نملك.

لم يجب، وكأنه لا يراني يا عمتي، بدأت أعتقد أنه جِنِّيُّ البحر جاء في هذه الهيئة.

كان ينظر حوله في ترقب، وهدفه الابتعاد عن الجنود.

قلت بعد برهة وصوت الصفير لم يزل يدوي في أذنيَّ: أيُّ عصر هذا الذي يعتدي فيه المسلم على مسلمة ويحارب الأخ أخاه، وأين المماليك الآن لتحمينا؟ كانوا يذلوننا ويفترون ويسرقون، وكنا نتحمل من أجل الحماية، أين الحماية؟

ثم أكملت في كره: جبناء..هربوا كالنساء، اختبئوا كالعبيد، أخي، سأعيد لك كل ما دفعت، أبي غَنِيٌّ..

لم يجب. ولم ينظر إليَّ.

جذبت الرداء إلى عنقي بلا إرادة وقلت: أخي، هل تسمعني؟ سأعيد لك ما دفعت، عمتي كانت على فراش الموت في بلبيس وكان لابد من رؤيتها، هي بخير ولكن بلبيس ليست بخير، من أنت هنا؟

توارى الجنود عن البصر، وسيطر اللون الأخضر على كل الألوان، واخترق النخيل العيون المبهمة، سيعود العمر إلى صوابه بالتأكيد، ولن يصل العثمانيون إلى القاهرة، لا يمكن، لن يدخلوا لا اليوم ولا غدًا ولا لنهاية العمر.

قلت بعد برهة: أخي، هل تسمعني؟

قال في صوت رتيب: لست أخاك.

بلعت ريقي والخوف يتسرب إلى نفسي وقلت: من أنت هنا؟

- من هنا.

- أتوسل إليك أن تعيدنا إلى أبي، أبي في القاهرة، والعثمانيون لن يدخلوا القاهرة، لو أوصلتني إلى أبي لأعطيتك ضعف ما دفعت، وسيشكرك أبي بنفسه على شجاعتك، أنقذت عرضي وشرفي وحياة أخي، أنت خير الرجال، أو حتى أوصلني إلى بيت عمتي، مع أن الجنود سيطروا على حارتها على ما يبدو..

لم يبد لي أن إطرائي أثَّر فيه على الإطلاق.

قلت في ترجٍّ: هل ستعيدني إلى أبي؟ أو تتركني عند بيت عمتي أحتمي بها؟

قال في حسم: لا.

- أعرف أن الطريق خطر، ربما إنْ أرسلتُ مرسالًا إلى أبي فسيأتي ليأخذنا، أو فقط أعدني إلى بيت عمتي. أخي..هل تسمعني؟

قال في عدم صبر: كُفِّي عن الكلام، لست أخاك!

نظرت حولي في حيرة ثم نظرت إلى أخي وكان مُتَكَوِّمًا يرتجف في خوف، هدأت واستقرت ضربات القلب واندفعت الحقائق في هذا الصباح التعس، أهذا الرجل بطل أم شيطان..ساورني الشك..

قلت في ترجٍّ: أنت مصري مثلي..تعرف المماليك وافتراءهم، وتعرف قسوة الجنود العثمانيين..اتركني لحالي، جزاك الله خيرًا على إنقاذ مسلمة من هؤلاء الهمج..

لم يجب.

قلت وأنا أضم أخي إلى صدري: كم دفعت؟

قال في لا مبالاة: ما يكفي لشرائك أنت وأخيك.

شهقت حينها ثم قلت في توسل: يا أخي أُقدِّر شجاعتك، سيضاعف أبي المبلغ خمسة أضعاف بل عشرة لو أعدتني إليه، ماذا ستفعل بي؟ وجودي لن يفيدك، تستطيع شراء من هي أجمل آلاف المرات بهذا المبلغ.

لم يجب.

فكرت حينها بأن أقفز من العربة، وربما كان لابد أن أفعل.

قال وكأنه قرأ أفكاري: لو قفزتِ لتركتُك للجنود..لا تقلقي، لن تبقي على قيد الحياة سوى شهر على الأكثر. سيتناوب عليك الجنود، ثلاثون أو أكثر كل يوم حتى تنفقي كالبهائم، ثم يفعلون نفس الشيء بأخيك، ولن يعيش سوى يوم، أقسم لك، لن يتحمل مثلك.

اختنقت أنفاسي لحظتها وقلت: لم أكن أنوي القفز.

بعد برهة توقف أمام بيت، وشدَّني أنا وأخي، ودقّ البابَ، ففتحت امرأة برداء فلاحة، وقالت: حسام الدين، من هؤلاء؟

قال في رتابة وهو يدفع بي إلى الداخل: جارية اشتريتها اليوم وعبد صغير سينفعنا في المستقبل.

أمسك بيدي ودفع بي إلي حجرته وقال: هذه حجرتي، تبقين فيها طوال الوقت وتطيعين أوامر عدلات، العمل هنا واجب على الجميع، عدلات زوجة أخي الكبير، ستعلمك كل شيء.

هويتُ إلى أرض الحجرة وقلت: أخي، أنا لست جارية، لعن الله من يخطف مسلمة ويجعلها جاريته، هذا لا يحدث في مصر، لم يستعبد أحد المصريين.

قال بلا أدنى تأثر: يحدث من اليوم، لم أخطفك، بل جازفت لإنقاذك، تذكري، ودفعت فيك الكثير، تطيعين كل أوامري من اليوم، وتنسين كل حياتك الماضية وإلَّا استعملت السوط لتأديبك.

ثم خرج من الحجرة وتركني وسط هزيمتي الأولى.

* * *

أصدقك القول يا عمتي، لم يلمسني حسام الدين، ولم يكن يهتم بي كامرأة، بل لم ينظر إليَّ، كان يبقيني في حجرته، ووجدت زاوية أتكوَّم فيها ليلًا مع أخي وأغطي نفسي تمامًا وكأنني جثة، فلا يكاد يشعر بي، وأوهمت نفسي أن هذا الكرب سينتهي، وأن هذا الابتلاء ليس أكثر من ابتلاء أيوب أو يونس عليهما السلام.

أما عدلات فكانت همجية جاهلة، كرهتها منذ البداية، بعض الشيء على الأقل، منذ اليوم الأول ضربتني على كتفي وقالت في احتقار: اعملي هيا..

أنا المدللة التي تأكل بعد إلحاح الجواري، أنا من قضت عمرها

بين زوايا البيوت الغنية تضربني هذه الفلاحة على كتفي وتأمرني أن أعمل وتتذمر لو حرقت الطعام أو فشلت في تنظيف البيت! سمعتها تقول بعد عدة أيام لحسام الدين إنني لا أصلح لأي عمل، وإنني مدللة وقليلة التربية لا أقبل الأوامر ولا أستسيغها.

* * *

بعد الليلة الأولى هدأ الفزع، وحاولت فهم ما يحدث حولي ومن أنقذني ومن خطفني وما إمكانية الهرب. زوج عدلات كان اسمه عبد الله، وبدا أنه يكبر حسام الدين بعشرة أعوام على الأقل، وكان أكثر لطفًا وطيبة من زوجته ومن حسام الدين، ولم يكن فلاحًا على ما أعتقد بل حِرَفيًّا، كان ينحت ويخط كل يوم..وكنت أراقبه من بعيد وأفكر فيما سأقوله له، وكيف سأطلب منه أن يعيدني إلى أبي. ورأيت حسام الدين يتكلم مع أخيه وكان يجلس معه كثيرًا في المساء، ورأيت حسام الدين يخط شعرًا أيضا، بدا لي أن الاثنين ليسا مجرَّد فلاحين بل خطاطين، وخطهما كان جميلًا حقًّا، ونحت عبد الله كان يشي بموهبة كبيرة وإبداع فنان. بعد أن تناولا العشاء معًا وخرجا تسللت إلى حجرتهما، ونظرت إلى ما خطاه، وبهرني هذا الإبداع، وكان أبي يقول دومًا إن المبدع رقيق القلب ورهيف الإحساس فلابد أن الإنقاذ سيأتي عن قريب، وفهمت أن الاثنين يعملان صباحًا في الحقل، وأن عملهما شاق، ويحتاجان إلى المياه والصابون لغسل الأيدي، ثم يأكلان معًا الطعام.

قلت في تلك الليلة لعدلات في لطف: رأيت ابنتك ست الدار جميلة، مثلك جميلة.

نظرت إليَّ في احتقار ثم قالت: تتكلمين وكأننا صديقتان..أنت جارية، لا تعلقي على شيء ولا تتكلمي معي..تطيعين أوامري

فقط..

قلت في ترجٍّ: أنت في سن أمي، ارفقي بحالي..أنا لست جارية وبيت عمتي يبعد ساعتين عن هنا ربما أو ثلاثًا..تعالى نذهب إليها معًا..

قالت بلا تفكير: ألم يدفع فيك حسام الدين الكثير؟ إذن فأنت جارية.

قلت في حماس: سأعطيك الكثير من المال لو أعدتني إلى عمتي فقط.

حينها دفعتني وقالت: اعملي هيا..نظفي الأطباق والحجرة قبل أن تنامي.

لم أكن أعرف كيف أنظف، وتمنيت أن ترحل وتتركني، ولكنها استمرت واقفة تنتظر وتنظر إليَّ..حاولت أن أمسك بالمكنسة لأنظف، ولكنها نهرتني وضربت كتفي وقالت: لا أمل فيك..لن تأكلي لو لم تنظفي..

قلت في غضب ووجهي يزداد احمرارًا: لا تضربيني.

فضربت كتفي مرة أخرى وقالت: بل أضربك في أي وقت.

وبعد يوم اكتشفت كل أفراد بيت عبد الله، كانت لديهم ابنة في الخامسة عشرة، وكانت مقتنعة بأنها بارعة الجمال و..أخجل من قول هذا يا عمتي، ولكنني شعرت من أول وهلة بأنها مدللة ومنحرفة ولا أحد يسيطر عليها ولا تسمع لأب أو أم..كانت تأمرني، أنا ابنة الأكرمين، ويومًا وكزتني وصرخت فيَّ..وتحملت في صبر لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا. سمعت أن عدلات لديها سبعة أولاد كلهم في القاهرة يعملون حرفيين، وأحمد الله أنهم ليسوا هنا وإلَّا كان عليَّ أن أخدمهم كلهم. والحقَّ أقول كانت تعطيني أنا وأخي الكثير من الطعام، وكنا ننام مُتكوِّمين معًا في زاوية حجرة حسام الدين.

ولكن بعد ثلاثة أيام لم أعد أحتمل غطرسة البنت الكسول ولا والدتها.

في ذلك اليوم جاء حسام الدين إلى الحجرة وقال وهو لا ينظر إليَّ: عدلات تشتكي منك، تقول إنه لا أمل فيك وإنك لا تعملين حتى بثمن مأكلك ومشربك.

قلت في مرارة: هذه امرأة بشعة تضربني، هل تصدق؟ ضربتني..أنا لست جارية، قلتُ لك مرارًا، لو أعدتني إلى أبي لأعطاك عشر جوارٍ.

نظر إليَّ لأول مرة ربما، ثم قال وهو يتصنع الدهشة: عشر؟ ماذا يعمل والدك؟

ترددت في إخباره ثم قلت: أبي من الأغنياء.

أطال نظره إليَّ وكأنه يراني لأول مرة، فقلت مسرعة: وزوجي أيضًا وابني يحتاجان إليَّ.

قال وهو يتصنع الدهشة: ابنك؟!

قلت والقصة تتبدى في عقلي للتو: نعم، أنا زوجة وأم، خفتُ على ابني وتركته مع زوجي وأهله، هو سيدفع لك.

جلس على السرير يومها وهو يطيل نظره إليَّ ثم قال: حتى إنْ كان والدك غنيًّا، فلن يستطيع أن يحافظ على شيء من أمواله إذا دخل العثمانيون القاهرة، بل سيكون محظوظًا إن بقي على قيد الحياة.

قلت مسرعة: لن يدخلوا، مسكين السلطان طومان باي، هو رجل وسط الجبناء، لو أخفق المماليك في مصر كما فشلوا في الشام فيا ويلتنا جميعًا!

قال والحديث يستهويه: تتكلمين في السياسة وكأنك تعرفين الكثير..تعتقدين أن المماليك سيخفقون؟

قلت مسرعة: يا أخي..السارق لا يحمي، والحامي لا يسرق.

قال: نعم، معك حق.

قلت وأنا أتودَّد إليه لعله يتركني: رأيت ما خططتَه، خطك بديع، لابد أنك تخط على حوائط المساجد.

قال فجأة: تتكلمين معي وكأننا متساويان..كأنك صديق أو رفيق، لا أحب هذا.

صمت.

فقال وعيناه لا تترك عينيَّ: عدلات ترهقك؟

قلت في حماس: ترهقني جدًّا، وأنا لا أقوى على هذا العمل، ليس لدي قوة لحمل الغلال ولا عجن الطحين، يا أخي..تضربني على كتفي وكأنني أمة، ولديها ابنة متغطرسة وبشعة..أخي ..

تمدَّد على سريره ثم قال فجأة وكأنه لاحظ وجودي للتو: تعالي هنا..

شهقت رغمًا عني، ونظرت إلى أخي واحتضنته، وأمسكت بالأرض وكأنني أستغيث بها.

نظر إلى الأخ، وكأنه لم يلاحظه ثم قال: اطلبي منه أن يخرج.

قلت مسرعة: لا أستطيع، لم يبلغ السادسة بعد، يخاف وهو بعيد عني.

نظر إلي في حدة ثم في لهجة آمرة: أخرجيه من الحجرة..!

همست في أذنه أن يخرج، وما إن فعل حتى قلت في خوف: كنت كريمًا معي
يا أخي في الأيام الماضية، أتمنى أن تستمر في كرمك معي.

قال وهو لا ينظر إليَّ: اخلعي ملابسك، لم أرك بعد، أريد أن أرى جسدك.

قلت في صوت متقطع: لست غانية يا أخي، لي زوج وابن.

ردَّد في رتابة: لك زوج وابن، هكذا قلت، لابد لي من التأكد.

وضعت يدي على فمي وجسدي يرتجف في قوة.

قام في هدوء وأمسك بذراعي، شدَّني فصرخت رغمًا عني، فكتم فمي بيده، ودفع بي إلى فراشه، حاولت المقاومة دون جدوى، صارعته بيديَّ وذراعيَّ، بقدميَّ وساقيَّ، بأسناني وقلبي..ركلته بساقي، ولكنه بعد برهة سيطر عليَّ تمامًا، وأصبح جسدي مختنقًا يكاد يموت تحت جسده، وعرفت أنها النهاية، وأن لا مفر من الهزيمة..ولكن جسدي ثار وارتعد في قوة وانتفض رافضًا هذا السطو..اختنقت أنفاسي، وبدا وجهي أزرق وكأنني دهست الروح وذبحت الصدر.

التقت أعيننا، وفتحت عينيَّ أستغيث وعضت أسناني يده،. ولم أستطع التنفس مطلقًا. قال بعد برهة: سأترك فمك ولكن لو صرختِ أجلدك الآن أمام الجميع.

أزاح يده، حاولت التنفس ولم أستطع، لم تخرج أنفاسي، شهقت وزفرت وحاولت فقط التنفس، وأصبحت الأنفاس غالية وصعبة المنال.

نظر إليَّ برهة ثم قال في ضيق: سأتركك اليوم، اليوم فقط، ولكن غدًا إن أصبحت جثة هامدة على هذا الفراش فستكونين لي، تفهمين؟

هززت رأسي في حماس ولم أستطع النطق.

كنت أشهق وأتمنى التنفس فقط. ترك الحجرة وأغلق الباب، وانتفاض الجسد لا يتوقف.

* * *

شهادة سلار (1)

يا أبا البركات، سأحكي لك عن أمر قد جرى،

بلغني خبر أسعدني اليوم، سليم شاه طلب رءوسنا نحن الثلاثة: إينال وسلار وقانصوه العادلي، ثلاثة أمراء من المماليك، يريد رءوسهم، وسيدفع في كل رأس وزن من قطعها ذهبًا، ولو جاء بأحدنا حيًّا أمامه فسيدفع ضعف ذلك. الحكاية طويلة يا أبا البركات، وحكيها يستمر ساعات العمر والدهر، ولكن.. للشجاعة عقاب في هذا الزمن، والمماليك الأحرار ليسوا كالأجلاب الذين يحاربون من أجل المال. كنا ثلاثة من سلاح الفرسان، تربينا معًا في القلعة، وجئنا من نفس المنبع من بلاد القبجاق ، خطفونا من نفس القرية، وكان بعضنا يعرف بعضًا، نزعونا من هناك، وكان أكثرنا بكاء حينها إينال، افتقد أمه وإخوته، فربتنا على كتفه، ثم لكمناه في بطنه، فجرى وراءنا لينتقم، وأصبحت صداقتنا ملاذنا وعائلتنا، وعند شدة الفقد والحنين إلى ماض لا عودة له، نلهو معًا ونتسابق ونتكلم بلساننا، ونتذكر أو نحاول النسيان.

تربينا من أجل مصر، عشنا وهي دومًا صوب أعيننا، تعلمنا من هذا الفقيه وهذا القائد وهذا الأستاذ، والهدف هو تلك الرمال الممتزجة بالطمي وبقايا العمر. مصر كانت دومًا صوب عينيَّ يا أبا البركات، حاربت من أجلها بنفسي وبدني، منذ كنا في التاسعة وهي هدفنا. أنت ولدت في مصر يا أبا البركات

فأصبحت مصريًّا، أما نحن سلار وإينال والعادلي فقد اكتسبنا طميها وتعلمنا حبها. أتفهمني؟ ليس لك يد في اختيار مكان مولدك، ولكن عندما تجازف بعمرك من أجل بلد، فهو لك بالتأكيد. لم أولد فيها، ولكنها كبرت بداخلي أنا، في سقوط الشام موت بضعة مني؛ فهي شريان مصر وامتداد بلاد المسلمين، ولو سقطت مصر، لأصبحت مفاتيح الكعبة في يد سليم شاه ولابد للمماليك من الانتحار أو ارتداء طرح النساء. أقسمت أنها لن تسقط وأنا على قيد الحياة، ولكن الخيانة تحول دون الوصول حتمًا، داء بلا دواء ووباء يطيح بكل البشر، وعندما تأتي من قلب الروح تؤلم يا أبا البركات، بل تقتل أو تكاد.

بعد مرج دابق وانهزام السلطان الغورى أمام سليم شاه في الشام، وبعد انكشاف خيانة خاير بك وتقهقر ميسرة الجيش التي كان يقودها، كان لابد من البحث عن الخائن. خاير خان سلطانه لطمع في نفسه..كان يريدها ويحبها..مصر، ولكنه لم يصنها. ولم يقدرها. هي ليست أمة تسير على طوع هوى سيدها يا أبا البركات، مصر تستعصي على الخائن وحتى على المخلص. أراد مصر ودفع ثمنها ببيع روحه للشيطان إلى أبد الآبدين، وعده سليم شاه بحكمها إن انتصر، فخان.

هذا حدث منذ زمن، لا أريد أن أطيل عليك. كنت أنا مَنْ طلب منه السلطان الغورى قيادة ميسرة الجيش، ثم تغيَّر هذا بين ليلة وضحاها، وأعطى القيادة لخاير بك. لماذا؟ هل تساءلت يا أبا البركات؟ هل أخبرك أحد قبلي لماذا غيَّر السلطان رأيه؟ ما سأقصه عليك لابد أن تبقيه في قلبك، لا تحكه ولا تكتبه؛ فهزيمتي ليس بعدها هزيمة، وانتقامي لابد سيأتي، ولن يكون إلا بقتل الخائن، بل كل من خان.

خاير بك يا أبا البركات عرف أن السلطان طلب مني قيادة

ميسرة الجيش وحمايتها في مرج دابق، وأقنع خاير السلطان بأنني لا أصلح، فلم أزل أمير طبلخانة وهو والي حلب، ولا بد لي من البقاء حول السلطان لحمايته. هكذا قال الخائن، وكنتُ حول السلطان وحَمَيْتُهُ. تتساءل كيف حَمَيْتُهُ وقد قُتل في الحرب؟ أخبرك يا أبا البركات، وهذه روايتي ويمكنك كتابتها. قتله قائد عثماني بعد أن اكتشف مكانه من بعض المماليك الأجلاب، وحارب الغوري لآخر نفَس، وكانت الحرب قد قامت على ساق واشتد أُوارُها. شقَّ سيف العثماني بطن السلطان، واجتمع حوله الجنود يبغون سرقة جثته، وأنت تعرف يا أبا البركات أن للجثث قدسية عند المصريين، وأنا منهم، من المصريين، أعرف قدسية الجثة وما سيفعله بها سليم. لو مَثَّلَ أحدُ هؤلاء بجثة سلطان المماليك، فالعار سيحيط بنا إلى آخر الزمان. حاربت بسيفي وخنجري، حاربت من أجل جثة الغوري، وهذا القائد يريد أن ينتزعها من بين يديَّ، وهذا الجندي يتسلَّل من خلفي كالضبع الجائع، حاربت الكثير، ولم يكن أمامي سوى حلٍّ واحد.. أنقذ به سمعة المماليك وسلطانهم.

في ثوان قطعت رأس الغورى بسيفي وجريت به، وتركت الجسد قائمًا مكانه لضباع العثمانيين، فلا فائدة لجسد بلا رأس، ولن يصدق أحد موت الغورى لو لم يجدوا رأسه.

امتطيت فرسًا والرأس على صدري، وجريت بأقصى سرعة حتى وصلت إلى حافة نهر. توقفت وأمسكت بسيفي ومزقت الرأس حتى أصبح التعرف إليه مستحيلًا، وألقيت به في المياه، ولم يزل المصريون يعتقدون أن الغورى سيعود، وأنه لم يمت. أبقيت الحلم حتى لا يصل وباء الانهزام إلى النفس، فلو وصل لصار الشفاءُ منه مُحالًا.

يا أبا البركات، عندما عدت إلى مصر كانت نفسي منكسرة، وهزيمة مرج دابق ليست هي ما قتل القلب، بل هزيمتي أنا

وخِزيي أنا وانتهاء قصة عشق استمرت سنوات، انتهت بالخيانة.

عدت إلى بيتي كما أفعل دومًا، أبحث عن زوجتي لأضمها في لهفة وشوق، كانت بارعة الجمال، لم أكن قد رأيتها سوى ليلة عرسنا، وعندما رأيتها عرفت وأيقنت معنى العشق. أحبتني، كنت أعرف، لهفتها عليَّ وهي تحوم حولي كانت تضيء كل أيامي، ولم يعش لنا أولاد طوال سبع سنوات وكلما تألَّمَ القلب ازداد العشق بيننا. تعرف..تعرف يا رجل..معنى أن تجد ثمرة طيبة بين حنايا أشجار عفنة؟ هكذا كانت هي. تعرف من أيّ ِنسل نبعت زهرتي؟ كانت ابنة خاير بك!

خوند سعادات، زوجتي كانت ابنة الخائن، ولكن لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى، ولا بد للعشق أن يشفع وقت الانهزام، هكذا قلت لنفسي طوال المعركة. الخيانة كمُشيِّد العمائر الماهر، تبنى الحواجز والقلاع العالية المُحكمة في أقل وقت وبأقل جهد، كان الحاجز يكبر ويزداد سُمكًا وقوة، ولكنه وصل إلى ذروته عندما فكرت وفهمت وأيقنت.

من الصعب أن تختار بين عشقك ووالدك، فهذا منك وذاك منك، ويا له من ابتلاء! أشفق عليها الآن.

استقبلتني كعادتها، ولكنها اليوم ضمتني بقوة أكثر والدموع تترقرق في عينيها وهمست: حمدًا لله على سلامتك، لا يهمني سواك.

لم تلاحظ تجمد الجسد ولا الصخور الرخامية حول القلب، كان شوقها يتدفق بلا تمييز.

جلست ووضعت رأسها على صدري، فأبعدتها ثم قلت: تعرفين..كنت حَرِيًّا بأن أكون قائد الميسرة..تعرفين، أخبرتك قبل السفر..ولكن السلطان قرَّر غير ذلك. تُرى من أخبر أباك بأنني

كنت سأصبح قائد الميسرة للجيش؟ ومن أفشى السرَّ ليغيِّر القدر؟

تجمدت مكانها ثم قالت في أسى: لم أكن أريد موتك.

قلت في صوت بارد: ولكنك فضلت موت جيش بأكمله.

- أنت زوجي وليس لي سواك، تشفعت عند أبي حتى لا تقود الجيش وتهلك، لم أفش سرًّا، السلطان الغوري استمع إلى أبي وأبعدك عن الميسرة، هو اختيار السلطان وليس ذنبي، لا مفر من الاستسلام، جيش سليم بحجم بلد بأكمله، يزيد على مائة وخمسين ألفًا، لا أمل في الحرب.

- طلبت من أبيك أن يقود هو؟ أن يثني السلطان عن اختيار المخلص، واختيار الخائن بدلًا منه.

قالت في شيء من الغضب: أبي ليس خائنًا، أبي يريد إنقاذ مصر من ويلات الحروب، يفهم ويعرف.

التقت أعيننا، فقلت في صوت خافت: أخبرتك..وأنت بين ذراعي..كانت غلطتي، ولابد من موتي بوصفي خائنًا أنا أيضًا، أخبرتك كي تقرَّ عينك وتعرفي، ولكنك أفشيت سرَّ الزوج للأب، فعلتِ.

قالت في هدوء: أنقذتك ولا أندم، هي حرب لا قِبَلَ لنا بها.

أطرقت برهة ثم قلت: انتهت حياتنا معًا، سأعيدك لوالدك اليوم.

فتحت عينيها في فزع ثم قالت والدموع تنهمر بلا توقف: تعرف أنني أحبك.

- أعرف.

- وأنني لم أخنك.

- بل خنتِ وانتهى الأمر.

- تظلمني لأنني أريدك حيًّا، تريد الانتقام مني وكأنني سبب الهزيمة، وأنا لست السبب.

- هو والدك السبب، خان وباع.

- بل فهم وأبصر ما لم تبصروا.

- هذا فراق بيننا يا سعادات.

نظرت إلى عينيَّ ثم قالت وهي تمسك بيدي: تنتقم مني لأنك تكره أبي، أين عدلك يا أمير؟

- سيرافقك الجنود إلى بيت أبيك.

همست في أسى: سلار..شفاعتي أنك حي. ستعود إليَّ يومًا وتفهم وتبصر.

قلت في حسم: لو أصبحت عبدًا مكبلًا يجرونني في الأسواق ما عدتُ إليك.

كنت أعرف سعادات، وأعرف كبرياءها، لم تركع وترجوني، ولم تجهش في بكاء العاجز والمنهزم، ولكن عينيها كانتا تتضرعان وتلهثان وتطلبان وتتمنيان، قمت من أمامها في برود، وطلبت من الجنود الاستعداد للرحيل. وتلاشت السنون السبع، وامتزج طعم العشق الطويل بدم الخيانة وشيدت القلاع وانتهى الأمر.

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (1)

أريد أن أقصَّ عليك أمرًا قد جرى، ولكن عليك أن تفهم يا أبا البركات أن سليم شاه هو أعظم سلطان على وجه الأرض، لن ترى أحدًا في شجاعته ولا عدله ولا ورعه، وأنه عطوف على الضعيف، قويٌّ مع الظالم، وأنه متواضع مع العلماء والقضاة، وحاسم وقاسٍ مع العدو فقط. أتريد أن تكتب الحقيقة؟ فلتسمع مني إذن. لم يكن ليأتي إلى الشام لو لم يستغث به العلماء من بطش المماليك. اسمعني يا أخي ولا تغضب، فالمماليك لصوص بطبعهم، والأجلاب منهم يقتلون بأجر ويحاربون بغنائم، لن أنكر أن بعضهم ليس كذلك وأنني قابلت بضعة منهم يملكون من الورع والتواضع ما يضاهي ورع أولاد عثمان، ولكنهم قليلون

يا أخي في الإسلام. في وقت الحروب لا تتوقع أن يفرز الجندي الرجل من الشيخ ولا الطفل من الهَرِم، هي لحظات فوضى ومحو، مثلها مثل نهاية العالم، لكل حرب ضحايا ولكل انتصار قسوة وبطش، هكذا الدنيا، ومن يقل غير ذلك يكذب عليك يا أخي. ولكنني كان لي شرف مرافقة خادم الحرمين الشريفين ومالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين الملك المظفر سليم شاه، ويمكنني أن أجزم أنه أعدل مَنْ رأيت، وأشهد أنني قرأت رسالة القضاة والعلماء له، وقرأها هو أيضًا، ولكنه كان دومًا يريد

من يترجم له على الرغم من أنه يتقن العربية، وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدلُّ على دقته وإتقانه وخوفه من الظلم. لا أتى للشام لمطمع في نفسه كما يدعي بعض الناس، ولا وصل إلى حدود مصر لأنه يريد أن يسيطر على كل بلاد الإسلام كما يدعي المغرضون، بل هي صرخة استغاثة من شيوخ الشام لملك مسلم ورع محبٍّ للخير والعدل.

أما شأنه مع طومان باي فقد راجعت رسائله بنفسي، وقد طلب منه مرارًا أن يستسلم ويدفع الضرائب، ويعترف به سلطانًا على مصر، ورفض طومان باي، ورفض أمراء المماليك، وقتلوا حامل الرسالة، لأكون صادقًا معك، تعاملت مع أمراء المماليك ووجدت في نفوسهم غرورًا لا أعرف كيف اكتسبوه، وثقة زائدة في النفس، لا أحب التعامل معهم، ولا يشفع لهم سوى شجاعتهم في الحرب وإتقانهم اللغة العربية لا أكثر.

أقول لك يا أخي إن ما فعله بعض جنود العثمانيين ليس من أخلاقنا، ولم يكن بعلم من الملك المظفر سليم شاه. هي تجاوزات من جنود اجتازت الصحراء بين جوع وعطش وتعب وإعياء لا أكثر، بل أقول لك ما هو أكثر، لقد سمع السلطان بأن أحد جنوده المقربين قد اعتدى على فلاحة في الشرقية أمام العامة وزنا بها، والعامة يشاهدون ولا يدافعون؛ فالسيوف على الرقاب، وما إن علم الملك المظفر حتى أمر فورًا بقتل الجندي العثماني أمام العامة. هل رأيت وعاصرت عدلًا أكثر من ذلك؟ أيفعلها غازٍ أم شيخ ورع يا أخي؟ أتريد أن تكتب الحقيقة؟ أنا أقولها لك وأشهد بها أمامك.

لم أر التردد على الملك يومًا إلا على حدود القاهرة؛ فالقاهرة لها رهبة لا مثيل لها، نقول في بلادنا إن رهبتها تأتي من هذا التمثال المسحور أبو الهول والأهرام الثلاثة. كان سليم شاه يحلم برؤيتها، وكان قد سمع عن مبنى بعينه في القاهرة،

صرح عظيم أقسم سليم أن يزوره لو تسنَّى له دخول مصر، إنَّه مسجد مهول يسمى مسجد السلطان حسن، نعرف أنه كان سلطانًا وقتله أمراء المماليك، وأن المسجد لا يضاهيه مبنى آخر في كل بلاد المسلمين. سمع عنه سليم شاه فأقسم أن يزور الأهرام يومًا ثم يبيت في مسجد السلطان حسن عدة أيام. لا أعرف ما كان يستهويه في المباني العظيمة، ولكنه كان دومًا يقول إن الحضارات هي بضعة مبانٍ لا أكثر ولا أقل، وإنه بغير مُشيِّد العمائر لا يوجد تاريخ ولا مكان ولا انتصار. هذا ملك حكيم وعادل ومتواضع وأفضل من أنجبت بلاد المسلمين.

* * *

شهادة هند (2)

يا عمتي سأحكي لك عن أمر قد جرى ويا له من أمر! عمت مصيبته الورى.

كنت أفكر طوال الليل في طريقة للهرب أو المراوغة؛ ففي اليوم التالي فنائي وقمة هزيمتي، وكان عقلي يتلاعب بي ويُهدِّئ من فزع النفس، فيقول إن رجلًا خير من ألف، وكوني جاريته هو فقط خير من أن أكون خرقة في يد جيش بأكلمه، وحسام الدين شاب وليس بهذا السوء، ولكنني كنت أكرهه بطول النخيل وعمق النهر، ومع أنه أنقذني فإنني كنت أجد خِسَّة فيما أراده مني وما كاد يُقدِم عليه. تعرفين يا عمتي لو طلب منك أحد أن تمزِّقي جلدك كله وتلصقي بلحمك جلدًا آخر وقال هذا قدرك وهو أهون من غيره، فماذا ستفعلين؟ كنت وحيدة أبوي ومدللة وسعيدة في بيت والدي بين إخوة وأهل كرام، والآن أصبحت تحت رحمة هذا الفلاح وأهله الجهلاء. كنت قد عقدتُ العزم على أن أحاول من جديد؛ فلا بد أن المال يغريه ويملأ طمع نفسه. لابد من استعمال الحيلة والدهاء، أو الهرب. وكنت أعرف أن نتيجة الهرب الهلاك لا محالة، وعمق كرهي له كان يكمن في خديعته أو خديعة نفسي التي ظنت لبرهة أنه نقي كالفرسان، ولكن نفسه طامعة شريرة بلا رحمة ولا وفاء.

حسام الدين هذا هو جِنِّيٌّ من أعماق البحار ولكنه جِنِّيٌّ سفلي، دعوت عليه وعلى عائلته وعلى كل أولاد عثمان وكل

أهل بلبيس.

في الصباح قررت المجازفة والهرب مع أخي، بحثت عنه في البيت ولم أجده يا عمتي، كان بيتًا من ثلاثة طوابق، وظننت أنه في الحظيرة، وسألت عدلات في فزع فقالت في لا مبالاة إن حسام الدين أخذه معه اليوم، وأيقنت ساعتها أن معركتي ليست ككل المعارك يا عمتي، وأن جيشي ليس به جنود. لابد أنه كان يعرف أني أنوي الهرب؛ ولذا تأكد من أن أخي معه طوال اليوم، بل وجدت باب البيت مغلقًا بالمفتاح، والمفتاح مع عبد الله على ما يبدو. كنت أدور حول حجرتي كالطائر الذي اخترق حدود حجرة ضيقة ولا يعرف الخروج، وخفق قلبي وارتجفت، ولكن الغضب هو ما طغى عليَّ، الغضب من شرِّ النفوس وفجورها.

عملت اليوم بحماس مع عدلات، وطلبت منها أن تشفع لي لدى أخي زوجها، نظرتْ إليَّ في دهشة، فقلت في خشوع: فقط اطلبي منه أن يرحمني.

لم تجب ولم تطلب منه شيئًا. عندما عاد ليلًا مع أخيه هرعت إلى عبد الله وأمسكت بيده وقبلتها، وقلت: يا أخي أتمنى أن تنقذني ليبارك لك الله في ابنتك.

وقف حسام الدين مذهولًا، ونظر عبد الله إليَّ في فزع، ثم نظر إلى حسام الدين، فأكملت مسرعة: ألوذُ بك وأطلب حمايتك.

قال في رفق: حمايتي مِمَّنْ يا ابنتي؟

قلت وأنا انظر إلى حسام الدين كأنه وحش سينقض علي: من أخيك.

ابتسم ونظر إلى حسام الدين الذي لم ينطق لحظتها.

فأكملت مسرعة: يريدني أن أُغضِب ربي، وأنا أرفض أن أفعل

هذا، لا تجعله يفعل بي ما لا ترضاه لابنتك، تقوى الله تشفع للقلوب.

انحنى بعض الشيء، ورفعني ثم قال: أنت جاريته يا ابنتي.

قلت في إصرار: هل حكى لك ما حدث؟ هل حكى لك كيف أصبحت جاريته؟

قال عبد الله: والله لم يفعل.

فقصصت عليه كل شيء بسرعة ودون النظر إلى حسام الدين، والأمل يعطيني القوة والحياة.

استمع إليَّ في صمت ثم قال: لا أعرف كيف أساعدك لو كان قد اشتراكِ من الجنود.

قلت في إصرار: هل يحق للجنود العثمانيين دخول مصر؟

قال عبد الله في حسم: والله لا يحق.

فقلت: فلِمَ يحقُّ لهم بيعي وشرائي؟ منذ متى تباع المصريات للجنود يا أخي؟

نظر عبد الله إلى حسام الدين الذي استمر في صمته حتى ظننت لأول وهلة أنه يخجل من فعلته ومِمَّا كان يهمُّ بالقيام به. ثم قال: يا حسام الدين، ارفق بها؛ فهي ابنة بيت عز، والزمن يذل..

قلت في انتصار: لك الشكر يا أخي..

قال عبد الله في لطف: أنا مثل أبيك يا ابنتي، ولست في سن أخيك.

ثم نظر إلى حسام وربت على كتفه وقال: أسترفق بها؟

فقال حسام وهو ينظر إليَّ نظرة لا أفهمها: سأرفق بها..أعدكَ أنني سأرفق بها.

ثم اختفى عن الأنظار فاطمأن قلبي، ولكنني لم أدخل

حجرته. مكثت في بهو البيت أحتضن أخي وأتدثَّر بغطاء كبير أنا وهو. نام أخي بعد أن انتصف الليل ولم أنم أنا، كان القلق يساورني، ولم أكن أعرف أهو اقتنع بكلام أخيه أم لم يفعل! ولو لم يفعل فماذا سيحدث؟ فكرت في الخروج إلى الحقول، ولكنني كنت أشعر بالرعب كلما تذكرت ما فعله بي الجنود. أخذت أهتز إلى الأمام وإلى الخلف وأنا أحكم الغطاء حولي حتى سمعت خطوات تسير في اتجاهي، أغمضت عينيَّ لعل الخطوات تختفي ويعرف السائر أنني نائمة.

وكان حسام الدين. ما إن رآني حتى ناداني وقال في قوة: اتركي أخاك هنا.

قلت في ترجٍّ: أخوك شفع لي، لدي ابن وزوج، ارفق بحالي، واتركني أرحل..

قال وكأنه لا يسمعني: اذهبي إلى الحجرة.

تركت أخي وهممت بالجري إلى باب البيت فلحق بي في لحظتها، وأمسك بي ويدي على مقبض الباب تتشبث به، جرَّني إلى الحجرة وقال في حسم: إياك أن تصرخي.

ولكنني صرخت فوضع يده على فمي حتى وصلنا إلى الحجرة، دفع بي بداخلها وأغلق الباب بالمفتاح، فحاولت أن أرجوه قائلة: شهامتك من شيم الرجال. أنا أم وزوجة، لا تذلني، أتوسل إليك. حميتني وأنقذتني، أكمل عملك الصالح، ولك الثواب، أنت خيرالرجال. أخي..

قاطعني وهو يخلع نعليه ورداءه: لا تقولي أخي مرَّة أخرى، قولي مولاي.

قلت في تلعثم، وقلبي على مسمع مني: كنت كريمًا معي أمس، والله لن أنسى كرمك ما حييت ولو لم أدفع لك ما دفعتَ فافعل ما شئت، هو حقك، لو لم أدفع لك ما دفعت.

قال وهو ينظر إلى جسدي وكأنه بضاعته: هو حقي، نعم، وأنت ملكي أفعل بك ما شئت اليوم وغدًا وكل يوم، اخلعي ملابسك وكفِّي عن الكلام.

جلست على الأرض وقلت في ترجٍّ: استمع إليَّ فقط.

ثم قلت في ذل لم أعرفه من قبل : أتوسل إليك، سأموت لو حدث هذا.

جلس أمامي وأمسك برأسي وقال في قوة: لا أريد أن أستمع إليك، ولا تعنيني كلماتك على الإطلاق، ولا أريدك أن تتكلمي دون إذن مني اليوم.

ثم رفعني في ثوان إلى فراشه وخنق جسدي، وهممت بالصراخ، فكتم فمي وحبس ذراعي وراء ظهري وقال: لو صرخت أمزقك إربًا أمام أخيك الصغير، ثم أبيعه للجنود العثمانيين ليخصوه لو كان محظوظاً و لم ينفق بين أيديهم، بل سأفعل هذا الآن لو قاومتِ..

ولكنني قاومت ولم أصرخ، خوفًا على أخي وما يمكن أن يحدث له أو ما سيراه في تلك اللحظة، ضربت بكل أطرافي وبكل ما أملك من قوة، وتوقعت أن يصفعني أو يضربني بالسوط أو يتركني لحالي ولم يفعل.

يا عمتي..ماذا أقول..نُحْتُ وكأنني فقدتُ كل عائلتي، وخرجت من فمي صرخة ضعيفة بها كل مرارة الهزيمة وقلت: تعرف كم أكرهك!

تأوَّهت وأنا أشعر به بداخلي، وقشعريرة تسري في كل جسدي، والدموع لا تجد طريقها إلى عينيَّ. تأوَّهت ألمًا على ما فُقد وما استبيح، لو كان بيدي كنت نُحْتُ ساعتها وفنيت نفسي من حدَّة ذرات النواح في الهواء.

ترك علاماته عليَّ..ختم جسدي بالنار ليتأكد من أنني أمته،

حرق أعماق روحي، وبقيت روحي حُرَّة رغمًا عنه، انهزم الجسد أمام عدو وخائن..

بعد أن انتهى دفنت رأسي بين يديَّ في خِزْي، لم يكن بيدي شيء، وفي هذا الزمان دهسُ الأجساد واجب، وخنق الروح الحرة وإرضاخها عمل مجيد.

نظر إليَّ في تعجب ثم قال: لِمَ كل هذا العذاب؟ حدث وانتهى الأمر، وكنت تكذبين كما عرفتُ وتوقعتُ، لا زوج لك ولا ابن، أنت جاريتي من اليوم.

هويت إلى الأرض ولم أبكِ، وقلت في صوت متقطع وأنا أشهق بين الحروف وجسدي يرتعد من السطو عليه بلا توقف : سأدعو عليك في كل صلاة، ما فعلتَه ظلم فادح.

ثم أكملت بصوت خافت لنفسي: أنت أحقر من كل العثمانيين مجتمعين، أنت..تنتصر على امرأة حُرَّة لتجعلها أمة كُرْهًا وغَصْبًا، تنقذها لغرض في نفسك..كرهي لك ليس بعده كره، سأذبحك بيدي يومًا، وسأشق بطنك وأنت حي، وآكل كَبِدَك كما فعلت هند، ولكنني سآكلها أمامك وأنت حي، لن أنتظر حتى تموت.

قال بعد برهة: بِمَ تتمتمين؟ تعالي هنا..لا تنامي على الأرض الباردة.

ثم قال في حسم: إنْ أطعتِ أوامري فلن تعملي في البيت، بل ستصبحين في مرتبة مختلفة عن كل الجواري، وسأشتري لك الحرير وأهتم بأمرك إلى حين.

قلت في مرارة: ابحث عن غانية يا رجل.

- ولِمَ أبحث عن غانية ولي جارية؟

- لو قطعتَ جسدي قطعًا متساويات، فسأقاومك كل يوم وكل دقيقة، حتى نهاية عمري.

كنت قد أقسمت حينها ألَّا أرجوه أبدًا، وإن الكره لابد أن يهدِّئ الرعد بداخلي، في الكره أمان لا يعرفه سوى المظلوم.

قال في لا مبالاة: سنرى.

* * *

في صباح تلك الليلة المشئومة نظر إليَّ أخي شمس في شفقة وقال: هند، مما كنت تخافين أمس؟

قلت وجسدي ينبض كرهًا: لم أخف أمس.

قال في خفوت: ظننت أنني سمعتك تصرخين.

ثم فتح كفه ونظر إليها وأشار بسبابته وقال: صرخة واحدة، ربما.

قلت: كنت نائمة وحلمت بكابوس فظيع.

قال في فضول: وما هو الكابوس؟ ومتى نعود إلى بيتنا؟

قلت في أسى: قريبًا. لا أتذكر الكابوس.

قال في حماس: لابد أنك حلمت بالجنود وأعلامهم الحمراء، كانوا يريدون خطفنا، أكرههم وأخافهم يا هند.

لم أجب.. بقيت مكاني والبغض ينبثق من أطرافي.

بدأت عدلات توبخني، وتطلب مني العمل، ويومها صرخت في وجهها: كُفِّي عن الكلام، لا أريد أن أسمع صوتك.

ثم أتذكر أنني سكبت الماءَ من الدلو في وجهها، وقد تمنيت أن تقتلني وينتهي الأمر. نظرت إليَّ ست الدار في فزع، وأمسكت عدلات بشعري وشدَّته وصرخت فيَّ وصفعت وجهي، فقاومتها وصرخت بأعلى صوتي، وكان عبد الله في البيت، وما إن جاء إلى المطبخ حتى توقفت عدلات عن الأذى وتجمدت مكانها، ويدها لم تزل تمسك بشعري وأنا منحنية لا أستطيع القيام. نظر إلى الماء المسكوب ثم إلى شعري وقال

في فزع: ما الذي يحدث؟ اتركي شعرها يا عدلات.

تركتْ شعري وقالت في صوت باكٍ: هذه الشيطانة سكبت الماء وهمَّت بضربي، أخبر حسام الدين ليجلدها.

قال: اتركيها..هي مثل ابنتك..اتقي الله فيها يا امرأة.

قالت في غضب: تقف مع الجارية ضدي؟ سأخبر أخاك.

لم يجب. وبدا لي أنه أضعف مَنْ في البيت وأكثرهم شفقة ولطفًا.

لم أبكِ، ذهبت إلى الحجرة ومعي أخي وقد قررت أن أحارب من جديد.

عندما عاد حسام الدين قلت في تحدٍّ: إيَّاك أن تلمسني مرَّة أخرى، لقد ضربتُ عدلات، وسأصرخ وأخرج من البيت وأستغيث، وإنْ خطفني الجنود فلن أبالي ما داموا سيقتلونك أنتَ.

قال في تعجب وشيء من السخرية: لا تبالين لو خطفك الجنود ما داموا سيقتلونني؟ لو مزَّقتك إربًا الآن وجلدتك ماذا يحدث؟

قلت في مرارة: يكون أفضل مما ستفعله، افعل أيَّ شيء، ولا تلمسني.

قال في يقين: لا خوف في قلبك يا هند، أهذا لأنني قتلت الخوف أمس ولم يعد لديك ما تخافين عليه أو منه، أم لأنك بطبعك تتجرَّئين على من يملكك؟

قلت في إصرار: لا يملكني سوى الله.

شدَّني إليه وقال في صوت ثعباني: بل أنا أملكك، ملكتك أمس، وسأملكك في أي وقت أريد، وليس لك سوى السمع والطاعة يا ابنة الأكرمين.

ثم حمل أخي وأخرجه من الحجرة، وحبس يدي وقال: لا تضطريني إلى أن أؤذيك أو أؤذي أخاك، سألقي به الآن في الحقول.

استمر الحال أيامًا أودُّ نسيانها يا عمتي، كان يعتدي عليَّ وأقاومه بكل قوتي وينتصر دومًا، لم يضربني، وأعتقد أنه لم يفعل لأنه لم يحتج إلى هذا، كان يستطيع السيطرة علي بقوته وتهديده. تحملت أسبوعًا، دون أن أصرخ حتى لا أخيف أخي، ولكنني أيقنت أنني لن أتحمل إلى الأبد، وأن التضحية من أجل أخى لا تستحق قتل النفس والتمثيل بجثتها، فقررت الفرار.

في هذه الأثناء تحاشتني عدلات تمامًا، وبدا أنها لم تشتك لحسام الدين، وكانت ست الدار تطلب مني أشياء تافهة فأتجاهلها أحيانًا وأقوم بها أحيانًا، ولم أكن آكل كثيرًا. كنت أعطي طعامي لأخي وأتمنى الموت.

كنت أعرف أنني إنْ هربت فسيبيع أخي للعثمانيين؛ فهذا الرجل الفلاح كان كالذنب يلتصق بالنفس إلى الأذل. ولو تعرفين كم كرهته وكم تمنيت قتله!

لا بأس. قررت الهرب أو الانتحار، لا أريد الكلام كثيرًا عمَّا شعرت به وعن طعم الهوان الملتصق بجسدي. عندما تغيَّب يومًا وراء يوم قررت الخروج فجرًا والسير مع أخي وسط الحقول إلى أن نجد من هو أطيب وأكرم؛ فلابد لمصر الولادة أن تلد من هو أفضل من حسام الدين الذي يجعل من الحرة أمة ومن الأبية ذليلة، وكنت قد عاهدت نفسي أنني سأجده يومًا بعد حين وأنتقم منه، ولابد من خروج الكبد وأكلها وهو حي حتى يرى ويفهم.

أمسكت بيد أخي ولم أكن أملك لا مالًا ولا زادًا سوى بعض

الخبز والفاكهة اللذين سرقتهما من مطبخ عدلات قبل الخروج، وكان القدر يشدُّ من أزري، ووجدت الباب مفتوحًا وخرجت للحرية بعد ذل السجون، بدت الحقول هادئة والشمس تخرج في ثقة وتعرف طريقها دون خوف أو تردد، هي لحظات التردد التي تؤدي إلى الهزيمة.

كيف لم أخطط جيدًا للهرب من قبل؟ ولِمَ سيطر الخوف حتى وقعت الواقعة؟ تنفست في فرح وجريت مع أخي في اتجاه القاهرة أو هكذا بدا لي. ولم أرَ سوى بعض المزارعين، وكأن العثمانيين اختفوا وكأن البلاد كلها أمان ورتابة، لا حرب حولنا ولا غزاة.

قال شمس بعد برهة: أين تأخذينني يا هند؟ لِمَ نجري هكذا؟!

قلت وأنا ألهث من الجري: نهرب من هذا البيت الممتلئ بالشر.

انغمست قدماي في الطمي الطازج، ودهست الكثير من الأشجار الخضراء البكر ولم أبال. سمعت بعد برهة صرخات من حولي، لم أعرف من أين تأتي، ولكنها أحاطت بنا، فتقهقرت إلى الأرض أختبئ وسط الأشجار وأضم أخي لعله يحميني أو أحميه. كانت صرخات نساء ربما أو أطفال، صرخات بنات بالتأكيد أو أمهات، هي صرخات وبكاء لم أسمع مثله من قبل، وفهمت بعد ثوان أن الجنود العثمانيين يبيعون الفلاحات من كل الأعمار من طفلة في الثانية لأم في الأربعين، وأقسم لك إنني رأيت شابة تباع بخمسة دينارات، رأيت بعيني المصريات المسلمات وهن يُبَعْنَ في بلدهن وأمام أهليهن، والسيف على رقبة أهلهن يكتم الأنفس ويخمد حمية الرجال، كم كرهت الرجال يا عمتي، ولكن سأحدثك عن هذا في وقت آخر.

لو تحركت لباعوني واشتراني آخر بدينار ربما أو أقل. ما أبخس نساءنا اليوم بعد أن عجز جنود المماليك عن الحماية! وكم أحتقر المماليك اليوم! ولو بقيت مكاني لا أعرف هل سيجدونني أم لا. يعتدي عليَّ آخر ويستبيح جسدي آخر، عثماني هذه المرة، جندي أتى غازيًا ثم يخطف أخي ويخصيه أو أكثر لا أعرف. الحروب ما أبشعها، لا خير فيها ولا بناء! كتمت فم أخي، وبقيت مكاني بلا حراك، وأمنيتي الوحيدة العودة إلى بيت حسام الدين. بقيت مكاني ساعات، ربما لا أعرف، حتى انفضت السوق وذهب كلٌّ إلى حاله واختفى الجنود عن الأنظار.

نظرت حولي ثواني ثم أمسكت بأخي وأمرته بالجري بأقصى سرعة والعودة إلى الهزيمة التي نعرفها والظلم الذي نستطيع العيش معه.

كنت ألهث وأدقُّ بيدي الباب في رعب، فتحت عدلات في فزع ثم قالت: انتظري ما سيفعله بك حسام، حاولت الهرب أليس كذلك؟ ما أحقرك! بعد كل ما فعلناه من أجلك، لا امتنان في قلبك ولا شفقة، ليتهم باعوك اليوم وانتهينا من أمرك.

لم أجب، دخلت المطبخ وأمسكت بسكين كبير وأخفيته داخل ملابسي، ثم دخلت حجرتي في انتظار عقاب أو ذل أو هوان، والموت أفضل الحلول وأكثرها كبرياء!

وعندما عاد ليلًا حكت له عدلات كل شيء، ودخل والسوط في يده وضرب به على الأرض، ثم نظر إليَّ وأنا جالسة على السرير في هدوء بلا خوف ولا فزع وأخي يرتجف على الأرض، وأمر أخي بالخروج.

قال وعيناه لا تفارقان عينيَّ: عندما تحاول جارية الهرب، فلا بد من الجلد، لا تتركي لي الاختيار.

لم أجب، وأقسم لك يا عمتي إن الجلد كان أحبَّ إلى قلبي مما يدعوني إليه.

أكمل وهو ينظر إليَّ: ولكنك عدت بنفسك، لماذا؟

لم أجب.

نظر إلى يدي التي تحتضن قلبي والسكين معًا ثم قال: أنت محاربة، تعرفين وقت الاستسلام ووقت المهاجمة، حربك أسهل هنا ولكنك تخسرينها لا محالة مع الجنود العثمانيين. ماذا تخفين؟ سكينا؟

قلت وثباتي لا يهتزُّ ولا يضعف: لو اقتربت مني فسأقتل نفسي.

- ولِمَ لا تحاولين قتلي أنا؟!

- لو قتلتك يأسرني غيرك ويجعلني جارية وأنا خلقت حرة.

هزَّ رأسه وكأنه يفهم ثم قال: لِمَ لا تتقبلين قدرك؟ كلنا نتقبل أقدارنا، وفي هذه الأيام يُقتل الحرُّ أو يُستعبد، ربما بعد حين تعود إليك حريتك.

كانت المرة الأولى التي يتكلم فيها معي وكأنني إنسان. قلت في قوة: كان الجنود العثمانيون يبيعون الفلاحات اليوم، الواحدة بأقل من خمسة دينارات، لِمَ لم تشترِ خمسًا وتتركني لحالي؟ وعدتُ أن أعيد لك ما دفعت، وَأقسمت لك...

قال وهو يجلس بجانبي: وكذبت عليَّ وقلتِ إنك أُمٌّ وزوجة، وتحايلت وشكوتِ إلى أخي وفعلت الكثير الذي يجعلني لا أثق بك مطلقًا، ربما ليس لك عائلة.

قلت في ترجٍّ: سأسامحك على ما حدث، لو أعدتني إلى أبي، وسأكافئكَ وسينتهي كل شيء.

قال في رقة: وسأجلدك اليوم لأنك حاولت الهرب، وأمنعك من الخروج من الحجرة، وآخذ منك السكين وأمنعك من الاقتراب

من أيِّ سكين أو سيف، وستصبحين لي في أيِّ وقت وتطيعين كل أوامري.

قلت في تحدٍّ بلا إرادة: حاول!

قبل أن أحرك السكين لأدسه في قلبي أمسك بي وبالسكين وقال: تتحدينني لأنك تحملين هذا السكين الضعيف؟ أيُّ حمق هذا؟

- سأجد طريقة للموت، سأمتنع عن الطعام وعن الشراب حتى أموت.

دفع بي وخطف السكين من يدي، وخنقني بجسده كما فعل من قبل، فهممت بالصراخ، ولكنه قال: أريد أن أعقد معك اتفاقًا، سيعجبك، استمعي إليَّ.

قلت في هستيرية وقلبي يرتجف: أي شيء، ولكن لا تلمسني.

- ثلاثة أيام.

قلت في إصرار وأنا لا أسمعه: لن تلمسني.

قال وفمه يقترب من فمي: لن ألمسك ثلاثة أيام.

- بل بقية عمري.

- تنامين هنا وتتركينني أُقبِّلك لو أردت، ولكنني لن أجعلك جاريتي ثلاثة أيام.

- أيُّ هراء هذا؟!

- سأجلدك الآن، ولن تستطيعي الفرار مرة أخرى، وستأكلين، وحتى إن امتنعت عن الأكل فلن أتركك تموتين، وستصبحين جاريتي اليوم وغدًا وكل يوم. أما لو تركتك ثلاثة أيام بعد أن أعاهدك أنني لن أعاشرك فربما أَمَلُّكِ وأتركك، من يدري؟ فرصة لا تتركيها.

قلت في صوت متألم: تعذبني وكأنك منهم.

- مِمَّنْ؟

- من العثمانيين.

- ولكنني مصري مثلك.

- قلت لك من قبل سأدعو عليك في كل صلاة، والله يسمع دعائي، ظلمتني وأجبرتني وجعلتني غانية، وأنا حرة عفيفة.

قال في صرامة: بل جاريتي، واشتريتك بالكثير من الدينارات، بكل ما أملك، اشتريتك أنت واشتريت أخاك، تتعاملين معي بتحدٍّ لا تقوى عليه حتى زوجة أخي، وهي بمثابة أمي، صبري بدأ ينفد وضربك سهل.

- سأفعل أيَّ شيء، أيَّ شيء، ولكن عِدْني أنك لن تلمسني من جديد.

- هذا لن يحدث.

- سأنظف البيت كله وحدي وأطبخ وأحمل روث البهائم بيدي...

- ثلاثة أيام فقط، ومن يدري؟ ربما يقتلنا العثمانيون...إنْ كنتِ محاربة محترفة فلا بد أن تستفيدي بفترة الهدنة في تعبئة الجيش.

غطيت رأسي بيدي ثم قلت: أسبوعًا.

نظر إليَّ في ذهول ثم قال: تتفاوضين أيضًا؟ أسبوعًا إذن.

قلت في شيء من الارتياح: لا تلمسني مطلقًا.

- بل لن أعاشرك، ولكن حقي أن أُقبِّلك في أيِّ وقت.

- لِمَ تُقبِّل من تكرهك؟

- وما شأن القبلات بالحب يا هند؟ أيُّ سذاجة لديك؟!

- لا قبلات بيننا.

- ولا اتفاق لو لم أقبِّلك.

- إذا ظننت يا رجل أنك ستجعلني يومًا جارية راضية عن مصيرها، فأنت
لا تعرف الفرق بين الحرة والجارية، فمن ير الشمس ويعرف دِفئها فلن يحيا وسط الظلام، ومن استنشق هواء النيل الطاهر فلن يحيا وسط عفن السجون.

قال بعد برهة: قبلة واحدة.

نظرت إليه في استياء ثم قلت في جفاء وأنا أدفع بجسده:هل تتركني الآن
يا مولاي ؟ حتى أتنفس في سلام؟

* * *

كنت أتمنى أن يستمر هذا الأسبوع للأبد، أو أن ينتصر المماليك ويختفى العثمانيون، وأخرج من هذا البيت المشئوم. وفي اليوم الأول كنت أخطط وأفكر في طرق للهرب، وفكرت أن ست الدار ربما تساعدني. طلبت منها المساعدة ووعدتها بالكثير من المال، ولكنها كانت دومًا شاردة تردد الأغاني وتفكر في الرجال على ما أعتقد. ومنذ اليوم الأول بدا ذلك الأسبوع مختلفًا عن أسبوعي الأول في هذا البيت، خرج الحقد من نفس عدلات على ما أعتقد، وبدأت تطلب مني القيام بأعمال شاقة وحمل المياه الثقيلة، ولأول مرَّة تطلب مني تنظيف روث البهائم في الحظيرة، وعافت نفسي هذا العمل، ولكنها أمسكت بالسوط، وهددتني بأنني إن لم أفعل ما تأمرني فستضربني ثم تخبر حسام الدين وتطلب منه عقابي. وكنت أخاف لو أخبرت حسام الدين بأنني لا أعمل أن ينقض عهده، فتحملت في صبر، ولن تصدقي يا عمتي أنني أنا هند التي ربَّيتها وتعرفينها أصبحت تنظف الحظائر وتغسل وتكنس وتحمل

على ظهرها المياه، وبعد ثلاثة أيام كنت أنام في زاوية الحجرة كأنني ميتة. رُكبتاي تؤلمانني، ويداي مُتورِّمتان ومتشقِّقتان، والدم يخرج من بين أصابعي. كان حسام الدين يأتي ليلًا وينام ولا يتكلم معي.

وبعد مرور الأيام الثلاثة يا عمتي اقترب مني وأنا نائمة نومًا عميقًا وأمسك بيدي، فقمت مفزوعة، وقال في رقة: كم أشفق عليك يا هند!

انكمش جسدي وابتعدت عنه والتوتر يحوم حولي، فقال وهو يشدُّ يدي: اقتربي مني بعض الشيء.

جذبت يدي من يده وقلت: أتمنى أن تفي بوعدك.

شدَّني في قوة حتى التصقت بصدره ونظر إلى عينيَّ ثم قال: لا أحب النقاش كثيرًا، وإلَّا تخليت عن وعدي.

قلت في تحدٍّ ممزوج بخوف: ماذا تريد مني؟

- ألا تشعرين بامتنان؛ لأنني أنقذتك من يد العثمانيين؟

- أنقذتني لتجعلني جاريتك وتعتدي عليَّ.

قال وهو يتجاهل كلماتي: من تكونين؟

قلت في فخر: من أولاد الناس؟

قال في دهشة: من أبناء المماليك؟

- حاولت أن أقول لك من البداية، لو استمعت إليَّ، ما حدث ما حدث. وما جرى هذا الأمر.

- كان سيحدث ما حدث وسيجرى هذا الأمر، ماذا يهمني في نسبك؟ ستصبح كل بنات المماليك سبايا لو دخل العثمانيون القاهرة. من والدك؟ أمير؟

- جَدِّي كان من أمراء السلطان برقوق.

قال في استهزاء: السلطان برقوق! لقد حكم منذ مئة عام أو

أكثر، أنت مصرية مثلي، أولاد الناس لا يمكن حصرهم بعد ثلاثة أو أربعة أجيال، أفيك دم مصري أم كل دمائك تركية؟

قلت بلا تردد: جَدِّي فقط كان أميرًا، تزوج من مصرية، وتزوج ابنُه من مصرية..

قال في يقين: أنت مصرية إذن!

قلت في تأكيد: وهكذا هم المماليك، ليس لهم سوى مصر.

قال في دهشة: تعتقدين أن المماليك مصريون؟

قلت والحديث يستهويني وينسيني أنني في حجرته وتحت سيطرته: أبي يقول إنهم مصريون.

- ووالدك دومًا على صواب؟

- والدي يعرف كل شيء ويكتب ويقرأ.

- ما اسمه؟

ترددت، ثم قلت وأنا أحاول أن أُغيِّر الموضوع: وأنت تعتقد أن المماليك مصريون؟

- سيتضح هذا بعد قليل لو فشلوا في الدفاع عن مصر، فلا وطن لهم ويستحقون الموت.

قلت في حماس: لن يدخل العثمانيون القاهرة، لن يستطيعوا.

- ولِمَ هذا اليقين، والخيانة تنتشر في الهواء؟

- وليس للخائن الانتصار لو تعلم.

- بل لا انتصار إلا للخائن لو كنت تعلمين.

- وماذا ستفعل لو دخل العثمانيون مصر؟

- هم في مصر يا هند.

- مصر هي القاهرة.

بقي صامتًا لا ينطق.

قلت مسرعة: أتعمل بالفلاحة طوال عمرك؟ هل تدربت على السيف؟

قال في حسم: لم أمسك به يومًا، ولا أحب القتال.

- ولكنك تسرق ما ليس لك.

- بل أنقذتُ جوهرة مِنْ أن يدهسها البهائم بلا تمييز، أليست مِنْ حقِّي أنا بعد هذا؟

- ما أنقذت يا مولاي ليس شيئًا، بل بشر يشعر ويتألم.

- كلنا أشياء وقت الحروب، كلنا ذخيرة وسيف وغلال، ألم يعلمك والدك هذا؟

- والدي لا يحب الحروب.

- وكيف تعلمت أنت الحرب؟ تحاربين وتتحدين وتجرُئين على الجدال معي.

قلت ساعتها في رجاء: والله لن أفعل، اعذرني، ما خسرتُه هو كل ما أملك.

قال في لامبالاة: خسرتِه وانتهى الأمر، سواء عدتِ إلى أبيك أو بقيتِ هنا تغيَّرتِ وفهمتِ وعرفتِ، لِمَ لا تتقبلين قدرك ولو إلى حين؟ تظنين أنني سأصبر عليك إلى الأبد؟ بعد الأسبوع إنْ قاومتِ أو جادلتِ أو تجرَّأتِ بقول ما لا يعجبني فسأستعمل السوط على الفور، كنت رحيمًا معك وصبورًا، وأنا بطبعي لستُ صبورًا.

قلت وأنا أحاول إقناعه: ولكنك تخط بخط جميل، لابد أن قلبك ممتلئ بالرحمة.

ابتسم في تهكم ثم قال: هذا صحيح، قلبي ممتلئ بالرحمة.

ثم أمسك بيدي ونظر إلى تشقُّقات جلدي وقال وأنا أحاول أن أنزعها من بين يديه في فزع: ستتعودين على العمل، كلنا

نعمل هنا.

ثم أمسك بذقني ورفعه وقال: هند، لا بد أن تخفضي جفنك عندما تلتقي أعيننا، ولا تبادليني النظرات وكأننا متساويان، لسنا متساويين.

قلت وأنا أطأطئ رأسي: سأحاول.

* * *

شهادة سلار (2)

سأقص عليك أمرًا مهمًّا قد جرى..

في وقت الخطر يتذكر المماليك الهدف ويَسْبِرون غَوْر الحقائق، وينتبهون إلى الأخطار، فأيٌّ خِزْي ينتظرهم إنْ زالت دولتهم كالدول التي من قبلها واختفى أثرهم من على وجه الأرض؟ لن أنكر ولن أكذب يا رفيقي وصديقي، تفشى الظلم وغرست المطامع جذورها في المماليك، وأصبح السطو مستساغًا والبطش واجبًا وفرضًا، وتاه الهدف وسط الملذات، ولكنَّك تعرف وأنا أعرف، هي مصر..لها سحر يُثمِل العقول، تغوي بكنوزها كل تَقيٍّ، وتحث على العِشْق بفتنتها وروحها الطيبة، لا تصرخ ولا تتأوه كثيرًا، فيظن المعتدي أنها لا تُبالي ولا تتحسر. لا بأس، أيقن الأمراء الخطر، وفهموا أن الزمن غير الزمن، وأن التتار والصليبيين زالوا وانهزموا منذ قرن أو أكثر، ولكن أولاد عثمان لهم دهاء أكبر وقوة أكثر ورجال أشد، سهامهم لا تضرب القلوب التي في الحناجر، ولكن تبغي فجور النفس وطمعها، يعرفون كيف يُغْوُون، وكيف يخونون، ومتى يتقدمون ومتى يتأخرون.

الخطر يا أبا البركات يغرق بماء كالمُهْل يشوي الوجوه. قتل السلطان الغوري، واستيقظ الأمراء على كارثة تحاشوها وتناسوها كما تناسى وتجاهل أهل نوح الطوفان، وظنوا أنه أوهام وأضغاث أحلام. ارتسم الفزع على الوجوه وازدادت

القبضة على الجوهرة التي تفتح أبواب المدن المقدسة والتي يبغيها سليم شاه. حتى سليم شاه يعرف حجم المجازفة وقيمة ما سيفوز به، حتى هذا الهمجي الذي ذبح كل رجال عائلته من أخ وابن أخ يفهم معنى المخاطرة. يقولون أزاح والده وقتله. أعرف سحر الحكم وكيف يمشي الملوك في طريقه وحيدين، وكأنَّ هذا الطريق طريق الحساب ورحلة النهاية، وأعرف أن مصر هي الغاية والمراد. حتى هذا الرجل الذي لا يهاب وحشًا ولا سلاحًا، ترهبه مصر..تردد وفكَّر وبعث بالرسائل، وحاول إخضاع المماليك دون حروب، ولم يفلح.

اجتمعنا نحن الثلاثة: أنا سلار وإينال والعادلي مع أمراء المماليك، وقررنا تنصيب طومان باي سلطانًا. فهو رجل عادل لم يعبث الطمع بقلبه، ولكنه لم يوافق.

اتجهنا نحن الثلاثة إلى شيخ يحترمه كل أهل مصر، استغنى وترفع وترك الدنيا وسعى إلى الوصول، كان يقضي السنين بلا حاجة إلى إنسيّ أو حيوان، يأكل القليل ويلبس الثياب الخشنة ويحيا بعيدًا عن الكنوز باحثًا عمَّا يشجي الروح ويغني الجسد، ما يشفي غُلَّةَ الطمع والشوق، ويتعدَّى بجموحه الأجساد والرغبات. تعرفه، لا بد أنك تعرفه يا أبا البركات، قصدنا العارف بالله أبا السعود الجارحي، قابلناه وبدأت أنا في الشرح له، كنت أجلس أمامه مُبجِّلًا يائسًا فزعًا متأهِّبًا للمقامرة بكل شيء في سبيل الانتصار.

قلت في إحباط: كيف للمماليك أن ينهزموا وتزول دولتهم؟! كانوا عِزَّ الإسلام وحماته، هزموا الغزاة وانتصروا في وقت زالت فيه كل الدول، كانوا يبغون العلم عندما تفشَّى الجهل، ويبنون بينما الآخرون يهدمون ويحرقون، بذلوا الغالي من أجل بلاد المسلمين، لا دولة مثلهم، ولا علم مثل علمهم، ولا مساجد وعمارة كعمارتهم، لا خانقاه ولا سبيل ولا مدرسة إلا وهم من

بنوها، يا شيخ..

قال في هدوء وهو لا ينظر إليَّ: لكل أجل كتاب.

- لم يأت أجلنا بعد.

- يا أمير..

- بل نادني سلار.

- يا بني، في الاجتهاد فوز دومًا. انظر حولك، واجعل بصيرتك تطغى على عينيك؛ لترى، وتأمَّلْ وتيقَّنْ. ماذا ترى؟

قلت بعد برهة: في كل الأقطار بعض الانحراف والفتن، وبعضهم لم ينسَ الهدف ولم يضل الطريق.

- الظلم يَهزِم ويمحو.

- ولكن الله يعرف الخبيث من الطيب يا شيخ.

أطال نظره إليَّ ثم قال: جئتَ بقلب سليم تبغى النجاة والعدل، اطلب يا بني.

- طومان باي أفضل من يقود ويحكم مصر الآن، صادق وشجاع.

- هو كذلك.

- ولكنه يرفض..يخشى من فتنة الحكم وفساد الأمراء.

- بصيرته قوية.

- في وقت الأخطار تظهر المعادن، ولا بد من المجازفة. في الاستسلام موتنا جميعًا، أتفهمني يا شيخ؟

قال الشيخ في هدوء: أفهم.

قال سلار: عرض علينا سليم شاه الاعتراف به سلطانًا على مصر ودفع الضرائب لبلاده، لو فعلنا لأصبحنا تابعين لدولته ونعتصر قوت الفقراء في مصر من أجله، كيف نعطي الأمان لمن يعتمد على الخيانة؟! لعلك تعرف خيانة خاير وغيره، وَعَدَهم

بالكثير واستغل طمعهم.

قال الشيخ في هدوء: هكذا الدنيا أحيانًا، القسوة تنتصر على الشجاعة، والقتل والذبح يمحوان كل الحضارات.

- لا أمل لنا إذن لو اختفى العدل.

- لا أدري يا بني، أوجود العدل يعطي الأمل لكم أم ينزعه من بين أيديكم؟ يفعل الله ما يشاء، الدفاع عن الدار واجب.

- ليس لنا دار سوى مصر، لو استسلمنا تذوب مصر داخل ديار سليم ويُخَيِّم الظلام عليها، وتموت بلا دفء الشمس، ولا حياة لنا دونها.

- اسْتَفْتِ قلبك يا بني، جئتني وهدفك واضح، ماذا تريد مني؟

- يقسم الأمراء أمامك على كتاب الله بالولاء لطومان باي وبالكفِّ عن التقاتل والصراعات.

بقي الشيخ ساكنًا، فأكمل سلار: يقسمون ألَّا يحارب بعضهم بعضًا وألَّا يخونوا، لو فعلوا لوافق طومان باي على حكم مصر.

- يا سلار في قلبك شجاعة الفارس وحماس المقاتل وورع الباحث عن الخلاص، لك ما تريد.

أقسم الأمراء على المصحف أمام الشيخ، ووافق السلطان طومان باي على حكم مصر، وكنت أعرف حجم ابتلائه وصدق قلبه، فقد كنت من سلاحه الخاص.

بعد قَسَم السلطان اجتمعنا نحن الثلاثة واتفقنا معًا على خطة المعركة وما بعد المعركة، وما سيحدث لو انهزمنا أو انتصرنا، ثم قلت في حسم: هو رأس خاير بك ما أبغي.

فقال إينال : أبو زوجتك؟

- تعرف أنها لم تعد كذلك.

- تريد رأسه لحاجة في نفسك يا سلار، حذار من المغامرة!

قال سلار في حسم: بل أود قتل كل خائن، هو رأس خاير ورأس من يقوده.

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر، ثم قال قانصوه العادلى في وجل: سليم!

- لو مات نحد من إراقة الدماء.

كان هناك قَسَم آخر بيننا نحن، أقسمنا نحن الثلاثة على قتل سليم.

ارتاحت نفسي ونمت بعد أشهر من العذاب المستمر

* * *

شهادة هند (3)

حوادث الدهر يا عمتي تأتي مباغتة وتَرُجُّ الكونَ رَجًّا، في الأيام الثلاثة الأولى من اتفاقنا أنا وحسام الدين لم يمسسني، وفي اليوم الرابع كنت في حال أفضل، ولكن جسدي أُنهِْكَ من العمل الشاق والاستيقاظ مع الفجر كل يوم، وغِلْظة عدلات معي جعلتها أكثرمن كرهت في ذلك البيت، بعد حسام الدين بالطبع. في اليوم الرابع أيقظتني عدلات كعادتها، وتركت أخي وخرجت من الحجرة وأنا أدعك عينيَّ، وكان حسام دومًا يخرج قبل الفجر مباشرة ولا يعود إلَّا متأخرًا.

في هذا الفجر أمرتني أن أنظف الحظيرة، وهممت بالذهاب، ولكن حسام الدين استوقفني عند الباب وقال لعدلات في صرامة: اتركي هند اليوم، أحتاج إلى مساعدتها.

نظرت إليه عدلات في امتعاض، ثم أمسك بيدي واتجه بي إلى صحن الدار، وجلسنا معًا في ضوء الشمس، وجلس بجانبي يا عمتي، فابتعدت عنه بعض الشيء ولم يحاول أن يقترب، أخرج بعض الأوراق ودواته، وقال: أريد أن أعلِّمك كيف تخطين بخط جميل..ربما أحتاج مساعدتك.

نظرت إليه في ريبة، ولا أعرف كيف أصف كرهي له يا عمتي، تعرفين كانت هناك آلام الجسد التي تشفى مع الزمن، وكان هناك آلام النفس التي تبقى وقهر الروح الذي يدوم. يا عمتي لا أعرف ماذا أقول..في كل مرَّة يعاشرني رغمًا عني يقتل

نفسي أو يكاد، ثم أظن أن المرة القادمة أفضل لأن النفس ماتت فتبعث لتموت مرَّة ومرَّات. سامحيني، ربما أبالغ، وربما تقولين في نفسك إن مصيري مصير الكثيرات، وإن هذا ليس بأبشع مصير، ولكنني كنت هند، مختلفة عن كل البنات، ربما، وعزَّة نفسي وكبريائي أهمُّ ما فيَّ.

نظر إليَّ برهة وكأنه يعرف ما يدور بخلدي، ثم بدأ يكتب في بطء وقال: انظري..

نظرت إلى أصابعه التي تخط في تركيز، وحاولت أن أنسى ولو لثوانٍ ما فعله بي حتى لا أغضبه؛ فلو غضب ربما ينقض العهد، من يدري؟

قال وهو يعطيني الدواة: هيا اكتبي أنت..

لم أكن اهتم بالخطِّ، ولكنني كنت أريد أن أفعل أيَّ شيء في هذه اللحظات ليتركني لحالي، كتبت بخط رديء بعض الكلمات.

قال في لوم: أيُّ خط هذا؟!

ثم أمسك بأصابعي ليمرِّرها على الورقة..فحاولت أن أبعد يدي، وبدا عليه الغضب..فتركته يمسك بيدي، وقطبت حاجبيَّ وحاولت التركيز فيما أفعل..

قال بعد برهة: لا أمل فيك يا هند..ماذا تتقنين؟! التحدي والكلام فقط؟!

قلت مسرعة وأنا أخفض جفنيَّ: أنا آسفة..سأحاول ..

قال، وهو يأخذ الورقة مني: لا تحاولي..تكلمي فقط وأنا أعمل..احكي لي عن القاهرة وعن بيتك..لديك خدم وجَوارٍ؟

قلت في حماس وأنا أفتقد أبي: نعم لدينا جَوارٍ وخدم و...هل زرتَ القاهرة يا مولاي؟

قال في رضا: مولاي..هذا أفضل كثيرًا. بدأت تفهمينني يا هند.

قلت: أنت تكسب مالك من الفلاحة أم من الكتابة؟

- من الاثنين.

قلت في حماس: لو ذهبتَ إلى القاهرة تكسب أكثر بكثير، يمكن أن تعمل مع أبي وتخط له كتبه بخطك الجميل.

قال في تهكم: وأبوك سيتقبلني ويعمل معي وأنا سيِّد ابنته؟

- بالطبع ستعتقني، وسيدفع لك الكثير.

قال في نفس تهكمه:بالطبع. قولي الحقيقة الآن..لِمَ لم تتزوجي طوال هذا العمر..كم عمرك؟ ثمانية عشر؟

قلت في خجل: تسعة عشر.

- كيف لم تتزوجي؟

- كنت أفضِّل العلم والمعرفة، وماتت أمي ولم يحن الوقت.

- تفضلين العلم، لِمَ لا تتعلمين فن العشق؟ هذا أيضًا علم.

قلت في خوف: مولاي وعدتني.

ضحك ربما لأول مرة ثم قال: لم أتوقع أن الجارية الوحيدة التي أشتريها تكون قد وهبت نفسها للعلم، أيُّ حظ هذا؟!

قلت في حماس: لهذا طلبت منك أن تشتري غيري.

- وقلت لك لا أملك المال..

نظر حوله ثم قال: تعالي معي إلى حجرتنا..

تثاقلت قدماي، وهمست في توسل رغمًا عني مع أنني أقسمت ألَّا أرجوه: أتوسل إليك..وعدتني..

قال وهو يجرني جرًّا: لن أفعل شيئًا، ماذا بك؟ سأقبلك كما اتفقنا قبلة واحدة ثم تخرجين.

ارتجفت، وأجلسني على مخدعه، فجلست وأغمضت عينيَّ وكأنني أنتظر ضربات المدرس لأنني لم أفهم ولم أتذكر، ثم قلت وأنا أحتضن نفسي: هيا، افعل ما شئت.

قال : أنت غاضبة مني، لماذا؟

يا ليتني كنتُ أملك سكينًا حينها لأغرزه في قلبه وأشرح له لماذا. قلت في مرارة: تُكْرِهني على ما لا طاقة لي به، حتى الحيوانات يرحمونها ولا يرغمونها، لا أدري لو عَدَدْتَني حمارَك ربما لن تقسو هكذا.

قال وهو يمرُّ بأصابعه على يدي: تشعرين؟

- أشعر.

- وتتألمين؟

قلت في أسى: لا تعرف مقدار ألمي ولا خسارتي.

- ولكن أحيانًا يبدو لي أنك لا تشعرين، من تشعر بالأسى تشعر بالشوق، وأنتِ لا قلب لك، هل لديك قلب يا هند؟

انتزعت يدي من يده وقلت: لديَّ قلب يأبى أن أُعامل كالجماد يا مولاي.

قال وهو ينظر إلى عينيَّ: لا تبكين أبدًا، وحتى الرجاء لا تتقنينه. لا بكيت على هوانك ولا على ما ضاع منك، هل تتألمين بلا بكاء؟ لم أعرف أن مِنَ النساء مَنْ تتألم بلا بكاء، لا قلب لك.

لم أجب.

مر بأصابعه على وجهي، ثم اقترب من فمي، وهمس وكأنه لا يفهم كلماتي: لو توقفتِ عن المقاومة ماذا سيحدث؟ أنت مِلْكٌ لي، قاومتِ أم لم تقاومي.

قلت في حنق: لو توقفتُ عن المقاومة واستسلمت كالجواري فلا بد من موتي، أفضِّل الموت على الاستسلام.

حكَّ ذقنه بخدي، فضممت جسدي وضغطت على عيني وكأنه يجلدني جلدًا لا قِبَل لي به، ثم قبل خدي في رقة

وتناثرت قبلاته على عنقي، ولفحت أنفاسه صدري، فقلت في صرامة وأنا أحمي صدري وأضع يدي على قلبي: وعدتني.

همس وهو يمر بأصابعه على شعري: في الاستسلام لي متعة لا تتصورينها، لِمَ تعذبين نفسك؟ اتركي العِنان لجسدك يطلب ويشعر..هند..تحتاجين إلى من يرعاك ويحنو عليك، في أيام كهذه الحنان نادر وباهظ الثمن؛ فلا بد من انتزاعه، وأنت تشقين من بعد عز، وتعملين ما لا طاقة لك به، لو تركتِني أرعاك فستنتهي كل معاناتك، وتذكري، معاناتك لم تبدأ بعد، وربما تكون أكبر بكثير لو دخل العثمانيون، وستبحثين عمَّن يرفق بك ولن تجدي أحدًا. أنت ذكية، لا بد أن تعرفي وقت التحدي وموعد الخضوع.

قلت مسرعة وجسدي ينتفض بعيدًا عنه وينكمش متأهبًا لهجوم جديد : قبلتني وانتهى الأمر.

قال وهو يقبل عيني وأذني وخدِّي: لم ينتهِ بعد.

فتحت فمي لأعارضه، فقبلني قبلة غريبة يا عمتي، في البدء كانت رقيقة وبطيئة، ثم توغلت داخل الروح، فقيدتها وأحكمت السيطرة، لم أقاومه حتى أفي بوعدي، ولكن عندما بدأت أشعر بدوار، وتختلط عليَّ الحقائق ويفقد الجسد تأهبه للمعركة، ويشعر القلب لا أعرف بِكُرْه له أم سخط على نفسي، خفت وغضبت من نفسي والشر بداخلي، دفعت به بكل ما أملك من قوة، وقلت: وعدتني.

قال وهو يضمني: أفي بوعدي.

قلت وأنا أدفع به مرَّة أخرى وأمسح قبلته من على فمي في حماس : تتركني الآن؟

فقال وهو ينهض: سأتركك، لِمَ الفزع؟ هذا الفزع مني أم من نفسك؟

لم أجب. أطبقت شفتيّ حتى لا أصيح في وجهه، فخرج وتركني وأنا في ضيق وغضب لا قِبَل لأحد به. زفرتُ في غيظ ومسحت قبلته مرة أخرى ودعوت عليه. هي لحظات يسيطر فيها الشيطان، تعرفين قصدي يا عمتي؟ كلماته كانت كالوسواس في صدري: «في أيام كهذه الحنان نادر وباهظ الثمن، فلا بد من انتزاعه».

يومها لم يعد إلى الحجرة ونام في البهو، ولأول مرة أتنفس الصعداء وأنام في فراشه مع أخي في سلام. قبل الفجر كانت عدلات توقظني كعادتها، واختفى هو من البيت.

بدأت عدلات تزيد وطأة عذابها لي، فأمسكت بيدها عصا لتضربني لو تكاسلت أو ارتحت وسط العمل المتواصل، وبدا لي أن عدلات هذه تكون عنيفة معي وجافة أكثر بكثير عندما يرحل حسام الدين وتعرف أن غيابه سيطول عن ليلة أو ليلتين. وطلبت مني في ذلك اليوم أن أنظف حظيرة البهائم في أسفل البيت، ورفضت في تحدٍّ، وأخبرتها أنني سأخبر حسام الدين، ولكنها أصرت، وبدت متوترة وحزينة، ولم أكن أعرف الكثير عن حياتها. أعطتني المكانس والمياه، ودفعت بي إلى روث البهائم. ولو تذكرت يا عمتي أنني كنت أتمنى أن أنظِّف روث البهائم كل يوم عن أن يلمسنى هذا الرجل ويجعلني محظيته أو جاريته، وبدا لي أن أمنيتي تحققت، وأصبحت على ما يبدو أنظِّف روث البهائم كل يوم، وكان عملًا تعافه نفسي، وكنت أغلق أنفي وأنا أقوم به. مرَّ الأسبوع بسلام، وكان قد رحل قبل انتهاء الأسبوع وقبل أن يمسسني. وبعد عدَّة أيام حدثت حادثة مؤلمة، أريد أن أقصها عليك لتتبدَّى لك بقية الحكاية. بدأت يومها فعلًا أنظف فضلات الجواميس والأبقار.

وضعت يدي على أنفي والرائحة تخنقني ويكاد يغشى عليَّ من القرف، أزحت الفضلات بخرقة كبيرة والغثيان يسيطر عليَّ،

ثم سمعت صوتًا غريبًا في الحجرة المجاورة.

كانت آهات وليست صرخات، ضحكات وليست استغاثات، رجاء ممتزجًا بشوق وليس بخوف، وهمسات من صوت مرتجف وعقل عابث ونفس سكيرة عربيدة. وكنت أعرف صوت ست الدار ابنة عدلات، اتجهت إلى الحجرة في هدوء وسرقت عيناي نظرة إلى ما بداخلها ورأيت حُلْما أو كابوسًا لا أدري، ولكنني أقسم يا عمتي أنني رأيتها، سامحني يا رب على ما سأقول، رأيت ست الدار مستلقية على القش وشبه عارية أو عارية، وفوقها رجل لا أعرفه، وكانا يتبادلان العشق على ما يبدو، ولكنها لم تكن تصرخ مثلي وتستغيث وتكره. اتجهت عيناها إلى عينيَّ في ثوان، فركضت في اتجاه الباب بأقصى سرعة وإذا يدٌ تمسك بشعري وتتجه بي إلى الداخل.

سمعت صوت ست الدار، وهي تقول: ماذا سنفعل الآن؟

قال الرجل في قوة وهو يمسك بشعري: نقتلها هنا وندفنها، هي جارية، أليس كذلك؟

همست باسمه ربما لا أعرف، ولم أكن أرى وجهه جيدًا، كانت ملامحه غليظة وعيناه مفعمتين بالشر، وكرهته قبل أن أراه، وقلت في قوة: اترك شعري، سأشكو إلى حسام الدين، والله سأفعل.

نظر إلى ست الدار في عبوس ثم قال: هي جارية هذا الرجل؟

قالت ست الدار في أسى: لا تلمسها، لن نقوى على إغضاب عمِّي.

أمسك برقبتي وضغط على حنجرتي وخنقني بكل قوته، فسكتت أنفاسي، ورأيت الكون يختفي من حولي، وظننت أنني مت وبعثت إلى جهنم مباشرة.

ثم رفع يده وهوى بها على وجهي بقوة، فوقعت على الأرض، ركلني بكل قوته، ركل ظهري وبطني مرات كثيرة، ثم أمسك بظهري ودفس وجهي وسط الروث، وقال: لا يهمني من تكونين، سأقطع لسانك وأفقأ عينيك، وستأكلين الروث في فمك الآن أمامي حتى لا ينطق فمك.

دفع بي حتى غصت بداخل القاذورات، وكدت أموت من الرائحة والطعم اللزج في فمي.

قالت ست الدار: اتركها، لو ماتت يقتلني عمِّي.

ضمَّ كفَّه ولكمني في ظهري في قوة وقال: أريد أن أقتلها ونستريح، أضاعت علينا لحظة الحب يا حبيبتي، شيطان هي.

قالت وهي تمسك بيده: لن تنطق، نتركها ترحل.

ثم أمسكت ست الدار بيدي ونظرت إليَّ وأنا مدفونة وسط القاذورات ولا يبدو من وجهي شيء وقالت: لن تتكلمي يا هند، أليس كذلك؟

لم أكن أستطيع النطق من دون ابتلاع الروث، هززت رأسي في حماس فأمسك الرجل الغليظ ببعض الروث، ودفع به داخل فمي وقال في قوة: ابتلعيه أمامي وإلَّا قتلتك هنا.

لم يطاوعني فمي في ابتلاع الروث، فضرب كتفي بقوة وقال: ابتلعيه.

وبلعته يا عمتي، هل تصدقين هذا؟

فدفع بي خارج الحظيرة . وما إن هممت أن أخرج حتى أمسك بي من جديد وقال: أفقأ عينيك وأقطع لسانك.

هززت رأسي من جديد وجريت بأقصى سرعة.

وما إن رأتني عدلات حتى صرخت في غضب وطلبت مني أن أغتسل. فعلت والدم ممتزج بالوسخ وأنفي ينزف ورأسي ينزف ووجهي متورم وأزرق، وظهري يحرقني وكأنني داخل كومة نار،

ادعيت أن قدمي زلّتا وتزحلقت ووقعت في الحظيرة. واتجهت إلى الحجرة وناديت أخي وأغلقت الباب. وتمنيت ألَّا يأتي حسام الدين حتى لا يرى مهانتي وما آل إليه حالي بسببه وبخطيئته وذنبه. لم يترك طعم الروث فمي أيامًا، ولم أستطع أن آكل ولا أتحرك. كان أخي شمس يسألني متى نعود إلى بيتنا ولِمَ نزور هؤلاء الفلاحين، ومن يكونون، ولم أستطع الإجابة. تعرفين يا عمتي عندما يتضاعف الذل حتى يمنع العقل من الإدارك منعًا تامًّا، فتشعرين بأنك داخل كابوس يبدأ كل يوم بداية جديدة ولا مفرَّ منه؟ هكذا كنت أشعر، وكنت أفضل أن أغمض عينيَّ ولا أنطق، وانتابني شعور مؤكد بأنني لو نطقت فسيخرج الروث من فمي، الكثير منه، بل أعتقد أنني حلمت بأن الروث اللزج يخرج من فمي كالمياه المنبثقة من شلال عنيف لا يتوقف ولا يرحم، وكنت أحاول أن أصرخ في حلمي ولا أستطيع. كلما دخلت عليَّ عدلات وجدتني أتظاهر بالنوم، وذات يوم هزَّتني وقالت: لن تنامي للأبد، لا بد أن تعودي للعمل.

فقلت في رجاء: جسدي يؤلمني من وقوعي في الحظيرة، أتمنى أن ترحميني بعض الوقت.

بدت مترددة، ثم قالت: عندما يأتي حسام الدين سأشكو له، لا أمل فيك.

ثم خرجت وتركتني لأتفرغ للكابوس وما فقد وما ضاع وما بقي، كان شمس يلعب حولي معظم اليوم.

وحمدًا لله، لم يأتِ حسام الدين لعدة أيام حتى زال أثر الضرب الظاهر وبقيت آلام الظهر، وعندما طلبت مني عدلات مرَّة أخرى أن أنظف الحظيرة قلت: لا. وأنا أتوقع أن تضربني وتجلدني، ولم تفعل. تركتني وهي تشتم وتسب، واستمرت في عملها.

استحممت مرات ومرات وعلامات الركلات والتورم في ظهري واضحة، والآلام لا تتوقف.

* * *

شهادة سلار (3)

الأشرف أبو النصر طومان باي كان سلطانًا في جلاله وعظمته وورعه وكبريائه، كان من المماليك، ولم يأتِ رجلًا بالغًا وقاتلًا مُستأجَرًا كالأجلاب، بل تدرب بوصفه مملوكًا مثلي ومثل إينال والعادلي، كان أستاذي وأدينُ له بكل عمري. وفي تلك المرة أقسمت أن أكتب اسم كل خائن وكل جبان وكل متردد ومنافق، فهذا عصر الشجاعة والمجازفة، ولا مكان بين المماليك للخائن. طلبت مقابلة أستاذي السلطان ومعي قائمة بأسماء الخونة. قرأ القائمة في تأمل ثم ردد: الأمير جاد بردي الغزالي..كيف تأكدت؟

شرحت له كيف تأكدت، وكان يعرف أن مهمتي في الشهر الماضي كانت التجسس على المماليك، وخاصة حلفاء خاير بك وأعوانه، كان هدفي موت خاير بك ولم يزل هدفي موته.

قال السلطان في عبوس: أثق بك، ولكنني لا أستطيع البوح بهذا لجيشي ولا مواجهة الأمير بما قلت.

فتحت فمي لأنطق، فقاطعني وقال: بعض المماليك يحارب من أجل الغنيمة، وكثيرون منهم يحاربون مثلك لأنهم يعرفون الواجب والهدف وبعضهم الآخر يعرف الهدف ويريد الغنيمة، والأهم أنه يريد العيش..لو أخبرتُهم أن أحد أهمِّ أمراء المماليك حليف لسليم شاه، وأن آخر قد تحالف معه من قبل، فسأقضي على معنوياتهم وأصنع الكثيرمن الخونة. سلار، هذه القائمة

لي وحدي لا تنطق بأسمائها لأحد.

لم أقتنع بكلام السلطان، فهمت خطته ولم أقتنع بها، وكنت أفضل ذبح الأمير الغزالي أمام المماليك والتنكيل بجثته، وكنت أفضل القوة المفرطة والبطش في وقت كهذا، ولكنني صَمَتُّ وأنا أعرف حجم الابتلاء وعدد الجيش.

قال السلطان: سنعلن النفير العام، هذه ليست حرب المماليك يا سلار، بل هي حرب مصر، وعلى المصريين الدفاع عن ديارهم.

- المماليك هم مصر.

ابتسم السلطان، ولن أنسى مادمت أحيا ابتسامته الساخرة، ثم قال وهو يربت على كتفي: هكذا يعتقد المماليك، وهذه هي هفوتهم، المماليك جزء ضئيل من مصر، لا بد للعامة من محاربة أولاد عثمان، لابد لكل المصريين من أن ينضموا لجنود الحلقة. إذا كان الخطر على الأبواب فواجب المماليك شرح موقفهم والتنازل عن تعاليهم ولو لأيام. جنود سليم مئة وخمسون ألفًا، ومصر لن تكون الشام، لا بد أن يفنوا قبل دخول القاهرة حتى لو خرجت النساء لمحاربتهم.

هذا هو ما قاله لي السلطان يا أبا البركات، ثم خرج بنفسه يحفر الخندق في الريدانية، ورأيته يحفر بيديه، فظهر الحرج على الأمراء، وسلطانهم يحفر بيديه خندقًا حول القاهرة، وبدءوا في الحفر معه، وكان يتمنى أن يقابل جيش سليم في الشرقية وهو منهك وجائع، ولكن أمراء المماليك لم يوافقوا. لا بأس، هذا حدث آخر نتكلم عنه لاحقًا. هل تصدق يا أبا البركات أن الكثيرين من أهل مصر تطوعوا في جيش المماليك لحظة الخطر حتى وصل الجيش إلى تسعين ألفًا، نصفهم من المماليك والنصف الآخر من العامة. هي لحظات قليلة التي

ترى فيها هذا الانسجام بين المماليك والعامة، فلا المماليك يتعالون، ولا العامة يتذمرون ويسخرون ويشتكون. لحظات قليلة في التاريخ أصبحت مصر كتلة واحدة، حتى الأقباط واليهود هرعوا إلى مقاتلة الغازي، والنساء والصبيان وكل أهل مصر، وسوف أخبرك بالضبط بما رأيت لاحقًا؛ فهذا حدث جلل ولحظات فخر وعزة.

سأحكي لك عن ثلاثة فرسان أصبحوا أمراء، جاءوا من نفس الخشداشية، إينال كان أكثرنا ورعًا واجتهادًا، وتزوج من خوند تتر، وكانت ابنة أمير من المماليك، ومنذ تزوجها قبل عشرة أعوام وهي كل حياته، لا جارية تشغله عنها ولا حروب، أنجبت له ثلاثة أبناء، وأحكمت سيطرتها عليه، حتى كنا نسخر منه في مجالسنا، فلم أر رجلًا يحبس عينيه في هذه المساحة الضيقة، والأفق واسع ورحب. لم نفهم لِمَ ولا كيف. المحارب يسيطر على القلب والهوى، ولكن كيف يسيطر حتى على بصره فيأمره ألَّا يرى وألَّا يجمح ويحلم. لم نر زوجته، وكان يخبئها عن كل العالم، ويقال إنها بارعة الجمال، حتى الجواري يَهَبْنَ جمالها، وعندما كان يأتي معنا في جلسات الغناء والطرب كان يجلس مضطربًا خائفًا يفكر في العواقب، وكنا نهزأ منه طوال الليل ونعدد له محاسن الجواري واختلاف الألوان والأجناس، وكنا نحاول إقناعه بأن الحب مغامرة، والمحارب لا يغامر مرَّة وإلا أصبح ناسكًا وعابدًا، بل يغامر آلاف المرات، وأنَّ الممارسة والمجازفة مطلوبتان في الحروب والعشق، ولم يكن يسمع ولا يفهم، كنا نختلف عنه، وكان يملك براءة وشجاعة تفوق كل من رأيت من الأمراء. أما قانصوه العادلي فكان يغرق بين الزوجات والجواري، لديه ثلاث زوجات والكثيرات من الجواري، يشتري واحدة كل شهر أو شهرين ويبيعها، لا كان يفهم إينال ولا يعرف كيف يصل إلى السعادة والرضا. أما أنا يا أبا

البركات فتعرفني، وأفضل أن أؤجل الكلام عن نفسي بعض الوقت أو كل الوقت. سأحكي لك عن إينال؛ فهو الأخ الذي لم تلده أمي، والرفيق طوال الطريق الطويل في قلعة الجبل، ذات يوم اشترى العادلي جارية معروف عنها جمالها الساحر وصوتها العذب ورقصها الذي يشعل الأجساد، وقرر أن يهديها إلى إينال؛ ولكن إينال رفض حتى دون أن يراها. هل تصدق هذا يا أبا البركات؟ قال إن زوجته لا تسمح له باقتناء الجواري، وأنها ستغضب غضبًا لا قبل له به. تكلم عن زوجته وما تريد وما تسمح به وكأنه خصي أو غلام، هكذا كانت خوند تتر تسيطر وتتحكم، كنا أنا والعادلي نكرهها حتى دون أن نراها. وما إن رأيت الجارية حتى قلت للعادلي: إنني أنا أريدها وسأشتريها منه، فاقتناء هذا الجمال واجب، والحفاظ عليه ينم عن الأخلاق والأصل. وزوجتي حينها، سعادات ابنة خاير بك، لم تعترض ولم تتكلم، وكانت تعرف حدودها وواجباتها، ولا تقارن نفسها بالجواري؛ فالجواري كالآنية والقارورة لا مقارنة بينها وبين الزوجة. من يقارن نفسه بآنية؟ ولكن خوند تتر كانت لها دومًا آراء وأفكار مختلفة، أريدك أن تعرف هذا، حتى تفهم ما جرى وما سيجري.

* * *

شهادة هند (4)

يا عمتي هذا حدث مُحيِّر

عندما عاد حسام الدين، دخل الحجرة وبدا مهمومًا محزونًا؛ مما أعطاني أملًا في أنه لن يلمسني اليوم. جلست على الأرض ولم أتحرك ولم ينظر إليَّ. قال وهو يخلع ملابسه وأنا أدير عينيَّ: عدلات قالت إنك وقعت وجرحت في الحظيرة وإنك لا تصلحين للعمل الشاق.

قلت في تأثر: حدث.

نظر إليَّ فجأة ثم أزاح يدي من على وجهي، ولم يرَ أيَّ أثر لضرب أو جروح. تفحص وجهي ثم قال: أين الكدمات؟

- تلاشت بعد عدة أيام.

قال في لا مبالاة: وفي جسدك؟

قلت مسرعة: لا يوجد أيُّ كدمات.

التقت أعيننا برهة، ثم قام وخرج من الغرفة، وكان على ما يبدو يتأهَّب للقاء مع أقاربه. طلبت مني عدلات أن أضع الفواكه والمخبوزات أمام الضيوف وأن أرتدي خماري طوال الوقت.

اتجهت إلى السلم بالمأكولات، واسترقت السمع إلى ما يقوله بعض الحاضرين، كانوا خمسة رجال مع حسام الدين وعبد الله، وكان منهم رجل يسب العثمانيين وسلطانهم، وآخر يدعو المصريين إلى الهجوم على الغزاة، وشيخ يقول إن قتل

المسلم للمسلم حرام، وإن المماليك كانوا دومًا يحاربون الكفار وليس المسلمين، حتى ولو كان المسلم غازيًا ومهاجمًا؟ ردَّ رجل في حماس: لو كان المسلم غازيًا لوَجَبَ قتله، لا بد من محو العثمانيين من على وجه الأرض ومحاربتهم حتى آخر قطرة من دم المماليك والعامة.

أكمل الرجل نفسه في حماس: إن دخول أولاد عثمان خراب على مصر، وأنه ينوي أن يمسك بالسيف ويقابلهم في الريدانية ويموت، أو يقتل كلَّ جندي منهم قبل أن يعبثوا بالقاهرة.

استمع حسام الدين إليه في صمت، والتقت عينا ذلك الرجل بعينيَّ، وعرفته وعرفني، كان الرجل الغليظ! كان يرتدي جلبابًا وكانت عيناه ممتلئتين بالعنف أو العشق ربما، وحماسه يهزُّ الحجرة. طأطأتُ رأسي، وكدت ألقي بكل الطعام على الأرض. أشار لي حسام الدين فاتجهت إليه، فهمس وكأنه رأى النظرات الكارهة بيني وبين الرجل: ماذا أتى بكِ إلى هنا؟ هل أمرتكِ أن تأتي؟

همستُ: عدلات أمرتني أن أقدم الطعام.

قال في صرامة: لا تأتِ هنا مرة أخرى، هيا اذهبي إلى حجرتك.

جريت بكل قوتي وأنفاسي تتلاحق، وقد عزمت أمري أن أخبره بالحقيقة. بدا لي أن حسام الدين شرير شرًّا أتعايش معه أو اعتدته، لا أعرف، ولكن ذلك الرجل يعج بشر يخيفني أكثر بكثير. ولو لم يحمني حسام الدين، لو عرف الرجل الغليظ وفقأ عينيَّ وقطع لساني؟ لِمَ الثقة في هذا المغتصب الذي لم يكن كريمًا معي ولمَ يصونني؟ كنت أشعر بالرعب من الرجل الغليظ ومستعدة للاستغاثة بالأحجار لأنقذ نفسي منه، خفت

أن يتتبعني الآن ويشك في أني أخبرت حسام الدين، خفت أن يأتي إليَّ في التو ويقطع لساني أو يعذبني، كنت وحيدة لحظتها، ليس لي أب ولا أخ يحميني، وكنت عاجزة ذليلة. طلبت من أخي أن يذهب إلى الحجرة وينام.

جلست أستمع إلى حديثهم ويدي على خدي في توتر، ولم أبالِ بلوم عدلات ولا بأوامرها.

رأيت ست الدار تتجه بعينيها إلى النافذة لترى حبيبها والشوق يقفز من عينيها. عندما رأتني نظرت إليَّ في خجل، ثم قالت: سنتزوج يا هند، سيطلبني من أبي اليوم أو غدًا.

لم أجب.

استمر المجلس ساعات ربما، وعندما انتصف الليل دخلت عدلات لتنام، وأمرت ابنتها بالدخول إلى حجرتها، فذهبت ست الدار في تذمر، وبقيت أنا أنظر من أعلى على المجلس، بدأ الحضور في الانصراف، وعندما همَّ الرجل الغليظ أن ينصرف طلب منه حسام الدين أن ينتظر، وعند انصراف كل الحضور نظر حسام الدين إلى أخيه عبد الله فاستأذن عبد الله ودخل إلى حجرته.

كنت أخاف من بقاء الرجل الغليظ، وخشيت أن يكون صديقًا لحسام الدين، مع أنني كنت متأكدة من أنه يكرهه، لم أكن أفهم ما يحدث حولي. التصقت عينا حسام الدين بعيني الرجل الغليظ ثم قال حسام الدين: أتكره العثمانيين؟

قال الرجل الغليظ في إصرار: أفعلُ أيَّ شيء حتى لا يدخلوا القاهرة.

- أيَّ شيء؟

- أنت تعرف وأنا أعرف.

ردَّد حسام الدين: أنت تعرف وأنا أعرف.

ثم أخرج سيفًا من غمده فجأة، ووضعه على رقبة الرجل الغليظ، وقال: من بعث بك؟

قال الرجل في فزع: ماذا تفعل؟ هل جننت؟

- من بعث بك؟

- لم يبعث بي أحد، لِمَ تفعل هذا؟

رأيت الرجل الغليظ يخرج سيفه في سرعة البرق من ردائه ويصوبه على بطن حسام الدين، وحدث صراع ضارٍ على ما أعتقد، لا أتذكر تحديدًا. كنت فَزِعة وخائفة، وتمنيت في لحظة أن يقتل حسام الدين الرجل الغليظ، خفت أن يموت حسام الدين وينكل بي هذا الرجل. ضغطت على أسناني حتى لا أصرخ وعيناي تدوران حول السيوف، وسوست لي نفسي بأنهما لو ماتا معًا أنجو أنا أو أهلك لم أتأكد، امتزج الظلم بالتشبث بالعيش، لو مات حسام الدين لا أعرف ما سيحدث لي، وبعد برهة رأيت الرجل الغليظ مذبوحا، أقسم لك يا عمتي، ذبحه حسام الدين وكأنه عجل صغير لم يبلغ الحلم، كاد يفصل رأسه فصلًا تامًّا عن جسده، ثم سحب جثته وخرج بها من البيت. ما زلت أتذكر عينيه وهما تحملقان في الهواء، ولسانه المقوس وهو يحاول النطق، وكأنه قال حرف اللام، بل استقر حرف اللام على وجهه الميت إلى الأبد.

كان جسدي يرتجف وكأنني أنا ذُبحت للتو، ليس لأنني أخاف الموت، فقد بدأت أعتاده، ولكن لأن الذبح كان بحرفية وسرعة ومن رجل كان يدَّعي أنه لم يقتل قط.

تكوَّمت في حجرتي وأخي معي حتى دخل عليَّ حسام الدين بعد برهة وقد اغتسل وصلَّى، وجلس في هدوء على فراشه، ثم قال: اطلبي من أخيك أن يرحل.

لم أناقشه، طلبت من أخي أن يترك الحجرة، وبقيت مكاني،

فقال وهو يتمدَّد على فراشه: تعالي هنا.

لم أتحرك، شدَّني إليه رغمًا عني، فدفعت به وكُلِّي أمل أن يقتلني في هذه اللحظة. أقسم لك يا عمتي إن الموت لم يعد يخيفني، وإنني تمنيت أن يريحني من عذاب ومهانة يجعلان للعيش طعم الروث الذي لم يترك فمي.

دفعت به بكل قوتي، وقلت: قلت لك لن أكون جاريتك.

قال وهو يلوي ذراعي وراء ظهري :وقلت لك إنك مِلْك لي، وإنني اشتريتك بكل ما أملك.

حاولت أن أهرب من قبضته، دفعت به وقاومته بكل حماس مَنْ تدافع عن شرفها وكيانها، ولكنه ضغط على ذراعي حتى تأوهت من الألم، وقال: كُفِّي عن المقاومة، ليس لدي صبر لهذا اليوم.

قلت في صوت متقطع والألم يدفع الدموع إلى عينيَّ، ولكنني لم أبك: سأقاوم طوال العمر.

- أيُّ امرأة أنت؟! تريدينني كما أريدك، أتعتقدين أنني لا أعرف؟

- هو ضلالك وضميرك الذي مات يصوِّر لك هذا، تعتدي عليَّ وتظلمني، لن يغفر الله لك.

فعل ما فعل وأنا أقاومه يا عمتي، والنفس تنوح على قهرها في صمت ولم يبال. ابتعدت عنه واحتضنت نفسي.

سمعته يأمرني: هند، تعالى هنا.

شدَّني إليه فانتفضت من مكاني وقلت وأنا أَلُفُّ نفسي بملاءة وألقي بجسدي على الأرض: اتركني لحالي.

ولكنه لم يتركني اليوم، حملني رغمًا عني إلى فراشه، وحاولت أن أبتعد، ولكنه قال في حسم: تنامين هنا، وتحكين لي كل شيء، لا تقاوميني، إيَّاك..قلت لك ليس لديَّ صبر

اليوم. لو بقيت هنا لن أعاشرك ولو قاومت ستصبحين لي مرة أخرى، الآن. اختاري أنت.

طأطأت رأسي، وأخذت أفرك أصابعي في عصبية، وأدرت وجهي عنه، ووجه الرجل المذبوح لا يترك مخيلتي، وإذا بيده على ظهري في نفس المكان الذي ركلني فيه الرجل الغليظ، تمرُّ على مكان القسوة في قوة واحتواء، تأوهت من ألم لم يلتئم، ثم انتفضت وقلت وأنا أنظر إلى الظلام من حولي: ابتعد عني!

قال في رقة: أنت محاربة، لو كان المماليك مثلك ما أمكن للعثمانيين دخول القاهرة أبدًا. لا تستسلمين ولا تتَّبعين هوى النفس ولا خوفها وطمعها. ما أجملك! لست جارية يا هند ولا يمكن أن تكوني.

قلت في مرارة وكلماته فاجأتني وهدأت نفسي: ولكنك تجعلني جاريتك أو غانيتك، لا أدري!

قال وهو لم يزل يدور حول ظهري بيده: إلى حين.

- ماذا تعني بإلى حين؟ أستتركني لحالي؟

صمت برهة ثم قال وهو يمسك بكتفي ويديرني إليه: أتعرفين ذلك الرجل؟ ما هذه الآثار على ظهرك؟ رأيت نظرتك إليه ونظرته إليك.

قلت في فزع: رأيتُ ما حدث، كنت تقول إنك لم تقتل قط، رأيتك تذبحه، ذبحته ثم اغتسلت وكأنك ذبحت دجاجة.

- هي أول مرة، لا بد من قتله. ماذا فعل بك؟ كيف تعرفينه؟ كان يأتي إلى هنا في غيابي؟

ليس بعد الهوان خلاص، والذل ينخر النفس كالدود في بطون الجثث. ضممت جسدي وبقيت صامتة. ضمني إليه ولم أقاوم، قال في حنو: لا استسلام لو ضممتك إليَّ، اتركيني أضمك

إليَّ، لن أفعل أكثر من هذا، تحتاجين إلى ذراعي، أعرف.

قلت وأنا أضع رأسي على كتفه وحرارة جسده تهدئ النفس: كيف تعرف؟

- ماذا فعل بك؟ كان يعرف أنك ملكي؟ يكرهني، هو ذنبي أنا، كان لا بد أن أعرف أنه سيأتي، تركتك وفكرت في أشياء أخرى وخذلت عن حمايتك، لا بد أنه ضربك وحاول إذلالك، أعرف.

قلت وأنا أدفن رأسي في صدره في صوت مكتوم: كيف تعرف؟

- احكي لي.

تذكرت كلمات الرجل وخفت، خفت من كل من حولي، ولم أكن أثق في أي شخص، حتى الأخ الكبير عبد الله لا حول له ولا قوة أمام جبروت حسام الدين. استجمعت شجاعتي وقلت: رأيته مع ست الدار في الحظيرة، أعتقد أنه خدعها، هي صغيرة و...أتمنى ألَّا تؤذيها، لم يحدث شيء، كانت تتكلم معه فقط.

قال وهو يقبِّل شعري ويمرُّ بيده على رأسي: ماذا رأيتِ؟

- لا شيء، كانت تتكلم معه وعندما رآني...

قال في حسم وهو يمرُّ بيده الآن على ذراعي وشعري وظهري في حنان ممتزج بالصرامة: ماذا فعل بك؟

كلما تذكرت طعم الروث في فمي وطعم الذل شهقت وكدت أنوح. سمع شهقاتي الخافتة على ما يبدو وبقي صامتًا ويده تضمد كل الجراح.

ثم ضمَّني أكثر حتى شعرت بالدماء تنبثق من عروقه. كنت خائفة ومكسورة ومنهكة، وذراعاه هدأتا من روعي، لم أدرِ بنفسي وأنا أحيط كتفه وقلت: أرجوك، أعدني إلى أبي.

قال في إصرار: ماذا فعل؟

قلت في سخط من الدنيا: نعم، ضربني، ركلني في ظهري وبطني ولكمني في وجهي، وأجبرني على ابتلاع الروث في فمي.

بقيِ صامتًا ويده لم تزل تمرُّ على جسدي وتضغط على كدمات ظهري فتبعث فيها الهدوء، ثم قبَّل وجنتي وقال: مات وانتهى الأمر.

قلت وكأنني أبوح بهواجس النفس لأبي: لو عرفت ست الدار لنفَّذت تهديده، قال: إنه سيفقع عينيَّ ويقطع لساني، ربما تفعل هي هذا!

قال في حسم: لن تنفذ تهديده، مات يا هند ولن يجرؤ أحد على إيذائك.

قلت: لا أستحق هذا.

- كلنا لا نستحق هذا.

- أعني كل هذا الذل، كنت مدلَّلة وسيدة، لِمَ فعلتَ بي هذا؟

- نامي يا هند، الغد أفضل بالتأكيد.

شعرت بثمالة الإرهاق ممتزجة بذل غريب، وكأن الأيام كلها لفظت أنفاسها الأخيرة في روحي.

أغمضت عيني وقلت مرة أخرى: لو عرفت ست الدار لانتقمت مني.

قال في حسم: لن يستطيع أحد أن يلمسك، قلت لك هذا، انشغلت عنك بعض الوقت، ولن يحدث هذا مرة أخرى أبدًا، أعدك.

قلت في صدق: لا أثق بك، ولا أثق بأحد في هذا الزمن، ولا أعرف ما جرى وما سيجري.

قبَّل أذني وهمس فيها: اليوم انسي ما جرى وما سيجري.

لم أجب ولم أدرِ بنفسي بعد ذلك، نمت كثيرًا وطوال الليل وأنا بين ذراعيه. أحكي لك الحقيقة يا عمتي وأتمنى أن تفهمي أن الانهزام يعمي البصيرة، والانكسار يفتح أبواب الفتنة. كانت يده تخفف آلام ظهري وتضغط على الكدمات طوال الليل، بل عندما توقف وراح في نوم عميق وأرخى يديه، وجدت نفسي أمسك بيده وأضعها على ظهري وأنا نائمة فأستمر في تخفيف الآلام أو مضاعفتها لا أدري.

ما أذهلني لحظتها يا عمتي هي صراحتي معه، وكنت أعرف أني كنت سأخجل أن أحكي قصة أكلي للروث لأمي أو أبي. ربما ما حدث منه نزع الكبرياء من جلدي، فلم يعد هناك ما أريد الاحتفاظ به داخل نفسي؛ لأنه مُخْزٍ أو مذل، تحدث أشياء غريبة يا عمتي في هذا الزمان.

استيقظت بعد بزوغ الفجر، وخفت من خسوف شمس كرامتي وبزوغ قمر الوهن، ولكنني لم أستسلم له قط. أقسم إنني قاومته في كل مرة كان يفرض فيها سيطرته عليَّ ويملكني كالجارية، كنت أقاومه، نمت بين ذراعيه فقط ولم أستسلم له.

كان نائمًا وذراعه تحيط كتفي ورأسي على صدره، تذكرت كلماته، وعدني أن يرعاني، وعدني أن يحميني،..وعدني..

وتدلت الحقيقة من رأسي كالسهام من يد قاتل محترف، ضغطت على صدره بيدي وقلت: كنتَ تعرف أن عدلات ترهقني في العمل؟ هل طلبتَ منها أن تجعلني أنظف الحظيرة؟ طلبتَ منها أن تضغط عليَّ بكل طاقتها لألين كالعجين، حسام..

قال وهو مغمض العينين: أنتِ لا تنادينني بمولاي أبدًا..متى تتعلمين أن تناديني بمولاي..؟

قلت: ولكنك لست مولاي..

انتفضتُ من مكاني وضربتُ جبهتي بكفِّ يدي وقلت: يا إلهي..لماذا؟ ما الذي تكسبه من ذلي وهزيمتي؟! هي تطيع كلَّ أوامرك.. لو أخبرتَها ألَّا ترهقني في العمل لأطاعتك، ولكنك طلبتَ منها أن تعطيني العمل الشاق.. من البداية منذ أول يوم.. لماذا؟ ألستُ إنسانة مثلك؟ ألستُ من بلادك؟ لِمَ تفعل هذا؟ بل أعرف.. يا رب كيف يمكن أن تكون بهذا الـ..

كنت أنوي أن أغرقه بالشتائم، أريد أن أقول: إنه خسيس شرير لئيم طاغٍ وظالم..

فتح عينيه وقال: تتكلمين كثيرًا..لا أحب هذا!

- أفهم..كنتَ تريد أن ترهقني لأستسلم لك، لأنكسر وأرضخ، كنتَ تريد أن تخيِّرني بين تنظيف الحظيرة والنوم بين ذراعيك. قلتَ هذا من قبل.. ولِمَ تستعمل كل الحيل مع بنت مثلي لا حول لها ولا قوة؟ لماذا؟!

اعتدل في جلسته ونظر إليَّ ولم يتكلم.

قلت في أسى: أعرف..هي كبرياؤك قد جَرَحَتْها هذه البنت المجهولة، فكيف لها ألَّا ترضى بأن تكون جاريتك؟ أيُّ امرأة ترفض أن تذوب بين ذراعيك؟ لابد من عقاب، ولو عاقبتني أنت ربما أكرهك، ولكن لو عاقبتني عدلات فلا بأس..لِمَ تجلدني لو كان غيرك سيقوم بهذا؟ ولِمَ توبخني على ثورتي واعتراضي لو كان هذا عمل عدلات؟ أي..

همست في صوت لا يسمعه غيري: أيُّ شيطان..

ثم ضربت على جبهتي وردَّدت: وأنا ظننتك أشفقتَ عليَّ..ظننتك أشفقتَ عليَّ، هل تتصور؟

هممت بالقيام، فشدَّ يدي وقال في صرامة: هند..أنت أذكى مما تصورت، ولكن لا تنسي من تكونين ومن أكون.

قلت شيئًا بصوت ضعيف، فقال في صرامة: ماذا قلت؟

- لا شيء.

قال مرة أخرى: ماذا قلت؟

- كلنا عباد الله يا مولاي، ولكن بعضنا أفضل من بعض عند رب العباد، أتأمرني بشيء؟

قام في ضيق وقال: لا، حاولي أن تتوقفي عن التفكير وعن التأمل، التأمل بالذات يضرُّ بك!

قلت في تردُّد وعذاب، لا أعرف لماذا: لم تكن تعرف أنني سأجد هذا الرجل في الحظيرة..لم تكن تعرف أنه سيضربني هكذا، أليس كذلك؟ أم اتفقتَ معه؟

التقت أعيننا، وبدا الغضب في مقلتيه، فقلت في خفوت: اعذرني، تختلط عليَّ الأمور..

كنتُ أعرف أنه لم يعرف، وتعمدتُ أن أظلمه؛ ليذوق طعم الذل مرة، ربما.

انحنى وشدَّ معصمي حتى شعرت بأنفاسه على شفتي وقال: ولِمَ يعنيك أمري؟ لِمَ تهتمين بخيري وشري؟ ألستُ رجلًا يجبرك على معاشرته ويجبرك على البقاء هنا؟ لِمَ كل هذا التفكير في نواياي وأهدافي؟ اشرحي لي..

قلت وقلبي يخفق ولا أدري أكنتُ غاضبة منه فقط أم كنتُ أكرهه : تعديتُ حدودي يا مولاي..سامحني.

- لن أسامحك، تعترفين بأنني مولاك؟ أستمتنعين عليَّ وتقاومين أم تأتين طوعًا؟

قلت في حسم: لو متُّ اليوم ما أتيتُ إليك طوعًا، لو ذبحتني وقطَّعت جسدي قطعًا متساويات ما أتيتُ إليك طوعًا. ولو أطعمتني روث البهائم كما فعل الرجل لكان هذا أفضل بالنسبة لي.

التقت أعيننا، وظننت أنه ينوي أن يضربني لحظتها وربما فكَّر

في ذلك، ولكنه قال في تحدٍّ: في تأكيدك هذا لفحات الشك، وفي نفورك الكثير من الإقبال، هذا أيضًا لن أسامحك عليه.

ثم قام من مكانه ورحل.

بقيت على السرير متعبة ربما، متحيِّرة ممَّا جرى، هذا جائز، حدث الكثير أمس، واليوم سيحدث يا عمتي أكثر. بعد برهة دخلت عليَّ عدلات مبتسمة. هل تصدقين يا عمتي، ابتسمت لي وفي يدها صينيه طعام وكوب لبن وضعتهما أمامي وقالت في حماس: لم أكن أعرف أنك مريضة، لا تقومي اليوم..جئت لك بالطعام، وسأجهز الإفطار لشمس حبيبي، ما أجمله هذا الطفل! يذكرني بأولادي..

فتحت فمي في ذهول، فقالت وهي تقرِّب اللبن من فمي: هيا اشربي..لا وقت اليوم..اشربي وارتاحي يا ابنتي..سأرعاك بنفسي.

أغمضت عينيَّ ثم فتحتهما، لعل الحلم ينتهي، ولكنه لم يكن حلمًا. تأكدت أنه هو من يأمرها، وهو من يوجهها طوال الأيام الماضية. بقيت طوال هذا اليوم في مخدعه، ونظرت إلى حيث ينام وقد اختلطت عليَّ الأمور، ما حدث أمس وما يحدث الآن.. هي الحرب، والحرب خديعة وخطط وعتاد، وقد حاول معي بالقسوة، وحاول معي باللين..ما أقبح شرَّ هذا الرجل!

صمَّمت عدلات أن أبقى في سريرى طوال اليوم، وأن تأتي هي لي بالطعام والمياه بنفسها.

في المساء عاد وقال في رتابة: تريدين النوم بين ذراعي؟

قلت في صرامة: لن يحدث.

قال في رفق وهو يشدُّ يدي: لن أرغمك على شيء، تحتاجين إلى من يضمد كل الجراح في ظهرك وبطنك.

ترددت قليلًا..ثم قلت في قوة: أفضِّل ألَّا تفعل.

فقال وهو يجلسني على فراشه: تخافين من نفسك؟ وعدتك، فلا خوف مني..لابد أنك لا تثقين بنفسك.

ثم أجلسني بجانبه وقال: ما رأيك أن نتكلم فقط ثم تنامي بين ذراعي؟ أعرف أنك متعبة..

قلت: لِمَ قتلت ذلك الرجل؟

قال وهو يتمدَّد على فراشه: ولِمَ يهمك معرفة هذا؟ ألا يكفي ما فعله بك؟

- لا، لا يكفي لقتل إنسان؟

- كانت بيننا مشاكل منذ زمن.

قلت وقشعريرة تسري في جسدي كلما تذكرت ما فعله بي ذلك الرجل الغليظ: بدا لي أنه يكرهك، يكرهك جدًّا..ترى ماذا فعلتَ به؟ غرَّرت بأخته، ربما؟

ابتسم وقال وهو يدفع بي إلى صدره: ضعي رأسك هنا.

دفع برأسي إلى صدره وحبس ظهري بيديه، وبدأ يضغط على الكدمات، وكنت متعبة يا عمتي والكدمات تؤلمني، فتركته يُهدِّئ آلام الجسد، ودفنت رأسي في صدره.

قال وهو يضغط على كدمات بطني وظهري: تؤلمك؟

تأوهت ساعتها وقلت في خزي: نعم.

تمتم بالشتائم وسبَّ الرجل الغليظ، واستمر في تخفيف حدَّة آلامي.

تكلمنا يومها يا عمتي.. وانتابتني راحة مختلطة بالحذر. لم يحاول أن يقبلني ولا أن يعاشرني، ولعب الشيطان بي لحظات ووسوس لي قائلًا: ولو استسلمت له؟ ولو عاملني كالأميرات..ربما يتزوجني بعد برهة وربما..طردت طيف الشيطان الرجيم، واحتقرت نفسي؛ لأني تركته يدقُّ على باب

روحي..هذا الرجل الغليظ وضربه لي غيَّر كل شيء. كسرني على ما يبدو..أو كاد. لم أنم ليلتها. ولم ينم هو.

تظاهر كل منا بالنوم. وتظاهر هو بالنوم لا أعرف لماذا، وتظاهرت أنا بالنوم حتى أقي نفسي شرَّها. ندمت على تلبية ندائه وعلى النوم بين ذراعيه.. فكيف ألقي بنفسي في صدر الغواية ثم أطلب النجاة، هو الحنان ما أبغي واليد الشافية ما أريد، حسام الدين يتقن الظلم والحنان، وعندما يمتزج الاثنان في صدر رجل واحد وعصر واحد ودار واحدة وبلدة واحدة يصاب العقل بالجنون، وتصبح المقاومة كزبد البحر، واللمسات الحانية كتمائم السَّحَرة تسيطر على الإرادة وتسلب العقل. ولكنني كتمت فجور النفس كما يُحبَس الجِنّيُّ في مصباح قديم.

وكان لابد لساعات الليل أن تنقضي، وكانت بطيئة ومعذِّبة. بعد الفجر شعرت به يتسلل إلى الخارج.

في الصباح حدث شيء غريب يا عمتي، استنشقت رائحة حريق، بل سمعت صوت النار الرتيب الهادئ في أذنيَّ، ولم أسمع أيَّ صرخات، وعندما خرجت من حجرتي رأيت عدلات بوجه عابس وست الدار جالسة لا تتحرك، لا توبخني ولا تلومني ولا تلقي عليَّ السلام. قلت في فزع: أين حسام الدين؟

فقالت عدلات وهي تضع الكثير من الأشياء في قفة كبيرة: يحرق الغلال مع الرجال.

فتحت باب البيت وأمسكت بأخي، ورأيت الرجال يحملون كل الغلال إلى مخازن كبيرة، ثم يشعلون بها النار، وكان حسام الدين يعمل معهم وعبد الله والكثيرون من الفلاحين، بل وبعض المماليك بزيهم الواضح يتابعون العمل من على بعد.

فهمت بعد حين أن العثمانيين في طريقهم إلى القاهرة، وأن

حرق الغلال يُجوِّع فرسانهم وأحصنتهم معًا، وأن الفلاحين يفضلون حرق محاصيلهم على تركها للغازي.

بعد عدَّة ساعات دخل حسام الدين ووضع مع أخيه القفف فوق الجمال، كانت هناك قفف ممتلئة بالأطعمة والدقيق والبلح. لم أحاول المساعدة، أمسكت بأخي ثم نظرت إلى حسام الدين، فحملني ووضعني على الجمل بلا كلمة، ثم حمل أخي ووضعه أمامي. قلت: أين نذهب؟

- إلى القاهرة.

- لماذا؟

لم يجب.

* * *

وكأن العمر يأبى أن ينجلي، والنفس تأبى أن تسكن وترضى، ماذا أقول

يا عمتي، ظلمني وعذَّبني وترعرع الكُرْهُ بداخلي، وشيء آخر لا أدري ما هو، كانت خطواته تشغلني، وجوده حولي أو بعيدًا يملأ كل فراغ النفس، خوف يملأ القلب، والغضب منه يزاحم الخوف وبعض..بعض اللهفة التي أخجل من ذكرها الآن. ولا أفهمها. بعد أن نمت بين ذراعيه، بعد أن قبَّلني ربما، بعد أن غاب وترك الرجل الغليظ يذلني، بعد أن نما الشك في قلبي تجاهه..بعد كل هذا..اختلطت مشاعري وتشابكت..

وبعد الوصول إلى القاهرة دخلنا بيتًا صغيرًا، وأشار لي بدخول الحجرة ففعلت وأنا أفكر في طريقة للهرب إلى بيت أبي، الهرب الآن ممكن وأسهل كثيرًا فلا عثمانيين حولنا. وتساءلتُ حينها لِمَ جاء بي إلى هنا وهو يعرف أنني سأهرب؟ هل أرادني أن أهرب؟

دخل الحجرة بعد برهة وفي يده بعض الأوراق ثم قال فجأة:

هل أنتِ حامل؟

فاجأني سؤاله، وذكرني بانهزامي وخسارتي، قلت في شيء من الخجل: لا أعتقد هذا.

التقت أعيننا، ثم جلس على السرير، وأشار لي بالجلوس فجلست أمامه.

قال وهو يعطيني الورقة: أبقيها معك، لا تقرئيها الآن، هي شهادة عِتْقك، وشهادة على أن أيَّ ولد في أحشائك هو مني.

بلعت ريقي في أسى ثم قلت: أعتقتني؟

- ليس بعد، أبقِها معك إلى حين يأتي الأجل.

- أيُّ أجل؟

- أيُّ أجل، إلى حين أموت، أختفي، أنهزم، أنتصر، أنسى أمرك..أيُّ أجل..

- تنسى أمري؟

- لِمَ لا تسمعين سوى هذه الكلمات؟

أمسكت بالورقة ثم قلت: شكرًا لك.

قال في جفاء: كنتُ كريمًا معك؟

فقلت في تصميم: لم تكن كريمًا معي..تعرف هذا.

- أخذتُ ما أستحقه وما كسبته، هكذا يفعل الجنود.

نظرتُ إلى عينيه وقلت بلا تفكير: وهل أنت جندي؟

ابتسم لأول مرة ربما ثم قال: وهل أنتِ جارية؟

- لا.

- كلنا نعيش بأسماء غير أسمائنا ونفوس غير نفوسنا، كلنا نتظاهر وندَّعي ونصدق ادعاءاتنا، كلنا نعيش أشخاصًا لا نعرفهم.. هند..أريد أن أنام بعض الوقت، فلا وقت للنوم بعد اليوم.

بدا متعبًا، كان الطريق طويلًا، ولم ينم يومًا أو أكثر..لم أنطق. رأيته يستلقي بجانبي ويدفن رأسه في الوسادة ويغوص في نوم عميق. بدا جميلًا وهو نائم في تلك اللحظة، كنت أكرهه، تتذكرين، ولكنني أمعنت النظر إلى عينيه المغلقتين وأنفه وشفتيه، ووجدت يدي تتجه إلى لحيته، تمرُّ عليها في لمسات طائرة، ثم أزحت الغطاء عن كتفه قليلًا، ونظرت إليه لأول مرَّة ربما أو لآخر مرَّة لا أدري، أزحت الغطاء أكثر حتى استقر عند بطنه، وتبدَّى لي كل صدره وظهره، مررت بيدي على كتفه، ولا أعرف ما أصابني يا عمتي، شيطان أصابني ربما، ولكنني مررت على آثار جروح وطعنات كثيرة..بعضها طازج لم يمر عليه أشهُر، وبعضها قديم منذ أعوام ربما..ادَّعى أنه لم يمسك سيفًا قط وكذب..

ادَّعى أنه كان كريمًا معي وكذب..

ادَّعى أنه حسام الدين وكذب..

لم تفارقني عينا الرجل الغليظ وهو يحتضر ولسانه المقوس وكأنه ينطق حرفًا واحدًا..لام، لا أكثر ولا أقل..

أمسكت بالورقة وفتحتها ولم يكذب، كانت شهادة عتقي وكانت موقعة منه، باسمه الحقيقي على ما يبدو..«سلار»!!

لم أفكر لحظتها إلا في كذبه وخداعه و..فراقه القريب..

نظرت إلى رأسه التي دفنها في الوسادة وظهره الذي لم أره من قبل في غمرة مقاومتي وهزيمتي.

وضعت يدي على ظهره واقتربت منه، أصدقك القول يا عمتي..لم أدرِ بنفسي وأنا أقبِّل ظهره قبلة خاطفة، ثم تجرأت وقبَّلت ظهره قبلة بطيئة وطويلة، ومررت بشفتي على بعض آثار الطعنات، ثم توقفت والفزع يكاد يصيبني بالجنون، وكان فَزَعًا من نفسي، تمكَّن مني الشيطان على ما يبدو..كان

الحنان إليه يغمر كل الكره..والشعور بالفراق القريب يقلق ويحيِّر.

سمعته يهمس وهو لا يتحرك: ابْقَيْ معي، لِمَ توقَّفتِ؟

خفق قلبي وتجمدت مكاني، أدار وجهه إليَّ واعتدل في جلسته، وقال وهو يمسك بيدي: لم يتبقَّ الكثير، اليوم أو غدًا سأوصلك لأبيك..هند..أريدك أن تأتي إليَّ طوعًا، تشتاقين إليَّ، أليس كذلك؟

انتفض قلبي شوقًا ويأسًا، في لحظات، ثم قلت في صوت واهن: لن آتي إليك بوصفي جارية أبدًا.

أمسك بيدي ووضعها على صدره، ثم قرَّبها إلى فمه وهمس: ولا يومًا واحدًا.

قلت وأنا أقترب منه بلا إراده وأنفاسي تلفح رقبته: ولا ساعة ولا أقل..

قال وهو يقبل وجنتي: لماذا؟ لو أتيتِ إليَّ طواعية تلتئم كل جراحك وتهدأ روحك، ونمحو معًا ما جرى وما عذَّبك يومًا.

سألتُه السؤال الذي ألحَّ عليَّ ولم أجرؤ على سؤاله: هل لديك زوجة؟

لم يجب، مر بيده على شعري وقال: لو أرغمتك الآن وأنا أعرف أنك تريدينني وتشتاقين إليَّ فماذا تفعلين؟

- أقاومك كما أفعل كلَّ مرَّة. لن آتي إليك طوعًا بوصفي جارية، لستُ جارية، وأنت لستَ حسام الدين.

قال وهو يدفع بي إلى صدره ويطوِّق كتفي: ابقَيْ بين ذراعيَّ قليلًا.

- لا أثق بك، لا أثق بالمماليك، أنت أمير مملوكي، أليس كذلك؟ سلار.. هذا هو اسمك..

ضمَّني حتى شعرت بأضلعه داخل صدري يا عمتي، امتزجت أنفاسنا، ولأكون صادقة معك لم أشعر بهذه المشاعر من قبل، مرارة ونشوة وشوق ولهفة وما بينها..

دفع بي في بطء إلى فراشه، وقبَّل فمي ووجنتي، وأغمضت عينيَّ لعل العالم يتوقف، لعله يقول كلمات أتمناها..لعل ولعل..خطورة الحنان وقت الحروب تحتاج إلى كتاب طويل يا عمتي، يمكنني أن أخطه بنفسي وأحكي عن يأس القلب لحظات، وتوقه إلى لمسات بعينها أحيانًا. انسكب حنانه الذي لم أعرفه من قبل، وكان نادرًا، وكنت أحتاج إليه وأستحقه، وعندما شعرت بيده تجد طريقها إلى صدري أمسكت بها في قوة وحسم، وأزحتها عن جسدي.

تذكرت حينها ست الدار وهي بين ذراعي الرجل الغليظ.. وقاومت شيطان نفسي، ودفعت به وأنا ألهث وكأن أنفاسي لا تعرف طريقها بعيدًا عن أنفاسه، ولا أعرف لماذا تساقطت الدموع من عينيَّ لأول مرة، وقلت: لستُ ست الدار..لستُ غانية ولستُ جارية..ولستُ أقل من زوجتك لو كان لك زوجة..هي الأيام تذل الكريم دومًا..

بقي ساكنًا وكأنه يصارع نفسه، ثم قام وقال: لِمَ تبكين الآن؟ لَمْ تبكي من قبل؟

تعرفين يا عمتي لِمَ كنت أبكي؟ أنت تعرفين..لأنني كنت أشتاق إليه وروحي بين أضلعه وفي دقات قلبه، لن يفهم يا عمتي، تعرفين لِمَ كنت أبكي؟ لأنه افترى عليَّ وظلمني وخطط وقرر وأذلَّ بدني، ثم سحق روحي..لأنني لن أسامحه، ولا أستطيع أن أنتزعه من حنايا الروح. هي أيام خائنة وسنون حمقاء لا تعرف فيها العدو من الصديق.

أمسك بيدي وقال: هند، كل شيء سينتهي قريبًا، العثمانيون

لن يدخلوا القاهرة، سيتقهقرون وينهزمون، وعندما يحدث هذا سيتغير كل شيء.

بلعت ريقي ونظرت لكفي في يده قلت: سيتغير كل شيء، كيف؟

أطرق ثم قال: تعرفين..حاولت كسرك، لن أنكر..كبرياؤك كان غريبًا عليَّ، أزعجني وتحدَّاني، وأخرج عناد الجندي وعنفه، ولكنك لا تنهزمين. مازلتِ تنظرين إلى عينيَّ كلما تكلمنا، ولا تخفضين جفنيك وكأننا متساويان، حتى زوجتي لم تفعل هذا.

لو كان يعرف هزيمتي الآن، لو كان يفهم ويشعر بشوقي لم يكن ليقول هذا.

- أيُّ امرأة أنتِ؟ لا أعرف! كانت لي زوجة واثقة وجميلة وكان لديَّ جوارٍ، الكثيرات منهن.

قلت في مرارة وأنا أمسح دموعي: لا حاجة لك بي؛ لست بجمال زوجتك ولا بدلال جواريك.

التقت أعيننا ثم قال: هذه أقدار عجيبة، كنت أراك غنيمتي، غلالي وذهبي، مِلْكًا لي وتحت سيطرتي، ولكن السحر سيطر على جسدك فانتفض الذهب وثار على صاحبه وتناثرت الغلال ورفض السيف أوامر المحارب، كأنني وجدت روحًا داخل الجماد..وأي روح! أغضبني اعتراضك وأثار كبريائى وأردت الانتقام، لن تفهمي، فأنت لستِ رجلًا ولستِ جنديًّا. لا بأس، أنت هنا في أمان.

خرج من الحجرة يا عمتي، ولأكون صادقة معك تلاعب الشيطان بنفسي، وندمت بعض الشيء، فلو تركته يغوص بداخل جسدي كما غاص بداخل روحي ماذا سيحدث؟

ولو استسلمت وتقبَّلت مصيرًا ليس بمصيري، وسيدًا ليس بسيدي، ودورًا ليس بدوري، وشخصًا ليس بشخصي، ماذا

سيحدث؟ ولِمَ للقلب أن ينهزم هكذا؟

لم يتوقف البكاء ولا اللهفة عليه..تمنيت أن يرحل، أن يتركني، ولأول مرة أخاف من نفسي يا عمتي، لا تُسيئي بي الظن ولكن بدا أنه كسرني، لابد أنه هزمني، لست سوى بنت لا حول لها ولا قوة. عمتي، أصارحك القول تعذبت طوال النهار.

دخلت عليَّ ست الدار الحجرة وهي تمشي على استحياء وقالت: أشكرك
يا هند لأنك لم تفشي سرِّي، وأعتذر إليك عمَّا حدث.

لم أجب، فقالت : هل تعرفين شيئًا عن الرجل الذي كان معي؟ اختفى فجأة، هل حاول تهديدك أو رؤيتك؟ ترى هل خاف من عمِّي؟ لم أره بعد أن جاء يزورنا، أفتقده وأخاف أن يتخلى عني بعد أن حدث ما حدث، هل تساعدينني لأجده؟

قلت: ربما خاف من عمِّك، الذي هو ليس بعمِّك.

فتحت فمها في فزع، فقلت: أعرف كل شيء.

- ماذا تعرفين؟

- أعرف أنه ليس عمَّك، وأنكم كلكم تكذبون، وكأنني أشاهد خيال الظل في بولاق.

عندئذ نادت ست الدار على أمها وجلستا أمامي، قلت في قوة: من تكونون؟ ومن يكون الأمير سلار؟

فتحت عدلات فمها في ذهول ثم قالت: كُفِّي عن الكلام، هذا أمر لا طاقة لنا به.

* * *

عاد في منتصف الليل وتكوَّمت في زاوية الحجرة مع أخي، فوجوده سيحميني من نفسي هذه المرَّة.

ما إن دخل حتى قال في رتابة: اطلبي منه الخروج.

همست لأخي فخرج.

خلع ملابسه ولم أنبس ولم أتحرك. استلقى على فراشه، ارتعش جسدي كله، واحترق حلقي يا عمتي وكأنني مصابة بحمى، لم يطلب مني أن آتي إليه ولم يأمرني أن أعاشره.

أدار وجهه عني، ثم قال: يمكنك أن تنامي هنا..لن أرغمك على شيء.

قلت في مرارة: لا أستطيع.

- تخافين؟

رددت وعيناي لا تتركان ظهره وأنا أتصور يدي تطوِّق ظهره، لو نمت بين ذراعيه فقط..لو ..ولو... أخاف يا مولاي.

- من نفسك وليس مني.

قلت في تأكيد: من نفسي وليس منك.

- ستندمين..وستعرفين..عندما أرحل بعد ساعة يا هند، ربما لا أراك مرة أخرى أبدًا. لو متُّ فأنت في أمان، في القاهرة أنت في أمان..سيوصلك عبد الله إلى والدك لو مت.

كلماته جعلت الجسد يرتعد والروح تستسلم والعقل يبطش بلا رحمة. بقيت ساكنة لا أتكلم ولا أتحرك، كان يعذبني اليوم، يعذبني بطريقة جديدة على ما يبدو.

قلت في مرارة: وماذا حدث يا مولاي؟ لِمَ لا ترغمني كالجواري؟

التفت إليَّ ثم اعتدل في جلسته وقال: لا يمكن. الآن لا يمكن.

لم أفهم لماذا لا يستطيع وما الذي تغيَّر..بل تمنيت أن يعانقني ويدفنني بداخله ثم يقتلني ويمزق جثتي أو يحرقها..فلا حياة لي بعد اليوم..وحمدت الله أنه تركني؛ فعدم

إرغامي اليوم رحمة لا يعرف حدودها، ولكن حروب الأمراء كلها مفاجآت.

قام، أطفأ القنديل، ثم جلس على الأرض أمامي، ومد يده وأمسك بيدي، وقال في صوت حانٍ: هند، تعالي إلى ذراعي، تشتاقين إليَّ وأشتاق إليك. هي ساعة أو أقل ثم أرحل.

خرجت أنفاسي متقطعة، ونزعت يدي من يده، ولم أستطع النطق.

نظر إليَّ، رأيت عينيه تتلألآن في الضوء الخافت، وتساقطت دموعي في صمت، ثم قلت في رجاء: قلت إنك لن ترغمني.

قال في رقة: لم أكن أنوي أن أرغمك.

أمسك بيدي من جديد، وفتح كفِّي ونظر إليها ثم قال: أحيانًا أراك بقوة الجنود، وفي بعض الأحيان يجتاحك ضعف الأيتام وسط الحروب، لا تبكي.

قبلَّ كفِّي قبلة بطيئة اخترقت صدري.

مسحت دموعي بيد مرتجفة، وجذبت كفِّي من بين يديه، وتكوَّمت في زاوية الحجرة وأنا أحتضن قلبي، لعل الأنفاس تذعن لإرادتي، ولعل الطعم اللاذع في جوفي لا يطغي على كل النفس ويفسدها، رقته أخطر من قسوته والحرب خدعة، ولا ولاء للأمراء.

عاد إلى فراشه، ولم أره ولم أعرف هل أغمض عينيه..هل يفكر فيَّ؟ أما زال يريدني؟ لماذا لم يرغمني؟ ولِمَ لا يدفع بي إلى صدره فيدهس العقل ويتفتت..

عضضت على أصابعي في أسى..وقبضت يدي حتى لا أضمَّه في قوة ولا أمرِّرها على ظهره وصدره، ولا أقبِّله قبلة طويلة كالتي أفزعتني من قبل وغاصت داخل الدم وشرايين القلب. يا عمتي..في العشق شجن لم أكن أعرفه، وفي بعده مرارة

تتغلب على مرارة الوباء والحروب والغزاة مجتمعة. كان أمامي لا يفرِّق بيننا سوى خطوات، وكان بعيدًا لا أستطيع أن أصل إليه و لا أنَ أضمَّه. هو من شيَّد الحاجز..هو يا عمتي ولست أنا.

* * *

شهادة سلار (4)

تريد أن تحكي عن مصيبة الورى يا أبا البركات؟ سأقصُّ عليك حكايات الورى ووقائع الدهر وزمن الجبناء والخونة، وزمن الشجاعة والفرسان..أخبرتُ السلطان أن قائده جان بردي الغزالي خائن مثله مثل خاير، ومن يخون يسقط في بحر الشهوة والطمع، وعده سليم بالشام، ووعد خاير بمصر، أيُّ أمير يرفض هذا؟! كنتُ أعرف وكتبتُ له كل شيء. لا خندق ينفع وقت الخيانة ولا جُبَّ يحمي من عدو يطعن من الخلف. استطلعت شهورًا، وقضيت كل وقتي أتابع تحركات أولاد عثمان ومن حولهم من أعراب ومماليك وعامة، لملموا كل ضعيف وكل طامع حولهم كالهاموش يمتص الدماء من الميت والحي، قضيت شهرًا أبحث وأفهم، ولم ينكشف أمري سوى قبيل الموقعة بيومين أو ثلاثة، بعث خاير مَنْ يبحث عني ومن يقتلني ومن يتجسس عليَّ، وعندما جاء وراوض ست الدار عن نفسها عرفت من نظرة عينيه من يكون، اعتدت نظرات الخيانة وفهمتها، كان يتكلم في حماس عن كرهه لأولاد عثمان، والكاذب عندما يتكلم ترتجف مُقلتاه رجفة لا تراها العين المجردة، ولا تراها سوى عين من يعرف الخيانة ولدغتها اللاذعة. رأيت الخيانة في أقل من لحظة ولم أتردد في قتله، كنت أعرف من بعثه، وأعرف لماذا جاء. ولن تصدق يا أبا البركات أن هذا الرجل كان جنديًّا مملوكيًّا يتظاهر بأنه مصري..مثلي

ربما ولكن أهدافه حقيرة، ومصر ليست غايته بل غوايته، وكان يريد أن يدهسها بين أقدام العثمانيين. كنت أعرف من وقفته وحركاته أنه كاذب. لم أحتج شيئًا أكثر من هزَّة مقلتيه ووقفته وحركة يديه. ما فعله مع هند..لم أعرفه إلا بعد موته للأسف وإلَّا كنت شققت بطنه وهو حي.

بعد يوم أو اثنين جاءني الخبر من أحد البصاصين أن العثمانيين لن يدخلوا القاهرة عن طريق الريدانية، بل عن طريق الجبل، وأرشدهم الغزالي إلى تلك الحيلة، هل تتصور يا أبا البركات أن تحارب جسدك ودمك مع العدو؟ هل تصدق أن يأتي الغدر من صدرك وأضلعك؟ لن أنسى ولن أفهم هذا أبدًا.

أغلقت القاهرة أبوابها، فأُغلِق باب النصر وباب البحر وباب الشعرية، ومكث المصريون في ترقب وغَمٍّ من عدو ربما يدخل أو ابن ربما لا يعود. وأخبرت السلطان بأن سليم سيأتي عن طريق الجبل ولن يمرَّ على الخندق، واستعد الجيش لمهاجمته، ورأيت بعينيَّ رجالًا من العامة كنت أظنهم لا يتقنون القتال يحاربون بالسيف كأفضل جنود وفي قلوبهم جسارة تشفي القلوب وتعطي الأمل. أقسم لك يا أبا البركات وأتمنى أن تكتب هذا في كتابك، اكتب الحقيقة ولو أغضبتْ بعض المماليك، وستغضب العثمانيين لا محالة، ولكن في كتابة الحق جهاد وانتصار، وفي تدوين الوقائع وصول إلى اليقين وثبات للنفس، الدهر يتلاعب بنا وبمصائرنا، ولكن القدم تقف ثابتة على الأرض العتيقة لو كتبنا الحقيقة ولم نُخفِ ضعفًا ولا قوة ولم نُحابِ أخًا ولا عشيرة؛ فالتاريخ يا أبا البركات يحول دون الفناء ويدفئ الصروح الباردة ويحمي من غدر الطامع، إذا كُتِبَ بيد أمينة ودَوَّنَه قبل رجال العلم والمعرفة. اكتب في كتابك أنني رأيت بعينيَّ العامة يحاربون بشجاعة وزهد وببريق في العيون، وكفاءة وبإتقان الناسك والعابد، وحماس العاشق

والثائر.

هذه أرض تستعصي على الأعداء، من يظن أنه سيطر عليها يخدع نفسه؛ فلا أحد يجمحها ولا يتحكم بأهلها، حكمهم سهل أحيانًا ونفوسهم صعبة المراس لا يملأ عيونهم حاكم ولا سلطان.

حاربنا وفَنِيَ منا مَنْ فَنِيَ وانطلقنا نحن الثلاثة إلى قلب العدو في مناورة خطرة، قررنا أن نَفِيَ بوعدنا ونقتل سليم. فلو حاربتَ الحوت لا بد أن تضرب ما بين عينيه، ولو حاربتَ فرس البحر لا بد أن تجد مدخلًا إلى بطنه لتعتصر الروح من أعماقه. علم طومان باي بخطتنا، ولن تصدق قراره في التو..قرَّر أن يجازف معنا ويتسلل وهو سلطان البلاد بين فرسانه إلى خيمة سليم وسط جيشه وجنوده ليقضي عليه.

ولكنها الأقدار تقرر لنا..هجمنا على خيمة سليم ولم يكن فيها، فقُتِل الصدر الأعظم سنان باشا الرجل الثاني عند العثمانيين ونجا سليم، واستطعنا الفرار بعد معارك شرسة بيننا وبين الحراس.

هي مَدافع سليم وبنادقه ما يحتمي بها، أيُّ قائد يحارب بالنار والخيانة ولا يقدر الفروسية وشرف المعارك؟ لا بأس. فَنِيَ نصف جيشنا وثلث جيشه أو أقل، ورأيت الرجال حولي تتساقط بالنار كالنجوم الهاوية من السماء، وبعد ساعات فاحت رائحة الجثث، وتقهقر جيشنا وتسرَّب وسط الظلام إلى أعماق القاهرة. ووقف سليم على مشارف القاهرة والطريق مُمَهَّد والمماليك تلاشَوْا، والعروس بين يديه يعبث بها كيفما يشاء..ولكنه تردد ولم يدخل.

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (2)

القاهرة استسلمت لنا في يوم أو بعض يوم يا أبا البركات، وطلب الجنود في حماس من سليم أن يخترق الظلمات إلى قلب القاهرة، سمعوا عن الأهرام والمباني الحجرية الزاهية العالية، والمساجد التي يبلغ طولها نجوم السماوات، كتب عنها الرحالة والعلماء، وقصدها كل زاهد وعابد وكل طامع وطالب. ولم يكن ملك الملوك طامعًا قط، بل حاول مرة ومرات مع سلطان المماليك أن ينهي الخلاف بالحسنى ولم يوافق طومان باي. كان طومان باي عنيدًا مندفعًا ولا يقدِّر الخسائر ولا يعرف حجم نفسه. لا يا أبا البركات، سليم ملك الملوك لم يحب الحروب، كان يجنح للسلم لآخر لحظة ولم يكن مندفعًا قط. طلب منه الجنود الدخول وبعضهم طامع في كنوز القاهرة ومأكولاتها وعسلها وقطايفها ونسائها، وبعضهم طامع في العودة إلى بلاده بعد شهور وسط الصحراء والجثث. لم يتحرك ملك الملوك ولم يدخل القاهرة، بل مكث في معسكره ثلاث ليالٍ، وكلما سأله أحد القادة يقول إن الوقت لم يحن بعد.

لا أعرف سبب تردده يا رجل، أكان السبب رهبة المكان أم إحساسه أن المعركة لم تنتهِ، كان قائدًا ومقاتلًا، ويعرف متى يقف ومتى يندفع قُدمًا. ولم أجرؤ على سؤاله، ولكنني فهمت

بعد ذلك أنه لم يكن يشعر بالاطمئنان وطومان باي لا يزال حيًّا مختبئًا داخل القاهرة والمماليك والعامة لا يزالون ينظرون إليه بوصفه غازيًا ومهاجمًا. ولم تزل آثارهم موجودة حتى ولو تولوا عنه إلى حين.

بعد ثلاثة أيام اقتنع أن الطريق ممهَّد له ليقبض على صدر الإسلام ويصبح خليفة كل بلاد المسلمين، فانطلق ببقية جيشه، ولم يمنعه حصن ولا باب، ودخل القاهرة منتصرًا.. كان الجنود الإنكشارية قد فتحوا له باب النصر، وعند دخول ملك الملوك أعطى الأمان لكل المصريين، أعزَّه الله وثبَّته، وفي يوم الجمعة دعا له الشيوخ في المساجد، وأصدر قرارًا بأن من يستسلم له من المماليك فسينقذ نفسه وماله وعائلته، وبدا لنا أن المدينة بلا مماليك ولا أولاد ناس ولا أقباط ولا يهود ولا حتى تجار أروام.

ولبَّى بعض المماليك النداء، واستسلم لملك الملوك ثمانمائة مملوك، ومكثوا بين يديه مهزومين من أمير إلى جندي، أقُسم إنني رأيت أمير مئين وأمراء طبلخانة وجنودًا كثيرين، وبَّخهم الملك على عناد سلطانهم وعدوانهم اللا مبرر، ثم حبسهم، وكان ينوي إطلاق سراحهم كما وعد، إلَّا أن الأحداث جرت على غير ما توقعنا.

* * *

شهادة هند (5)

سأحكي لك يا عمتي، وأتمنى أن يتسع صدرك لسماع الحقيقة، ولعلَّ في الحكي شفاءً للنفس. بعد أن رحل حسام الدين أو سلار، وجدت نفسي في حيرة، وكان الكون بألوان معتمة غير واضحة، ولم تطلب مني عدلات أيَّ شيء. كانت متوترة وخائفة؛ فثلاثة من أولادها يحاربون في الريدانية، ولولا أن زوجها كان مريضًا لذهب هو أيضًا. ولأول مرة نتكلم أنا وعدلات، أشفقت عليها من عينيها الزائغتين وقلبها المترقب، وأشفقتْ هي عليَّ، ربما من حيرة كانت تراها في عينيَّ. صارحتني بكل شيء، وفي اعتقادي أنها استأذنت من سلار قبل رحيله، وحكت لي قصة أكثر غرابة من كل قصص خيال الظل وكل قصص الجان.

الأمير سلار نشأ في القلعة، وتدرب على القتال وتعلم الفقه والخط العربي منذ الصغر، وعبد الله كان مدرس الخط حينها، ارتبط به سلار وهو في العاشرة، ونشأت بينهما صداقة وجمعهما حبٌّ للخط والكتابة، فاستمرت الصلة بينهما حتى بعد انتهاء الدروس، واستمر سلار يطلب دروس الخط من عبد الله، ويزوره كل أسبوع إن استطاع، ثم بعد مرور الوقت أصبح أمير طبلخانة، تحت يده أربعون جنديًّا، وأعطاه السلطان إقطاعية في بلبيس، فطلب من عبد الله أن يشرف عليها هو وينتقل من القاهرة مع عدلات إلى بلبيس، وكان كل أولاد عبد الله من

الحرفيين، ففضلوا البقاء في القاهرة، ولم يكن سلار يزور إقطاعيته لانشغاله في القاهرة، ولم يعرفه الفلاحون ولم يتقابلوا معه، وعندما دخل العثمانيون الشام وساروا في طريقهم إلى مصر بدا أن السلطان طلب منه أن يقوم بمهمة استكشافية ويتجسس على العثمانيين في الشرقية وبلبيس حتى يحول دون دخولهم القاهرة أو يحاربهم عند حدودها. قرَّر حينئذ سلار أن يلبس ملابس الفلاحين ويدَّعي أنه أخ لعبد الله جاء من القاهرة ليمكث معه بعض الوقت، ولم يشك فيه أحد. وحتى ست الدار أقسمت أنها لن تتكلم وإلَّا فربما يقتل العثمانيون أباها وأمها. ولاء عبد الله لمصر ولسلار الذي اعتبره ابنًا ورفيقًا منذ زمن. أتقن سلار دور حسام الدين حتى إن عبد الله نفسه أصبح يراه الفلاح الذي يحبُّ الخط العربي ويعمل في الحقول.

استمعتُ يا عمتي وذهلت، ولكن فضولي كان لمعرفة شيء آخر، قلت لعدلات: لديه جوارٍ بالطبع.

قالت: في بيته في القاهرة لديه الكثير من الجواري.

قلت في حسرة: لا يعرف الفرق بين الجارية والحُرَّة..اعتاد الطاعة وولع النساء به والتوسل له ليقضي ليلة معهن..بالطبع أراد إذلالي، فقد قلت لا عندما قُلْنَ كلهن نعم، بل قلتُ لا عندما كانت النساء يَهِمْنَ به ويتمنَّيْن أن ينتبه لوجودهن. الأمراء يا صديقتي لا يعرفون شيئًا عن النساء.

لم تفهم عدلات، فسألتُ في خوف من الإجابة: ولديه زوجة؟

بدا على عدلات التردد ثم قالت: كان لديه زوجة، أعتقد هذا.

قلت في فضول: تركها؟

بدا أنها لا تريد الكلام، فلم تجب. وتركت وسواس النفس ينخر في عقلي، لم أنم ليلتها، كنت أريد أن أصرخ في وجهه، أن

أضمَّ أصابعي وألكمه لكمة قوية في بطنه ووجهه، لو كان يملك كل الجواري فلِمَ الطغيان والطمع؟ لِمَ يُكرِهني على ما لا أريد؟ أكان يريد جارية هناك في بلبيس؟ أكان يتسلى ويقضي وقتًا مختلفًا وهو يشاهد كسرتي وانهزامي؟

كنت أفكر في أمره وفي مشاعره تجاهي، ولماذا حدث تغيُّر في معاملته لي؟ في البدء لم ينتبه لوجودي، ولم أشعر أنه رآني امرأة أصلًا، ولكن حدث شيء جعله يرغمني على معاشرته، حاولت أن أفكر فيما يمكن أن يكون قد دار في عقله حينها، لو كان يريد معاشرتي من البداية لفعل منذ اليوم الأول أو الثاني، ولكنه بدا وكأنه لا يلاحظ وجودي، ثم تغير في ليلة، ربما حدث ما أغضبه فقرر الانتقام مني، وربما كلمات قلتها مع أنني كنت أتحاشى الكلام معه. ذات يوم اشتكيت من عدلات ثم انتبه إلى وجودي، هذا أتذكره، تكلمنا عن المماليك يومها. وتتذكرين ماذا قلت يا عمتي؟ أنا أتذكر، قلت له: السارق لا يحمي والحامي لا يسرق.

وقال إني على صواب، ولم أكن أعي لحظتها أنه من المماليك، بل لم يخطر على بالي هذا قط، ربما جرحته كلماتي، ربما وجد فيها ما يدعو لليأس أو الانتقام. طلب مني يومها أن أخلع ملابسي، وتعامل معي كأنني بضاعة، ثم حدثت حادثة الحظيرة، وتغيَّر يا عمتي. أهو إحساس بالذنب تجاهي جعله يحن ويشفق؟ ولِمَ قال إنه لا يستطيع أن يرغمني بعد اليوم؟ كانت حوادث الدهر تتلاعب بي وبه. تارة يعاقبني وتارة يشفق عليَّ.

على كل الأحوال هو رجل شرير لا كلمة له ولا وعد، وكنت أنتظر حتى يعود لأقول له هذا ثم أرحل، ولا تسأليني يا عمتي لماذا لم أخرج من البيت بسهولة الآن وأرحل إلى بيت أبي، فأنا لا أعرف الإجابة.

بعد يومين أو ثلاثة لا أتذكر، صرخت عدلات وولولت، ووجدت نفسي أحتضنها في شفقة، لم أكن أتوقع أن أجدها في قلبي. يا عمتي فقدتْ ثلاثة من أبنائها في الريدانية ولم يتبقَّ لها سوى ثلاثة وست الدار وزوجها. قلنا لها إنهم ماتوا شهداء، وأن شجاعتهم فاقت شجاعة القادة العظماء أمثال بيبرس وقطز، ولكنها صرخت يا عمتي حتى فقدت السمع، أو كادت، وأصبح لا بد من الصياح لتسمعنا، مَرَّغَتْ جسدها في التراب، وفقدت الوعي ساعات. اجتمعت الناحبات حولها وكل نساء الحارة يبكين ويستغثن بالله، وجلس عبد الله مع بقية أولاده يستمع إلى القرآن والدموع تنهمر من عينيه وقلبه يعتصر، ولحظتها

يا عمتي قررت أنني إنْ رأيت سلار أو حسام الدين أو ذلك الرجل الذي سيطر على روحي فسألقي بنفسي بين قدميه وأفعل أيَّ شيء ليبقيني معه ولو ليوم. لم أبك ولم أرتجف..كانت الحياة تأبى أن تترك شراييني، والعمر يثور على أضلعي ويطلب الخروج إلى الغابات، تعرفين الأيام المغمسة بالموت تُخرِج الجسارة من الأعماق.

جلست في حجرتي وأنا أضع كَفَّيَّ على أُذُنَي أخي حتى لا يسمع الصرخات، وعرفت أن «سليم» دخل القاهرة، وأن المساجد تدعو له اليوم، وكان يمكن أن أرحل الآن أو أمس ولم أفعل ولم أستطع.

بدأت أخاف من الجنود العثمانيين، فربما يُغِيرون على البيوت ويفتكون بالنساء والأطفال، من يدري؟ بقيت في حجرتي مع أخي بلا حراك.

قال أخي وعيناه تدور حول الحجرة في عدم اطمئنان: أين ذهب حسام الدين؟ مات هو أيضًا؟ هل مات والدنا يا هند؟

قلت في عدم صبر: إياك أن تقول هذا.
بدا مترددًا ثم قال: هند لا تغضبي مني.
- لِمَ أغضب منك؟
قال وهو يجلس بجانبي: تكرهين حسام الدين، ولكنني لا أكرهه.
قلت فجأة: لماذا لا تكرهه؟
قام من أمامي وأخذ يدور حولي في الحجرة وكأنه لا يعرف الإجابة. شمس كان أصدق مني دومًا يا عمتي ولكنه لم يكن يعرف ما حدث للقلب من تقلبات الدهر.
فُتح الباب وكان هو..
نظرت إلى وجهه وكان متعبًا والدم يملأ ملابسه، تمنيت أن ألقي بنفسي بين ذراعيه وأقبِّله قبلات كثيرة، ولكنني لم أفعل، بدا لي أنه لم يخرج من المعركة بعد.
وقلت: أنت بخير، أحمد الله أنك بخير..
قال في صوت لا أفهمه: لست بخير، ولا أحد بخير اليوم، هيا لأعيدك إلى أبيك.
قلت مسرعة وأنا أُطمئن نفسي أولًا قبل أن أتأكد منه: عُدْتَ سالمًا، وانتهت الحرب، أليس كذلك؟
قال في حسم: بل لم تبدأ بعد، لا يمكن أن يَسْلَم أيٌّ مِنَّا وسليم في مصر..
قلت في إصرار: لا تُلْقِ بنفسك إلى التهلكة، هو ابتلاء، وتحمُّلُ الابتلاء في صبر واجب يا حسام الدين.
شدَّني أنا وأخي وقال: بل الواجب هو عدم تحمل الابتلاء، هيا!
واليوم لم يكن معه العربة بل فَرَس قوي، ثم حملني أمامه أنا

وأخي، وجرى بالفرس إلى بيتنا.

عند الوصول..ألقى بي وبأخي إلى الأرض وبقي هو على فرسه، نظر إليَّ لثوان ثم قال: ما حدث كان، ماض وانتهى، لم يكن لك اختيار فيه، انسي كل شيء.

همست في صوت ممتلئ بالحزن: هل سأراك مرَّة أخرى؟

التقت أعيننا برهة، ثم رحل بلا كلمة.

* * *

الباب الثاني
ما قد جرى

«ما أسهل فناء البشر، بعد الوباء شعرت بضآلة الإنسان وتفاهته. أتعرف؟ لا بد أنك تعرف أن الحروب تذهب هباءً لو لم نسجلها ونخلدها بالعمائر، لا وباء يقتل العمائر ولا غدر يغتالها.»

مُشَيِّد العمائر

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (3)

ملك الملوك سليم شاه يملك من الحكمة ما لم يملكه مَلِك من قبله قط، لا من بلاد المسلمين ولا غيرهم، ولم تشغله الحرب عن التأمل والتذوق والمعرفة، كانت له نظرة ثاقبة وعين نافذة، ما أعظمه من ملك! وبعد أن فتحت لنا القاهرة أبوابها ورأينا كنوزها وعمارتها وشوارعها ومساجدها، كاد الجنود يُؤْخَذون بها ويُفتنون، وخاف ملك الملوك، ومنع أيَّ جندي من الزواج من مصرية، لا من بنات المماليك ولا من بنات العامة، خاف من جاذبية هذه الأرض وسحرها، ينصهر الغريب بداخلها وينسى أصله وهدفه بين أركانها. هكذا حدث لي أو كاد. يا أبا البركات، سأحكي لك عن زيارة ملك الملوك لمسجد سلطان في القاهرة يدعى السلطان حسن..كان يتوق إلى هذه الزيارة منذ زمن، وعندما سنحت الفرصة كان المسجد غايته..دخلت معه يومها ورأيت عينيه تطوفان في أركانه وتتوهان في رسوماته وزخرفته، ورأيته أمامي يتأمل الرخام في أرضيات المسجد ساعة أو أكثر حتى أُرهقْتُ وأردت أن أجلس، ولم أجرؤ على النطق، ثم رأيته يرفع رأسه ويتفحص القناديل ويشرب من ضوئها كالراهب والصوفي، صعد إلى المئذنة وأسند ذراعيه على السور ونطق أخيرًا: من بنى هذا الصرح العظيم؟

نظر كل منَّا إلى الآخر، ولم نكن نعرف اسم مُشيِّد العمائر

وقتها..ثم قال أحد الجنود: مُشيِّد عمارة اسمه محمد بن بيليك المحسني، من أولاد الناس.

ردَّد وكأنه لا يسمعنا: من أولاد الناس.

ثم التفت حوله وقال: مِنْ هذه المئذنة تشعر بأنك تملك العالم، وتشعر أيضًا بأنك لا شيء، تعي حجمك وضآلتك..مخيفة هذه المئذنة..هل يصلي المماليك هنا؟

قلت وكنت أعرف: لا دينَ لهم هؤلاء المجرمون..يستعملون المسجد ساحةً للقتال يا ملك الملوك.

فقال مسرعًا: لا يستحقونه، لا يستحقون أيًّا من هذه المباني..ولكنهم يحبون القتال..وجودهم ضروري لو تعرفون..

قال جندي حينها في تردد: أمرتنا أن نبيدهم..

- أتمنى هذا ولا أدري هل أستطيع..وجودي أعلى المئذنة يربك بعض الشيء..القوة تثمل والطموح نعمة ونقمة، لا بد من إبادتهم.

ثم بدأ ينزل من على السلم، وقال لي حينها: يا مصطفى، لو رأيت جَمَالًا كهذا ماذا تفعل؟

قلت مسرعا: آخذه لنفسي.

- بل لا أريد أن آخذه لي، بل لبلادي..أريد مسجدًا مثله بقناديل ورخام ومشكاوات تضيء الكون ورسوم نحاسية وآيات تدل على الطريق..خذ بعض القناديل من هنا..خذ القناديل، والنحاس والرخام..

ثم فكر قليلًا وقال: وكل الحرفيين..

قلت وأنا لا أعرف ما يقصد: مولاي..

- خذ كل من صنع هذا الصرح..وكل ما بداخله.

- مات من صنعه، لا تؤاخذني يا مولاي..

- يصنعون مثله كل يوم هؤلاء المصريون..عند انتهاء الحرب لا بد من التفكير في البناء..

- ما أعظمك سلطانًا تريد أن تشيِّد مسجدًا باسمك في مصر؟

- بل أريد أن أشيِّد مسجدًا في بلادي لا يقل عن هذا المسجد..ولا يقل عن مسجد المؤيد شيخ، ولا مسجد برقوق، ولا كل مساجد المماليك..نحتاج الرجال والذهب، خذهم من هنا..

- آخذُ الرجال أم الذهب؟

- خذ الرجال والذهب؛ فالذهب وحده لا يشيِّد عمائر، والرجال بلا ذهب لا تصنع مجدًا، خذ الاثنين..عندما يحين الوقت..

* * *

شهادة سلار (5)

بحثتُ من قبل وعرفتُ الكثير عن الشيخ شهاب الدين، شيخ مسجد شيخو العمري الناصري في قلب القاهرة، كنا نحتاج رجلًا مثله في حربنا التي لم تبدأ بعد؛ فالحرب يا أبا البركات ليست موقعة يديرها قادة، بل معارك متتالية من شعب وبلاد وبين الحارات والأزقَّة، لا أدري أكان شعب مصر يستسيغ حب المماليك ويألفهم أم يكره فكرة الغزو ويعرف ما يفعله الملوك إذا دخلوا قرية..كانت لديهم فطنة العلماء في تلك الأيام، وقاوموا وقاتلوا كالقدامى، رأيتهم بعينيَّ..

كنا نبحث عن مسجد يقع في مكان سهل الوصول إليه، ويتسع للجنود والعامة، ويصبح هو مكانَ المقاومة والحرب بين أزقة وحواري القاهرة، واقترحت على السلطان مسجد شيخو، ليس فقط من أجل مكانه وأهميته، ولكن من أجل شيخه يا أبا البركات. الشيخ هو المسجد وكلماته تشجي القلوب، وثباته يساعدنا أكثر من كل السيوف والمدافع. اقترحت الشيخ شهاب الدين، وكنت قد بحثت في أمره من قبل، وسمعت خُطَب الجمعة منه مرارًا..كان في مثل سني، في الثلاثين أو أكثر بقليل، وما شدَّني إليه من قبل عيناه القويتان، وحسم كلماته وثقته المتناهية. عرفت أنه من عائلة علماء، جَدُّه الكبير كان الشيخ عبد الكريم المناطي، وأحد جدوده بعد ذلك كان قاضي قضاة الشافعية عمرو بن أحمد بن عبد الكريم المناطي، جاء

من عائلة كريمة وتقية، وعُرِف عنه العدل والعلم، وكان لم يزل يعيش من وقف لأمير مملوكي اسمه الأمير محمد المحسني.

ذهبتُ إليه ليلًا قبل صلاة الفجر بساعات، وكنت أعرف أنه يعتكف ليلًا في المسجد، وكنت أرتدي ثياب العامة، ودخلت عليه ولم يشعر بي. مكث مكانه يقرأ القرآن ويدعو، فقلت بعد برهة: يا شيخ شهاب الدين..

التفت إليَّ ثم قال: جئتَ تدعو لمصر يا أخي..

قلت في حسم: بل جئتُ أحارب من أجلها.

- طمعًا فيها أم حبًّا لها؟

- لا أدري، الاثنان ربما.

- ليس للمُحِبِّ أن يطمع، وليس للطامع أن يحب.

قلت وقد التقت أعيننا: يا شيخ..هي لا تأتي كَرْهًا بل طواعية دومًا، يفوز بها الشجاع المثابر، لا بد أن يفوز بها من يستحقها.

- ومن يستحقها يا أمير؟

- كيف عرفت أنني أمير؟

- من عينيك وكلماتك، تتكلم عن الفوز والمعارك ولا تسألني عمَّا هو أهَمُّ.

قلت ساعتها: بل أعرف ما هو أهَمُّ، ولكن القتال واجبي وقد كتب عليَّ. أريد أن أحمي هذه البلاد، ولا أريد لامرأة أن يُعَرِّيَها جندي عثماني، ولا تذل وتقهر، لا أريد للصبيان العبودية ولا للرجال الموت. يهمني أمر هذا البلد، وأخاف من اللصوص والغزاة.

ابتسم شهاب الدين في سكينة ثم قال: اللصوص يا أمير حولنا، من المماليك، والعامة، وليس فقط من أولاد عثمان.

- اترك لي لصوص البلاد؛ فأنا كفيل بهم، ولكنني لا أضمن ما

سيفعله الغرباء. أتثق بي يا شيخ؟
- كيف أثق بك يا أمير وأنا لا أعرفك؟!
- تعرفني الآن.
أطال الشيخ شهاب الدين نظره إليَّ ثم قال: منذ عام جاءتني امرأة تبكي وتستغيث..
استمعت في صبر فأكمل شهاب الدين، تعرف واقعة مقتل المكاري؟
لم أجب، فأكمل: كان رجلا فقيرا لا يملك سوى حماره وعربته، طلب منه جندي من المماليك أن يجتاز به الجسر، وبدا أن الجندي كان سكران، وأطاعه المكاري واجتاز به الجسر، ثم طلب أجرته، فرفض الجندي إعطاءه شيئًا، ثم ألح في طلب أجرته، فهشم الجندي رأسه وألقى به في النهر أمام العامة، وماذا فعل العامة يا أمير؟
كنت أعرف ما حدث، ولا أعرف لماذا يتكلم شهاب الدين عن هذه الحادثة الآن، بقيت صامتًا في ضيق، فأكمل شهاب الدين: التف العامة حول الجندي وضربوه ولم يقتلوه أملا في العدل، ذهبوا به إلى الوالي، وأمر الوالي لحظتها أن يعاقب الجندي، وفَرِحَ العامة وبدا أن العدل ساد.
اقترب شهاب الدين مني ونظر إلى عينيَّ ثم قال: تعرف، أليس كذلك؟
لم أجب فأكمل: اجتمع أمراء المماليك وقرروا مهاجمة الوالي ومعاقبته على النَّيْل من هيبة الجندي، وهرب الجندي، وعُزل الوالي، ونكَّل الأمراء بكل من طلب وكل من ساوره الأمل. جاءت أرملته تبكي وتستغيث..أعطيتها بعض المال..ولم يكن في يدي شيء. بل ما يثير الدهشة يا أمير هو رَدُّ فعل المماليك وغضبهم الشديد من تجرُّؤ العامة على الجندي الذي قتل

المكاري، طلبوا القوانين التي تمنع العامة من التعرض للمماليك، تتذكر؟

قلت: أعرف ما حدث وأعرف أنه ظلم.

- وأنا أعرف أنك لم تكن ممَّن ثاروا من أجل الجندي.

قلت في تأكيد: لم أكن ممَّن ثاروا من أجل الجندي.

ابتسم الشيخ وقال: ولكنك لم تثر من أجل الرجل الفقير أيضًا.

قلت في تأكيد: ينحرف المماليك أحيانًا، ولكنهم منها ولها، طومان باي يبغي العدل وأنا أدعمه.

- وأنت تبغي العدل أَمِنْ أجل إنقاذ المماليك أم من أجل هذا البلد؟

التقت أعيننا ساعتها وقلت: تعرف الإجابة.

- ولِمَ تحتاج إلى شيخ ضعيف مثلي لم يقوَ على معاقبة جندي من المماليك؟

اعتدلت في جلستي وقلت في جِدٍّ: في وقت الحروب المجازفة واجب، سليم غازٍ أم خليفة؟ ما رأيته من جنوده حتى الآن هو تضميد جراح المصابين أم القتل والسرقة؟ من اعتدى على من؟ ومن يأتي من مصر ومن يبقى فيها؟ تعرف الفرق بين الغازي والسلطان يا شيخ؟ الغازي ينتصر ثم يرحل بكنوزها، أما السلطان فيموت بين طميها ويدفن في أرضها.

- تحبها إذن ولستَ طامعًا.

قلت بلا تردد: أحبها ولستُ طامعًا.

- وماذا تريد مني؟

- هذا الجامع..أريدك وأريد المسجد..طَوْعًا للسلطان..مكانًا آمِنًا للمحاربين ومن يريد أن ينضم إليهم وملاذًا لكل جريح ولاجئ.

قال الشيخ شهاب الدين: طومان باي رجل حكيم، كل مصر تحبه، جاء في زمن صارت الحكمة فيه مرضًا، والإخلاص جريمة، والعدل يستحق العقاب. أهل مصر معك يا أمير، كلها معك. أنا لست رجل حرب، ولكنني أدعو للتي هي أقوم، لا تطلب مني أن أدعو على أحد ولا أن أفتري وأكذب.

قلت في ارتياح: أعدك أني لن أفعل.

أطال نظره إليَّ ثم قال: رأيتك من قبل..مرة أو مرتين في صلاة الجمعة..كنت تستمع في تأمل وفهم..ابحث في أعماقك يا أمير، فلا بد أنك لم تعرف نفسك بعد. عند انتهاء المعركة ابحث لتجد، فمن يبحث يجد، ومن يترك يَنَلْ، ومن يحزن على الدنيا يفنى فيها، ومن يجتز الدنيا يصل إلى الخلد. لنا لقاء قريب..في موعد آخر نتكلم عن هذا.

- أتمنى هذا يا شيخ.

رَبَتُّ على يده وحربي قد بدأت للتو.

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (4)

جنح ملك الملوك للسلم، وأعطى الأمان للعامة، ولكن الجحود من سمة البشر، وجحود العامة وعدم تصديقهم نواياه الحسنة أغضبه وأغضبنا جميعًا، ما بال العامة تفضل غريبًا ظالمًا يأتي عبدًا ثم يذلهم عن ملك حر، من بلاد مسلمة، يريد العدل والأمان لهم. اختلطت عليهم الأمور بإيعاز من المماليك، وحرب القاهرة بدأت يا أبا البركات، وكانت أعنف ما رأيت طوال عمري، خرج المماليك من كل فجٍّ عميق، ومعهم نساء وأطفال وحرفيون وفلاحون، وبدا لنا أن معهم كل أهل مصر، كان طوفانًا انتشر بين رجالنا فأغرقهم، ولم نكن على دراية بحارات القاهرة وأزقتها، حتى رجالنا من المماليك تفاجئوا بالهجوم، في كل حارة وعطفة وفي كل طريق يُقتل قائد وجنوده، حتى ملك الملوك تعرَّض لهجمات وسيوف ورماح، حتى ملك الملوك في قلعته الحصينة تعرض لسهم غادر يومًا وكاد يموت لولا الأطباء . أيٌّ شيطان سيطر على أهل مصر في تلك الأيام؟! تراخى جنودنا أم تفاجئوا؟ لا أعرف. ولكنهم فقدوا القدرة على القتال وفقدوا شجاعتهم من هَوْل الهجمات المفاجئة. ورأيت ملك الملوك ثائرًا كما لم أره من قبل، وأمر يومها بقتل كل من سَلَّمَ نفسه من المماليك وكانوا ثمانمائة، أمر بذبحهم في سجنهم ثم تعليق رءوسهم في حبل يمتد من الروضة إلى باب النصر،

وكان الحبل يحتاج إلى أكثر من ثمانمائة رأس، لذا فقد أمر أيضًا بذبحِ كل المماليك وكل أولاد الناس. لا تَلُمْهُ يا أبا البركات، لو كنتَ مكانه لكنت ستفعل نفس الشيء، نعم أعطى المماليك الأمان ليسلموا أنفسهم، ولكنهم خونة بطبعهم كما تعرف، والشراكسة منهم أهل السوء على الإطلاق.

رأيت الحبل بالرءوس يمتد في أنحاء القاهرة، ورأيت الجنود العثمانيين يعلقون رءوس المماليك على كل أبواب القاهرة وعلى الخانات وبيوت أهل مصر، حتى إنه لم يعد هناك بيت في مصر لا يوجد أمامه رأس لمملوكي، ولو حاول أحد العامة أن يزيح الرأس من أمام أطفاله حتى لا يفزعوا، يُقتل هو نفسه ويوضع رأسه مكان رأس المملوكي. الرهبة في الحروب عتاد يا أبا البركات، ولكن الحرب في القاهرة لم تتوقف، ووطأتها لم تخف، وجنودنا لم يزدادوا قوة بل مات منهم الكثيرون؛ وحاول ملك الملوك الاستعانة باستخباراته ليعرف من يقود هذه الحملات مع طومان باي، وبعد ثلاثة أيام عرف وأيقن..

هم ثلاثة أمراء طبلخانة: سلار، وإينال وقانصوه العادلي، وأخطرهم سلار، لا سيف يرهبه، ولا مال يشتري ولاءه، ولا حتى وعد بأرض أو ولاية. أمر ساعتها بقتلهم الثلاثة، ووعد بأن من يأتي برءوسهم سيفوز بوزنها ذهبًا، وسليم يفي بوعده دومًا. ولكن البصاصين قالوا إن قلعة المماليك الآن هي مسجد في القاهرة لأمير مملوكي عاصر أولاد قلاوون يدعى شيخو، أصبح الجامع مكانًا لاستقطاب العامة ومقابلة الثائرين من أهل مصر والمماليك. وبدا أن شيخ الجامع شهاب الدين المناطي يجمع العامة ضد سليم. هل تصدق يا أبا البركات أن يجمع شيخٌ العامة ضد خليفة المسلمين؟ لماذا؟ لأنه ذلك الخليفة غريب؟ والمماليك غرباء؟ ما الفرق بين سليم والمماليك؟ أهل مصر يقولون إن المماليك لا بلد لهم سوى مصر، يبنون فيها

ويزرعون، أما سليم فبلاده بعيدة يبغي أن يجعلها صدر الإسلام ودرعه. أيُّ مجنون يفكر هكذا! جاء سليم لينقذهم من بطش المماليك وظلمهم ولم يفهموا ولم يحاولوا الفهم. أمر سليم بقتل الشيخ فورًا؛ فالخيانة عقابها الموت، والشيوخ ليسوا معصومين من الخطأ، بل كان يتمنى أن يعلق رأس شهاب الدين بين الرءوس الثلاثة للأمراء ويطوف بها في أنحاء القاهرة. وأقسم أن يفعل وسليم قادر وقوي وعندما يقسم يفي. ولكن الحرب لم تتوقف، والسهم الذي أصاب ملك الملوك جاء في رقبته، واضطر إلى أن يختفى عن الأنظار، بل بدا أنه اختفى وتراجع، وحدث ما لم نتوقعه يا أبا البركات، وكأن الأيام تدور كالسواقي الجديدة بسرعة وبلا تمييز..انهزم الجنود العثمانيون أو كادوا..وما يحيّر هو أن المماليك خلعوا ثيابهم المميزة وارتدوا ثياب العامة فأصبح التفريق بينهم وبين العامة مستحيلًا، وعندما حان وقت صلاة الجمعة دعا الشيوخ للسلطان في مساجد القاهرة، في كل مساجد القاهرة، ولكنهم لم يدعوا لسليم..بل لطومان باي بوصفه سلطانًا على مصر!

وعندما علم سليم قال في صوت مخيف: إن أيَّ جندي سيتكاسل عن قتال المماليك سيقتل في الحال، واستمرت الحرب..

* * *

شهادة هند (6)

تتذكرين يا عمتي حالي عند العودة، وفرحة أبي بي أنا وأخي، لم أحكِ لأبي كل شيء، وخجلت من ذكر تفاصيل مهانتي وهزيمتي، حكيت بعض الأشياء فقط، وطلب أبي حينها اسم الرجل الذي أنقذني ثم استعبدني وخطفني، وترددت قليلًا، ولكنني كنت أعرف أن وقت التخفي قد انتهى، وأن سلار لا يأبه الآن بمن يعرف حقيقته، أخبرته باسمه، وأخبرتك أنت يا عمتي بما حدث، وقرأت الشهادة التي أعطاها لي، وانكسر قلبك وعبس وجهك، وقد فهمت ما حدث وما جرى لي. لم يَرَها أبي. ولم أجرؤ على مصارحته، أخبرته فقط بأن الأمير المملوكي جعلني أعمل في بيته كالخدم لا أكثر و لا أقل.

مكثت في حجرتي ساعات، وكنتِ أنتِ صديقتي الوحيدة، وربما كنت تفهمين أكثر من الجميع، فقد فقدتِ زوجك بعد الزواج مباشرة ولم تنجبي، فكنتُ أنا ابنتك، ولم تتزوجي غيره، فكنت صديقتك ورفيقتك. عمتي..تتذكرين..كنت أبقى في حجرتي ساعات لا يهمني حرب القاهرة ولا ما يحدث بالخارج، كنت أحاول فهم نفسي..عدت إلى بيتي، ولكنني لم أعد كما كنت..أما أبي فكانت حرب القاهرة هي حربه، استقبل الجرحى في بيته وطلب منا أن نساعدهم، وكنا نساعدهم كل يوم..وكنت أخرج من حجرتي في تكاسل لأعطيهم الطعام وأنا ألبس الخمار لأغطي وجهي، وحينها تقابلنا مع زياد لأول مرة.

وكان أحد المقاومين للغزاة، جرح في معركته في حارتنا وأخذه أبي وعطف عليه وتكلم معه وعرف عنه الكثير، وكان أحد أبناء التجار ويعمل مع والده. كانت أيامًا صعبة، وتضاعفت صعوبتها عليَّ أنا بالذات لأن القلب كان مهمومًا حزينًا غاضبًا وناقمًا.

قلتِ حينها: هند..أريد أن أتكلم معك..

فنظرتُ إليك ولم أجب. فقلت: أعرف أن ما مررتِ به ابتلاء، ولكنني أشعر ببعض الحيرة، هل حزنك لما جرى أم لشيء آخر لا أعرفه.

قلت مسرعة: لما جرى يا عمتي.

- تعرفين أن زيادًا طلب الزواج منك من والدك بعد انتهاء الحرب، رأى عينيك فقط ولكنه عرف أنك من بيت طيب.

قلت بلا تفكير: لا يعرف عني شيئًا.

فَهِمْتِ يا عمتي ما أقصد فقلتِ في خجل: بل أخبرته بكل شيء.

فتحتُ فمي في فزع فأكملتِ: كان لا بد أن أخبره، وأزداد تمسكًا بك، يعرف ما يحدث وقت الحروب، ويعرف معدنك وأصلك الطيب، وأن ما حدث كان رغمًا عنك وترك أثرًا في نفسك، يفهم ويعرف.

قلت: ولكنني لا أريده.

تفحصتِ وجهي حينها وقلتِ: لماذا؟ أفهم، كرهتِ الرجال بعد ما حدث وكرهتِ معاشرتهم.

ضممت نفسي وكأنني أتمنى أن يساعدني ربي على اجتياز المحنة، ثم قلت: تركني وكأنني قطعة زجاج مكسورة، كوَّمني في زاوية ورحل. كيف يفعل هذا؟

كنتِ تنظرين إليَّ في حيرة يا عمتي. هل عرفتِ؟ هل سبرتِ غوري ورأيت ما بنفسي؟ أعتقد أنك فعلت.

دسستُ رأسي في الوسادة وأغمضتُ عيني وصورته لا تترك مخيلتي.

بعد بضع ساعات جاء أبي ودخل عليَّ وقال في وجوم: الرجل الذي خطفك..

قلت في صوت خائف: ماذا حلَّ به؟

قال أبي في عبوس: أتخافين عليه أم تخافين منه؟

اعتدلت في جلستي ثم قلت في جِدٍّ: اعذرني يا أبي.

- اعتقدتُ أنك متِّ وحزنتُ عليك، والآن وجدتُك وكأنك بعثتِ من جديد، أنقذت أخاك ونفسك، شجاعتك يا هند ليس لها مثيل. الأمير سلار، أعرف الآن من يكون.

قلت مسرعة: وماذا ستفعل؟

- هي حرب يا هند، الآن ليس بيدي شيء، ننتظر النهاية أولًا..فربما فيها فناؤنا..تعرفين من كانت زوجته؟

بلعت ريقي وخرجت رجفة مني وقلت: مَنْ؟

- خوند سعادات ابنة خاير بك.

وضعت يدي على صدري ثم قلت: تركها؟

- ربما، لا أعرف، حتى لو تركها الآن..قبل نهاية الحرب فلا بد سيعيدها، هي من نفس أصله وابنة خائن نعم، ولكنه الآن أهم رجل في مصر، لو انهزمنا أعوذ بالله فلا بد سيعود لها، ولو انتصرنا فلا بد سيعود لها، فلن يكون لديها سواه.

احترق حلقي وعينا أبي تتفحصني ولم أتكلم. قال أبي بعد برهة: في وقت الحروب يختلط الحسن بالسيئ، وتصبح كل الألوان معتمة وينطفئ ضوء النفس. اصبري وثابري..لا تعجبني هذه الأيام.

- اعذرني يا أبي، سأكون في حال أفضل، أعدك.

قال في حسم: وتتزوجين وتنجبين وننسى كل ما حدث.
قلت في ألم: أعطني بعض الوقت لأستسيغ الهزيمة.
* * *

شهادة سلار (6)

استقر القلب وهدأ يا أبا البركات، وابتعد الخونة وأصبحوا كالنمل الضئيل الذي ضلَّ الطريق وسيموت مدهوسًا بأقدام الجنود. تنفست الهواء النقي بين أركان المسجد وصافحت الشيخ والعامة وجلسنا معًا في حلقة أمام الشيخ شهاب الدين، وقال العامة إنهم عانوا من ظلم المماليك، ولكننا نحن الثلاثة أمراء، نستحق حكم مصر والشام مع طومان باي، نحارب بشجاعة ونبغي العدل، هكذا قال العامة. ليس للغريب أن يأخذ خيراتها. كانت لحظات مختلفة، أريد أن أقصَّها عليك يا أبا البركات حتى تكتب عنها، فإنْ لم نكتب عنها فسننساها وسيبقى المماليك عبيدًا من جنس مختلف يعربدون بين أركانها في غرور، وسيبقى العامة حزمة من البشر لم تصل لمعرفة المماليك ولا مهارتهم في الحروب. في هذه اللحظات التحم العامة والمماليك وتبادلنا النكات، بل بدأ العامة يقصُّون علينا نكات وحكايات يسخرون فيها منا، وكنا نضحك معهم ونصلي ونأكل ونخطط، وكنت أدربهم بنفسي على المبارزة والرمح. كانت أيامًا..مرَّت كالحلم أو ربما مرَّت كطيف الجنة الذي يمر ولا يتوقف حول العاصي والمذنب.

رأينا الرءوس المعلقة، وكنت جنديًّا، وكنت أعرف أن الغلظة من الملوك لا تنم عن ثقة بل عن خوف، وأن القسوة من سلطان أو محارب تدل على قرب نهايته. خلعنا رداء المماليك وارتدينا

جلابيب العامة والفلاحين، فأصبح من الصعب التفرقة بين العامة والمماليك.

أعطاني بعض العامة قائمة بطلبات، وأقسمت أمام الشيخ شهاب الدين أن أنفِّذها كلها أنا والسلطان إذا آل لنا النصر وطردنا «سليم» وجنوده.

وفي يوم الجمعة جاء السلطان نفسه متخفيًا إلى المسجد، وقابل الشيخ شهاب الدين وشكره، واستمع إلى خطبته، ثم صافح قادة العامة وكبراء المصريين، وصارحهم بمن يكون، وقالوا معًا إنهم يفتدونه بأعمارهم؛ فهو صادق، والصدق ليس من سمات السلاطين. ربت على كتف الصغار، واستمع إلى شكاوى الكبار، وقرأت له القائمة، ووعد أن يخفض الضرائب ويخفف وطأة المماليك، ويفصل بينهم وبين العامة، ويغيِّر قوانين ظالمة كالتي تعاقب أي مصري يتشاجر مع جندي مملوكي، قال السلطان يومها بعد الخطبة إن الله خلقنا سواسية وإن أهل مصر يدافعون عن بلادهم، وما هو إلا خادم لديهم ينفذ أوامرهم، وفي تلك اللحظة انحنى المصريون وهللوا له حتى خِفْتُ أن يصل صوتهم إلى سليم في قلعته، واتخذ سلطاننا من مسجد شيخو بيتًا وملاذًا وقلعة لمهاجمة العدو الغازي.

تتذكر يا أبا البركات، حكيتُ لك عن ثلاثة فرسان كانوا حول طومان باي طوال الحرب، كنا نفهم بعضنا بعضًا من نظرة عين أو إيماءة رأس، وخططنا معًا لهجمات ستقضي على الجيش العثماني لا محالة، إذا كان سليم يحارب بالخديعة فلا بد للمماليك من إتقان اللعبة، وأغوينا الجنود العثمانيين بالغلال والذهب، وقضينا عليهم في الحواري والمساجد، اتخذوا من مسجد المؤيد مأوى، سرقوا المشكاوات والنحاس والفضة، وقتلوا العامة والضعفاء والأطفال، فتظاهر إينال بأنه فلاح من الصعيد أتى بالعسل والخبز ليبيعهما للجنود، فسمحوا له

بالدخول، وعندما غفلوا، فتح الباب الكبير وكنا وراءه، واستسلم من استسلم، وحارب من حارب من الجنود العثمانيين وانتصرنا عليهم، وجاء دورنا لنجمع الرءوس ونرهب من غزا وخان. ثم أغويناهم بالذهب في صدور النساء فتعقبوهن فانقضضنا عليهم، وقبضنا عليهم في البيوت والدكاكين وسمعنا التوسلات، وأقسموا على أن يكون ولاؤهم لطومان باي، كنا نهجم في منتصف الليل، وعند بزوغ الشمس يلملم العثمانيون جثث جنودهم ونفوسهم مكسورة والرعب يلعب بسيوفهم ويوجهها.

وطومان باي يصمم على أن يخرج معنا في الغارات والهجمات، وخرجنا أنا والعادلي حول السلطان ومعنا الكثير من الجمال في اتجاه معسكر سليم، وكانت جمالنا محملة بالغلال، وارتدينا زي العربان وغطينا وجوهنا، ووقفنا أمام معسكر سليم نسأل الحراس لو كانوا يحتاجون إلى الغلال، ومزجنا الغلة بالقش، وبدا أن الجنود سيسرقون الجمال والغلال ويقتلوننا كما توقعنا، فأشعلنا النيران في القمح والقش، وضربنا بسياطنا الجمال فهرولت إلى المعسكر وحرقته، ودخلنا بخيولنا وسيوفنا، وقتلنا منهم من قتلنا وأسرنا منهم الكثيرين، وهرب سلطانهم حينها أو اختبأ، ولكنني استنشقت رائحة الخوف حولنا، وسمعت الاستغاثة وصرخات من نجا ومن خاف ومن استسلم.

عدنا إلى مسجد شيخو والنصر يثبت أقدامنا، وقال إينال في صوت خافت: لا بد لي من الاطمئنان على الأولاد.

فردَّ العادلي في مكر: بل تريد الاطمئنان على زوجتك، يا رجل انسَ زوجتك وقت الحرب.

فقال إينال في غضب: كنتُ أريد الاطمئنان على أولادي فحسب.

قلت يومها في حسم: لا خروج من المسجد إلا بعد النصر، أولادك في أمان.

ثم قلت مداعبًا والنصر يريح روحي: أم أنك تشتاق لزوجتك كما قال إينال؟ في وقت الحروب ينسى الرجل كل نسائه.

قال في سخط: لا قلوب لكم ولا تعرفون شيئًا عن النساء.

قلت أنا في تأكيد: بل نعرف كل شيء عن النساء، ولو كنتَ طاوعتنا في الماضي لتعلمتَ أنت أيضًا الكثير عنهن حتى لا تسيطر عليك واحدة فتنسيك أننا بين أيدي العثمانيين هنا.

رَمَقنا بنظرة غضب فقلنا أنا والعادلي: كنا نمزح معك، هي أيام وتنتهي الحرب، وعندما تنتهي اذهب إلى أولادك وزوجتك.

ثم التفتُّ إلى العادلي وبدأنا التخطيط للضربة القادمة وعيناي حول السلطان لا تتركانه.

واستمرت المقاومة والهجوم على العثمانيين، وتكشف لهم أخيرًا أن المماليك ليسوا ككل المقاتلين، هم أشرسهم وأشجعهم، وأن أهل مصر يفقهون ويعرفون ويميزون الأخطار. وانهزم العثمانيون يا أبا البركات، اكتب في كتابك أن حواري القاهرة هزمتهم يا أبا البركات حتى وإن فشلت الريدانية في ردعهم عن دخول القاهرة.

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (5)

تحسنت صحة السلطان، ولكن الجنود كانوا في أسوأ حال بين مريض وجريح، بل بعضهم عاد بطعنات من النساء يا أبا البركات، هل تصدق أن نساء مصر خرجن بسكاكين الطبخ ليطعن الجنود، وعندما يجتمع على الجنود مئات النساء فلا أمل لهم في النجاة، حربهن أشرس الحروب وأكثرها إيلامًا، تطعن الرجولة والشرف. ما يحتاجه أهل مصر يا أبا البركات هو التربية الحميدة والنظام الصارم، فشل المماليك في تربيتهم وتعليمهم، مدارسهم كانت تعلم الفقه والحديث ولا تعلم الأخلاق، أيٌّ امرأة في بلادنا تجرؤ على رفع السلاح في وجه رجل؟ لابأس..سأحكي لك ما حدث وأصدقك القول، وأرجو أن تكتب الحقيقة ولا تتبع هواك، فلو كنتَ مصريًّا لكتبت الحقيقة، ولو كنت تَعُدُّ نفسك من أولاد الناس لكتبت الحقيقة حتى يتعظ المملوك والمصريون.

عندما اشتد القتال وبدا أن النصر حليف المماليك وأهل مصر، كان لا بد من حيلة أو حسم للمعركة؛ ففي القتال هلاك للمماليك وأهل مصر والعثمانيين، وما فعلناه فعلناه لأننا أردنا إنقاذ المصريين وليس هلاكهم. لا بد للقائد أن يحسم المعارك أحيانًا حتى ولو تكلف هذا الكثير من الدماء، احسبها معي

يا أبا البركات وأنت تعرف الحساب، فلو كان ما قمنا به بعد ذلك قد أدَّى لموت عشرة آلاف مصري أو أكثر أو نصف المماليك أو أقل فهذا عدد ضئيل بالنسبة لمن كانوا سيموتون بعد نهاية حرب تستمر سنوات. لا بد من الحسم، في الحقيقة عدد من ماتوا من أهل مصر والمماليك كان كبيرًا، خمسون ألفًا ربما أو أكثر..لا أتذكر، ولكن عدد من ماتوا من العثمانيين كان كبيرًا أيضًا، نصف هذا العدد ربما. على كل حال، أمر السلطان عندما استعاد عافيته أن تنتهي الحرب في ليلة، أمر بوضع المدافع الثقيلة والبنادق على أسطح جوامع المماليك والضرب بها دون توقف حتى تستسلم القاهرة، وقال إنه يريد الذهاب بنفسه إلى مسجد السلطان حسن وضرب المدفع من هناك بيده، وفعلنا، وتوقفت الحرب، واحترقت القاهرة.

شهادة هند (7)

يا عمتي سأحكي لك عن مصيبة الدهر، شوقي إليه كان ممتزجًا بيقين أنه مات أو قتل، وكلما رأيت رأسا مُعَلَّقًا على حبل أنظر إليه وأنا أتوقع أن أراه، هل تفهمين كم قاسيت؟ كنت أريد أن أتكلم معه مرة ربما، أحكي له عن عشق وُلِدَ من ظلمه وطغيانه عليَّ، كنت أريد أن أقبّله قبلة واحدة..اعذريني يا عمتي، أسكب قلبي أمامك لأنك أقرب الناس إليَّ.

خرجت دون أن أخبر أبي، ونظرت حولي إلى دخان النار والجثث المكوَّمة في الحارات، وكأن النار لا تهدأ، وكأن الدخان سيبقى إلى الأبد. كانوا يحاربون بالنار يا عمتي، دكُّوا بلادي دَكًّا، رأيت سيدة تمسك بجثة زوجها وتبكي وترجو جنديًّا أن تأخذها، أرادت أن تحمل الجثة وتدفنها فقط، وكانت جثة زوجها الجندي المملوكي، سمعتها ترجو الجندي وتعطيه خاتمها وتقول: أريد دفنه فقط، لا تتركه في الطريق.

ولكن الجندي أصرَّ على قطع رأسه أولًا؛ فسليم أمر بقطع كل رءوس المماليك الحي منهم والميت. وافقت السيدة وجَرَّت جثة زوجها الناقصة في عناء، كتمتُ فزعي وتقهقرت إلى البيت والقلب يتفتت والأمل ينهار في أن أراه مرَّة أخرى.

في اليوم التالي كانت القاهرة لم تزل مشتعلة يا عمتي، وخرجت مرة أخرى أبحث عن بقايا الجثث أو أطراف الأطفال لألملمها و أعطيها لذويهم، ورأيت ضوء النار الأحمر اللامع يطغى

على شمس السماء وينفخ في الأرض دخانًا
لا قِبَلَ لنا به، وأصبح صوت عدلات يصم أذني ويطغى على كل بيت وكل مسجد. مات من مات ولكن من عاش كان أتعس وأشقى. ارتجف جسدي كله وزاغت عيناي وأنا أدور حول بيتنا، ولم أكن متأكدة من أنني أستطيع المساعدة أو أصلح لها، وكلما تجلَّت لي جثة جديدة انفطر القلب عليه.

بعد عدة أيام جاءنا النبا العظيم، خيانة أخرى وهزيمة مضاعفة، اختبأ سلطاننا طومان باي عند حسن بن مرعي وكان من شيوخ العرب، ولكنه خان العهد وباع سلطاننا إلى سليم..وكأن الخيانة لها مواسم وأيام تتفشى فيها كالوباء. لم يصدق المصريون أن السلطان أسير عند الغريب الغازي، بل يا عمتي وصلني نبأ العثمانيين وانتقامهم، أحرقوا مسجد شيخوالعمري الناصري، ودخلوا على الشيخ في محرابه وذبحوه بلا هوادة، أحرقوا الكثير من المساجد التي اختبأ فيها العامة أو قاوموا منها الغزاة، وسمعت يا عمتي أنهم سجنوا النساء، هل تصدقين؟ سجنوا أرامل المماليك ونساءهم بالذات، وبعضهن تعذَّب في السجن، وبعضهن اضطر لأن يدفع كل ما يملك وأن يعطي الجنود كل ذهبهن من أجل العيش. أيام كلها ليل كاحل لا نجوم تهوي ولا برق ينير ويختفي.

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (6)

النصر دومًا للعادل القوي، والحرب خدعة وعتاد. لا تَلُم المنتصر وتعطف على المهزوم فقط لأنه هُزم؛ فالمماليك ليسوا ملائكة، قتالهم ليس من أجل دين ولا بلد، بل من أجل مال وذهب. أما سلطانهم المسجون فجعلوا منه قدِّيسًا وشهيدًا، لا أدري أحبًّا في الشهداء والقديسين كما هي عادات الأقباط أم سذاجة وجهل، رأيت وشاهدت مقابلته مع سليم شاه، وهذا ما حدث، أرويه لك بكل صدق.

كان طومان باي مكبَّلًا أمام السلطان، نظر إليه سليم ملك الملوك وخليفة المسلمين ثم قال مخاطبًا طومان باي: طلبتُ منك الاستسلام مرَّة ومرتين ولكنك أردت إراقة الدماء.

التقت أعينهما وقال طومان باي في ثبات: أردت الدفاع عن بلادي.

- من الحمق أن تحارب وأنت لستَ أهلًا للحروب.

- بل كنتُ أهلًا لها، ولكنك استعملت النار سلاحًا، ونحن لا نحارب إلا بشرف الفرسان.

قال سليم في تهكم: لا شرف فرسان لدى المماليك يا رجل، ولا شرف فرسان في الحروب، الحرب خدعة وعتاد وقوة، هكذا تعلمنا نحن وأنتم، لو استسلمتَ لي لكنت أعطيتك ولاية مصر.

- هي لي حيًّا وميتًا، وأنا حي كنت سلطانًا ولم أكن واليًا، وأنا ميت أكون شهيدًا وأموت سلطانًا وليس واليًا.

- لا فرق بيننا، أنت جئتها غريبًا وأنا جئتها ملكًا.

- أنا جئتها وطنًا وليس لي سواها، وأنت جئتها لتأخذ خيراتها لوطنك، لسنا متساويين.

- ترد على الكلمة بالكلمة، وأنت لو ندمتَ لعَفَوْتُ عنك.

- ويقولون سلطان المماليك انهزم وطلب الصفح من سليم؟ لن أفعل.

- سيقولون هذا فعلته أم لم تفعله، مصر في حال أفضل تحت حكمي.

- كانت عزَّ الإسلام وقلب العالم، أتريد لها هذا يا ملك أم تريده لبلادك؟

- بل أريده لكل بلاد المسلمين.

وكان دور طومان باي ليبتسم، ثم قال: أنا أُشيِّد وأبني، وأنت جئتَ تهدم وتسطو، من منَّا يستحق حكمها؟ ما شيَّده المماليك سيبقى ليشهد على ما جرى، وما لم يشيِّده العثمانيون وما سرقوه ومن قتلوهم سيكتب عن كل هذا العلماء، هي العمائر يا قائد ما تبقى وتشهد ليس أكثر.

ردَّد سليم حينها: العمائر ما تبقى. جرأتك تجعلني أفكر في طريقة مهينة لموتك حتى تتيقن أن العمائر لا تفيد وقت الحروب.

- كنتُ أوضح لِك يا قائد أن المنتصر من يعمِّر الأرض(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)هكذا قال ربُّ العباد.

- تبنون صُروحًا تخلِّد ملوككم، ثم تظلمون وتبغون في الأرض.

قال طومان باي في حَسْم: لو اتفقنا في نظرتنا لمصر وللحكم لما كانت الحرب وما كانت العداوة، ولكننا يستحيل أن نتفق، لكم حربكم ولي حربي.

ظننتُ أن خليفة المسلمين سيقتله لحظتها، وأقسم إنني رأيت الإعجاب في عيني سليم، وقال في حسم: المحارب الحق يشمُّ رائحة الشجاعة من على بُعد، ويقدر القتال بجسارة، لك إعجابي وتقديري، هذا تستحقه، كما تستحق الموت من أجل عنادك ومقاومتك.

وأشار للحرس فأخرجوه بلا كلمة.

انتهت الحرب، والهزيمة كانت من نصيب المماليك وأضاءت رءوس المماليك القاهرة كالمشكاوات.

ثم عمَّ كرم سليم أرجاء البلاد، وعفا عن المماليك والعامة، وأعطى الأمان لكل أهل مصر، عظمة الملوك تتجلى في أوقات الانتصار، وملكي أعطى الشيوخ وذهب بنفسه إلى الأزهر ليصلي ويسمع ويعطي بركاته للمسجد.

في بعض الأحيان كان يبدو لي أن أهل مصر من مماليك ويهود وأقباط وتجار أروام ومسلمين كلهم سواء، بنفس الشكل والهيئة، وعندما اختبأ المماليك بين الحقول وفي ديارالفلاحين لم يكن يمكن أن تميِّزهم عن العامة، وبغير ملابسهم الزاهية لا فرق بينهم وبين أهل مصر؛ لذا لا تَلُمْ جيشنا، لم يكن له اختيار، ضرب من يهاجمه ولم يفرز المماليك من العامة، فلم يكن هذا ممكنًا، تخفَّى المماليك في زي أهل مصر واحتموا بهم، ولم يتركوا لنا سوى المدافع.

أمَّا السرقات فلن أتكلم عن هذا الأمر؛ لأنه كذب وافتراء، كل الجيوش تحتاج إلى عتاد، وخسارة الحروب لا بد من أن يدفع ثمنها المهزوم..سيدَّعي المماليك أننا سرقنا ذهبًا وفضة

وسرقنا الرخام والأخشاب وحتى أبواب المساجد، وأننا حملنا كنوزًا من مصر..لم نحمل سوى حقِّنا بعد حرب شرسة، ولم نترك مصر مدمرة بل تركناها في يد المماليك كما كانت من قبل، ولكن في تلك المرة تركنا عليها رقيبًا مُتديِّنا يعرف كيف يجمح طمع المماليك.

* * *

شهادة هند (8)

يوم مقتل سلطاننا يا عمتي كان يوم الحزن العظيم، وبكيت في صدر قبطية، ورأيتها وهي ترسم الصليب على صدرها ودموعها تنهمر، كان العيد الأكبر للأقباط، وكانت جمعة مقدَّسة حزينة يموت فيها الأبطال ليحيا العالم وتنتشر فيها الدموع في كل مصر، ويمجد فيها الشهداء. وكان سلطانًا طيفه يبعث الأمل في نقاء النفس وهزيمة الشر ووحدة البشر أجمعين، على ألَّا يخونوا أو يغدروا ولا أن يطمعوا أو يقتلوا، أقسموا يومًا لسلطانهم، ولكن الأيام لا تدوم، ولحظات الوصول تمرُّ كلحظات الرضا، لا خلود لها إلَّا لمن يفوز في النهاية ويترك الدنيا.

شنقوه على باب زويلة ورأيته لأول مرَّة، جميلًا شامخًا بعينين ثابتتين هادئتين، طلب منا أن نقرأ الفاتحة له ثلاث مرات، وكان يعرف مصيره ويتوقعه.

وأمر الرجل أن يقوم بعمله، فرأيته يختنق أمامي، ورأيت روحه تخرج من جسده لتحوم حولنا. وأقسم لك يا عمتي إن النساء رَأَيْنَهُ يهيم فوق السحاب مبتسمًا، وإن ذكراه لم تترك مصر حتى يومنا هذا. علت الصرخات وبدأ النواح وبكى عليه كل أهل مصر، وكنت هناك، وعيناي تبحثان عنه. لعله حَيٌّ، لو كان حيًّا لأتى اليوم. انتهت الحرب وأصدر سليم عفوًا عن كل المماليك والعامة، طلب خفض السلاح والاعتراف بالهزيمة مرَّة أخيرة.

كنت أبحث عنه بين كل أهل مصر، ولم أجده. عُدْتُ إلى بيتي

وقلبي محترق بمدافع العثمانيين، وما إن رآني أبي حتى قال: يوم حزين يا هند..

قلت في مرارة مزدوجة: اليوم حزين يا أبي.

ثم دخلت حجرتي، وأغلقت بابي، وتتذكرين يا عمتي، دخلت عليَّ ساعتها وهَدَّأتني وقلتِ: لا بد أن تنسيه. كانت محنة وانتهت، وكان أول رجل في حياتك؛ لذا ارتبطت به، هي طبيعتنا يا ابنتي، نتشبث بأول من يجرحنا ويغزو البدن والقلب، حتى وإن كان ظالمًا وجائرًا، لا تكرري خطئي، أندم على وحدتي وضعفي، تحتاجين إلى ونيس وليس حبيبًا.

قلت في مرارة: أحتاج إلى الموت.

رَبَّتِّ على يدي وقُلتِ: هذا كلام الجهلاء، تتكلمين كلامًا لا يليق بابنة أبي البركات.

قلتُ والأمل يراودني من جديد: هل تذهبين معي غدًا إلى باب زويلة؟

فقلتِ يا عمتي: لا طاقة لي برؤية جثة السلطان معلقة ثلاثة أيام.

- سأذهب كلَّ يوم.

- لتري السلطان معلقًا بهذه المهانة؟

- لأرى السلطان.

وذهبتُ يا عمتي في اليوم الثاني ولم أره، وفي اليوم الثالث والبكاء لا ينقطع. ودرت حول جثته المعلقة واصطدمت بالكثير، هذا يبكي وهذا يصرخ وهذا ينوح..ووسط كل هؤلاء..رأيته..

كان طويلًا، شامخًا، بكامل ملابس الأمراء اليوم، وكان يحملق في الجثة بعينين لامعتين متحجرتين، لا أدري أهما ممتلئتان بالدموع أم بالمرارة أم بالكره أم بالغيظ. كانت عيناه ثابتتين، تلتصقان بعيني السلطان الميت فقط. نظرت صوب وجهه

وحنيني يقفز من عينيَّ، تمنيت أن يراني، يلاحظ وجودي، بقي ساعة أو أكثر لا ينظر حوله، ولا يتحرك، وكأنه تحوَّل إلى تمثال حجري..ثم رآني..

التقت أعيننا أخيرًا، وكانت عيناي تناديانه، وعيناه اللامعتان لا ترياننى، كأنهما عينان زجاجيتان تخترقان وجهي إلى أفق لا أَصِلُ إليه ولا أدركه، لا تكلَّم ولا ابتسم، ولا صاح في وجهي، ولا بدا عليه أنه يعرفني.

ولم أجرؤ على أن أَنْبِسَ بكلمة، خِفْت ألَّا يجيب، خِفْت أن يتركني ويرحل، خِفْت أن يحطِّم ما تبقى من عمري..

يا عمتي، لا أستطيع أن أصف حسرتي ولا غضبي وأنا أمامه وهو غريب عني، وكأنه لا يعرفني، وكأنه لم يذلني أيامًا ويُكْرِهني على معاشرته، ويتلاعب بي ويخدعني، ثم يتلاعب بي مرَّة أخرى، ويذلني اليوم، ويُكْرِهني على الرحيل..ليتني صرخت في وجهه أو ضربته أمام الجموع.

عندما عدت إلى البيت كانت هزيمتي تتسع وتتمدد حتى تصل إلى حدود البحار، لُمْتُ نفسي، ربما لو استسلمت له، ربما لو بادلته الحب كما أراد لألقى عليَّ السلام على الأقل. ربما لو أخبرته بما أشعر به..لو ولو..

فكرت لحظتها في زوجة السلطان القتيل وهي بين ظلام السجون الآن بعد أن فقدت الزوج والحبيب، يعذبونها من أجل بعض الذهب، وليت الكون يعتدل ببريق ذهب أو بوزن الدنانير.

يومها دخل عليَّ أبي الحجرة وكنت أجلس بلا بكاء وبلا كلمة، أنظر إلى الحائط ولا أرى لونه ولا شكله. قال في رفق: أنت ابنتي المفضلة، تعرفين..هي أيام حزينة، ولكنني أريد أن أطمئن عليك قبل موتي، لا تخذليني.

وكنت أعرف ما يريد، قلت في أسى: لن أخذلك أبدًا.

- تتزوجين من رجل اخترتُه لك من أجل أخلاقه وعلمه.

بقيت صامتة لا أستطيع النطق.

سأل من جديد: هل ستفعلين؟

ثم قال: لو قابلتُ هذا الأمير لكنت قتلته بيدي، لا بد أنه مات مع من ماتوا، هل مات يا هند؟

قلت وأنا أعرف سبب سؤال أبي: لم يمت.

- وكيف عرفتِ؟

- رأيته مع من يودِّع السلطان.

هزَّ رأسه وقال: نمحو الماضي محوًا تامًّا وحسرته وهزيمته، ونبدأ من جديد، من أجلي أنا..

قلت في أسى: أعطني فرصة..أحتاج إلى بعض الوقت..

نظر إليَّ وكأنه يعرف كل ما يدور في خلدي ثم قال: تعلَّمتِ، لا بد أنك فهمتِ الآن وتعلمتِ.

قلت في ترجٍّ: أعطني فرصة، حتى لا أظلم من لا يستحق مني سوى كل خير.

قال في جَدٍّ: حسنًا يا هند.

* * *

كنتِ تخافين عليّ من نفسي، أعرف يا عمتي، وعند خروجي إلى الحديقة وجدت زيادًا أمامي، وكنت أرتدي حجابًا ولكن وجهي كان مكشوفًا، فشعرت بالحرج وهممت بالعودة إلى البيت، ولكنه استوقفني، وقال في أدب: إنْ أعطيتني فرصة أتكلم معك كلمة واحدة، فسأشعر بالامتنان طوال عمري.

نظرت حولي ثم قلت: تفضل.

قال: أرافق والدك وأتعلم منه، أشكر القدر على أنني أُصبتُ في المعارك، وأن والدك رعاني وشدَّ من أزري وقت اليأس، هو

رجل عظيم وحكيم.

قلت وأنا لا أنظر إليه: شكرًا لك.

قال: خوند هند، اسمحي لي..أعرف ما جرى وما قاسيت، واجبنا أن نقف معًا وقت الحروب وأن نتحد كلنا.

نظرت إليه وكان شابًّا جميلًا بحق والخير ينتشر من حوله، وقلت: ولِمَ حاربت مع المماليك؟

- حاربت من أجل بلادي وليس من أجل المماليك، كنت أفضِّل ألَّا أرى انتكاسة رءوس الرجال ونساؤهم يتعرين ويُغتصبن في الحارات، ولكنها أقدار على ما يبدو. نساء مصر أخواتي وحرمتهن وشرفهن شرفي.

وبدا لي عكس سلار في رفقه وأخلاقه، لا اغتصب ولا سرق قلبي وجسدي، ولا ظلم وطغى. قلت في بطء: أنت طيب يا أخي، وأتمنى لك كل خير.

فقال: أتمنى أن تفكري فقط فيما عرضه عليك والدك، أعرف أن الوقت صعب وأن الذكريات مريرة.

أطرقت ثم قلت: يا أخي، يكفي ظلمًا للعباد، لن أظلمك معي وأنت خير الرجال.

بدا محرجًا ثم قال: ما حدث لا يعنيني، خالتك أخبرتني بكل شيء، هذا يزيدني يقينًا بأنك أفضل مَنْ في مصر وأكثرهن طهارة.

ولم أعرف ساعتها كيف للنفس أن تحارب العقل هكذا، وكيف للقلب أن يتحد معها راغبًا في هلاكي! ولم أكن أستطيع.

قلت في صوت خافت: لا تؤاخذني يا أخي، ولكن..

قاطعني مسرعًا: إذا كان قلبك معتمًا فلا بد له من الوقت ليضيء، ولا بد ممَّن يساعدك على رؤية كل شيء، أفهم حزنك وعزوفك.

قلت: قلبي معتم، أنت على صواب، ولكن الضوء في يد إنسان واحد، وبلا ضوء ليس للقلب أن يعطي، اعذرني يا أخي. أريدك سالمًا دومًا مع من تقدر وتحب، تستحق الخير.

ثم رحلت بلا كلمة.

* * *

يا عمتي،هذا العشق فوق احتمالي، لم يعد للعيش طعم في فمي ولا لون، وكنت قد فقدت أمي وبعض إخوتي، وكنت أعرف أن الفقد هو بضاعة هذه الأيام الفانية، وأن فقد رجلٍ ظلمني واستعبدني لا بد أن يفرحني، أليس كذلك؟ ولكنه مَلَكَ القلبَ يا عمتي وغمر كل الحيرة والكره.

كانت يدي تسند ذقني معظم اليوم، ولم أغادر حجرتي سوى لحظات..

كيف اخترقت عيناه وجودي وكأنني لا شيء،كأنني سحاب ينهار مع أول ريح أو يتلاشى ولا يبقى منه سوى الأيام، كيف يمكن أن تبلغ قسوته هذا المدى؟

وكنت أحوم حوله ولم أزل.

وذكريات أيام الذل لا تتركني، تارة أغضب منه وأريد الانتقام، وتارة أفتقده، وأحيانا أتمنى ذراعيه ليلًا. وفوجئت يومًا بزيارة من ست الدار إلى بيتنا، كانت وحيدة ووجهها باهت، وقالت إنها أرادت أن تسأل عني وأن تعرف أخباري، وسألتها عن حال أمها، واعتذرت عن أني لم أزرها، وبقيت معي نصف ساعة على ما أتذكَّر أو أقل. قالت في أسى قبل نهاية الزيارة: أعتقد أن حبيبي قد مات وتركني على هذه الحال.

قلت في عتاب: كان لا بد لك من الحذر، التفريط في شرفك ليس بهذه السهولة.

فقالت وهي تبكي: وماذا أفعل الآن يا هند لو انكشف أمري؟

وضعتُ يدي على فمي في فزع وقد فهمتُ قصدها، وبدا لي أنها حامل في شهرها الرابع على الأقل. قالت في أسى: هل يمكن أن تساعديني؟

قلت في دهشة: أساعدك! كيف؟

- لا أدري، ولكن سينكشف أمري بعد أيام وسيموت أبي من الفضيحة.

سكتت ثواني ثم قالت: تعرفين كم فتاة اغتصبها الجنود، أليس كذلك؟ الكثيرات..هي حرب وفي الحرب النساء مستباحات.

قلت في غضب: ستدَّعي أن الجنود العثمانيين اغتصبوك؟

- كانوا سيغتصبونني بالتأكيد لو وجدوني، فعلوا هذا مع غيري، أنا لا أكذب.

قلت في إصرار: فعلوا هذا مع غيرك، نعم ولكن ليس معك.

نظرت إليَّ في تحدٍّ ثم قالت: جئتك لتساعديني؛ لأنني تصوَّرت أنك تحملين لنا جميل حمايتك، تتذكرين كيف كان أبي رءوفًا بك؟

قلت: لِمَ لم تطلبي مساعدة الأمير سلار؟ أليس صديق عائلتك؟

ارتجفت وقالت: لو عرف لذبحني. هل جننت؟

قلت في مرارة: لم أكن أعرف أنه يبالي بشرف البنات إلى هذا الحد..ويخاف على أعراضهن.

- أنت غاضبة منه يا هند؟

قلت في غيظ: ولِمَ أغضب منه؟ لا شيء يربطنا.

ساد الصمت فقامت ست الدار في تكاسل وخرجت من حجرتي.

زفرتُ في غيظ من حمقها ومن مصيبتي أنا؛ فمصيبتي ليست في طفل في الأحشاء، ولكن في شيطان لا يترك القلب ولا يرحمه، كدت أفقد عقلي حينها، كيف..كيف لم يرني وهو ينظر إليَّ؟ كيف لم أترك أيَّ أثر في قلبه.

ألحَّ أبي في طلب زياد، وقال إن زيادًا لن ينتظر إلى الأبد، وترقرت الدموع في عينيَّ وقلت: لا أريد أن أظلمه يا أبي، لا أصلح له.

أطال أبي نظره إليَّ ثم قال: لماذا؟

قلت في صدق: قلبي ممزَّق وعقلي تائه، لا أستطيع النهوض بعد أن هويت إلى هذه البئر.

- لا أفهم كلماتك، طلبت منك التفكير.

- أقسم لك إنني كنت سأتزوجه، لو لم يكن في هذا ظلم له، ولا طاقة لي بظلم أحد.

خرج أبي غاضبًا يومها، ولم أكن أعرف ما أصابني، مسٌّ من الجِنِّ ربما أو من الشيطان.

لم أنم ليلتها، أخذت أتقلَّب يمينًا ويسارًا، ومع بزوغ الفجر سمعت صوت أخي يوقظني ويهمس: ينتظرك بالخارج يا هند..هند..

وكنت أعرف مزاحه ولا أحتاج إليه الآن..فقلت: اتركني لحالي.

قال من جديد: حسام الدين..ينتظرك أمام الباب الخلفي..

أمسكت بقلبي، وكدت أنكفئ على وجهي، ارتديت ردائي، وجريت بأقصى سرعة للباب الخلفي..

نظرت حولي فلم أجد أحدًا، صحت: ما هذا المزاح! إيَّاك يا شمس أن تمزح معي مرَّة أخرى..!

تسلَّل من خلفي وكتم فمي وحملني على حصانه وتلاشى،

وكأنني أحلم حُلمًا جميلًا لا بد ألَّا ينتهي؛ فهو بين أضلعي لن يتزحزح، توقف في الصحراء وأنزلني بلا كلمة.

كان سلار اليوم وليس حسام الدين، لم يكن يرتدي ملابس الأمراء، ولكن عينيه كانتا عيني محارب، وسيفه كان واضحًا على ردائه، يرهب من يعتدي.

نظر حوله ثم قال: كيف حالك؟

لم أجب، كنتُ أملأ عينيَّ منه، وأتمنى أن يبقى أمامي إلى الأبد، أريد فقط أن أنظر إليه وأعرف أنه بخير وأنه حولي ومعي.

أطال نظره إليَّ ثم قال: هند..

عضضت على شفتي ثم قلت في مرارة: لستُ بخير..لن أكون بخير أبدًا.

أدار عينيه عني ثم قال: هي أزمنة تزداد فيها العتمة من حولنا، هي أيام ستمرُّ، كل الأيام تمرُّ، لا مصيبة تضاهي الهزيمة..

ثم نظر إليَّ من جديد وعيناي تشتاقان وتناديان وقال: أبقي جزءًا من قلبك صغيرًا يتذكر ما كان ثم استمري..

قلت في غضب: لماذا جئت؟ ظننتك نسيتني..هي أيام ستمرُّ..هكذا قلتَ..

قال في حنان وهو يمدُّ يده: لِمَ الغضب اليوم؟ أعطني يدك..

نظرت حولي برهة ثم مددت يدي وأغلقتها على يده في قوة فقال: جئت أسألك سؤالًا حيَّرني.

- اسأل يا أمير.

- لِمَ لم ترحلي إلى والدك في غيابي؟ كان يمكن أن تمشي إلى بيتك في أقل من نصف يوم، ولكنك بقيت في بيتي حتى عدتُ من الريدانية، لماذا؟

قلت في بطء: لنفس السبب الذي جعلك تنتظر حتى تعود من الريدانية قبل أن توصلني إلى بيت أبي. لِمَ لَمْ توصلني إلى بيت أبي قبل الحرب يا أمير؟ كنتَ تطمع في النصر..وماذا كنت ستفعل بي لو انتصرت؟

قال في شيء من الألم: هذا ماض..اليوم جئْت أيضا أشرح لك بعض الأشياء، لعلها اختلطت عليك. تعرفين مصير زوجات الأمراء والمماليك الآن؟ حتى أرملة السلطان يُعَذِّبها في سجن مظلم همجٌ لا يطمعون إلا في ذهبها. هذا زمن لا يفرِّق بين المَلِك والعبد ولا بين الطيِّب والشرير، زمن النهم والسرقة.. أيُّ زوجة لأمير مملوكي مصيرها مظلم اليوم..مستحيل..

قلت في حسرة: ما المستحيل؟ أن تتزوجني؟

قال في صرامة وهو يزيد قبضته على يدي: أن أتزوجك.

قلت وأنا لا أحاول فهم كلماته: ما الانتصار في هزيمتي؟ أجئت تبعث الحياة في شوق بائس أم تقتل ما تبقى من قلب مكلوم؟

اقترب مني وهمس في رقة: جئت أراك..

- لماذا؟

- في لحظات المجازفة يحتاج الجندي إلى أن يُبقِي على سكينته، ووجهك هو سكني وطمأنينتي.

همست ساعتها في صوت باكٍ: كنت تبحث عن الخائن يا أمير، كنت تغوص في القلوب؛ لتتأكد من النوايا. تعرف، أليس كذلك؟

فقال بعد برهة: أعرف.

- تعرف حشايا قلبي وما يمرُّ به؟ سأتحمل من أجلك..سأصبر..لو وعدتني أن تعود..لو..أعطيني بعض الأمل..

قال وهو يُقرِّب يدي من فمه ويبقيها على شفتيه: ظلمتك

مرَّة ربما..لا أستطيع أن أظلمك مرَّة أخرى..حتى أنانيتي لها حدود، لو تعلمين...

قلت وأنا أمسك بيده في قوة: الظلم الفادح لا يحدث سوى مرَّة، ولا يستقيم كون بعده، هي ضربة مدفع يا أمير حرقت ودهست فلم يتبقَّ ما يمكن إنقاذه ولا ما يمكن تدميره.

جذبني إليه واحتضنني، اتجهت برأسي إلى صدره، ووضعت أذني على قلبه لعلي أجد ما أبحث عنه، وقلت: هي أيام الهزيمة والنسيان، مصر تتلقى ضربات النار بلا صرخة واحدة، وأنا أموت كل يوم، بلا صرخة واحدة، لا لوم ينفع ولاعتاب.

قبَّلت موضع قلبه، فضمَّني أكثر في قوة لا قبل لي بها، حتى ظننت أن أضلعي مُزِّقت واحترقت هي أيضًا ولم أبال. أحطتُ ظهره وهمست باسمه مرتين، مرَّة قلت حسام، ومرة قلت سلار، ثم قلت: لم تجب يا أمير، سأسأل من جديد، ما السعادة في عذابي وما الانتصار في هزيمتي؟ جئت لتغمر كل أيامي وتغرق ما تبقى من نفسي ثم ترحل؟

- بل جئت لأشرح لك لعلك تفهمين يومًا، زواجي منك اليوم أو أمس كان سيعذبك بيد من لا يفهم ولا يرحم. أنت محاربة يا هند ومنتصرة دومًا، لا نار تدمرك ولا سيوف ترهبك.

قلت في مرارة وأنا أقبل صدره: لو كانت السيوف والمدافع ما أحارب لتحمَّلتُ، ولكنك قبضت على الروح فلا انتصار لي.

قبَّل وجنتي وأذني وهمس فيها: اشتقت إليك.

- ومن أكون أمام الأميرات وبنات الولاة؟ شوقي يا أمير ممزوج بالشكِّ واليأس، هذا شوق ينخر في الروح كل الوقت.

- هناك روح تعجز عجز أيوب بعد أن مسَّه الضُّرُّ، ولكن بلا يقينه في النجاة، فصاحبها ليس نبيًّا، كنت تقولين الروح هزيمتها لا رجعة فيها، قلت هذا للتو.

- الحرب انتهت، نبدأ معًا من جديد..

قال في مرارة: لم تنتهِ بالنسبة لي، في نهايتها فنائي، لذا جئت إليك.

انقبضت نفسي وعمَّ الظلام على القلب، وقلت: هناك الكثير الذي أريد أن أقوله لك.

حَكَّ لحيته بشعري وقال: أعرف كل شيء.

- اترك لي الاختيار مرَّة واحدة..

قال في حسم: لا تسألي عني ولا تبحثي في أمري، انتهى كل شيء، لو اعتدل الزمان لبقيتُ معك كل الوقت، كل العمر...

ثم قبَّل يدي في قوة وتركني وقال: تزوَّجي وانسي وانزعي من الأيام سعادة تبخل عليك بها، فلا بد من انتزاعها يا هند.

ثم حملني على فرسه وأعادني إلى بيتي، واختفى من أمامي كالعمر والنفس والروح.

شهادة سلار (7)

ما حدث بعد ذلك لا بد أن تكتب عنه يا أبا البركات، بعد مقتل سلطان مصر الأخير فلا سلطان بعده، ولا ملك في شموخه سيأتي يومًا، بعد أن قُتِل وعُلِّقت جثته أمامنا نحن رجاله ثلاثة أيام كان لا بد من الانتقام أو الموت؛ فالخِزْي بالنسبة للرجل كالإخصاء، الموت أرحم منه وأكرم، سليم شاه أصدر عفوًا عامًّا عن المماليك وعن العامة، ليس رحمة وعطفًا، وإنما تَشَفٍّ وطغيان، فهو جندي ويعرف معنى الخسارة وعجزها، انتهت الحرب لصالحه بالنار وليس بالقوة، والحرب مناسك وطقوس بالنسبة لنا، ولها أخلاق وأعراف لا يُقتل فيها من أعطيناه الأمان، ولا يُحرق فيها جوامع وبيوت، عرف أهل مصر..عرفوا وأيقنوا من لهم ومن منهم.

لا يا أبا البركات، لم نقبل بالهزيمة، ولم نَنْسَ قَسَمَنا نحن الثلاثة، أقسمنا أن نقتل سليم شاه ثم الخائن، وخطَّطنا نحن الثلاثة عملية نعرف أننا لن نخرج منها أحياء، وكانت الخطة أن يجد إينال طريقه إلى معسكر سليم بلا سلاح وفي هيئة ساقٍ موثوق به، أما أنا والعادلي فكان دورنا أن ننتظر حتى ينتقل سليم إلى مقياس النيل مع معسكره ثم نسبح في النهر وندخل من أسفل المقياس إلى مكان سليم، وبينما إينال يقدِّم الماء والخمر إلى الجنود، نذبح نحن بعضهم وندخل ونقتل سليم شاه، أو يقتله أحدنا، كنا ثلاثة..وكان القَسَم هو أن من

يقع منَّا في يد العثمانيين فلن يتخلى عنه رفاقه أبدًا مهما كان الثمن. كان الاتفاق هو أن من يقع في يد العثمانيين فلن يعذب سنين، ولن تقطع أطرافه ولن تشق بطنه نصفين، بل سيُقتل في الحال، وسيقتله أحدنا رحمة وإخلاصًا لصداقة دامت سنوات وعشرة عمر بيننا.

كنت أعرف أنني سأموت حتمًا، ولم أكن أريد لهند أن ترتبط بي، ولا أن يقترن اسمها باسم سلار أبدًا. وسارت الخطة على أكمل وجه، وأَلْهَى إينال الحراس، وسبحت أنا والعادلي ومعنا أسلحتنا، ودخلت أنا أولًا وصارعت الحارس وقتلته، ثم اتجهت للحارس الثاني والثالث..وبدا الهدف سهلًا وبسيطًا، فجرينا أنا والعادلي إلى سليم وسمعنا صرخته، ورأينا وجهه المفزوع، ولكن أحد الحراس طعن إينال في ذراعه وأمسك به، ثم أيقظت الصرخات حارسًا ثانيًا وثالثًا..فقال لي العادلي في قوة: اهرب..غُصْ في الماء بسرعة..

ثم غطس في الماء، وقبل أن أغطس وراءه كان سهمي قد اتجه إلى قلب إينال، وسهم آخر اتجه إلى سليم، ولكنه أصاب حارسًا كان يفتديه، غطست وسمعت صوت طلقات البنادق وصوت سليم وهو يأمر بأن يضرب علينا الحرس النار في المياه، أصابتني البندقية في قدمي، واستمررنا في السباحة، وغصنا برهة واختبأنا بين ورد النيل بعض الوقت.

نظرت إلى وجه العادلي وهو يلهث والمياه تتساقط من فمه وعينيه ثم قلت: لم يصب السهم السلطان.

ردَّد وهو يلهث: لم يصبه، هل قتلت إينال؟

قلت: نعم.

بدا عليه الارتياح ثم قال: لا بد أن نختفي عن الأنظار لو نجونا، ولا نلتقى أبدًا حتى انتهاء الغُمَّة أو فنائنا.

فكرت لحظتها في العودة إلى خيمة سليم، ورأيت في مخيلتي أنني أنقض عليه وأخنقه، ثم يقتلني الحراس بعد أن يموت. كنت أخنقه ولا أقتله بالسيف.

قال العادلي وهو يرفع يده ليسبح بعيدًا: هذا اكتمال للهزيمة، حاول أن تعيش..لو استطعت.

رأيت النيران تلطم أمواج النهر ثم تهدأ وتتلاشى، وشعرت برجَّة الرصاص، وانتفاض المياه من حولي، وامتصَّ الظلام النيران وصيحات البنادق، ومحا كل ما كان وما قد جرى.

دوَّت الكلمات في أذنيَّ وغشَى الخيال عينيَّ وطمس الطريق، وكنت أرى يديَّ حول عنق سليم، رأيت في الأفق الجنود تلقي بجثة إينال إلى النهر، لو سبحت وعدت إلى سليم..لِمَ الهرب ولا نجاة من الموت، وموت البدن نعمة وراحة وإنقاذ؟ وكنت أعرف أنني فقدت عقلي لحظات ربما، وأن قتل سليم الآن مستحيل استحالة النصر، وأن استعادة لحظات الوصول مستحيلة، عندما التحم العامة والمماليك وارتدى المماليك أردية الفلاحين، وأمسك العامة بسيوف المماليك، وتلاشى الظلم والغضب والغرور، وانتصرنا لحظتها ولو إلى حين. الهزيمة بعد انتصار كهذا تكون بوقع أقسى وبوزن الأفيال وأفراس النهر.

ثم هربنا أنا والعادلي.

أصيبت قدمي اليسرى يومها وقتلت صديقي بيدي، وهذا أراح النفس وهدَّأ من روعها، وازداد الحزن وتضاعف، وأصبحت كل جُمعاتي حزينة منذ ذلك اليوم، تلاشى الأمل واكتملت الهزيمة.

هربت إلى الجبل، وقصدت العارف بالله أبا السعود الجارحي ..مكثت عنده ولم يتكلم معي في البداية، تركني أشاركه

مكان مبيته بلا كلمة، وعندما سألته بعد يوم لو كان وجِودي يضايقه قال في هدوئه: هي كلها أماكن الله، كيف لي أن أَضْجَر وهذا ليس ملكي؟ وهي أماكن وأشياء نقتنع أنها لنا ثم نموت ونتركها، أو يخطفها عدو أحمق فَرِح بفوز لا يدوم، ومتاع الدنيا يبدو قريبًا وهو بعيد، لا يمكن القبض ولا السيطرة عليه..ابْقَ يا بني في أيِّ مكان..فأنا وأنت نقترض من الله.

صليت وراء الشيخ، ثم جلست أمامه بوجه كله غَمٌّ، وسأصدقك القول، بكيت ربما لأول مرة، بلا خجل ولا شعور بالمهانة. الشيخ الجارحي ليس ككل البشر، تطهرت نفسه واجتازت تفاصيل الحياة الفانية التي لا تطعم من جوع ولا تروي من عطش.

ربت على كتفي ولم يتكلم، كان هناك الكثير بداخلي، الهزيمة كانت لي أنا فقط أو هكذا أيقنت، والخائن فاز بها، والقائد الطامع عاد منتصرًا، حتى العمائر نهبوها، لو استطاعوا حمل صخور الأهرام لفعلوا.

قال في رفق بعد برهة: لو أيقنت أن الدنيا لعب ولهو لما بكيتَ، ولو عرفتَ أنها متاع الغرور لاجتزتَ غمَّك لما هو أرقى وأهم. يا بني، الحروب لعبة بيد الرجال، من انتصر ومن انهزم يعد إلى مكانه، وينفضُّ اللعب بعد حين، ولا انتصار ينفع ولا غنائم تشفع. ألم تعلم أنك ميت وأنهم ميتون؟ تعالَ إليَّ بعد حين من الزمن نتكلم من جديد، كنتَ تود قتل الخائن والطامع ولم تستطع؟ سيطر عليك الجندي بداخلك وليس الخطاط الذي يتأمل كلمات الله. تذكَّر وافهم ثم أَيقِن واعبُر إلى البر الآخر. إن لم تقتل الخائن فسيموت، وإنْ لم تقتل الطامع فسيموت، وعندما يأتي اليوم لن ينفع نصر وأرض ومال، هي رائعة هذه الأرض التي تدافع عنها وباقية، ولكننا نحن زائلون.

- هزيمتي تأكل النفس ولا تترك فيها مكانًا لم يشوه، كأنها جُذام لا يترك الأطراف.

فقال الشيخ: فعلتَ ما فعلتَ بقلب سليم، توقف وابدأ من جديد، فهذه اللعبة انتهت، وانفض اللاعبون كلٌّ إلى بيته، توقف وابدأ من جديد، في البدء انتصار، وفي اجتياز الهزيمة بعزم وصبر خزي للعدو والمعتدي.

قلت في هدوء وقد توقفت عن البكاء: هي نقطة البدء التي تحيِّرني، فلا أستطيع العمل مع أولاد عثمان، لا أستطيع أن أدعو لسلطانهم وآكل على موائدهم، ولا أستطيع الموت مثل إينال وترك الفوضى من حولي، وليتني أستطيع أن أكون شيئًا آخر سوى جندي، لو توقفت عن ركوب الخيل والمبارزة تغلي عروقي وتثور، لست مأجورا عند العثمانيين، ولست من العامة ولا الحرفيين ولا العلماء.

ابتسم الشيخ ثم قال: لم تجتز النهر بعد، تفكِّر في نفسك وملء فراغ القلب ولم تتعدَّ الدنيا، اجتزْ نهر النفس إلى اكتفاء الروح تصل.

- لا أملك قُوَّتك للتنحي عن كل الدنيا.

- جاهد نفسك ولا تدلِّلها، ليس لنفسك أن تملي عليك من تكون، لا تجعلها هي الأقوى؛ فهي ضعيفة، بها الفجور قبل التقوى.

- وكيف لي أن أفعل هذا؟

ابتسم من جديد ثم قال: لا تسألني عمَّا لا طاقة لي به، ولا تذكِّرني بعجز العقل وحدوده الضيقة، تحتاج إلى الوقت، فالجهاد بالسيف سهل وسريع، أما جهاد النفس فرحلة شاقة واجتياز وتضحية.

* * *

كان العارف بالله الجارحي يتركني أيامًا بلا كلمة، يتأمل ويقرأ، ولا يأكل إلَّا القليل، وأحيانا يخرج في الخلاء ولا يعود إلا بعد يوم أو اثنين، وكنت أتذكر أيامًا قد خلت، كانت الدنيا بين ذراعيَّ، وساقاي تمتدان لتصلا إلى السحاب، كنا ثلاثة، نضحك معًا ونلهو كثيرًا، ولا نفكر حينها في موت أو فناء، كانت الساعات شاهدًا على عبثنا وثقتنا وغفلة القوة وغواية السلاح، كنا نخرج معًا نحن الثلاثة في رحلات صيد، نصادق الوحشة ونتكلم عمَّا هو آت، نقتنص الفرص وننقض على الحيوانات، ونحارب السحاب وننتصر عليه.

كان العالم كله طوع رغباتنا، وكل ما فيه بضاعة وقمح نشتريه ونبيعه ونوزعه على الأصدقاء، كنا نعود من رحلات الصيد بالغنيمة، ثم نذهب إلى مجالس السهر ونستمع إلى الأغاني ونستمتع بالرقصات، ونختار من بين النساء مَنْ نشتهي يومًا أو ثلاثة ثم نستبدلهن ونشتري بضاعة طازجة جذابة تنادي المارة. في لحظات الغفلة اقتنينا الدنيا ولم ندرك أنها لا تحب الأسر، تسرَّبت من بين أيدينا ونحن لا نسمع ولا نرى، ثم انتقمت ودكَّت الرأس دكًّا وفتتت الثقة والقدرة.

بعد عدة أيام اقترب الشيخ ونظر إلى قدمِي ثم قال: تهملها ولا تداويها، لا بد من البتر.

نظرت إليه وكلماته لا تدهشني، ثم قلت: الجرح حطَّم عظام القدم في الحال، لا أمل في جروح النار، تدمِّر وتتوغل.

قال في تأمل: يا بني، عندما تدمر وتتوغل فلا بد من البتر، وإلَّا ستموت، تلوُّث الجرح يُسمِّم الجسم كله.

قلت في حسم: أعرف.

- وإذا كنت تعرف فلِمَ لم تفعل شيئًا؟ ترى أتظن أن البتر يقتل عذاب النفس وينسي الهزيمة؟، إنه بتر في قدمك وليس في

عقلك وقلبك، تعرف هذا؟
- أعرف هذا.
- كبرياؤك لا تتقبل الهزيمة.
- لم تكن بيدي، حاولت.
- خدعتك نفسك وصوَّرت لك أنك قادر ولم تَع عجزها ولا ضعفها، هي أقدار قلت لك، لا يخرج منها مهزومًا إلا من خسر نفسه.
أمسك بالسكين حينها في تأنٍّ ووضعه على النار وبتر قدمي من الكاحل، ثم كوى العروق وأغلق الجرح. لم أصرخ، ولكنني شعرت بحبل من مَسَد يخنق عنقي، فشهقت لعل الأنفاس تنتظم، ونفخت كل الهواء من رئتيَّ لعل هواءً جديدًا يشرح صدري، شهقت والكي يطبق على صدري، ونفخت حين غاص السكين في لحمي، ولا أتذكر كيف تحمَّلت الألم، فحينها أفقدتني الهزيمة عقلي كالخمر المسموم. استلقيت على ظهري وأنا أحملق في الأفق، وأفكر في هذا الشيخ الذي أمسك بالسكين في رهبة وكأنه ينوي قطع رقبة السلطان أمام حراسه، لا بد أنه لم يبتر قط ولم يقتل ولم يذبح، ارتجفت يده ولم تتقن ولم تحترف، كان يقرأ الآيات ويطلب مني الصبر، وكان عقلي بعيدًا يتذكر نظرات أمي الثابتة..أمي..لا أتذكرها كثيرًا.
نظر إلى عينيَّ ثم قال: هل كنت تريد الموت يا بني؟ أتركت الجرح يتلوث من أجل غرض في نفسك؟
قلت وأنا لم أزل أنظر إلى الأفق: تتأمل كثيرًا يا شيخ ولا تتقن البتر، تسأل بعد أن تأكدت من سلامتي عن خبايا نفسي التى لم أصل إليها.
ربت على كتفي وقال: تحمَّلت كل الآلام بلا صرخة واحدة،

اصبر واحتسب، هي النفوس الأبية التي تعاني من ذل الدنيا وفوز الطامع ولكنها لا تستسلم، حتى بعد انتهاء المعركة تدرك معنى الفوز الأعظم وشراء النفس ابتغاء مرضاة الله.

ابتسمت في مرارة ثم قلت: كم نفسًا قتلت؟

قال في فزع: وهل قتل النفس شيء هَيِّن؟! لو قتلت نفسًا فأنا أقتل نفسي وبضعة مني، فقد خلقنا الحقُّ من نفس واحدة.

قلت حينها: هي أقدار مكتوبة، لم تقتل قط ولم تبتر، لو تعلمتَ البتر يا شيخ لأغنيتني عن كل الآلام، ولكنك لا تتقنه.

- اعذرني يا بني، لم أقصد إيذاءك.

- لا ألومك يا شيخ، لك إدراك يفوق إدراك البشر، تعرف ما أقصد.

التقت أعيننا، فقال في حزن: أتمنى أن أكون مخطئا في فهمي.

جهَّز لي الطعام ثم قال: بعد أن تأكل صلِّ..وادعوه..ربما تنفعك الذكرى..

نظرت إليه ثم قلت: ستؤم بي الصلاة؟

ابتسم ساعتها وقال: هناك صلاة لبعث الاطمئنان، وهناك صلاة لبعث الحياة في النفس، في صلاة كالأخيرة لا بد أن تصلي وحدك؛ فرحلة الالتئام بينك وبينه، هو من يشفي ويرحم ويهيمن، لا إمام يشفع ولا جماعة تساعدك، تحتاج هيمنته على النفس الجامحة وظلال رحمته على الروح اليائسة.

هززت رأسي بالإيجاب ونظرت إلى بقايا قدمي المبتورة وأنا أراها رءوس المماليك المعلقَّة على أبواب سليم.

لو كنت قتلت سليم شاه قبل أن أقتل إينال! لو فكرت لحظتها فيما جئت من أجله وضحيت بالفارس؟ وربما كان سينجو

سليم ويتعذب إينال، من يدري؟ صلّيتُ يومها وأبقيت رأسي على الأرض ورائحة التراب تبعث الحياة في العقل المحتضر.

تذكرت يومها..ثلاثة أطفال، أحدهم كان يبكي بلا توقف وينادي على أمه ويسبُّ من باعه ومن غَيَّرَ مصيره، وهذا كان إينال، وأحدهم تسمَّر مكانه لحظة البيع وكنتُ أنا. تريد أن تعرف يا أبا البركات لتكتب في كتابك؟ سأحكي لك عن طفل لم ينتزعوه من صدر أمه ولم يجرِ من تجار الرقيق، سأحكي لك عن طفل استيقظت أمه في الصباح وساعدته على ارتداء أفضل الملابس وصففت شعره، وقالت وهي تنظر حولها: ماذا ترى؟

قلت بلا إرادة: بيتنا.

قالت في صوت ثابت: بل جُحْر يعاف الفأر أن يحيا به.

لم أفهم، كنت أرى السقف رثًّا وعاليًا وبعيدًا، ولم أرَ أبي ولم أقابله، اختفى على ما يبدو قبل ولادتي، رأيت إخوة وأخوات، الكثير منهم. أمسكتْ أمي بيدي وقالت في حماس بصوت لا يترك أذنيَّ: أنت ستنام على الحرير وتصبح أميرًا كأمراء مصر، أنت ستنجو وتسعد.

لم أفهم ما تعني ولم أكن أعرف أين مصر.

لم تترك يدي طوال الطريق، وكلما حاولتُ أن أزيح يدها أمسكت بي في قوة. عند وصولنا السوق فتحت يدها اليسرى، وكانت يدًا كبيرة بأصابع قوية وأظافر ممتلئة بالطين الذي تتعامل معه كل يوم. وضع الرجل صُرَّة من الأموال في يدها، أخذتها والتفتت إليَّ وقالت: اذهب معه، لا تبحث عنَّا ولا تغضب مني؛ فأنت لا تعرف.

لم أبك لحظتها، انهار السقف العالي فوق رأسي ورُجَّت الأرض رجًّا، وقلت وهي تتلاشى من أمامي: أمي!

صاحت في وجهي وأدارت عينيها: لا تنظر إليَّ ولا تبكِ.

ثم جرت من أمامي ولطالما تخيلتها تبكي وتندم وتفتقدني، ولم أخبر إينال ولا قانصوه العادلي قط أنني لم يخطفني تجار العبيد مثلهم بل باعتني أمي، لا بد أنها اختارتني لأنني الأقوى والأجدر بأن أكون أميرًا، لا بد أنها فكرت فيَّ وفي مستقبلي وحياتي، ضحَّت من أجلي وحرمت نفسها من قُرَّة عينها، ولم يزل فؤادها خاويًا. أحيانا كان يساورني الشك بأنها لم تكن تريدني أنا بالذات، وأنني فعلت ما أغضبها غضبًا عظيمًا، ولكن الشك كان يترك القلب ولا يسيطر إلا في لحظات كهذه، عندما تتجسد الهزيمة ويسطع ضوء العجز.

شعرت به بعد حين، بعد يوم أو اثنين أو ثلاثة، كان يربت على رأسي ويقول: زالت الحُمَّى.

أدرت رأسي وقلت والعرق يتصبَّب من جبهتي: كم مَرَّ؟

قال: يومان، كنتَ تتكلم بالتركية، أتتقنها؟

- أتقنها. كلنا نتقنها.

- كنت تنادي على شخص بعينه، في لحظات الحمى يا بني يتجلَّى الصدق ونتذكر من أغرقنا ظلمًا أو أغرقنا عشقًا، كلاهما يبقى في الذاكرة. لو أيقنتَ أن عشقه هو باق وكل عشق دونه فان، تصل إلى السكينة.

لم أجب. ولم أتذكر على من كنتُ أنادي.

كان الشيخ الجارحي يردد أشعار الإمام الشافعي بصوت رخيم، وكنت أردد معه بلا فهم أحيانًا وبمحاولة للفهم أحيانًا أخرى، وباستيعاب لا قِبَلَ لي به كثيرًا..

«دعِ الأيـامَ تفعلُ مـا تشـاءُ وطِبْ نفسًا إذا حَكمَ القضـاءُ

ولا تجـزعْ لحادثـــةِ الليـــالي فمـا لحـوادثِ

الدُّنيا بَقاءُ»

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (7)

رحمة ملك الملوك من سماته، وهو عظيم دومًا. تعرف يا أبا البركات أن بعض الأمراء الغاضبين بعد مقتل سلطانهم المهزوم حاولوا قتل ملك الملوك، لا بد أنك سمعت عن هذا الحدث العظيم، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من قتله، بل لم أر ملك الملوك مفزوعًا كما رأيته في ذلك اليوم. لعن الله الخيانة وكل من يتقنها، لا دين لهم ولا وطن هؤلاء المماليك ولا ولاء ولا عقل لو تعلم، ولا بد أن الغفلة من الأمراض المتفشية المعدية، فقد أصابت كل أهل مصر فاحتاجوا إلى من يبصرهم ويعلمهم، بعد أن صاروا زمنًا لا يفقهون ولا يميزون الخبيث من الطيب. لم نعرف قط من تجرَّأ على هذا الجرم، مات أحد المماليك قبل أن يتكلم، ولم يتمكن خاير بك من معرفة الجاني، ولكنه كان يأتي بأمراء المماليك ليقفوا بين يدي ملك الملوك ويعلنوا ولاءهم، وكان ملك الملوك يعفو عنهم. عفا عن الكثير، وكان منهم أمير يدعى قانصوه العادلي، أتى به خاير بك بين يدي الخليفة، وكان قد اختبأ في الصعيد على ما أتذكر عند بعض الأعراب، تشفَّع له خاير بك عند ملك الملوك، ولأصدقك القول يا أبا البركات لم أكُنْ أُكِنُّ الكثير من الاحترام لخاير بك، كان يذكرني بثعابين الصحراء التي رأيناها في طريقنا إلى مصر، وطريقته الملتوية كانت مختلفة عن طريقتي أنا في الحرب والسلم؛

فقد كنت أحب الصدق والمصارحة مع العدو والصديق، لا أعرف ما الذي جعل خاير بك يهتم بأمر هذا الأمير بالذات، ولكني فهمت أنه يُرتِّب له ولاية أو منصبًا.

طلب ملك الملوك أن يأتي قانصوه العادلي أمامه طالبًا المغفرة عمَّا فعله وقت المقاومة وحرب القاهرة، وإلا شقَّه وخوزقه ثم قتل كل عائلته أمامه قبل أن يحوم به في طرقات القاهرة. وسمعت أن خاير بك تكلم مع قانصوه العادلي يومًا أو نصف يوم، ثم أمره بحلق لحيته؛ لأن اللحيه تذكِّر سليم شاه بالمماليك، وأمره أن يقسم ولاءه لسليم شاه. وكنت موجودًا ورأيت قانصوه العادلي، وكان أميرًا قويًّا على ما أعتقد، دخل مع خاير بك، وبعد السلام قال قانصوه العادلي: كنتُ على ضلال وجئت أطلب المغفرة والعفو.

حينها فكر سليم ثم قال: قتلك يردع، ولكن للنصر طعمًا عذبًا في فمي لا أريد أن أعكره، وفي حياتك انتصار لو أقسمت ولاءك وعملت معي أنت وجنودك.

قال العادلي: أفعلُ على الفور.

- ترحل معي إلى الآستانة؟

ساد الصمت فقال خاير بك: بل يبقى هنا ويساعدنا يا مولاي، في وجوده انتصار لك لا تعرف حجمه، أنا أعرفه، وفي عفوك عنه مثال لأمراء المماليك الجاحدين، سيقولون يا خليفة المسلمين إن العادلي الثائر طلب عفو الخليفة ومكث بين يديه وقبَّلهما، لا مقاومة بعد هذا اليوم.

قال سليم بعد برهة: لك إقطاعية وجنود..أليس كذلك؟

- هي طوع أمرك يا مولاي.

- تبقى طوع أمري، ونصف إيرادها يذهب إلى الجنود الإنكشارية لمدة عشر سنوات، تقسم على ذلك.

- أقسم.

وحينها انحنى العادلي وقبَّل يد سليم، ورأيت عينيه الجاحدتين ووجهه العابس والكره الكامن في الأعماق، لا وفاء لهم هؤلاء الأمراء. وسرت معه هو وخاير بك إلى باب القصر، وسمعت خاير بك وهو يقول له: أنقذتُ حياتك اليوم.

فقال العادلي في امتنان: أعرف.

- كانت هناك محاولة لقتل ملك الملوك، هل تعرف عنها شيئًا؟

- أقسم لك لا أعرف عنها أيَّ شيء.

رأيت الحقد في عيني العادلي وهو يخرج من عند سلطاننا وقد أنقذ حياته ولا امتنان في قلبه. اكتب هذا في كتابك يا أبا البركات، لا امتنان في قلوب العبيد مهما فعلت معهم.

* * *

شهادة سلار (8)

بعد بعض الوقت عدت إلى القاهرة أبحث عن العادلي وأتقصَّى أخباره، وعرفت أن خاير قبض عليه ثم أفرج عنه في نفس اليوم، وأنه وعده بولاية وخير، وعرفت أن خاير يبحث عني، ويريد أن يبني جسورًا للقاء ودِّيِّ..وكنتُ أعرف نيته وأعرف أهدافه، ولم أحتقر أحدًا كما احتقرته، ولكنها زيارة لا بد منها كزيارة القبور العفنة لأناس لا نعرفهم.

صافحني بحرارة وسأل عن حالي، وقال وعيناه لا تتركان عينيَّ: ماذا حدث لأمير المماليك؟ فَقَدَ قدمَه؟ في معركة أم كان يهرب من شيء؟

قلت في صوت بارد: القادة شرف لهم فقد الأطراف، هي أفضل من الاستسلام دومًا.

ابتسم وقال: بل استسلمتَ وفقدتَ قدمك، فعلتَ الاثنين يا سلار، بحثتُ عنك كثيرًا..وكنت أريد مقابلتك.

- أعرف ولذا جئت، ولكنني لا أعرف ما يحتاجه مني والي مصر..

ساد الصمت ثم قال: فعلتُ ما فعلتُ لإنقاذ المماليك، وكنتُ أعرف أنهم سيهلكون لو لم نستسلم.

- لم يستسلم المماليك.

تجاهل ردِّي وأكمل: ولكن سليم شاه عفا عنهم بعد أن

توسطتُ لهم، لا توجد مصر بلا مماليك، دافعتُ عن المماليك من أجل مصر.

قلت في حسم: وبغير مصر لا يوجد مماليك.

- سيحكمون لقرون طويلة، وسيذكر التاريخ حقيقة ما فعلت، وأنني اتخذت القرار الصحيح وقت الأخطار، وستحكم معي ونعمل معًا كما اتفقنا في الماضي، أعرف..سعادات تنتظرك..

قلت في تأمل: يا والي مصر، بعد أن كانت مفاتيح الكعبة في خزائننا، أصبحت أنت تتلقى أوامر من الآستانة، ما الفخر في هذا؟ أغلقت أبواب المجد وفتحت أبواب التبعية والظلام، فالتبعية ظلام، المماليك قبل الغزو ليسوا نفس المماليك بعد الغزو.

- كلام الشعراء لا يليق بالمقاتل.

- بل المقاتل يعرف الفرق بين من سيتعاون معك ومن سيرفض التعاون معك.

- من يتعاون معي يضمن أن حكم مصر سيعود للمماليك اليوم أو غدًا..ومن يرفض التعامل معي يعرف أنه مهزوم لا محالة. يومًا ستفهم وتعرف وربما بعد عام، خمسين عامًا، مائة..ستعرف أن مصر هي المماليك، والمماليك هم مصر.

قلت في إصرار: أعرف وأفهم أن نفوذهم لن يتقهقر، وأن أملاكهم لن تمسَّ، وأنهم يتقنون العربية ويتعاملون مع المصريين، وأنهم سيكونون الحكام الفعليين، ولكن المماليك الآن هم من صاحبوا الهزيمة واعتادوا الخيانة، لا تعاون بيني وبينهم . اتركني أرحل في سلام ولك حكمك ولي عيشي.

- عيشك يا سلار لن يكون نفس العيش، إما أن تكون أميرًا بجنود تحمي البلاد أو جنديًّا مهزومًا بلا جنود ولا أسلحة.

أطرقت برهة ثم قلت: تريدني أميرًا بجنود تحمي سلطانًا في

الآستانة؟ ويكأنني أحمي بيتًا للبغي بسيفي حتى تكتمل الواقعة.

- كيف تجرؤ؟!

- يجرؤ يا بك من ليس له جنود ولا شيء يخاف عليه أو منه، لك الجنود ولا تمسس مالي وإلَّا حاربتك لآخر يوم في حياتي وقلبت قلب كل أمراء المماليك ضدك، سيقولون خاير يسطو على أموال الأمراء ويجمعها لسلطانه في الآستانة.

- تستحق ما حلَّ بك وأكثر، من ينتصر هو من يستحق الفوز.

قلت: من ينتصر هو من أغوته الأيام إلى حين وداعبت طمعه.

- أصبحت صُوفيًّا هذه الأيام، أين سلار الذي كان يأخذ كلَّ ما تقع عليه عيناه؟!

- لم يعد هناك ما يستحق المجازفة ولا الاقتناء.

صمت ثواني ثم قال: سعادات تريد أن تقابلك..

لم أجب، فقال في صوت ثعباني: لولاها لقتلتك مرَّة ومرتين، لولاها لشققتُ رأسك وأخرجتُ حشاياها لجنودك يطبخونها.

قلت: يخرج من الميت الحي ويخرج من الحي الميت..

- ما قصدك؟

- ابنتك نعمة من الله.

- ألم تزل تريدها؟

- لا قِبَل لي بحكم ابنة والي مصر، زَوِّجْها لأحد العثمانيين الذين تعاونتَ معهم.

- بل أزوجها من هو أفضل منك ألف مرَّة ومن يكون كاملًا وليس منقوصًا.

التقت أعيننا فأكمل خاير: عندما أزوِّجها يا سلار سأزوجها لمن يكمل هزيمتك ويذكرك بما كان.

قلت في يقين: لا يوجد هذا الرجل.

ثم اتجهت إلى الباب ورأيتها..كانت واقفة بعينين معذبتين ووجه عابس.

تبادلنا السلام ثم قلت في صوت حانٍ: أتمنى لك كل خير.

قالت في ألم وصوت خافت: لا خيرَ لي بعيدًا عنك..

قلت في صرامة: والدك يريد لك رجلًا كاملًا وليس منقوصًا مثلي.

- والدي يريد لي الخير، وأنت الخير لي يا سلار، لا تجعل الحقد يغير قلوبنا، حدث ما حدث وانتهى.

قلت لحظتها وكنتُ أعني ما قلت: اغفري لي أنانيتي وعدم قدرتي على الصفح، هي آفة وذنب ولا قِبَلَ لي به، أنت بخير وأمان بين جدران القصور، اسمحي لي يا أميرة..

ثم رحلت يومها. وأنا أبحث عن الفرسان الثلاثة..ولم أجدهم.

* * *

الباب الثالث
أيام قد خَلَتْ

«كنا ثلاثة فرسان نجتاز الجسر معًا، وخرج الوحش من الأعماق ونفخ النار في الأحجار، فانهار الجسر أو كاد».

سلار المملوكي

شهادة هند (9)

بعد مقابلتي معه يا عمتي عُدْتُ كمن أصابها السِّحْر، وظننت وأيقنت أنه سيقوم بمجازفة ولن يمنعه شيء، وأنه ربما يقتل قبل أن أخبره بما فعل بي وما قد جرى، وبالحادث الذي اكتمل داخل نفسي وقلبي. ما أقساه هذا الأمير، قاسٍ في انتصاره وهزيمته، وقاسٍ في حربه وسلمه وفي عشقه وكرهه. عندما طلب أبي مني مرَّة أخرى أن أعطي زيادًا فرصة وأن أجاهد نفسي أجبت في حسم بأني لا أستطيع، وفهم أبي على ما يبدو، فلم يضغط عليَّ؛ فهو عالم وشيخ يكتب التاريخ ويعرف أحكام القلوب وطغيانها.

سلار أراد أن يقابلني، فعل.

وضغط على أضلعي لتتلاشى داخل صدره، فعل هذا أيضًا.

جاء وأمرني أن أنساه، فعل هذا أيضًا.

وكان يعرف أني لا أستطيع.

رآني يوم موت السلطان ولم يرني، وكأنه فقد الحواس يومًا ربما، لم أستطع أن أتأكد قط.

وعندما بحثت عن نبض قلبه، وجدت ما يطمئن النفس.

لا بد أنه لم يَنْسَني، كان لدي شعور به حولي طوال الوقت، هل للقلب أن يخدع؟ وإنْ كان قلبك فلِمَ يخدعك يا عمتي؟ تفهمين؟

ظلمني مرتين، والمرة الثانية كانت أقسى لو تعلمين، مرَّة أخضعَ الجسدَ رغمًا عني، ومرَّة أخضع القلب رغمًا عني أيضًا.

كلما تذكرت ما جرى بيننا منذ البداية شعرتُ أن صقرًا كبيرًا أفزعني، وقبض على رأسي بمنقاره، ثم حملني وطار فوق الكون وأنا أصرخ، ثم تركني من فمه، فهويت إلى النهر وغرقت، ويا ليته تركني أغرق، غاص وبحث وأخرجنى قبل النهاية، ولم يزل يحوم بي حول الكون، لا وجدت سكنًا ولا تركني أموت.

كنتُ بضاعة بالنسبة له في البداية، ككل النساء في حياته، كنتُ شيئًا لا أكثر، لا فكَّر في عذابي ولا عَرَفه، ثم تغيَّر، أدركت أنه تغيَّر، أرخى قبضته وفتح يديه بالجود وهو لا يعرف الجود ولا الرحمة. ماذا أقول يا عمتي؟ جعلني أنوح على ما ضاع وعلى ما بقى.

وحلق العقل بين شكٍّ ويقين، وحاولت أن ألملم بقايا الحكاية كما رأيت زوجات المماليك تلملم بقايا جثث الأزواج، كان متنكرًا وأنقذني ثم خطفني لماذا؟ كان يملك الكثير من الجواري، ربما أراد أن يتسلَّى وهو في بلبيس فجواريه في القاهرة، من يدري، لا أفهم كيف يفكِّر الرجال وربما رأى في عذابي بعض السَمَر والترويح عن نفسه القلقة. ولِمَ يرغمني وأمامه كل النساء يتمنَّين اهتمامه؟ أكان يلهو بعض الوقت وكأنه في رحلة صيد مع الأصدقاء؟ يأتي محمَّلًا بالطيور والحيوانات ويحنط بعضها ويأكل بعضها الآخر؟ ربما لن أفهم قط.

جاءني نبأ أذهلني بعد عدَّة أيام وجعلني أصدق كلام أبي عن إبداع القدر ونفحات المعجزات، جاءت ست الدار تزورني مرة أخرى بلا أيِّ مبرر ولا سبب، وقابلتها ولا صداقة تجمعنا ولا كلمات، ولكنها استمرت في زيارتها لي يومًا بعد يوم، ثم عرفت بعدها أنها أقنعت زيادًا بالزواج منها. هل تصدقين هذا يا عمتي؟

جاءني الخبر من أحد الأقارب أن زيادًا كان يجلس مع أبي كل يوم، وعند زيارتها الأولى لي ألقت السلام على أبي، وكان معه زياد، فوجدت فيه غايتها، وجاءت مرَّة أخرى لزيارتي لعلها تراه، ورأته وتكلمت معه، وحكت له عمَّا أصابها من الجنود العثمانيين..هكذا قالت قريبتي، وقالت إن زيادًا رقَّ لحالها وكان مهمومًا بعد أن رفضت أنا الزواج منه، وشعر بواجبه ناحية بنت مصرية في محنة لا ذنب لها فيها، وقرَّر أن يتزوجها. قريبتي قالت إنه تزوجها بالفعل منذ بضعة أيام. ثرت وغضبت من خداعها، وحكيت لأبي ما جرى منها وما يجب عليَّ فعله، وقلت له إنها تخدع هذا الرجل المسكين. استمع أبي ثم قال: حدث الزواج يا هند، ليس بيدي شيء الآن، هو يعرف أن من تحمله ليس ابنه ووافق، فليس من واجبي أن أفضح، ولا أتكلم في أعراض النساء.

وكان أبي على صواب. ابتسمت في تهكم من بدائع الدهر، وأشفقت على زياد المسكين بسذاجته وطيبة قلبه، وتمنيت أن تكون ست الدار قد أدركت حجم جُرمها وخطيئتها، وأنها تنوى أن تكون زوجة صالحة، ولم أكن مقتنعة بأنها ستكون صالحة أبدًا لا اليوم ولا غدًا، وخشيت أن يكون رفضي لزياد هو سبب زواجه السريع، واستغفرت الله لو كنت أذنبت، ولكنني لم أكن أستطيع الزواج.

* * *

شهادة سلار (9)

ما حدث بعد ذلك يا أبا البركات هو استمرار للهزيمة ونُضجها، تعرف يا شيخ نحن الجنود لا نعرف وقع القتل عندما نقوم به ولا ندرك حجم الخسارة، تعلمنا أن لا خسارة في الموت، هو قدر مكتوب، كان سليم جنديًّا ربما..قَتل بدم بارد، ثم سار في طرقات القاهرة محتفلًا منتصرًا، وعندما ضحك عليه المصريون في أسى كتم ضحكاتهم، وقرَّر أن يمنع خيال الظل من مصر كلها، لا مزاح ولا جدال، هي أيام الخسوف والدفن فقط. لا تؤاخذني يا أبا البركات..المعركة شيء وما يحدث بعدها شيء آخر..سرق الغازي الذهب والفضة ورحل بسفن محملة من كنوزنا، سرق رخام المساجد، حتى رخام القلعة أمر بفكه وحمله على سفنه وسرق قناديل الإضاءة، وحتى الأبواب الخشبية المرصَّعة بالنحاس سرقها، بل وأرغم ألفي حِرَفيٍّ على السفر معه، وكان بينهم عبد الله..معلمي..لم يكن له اختيار هو وبقية أبنائه الحرفيين، جرَّه العثمانيون جرًّا وطلبوا منه أن يأتي بمن يضمنه، وأتى بابنه، ثم ضمن هو أبناءه، واستحكمت حلقات العثمانيين حولهم، وأصبح السفر قائمًا لا محالة، رأيت زوجته بعيون ميتة في بيتها، ورأيته يعرض عليها السفر معه؛ فالسلطان لا يترك له الاختيار، فإن لم يسافر فسيقتله أو يقتل من ضمنه، وهو ابنه، كنت معه يومها لأودِّعه، وتوقعت أن تسافر عدلات معه فلم يعد لديها

سواه..ولكنها حرَّكت رأسها يمينًا ويسارًا وقالت في حسم: لن أترك بلادي.

قال في مرارة: لم يعد لنا اختيار يا أم علي.

- عليٌّ مات.

- تعالي معي..فالسفينة في الانتظار وكل أولادك سيذهبون..لا تبقي هنا وحدك بلا ابن ولا زوج..

لم تسمع ما قال..صاح في أذنيها وعندما سمعته أشارت بيدها وقالت: اذهب إلى حيث أمرت، واتركني هنا، لن أذهب لأعمل عند من قتل أولادي، الموتُ هنا أفضل لي.

صمَّمت عدلات تصميم المقاتلين، ووعدتُه أنني سأرعاها بنفسي ولن أتركها. ورحل عبد الله وأبناؤه، أما رفيقي فبحثت عنه، قانصوه العادلي كان من تبقى من زمن ولَّى وعمر رسم خط النهاية بيد خطاط ماهر.

عرفت بعد عدَّة أشهر تفاصيل الإفراج عن قانصوه العادلي، بعد القبض عليه، تكلَّم مع خاير بك الذي أقنعه بعدم جدوى محاربة السلطان الجديد وطلب عفو السلطان، وعفا عنه سليم بعد أن وعده أن يعمل معه ويعترف به، لم يكن لديه اختيار هو أيضًا على ما يبدو.

* * *

كان يجب أن أطمئن على أطفال إينال الثلاثة وزوجته، كان يجب أن أتأكد من أنهم بخير، وكنت أعرف مصير زوجته، السجن والذلُّ والتعذيب والتنكيل، أما الأطفال فمصيرهم المبيت في الطرقات أو سجون القلاع. ذهبت إلى السجن عدَّة مرات حيث سُجنت خوند تتر وطلبت مقابلتها، وسمح لي الجنود بعد دفع الرشاوى. دخلت عليها وكانت أول مرَّة أراها فيها، خرجت بوجه مكشوف وخِمار حول رأسها، بدا وجهها

متعبًا وعيناها تائهتان، قالت في حزن: أنت الأمير سلار..صديق إينال.

قلت في حسم: ستخرجين، لا تقلقي، أعدك اليوم أو غدًا، أين أطفالك؟ لم أجدهم في القصر؟

نظرت حولها ثم قالت: رأيته قبل أن يموت؟

التقت أعيننا ثم قلت: رأيته، سأل عنك وأوصاني بك، كان يحبك ويقدِّرك يا خوند.

تساقطت الدموع من عينيها ثم قالت: كيف مات؟

صَمَتُّ برهة ثم قلت: كان محاطًا بالجنود وحاربهم، وقتل منهم الكثيرين، ثم طعنه جندي في قلبه وآخر في ظهره وهوى إلى الأرض ومات في الحال. مات بطلًا، وقتل الكثيرين في شجاعة، كنت معه ورأيت كل شيء.

قالت: أين جثته؟

- أغرقتُها حتى لا يفتك بها الجنود.

- أين أغرقتَها؟

بدأت أفقد صبرى من أسئلتها فقلت: ستخرجين.

- تستطيع إخراجي؟

- سأفعل قبل الغد، أين الأطفال؟

- مع جارية أثق بها، سأعطيك اسمها..طلبتُ مقابلة سليم.

قلت وقد ظننت للحظة أنها فقدت عقلها: سليم من؟

- سليم شاه..طلبتُ مقابلته.

- طلبتِ مقابلته مِمَّنْ؟

- من الحراس، أيُّ ملك يسجن النساء ويعذبهم من أجل الذهب والفضة؟!

قلت في حسم: هذا لن يحدث، أيُّ ملك يلبِّي رغبة سجين

في لقائه؟! اصبرى يومًا فقط، في الغد أخرجكِ، أعدكِ.

قالت في حسم: أحد رجاله سيأتي اليوم ليتكلم معي.

بدا لي أنها تهذي، ولم أكن أريد أن أضيّع أيَّ وقت في الكلمات. خرجت من عندها واتفقت مع الحراس على تهريبها بعد بزوغ الفجر، ولكن الحارس جاء إليَّ مفزوعًا وقال إنه لم يجدها في سجنها.

لا أدري يا أبا البركات أأضحك أم أبكي؟ سمعت عمَّا حدث من بعض الحراس والبصاصين، ربما تريد أن تعرف ما حدث وتكتب عنه في كتابك، أو ربما تريد أن تقابلها أو تقابله من يدري؟

سأحكي لك عمَّا جرى..

يبدو أن بكاء خوند تتر كان ممزوجًا بالمال الذي وعدت به بعض الحراس وطلبت منهم أن يأتوا برجل من رجال الملك والسلطان الجديد تحكي له ما حلَّ بها من ظلم، ووصل الخبر لمصطفى باشا الترجمان الذي يرافق سليمان في كل مكان، فقرر أن يقابلها حتى تكف عن الإلحاح والطلب، وقرَّر أنه سيعاقبها ويأمر بجلدها لأنها تعكر صفو أيام السلطان ورجال السلطان. ذهب إليها مصطفى باشا بوجه عابس وقال في جفاء: توقفي عن الشكوى، مثلك مثل غيرك، كل زوجات المماليك المقتولين في السجن، لِمَ تريدين مقابلة رجال السلطان؟

ولم تجب خوند تتر، فرفع مصطفى باشا عينيه ورأى وجهها وشعرها الكستنائي الطويل والدموع التي تلمع في عينيها الواسعتين فقال في رفق: ماذا تريدين؟

قالت في صوت رقيق كله شجن وضعف: جاءوا بخير الرجال ليقابلني، أهذا ليزيدوا من عذابي عندما تكتمل الوحدة؟ خدعوني وقالوا لي إنَّ في جنود العثمانيين غلظة وقسوة، وأنا لا أرى سوى صرامة المقاتلين وجاذبية المنقذين.

قال حينها في حدة: ما هذا الهراء يا امرأة؟ أيّ جُرأة تتكلمين بها؟

فانحنت وقبلت يده وقالت في رقة: أريد أن أملأ عينيَّ من وجهك الطيب يا مولاي، وأحكي لك عمَّن ذلَّ بعد عزٍّ ومن يقضي أيامه مظلومًا وحيدًا في سجنك.

نظر إليها مصطفى باشا في فزع، وكانت تتكلم التركية بطلاقة كالكثيرين من أولاد الناس، وهمست في لهجة آمرة: اصرف الجنود لأشكو لك حالي..

نظر حوله ثم التصقت عيناه بعينيها وقال: تريدين الخروج من السجن؟

- كنت أريد الخروج من السجن، والآن لا أدري فلو خرجت ربما لا أرى وجهك مرَّة أخرى..لو أردتَ الذهب يا مولاي فسأخبرك بمكانه فأنت تستحقه، ولكن اصرف الجنود.

تناقل الجنود كلمات خوند تتر وردَّدوا وهم يتغامزون «لو أردتَ الذهب فسأخبرك بمكانه فأنت تستحقه». تكلموا عن حيرة مصطفى باشا وتوتره حولها، وكان جمالها يُذْهِب العقول على ما يبدو، وعرفتُ بعد أيام أن مصطفى باشا قد تزوج خوند تتر، وضم أولادها إلى قصره، وأن سلطانه سليم شاه لم يكن سعيدًا بهذه الزيجة، ولم يكن يستهويه فكرة زواج الجنود العثمانيين من أرامل المماليك، ولكن هذه الظاهرة كانت غريبة وعقد الشيوخ زواج الكثيرين بهذه الطريقة. لا أُخفي عليك يا أبا البركات أنني غضبت واتهمتها بالخيانة والحقارة، ولكنني الآن أرى كل شيء بعين مختلفة، ولا أستطيع أن أجزم بخيانتها، مع أنني لن أسامحها على الزواج من أولاد عثمان. كانت امرأة لا تملك سوى جمالها على ما يبدو، وكانت أُمًّا لثلاثة أطفال يُشرَّدون دونها، وحتى لو أخرجتها ما استطعتُ أن أضمن لها

حياة كريمة ولا آمنة طوال الوقت، التحقتْ بالجيش المنتصر لتستمر أو ليستمر أولادها لأنها تحب إينال أو لأنها لا تأبه به، لا أعرف. لم أفهم النساء قط، كل تصرُّفاتهن غير متوقعة، ولكنها لو كانت زوجتي لكنتُ سأبعث من قبري لأذبحها ثم أموت مجدَّدا مستريحًا، وكلما تذكرت ولاء إينال لها ورفضه حتى شراء جارية واحدة أبتسم لنفسي في مرارة، ولكن ما جرى بداخلها صعب فهمه أو تقديره.

* * *

شهادة هند (10)

كنت أنام على سريري كعادتي وعقلي شارد وأنتظر سماع خبر عنه، أحيانا يا عمتي كنتُ على يقين بأنه يعشقني عشقًا يفوق حدود عشقي، وأحيانا كنت أعتقد أنه لا يأبه بحالي ولا يفكر سوى في هزيمته ونفسه، وجاء.

جاء بلا مقدمات ولا إنذار..طرق الباب باحثًا عن أبي، ابن إياس وقلبي يقفز خوفًا وفرحًا. أمسكت النافذة الخشبية بأصابع مرتجفة وأنا أقرأ الآيات، وأتمنى أن يصدق قلبي فيما جاء من أجله وأن يصفح أبي.. أخذتُ أنفاسًا عميقة حتى لا يغشى عليَّ، وحاولت أن أستمع إلى حديثهما.

قال: جئت طالبًا ابنتك للزواج.

- تكلم عنها رجل وحسم الأمر.

بقى صامتًا ثم قال: وهي وافقت؟

- وهل عليَّ أن أجيب أسئلتك يا أمير؟

وضعت يدي على فمي في فزع وأنا أحاول أن أسيطر على لهفتي.

قال سلار: أنا أحقُّ بها منه.

قال أبي في حسم: لا حقَّ لك عندي أو عندها.

- يا أبا البركات، استمع إليَّ، أريدها، كنتُ أريدها من البداية، وخشيتُ عليها من التنكيل بها لو اقترنت بي، فكرت فيها وفي

سلامتها.

قال أبي في غضب لم أره من قبل: فكرتَ فيها وفي سلامتها! والله لولا حدث أعرفه لقتلتك الآن في بيتي وأمام أولادي.

- يا أبا البركات..

قاطعه أبي وقال: لم تكن كريمًا معها ولم تنصفها، ولم تعرف الفرق بين الحُرَّة والجارية.

قال سلار في صرامة: بل أعرف. لم تختلط عليَّ الأمور قط، هي فقط أيام الهزيمة تزيد الحيرة واليأس.

- وهل انتهت أيام الحيرة؟

- بل بدأت يا أبا البركات، ولكنني أعرف أكثر الآن.

- وماذا تعرف؟

أطرق برهة ثم قال: أعرف أن أيام الحيرة والهزيمة ستكون أسهل وهي معي، كانت الأيام أفضل وهي معي. يا شيخ، أنت رجل حكيم تفرِّق بين الصدق والكذب، أقسم لك أن أصونها وأعاملها كالأميرات.

- وزوجتك؟

- لم يعد لي زوجة منذ زمن.

- لِمَ طلقتها؟

- لم يعد يربط بيننا سوى الشك، فرَّق بيننا الأب كما تفرِّق الحروب بين الجنود وأرضهم.

- تترك ابنة والي مصر؟ لا بد ستفكر في العودة إليها.

- تعرف أنت وأعرف أنا كيف أصبح والي مصر، وليس لمصر أن تتدلى لخائن.

- وما ذنب ابنته؟

- هي أقدار مكتوبة، أصبح العيش بيننا مستحيلًا، لا لوم عليها، هو الأب الذي بنى القلاع.

قال أبي بعد برهة: وكم من الجواري تملك؟

- لم أعد أملك جواري، ولا أنوي أن أملك جواري.

- ولماذا تريد ابنتي؟ أجئت من أجل ضميرك أم لسبب لا أعرفه؟

توقفت عن التنفس ثواني وجسدي يرتجف.

قال: ابنتك بقلب حُرٍّ ونفس أبية، ستذكرني بهزيمتي دومًا، وتعطيني الأمل في أن الروح الحرة لا تنهزم، أحتاج الذاكرة والأمل.

بدا أن أبي تأثَّر بكلماته، ولكنه قال: لن توافق.

- أسألها بنفسي.

- لا تثق بي؟ ما فعلتَه بها أسوأ ممَّا يفعله جنود الإنكشارية.

- حدث ما حدث ويحدث الكثير وقت الحروب، في وقت اليأس يتجلى الجنون والهوى.

- تندم؟

لم يجب، أخذت أدقُّ بكفِّي على فمي وأتمنى أن يقول لأبي نعم، ولكنه لم يفعل.

أعاد أبي السؤال، فقال سلار: تسألني سؤالًا لا أريد أن أجيب عنه، وإنْ أجبت عن هذا السؤال فسأكذب، وقد أقسمت أن أقول الحق أمامك.

- لست نادمًا إذن؟

لم يجب، رأيت أبي يهمُّ بالقيام ليهجم عليه، ولكن أخي الكبير شدَّه قائلًا: اهدأ يا أبي، لنستمع إليه.

قال سلار: لو كنتُ أستطيع الزواج منها من قبل لفعلت، لم

أكن أريد إيذاءها، وحتى الآن أعرف أن حياتها معي شقاء، وأن من اخترتَه لها ربما يكون أفضل مني؛ فهو لن يعيش بين حنايا الهزيمة وحروق اليأس، ولكنها الأنانية تطغى دومًا، وغريزة العيش تنتصر على الرغبة في الفناء.

- وكأنك أنقذتها لتعذبها على مهل.

ساد الصمت، ثم قال أبي: سأفكر في الأمر وأسألها.

فقال سلار في قوة: نسألها الآن.

رمقه أبي بنظرة تحدٍّ ثم قال: سأسألها وأخبرك بردِّها.

قال في نفس قوته: لو سمحتَ لي يا أبا البركات..ضاع من العمر الكثير، ولا أريد أن أنهي حياتي منتظرًا.

قام أبي واقترب منه وقال في صوت خافت: لستُ أحد جنودك يا أمير لتأمرني، قلت لك سأفكر في الأمر وأعطيك الإجابة بعد أيام.

وكنتُ أتمنى أن أتكلم معه وأن أضمَّه إليَّ، وأن أُطفئ نار خوفي ولهفتي، طأطأت رأسي وأنا أعرف أن أبي سيتكلم معي.

رحل سلار ودخل أبي حجرتي وقال في يأس: جئت أسألك وأنا أعرف الإجابة، هوى النفس ينتصر دومًا على العقل.

قلت في ترجٍّ: أبي، أنت تعرف البشر وتفرز النفوس، هل عهدتَه صادقًا؟

صمت برهة ثم قال: لا يكذب، ولكنه مغرور وأناني، أو كان هكذا قبل الهزيمة، الهزيمة تكسر الغرور وتحث على ترك الذات في معظم الأحوال. هند..ألا يعنيك البتر في قدمه؟

قلت في ألم: لا يعنيني.

قال بعد برهة: الحياة مع جندي منهزم يمكن أن تكون الجحيم

ذاته؛ فالمعركة بالنسبة إليه لم تنتهِ، والكلمات لم تخرج من فمه والعمر لم يعتدل، سيعذبك معه.

قلت : ليس ذنبه، حارب وحاول.

- أعرف، أريدك أن تعرفي وأن تصبري، اخترتِ أن تعيشي في عرين الأسد المحبوس، هل تستطيعين ترويضه؟

قلت في حماس: سأحاول.

قال بعد برهة: عاطفته تجاهك ربما تنقذك من يأسه وضراوته، لا شيء سيشفع لك سوى حزمة المشاعر التي يشعر بها تجاهك، أفهمت؟ لابد أن تبقي عليها مهما حدث.

قلت: أفهم قصدك يا أبي، حارب من أجلنا.

قال في يقين: حارب من أجلنا.

- وفقد قدمه من أجلنا ومن أجل مصر.

- فعل وهذا يشفع له.

بعد عدَّة أيام طلب أبي منه الحضور وسماع ردِّي بنفسه، فسأله سلار في عدم صبر عن قراري، ولكن أبي رفض أن يخبره به، وطلب منه أن يأتي، ثم جلس وأجلسني بجانبه، ودخل علينا سلار. هربت كل الكلمات والتقت الأعين والقلوب فقط، دقائق لم ننطق حتى قال أبي في حدِّة: يا أمير..جئت تسأل ابنتي عن رأيها، تتذكر؟

قال سلار فجأة في عدم صبر: نعم، بالطبع، والدك يقول إن هناك من تقدم إليك طالبًا الزواج..

ثم نظر إلى أبي الذي بدا أنه يقرأ كتابًا ولا ينظر إلينا، وأكمل في حدَّة والغضب يخرج من عينيه وقد نفد صبره على ما يبدو: عندما طلبتُ منك أن تستمري كنت أتصور أنك ستنتظرين، ولكن يبدو لي أن النساء تنسى سريعًا وتمحو كل ما ينغِّص حياتها.

قلتُ في حسم: لم أتوقع اللوم يا أمير..

قال في غضب: ما كان بيننا لا يمكن أن تطرحيه جانبًا وكأنه قطعة لحم عفنة، ثم تتزوجين..

قلت وأنا أشعر لأول مرة بأنني أملك قوة ما: ولو فعلت..يمكنني أن أفعل..رأيتني وتظاهرت بأنك لا تعرفني ثم تركتني بلا وعد ولا أمل، سأفعل ما أريد.

نظر حوله ثم قال في حسم: لا يمكنك، ليس اليوم وليس غدًا.

قلتُ في تحدٍّ وفرح لم أشعر به منذ زمن: ولو فعلت..ولو اخترت رجلًا غيرك بعد أن تركتني بلا كلمة ثم طلبت مني أن أنسى وأستمر..طلبت هذا..

قال في غضب: لن يحدث، تعرفينني وتعرفين أن هذا لن يحدث، وتعرفين لماذا ابتعدتُ ولماذا عدتُ.

نظرت إليه ثم قلت وقلبي يحوم حوله: ماذا كنت ستفعل يا أمير..

قال في حِدَّة: ما فعلته من قبل يا هند.

- تخطفني

- نعم

- وتذلني وتعذبني..

- وهذا أيضا ربما..

اتجهت بنظري إلى قدمه ورأيت البتر واضحًا، وطغي الحنان على كل فرحتي وسخطي.

نظرت إلى أبي ثم إليه وقلت: وكيف كنت ستعرف إن كنتُ تزوجت أم لا، تتركني وأنت لا تعرف عني شيئًا.

التقت أعيننا ثم قال: بل تركتك وأنا أعرف كل شيء، وأخبارك

تصلني منذ أول يوم.

قلت في عتاب: فهمت، تترك بضاعتك ثم تستعيدها عندما تجد الوقت المناسب.

قال في عدم صبر: ما جدوى عتابك؟ لا أحب العتاب، ستتزوجينني وانتهى الأمر.

فتحت فمي فرمقني بنظرة حادة أسكتتني.

قلت بلا إرادة: لم أكن أستطيع، حتى لو حاولت..لم أكن أستطيع الزواج من رجل غيرك، لا الآن ولا بعد ألف عام.

نظرتُ إلى أبي وقلت في خجل: أوافق يا أبي لو وافقتَ أنت.

حرَّكتِ شفتيكِ في سخرية حينها يا عمتي وتمتمتِ بكلمات عن سذاجة البنات وأشياء من هذا القبيل، ووافق أبي على مضض، ولكنه طلب من سلار الكثير، طلب منه أن ينسخ معه الكتاب بخطه الواضح الجميل، وأن يحكي له ما جرى كل يوم ساعة أو ساعتين حتى ينتهي من كتابة التاريخ.

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (8)

قبل أن يرحل ملك الملوك طلب أن يصعد إلى سطح مسجد السلطان حسن مرَّة أخيرة، وكأنه يعرف أنه لن يزور مصر مرة ثانية وأن العمر لن يمهله كثيرًا. وعند صعوده إلى سطح المسجد نظر حوله وقال: في يدي مفاتيح الكعبة ومفاتيح الإسلام.

ثم نظر إلى الصدر الأعظم حينها يونس باشا وقال في لوم: تتذكر يا باشا؟ قلت أن فتح مصر مستحيل وإن هذه حرب لا قِبَل لنا بها، من كان على صواب أنا أم أنت؟ سأعود إلى بلادي بمفاتيح الكعبة والأراضي المقدسة بين يدي.

حينها قال يونس باشا بلا تفكير: يا ملك الملوك..لم أزل أرى في فتح مصر هلاكًا، ستعود إلى الآستانة بنصف رجالك بعد أن هلك النصف الآخر وتيتم الأبناء وترملت النساء، وبعد أن ولَّيتَ على مصر خائنًا لم يخلص لسلطانه، فما بالك بسلطان العثمانيين؟

لحظتها فتحت فمي في ذهول، ولا أدري أفقد يونس باشا صوابه أم أنها لعبة بين الرجلين؟ ولكن دون مقدمات رأيت ملك الملوك سليم شاه يُخرج سيفه ويغرزه في قلب الصدر الأعظم يونس باشا وهو يقول: ليس للأحمق أن يحوم حول الملوك،

وإلَّا كسر عزيمتهم وشكَّك في انتصاراتهم، احملوا جثته بعيدًا، بل ارموها من سطح المسجد أمامي لترهب الجنود والمصريين.

ثم التفت إليَّ وكنت أرتجف كالقطة الوليدة وقال: المماليك كانوا يتقاتلون داخل هذا الصرح، لا رأوا فيه جمالًا ولا رهبة ولا ورعًا، لا يستحقونه، قلت لك هذا من قبل، ولكنهم أفضل من يحكم مصر، يعرفونها ويتقاتلون، أتفهم يا مصطفى؟

قلت بلا تفكير: أفهم يا خليفة المسلمين.

ردَّد: يعرفونها ويتقاتلون، نحن لا نتكلم لغتهم ولا نعرف التعامل مع أهل مصر، يبدو لي أن أهل مصر لا امتنان في قلوبهم، الجحود من سماتهم، وصعبٌ إرضاؤهم وكسب ولائهم، يحتاجون إلى من يعرفهم عن ظهر قلب ليُحِكم السيطرة، أمراء المماليك يعرفونهم ويتكلمون لغتهم، اعتادوا التعامل معهم. أنا لا أريد دمار مصر، أريد لها البقاء، والمماليك سيبقون عليها بالكاد. أما قتالهم فسيضمن أن مصر ستبقى بحاجة إلى حسم الخليفة وعدله، في قتالهم قوة للآستانة ورضوخ لمصر، ومصر لابد أن تبقى وأن تبقى راضخة، أتفهم يا مصطفى؟

قلت: كلامك كلُّه حِكَمٌ يا خليفة الإسلام.

نظر حوله وقال: عندما أعود إلى الآستانة سأبني مسجدًا مثل هذا المسجد وأكبر، أعدك بهذا، ولن يتقاتل فيه العثمانيون، لن يتقاتلوا أبدًا.

قلت بلا تفكير: هم حماة الإسلام وحكمتهم حكمة العلماء.

أصدقك القول يا أبا البركات، كنت أريد البقاء في مصر، ولم أجرؤ على قول هذا لملك الملوك، وخفت أن يقطع رقبتي لحظتها، وكان يعاقب كل جندي يتزوج من أرامل المماليك،

وتزوج الكثيرون من الجنود من أرامل المماليك، وقلبي كان في مصر مع خوند تتر، كانت مختلفة عن زوجتي في الآستانة، جمالها لا قِبَلَ لإنسي به، ورقتها تذيب القلوب، وحنانها أذهب عقلي، كانت تحبني حبًّا لا قِبَلَ لي به، أغرق كلَّ العقل والذاكرة، وحملت في ابننا بعد زواجنا بشهر، ولم أكن أقوى على فراقها. بكت وهي بين ذراعي وطلبت مني البقاء، وكنت جنديًّا طوال عمري لا بكاء يؤثر فيَّ ولا نساء يسيطرن عليَّ، ولكنها تتر، من يتوه الجندي في أرضها ويجوع ويعطش بين ذراعيها. وعدتها بالحماية لها ولأبنائها طوال العمر، ولكنها قالت إنها تحتاج إليَّ معها، كانت تعشقني يا أبا البركات، ولم أكن أعرف شيئًا عن عشق النساء. زوجتي كانت تقوم بكل واجباتها في إتقان ووجه عابس وبلا كلمات حب ولا هُيام، كانت تعتقد على ما أظن أن الحب للجواري وليس للحرة، وأن العشق يقلل من شأنها، لم أكن أريد العودة إلى الآستانة ولا إلى زوجتي.

* * *

شهادة هند (11)

أتذكر يوم زواجنا يا عمتي وكان انتصارًا وسط الهزيمة، تعرفين، شعرت يومها بأنني فرخ بط صغير أُنقِذَ وغرقت كل عائلته، لا يدري أيسعد بالفوز أم يبكي من رحل. ولكن الحب في قلبي كان غير كل حب والعذاب غير كل عذاب، أحببته وهو فلاح، وأحببته وهو مملوكي، أحببته حُبَّيْن وأغرق قلبي عشقه فأزاح كل ماض وغفر كل الذنوب.. في البدء كانت ذاكرتي عدوًا وغازيًا، تبعث خوفًا في الجسد من ماض كله ظلم، خشيت أن يظهر قلقي أمامه وتطغى الذكرى على الشوق، نظر إليَّ مليًّا ثم أحاط وجهي وقال وكأنه يبارز ذكرياتي: تريدينني؟

طأطأت رأسي وقلت وأنا أحاول أن أخفي التوتر الذي يحوم حولي: أريدك.

أمسك بيدي المرتجفة وقال: ترتجفين خوفًا أم شوقًا؟

ضغطت على يده ولم أجب.

مرَّ بكفه على وجهي وقال: اهدئي، تعرفين جنوني وتذوقت وقع قسوتي. ربما ظننت يومًا أن في القسوة ردعًا للخيانة ومقاومة للهزيمة. ولكن لا خيانة حولك الآن يا هند.

اقترب بفمه من وجنتي فأغمضت عيني وأنا لا أفهم كلماته وتركته يقبلني والحب يدهس كل الذكريات.

ليلة زفافنا كانت ليلة طمأنينة النفس وخلو القلب من الأسى

والشك، أعطيته نفسي في رضا وشوق، وأصبحت له لأول مرة، هكذا قال لي. قال في صوت خافت وهو يضمُّني: وكأنها أول مرة.

فقلت في خجل: هي كذلك بالنسبة إليَّ.

ضمَّني أكثر وقال: ليت المماليك يتعلمون منك معنى المقاومة والانتصار..

- ولكنني لم أنتصر، أنت من انتصرت.

قال في تأكيد: بل انتصرتِ مرَّة ومرتين..لا تعرفين كم انتصرت..ولن أخبرك.

طوَّقت عنقه وقلت: وهل ستخبرني ما إذا كنتَ تفضلني الآن وأنا خاضعة أم كنت تفضل المقاومة.

ابتسم وقال: نفسك لا تعرف الخضوع يا هند، أفضلك الآن وأنت مقبلة وراضية.

الحب عذب كالمياه المنعشة ويغطي كل قبح وظلم، ولكنه يا عمتي كان جنديًّا مختلفًا عن كل الجنود، وكان حالمًا عاشقًا، ليس لي فقط بل لكيانه وهويته التي تناثرت أمام عينيه..بعد بضعة أيام عرفت معنى الغوص في نفس جندي منهزم، عرفت مرارته وأحببته أكثر، لا جفت مشاعري يومًا ولا توقفتُ عن الحنان، وكان يعرف.

لم أكن كثيرة البكاء يا عمتي، أنت تعرفينني، وأريد أن أخبرك أنني عندما رأيت ما تبقَّى من قدمه المبتورة بكيت. كان مُمدَّدا على السرير وكنت بجانبه، ونظرت إلى قدمه، وبدت لي العظام العارية من الجلد واللحم، وتصورت وقع البتر وآلامه، وكان واضحا أن من قام بالقطع لم يكن مؤهَّلا ولا طبيبًا. مررت بيدي على ساقه ودموعي تتساقط، فقال في لا مبالاة: يزعجك منظر البتر؟

قلت مداعبة والدموع لا تتوقف: ليس ببشاعة منظر رقبة الرجل الغليظ بعد أن قتلته، تتذكر؟

- لِمَ تبكين؟

- على العذاب الذي تحملته وحدك، كنت أتمنى أن أكون معك.

قال وهو يبتسم في مرارة: ستكونين معي في بقية العذاب، لا تقلقي.

قلت في حنان: لن تتعذب، انتهى العذاب.

ولكنه كان يتعذب، وكنت أعرف.

كان يستيقظ في منتصف الليل ويجلس مكانه أو يحوم حول الحجرة، ثم يخرج ويتأمل النجوم بلا كلمة، وكنت أقوم وراءه وأجلس بجانبه وأربت على كتفه كل مرة، وأطلب منه أن ينام ولا يجيب، وكأنه لا يسمعني ولا يراني.

أحيانا كان يمتطي فرسه، ويجري به في جنح الظلام ساعات ثم يعود وينام وكأنه لم يتحرك من جانبي، وبعد وقت أيقنت أنه في هذه الساعات المظلمة لا يحتاج إلى أحد، ولا يرى أحدًا، بل يحتاج إلى الغوص داخل نفسه وحده، وكثيرًا ما رأيت عذابًا في عينيه، وأحيانًا في الصباح كنت أقول: سلار..تحتاج إلى أن تنام ليلًا..أنت لا تنام ليلًا.

كان ينظر إليَّ ولا يجيب.

ومرارته كانت في حلقي وحول عينيَّ...مرَّة كان يضع قدمًا من حديد يلصقها في ساقه، وصاح في إحباط: ربما لو قطعت الثانية لكان المشي أسهل..

هرعت لأساعده ولم أتكلم، فلم يكن يحب الكلام كثيرًا، كان عصبيًّا وعديم الصبر يومها ونزع القدم الحديدية من يدي وقال: لن تعرفي، اتركيني أضعها، اخرجي من الحجرة، هيا.

لم أخرج من الحجرة كما أمرني، تجمَّدت مكاني وتركته يضعها وأنا أرى الإحباط يثور ليخرج من شرايينه، وكان يتمتم لنفسه بالشتائم وينفخ في غيظ وغضب، وكنت أرهبه في تلك اللحظات، لن أكذب عليك يا عمتي، ولكني لم أكن أستطيع الخروج من الحجرة، تسمَّرت عيناي على قدمه وكأنني فقدت الفهم يومها.

بعد أن وضع القدم الحديدية، قام ونظر إليَّ في دهشة وقال: ماذا تفعلين هنا؟ أمرتك بالخروج، أليس كذلك؟

قمت واتجهت إلى الباب بوجه عابس فاستوقفني وقال: لا بأس، يمكنك أن تبقي.

قلت وأنا أتظاهر بترتيب السرير: ظننت أنك ربما تحتاج إلى شيء، لذا بقيت.

أطال نظره إليَّ ولم أفهم نظرته الزائغة، بدا لي أنه ليس معي في تلك اللحظة، ثار عليه عقله وغاص في ماض لا أعرفه. أصابني الرعب يا عمتي، شعرت به يرحل بعيدًا ولم أدرِ أميِّت هو أم حي، قلت في فزع وأنا أمسك بذراعه: سلار..

وكنت على صواب، لم يجب وكأنه لا يسمعني ولا يدري بوجودي، هززته بقوة وقلت من جديد: سلار..

نظر إليَّ فجأة وكأنه لاحظني للتو ثم قال: نعم، مِمَّ تخافين؟

قلت وأنا أتنفس في راحة: بِمَ كنت تفكر؟

قال في لا مبالاة: لا أتذكر.

فقلت وأنا أضغط على يده: أحيانا تشرد بعيدًا ولا أجدك.

- أنا هنا معك، ماذا حلَّ بك؟!

- لم تكن معي.

بدا متحيِّرًا ثم قال: ربما، أحيانًا..

كانت لحظات رهيبة يا عمتي، ولا أدري أعِشْقُه جعلني أشعر به وهو يرحل بعقله عن الدنيا أم قُربي منه أم عذاب يصعُب إخفاؤه، ولكنه عاد إليَّ، كان دومًا يعود. ابتسمت وقبَّلت يده، فنظر إليَّ في دهشة ثم خرج. سلار يا عمتي رجل لا يترك عقلك لحظة، تنشغلين به وعليه، وكان له سحره الذي يطغى على كل مشاعر الغضب تجاهه، كنت أغوص في غلظته الظاهرة وأنتزع عنوة حنانًا لا يتجلى سوى لي.

وحملتُ في طفلنا الأول، وأخبرته في تردُّد وأنا أعرف أنه لن يكون سعيدًا ربما؛ فلا سعادة تدخل قلبه، هكذا قال.

كان يخطُّ على ورقة كلمات كثيرة..جلست أمامه وقلت: ما أجمل خطَّك..!

لم يجب.

فقلت: أتفضِّل اسم سلار أم حسام الدين..عندما أراك تكتب أشعر أنك حسام الدين..أحبُّ الاثنين معًا، وأحبك أنت دون اسم أو مكان وزمان.

أطال نظره إليَّ ثم قال: شكرًا لك.

قلت في تردد: تعرف..أعتقد أنني حامل.

توقَّف عن الكتابة ولم ينظر إليَّ. ثم قال: تعرفين هذا الإحساس الغريب بأنك تقومين بعمل لا ينتهي..ولا يحسم..هكذا أشعر..ما أحزنه هذا الزمن! وما أبشعه هذا العمل غير المكتمل!

قلت في إصرار وأنا أمسك بيده: ولكننا معًا، ووجودي معك هو كل السعادة والرضا، تريد طفلًا مني، أليس كذلك؟

قال بعد برهة: لا أريد أطفالًا يا هند، لا أريد من يحيا في زمن الهزيمة والفساد، ولكنني أعرف أنك تريدين طفلًا، هو حقك، لا بأس.

بلعت ريقي وحاولت السيطرة على غضبي ثم قلت: ربما يعوضنا عن الهزيمة، من يدري؟ ربما يأتي معه الانتصار.

قال في تأكيد: لا انتصار إلا بعد قرون من الزمن..في حروب كهذه لا بد من انتظار حكم الأقدار، ما هُدِمَ يصعب تشييده، وما فُقِدَ لا يمكن أن نجده.

قلت يومها في يقين: أنا متأكدة أن حكم مصر سيئول للمماليك مرَّة أخرى.

فقال وهو لا ينظر إليَّ: ربما..ولكن المماليك الآن ليسوا هم المماليك أنفسهم الذين حاربوا مع طومان باي، الهزيمة تكسر كبرياء الخير وتُخرج الضغائن.

لم أجد أيَّ طريقة ليشاركني فرحتي، ولا ليعرف حجم سعادتي بطفل منه، أمسكت بيده وقلت: تعرف أنني سعيدة معك، أليس كذلك؟

ابتسم في مرارة ثم قال: أعرف أنك تتحملينني، نعم.

قلت في تأكيد: ولكن عندما تأخذني بين ذراعيك ليلًا يهون العالم ويصبح التحمل لا شيء، شوقي لك لا يخمد، ولهفتي وأنا معك لن تنهزم.

ربت على يدي ولم يجب. ولم أكن أكذب يا عمتي، كنت أقول الحقيقة، سلار لا يتكلم عن مشاعره، ولم يخبرني ولو مرة بأنه يحبني، ولكنني كنت أعرف وأشعر به وهو بداخلي وبين أضلعي، وهو يحتضنني ويمرُّ بيده على شعري، كان كل دنياي واكتفيت به وبطفلي.

* * *

شهادة سلار (10)

حدثتك من قبلُ يا أبا البركات عمَّا جرى لثلاثة فرسان، أنقذتُ أحدهم بنفسي كما تعلم، واستقر سهمي في قلبه فنام في أمان، لا عاش أيام ما بعد الهزيمة ولا حلق لحيته ولبس ملابس العثمانيين وأصبح من رجالهم بعد أن كان سيِّد القوم وحامي الدار، إينال مات شهيدًا، وكثيرًا ما حسدته على ميتته هذه في معسكر سليم. أما قانصوه العادلي فاحترم الصداقة والقسم، ولكنه حلق لحيته وأطلق شاربه حتى أصبح كالجنود الإنكشارية لا تفرق بينهم في شيء. كلانا تغيَّر..كنتُ أنا فلاحًا وخطَّاطًا وأميرًا ولم أعد أعرف من أكون، استقررت أنا وهند في بلبيس، وأصبحت أدير شئون الإقطاعية بنفسي بعد رحيل عبد الله، وطلبت من عدلات أن تلحق بنا ،وبنيت لها بيتًا صغيرًا لتعيش فيه. تمنيت أن أكون فلاحًا وخطَّاطًا، ولكن الأمير لم يترك لي الاختيار، كان محبوسًا بداخل النفس يثور ويحطم قيوده ويعرف أن الحروب القادمة لا أمل فيها، فماذا سأكون الآن؟ شيخ بلد؟ مَنْ سأحمي ومَنْ سأقاتل؟ الفلاحين؟ أسأقاتل المصريين أم أدَّعي حمايتهم؟ هل سأطلق سوطي عليهم لألملم منهم الدنانير وأعطيها لسليم في بلاده؟ أيُّ عمل هذا؟! كنتُ السيد والملك في مكاني وكنت أملك كل الكون، اكتفيت بإقطاعيتي في بلبيس وإيراداتها، واعتزلت السياسة والحكم. أما قانصوه العادلي فشعر بامتنان شديد

بعد أن توسَّط له خاير بك عند السلطان الغازي فعفا عنه، كان يمكن أن يذبحه ويشق رأسه ولم يفعل، رحيم سليم شاه!..وحكيم! هكذا قال لي قانصوه عندما تقابلنا بعد بضعة أعوام وكان من شيوخ البلد، وكان يمسك بزمام مصر أو قطعة منها. اشترى الجواري واطمأن على مستقبل الأبناء، نام في سلام. ربما..بينما لم تذق عيناي طعم السلام ولا السكينة.

زارني بنفسه وقال في تأكيد: أسأنا فهم سليم شاه يا سلار..هي حرب وانتهت، لم يمس المماليك ولا أموالهم.

قلت في تهكم: بل علَّق رءوسهم في حبال تمتدُّ من القاهرة إلى الإسكندرية.

- كانت حربًا وحاربنا وانتهت الحرب وتركنا لحالنا، لابد أن تتأقلم.

ثم قال في تأثر: تعرف ما حدث من الجنود الإنكشارية تجاه خاير بك؟ حبسوه في القلعة وأهانوه وطلبوا المال وزيادة مرتباتهم، ولم يجد بُدًّا من الاستغاثة بالأمراء وفرض الضرائب الباهظة، إنه يحتاج إلينا يا سلار بل قوتنا الآن أكثر بكثير من قبل، لو اتحدنا معًا كما كنا في الماضي وكأن الأيام لم تمر يكون أفضل لنا وللبلاد.

قلت في حسم: ماذا تبغي؟

- يعيد إليك خاير جنودك، وتمسك بمشيخة البلد في أيِّ بلدة تريدها، وتحمي المماليك وأموالهم وليس العثمانيين ولا جنودهم، تفهمني؟

- اعذرني يا صديق اختلط عليَّ الأمر، تريدني أن أحمي خاير؟

- هو من المماليك أولًا وأخيرًا ونريد له العيش.

- أتسمع عن الظلم في البلاد؟

- كان هناك ظلم قبل العثمانيين، وبهم أو بغيرهم هناك من

ينحرف دومًا، هي طبيعة البشر.

- بل استفحل العذاب وابتكروا طرقًا للتنكيل بالبشر أقسى وأمرَّ، انسَ أمري.

توقف عن الكلام والتقت أعيننا ثم قال في صوت خافت: لا يوجد من يكره العثمانيين مثلي.

- كنت تقول إن سليم شاه ليس بهذا السوء.

- أقول ما أقول يا أخي، وأحارب بطريقتي ولنفسي، يومًا سيستقل المماليك بمصر مرَّة أخرى بل لا يعرفها سوى المماليك، هذا السلطان كالعنقاء نسمع عنه ولن نراه، سيبقى في الآستانة ونبقى نحن في مصر، كل مصر. طلب مني أن أدفع لجنوده الانكشارية ووافقت ساعتها، ثم رحل ولم أدفع دينارًا واحدًا. أموالي ليست للعثمانيين، كنا نتعلم يا سلار في القلعة أن المحارب لابد أن يكون مَرِنًا، يهرب من أضيق الفتحات ويطوع عضلاته لتتحمل وتراوغ، خاير بك ليس بهذا السوء وابنته كانت زوجتك، وكنت تقول إنها نعم الزوجة.

- ماض وانتهى.

- هذا ما جئت من أجله.

- من أجل إقناعي بأن خاير بك ليس بهذا السوء؟

-بل من أجل ابنته.

نظرت إليه وأنا لا أفهم، فقال: أريد أن أتزوجها وأنت صديقي وأخي فلابد أن أستأذنك. أعرفُ أن ما كان بينكما انتهى منذ زمن، وأن لك زوجة أخرى الآن، ولكن لا أريد أن أشقق ما تبقى من أرضنا الصلبة وصداقتنا.

ابتسمت في مرارة وأنا أتذكر كلمات خاير ثم قلت: زواجك منها لن يُحدِث الفرقة بيننا يا عادلي، لا تقلق، هو شاربك الطويل ما سيُحدِث الفرقة بيننا.

ابتسم وقال: لو فعلتُ مثلك وبنيت قلعة حول نفسي واعتزلت العالم فكيف أخدم مصر وأهلها، وكيف أساعد المماليك؟ يهمني أمر المماليك أولًا.

قلت في تأمل: ولكنك تجمع الضرائب من أجل سلطان عثماني هو سيدك، اعذرني يا صديق، سليم قتل أستاذك وأذلَّه.

- تتكلم وكأن كل المماليك أنا وأنت وإينال، وتعرف أن منهم الكثيرين الذين منهم مَنْ يقتل أستاذه أو أولاد أستاذه، لا تجعل الهزيمة تشوِّش ذاكرتك، من كانوا يقتلون ويرهبون ويخونون كانوا أيضًا من المماليك.

رددت: كانوا أيضًا من المماليك.

- لا بأس، أريد أن أزورك من حين إلى حين.

صافحته وأنا اعرف أن الطرق بيننا تفصلها أنهار وبحار وأن الذكرى لم يعد لها وجود.

كنا ثلاثة فرسان، ولم ينجُ منا سوى إينال، مات شهيدًا ولم يعاصر الذل.

* * *

كنت أبحث عن بقايا المعركة بقية عمري، أبحث عن الناس، الأماكن، الأسلحة، ما قد سُرق وما قد دُمِّر، وأول ما بحثت عنه هو عائلة الشيخ شهاب الدين، بعد ذبحه قمت بزيارة زوجته وأبنائه، وعرفت أن العقاب لم ينتهِ بقتله، بل صودرت أمواله كلها، وحتى الوقف الذي توارثه عبر الأجيال، وَقْفُ الأمير محمد المحسني أخذه خاير بك ولم يعد لعائلته أيُّ مورد، قررت أن أتكفل بأولاده وزوجته، وكان أملي أن تستمر المقاومة في هذا البيت وهذه العائلة، لم أكن أعرف المستقبل، وبدت لي مصر الآن مستكينة ومتأقلمة، ولكنها دومًا تدهشنا بشفائها بعد

مرض واستيقاظها بعد غفلة. كنت السبب في هلاك شهاب الدين، وكنت السبب في ضياع وقفه، وكنت منذ ذلك اليوم مسئولًا عن أولاده وزوجته الذين يصلهم إيراد شهري أكثر من إيراد الوقف. كنت أتابع دروس ابنه في الأزهر كل شهر، وأرى فيه شيخًا ومحاربًا كأجداده، وكان هذا انتصارًا صغيرًا يضيء عتمة الظلام ويجعل الألوان أقل بهتانًا. حرقوا مسجد شيخو العمري وبقي ثابتًا، من الصعب الانتصار على الأحجار ومصر ممتلئة بالأحجار يا أبا البركات، لم أزل أمرُّ بالمسجد وأرى آثار الحرق وصمود الحجر.

كان شهاب الدين يقول لي: عند انتهاء المعركة ابحث لتجد، فمن يبحث يجد، ومن يترك ينلْ، ومن يحزن على الدنيا يفنى فيها، ومن يجتز الدنيا يصل إلى الخلد. لنا لقاء قريب..في موعد آخر نتكلم عن هذا.

ولم نلتق ولم نتكلم وبحثت ولم أجد بعد، وحاولت الاجتهاد ولم أفز بالمعرفة، كانت كلمات بسيطة تخرج من فمه في سهولة، ولكنها مستحيلة استحالة الفوز الآن وتشييد ما هدم وبعث الحياة فيمن مات، لا تقابلنا ولا شرح لي، كنت أنظر إلى ابنه وهو يتلو القرآن وأرى عينيه القويتين المنكسرتين وعزيمته وثباته فيعطيني بعض الأمل.

* * *

كنت ألهث وراء عهد فات وانتصار قديم وقوة لم أعاصرها، ذهبت إلى زيارة مدفن الأمير محمد المحسني ومسجده لأوبخ نفسي على ما ضاع، وما لم نتمكن من الاحتفاظ به وسط الحيرة والذخيرة. كان ينتابني الفضول لمعرفة هذا الأمير المملوكي وعائلته وكيف أوصى بوقف لجَدِّ شهاب الدين ولماذا فعل هذا؟ ولماذا تلتصق بسيرته قصص الشجاعة والعدل

والجُود والرحمة. ذهبت إلى مسجده وسألت عن سيرته وأقسمت أن أحفظها عن ظهر قلب؛ فإن لم نبلغ المراد فلا بد من دفء الماضي للعيش، وإن لم نفلح في البقاء فلا بد من حكايات الأبطال حتى لا نفنى. الأمير محمد المحسني، كان مِثْلي ربما، جاء من بلاده البعيدة بلا اختيار وبلا معرفة بما هو آت، واستقر قلبه في مصر فأصبحت مطمعه ومصدر شغفه. كان محاربًا ومنتصرًا وكنت محاربًا ولم يتسَنَّ لي الانتصار، جاء في زمن القوة وجئت في زمن الوهن، كان مني ومثلي، كنت أتصوره في مخيلتي، وكلما نظرت إلى وجهه رأيت وجهي، كنت أتصوره وأضع سيفي مكان سيفه وجثتي مكان جثته، لن يتسنى لي البناء مثله، وسأهيم في الصحراء تائهًا كالمغضوب عليه، أو أنفي نفسي وأغلق عقلي عمَّا حولي ليتسنى لي العيش، فلا تعايش مع الحاضر والباقي، كنت أعاصر الظلم حولي وأراه يتفشى، وكأن المماليك يعرفون أن العمر أصبح قصيرًا وأن صعاليك الصحراء لا يختلفون عنهم كثيرًا، لكل منهم أجل ونهاية، اليوم أو غدًا. يا أبا البركات، العيش على قاذورات المنتصر وسرقتها ليس من سمات الجنود، ولكن بعض المماليك فضَّلوا هذا على ما أعتقد.

كان يفصل بيننا قرنان أو أكثر، وكنتُ إيَّاه أو تمنيت.

مررت بيدي على قبره وقبر زوجته المصرية، زينب بن أبي بكر المقشعي، لا بد أنها كانت محاربة كهند، فمن تستطيع ترويض الجنود فلا بد أن تكون محاربة، لو كانت حيَّة لوجدتْ في هند صديقة وأختًا، ولكن حمدًا لله أنها رحلت قبل النهاية والانتهاء من البناء. ترى لو أنجبتُ أنا ولدًا هل سيستطيع بناء مسجد كمسجد السلطان حسن؟ هل سيصبح مُشيِّد عمارة كابن الأميرمحمد؟ ولِمَ يبني ولمن؟ سلطان الآستانة قلبه هناك ولا علم له بأحجار مصر وعمائرها.

* * *

شهادة الترجمان مصطفى باشا العثماني (9)

سليم شاه يا أبا البركات هو أعظم الملوك على الإطلاق، كانت لديه حُنْكة الحاكم وجسارة القائد، وموته كان فجيعة لنا جميعًا، ولم نعرف بعد كيف مات، وما هذا المرض الغريب الذي أصابه بعد ثلاث سنوات من فتح مصر. ما أحزنني حقًّا هو حلمه الذي لم يتحقق، فلم يسنح له العمر ببناء المسجد، واستمر مسجد السلطان حسن في القاهرة فريدًا وحيدًا لا يحاكيه مسجد في بلاد المسلمين. جمع ملك الملوك سليم الرجال والمال، وخدعته الأيام وانقضَّتْ عليه في ليلة، وكثرت الشائعات، بعضهم قال إنه مات مسمومًا، وبعضهم قال إنه مرض بوباء لا شفاء له، وبعضهم في مصر قال: إن لعنة باب زويلة حلَّت به فأهل مصر يتقنون السحر منذ القدم، ولديهم لعنة يصبُّونها على من يقتل ملكهم فتفتك بالجسد وتفنيه، يقولون هنا في الآستانة: إن شر السحر أصاب الخليفة فقتله، وإن طومان باي عندما أمر المصريين قبل موته بأن يقرءوا الفاتحة له ثلاث مرات كان في الحقيقة يأمرهم بقراءة تميمة من القدم يعرفها أقباط مصر، تفتك بالجسد وتنتقم من الروح، وأصبح كل من يمر على باب زويلة يردد التميمة، ولا تصدق يا أبا البركات أن من يمر بهذا الباب يقرأ الفاتحة ثلاث مرات على روح السلطان؛ فأكثرهم لا يعرف كيف يقرأ الفاتحة.. يا أبا

البركات..مات الخليفة ولم يحقق حلمه، مات بلعنات سلطان مصر القتيل مثله مثل الكثيرين من القدماء؛ فلعنات السحرة في مصر معروفة لنا. ولكنه حرَّرني من أسر أحزان قلبي ..وُلِدَ ابني ولم أره، وكانت خوند تتر تبعث لي برسائل الشوق كل شهر، وتقول إنها باقية على العهد والوعد وأحيانا تتهمني بأنني نسيتها وعدت إلى زوجتي وحطمت قلبها الهائم، وكانت تمزق أضلعي بكلماتها ولم أنسها قط . ثلاث سنوات يا أبا البركات وأنا لا أجرؤ على طلب العودة إلى مصر، بعد أن مات سليم طلبت من ابنه سليمان أن يبعث بي إلى مصر؛ فأنا أتكلم لغتها وأعرف أهلها. ووافق ربما على عجل، فعدت إلى مصر، ووجدت خوند تتر على عهدها وجمالها، أنا صادق معك يا أبا البركات لأنني مثلك أبحث عن الحقيقة.

* * *

شهادة هند (12)

لم يتغير مع الوقت وكأن أيامه توقفت يوم رأى السلطان مُعلَّقًا على باب زويلة، كنت أتعمد أن أعطيه محمدًا ابننا لعله يرتبط به بعض الشيء، وارتبط به بعد حين، وسمعته ورأيته يتكلم معه يومًا وهو نائم، ويقول: لا تحزن ولا تصدق ما سيكتبون، جَدُّك يعرف الحقيقة، اقرأ كتابه هو، سأشرح لك عندما تكبر..كل شيء، مَنْ خان ومَنْ حارب ومَنْ انهزم ومَنْ مات، ستفهم، وتعرف.

أصر على تسمية ابننا محمدًا و عندما سألته عن السبب قال إن هناك أميرًا من المماليك البحرية كان يدعى الأمير محمدًا المحسني وقال إنه يريد لابنه أن يذكره بسيرة الأمير و سلالة الأمير و أن الذكرى تنفع في وقت الضيق و اليأس من الخلاص. و لم أعترض.

ثم أصبح يحكي لابننا محمد قصة كل حين عن ثلاثة فرسان، كانت نفس القصة، وفي كل مرة يحكيها يستمع إليها محمد بنفس الحماس، وسمعته يقول: كنا ثلاثة فرسان نجتاز الجسر معًا، وخرج الوحش من الأعماق ونفخ النار في الأحجار، فانهار الجسر أو كاد، فقال فارس: درْعي يقيني من النار، وقال فارس آخر: سيفي يقيني من الوحش، وقال الثالث: الوحش ليس بهذا السوء، ربما لو استمعنا له يتركنا نمر في أمان، غرق الفارس الأول، وانهزم الفارس الثاني، وطمست النار معالم

الثالث فلم يتعرف عليه أحد.

وكان محمد يسأل عمَّا حدث للسيف والدرع، وكان يريد أن يعرف مَنْ مِنَ الثلاثة والده، ولكن سلار كان يتجاهل أسئلته ويستمر في الحكي، وبعد أن يحكي القصة يصيبه الغم ثم الراحة لبرهة.

أصعب وقت يمرعليه كان دومًا منتصف النهار، كان يدور في البيت كأنه أسد حبيس يجري في مكان ضيق، ويحوم حول نفسه في إحباط، تعلمت أن أتحاشاه في هذا الوقت كل يوم، وأن أذهب إلى حجرتي أو حجرة محمد وأتركه حتى يهدأ. مرَّة فتح خزانة سيوفه التي كان يحتفظ بها في أسفل البيت وبدأ يتدرب على المبارزة والرمح، ثم وضع السيوف في الخزانة، وقال في حسم: هند، أحرقيها..لا خير فيها.

قلت وأنا أغلق عليها الخزانة: فلنُبْقها في الخزانة.

فصاح في وجهي: عندما آمرك بشيء تفعلينه بلا نقاش.

انتكس رأسي ولم أنطق، أخذ يحوم حول الغرفة وأنا في مكاني ثم قال: ماذا تريدين؟

قلت في هدوء: لا شيء.

- بل تريدين أن تقولي شيئًا، ماذا تريدين؟ ولِمَ لا تريدين أن تتخلصي من السيوف؟ ماذا أفعل بها وأنا أعرج؟ أيُّ أمير يحارب بلا قدم؟! وأحارب من؟! ومن أجل ماذا؟!

قلت في رفق: هي ذكريات نحتفظ بها، بها المُرُّ والعذب.

قال في حدة: لا أحب هذه النقاشات..تتناقشين كثيرًا وتعارضينني..لابد أن تكفِّي عن هذا.

صَمَتُّ وكتمتُ غضبي. و كان لدي الكثير الذي أود أن أقوله و تمنيت أن أصيح في وجهه و أترك الحجرة غاضبة و لم أستطع، ليس خوفًا يا عمتي بل لأنه كان قد أمسك بأطراف القلب بيد

من حجر لا قدرة لأحد على تحطيمه. مجرد ظهور الحزن في عينيه كان يصيبني أنا بالهم.

قال في حِدَّة: لم أسمع وعدًا بأنك ستكفِّين عن معارضتي.

قلت: سأكفُّ عن معارضتك.

ثم خرج من الحجرة إلى الحقول ولم يعد سوى في المساء، جهزت له الطعام وجلست أمامه بوجه عابس ولم يأكل، فقلت في حب طغى على كل حنقي: سلار..مازلت غاضبًا؟

نظر إليَّ في ذهول ثم قال: لماذا أغضب منك؟ لست غاضبًا منك.

ربتُّ على كتفه وقبلت ذراعه، وقلت: فلتأكل إذن، من أجلي.

بقي صامتًا ثم دخل الحجرة ولم ينم ولم يتكلم، احتضنته ولم يعترض، ولم أنبس بكلمة حتى الصباح وخوفي عليه يعتصر القلب. في الصباح كان في حال أفضل وخرج يتفقد إقطاعيته، ثم عاد وبدأ في خط كتاب والدي لنسخ عديدة، ورأيت بعض السكينة تتسرَّب إلى عينيه فهدأت نفسي واستقرت. بدأت أعتاد أطواره وطقوس عقله، وأعرف أنه دومًا يعود إليَّ من رحلات الماضي والحزن، هالتني ذاكرته الدقيقة وإدراكه الواسع لكل تفاصيل المعارك وأعداد الجنود والسلاح، كان يختزن التاريخ كجدران المساجد، كان يعرف من صلَّى ومن قُتِل، ومن غلبه طمعه، ومن باع نفسه، ومن اشترى روحه، ومن ضلَّ، ومن عاد، ومن فنى، ومن تُخلِّد اسمه الجدران.

* * *

تتذكرين يا عمتي، عدلات وابنتها ست الدار التي تزوجت من الرجل الطيب زياد؟ أنجبت ولدًا، وبعد أقل من عام من زواجها هربت يا عمتي، وتركت الزوج والولد الذي ليس من صلبه والأم التي فقدت الكثير. لم يعرف أيٌّ منا مكانها، ولكنني سمعت

بعض الإشاعات لن أكررها الآن لأنها تخوض في أعراض نساء، وتسيء لها إساءة بشعة. لم تظهر مرة أخرى مما يعني أن لديها مالًا يكفيها، وهذا يجعل الإشاعات أكثر إقناعًا، ولكني لن أخوض في أعراض. بعد مأساة زياد لم يعرف ماذا يفعل بهذا الطفل، ولأن قلبه كلُّه عطاء قرر أن يربيه هو، وكان يزور عدلات كل شهر وأحيانا كل أسبوع، ووهب حياته لهذا الطفل وللعلم. ستبتسمين يا عمتي عندما أخبرك بهذا الأمر الذي جرى، سلار كان يعرف أن زيادًا أراد الزواج مني، ولا تسأليني كيف، ومنعني من رؤية عدلات سوى معه خشية أن أرى زيادًا مصادفة، بل وتشاجر معي يومًا، وقال: إن زيارة أبي أيضًا ستكون معه لأن زيادًا يتردد على أبي دون موعد. قلت حينها وأنا أحاول أن أثنيه عن قراره: يا سلار، أبي سيحميني و..

قاطعني وقال في حزم: عندما آمرك لا أحب المجادلة.

وفي ذلك اليوم الذي عرف فيه خبرهرب ست الدار كان عصبيًّا وثائرًا، وكان يسبُّ النساء ويلعن خيانتهن، وبقيت ساكنة في مكاني، وكنت سعيدة يومها سعادة ممتزجة بالرهبة، كنت أخاف غضبه وأعرف ثورته بعد هذه السنين، وكنت سعيدة بغيرته بعض الشيء وخائفة من فقدان ثقته.

قلت بعد برهة: ليس كل النساء سواء، أنت تعرف.

تفحص وجهي ثم قال: ماذا تبغين من هذه الجملة؟ قلت لك: لا زيارات إلا معي وانتهى الأمر.

قلت: الأمر لك.

التقت أعيننا برهة، وفاجأني لحظتها وأحاط وجهي، وقبَّلَني على شفتيَّ قبلة قوية ومسيطرة، ثم خرج وهو يسبُّ كل النساء وثورته لم تهدأ.

* * *

وعرفت أن لحظات الهدوء تأتيه وهو يجري بفرسه متناسيًا البتر في قدمه ومسيطرًا وجامحًا بلا حدود للمجازفة، وبلا رادع للشراسة بداخله، وأحيانا ينتابه الهدوء وهو يخطُّ في تمهل كلمات من القرآن أو الشعر، ويهيم في عالم آخر بلا عنف ولا جموح، عالم كله بطء وقواعد ورموز وأرقام وحروف وكلمات لا تترك الذاكرة. كنت أجلس بجانبه أحيانًا وأقطب حاجبيَّ وأنظر إلى يده في إعجاب، وأستمتع بلحظات الهدوء القليلة ولا أتكلم، بل أتنفس في خفوت حتى لا أزعجه. كثيرًا ما كان يتجاهل وجودي أو لا يلاحظه، وأحيانا كان ينظر إليَّ برهة ثم يكمل الكتابة، ويومًا ابتسم وهو يكتب، وقال: يمكنني أن أكتب لك حكاياتك أيضًا.

نظرت إليه في فزع ثم قلت: أي حكايات؟

- شهاداتك يا هند، ما تقصّينه على عمتك، هل ستخبرينني بما تقصّينه عليها؟

لم أسأل كيف عرف ولا ماذا يعرف، قلت: هي ثرثرة نساء لا أهمية لها يا سلار.

قال وعيناه لا تتركان الحروف: في ثرثرة النساء صدق المظلوم وصرخات المقهور، وأنت بالذات تعرفين.

بلعت ريقي وسندت يدي على كتفه، وقلت: ماذا أعرف؟

- معاناة الحرب وجنونها.

قلت في تأكيد: أقسم لك أنني لا أحكي سوى الحقيقة وأنني..

قاطعني: لا شك لدَّي في هذا، صراحتك صدمتني كثيرًا، تتأملين كوالدك، وتظنين أن في كتابة التاريخ شفاء للنفس.

قلت في فضول: تحكي لأبي وتكتب لماذا؟

- والدك يا هند يستمع للكثير من الحكايات، لديه صبر وأُذُن

تفرِّق بين الكذب والصدق، وتغربل الحقيقة عن الهوى.

- إنْ كنت قد سئمت الحكي فسأخبره.

- في الحكي بقائي يا هند، وفي الكتابة والنسخ انتصار خاص لا يفهمه سوى العالم، والدك يعرف.

طوَّق كتفيَّ ثم أعطاني القلم، وقال: هذه الأوراق باهظة الثمن، لابد أن تتقني الكتابة، هيا لأعلمك الخط ثم تَخُطِّين حكايتك.

أمسك بيدي ساعتها ومرَّ بها على الورقة، ولم أتقن الخط، ولكنني شعرت بأنفاسه حولي ويده القوية تمسك بأصابعي وقبلاته على رقبتي، فقلت في صوت واهن والشوق يطغى: الأوراق باهظة الثمن يا سلار.

قال وهو يقبِّلني: أعرف.

تركت القلم وعانقته في قوة وقلت في توعُّد: سأحكي كل هذا.

همس وهو يقبِّلني: لا تخيفني حكاياتك، أريد أن ألقِّنك درسًا حتى تتوقفي عن الجلوس أمامي ساعات وأنا أكتب.

قلت في تَحَدٍّ: لن أتوقف.

- نفسك معجونة بالعَنْد والتحدي، ولكنني سألقِّنك الدرس على كل حال.

كان يضحك يومها، وكنت أضحك كالطفل وسط النخيل، في حرية وترقب، وهذه لحظات يصعب كتابتها يا عمتي، كانت مصر فيها في مخيلتي كالقمر المستدير، ضوءُها يسطع على الكون، وحوادث الليالي لا تبلغ ارتفاعها ولا زهوها. أما سلار..فلا أعرف ماذا أقول عنه، كان كل أحداث الليالي مجتمعة، وكان يعطي لعمري الضوء الدافئ، ويغمر نفسي بحنو يحمي من كل سوء.

* * *

موت خاير بك أسعد أهل مصر وأخافهم في آن واحد. سمعت من النساء أن لعنة أصابته كما أصابت سليم شاه من قبله، وأنه مات معذبًا، وتألَّم سنة أو ما يقرب، ولم يعرف كيف يخفِّف آلامه، يقولون يا عمتي إنه تصدَّق بكثير من أمواله على الفقراء، وكان يشترط عليهم أن يدعوا له بالشفاء أو بالموت، ولكن بدا أنه لم يفلح في شراء الرحمة فهي بيده وحده عالم الغيوب. قدَّم الولائم وهدَّد الفقراء عندما ازدادت حِدَّة الألم بأنه سيقتلهم جميعا لو لم يدعوا له، وفعلوا بصوت عالٍ، ولكن يبدو أن التهديد والوعيد لا يشفيان من مرض ولا يرحمان من نار. دعا له الشيوخ في المنابر والسيوف على ظهورهم، ودعا له شيخ البلد وهو يخوزق سارق برتقال في السوق..ودعا له جنود الإنكشارية وهم يلملمون الضرائب عَنْوة من بعض التجار، ولم تفلح كل الدعوات. مات يا عمتي وهو أغنى رجل عرفته مصر، ووجدوا في حوزته ستمئة ألف دينار، لا استمتع بماله ولا تركه لأولاده، أخذه العثمانيون في الحال، ولم يشفع له إخلاصه لسيده وهو الخائن، ولا الضرائب التي جمعها من أهل مصر من أجل سيده في الآستانة.

يقولون يا عمتي: إن لعنة أصابته هو وسليم شاه بعد خيانة طومان باي وقبله الغوري، يقولون: إن المصريين القدامى يتقنون السحر، وإن من يخون ملوكهم العادلين تصيبه لعنة لا قِبَلَ له بها. أُصَدِّقُ هذا القول يا عمتي مع أني أعرف أن السحر حرام، ولكن كيف تفسِّرين هذه الميتة وهذه الآلام بعد وقت قصير من مقتل طومان باي؟ هدأت روحي ولم أزل أمرُّ على باب زويلة وأقرأ الفاتحة لآخر سلاطين المماليك.

ثم جاء يوم أتذكره جيدًا زارتني فيه امرأتان، كلتاهما جميلة

وكلتاهما من أصل نبيل، والاختلاف بينهما واضح، والغم أصاب قلبي من الزيارة الثانية وليس من الزيارة الأولى.

جاءتني خوند تتر على غير ميعاد وطلبت مقابلتي أنا وليس سلار، وكنت قد سمعت عنها من سلار، وأعرف حكايتها، وأعرف سخط سلار عليها ورفضه رؤيتها بعد زواجها من مصطفى باشا، ولكنني قابلتها بالترحاب وقدمت إليها الطعام وهالني جمالها ورقتها حتى شعرت ببعض الغيرة وحمدت الله أنها متزوجة، وطاف في خيالي حلم بأن زوجي ربما كان سيفكر بالزواج بها لحمايتها، ولكنني كنت أطرد الأفكار الشيطانية؛ فسلار لم يَخُنِّي ولم يفكر في غيري منذ زواجنا.

كان مجلسًا مضطربًا، ولم أكن أعرف ماذا تريد ولا ماذا عليَّ أن أقول. ابتسمت وبقيت صامتة بعد السلام أنتظر أن تتكلم.

قالت بعد برهة: عرف سلار كيف يختار زوجته.

شكرتها في إحراج، وكنت أود أن أقول إنني لست بجمالها ولا بهيئتها وغناها.

قالت في صرامة: سلار لا يريد أن يقابلني، أعرف.

قلت مسرعة: أبدًا، هو فقط مشغول و..

قاطعتني: لا بأس، جئت لأن زوجي طلب مني المجيء.

بلعت ريقي وقلت في تردد: زوجك مصطفى باشا.

- ليس لي زوج آخر يا هند.

- بالطبع، اعذِريني، ما الذي يحتاج إليه زوجك؟

قالت في هدوء: يريد أن يتكلم مع والدك، عرف أن والدك يكتب تاريخ مصر، ويريد أن يخبره بحقيقة ما جرى، العالم لا بد أن يستمع إلى كل الأطراف، ولا يفضِّل حكاية عن أخرى لمجرد أن قلبه يهوى طرفًا دون الآخر، هكذا قال زوجي.

قلت في تأكيد: أبي سيرحب باستقبال مصطفى باشا وسماع شهادته، بل كان يبحث عمَّن يحكي له ما حدث من منظور مختلف، هو يبحث عن الحقيقة يا خوند وليس عن هوى القلب.

- لا تقولي لي خوند، ناديني باسمي، تتر فقط.

قلت في تردد: يا تتر أعرف أن أبي سيرحب.

- هل ستخبرين زوجك؟

ساد الصمت ثم قلت: لو كذبت عليه يثور وأخاف إغضابه.

ابتسمت في حنين ثم قالت: نعم..إينال كان يقول إنه يغضب سريعًا ويغيّر جواريه كل شهر وكأنه يشتري رداء جديدًا. غيَّره الحب على ما أعتقد.

قلت في خجل: بل هي الظروف تغيِّرنا كلنا.

نظرت إليَّ بعين ثاقبة، ثم قالت: تعرفين يا هند، هذه حرب توهم الرجال أنهم حاربوا فيها، ولم يدفع ثمنها سوى النساء، من حارب ومن خسر ومن قاوم ومن هلك هو نحن النساء، وليس الرجال.

لحظتها لا أدري لماذا شعرتُ بانجذاب إليها، وكأنها ليست المتسلقة الشيطانة التي يتكلم عنها زوجي، فقلت في صوت خافت: معك حق.

قالت: أنت مختلفة عن سعادات، كانت صديقتي.

قلت في فضول: مختلفة كيف؟

- أكثر شراسة وأكثر عنفا لا تؤاخذيني، أتكلم معك بصدق، المحارب لا بد أن يتزوج ممَّن تقوى على مبارزته، وليس من تستسلم له فيعاملها كرداء قديم يرتديه من أجل ذكرى جميلة أو أداء واجب.

قلت في حيرة وشيء من الدهشة: أنا عنيفة؟!

- العنف والشراسة بداخلك يا هند، أراه بوضوح، أما الرقة والحنان فهما كالكحل في أعيننا، لا بد أن نرتديه كل يوم وإلَّا بدا الوجه باهتًا.

قلت في شيء من التعاطف: أعرف أنك قاسيت في السجن، لا بد أن موت إينال كان صعبًا عليك.

ابتسمت ابتسامة لن أنساها مادمت أحيا، ولم أكن أعرف أهي ابتسمت في شوق أم في استسلام أم في تحدٍّ، ثم قالت: عوَّضني الله بزوج عظيم. يملأ كلَّ عمري يا هند.

ثم رددت: كلَّ عمري.

ورحلت وقد وعدتها أن أبي سيستمع ويدوِّن شهادة مصطفى باشا الترجمان، رحلت وتركت قلبي حزينًا ونفسي مقبوضة. لا أعرف هل انتشر حزن دفين من داخلها حولي أم أن هذا كله من وقع خيالي ورؤيتي للحب، لم أتأكد قط. ولكن الزيارة التي جاءت ليلًا كانت أخطر وملأت الروح بالحزن، وكانت زيارة من سعادات بعد أن مات والدها وطلَّقها العادلي ودخل البؤس على عائلة خاير بك وصودرت أموالهم.

يا عمتي، ما عذبني هو التَّوق في عينيها، كنت أتمنى أن تكون مثل والدها كريهة طامعة ولا أدري إنْ كانت كذلك. كنت أكرهها منذ زمن وأخاف من حنينه لها ولعمر كان من قبلي، ولم أكن أدري أهي أنانيتي أم عشق يسيطر عليَّ ويجعلني لا أريد أن يرى غيرى. ولكن الكوابيس في هذا الزمان دومًا تتحقق، جاءت إلى بيته وفتحتُ لها بنفسي، بادلتني السلام وعيناها منهزمتان مستسلمتان، ثم طلبت أن تقابله، أيُّ جرأة هذه يا عمتي؟! وأيُّ ابتلاء؟!

قدَّمت لها الحلويات والعصائر وأنا أتغلب على هوى نفسي

بصعوبة، ولثوان كنت أكرهه وأكره نفسي وألومه على أنه لم يترك لي الاختيار من قبل.

كانت تنظر إليَّ في أسى ثم قالت بعد برهة: كيف حال سلار؟

قلت في حيرة وأنا لا أعرف كيف أكرهها ولا أستطيع: بخير.

ابتسمت في حنين وقالت: ألم يزل عنيدًا وطاغية كعادته أم تغيَّر؟

نظرت إليها ورأيت سنين بينهما، كانت تعرفه وكانت جزءًا من ماض لا أستطيع الوصول إليه، غِرْتُ منها ومن ماضيها، وأيقنت أن هناك ما لم أحط به علمًا.

طأطأت رأسها ثم قالت: لا تؤاخذيني يا خوند هند، جئت بلا موعد وأنا أعرف أن زيارتي تقلقك.

قلت: يا خوند سعادات أرحب بك في أيِّ وقت.

قالت وتوق يغمر عينيها: من الصعب عدم الوقوع في حب سلار، تعرفين هو كالنمر والفهد، كالحيوانات المفترسة، جلده يلمع بألوان تجذب العين فتنسي برهة أنه يمكن أن يقضي عليك في أقل من لحظات. يخدعك ويغرقك ويترك النفس معلقة في الهواء.

كلماتها بدأت تصيبني بضيق وعدم أمان، كانت تعرفه عن ظهر قلب، وليس أسوأ على الزوجة من وجود امرأة أخرى في هذا الكون تعرف زوجها وتفهمه. لم أجب، فقالت بعد برهة: لا تؤاخذيني.

ثم نظرت حولها وقالت: أنت امرأة وتعرفين..

قلت في جفاء: ماذا أعرف؟

فقالت وهي تنظر إلى الأفق: كثيرًا ما كان يهيم بالجواري يومًا أو اثنين ولم أكن أغار عليه، ولِمَ أغار؟! الجارية لا تعطيه ما

تعطيه له الحرة، كنت أريده سعيدًا فقط، لو أعجبه صوت جارية أو رقصها أتركه بعض الوقت وأنا على يقين أنه سيعود، وكان يعود، ألم يزل يفعل هذا؟

قلت في عصبية والحديث لا يستهويني: لا.

التقت أعيننا ثم قالت: لا تسمحين له أم لا يريد هذا؟

لم أجب، فقالت بعد حين: هل ستسمحين له أن يقابلني؟

قلت حينها في شيء من الشفقة وبعض الخوف: بالطبع.

قالت في هدوء: لو تقابلنا في زمن غير الزمن ولم يقف بيننا أمير بسيف إلى صدري وآخر إلى صدرك لكنا سنصبح أصدقاء.

قمت وقلت: سأنادي على سلار.

أخبرته بمن تريده سعادات ابنة خاير بك. بقي صامتًا برهة، ثم خرج لها وأنا أتابع عينيه وعينيها من نافذتي، وأستمع للحديث ولا أنساه ما دمت أحيا.

انتكس رأسها وبدت متعبة مهمومة، جلست أمامه، وقالت: كنتُ دومًا أتقبل القضاء في صبر، ولكنك كنت قاسيًا معي، قتلتني يا سلار.

بقى صامتًا وعيناه لا تتركان عينيها ثم قال: كيف تعيشين؟

قالت سعادات بصوت خافت وأنا أحاول أن أسترق السمع: لا أعيش، تعرف أنني لا أعيش.

رأيت عينيه تنظران إلى النقوش على السجادة ثم قال: هي أقدار مكتوبة علينا.

ترددت ثم قالت: رفضتني وأنا ابنة الخائن الغنية التي تسيطر على كل الأرض وتملك كل شيء، والآن وأنا لا أملك قوت يومي ماذا ستفعل؟

نظر إلى عينيها برهة ثم قال: مادمت على قيد الحياة فلن

أراك منتكسة الرأس، ولا أريد أن أراك أبدا وأنت تحتاجين إلى أي شيء.

أمسكت بقلبي والتنفس يراوغني في لحظتها، وأقسم أنني رأيت الحنين في عينيه يا عمتي، وكرهته كُرْهًا لا يوصف، وودت لو أستطيع أن أصرخ في وجهه الآن، في تلك اللحظة.

قالت سعادات في مرارة: تعرف ما فعلتَ بي؟ تعرف ما شعرت به وما قاسيته وأنا متزوجة من رجل وقلبي ونفسي ملك لآخر؟ لم ترحم ولم تفهم، تعرف الشوق للمستحيل والشعور بأن ما يحدث منفصل عن الروح، وأن الروح هائمة في مكان ما خارج الجسد. قانصوه العادلي تزوجني من أجل أبي، وطلقني بعد أن مات أبي مباشرة، لم يفكر إلا في مصلحته ومكاسبه، بعد موت أبي قال لي إنه يعرف أني لم أحب غيرك، قال إنه يكرهني ويكره أبي ويحتقره.

سكتتْ ثم قالت في صوت باكٍ: ضربني وقال إني أستحق الموت لأني لم أخلص له ولم أفكر سوى بك. أخلصت له يا سلار ببدني، ولكن قلبي لم يخلص له، عذبني وعذبته على ما يبدو. لم أرْجُكَ من قبلُ لأن كبريائي منعني، تعرف.

عبس وجهه ثم قال في رقة: أعرف، ولن ترجوني الآن، ولن أرى الذل في عينيك أبدًا، تستحقين الخير.

قالت في صوت حزين: لا خير في حياتي إلا معك، حتى وإن كنتُ جزءًا من حياتك وليس كلها.

نظر إليها، وقبضتُ على يدي وقلبي ينتفض في صدري..

قال في صوت هادىء: سأستأجر لك بيتًا، وستحصلين على ما يكفيك كل شهر، هذا واجبي وليس تفضُّلًا عليك، كنت ومازلت أميرة وأفضل السيدات، لو احتجت إلى أي شيء تأتين إليَّ..

التقت أعينهما، ثم ابتسمت في أسى وقالت: تعرف ما أحتاج إليه، وأعرف أنك لن تعطيه لي، لا بأس، أهو غضبك مني محا كل المشاعر بداخلك أم كبرياؤك وهزيمة المماليك؟

قال في رقة: أنت زينة النساء.

- لا أسامحك.

- لا أسامح نفسي على الكثير مما فعلت.

- لا أحتاج إلى أموالك يا سلار.

قال في حسم: بل تحتاجين إليها، كُفِّي عن الغرور والكِبْر، هي حقك، عمر عشناه معًا.

- لا شفقة ولا عطف يشفعان لك.

- هي حقك يا سعادات، أنقذتني مرَّة ومرَّتين، تظنين أنني لا أعرف؟

وضعت يدي على فمي وشهقت.

نظرتْ إليه ثم قامت وقالت: ماذا تنوي؟

قال: اليوم تنتقلين إلى البيت الجديد، ولابد أن نجد من يستحقك.

قالت في جفاء: تريد أن تزوجني كما فعل أبي لعلك تنسى ظلمك وافتراءك؟

قال في حنان: لعلي أنسى ظلمي..وقسوة الخيانة والقلاع المُشيَّدة بيننا.

قالت في أسى: افعل بي ما شئت، زوِّجني وأعطني المال والمسكن، واعرف أنك ملكت أعماق القلب ولم تتزحزح عن ملكك وعرشك يومًا.

التقت أعينهما ولم أرَ عينيه، ولكن انتابني إحساس شرِّير بأنها تملك جزءًا من قلبه، كدت أفقد عقلي ومرادي. ثم قالت

في صوت خافت: عزائي أنك حي، قلت لك هذا من قبل وأقولها اليوم وكلَّ يوم.

صدى كلماتها لم يترك أذنيَّ، أنقذته مرة ومرتين، هكذا قال، أرادته حيًّا ولو بعيدًا عنها، هكذا قالت.

تحاشيته طوال اليوم، ونمت في حجرة ابننا محمد، بل لم أنم ليلتها، ولم يبحث عني، وكنت أعرف إنه يحتاج إلى الوحدة أحيانًا، وأن الحنين بداخله مستقر. يا لَعذاب الزمن وألاعيبه القاسية!

احتضنت ولدي يومها والشك يقتل اليقين والفوز ليس دومًا مكتملًا، بل ليس مكتملًا أبدًا.

هزَّني ابني وأنا متسمِّرة مكاني والكلمات لا تتركني أنام أو أصحو: أمي، تجلسين كالمسحورة، أأنت بخير؟

قلت في مرارة: داء أصابني على ما يبدو، لا تقلق سأكون بخير.

في اليوم التالي لم أعد إلى حجرتنا ولم أبادله الكلمات، جاء ليلا وكنت أحتضن محمدًا وأتظاهر بالنوم، قال في حسم: ستأتين إلى حجرتنا الآن.

قلت في هدوء وأنا مغمضة العينين: أفضِّلُ النوم هنا.

قال في عدم صبر: ستأتين، أريد الكلام معك.

أمسكت برقبتي وأنا أخاف كلماته وأتوقع الخيانة، وقلت في تصميم: سأبقى هنا.

فشدَّ يدي وقال: هيا يا هند..

ذهبت إلى الحجرة وجلست على فراشه ولم أنطق.

قال في صرامة: لِمَ تتحاشينني؟

قلت بلا إرادة: تحبُّها؟

فلم يجب.

قلت في مرارة: تريد العودة إليها؟

قبل أن يجيب قلت مسرعة: هي تحبك، لم تزل تحبك، ليست بهذا السوء، كنتُ أتوقع أنها وحش كاسر ولكنها جاءت مهزومة وعاشقة، أعرف الصدق وأراه.

قال في تحدٍّ: وإذا كنتِ تعرفين الصدق فأنت تعرفين إجابة أسئلتك، تبحثين دومًا عن كلمات تخرج طوع الإرادة ولا تعني الكثير.

قلت في صوت مبحوح: تريد العودة إليها؟

قال في حسم: لا.

ثم مدَّ ذراعيه وقال: تعالى هنا..

ترددت قليلًا وكنت لم أزل أشعر بمرارة في حلقي وغيرة تطغى على كل الحب.

أمسك بذراعي وجذبني إليه وقال: هيا تعالي.

فاتجهت إلى ذراعيه وأرحت رأسي على صدره.

أحاط كتفي ثم قال: لا تتركي حجرتنا مرة أخرى.

كنت أريد أن أقول الكثير، طوال الليل وأنا أفكر فيما جرى وما فات، ترى هل جعلني جاريته لينساها؟ هل أرغمني لأنه كان هائمًا بأخرى وكنت أنا قارورة في يده يدفع بها إلى الأرض فيشفيه صوت انكسارها؟ هل كان يائسًا من هزيمته وفرَّغ يأسه بداخل بدني؟ ترى أندم يومًا أم كان يراني غنيمته وبضاعته؟ ولِمَ تغير؟ أشفق عليَّ من عذاب لا قِبَلَ لمثلي به؟ ماذا حدث له ولي بعد ظهور الرجل الغليظ؟ وكأن الرجل الغليظ جاء ليجمع أقدارنا للأبد. كلها أسئلة تنخر في عقلي وتؤجِّجها غيرة تولِّد غضبًا يغمر كل الحب، كنت أعشقه وتمنيت أن أذوب بداخله الآن، وأن يساعدني على مصارعة الشك، ولكن بدا لي

أنه لن يفعل.

قال بعد برهة ويده لم تزل تطوِّق كتفي: أشعر بغضبك في أنفاسك وتقهقر جسدك، ماذا بك؟!

لأصدقك القول يا عمتي لم أجرؤ على قول ما بداخلي، وكنت أخافه أحيانًا، وحينها خِفْتُ من كلماته أكثر من أيِّ شيء.

حاولت أن أدفع به في رفق فضمني أكثر وقال: توقفي عن التفكير وعن الابتعاد بعقلك.

قلت: لديَّ الكثير من الأسئلة ولا أعرف إجابتها، في الماضي بعض الجنون والكثير من الحزن.

قال في تأمل: هند، يمكنني أن أطلب منك أن تمحي الماضي ويمكنني أن أحاول أن أغرق ذاكرتك، ولكن الانتصار الحق هو الإبقاء على ذكرى القبح والظلم والخير والحنو، الانتصار هو تقبل الماضي دون الغوص في هزيمته، فالدنيا محاولة قصيرة للوصول، لا أكثر، لو بترنا نصفها ماذا يتبقى لنا. تفهمين؟

أطرقت برهة ثم قلت: لست متأكدة أنك مقتنع بما قلت.

قال في استسلام: معرفة الطريق وعدم السير تجاهه أفضل لدي من ضلال التائه حتى النهاية.

طوقت رقبته وخِفْتُ من فنائي حوله وسيطرته عليَّ.

بعد برهة همست: لماذا تزوجتني؟ لتنساها؟

قال: لا أحب هذه الأسئلة، تعرفين..

كنت أتمنى أن يقول لأنني أحبك ولا أطيق الحياة بعيدًا عنك، لأنك حبي الوحيد، لأن حبك طغى على كل ماض، لأنَّ ولأنَّ..وكنتُ أعرف أنه لن يتكلم، فلم يفعل من قبل.

قلت وأنا أبحث عن شيء يخمد حريق النفس: ألن تتزوجها؟

- لن أتزوجها.

قلت: وأنا بين ذراعيك لا أحتاج إلى شيء آخر، ولكنك لستَ سعيدًا..تُرى هل كنتَ أسعد وأنت معها؟

قال في حسم: انسي أمرَها يا هند، لا تكلميني عنها مرة أخرى.

بقيت صامتة ثم قلت وأنا أبتعد عنه وأنظر إليه: هل نسيت أنت أمرها؟

رمقني بنظرة حادة وكنت أتوقع غضبه ربما فقلت مسرعة: اعذرني، الغيرة مرض لا شفاء منه.

قال في عدم صبر: قلت لك لن أجيب عن أسئلتك، ابحثي عن الإجابة بداخلك، عندما تطرحين الغيرة جانبًا ستتبدى لك الحقيقة، انتهى الكلام اليوم.

قلت وأنا أقترب منه أكثر وغضبه يربك القلب: أعذرني ، سأفعل، سأطرح الغيرة جانبًا. ولكنك لست سعيدًا، أتمنى أن أسعدك، واعرف أني لا أستطيع.

أسند ذقنه على رأسي ثم قال في عبوس: وجودك يجعل الحياة محتملة، ولكن السعادة اختنقت يومَ رأيت آخر سلاطين المماليك يختنق بحبل ضعيف حقير، ويُعلَّق أيامًا أمام العامة، هذا أيضا تعرفينه.

قلت وأنا أمسك بيده: السلطان مات بطلًا شهيدًا، والمعارك كالحياة من يجتهد ليس دومًا من ينتصر، هل سأرى السعادة في عينيك يومًا؟

- لا تطلبي منى ما لا طاقة لي به، هي بضعة أيام نقضيها مع من نحب ثم نتركه وتنتهي.

أرحت رأسي على كتفه ونطقت اسمه، وكانت أول مرة ينطق بكلمة الحب ولم يختصني بها، ولكنني يومها شعرت بها تخترق شكوك القلب وتيه الروح.

كان يبادلني العشق يومها وكأنه يبوح بحبه وإخلاصه لي واحترامه لشراستي في الحروب، وناديته وهمست بكم أحبه، ونمت بين ذراعيه وأنا أتمنى أن تهدأ الأيام ويختفي كل البشر من حولنا. كلمات خوند تتر لم تتركني، وابتسامتها كانت تحفر قلبي، لا أعرف لماذا. قام في منتصف الليل كعادته وبقي جالسًا وكأنه نصف واعٍ ونصف حي، ثم خرج وامتطى فرسه وعاد عند الفجر. كنت أنتظره..عندما عاد خلع ملابسه وجلس على فراشنا وقال: تعتقدين أنَّ المدافع هي ما هزمنا أم ظلم كامن في أفعال الأمراء أم الخيانة؟

قلت في رفق: الحرب انتهت يا سلار منذ خمسة أعوام.

قال وكأنه لا يسمعني: ولكن سليم شاه مات ولن يأتي إلى مصر مرة أخرى، يقولون إنه كان يريد أن يبني مسجدًا مثل مسجد السلطان حسن ولم يستطع، تعرفين هذا؟

قلت وأنا أمرُّ بيدي على وجنته: سلار..الحرب انتهت وسليم مات والمماليك ما زالوا يحكمون مصر.

ردد: المماليك ما زلوا يحكمون مصر..أيُّ خديعة هذه؟! الهزيمة لم تبدأ بعد والعدو القادم أبشع وأكثر طمعًا، ربما جاء من بلاد الصليبيين من يدري؟

كانت عيناي نصف مغمضتين، وكنت قد اعتدت هذا الحديث كل ليلة وكأنه يحاول أن ينهي المعركة لصالحه كل ليل وكل فجر ولا يستطيع.

قلت في حنان: تعال، نم.

- لا نوم يطفئ نار النفس، ولا نوم يريحها.

قلت في ألم: نحتاج إليك وأخاف عليك.

أغمضت عيني ليلتها فالتفت إليَّ ووضع رأسي على الوسادة وهمس: نامي أنت، تتحملينني..أعرف.

ثم قبَّل جبهتي فابتسمت وأيقنت حُبَّه ونمت في سكينة.
* * *

شهادة سلار (11)

لم يكن ممكنًا أن أُعلِّم ابني القتال، ولم أكن أريد هذا؛ كنت أُشفق عليه كلما نظرت إليه ورأيت عينيَّ في مقلتيه؛ فقد جاء في زمن الظلام المصاحب للهزيمة، وكنت أتمنى ألَّا أحتاج إلى أن أتكلم معه وأشرح له أسباب الهزيمة وتداعياتها، كنت أتمنى أن أحكي له عن مجد المماليك وانتصارهم، ولكن القدر أبى هذا.

أمسكت بيده الصغيرة وخرجت معه وحدي لأول مرَّة، وذهبنا معًا إلى مسجد السلطان حسن، تسلقنا المئذنة وفتح عينيه في إعجاب وهو ينظر إلى القاهرة وكان في الرابعة ربما، لا يعرف الكثير ولم يرَ الكثير.

حكيت له عن المعركة وما حدث فيها، استمع إليَّ بوجه عابس، ولم أتأكد أفهم أم لا، سألني لو اشترك الفرسان الثلاثة في المعركة، فقلت إنهم اشتركوا بها فقال في فضول: ومتى اجتازوا الجسر؟

فكرت قليلًا ثم قلت: بعد المعركة.

ثم حكيت له عن الشيخ شهاب الدين وذبحه، فظهرت الدموع في عينيه، فقلت في تأكيد وأنا أربت على يده: لا تقلق عليه هو في مكان أفضل، وأولاده أمانة عندي، يتعلمون الفقه وسيصبحون كالأب وأفضل، وسيقاومون وينتصرون بعد أعوام ربما. مادامت هذه العائلة في مصر فلا تخف عليها، جده الأكبر

عاصر السلاطين العظام أمثال الناصر محمد بن قلاوون، كان يدعى الشيخ عبد الكريم المناطي..

سمعت صوتًا من ورائي، وكان صوت مصطفى باشا، عبس وجهي، وكتمت كُرهًا كامنًا منذ زمن وليس له شاف. قال مصطفى باشا: ابنك هذا؟

قلت في برود: هو كذلك.

- سمعتك تحكي له عن الشيخ شهاب الدين الذي قاوم العثمانيين.

قلت في حسم: وهل في الكلمات هزيمة يا باشا؟ لِمَ الخوف من الكلمات؟

قال مصطفى باشا في تهكم: وكأن المماليك لم يكونوا يخافون من الكلمات!..كنتَ تحكي عن جَدِّه الكبير الشيخ عبد الكريم..أنا أهتم بأمر هذه العائلة، وبحثت وعرفت..تعرف أنت أيضا يا أمير كيف مات وكيف كانت نهايته؟

التقت أعيننا فقلت: لابد من الصدق في الحكي.

فقال مصطفى باشا في تحدٍّ: احْكِ لابنك إذن أن العثمانيين ذبحوا شهاب الدين، وأن المماليك حبسوا العالم الجليل جَدَّه الأكبر عبد الكريم في سجون القلعة حتى مات من الظلام والعفن، قل الحق لتسلم.

اخترقت عيناي عينيه وكأنها مبارزة بالسيوف بين مقلتينا ثم قلت: من سرق المشكاوات من المسجد؟

فردَّ مصطفى حينها: الحرب فوز وغنائم، أنت محارب وتعرف.

- أليس من الظلم سرقة الضوء وترك الظلام ينهش في أركان المسجد؟

- استبدلْها وأْتِ بمثلها لو أردت، اصنع مشكاوات مثلها وضعها مكانها.

- يا باشا وكأنك تطلب مني أن أصنع قدمًا مثل قدمي التي فقدتها وأضعها مكانها.

أطال مصطفى باشا نظره إليَّ ثم قال: وكأنني رأيتك من قبل، أو رأيت عينيك، كنتَ مُلثَّمًا، هيئتك ونظرتك..

قلت في مرارة: هي أرواح المحاربين تتلاقى دومًا.

- هل يمكن أن تكون قد حاولت قتل ملك الملوك؟

قلت: ولِمَ أقتله والموت مصيره في كل الأحوال؟

- تكلَّمْ عنه باحترام؛ فقد كان خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين.

أدرت وجهي ولم أجب.

قال مصطفى باشا بعد برهة: لديَّ ابن في مثل عمر ابنك.

ابتسمت في افتعال .

فقال: أجئت تحكي لابنك عن المسجد؟

- بل جئتُ أحكي له عن المماليك.

قال مصطفى باشا وهو يجلس في صحن المسجد في ثقة: احْكِ..أريد أن أسمعك..

قلت وأنا أجلس: لن تعجبك كلماتي يا باشا..

- سمعت عن جرأتك ..احْكِ ولا تأبه بوجودي..

قلت: تعرف يا بنيَّ من بنى هذا المسجد؟ محمد بن بيليك المحسني، وكان من أولاد الناس، والده الأمير محمد كان من أشجع الفرسان وأقواهم، تزوج من مصرية كوالدتك، وأنجب منها خمسة أبناء، أصغرهم كان محمد مُشيِّد العمائر الذي شيد هذا الصرح، لم يُبْنَ مثله في أيِّ مكان. سميتك محمدًا لتصبح مثل الأب أو الابن.

قال مصطفى باشا حينها: وكيف مات الأمير محمد؟

- أعتقد أنه قُتِلَ.

- قتله المماليك؟

فهمت قصده والتقت أعيننا وقلت في تحدٍّ: قتله أمير مملوكي لأنه كان شجاعًا عادلًا، لا يخاف في الحق لومة لائم، هذا كان عصر الفرسان..كانت مصر عِزَّ الإسلام يأتي إليها الرحالة والعلماء من كل فجٍّ عميق.

لم ألاحظ ساعتها يا أبا البركات التفاف العامة حولنا ولا استماعهم للحكاية..كانت دائرة كبيرة، وكنت أنا في وسطها وأمامي مصطفى باشا، وامتلأت كل الفراغات بالعامة، حتى إنك لو كنتَ تأتي من بعيد لكنتَ سترى أننا بلا ملامح ولا علامات، طمس الضوء الهادئ كل الاختلاف، وانصهرت الدائرة وتلاشت، فلم أعد أرى مصطفى باشا ولم يعد يراني، اختلطت الألوان علينا فلا أحمر يرمز إلى العثمانيين، ولا أصفر يرمز إلى المماليك، ولا أبيض ولا أسود ولا أزرق ولا أخضر. توقفت عن الحكي لعلَّ العامَّة ينفضُّون ويظهر أمامي مصطفى باشا متحدِّيًا منتصرًا..ولكن الجموع ازدادت والألوان طمست طمسًا تامًّا..وأذَّنَ الشيخ لصلاة المغرب، واستوت الصفوف وتوقفت عن الكلام، وبدت القاهرة بعيدة، حزينة، شامخة، بمبانٍ حجرية لم تكتمل بعد، وانتصار كامن في الأعماق لن أراه ولن أشهد عليه، وامتص هواؤها اليوم كل الألوان وكل الوجوه.

* * *

على هامش التاريخ

كتب ابن إياس (أبو البركات) كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» من شهادات مصطفى باشا والأمير سلار وهند ابنته وغيرهم.

استمر وجود المماليك في مصر حتى مذبحة القلعة على يد محمد علي في القرن التاسع عشر، ولكن عصور ازدهار المماليك البحرية والمماليك البرجية ولَّت وانتهت بعد دخول العثمانيين. لم يسيطر العثمانيون على مصرسيطرة كاملة قط، بل استمر أمراء المماليك في محاولات الاستقلال بمصر حتى الحملة الفرنسية، ونجح بعضهم إلى حين.

إلى هذا اليوم يطلق المصريون على يوم موت طومان باي «الجمعة الحزينة»، ولم يزل بعضهم يقرأ الفاتحة على روحه ثلاث مرات كلما مرَّ بباب زويلة.

لم تزل العمائر شاهدة على ما قد كان وما قد جرى، مسجد شيخو العمري لم يزل قائماً وثابتا في حي الخليفة في القاهرة ولم يزل مسجد السلطان حسن يختزن التاريخ ويحكيه كل يوم.

أما جوزفين حفيدة الدكتور صلاح فوجدت في الحكاية الأخيرة غايتها؛ فحكايات الهزيمة تحثُّ على العيش لا الموت، تَمَسُّ القلب وتذكِّر النفس بالنهاية، فالوحدة مستقرة بداخلها، وكل الشخوص هي، وكل البشر جزء من تجربتها ولكنها تجربة

ضئيلة، لا بها فرسان ولا غزو، تجربة متواضعة لرحلة مع الوحدة والهزيمة. تعرف الأمير محمدًا وزينب، وعمرًا وضيفه، وسلار وهند، مازالوا كلهم أصدقاء يؤنسون الوحدة ويبعثون الطمأنينة بأن حكايتها ليست فريدة، وأن قَدَرَها ليس غريبًا، وكانت تعرف أن قصص الحب تساعد على الالتئام، ولو إلى حين، وتعطي الثقة في أن الموت ليس النهاية وأن الحياة ليست الغاية. وأن في عبث الأيام بعض الشفقة والحنو. لم تجد جوزفين سكينة الحب في رحلتها، وتعرف أنها لن تجده؛ فحالات التحام الأرواح وسط تقلبات السنين نادرة، تستحق التفكير والكتابة، أما هزيمة القلب فنعتادها ونتأقلم معها كتأقلمنا مع إراقة الدماء وقت الحروب. للحزن لون قاتم يحجب الشمس لديها، تتخلله لحظات الانسجام التام بين الأحبة فتضيء النفس بمشكاوات لا يمكن سرقتها.

في التاريخ يكمن الأمان، فلا فجيعة تفزع بعد قراءته ولا انتصار يدعو للفخر. حدث وجرى..وحكت هي ما قد جرى..أو حاولت.

تمت بحمد الله

إهـداء

إلى أبي أحمد رفعت، من أجل إضاءة بعض أركان النفس بضوء اليقين والثبات.

وأمي نور الهدى من أجل رؤية الحقائق بوضوح.

وإلى صديقتي نشوى من أجل معرفتها و شعورها الصادق بمكان الضوء في الأركان.

إلى قرائي لأن كلماتهم تبعث السكينة وتعطي الأمل.

للتواصل مع المؤلفة:

البريد الإلكترونى: reembassiouney@hotmail.com

الصفحة الرسمية: https://www.facebook.com/reem.bassiouney

Table of Contents